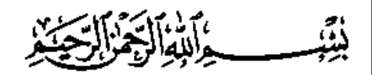

س. ج. واتسون
SJ WATSON
حَياة ثانيَة
SECOND LIFE
رواية
مكتبة ٣٦٠
لكلٍّ منّا أسراره...
لمزيد من كتب زر موقع راك رابح www.rakrabah.blogspot.com
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حَياة ثانية
SECOND LIFE



مكتبة | 360



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

SECOND LIFE

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Transworld Publishers, part of Penguin Random House group of companies

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1535-4



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **سامح خلف**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

حَياة ثانيَة

SECOND LIFE

تأليف

س.ج. واتسون

S J Watson

ترجمة

ربى خدام

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

مكتبة | 360



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

إهداء ..

إلى الطاووس أليستير

وجيني هيل

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور

والفسحة والسرور

اللهم اقبلها في عبادك الصالحين

واجعلها من ورثة جنة النعيم

إن كان الكبت هو الصلة الأساسية بين السلطة والمعرفة والجنس منذ العصور القديمة، فمن المنطقي أننا لن نتمكن من تحرير أنفسنا منه إلا بعد أن ندفع ثمناً باهظاً.

ميشيل فوكو

إن ربي يحميني من تلك الأفكار التي يفكر فيها الرجال بعقولهم فقط.

و.ب. ييتس

القسـم الأول

الفصل الأول

صعدت الدرج، لكن الباب كان موصداً، فتمهّلت قبل فتحه. لقد وصلت إلى هنا الآن، ولكنني لا أريد الدخول، بل أريد أن أعود أدراجي إلى البيت، وأن أحاول مرة أخرى لاحقاً.

لكن هذه هي فرصتي الأخيرة، فقد استمر المعرض لعدة أسابيع، وسيغلق أبوابه غداً. فإما أن أدخل أو سأحرم من ذلك نهائياً.

أغمضت عينيّ، وتنفست بعمق قدر المستطاع. كنت أركز على ملء رئتيّ بالهواء. بعد ذلك، شددت كتفيّ، فشعرت بالتوتر يتبخر من جسدي مع كل زفرة أطلقها. كنت أطمئن نفسي بأنه لا وجود لأي شيء يمكنه أن يقلقني. فأنا آتي إلى هنا بانتظام لألتقي أصدقائي ونتناول الغداء، ولمتابعة أحدث المعارض، ولحضور المحاضرات؛ ولن يختلف الأمر هذه المرة، إذ لا يمكن لشيء أن يؤذيني هنا، فهذه ليست مصيدة في النهاية.

وأخيراً، شعرت بأنني أصبحت مستعدة، فدفعت الباب ودخلت.

بدا المكان كما أنا معتادة عليه تماماً؛ بجدرانه ذات اللون الأبيض الفاتح، وأرضيته الخشبية المصقولة، وتلك المصابيح المنيرة الموجودة في سقفه والمعلقة فوق الممرات. وبالرغم من أن الوقت كان مبكراً، إلا أن بعض الأشخاص كانوا يتجولون هناك. راقبتهم هنيهة وهم يقفون أمام اللوحات؛ أحدهم كان يعود إلى الوراء بضع خطوات كي تتسنى له رؤية لوحة ما بشكل أفضل، بينما قام شخص آخر بهز رأسه حينما همس له رفيقه بتعليق حول اللوحة، في حين تفحّص آخر الورقة المطبوعة التي كانت تُمنَح للزوار في الطابق السفلي. وهكذا، سيطرت على الأجواء حالة من التوقير الواجم، والتفكير الهادئ. لا بد أن يقوم هؤلاء الأشخاص بمعاينة الصور. وسواء أحبوها أم لا، فلا بد لهم من الخروج من هذا المكان والعودة إلى حياتهم. وفي كل الأحوال، لا بد لهم أن ينسوا كل شيء عن هذه الصور.

في بداية الأمر، سمحت لنفسي بأن ألقي نظرة سريعة على الجدران، فوجدت عدداً من الصور الكبيرة معلقة على المساحات الفاصلة، إلى جانب صور أصغر وضعت بينها؛ ففكرت في سري أنه بإمكاني أن أتجول في المكان، وأن أتظاهر بأنني مهتمة بكل الصور، غير أنني أتيت اليوم لمشاهدة صورة واحدة فقط.

استغرق الأمر لحظات قليلة حتى وجدت ضالتي. لقد كانت معلقة فوق جدار قصيٍ، في الجزء الخلفي من المعرض، فكانت بذلك بعيدة عن الوسط. كما كانت موضوعة بالقرب من لوحتين أخريين؛ إحداهما صورة فنية ملونة بالطول الكامل لشابة ترتدي ثوباً ممزقاً، والأخرى تمثل لقطة قريبة لامرأة عيناها مكحلتان وتدخن لفافة تبغ. وقد بدت لي تلك الصورة مؤثرة بالرغم من المسافة التي تفصلني عنها؛ وذلك لأنها ملونة. فرغم أنها التقطت بالضوء الطبيعي إلا أن الألوان الغالبة فيها كانت تدرجات الأزرق والرمادي، ثم تمّ تكبيرها إلى هذا الحجم الذي تشغله. لقد أطلق على هذه اللوحة اسم: «السهر في الخارج». وبالرغم من أنني لم أشاهدها بشكل جيد إلى أن أصبحت على بعد بضع أقدام منها، إلا أنه كان بوسعي إدراك سبب وضع هذه الصورة في هذا الموضع البارز.

لم أرَ تلك الصورة لمدة عقد من الزمان، ولم أشاهدها بشكل جيد، بل كنت ألمحها فقط. أجل، فبالرغم من أنها لم تكن صورة مستهلكة، إلا أنها عُرِضت في مجلتين وفي كتاب أيضاً، غير أنني لم أرَها في كل ذلك، ولم أنظر إليها عن كثب.

اقتربت من إحدى الصور بشكل موارب، وتفحّصت الملصق الموجود عليها أولاً، والذي كتبت عليه العبارة التالية: «جوليا بلومر: ماركوس في المرآة، 1997، مطبوعات سيباكرومي»، لم تكن هناك أي عبارة أخرى، ولا حتى معلومات حول السيرة الذاتية لصاحبتها، ولهذا كنت مسرورة، وسمحت لنفسي بالنظر إليها.

لقد كانت تلك الصورة لرجل بدا في حوالى العشرين من عمره. كان عارياً، وقد تم التقاط الصورة له حيث يظهر القسم الأعلى من جسده حتى خصره، وهو ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة. لقد كانت الصورة الموجودة أمامه ضمن نقطة التركيز، أما هو فلم يكن كذلك. وكان وجهه نحيلاً، وعيناه ضيقتين، أما فمه فكان فاغراً بعض الشيء؛ وكأنه كان على وشك أن يتحدث أو يتنهد. ثمة شيء كئيب في تلك الصورة، إلا أن الشيء الذي لا يمكنك أن تشاهده

فيها هو أن الشاب الموجود فيها_ أي ماركوس_ كان مستغرقاً في الضحك حتى اللحظة التي سبقت التقاط الصورة. كان قد أمضى فترة بعد الظهيرة في السرير برفقة صديقته التي كان مغرماً بها بقدر ما كانت مغرمة به. كان كل منهما يقرأ للآخر مقتطفات من الكتب؛ مثل كتاب آشروود: «وداعاً برلين»، أو ربما «غاتسبي» الذي كانت هي قد قرأته في حين أنه لم يفعل ذلك. وكانت القراءة تتم وهما يتناولان المثلجات داخل حوض الاستحمام. كانا يشعران بالدفء والسعادة والأمان. وكان المذياع يُذيع أغنية دارجة ملأت أركان غرفة نومهما، فوصل الصوت إلى الصالة. أما في الصورة، فقد فغر فمه لأن فتاته_ وهي المرأة التي قامت بالتقاط الصورة له_ كانت تدندن كلمات الأغنية مع اللحن، وكان على وشك أن ينضم إليها في الدندنة.

لقد كانت الصورة مختلفة من الأساس. إذ كانت الفتاة تشغل إطارها؛ فقد انعكست صورتها في المرآة ضمن البقعة الواقعة فوق كتف الرجل بالضبط، وبدت وهي تحمل الكاميرا وتضعها فوق عينها. كانت الفتاة عارية، غير أن صورتها لم تكن واضحة في البؤرة. كانت تلك صورة فنية لكليهما، في الوقت الذي لم تكن فيه الصور المنعكسة في المرايا شائعة كما هي الآن.

لكم أحب أن ألتقط صوراً كهذه! كنت أفضّل هذا النوع من الصور تقريباً، ولكن خلال فترة معينة لم أعد أتذكرها بالضبط، بل أذكر أنها كانت قبل أن أقوم بعرض هذه الصورة للمرة الأولى بالتأكيد، كنت قد غيرت رأيي، فقررت أن الصورة ستبدو أفضل من دون أن أظهر فيها، وهكذا أخرجت نفسي منها.

إلا أنني ندمت على ذلك الآن؛ فقد خدعت نفسي. وكانت تلك هي المرة الأولى التي وظّفت فيها فني للكذب. لذا كنت أريد أن أعتذر من ماركوس عن كل شيء؛ عن اللحاق به إلى برلين، وتركي إياه هناك وحيداً في تلك الصورة، ولأنني لم أكن الإنسانة التي اعتقد أنه عرفها.

وحتى بعد مضي كل ذلك الوقت، ما زلت آسفة.

مضى وقت طويل قبل أن أبتعد عن صورتي. لم أقم بالتقاط صورة فنية كهذه على الإطلاق بعدها، بل أصبحت صوري كلها تشتمل على صور العائلة حالياً، وصور لأصدقاء كونر وهم يجلسون بالقرب من ذويهم وإخوتهم الصغار. لقد كنت أمارس عملي في التصوير بالوقوف قرب باب المدرسة، والتقاط الصور

لأولئك الأشخاص لكي أتمكن من تحصيل مصروف الجيب، ولم يكن في ذلك ما يعيب؛ لأنني كنت أبذل كل جهدي في التقاط تلك الصور، فأصبحت مشهورة كمصورة، وكنت سعيدة بذلك. وأخذ الناس يدعونني إلى الحفلات التي يقيمونها لأولادهم لألتقط صوراً للضيوف ليتم إرسالها لهم عبر البريد الإلكتروني كتذكارات. كما قمت أيضاً بالتقاط الصور في حفل أقيم للأطفال بهدف جمع المال للمشفى الذي يعمل فيه هيو. لقد استمتعت بذلك، إلا أن التقاط تلك الصور كان يعتمد على التقانة، ولم يكن شبيهاً بإعداد صور فنية كهذه الصورة؛ إذ ليست له أي علاقة بالفن. ولكن، لم يكن أمامي ما هو أفضل، لذا كنت أنسى في بعض الأحيان أن أمارس الفن. أتساءل إن كان بوسعي القيام بذلك الآن، وإن كنت لا أزال أتمتع بعين الفنانة ذاتها، وبتلك الموهبة التي تتيح لي اختيار الوقت المناسب لإغلاق العدسة... تلك اللحظة الحاسمة! لقد مضى زمن طويل على المرة الأخيرة التي جربت فيها القيام بذلك.

يعتقد هيو أنه ينبغي لي أن أعود إلى سابق عهدي؛ فقد كبر كونر الآن، وبدأ يعيش حياته الخاصة. ونظراً إلى البداية الصعبة التي بدأها، قررنا_ أنا وزوجي_ أن نقحم نفسينا في حياته ونعتني به؛ إلا أنه لم يكن بحاجة إلينا كما كان في السابق، ولهذا أصبح أمامي متسع أكبر في الوقت الحاضر.

نظرت بسرعة إلى الصور المعلقة على الجدران؛ فربما أستطيع خلال فترة قصيرة التركيز أكثر على مهنتي، والاعتناء بكونر في الوقت ذاته، كل ذلك ممكن.

نزلت الأدراج وتوجّهت إلى المقهى لأقابل أدريان التي رغبت في المجيء معي لمشاهدة المعرض، غير أنني رفضت ذهابها بصحبتي؛ لأنني كنت أريد مشاهدة الصورة بمفردي، ولم يزعجها ذلك، بل قالت لي: «إذاً، سنلتقي في المقهى، وقد نختار وجبة خفيفة لنأكلها معاً».

لقد وصلت مبكرة؛ إذ كانت تجلس إلى طاولة قرب إحدى النوافذ وأمامها كأس من الشراب. وقفت عندما اقتربت منها وتعانقنا، وسرعان ما افتتحت الحديث؛ حتى قبل أن نجلس.

بادرتني بالقول: «كيف كان المعرض؟».

سحبت كرسيي تحت الطاولة وأجبت: «الحق يقال، لقد كان غريباً بعض الشيء».

كانت أدريان قد طلبت لي زجاجة من المياه الغازية، فقمت بملء كأسي منها، وتابعت: «لم أعد أشعر أنها صورة من صوري».

أطرقت أدريان برأسها، فقد كانت تعلم كم كنت قلقة حيال مجيئي إلى هنا. قلت لها: «ثمة بعض الصور الرائعة في الأعلى، هلا ألقيت نظرة عليها في ما بعد».

رفعت أدريان كأسها وقالت: «ربما». كنت أعرف أنها لن تفعل، لكنني لم أشعر بالاستياء منها؛ فقد رأت صورتي سابقاً، ولن أتضايق من أجل بقية الصور. هتفت أدريان: «بصحتك!». واحتسينا الشراب من كأسينا في الوقت نفسه. سألتني أدريان: «ألم تحضري كونر معك؟».

هززت رأسي نافيةً ثم قلت وأنا أضحك: «لقد كان الأمر في غاية الغرابة قطعاً. ثم إنه مشغول على أي حال».

«هل خرج مع رفاقه كالمعتاد؟».

«لا، بل اصطحبه هيو للسباحة. لقد ذهبا إلى إيون مونغر رو».

هنا ابتسمت أدريان، فقد كان كونر بمثابة ابن لها، وهي تعرف زوجي منذ أن تعرفت إليه تقريباً، لكنها قالت متسائلة: «للسباحة؟».

«إنها عادة جديدة، وهي فكرة هيو؛ فقد أدرك أنه سيكون على أبواب الخمسين في السنة القادمة، وخشي من ذلك، لذا يحاول أن يحافظ على لياقته». وهنا توقفت عن الكلام ثم بادرتها بالسؤال: «ألم يصلك أي خبر من كيت؟».

نظرت إلى كأسي؛ إذ لم أكن أريد أن أطرح عليها هذا السؤال، وليس بهذه السرعة، ولكنني فعلت ذلك الآن، ولم أكن متأكدة إن كان النفي أو الإيجاب في جوابها سيسعدني أكثر.

ارتشفت أدريان من شرابها ثم قالت: «لم يصلني أي شيء منها منذ فترة، فهل وصلك أنت منها أي شيء؟».

«نعم، منذ ثلاثة أسابيع».

«ثم...؟».

هززت كتفي وقلت: «كالمعتاد».

«في منتصف الليل؟».

«أجل». ثم تنهدت، وأخذت أفكر في آخر اتصال وردني من أختي. كانت

الساعة هي الثانية من بعد منتصف الليل، وكان الوقت متأخراً عندها أكثر مما هو متأخر عندي؛ نظراً إلى أنها كانت في باريس. بدت لي غافلة عن كل ذلك، فاعتقدت أنها كانت ثملة. كانت تريد أن يعود كونر إليها، ولم تكن تعرف السبب الذي يمنعني من إرساله إليها، وقالت لي إن ذلك ليس عدلاً؛ بالرغم من أنها لم تكن الشخص الوحيد الذي يرى أننا_ أنا وهيو_ كنا في غاية الأنانية، ومن المستحيل أن يعيش المرء بيننا.

قلت: «لقد أعادت على مسمعيّ القصة القديمة ذاتها».

ردت أدريان: «ربما عليك أن تتحدثي إليها. أقصد مرة أخرى، وذلك حينما لا تكون في قمة...»

«غضبها؟». قلت ذلك وابتسمت، ثم تابعت: «إنك تعرفين كما أعرف تماماً مدى احتمال حصول ذلك. وأنا لا أستطيع الوصول إليها على أي حال، فهي لا تجيب على جوالها، وحينما أتصل على رقمها الأرضي تجيبني زميلتها في السكن، ولا تخبرني أي شيء عنها. كلا، أعتقد أنها حسمت أمرها. ثم فجأة وبعد مرور كل هذا الوقت، يصبح كل ما تريده في الدنيا هو أن تعتني بكونر، وهي تعتقد أننا نمنعها من القيام بذلك بدافع أنانيتنا. إنها لم تتوقف ولو للحظة واحدة عن طرح الأسئلة حول ما يشعر به كونر وما قد يرغب فيه؛ مع أنها لم تسأله عن ذلك بكل تأكيد. لذا، أقول لك مجدداً إن كل ذلك متعلق بها».

هنا توقفت عن الكلام، فقد كانت أدريان على علم بما تبقى، ولم أكن أرغب في المتابعة. لقد كانت أدريان تعرف الأسباب التي دفعتني أنا وهيو لأخذ ابن أختي، وتعلم أن كيت بقيت طيلة تلك السنوات سعيدة بذلك الوضع. إلا أننا كلتينا لم نعرف السبب الذي غيّر كل ذلك.

سألتها: «هل ستتحدثين إليها؟».

أخذت أدريان نفساً عميقاً ثم أغمضت عينيها. ولوهلة، اعتقدت أنها ستقول لي إنه علي أن أتدبر الأمر بنفسي؛ إذ لا يمكنني أن أهرول إليها في كل مرة أتشاجر فيها مع أختي؛ وهذا بالضبط ما كان والدي يقوله لي. إلا أنها لم تفعل ذلك، بل اكتفت بالابتسام ثم قالت: «سأحاول».

طلبنا الطعام ثم تناولنا غداءنا، وأخذنا نتحدث عن أصدقائنا المشتركين. حيث سألتني أدريان إن كنت قد التقيت فاطمة مؤخراً، وإن كنت أعرف إن

كانت آلي قد حصلت على عمل أم لا، ثم سألتني إن كنت أعتزم الذهاب إلى الحفلة التي ستقيمها دي خلال عطلة نهاية الأسبوع. بعد ذلك، أخبرتني أن عليها المغادرة لأن لديها اجتماعاً، فقلت لها إنني سألتقيها في السبت المقبل.

لم أستطع مقاومة رغبتي في المرور قرب محل الهدايا عند خروجي. فقد أرادوا أن يستخدموا صورة ماركوس على غلاف إحدى النشرات، غير أنني لم أرد على الرسالة الإلكترونية التي وصلتني بخصوص ذلك، فوجدت بدلاً من صورتي صورة لشاب يلعق مصاصة. كما أنني لم أجب أيضاً على الطلبات التي دعتني إلى إجراء مقابلات، إلا أن ذلك لم يمنع إحدى المجلات_ وهي مجلة تايم آوت حسب ما أعتقد_ من نشر جزء من مقالة عني. لقد قالوا عني إنني كنت «انعزالية»، وإن صورتي كانت من أهم الصور في المعرض؛ حيث وصفوها بأنها «صورة فنية حميمة»، وبأنها تجمع بين «قوة التأثير والهشاشة» في آن معاً... ما هذا الهراء؟!!! أردت أن أرد، لكنني لم أفعل. فإذا أرادوا أن يجعلوا مني امرأة «انعزالية» فلهم ذلك.

ألقيت نظرة أخرى على صورة الشاب الذي يلعق المصاصة. كان يذكرني بفروستي، ولذلك تمكنت من الوصول إلى الكتاب قبل أن أصل إلى البطاقات البريدية المرتبة فوق رف العرض. كنت أبتاع بعضاً منها عادة، إلا أنني لم أشترِ غير واحدة اليوم، وهي بطاقة تحمل عنوان: ماركوس في المرآة. وللحظة، وددت أن أخبر أمين الصندوق بأن الصورة صورتي، وبأنني التقطتها لنفسي، وبأنني بالرغم من مرور السنين كنت أتحاشاها بالفعل، وبأنني سعيدة لأنهم عرضوها في المعرض وبذلك تسنت لي فرصة امتلاكها مرة أخرى.

إلا أنني لم أفعل؛ فلم أقل شيئاً، ولكنني تمتمت بكلمات الشكر، ثم وضعت البطاقة في حقيبتي وغادرت المحل. وبالرغم من برودة شهر شباط إلا أنني مشيت معظم المسافة التي توصلني إلى البيت، وذلك عبر كوفنت غاردن وهولبورن، ومضيت في شارع ثيوبولد باتجاه شارع غريز إن. في البداية، لم أستطع التفكير في شيء سوى ماركوس والوقت الذي أمضيته بصحبته في برلين في تلك السنين الخوالي. ولكن، حينما وصلت إلى شارع روزبيري، سعيت إلى الانتقال من الماضي، وأخذت أفكر عوضاً عن ذلك في ما يجري هنا الآن. أخذت أفكر في شقيقتي، وأتطلع بالرغم من مرارة الوضع الميؤوس منه إلى أن

تتمكن أدريان من توضيح وجهة نظري المحقة لها؛ بالرغم من أنني أعرف أنها لـن تتمكـن مـن القيـام بذلك. كنت أفكـر في أنه ينبغي لي أن أتحدث إلى كيت بنفسي، وأن أكون ثابتة وراسخة على موقفي ولطيفة في آن واحد خلال حديثي معها. سأذكّرها بأنني أحبها، وبأنني أود أن أراها سعيدة، ولكنني سأخبرها أيضاً بأن كونر قد أصبح في الرابعة عشرة من عمره الآن، وبأنني عملت بجد مع هيو لنمنحه حياة مستقرة، لذا من الضروري ألا يعكر عليه صفو حياته أحد. وسأركز على محاولة إقناعها بأنه من الأفضل أن تبقى الأمور على ما هي عليه. وللمرة الأولى، سمحت لنفسي بالتفكير في أنه ربما يتوجب علينا أنا وهيو أن نستشير محامياً في هذا الموضوع.

استدرت عند المنعطف وتوجّهت إلى شارعنا، فوجدت سيارة شرطة متوقفة على بعد بضعة أبواب من باب بيتي، إلا أن باب بيتي الأمامي هو الذي كان مفتوحاً. عندها، بدأت بالجري، ولم أتوقف إلى أن بلغت منزلي ووصلت إلـى المطبـخ، ورأيـت هيو يقـف قبالتي ويتحدث إلى امرأة ترتدي بزة رسـمية. سـحبت منشـفة كونر وسـروال السـباحة الخاص به عن جهاز التدفئة حيث تم وضعهمـا ليجفـا، وعندهـا التفت كل من هيو والشـرطية لينظـرا إلي. بدت على الشرطية أمارات الحيادية التامة المدروسة، وكنت أعرف تلك النظرة التي تبدو على وجه هيو حينما ينقل أخباراً سـيئة. عندها، سـمعت نفسـي أصرخ وكأنني كنـت فـي كابـوس. هتفـت: «أين كونـر؟ أين ابننا يا هيو؟». غيـر أنه لم يجبني_ لقد كان الشخص الوحيد الذي رأيته في الغرفة_ واتسعت عيناه، ولهذا أدركت أن شـيئاً مريعاً قد حدث... شـيئاً لا يسـتطيع الكلام وصفه. أخبرني... رغبت في أن أصرخ بهذه الكلمة، لكنني لم أفعل. لم أستطع التحرك من مكاني، ولم تقوَ شفتاي على النطق بأي كلمة، ولم أستطع التنفس، فأخذت أراقب خطوات هيو وهو يتجه نحوي، وحاولت أن أبعده عني حينما أمسـك بذراعي. وعندها، وجدت صوتي فهتفت: «أخبرني!». وكررت هذه الكلمة مرات ومرات، غير أنه لم يفتح فمه بالكلام إلا بعد هنيهة.

وأخيراً، هتف زوجي قائلاً: «إنه ليس كونر». إلا أنه لم يكن هنالك متسع مـن الوقـت كـي يغمرنـي الارتياح ويهدأ غليان دمي، إذ سـرعان ما نطق زوجي بعبارته التالية: «للأسف يا حبيبتي، إنها كيت».

الفصل الثاني

كنت أجلس إلى طاولة المطبخ، لكنني لم أعرف كيف وصلت إلى هناك. كنا بمفردنا، فقد غادرت الشرطية بعد أن أنهت عملها. كان المكان بارداً، وكان هيو يمسك بيدي.

سألته: «متى؟».

أجاب: «في الليلة الماضية».

كان أمامي فنجان من الشاي المحلّى، وكنت أراقب البخار المتصاعد منه، إلا أن كل ذلك لم يكن يعنيني بشيء، ولم يكن بإمكاني التفكير في سبب تواجد ذلك الفنجان في ذلك المكان؛ لأن كل ما كان يمكنني التفكير فيه هو أختي الصغيرة، مرميّة في أحد الأزقة الباريسية، مبللة بماء المطر... ووحيدة.

سألت: «ليلة البارحة؟».

أجابني: «هذا ما قيل لي».

كان يتكلم بلطف، فقد كان يعرف بأنني لن أتذكر من كلامه سوى النزر اليسير.

سألته: «وما الذي كانت تفعله هناك؟».

أجاب: «لا يعرفون. هل كانت تسلك طريقاً مختصراً؟».

كررت: «طريقاً مختصراً؟!».

حاولت أن أتخيل ذلك: كيت في طريقها إلى البيت، وربما كانت ثملة، وتريد أن تختصر بضع دقائق من رحلة العودة.

سألت: «ما الذي حدث؟».

أجابني: «إنهم يعتقدون أنها كانت قد غادرت أحد المقاهي للتو، ومن ثم تمّت مهاجمتها».

تذكرت أن الشرطية ذكرت كلمة سطو؛ بالرغم من أنه لم يتم التأكد بعد من فقدان أي شيء. كانت قد أشاحت بنظرها بعيداً عني، ومن ثم قامت بخفض

بصرها وصوتها معاً، والتفتت إلى هيو. وبالرغم من ذلك، سمعتها تقول: «يبدو أنها لم تتعرض للاغتصاب».

ثمة شيء ينهار في داخلي كلما فكرت في ذلك، لذا انكفأت على ذاتي، وأصبحت بالغة الصغر... لقد تقلصت وانكمشت.. أصبحت في الحادية عشرة من عمري، أما كيت فكانت في الرابعة، وكان علي أن أخبرها بأن أمي لن تعود من المشفى هذه المرة. كان والدي يعتقد أنني كبيرة بما يكفي لكي أتحدث إليها؛ لأنه لم يكن قادراً على مواجهة الأمر. لذا، كان علي أن أقوم بذلك. كانت كيت تبكي، بالرغم من أنني لم أكن متأكدة من أنها استوعبت ما قلته لها، لذا حملتها، وأخذت أقول لها: «سنكون أنا وأنت على ما يرام». بالرغم من أن جزءاً مني كان يعرف ما سيحدث مسبقاً؛ فوالدي لن يتجاوز الأمر، كما أن أصدقاءه لن يعينوه على ذلك. لقد أصبحنا بمفردنا، لكن لم يكن بمقدوري أن أصرّح لها بذلك، كان يجب علي أن أكون قوية من أجل كيت، لذا قلت لها: «أعدك بأن أعتني بك على الدوام».

لكنني لم أفعل؟ أم تراني فعلت؟ لقد هربت إلى برلين، وأخذت ابنها معي، وتركتها لتموت.

«ما الذي حدث؟». سألته مرة أخرى.

كان هيو صبوراً فقال لي: «لا نعلم يا حبيبتي، لكنهم يبذلون كل ما بوسعهم لاكتشاف الأمر».

في بادئ الأمر، اعتقدت أنه من الأفضل لكونر أن يبقى بعيداً عن جنازة كيت؛ فقد كان صغيراً جداً، ولن يتجاوز الأمر، غير أن هيو لم يوافق على فكرتي، وأخذ يذكرني كيف منعنا والدي_ أنا وكيت_ من حضور جنازة أمنا، وكيف كرهته بسبب ذلك طيلة حياتي.

وكان عليّ أن أعترف بأنه كان محقاً، إلا أن طبيبة كونر هي التي اتخذت القرر في ذلك الأمر، حيث قالت: «ليس بمقدوره أن يشعر بالحماية». ثم ترددت حين قالت: «عليه أن يتعامل مع حزنه». كنا نجلس في مكتبها_ أنا وهو_ وكانت يداها مطويتين قبالتها على المكتب، وكنت أنظر إلى الآثار الظاهرة على يديها، والتي كانت عبارة عن سحجات صغيرة، فتساءلت في سري إن كانت تعتني بحديقتها، حيث تخيلتها وهي تنحني بالقرب من مساكب الأزهار وفي يدها

مقص التقليم، وتوجّه عنايتها إلى الورود التي انحنت رؤوسها وشارفت على الموت. كان بوسع هذه الطبيبة أن تعود إلى هذا النمط من الحياة حينما تفرغ مما تقوم به الآن، أما نحن فلا يمكننا ذلك.

«جوليا؟».

رفعت بصري، فاكتشفت أن هنالك شيئاً قد فاتني.

«هل يرغب هو في الذهاب؟».

حينما عدنا إلى البيت طرحنا عليه هذا السؤال، ففكر فيه لبرهة من الزمن، ثم قال إنه يرغب في ذلك، أجل.

اشترينا له بزة رسمية وربطة عنق سوداء وقميصاً جديداً، فبدا أكبر من عمره بكثير عند ارتدائه تلك الثياب. ثم سار بيني وبين هيو بينما كنا نمضي نحو محرقة الجثث، لذا سألته حالما جلسنا: «هل أنت بخير؟».

أطرق برأسه، لكنه لم ينبس ببنت شفة. بدا المكان غارقاً بالألم، إلا أن معظم الناس التزموا الصمت. كانت الصدمة قد ذهبت بعقولهم؛ فقد كانت وفاة كيت عنيفة وغريبة وغامضة، لذا انكفأ الناس على ذواتهم، كنوع من أنواع الحماية.

وبالرغم من كل ذلك لم أذرف أي دمعة، وكذلك كونر ووالده. كان هيو هو الوحيد بيننا الذي ألقى نظرة على النعش، أما أنا فوضعت ذراعي خلف ابننا وقلت: «كل شيء على ما يرام».

تابع الناس اصطفافهم خلفنا واتخذوا مجالسهم، وسمعنا أصوات جرجرة الأرجل، ثم خفتت الأصوات، فأغمضت عينيّ، وبدأت أفكر في كيت، وفي طفولتنا. لقد كانت الأمور بسيطة حينها؛ بالرغم من أن ذلك لا يعني أنها كانت سهلة. فبعد وفاة والدتنا، بدأ أبي يُكثر من الشرب، كما بدأ أصدقاؤه الذين كان معظمهم من الفنانين والرسامين والعاملين في المسرح بقضاء وقت أطول بصحبتنا، لدرجة أننا أصبحنا نرى بيتنا وهو يتحول إلى مكان تقام فيه حفلات دورية متبادلة لا تتوقف أبداً. فكل بضعة أيام، كان من الممكن أن يصل إلى بيتنا أشخاص بمجرد أن يغادره آخرون. وقد يُحضر هؤلاء معهم زجاجات الشراب والسجائر، وقد يستمعون إلى المزيد من الموسيقى، وأحياناً يتعاطون المخدرات. أما الآن فأصبحت أرى أن كل ذلك كان بسبب الحزن الذي كان والدي يشعر

به، غير أنني في ذلك الحين كنت أشعر بأن ذلك كان أشبه باحتفال بالحرية... كحفلة سمر صاخبة استمرت لمدة عقد من الزمان. كنا_ أنا وكيت_ كذكريات غير محببة في ماضي أبي. وبالرغم من أنه كان يحتفظ بالمخدرات بعيداً عنا ويخبرنا أنه يحبنا إلا أنه لم يكن يحنو علينا، كما أنه لم يكن قادراً على لعب دور الوالد، وبذلك أصبح من واجبي أن أعتني بنفسي وبأختي؛ فكنت أحضّر وجباتنا، وأضع كمية بسيطة من المعجون على فرشاة أسنان كيت ثم أتركها لها قبل موعد نومها، وكنت أقرأ لها حين تستيقظ وهي تبكي، وأتأكد من أنها تكتب وظائفها، ومن أنها على استعداد للذهاب إلى المدرسة كل يوم. وأتذكر أنني حملتها مرة وأخبرتها أن أبي يحبنا، وأن كل شيء سيكون على ما يرام. اكتشفت أنني كنت مولعة بأختي، وبالرغم من السنوات التي تفصل بيننا، إلا أننا أصبحنا قريبتين جداً من بعضنا؛ أكثر من التوأم، وكانت الصلة التي تربط بيننا روحية على الأغلب.

ومع ذلك، لقد آل بها الأمر في هذا المكان؛ في ذلك الصندوق. وأنا هنا، أمامه، غير قادرة حتى على البكاء. يبدو الأمر غير معقول، إلا أنني خذلتها من إحدى النواحي.

شعرت بنقرة على كتفي، وحين التفت رأيت امرأة غريبة بادرتني بالقول: «كل ما أردته هو أن أسلم عليك». ثم عرفتني باسمها الذي كان آنا، فاحتجت إلى هنيهة كي أتعرف عليها. لقد كانت زميلة كيت في السكن، وكنا قد طلبنا منها أن تلقي كلمة في حفل تأبينها. بادرتني بالقول: «رغبت في أن أعبر لك عن مقدار الأسى الذي أشعر به».

لقد كانت تبكي، إلا أن هنالك رزانة في بكائها، بل مرونة. أجبتها: «أشكرك». وبعد مرور هنيهة، قامت بفتح حقيبتها التي كانت تضعها على حضنها، ثم سلمتني ورقة وقالت: «إنها القصيدة التي اخترتها... هل تعتقدين أنها مناسبة؟».

قرأت القصيدة على عجل؛ رغم أنه سبقت لي قراءتها، وقد أتى مطلعها على النحو التالي: «لمن هو ساخط، أقول إنني قد خدعت. أما لمن هو سعيد، فأقول إنني بسلام». اعتقدت أن اختيارها لهذه القصيدة كان غريباً؛ حيث لا بد للغضب أن يكون ردة الفعل الوحيدة الممكنة، إلا أنني التزمت الصمت، وأعدت إليها الورقة قائلة: «إنها رائعة، أشكرك».

ردت: «اعتقدت أنها من القصائد التي كان من الممكن أن تعجب كيت». فأخبرتها بأنني متأكدة من أنها على حق. كانت يداها ترتجفان، وبالرغم من أن فترة إلقاء القصيدة لا يفترض بها أن تكون طويلة، إلا أنني تساءلت عن كيفية تدبرها أمرها أثناء قراءتها تلك القصيدة.

غير أنها تمكنت من القيام بذلك في نهاية الأمر. فبالرغم من ارتباكها، إلا أنها استجمعت جزءاً من قوتها الداخلية التي احتفظت بها لتلك المواقف، فبدت كلماتها واضحة وقوية. كان كونر يراقبها، وقد رأيته وهو يمسح دمعة بظاهر كفه، وكان هيو يبكي أيضاً، فأخذت أقنع نفسي بأنني تماسكت من أجلهما، وأنه علي أن أحتفظ برباطة جأشي، وألا أدعهما يريانني وأنا أنهار. ومع ذلك، لم أمنع نفسي من التفكير في ما إذا كنت أخدع نفسي أم لا. والحقيقة هي أنه لم يكن بوسعي أن أشعر بأي ألم على الإطلاق.

وبعد أن انتهى حفل التأبين، توجّهتُ إلى آنا وقلت لها: «لقد كانت قصيدة رائعة». كنا نقف خارج دار العبادة، وكان كونر يبدو مرتاحاً بشكل ملحوظ لأن المراسم قد انتهت.

ابتسمت آنا. أما أنا فأخذت أفكر في المكالمات الهاتفية التي تلقتها كيت خلال الأسابيع الأخيرة، وتساءلت عما تفكر فيه آنا حيالي، وما أخبرتها به شقيقتي عني.

وهنا ردت آنا: «أشكرك».

«هذا زوجي هيو، وتلك أدريان أعز صديقة لدي».

التفتت آنا نحو ولدي وقالت: «وأنت لا بد أن تكون كونر، أليس كذلك؟». فهز رأسه إيجاباً، ثم مد يده ليصافحها... للحظة، فوجئت مجدداً حين لاحظت مدى تصرّف هذا الفتى كرجل راشد.

قال لها: «سررت بلقائك». كان يبدو عليه أنه تائه تماماً، وغير واثق من الطريقة التي يُفترض به أن يتصرف بموجبها. فجأة، بدا لي أن الفتى الذي لم تكن الهموم تشغل تفكيره منذ بضعة أسابيع، والطفل الذي كان يتسابق مع ثلاثة أو أربعة من أصدقائه الذين يجرون خلفه للوصول إلى البيت بهدف إحضار كرة القدم أو الدراجة الخاصة به قد اختفى تماماً. أجل، لقد اختفى الفتى الذي كان يقضي ساعات برفقة دفتر الرسم الخاص به وبعض أقلامه. قلت لنفسي إن

هذه الحال مؤقتة، وإن طفلي الصغير لا بد أن يعود إلى سابق عهده، إلا أنني تساءلت إن كان ذلك حقاً ما ستؤول إليه الأمور.

تابعنا الحديث لفترة من الزمن، غير أن هيو شعر بعمق الألم الذي يحس به كونر، فقال إن الوقت قد حان للتوجه نحو السيارات. وهنا، أعربت أدريان عن رغبتها في الذهاب معهما، فالتفت هيو نحو آنا وقال لها: «شكراً لك على كل شيء». وصافحها مجدداً قبل أن يضع ذراعه حول كتفَي كونر وهو يقول: «تعال يا حبيبي». ثم استدار الثلاثة ومضوا في سبيلهم.

وحالما ابتعدوا عن مرمى السمع صرّحت آنا: «يبدو شاباً لطيفاً». وهنا عصفت الريح التي لا بد أن يعقبها مطر بعد قليل، فأخذت آنا تبعد شعرها عن فمها.

أجبتها: «إنه كذلك».

سألتني: «وكيف يتغلب على ما يواجهه؟».

رددت: «لا أعتقد أن الحزن قد استقر داخله بعد». ثم استدرنا وسرنا نحو الأزهار التي تم تنسيقها في الساحة خارج دار العبادة.

قالت: «لا بد أن الأمر صعب بالنسبة إليه».

تساءلت عن كمّ المعلومات التي تعرفها هذه المرأة عن كونر؛ فقد كانت من بين صديقات أختي منذ زمن. إذ أخبرتني كيت بأنها كانت تعرفها منذ أيام الدراسة في المدرسة؛ بالرغم من أن معرفتها بها كانت سطحية وعبر أشخاص آخرين. وقبل بضع سنوات، تمكنتا من إعادة التواصل بينهما عن طريق موقع فيسبوك، وسرعان ما عرفتا أن كلتيهما قد انتقلتا للعيش في باريس، فأخذتا تلتقيان وتتناولان الشراب معاً. وبعد مرور بضعة أشهر، انتقلت زميلة آنا في السكن من الشقة، فانتقلت كيت للإقامة معها. وقد سررتُ بذلك، لأنه كان من الصعب بالنسبة إلى أختي أن تحافظ على صداقاتها دائماً. ولا بد أنهما قد تكلمتا كثيراً، غير أنه من الممكن أن كيت كانت كتومة معها. وأعتقد أن موضوع كونر_ الذي يؤلمها_ كان من بين الأمور التي قد يصعب عليها التحدث بشأنها.

قلت لها: «أعتقد أنه بخير».

في تلك الأثناء، كنا قد وصلنا إلى الجدار الجنوبي الغربي للمحرقة، حيث اصطفت أكاليل الزهور والأقحوان الأبيض والورود ذات اللون الزهري، مع

باقات من الزنبق التي ثبتت فوقها بطاقات مكتوبة بخط اليد، فانحنيت لأقرأ ما كتب عليها، مع أنني لم أكن أستوعب سبب ظهور اسم كيت على كل البطاقات. في تلك اللحظة بالذات، اخترقت أشعة الشمس السحب، فأنارت بضيائها وجوهنا للحظات قصيرة.

هتفت آنا: «أنا متأكدة من أنه شخص يصعب التعامل معه». وهنا وقفت.

إن كونر فتى لطيف، ولم يسبب أي مشكلة على الإطلاق، وقد قررنا أن نخبره بالحقيقة حول وضعه عندما يكبر ويصبح قادراً على استيعاب ذلك.

أجبتها: «إنه رائع... حتى الآن...».

«وهل ينسجم بشكل جيد مع أبيه؟».

أجبت: «جداً». لكنني لم أخبرها بوضع حالة الانسجام بيني وبينه التي تقلقني. فقد حاولت أن أكون أماً مثالية قدر المستطاع، ومع ذلك فالأمر لم يكن بتلك السهولة في بعض الأحيان. وبالطبع، لا يمكن لوضعي أن يشبه حالة الأبوة التي هبطت على هيو.

تذكرت أنني تحدثت بهذا الشأن إلى أدريان. وقتها كان هيو مشغولاً في عمله، وكنت قد ذهبت برفقة كونر لقضاء العطلة معها ومع ولديها التوأم. لقد كانت حينها مذهلة طيلة اليوم مع الأطفال الثلاثة جميعاً. كان ولداها أصغر سناً من كونر بكثير، وقد حدث أن ثارت ثائرة الأطفال؛ فقد كان كونر يبكي حيال كل شيء، ويرفض أن يأكل، ولم أكن قادرة على التغلب على تلك المشكلة فاستأت من ذلك. أتذكر أنني قلت لأدريان حينها: «إن مصدر قلقي هو أن الطفل ليس ابني». وذلك حينما أوى الأطفال إلى الأسرّة واستسلموا للنوم. كانت أدريان جالسة وفي يدها كوب من الشراب، أما أنا فكنت أشرب المياه الغازية. وقتها قالت لي: «أتعلمين ماذا؟». ثم شرحت لي كيف أنني أقسو على نفسي، وقالت: «إنه ابنك، وأنت أمه، وأنتما رائعان معاً. وعليك أن تتذكري أن كل شخص يختلف عن الآخر، وأن والدتك لم تكن موجودة لتكون لديك قدوة تقتدين بها. في الحقيقة، الأمر شاق على الجميع».

رددت: «ربما». عندها، لم أكن قادرة على منع نفسي من التفكير في ما يمكن لكيت أن تقوله.

«هذا جميل». هتفت آنا، فابتسمت وقلت لها: «أجل، لقد كان حظنا كبيراً

لأننا رزقنا بابن ككونر».

أخذنا نمعن النظر في الأزهار، ثم تبادلنا حديثاً قصيراً، تجنّبنا فيه أي ذكر لموضوع كيت. وبعد مرور بضع دقائق، عدنا من حيث أتينا، واتجهنا نحو مرأب السيارات. كانت أدريان تلوّح لي، فأخبرت آنا بأنه يتوجّب علي أن أذهب إليها.

ثم قلت لها: «لقد سعدت بلقائك».

فالتفتت نحوي، وأمسكت بيديها يدي، وعندها عاد حزنها للظهور مجدداً. إذ بدأت تبكي وتقول لي بكل بساطة: «لقد اشتقت إليها».

أمسكت بيديها، فقد كنت أود أن أبكي أنا أيضاً، لكنني لم أفعل؛ بل سيطرت عليّ حالة من انعدام الإحساس بالكامل. إنها حالة دفاعية، هذا ما قاله لي هيو؛ فقد كنت أسد على الحزن كل المنافذ. وقد وافقتني أدريان في ذلك حين قالت: «ليست هنالك طريقة مناسبة لإظهار الحزن على كيت». غير أنني لم أخبر أحداً من أصدقائي وصديقاتي الآخرين عن حقيقة مشاعري، خشية أن يظنوا أنني لا أكترث للجريمة التي أدت إلى وفاة شقيقتي. وقد جعلني ذلك في حالة نفسية سيئة.

قلت لها: «أعرف، فأنا مشتاقة إليها أيضاً».

رفعت بصرها نحوي، وأرادت أن تقول شيئاً، غير أنها تلعثمت وهي تقول: «هل يمكننا أن نبقى على تواصل؟ أعني، إنني أرغب في ذلك إن رغبت أنت. يمكنك أن تأتي لزيارتي في باريس، كما يمكنني أن آتي لرؤيتك. أقصد، في حال كنت ترغبين في ذلك. أعتقد أنك مشغولة جداً...».

أجبتها: «آنا... أرجوك». ووضعت يدي فوق ذراعها لأوقفها عن الكلام، ثم أخذت أفكر: بمَ قد أكون مشغولة؟! لديّ بضعة أعمال في مفكرتي: إذ ثمة زوجان يرغبان في أن ألتقط صوراً لهما مع طفلهما الذي يبلغ من العمر شهرين، كما أن والدة أحد أصدقاء كونر تريد أن ألتقط صورة للعائلة مع كلبهم من نوع لبرادو، إلا أنني ألغيت كل ذلك. ففي هذا الوقت، لم أعد أقوم بأي شيء سوى البقاء على قيد الحياة، والتفكير في كيت، والتساؤل حول ما إذا كان الأمر مجرد مصادفة؛ إذ إن اليوم الذي خرجت فيه لأرى صورة ماركوس كان أيضاً اليوم الذي بُلِّغت فيه بأمر الحادث الذي تعرضت له كيت.

أخيراً، تمكّنت من تصنّع ابتسامة؛ إذ لم أكن أرغب في أن أبدو غير مهذبة،

وقلت لها: «إنني أرغب في ذلك، وبشدة».

الفصل الثالث

كان هيو يتناول فطوره الذي كان عبارة عن خليط من الحبوب والفاكهة. وكنت أراقبه وهو يضيف الحليب إلى قهوته، ويضع نصف ملعقة من السكر.

«هل أنت متأكدة من أن الوقت مناسب لذلك؟».

كان ذلك بالضبط هو السبب الذي دفعني إلى الذهاب. هذا ما دار بخلدي، فقد مر شهران على الحادثة، وأنا ما زلت في مرحلة النكران كما يقول زوجي، لذا كنت بحاجة إلى تحويل الأمر إلى واقع.

أجبته: «أريد أن أذهب إلى هناك وألتقي آنا، وأن أتحدث إليها».

وحالما نطقت بتلك الجملة أدركت كم كان الأمر يعني بالنسبة إلي. فقد بدأنا أنا وآنا ننسجم مع بعضنا، وبدت لي ودودة وصاحبة نكتة، كما أنها متفهمة، ولم تكن تصدر أحكاماً مسبقة على أحد. أضف إلى ذلك أنها كانت الأكثر قرباً من كيت؛ أكثر من أي شخص آخر. حتى إنها كانت أقرب إليها مني، ومن هيو ومن أدريان كذلك. لذا، آنا هي الأكثر قدرة على مساعدتي؛ بالطريقة التي قد يعجز باقي أصدقائي عن مساعدتي من خلالها. وربما كان بإمكاني أن أساعدها أنا أيضاً.

عقبت: «أعتقد أن ذلك سيفيدني».

رد زوجي: «ولكن، ما الذي تطمحين إلى تحقيقه؟».

وهنا التزمت الصمت هنيهة. لعلي في سرّي أرغب في التأكد من أنها لا تحتفظ بصورة سيئة عني وعن هيو بسبب قيامنا بأخذ كونر. ثم أجبته: «لست أدري. كل ما هنالك أنني أرغب في القيام بذلك».

لم ينبس بكلمة، فقد مضت تسعة أسابيع حسبما أعتقد. أجل، تسعة أسابيع لم أتمكن خلالها من ذرف دمعة! ومن غير المحتمل أن أذرف الدمع بعد مضيّ كل ذلك الوقت. فكرت مجدداً في البطاقة البريدية التي ما زالت في حقيبتي منذ

أن وضعتها هناك يوم توفيت كيت.

ماركوس في المرآة

قلت: «لقد ماتت كيت، وعلي أن أواجه الأمر». مهما كلفني الأمر.

أنهى زوجي قهوته وقال: «لم أقتنع بكلامك، لكن...» وهنا أصبح صوته أنعم: «إن كنت واثقة من ذلك، فعليك أن تذهبي».

كنت متوترة حينما خطوت خارج القطار، غير أن آنا كانت بانتظاري عند نهاية الرصيف. كانت ترتدي ثوباً أصفر فاتح اللون، وتقف تحت ضوء الشمس الذي بدأ يتخذ شكل أقواس بسبب النوافذ العالية. كانت تبدو أصغر مما كانت عليه صورتها في ذاكرتي، وقد كان جمالها هادئاً وبسيطاً؛ بالرغم من أنني لم ألاحظه يوم الجنازة. لقد كان لديها الوجه الذي لطالما رغبت في تصويره؛ فقد كان ودوداً ومنفرج الأسارير. ابتسمت حين رأتني، فخطر ببالي أنه من الممكن أن تكون قد أنهت لتوها فترة حزنها، في الوقت الذي بدأت فيه فترة الحزن عندي بالوصول إلى مرحلة النضج.

لوّحت لي عندما اقتربت منها وهتفت: «جوليا!». ثم ركضت نحوي لتحييني. تبادلنا القبل على الوجنتين، وتعانقنا لثوانٍ معدودة. ثم قالت لي: «أشكرك جزيل الشكر على حضورك! أنا سعيدة برؤيتك».

أجبتها: «وأنا أيضاً».

قالت لي: «لا بد أنك منهكة. هيا لنشرب شيئاً ما».

ذهبنا إلى مقهى ليس بعيداً عن المحطة، وطلبت لنا القهوة ثم هتفت: «هل لديك أي أخبار؟».

تنهدت، إذ ماذا عساي أقول؟! إنها تعرف معظم الأخبار؛ فالشرطة لم تحقق ذلك التقدم الكبير في القضية. فقد أخبرونا أن كيت كانت تحتسي الشراب في أحد المقاهي في الليلة التي تعرضت فيها للهجوم، وأنها كانت بمفردها حسبما يبدو. وقد تذكر عدد محدود من الأشخاص أنهم رأوها في تلك الليلة، ويبدو أنها كانت في مزاج حسن يومها، فقد أخذت تثرثر مع النادل في ذلك المقهى. إلا أن سجل المكالمات في هاتفها لم يفد القضية بشيء، وقد تبيّن أنها كانت

بمفردها حتماً حينما غادرت المقهى. بدا الأمر غير منطقي بالنسبة إليّ، إلا أنني لم أستطع التخلص من ذلك الإحساس الذي جعلني أشعر بأنني كنت المسؤولة عما حدث.

أجبتها: «في الحقيقة، ليست هنالك أي أخبار».

«أعتذر... كيف حالك؟».

«أواصل التفكير فيها... في كيت... يبدو الأمر أحياناً وكأن شيئاً لم يكن، وأفكر في أنه بمقدوري أن أمسك بهاتفي وأتصل بها، وسيكون كل شيء على ما يرام».

«ما زلت في مرحلة النكران، وهذا أمر طبيعي. وبكل الأحوال، لم يمضِ وقتَ طويل على الحادثة».

تنهدت، إذ لم أكن أرغب في إخبارها بأن شبح كيت يلاحقني، وبأنني كنت أتصل برقم هاتفها مراراً وتكراراً، لأسمع في النهاية صوتاً قد تم تسجيله مسبقاً لشخص يتحدث بالفرنسية ويبلغني بأن رقمها لم يتم التعرف إليه. ولم أكن أريد أن أخبرها أيضاً بأنني اشتريت لكيت بطاقة، وأنني كتبت لها رسالة وختمت مغلفها ثم أخفيتها في المكتب تحت كومة من الوثائق والأوراق. لم أكن أريد أن أعترف لها بأن أسوأ شيء وأصعبه هو ذلك الإحساس الموجود داخلي والذي أكرهه ولكنني لا أستطيع إنكاره؛ ألا وهو أن خبر موتها قد أسعدني لأنها لن تكون قادرة بعد الآن على الاتصال بي في منتصف الليل لتطلب مني أن أعيد إليها ابنها.

قلت: «مرّ شهران فقط، ويرى هيو أن هذا الوقت ليس سوى فترة بسيطة».

ابتسمت بحزن، ولكنها لم تنبس بكلمة، ممّا جعلني أشعر بالارتياح؛ إذ لا يمكن لأي شخص أن يتفوه بشيء يمكنه أن يساعدني. فكل شيء كان بعيد الصلة عن الموضوع. وأحياناً، يكون الصمت أبلغ، لذا أحببت إقدامها على التزام الصمت.

سألتها: «وماذا عنك؟».

ردت: «حسناً، أنت تعرفين أنني مشغولة بعملي، وهذا يساعدني». تذكرت أنها محامية تعمل لصالح شركة أدوية كبيرة؛ بالرغم من أنها لم تخبرني باسم الشركة. انتظرت منها أن تخبرني بالمزيد، ولكنها لم تفعل ذلك.

بادرتني بالسؤال: «كيف حال كونر؟». وقد بدا عليها بالغ الاهتمام، لذا لم أستطع أن أصدق الفكرة التي خطرت ببالي حولها، وهي أنها كانت في الماضي تحاول مساعدة شقيقتي على استعادة ابنها.

أجبتها: «أعتقد أنه بخير».

وصل النادل محضراً ما طلبناه؛ فنجانين من الإسبريسو وكيسين صغيرين من السكر وضعا على صحن كل فنجان، مع قطعة واحدة من الشوكولاته المغلفة.

قلت: «في الحقيقة، لست متأكدة من أنه بخير. فلنقل إنه على ما يرام؛ إذ يبدو لي غاضباً طيلة الوقت، وهو يقوم بصفع الأبواب بعنف دونما سبب. أعرف أنه يبكي كثيراً، فقد سمعته، ولكنه ينكر ذلك».

لم تصدر عنها أي ردة فعل. ورغبت في إخبارها عن قلقي من احتمال فقداني ابني. فلطالما حافظنا أنا وهو على حالة من التقارب في ما بيننا لسنوات طويلة؛ إذ كنا مثل صديقين أكثر من كوننا مجرد أم وابنها. ولقد شجعته على ممارسة الفن الذي يحبه؛ فكنت أصطحبه إلى خارج البيت ليقوم بالرسم، وكان دوماً يأتي إلي حينما يعتريه أي اضطراب، ويفعل الشيء ذاته مع هيو. كان يخبرني بكل شيء على الدوام، إذاً لماذا يشعر الآن أن عليه أن يعاني بمفرده؟

قلت لها: «إنه يسألنا دوماً عما إذا تمكنت الشرطة من إلقاء القبض على أحدهم».

أجابت: «هذا أمر طبيعي؛ فهو لا يزال صغيراً، وقد فقد خالته».

عندها ترددت، فهل كانت آنا على علم بالحقيقة بالفعل؟

قلت: «أنت تعرفين أن كيت كانت والدة كونر، أليس كذلك؟».

هزت رأسها إيجاباً.

«بم أخبرتك بخصوص هذا الموضوع؟».

«أخبرتني بكل شيء حسبما أعتقد. وأعرف أنك أخذته حينما كان رضيعاً».

شعرت بغصة في حلقي، لقد كانت تلك ردة فعل دفاعية تجاه كلمة «أخذت». شعرت بالتشنج المألوف ذاته الذي كان ينتابني في حالة الهياج. إنها القصة التي كتبت مرة أخرى، والحقيقة التي دفنت، لذا حاولت أن أبتلع كل ذلك.

قلت لها: «إننا لم نأخذه. ففي ذلك الحين، رغبت كيت في أن يعيش معي

ومع زوجي».

وفكرت: حتى لو أنها تراجعت عن رغبتها تلك في ما بعد. أود أن أعرف كيف كانت رواية كيت للقصة. أظن أنها أخبرت أصدقاءها أننا هاجمناها وانتزعنا منها كونر حينما كانت تتدبر أمرها بشكل جيد، وأن كل ما أردناه منها هو طفلها، وذلك لأننا لم نستطع أن ننجب ولداً من صلبنا.

ومرة أخرى، أخذ ذلك الإحساس الداخلي بالراحة لموتها يرغي ويزبد. لم يكن بإمكاني أن أمنع نفسي من ذلك، بالرغم من أن ذلك كان يشعرني بالتعاسة، إلا أن كونر قد أصبح لي الآن.

قلت لها: «لقد كان الأمر معقداً. فقد كنت أحب كيت، غير أن إحساسها كان مشوهاً حيال الطريقة التي كانت تتغلب بها على الأمور».

عندها، ابتسمت آنا وكأنها تحاول طمأنتي، فتابعتُ قائلة: «أعرف أن الأمر كان شاقاً عليها. وأعني بقولي هذا تخليها عنه. ولكنها كانت صغيرة جداً حينما ولد، فقد كانت هي نفسها طفلة؛ إذ كانت في السادسة عشرة من عمرها، أي أكبر من كونر اليوم بقليل».

نظرت إلى فنجان قهوتي، وأخذت أتذكر اليوم الذي ولد فيه كونر. كان ذلك بعد عودتي من برلين بأشهر قليلة، وكنت يومها في اجتماع. يومها، تمكنت من العودة إلى المشروع، وقد سرني ذلك كثيراً، فقد أخذت الأمور تسير بشكل جيد. وحينما وصلت إلى البيت، كان هيو قد حزم حقيبة لليلة واحدة، فسألته: «إلى أين أنت ذاهب؟». فأخبرني بأن كيت في المشفى في غرفة المخاض، وبأنه اتصل بوالدي ولكنه لم يجب.

أتذكر أنني يومها لم أفهم ما سمعته منه، بالرغم من أنني كنت أعرف أنه يقول الحقيقة.

سألته: «في غرفة المخاض؟! لكن...».

فأجاب: «هذا ما قيل لي».

لكنها في السادسة عشرة من العمر! أتذكر أنني كنت أود أن أقول له ذلك... إذ لم يكن لديها عمل، وكانت تعيش في البيت، وكان من المفترض أن يتولى والدي رعايتها.

قلت: «لا يمكن أن تكون كذلك».

رد: «حسناً، حسبما يبدو إنها كذلك، وعلينا أن نذهب إليها».

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى المشفى، كان كونر قد ولد، فطلب مني هيو قبل أن ندخل أن أكون هادئة وألا أغضب؛ لأنها كانت بحاجة إلى دعمنا.

كانت كيت جالسة على السرير وهي تمسك بكونر. وأتذكر أنها قدمته لي حالما دخلت الغرفة، فولدت مشاعر الحب الذي شعرت به حياله على الفور، وكان ذلك الإحساس مدهشاً في قوته؛ إذ لم أستطع وقتها أن أبدي أي غضب منها؛ حتى لو كنت أريد أن أبدي لها ذلك.

قلت لها: «إنه جميل». فأغمضت عينيها، وشعرت فجأة بأنها منهكة، ثم أشاحت بنظرها بعيداً.

تكلمنا حول ما جرى في ما بعد، فادّعت أنها لم تكن تعرف أنها حامل، وأخبرني هيو أن ذلك ممكن؛ ولاسيما عند المراهقات. إذ إن الهرمونات لديهن قد تكون غير مستقرة، لذا تكون دوراتهن الشهرية غير منتظمة، وقد نستغرب الأمر، لكنه يحدث فعلاً. حاولت أن أتخيل ذلك، فبدا لي الأمر ممكناً، وتخيلت كيت وهي طفلة منتفخة البطن، ومذهولة حيال جسدها الذي لم يعد مألوفاً بالنسبة إليها. لذا، هناك احتمال بأن فكرة الحمل لم تخطر على بالها.

أخذت أقول لآنا: «لقد حاولت أن تتدبر أمرها لمدة سنتين، لكن...».

هزّت كتفي، إذ لم يكن لديها أي شيء. وحينما أصبح كونر في الثالثة من عمره، أخذته معها إلى بريستول عند انتقالها إلى هناك من دون أن تخبر أحداً، حيث عاشت في شقة مؤلفة من غرفة واحدة ولها حمام مشترك ولم يكن فيها مطبخ، بل كان فيها فرن كهربائيّ يتم وصله بقابس بالقرب من المغسلة، بالإضافة إلى غلاية تستخدم في الأسفار وتوضع فوق حوض جلي وضع بالمقلوب. وفي المرة الوحيدة التي زرتها فيها، كانت رائحة البول والحفاضات المتسخة تزكم الأنوف، وكانت كيت في سريرها، في حين كان ابنها جالساً داخل مقعد الأطفال الذي يثبّت في السيارة، والذي وضع على الأرض، وكان عارياً وجائعاً.

نظرت إلى آنا وقلت: «طلبت مني يومها أن آخذه معي، وأن يبقى عندي لبضعة أشهر فقط إلى أن تتمكن من الوقوف على قدميها. لقد كانت تحب كونر، لكنها لم تكن قادرة على العناية به. كما لم تكن أمنا موجودة، ووالدنا كان غير مكترث للموضوع. ثم تحولت الأشهر الستة إلى سنة، والسنة إلى سنتين. أعتقد

أنـك تدركيـن كـم كان كونـر بحاجـة إلى الاسـتقرار، وحينما شـارف على بلوغ الخامسة، قررنا نحن الثلاثة أنه من الأفضل لنا أن نتبناه رسمياً».

أومأت برأسها ثم قالت: «ألم تحاولا التواصل مع الأب؟».

أجبت: «لقد كانت الأمور عشوائية، إذ لم تخبرنا كيت من كان أبوه».

أمسـكنا عن الحديث هنيهة، وشـعرت بخزي كبير مما فعلته كيت، وبحزن عميق تجاه كونر، ثم تابعت: «لا أعتقد أنها كانت تعلم من هو».

ردت: «أو لعله لم يكن الشخص الذي كانت كيت تنشد مساعدته».

«كلا». قلـت ذلـك، ثـم نظـرت إلـى خـارج النافـذة، وأخـذت أتابع حركة المرور وسيارات الأجرة والدراجات التي كانت تسير في الشارع. تابعت الكلام: «لكن، لديه هيو الآن. إذ تربطهما اليوم علاقة قوية للغاية، وهما يشبهان بعضهما بالفعل».

قلـت ذلـك دفعـة واحـدة من دون تمهل، فشـعرت بأن مـا قلته كان مدعاة للسـخرية؛ إذ إن هيو كان الشـخص الوحيد الذي لم تربطه أي قرابة فعلية مع كونر. ومع ذلك، كان الشخصَ الوحيدَ الذي يجلّه كونر ويحترمه.

قالت آنا: «أتعرفين شـيئاً؟ لقد كانت كيت تحدثني عنك دوماً، وتقول لي إنه بالرغم من أن التجربة كانت مؤلمة للغاية، إلا أنها شـعرت بالارتياح عندما عرضت عليها أن تعتني بكونر. لقد عبرت عن ذلك بطريقة توحي بأنك أنقذت حياتها».

تسـاءلت عمـا إذا كانـت هـذه الفتـاة تحاول أن ترفع مـن معنوياتي، وقلت لها: «أحقاً قالت ذلك؟».

ردت: «أجـل. وقالـت لـي أيضـاً إن ما قمت به إن لم يكن من أجلك ومن أجل هيو فقد كان من أجلها؛ إذ كان عليها أن تعود إلى بيت أبيكما».

ثـم أدارت عينيهـا، لقـد كانـت تعتقد أن تلك نكتـة. حافظت على هدوئي، فلم أكن واثقة من استعدادي لإخبارها عن قصة العائلة. لم أُرد أن أمضي معها في القصة أبعد من ذلك؛ إذ لم يحن الوقت بعد. وأظنها شعرت بعدم ارتياحي، فقد مدت يدها فوق الطاولة، وأمسكت بيدي ثم قالت:

«لقد كانت كيت تحبك. هل كنت تعرفين ذلك؟».

انتابتني فورة من الارتياح، لكن سرعان ما حل محلها حزن عميق شعرت

بـه كمـا لـو أنّـه يعصر قلبي... نظرت إلى يدي التي كانت بيد آنا، وأخذت أفكر في الطريقة التي كنت أمسك بها يد كيت بيدي. حينما كانت كيت طفلة، كنت أمسك بكل إصبع من أصابعها الصغيرة، وأتعجب من هشاشتها واكتمالها. فقد ولدت كيت قبل أوانها، لذا كانت ضعيفة للغاية، ومع ذلك كانت مفعمة بالحيوية وحـب الحيـاة. حينهـا، لـم أكـن قد تجاوزت السـابعة من عمـري، غير أن حبي لشقيقتي كان كبيراً للغاية.

ومع ذلك، لم يكفِ كل حبي لها لإنقاذها.

قلت: «أحقاً قالت ذلك؟».

هزت آنا رأسها وقالت: «غالباً».

قلـت لهـا: «تمنيـت لـو أنها عبّرت لي عن مشـاعرها حينما كانت على قيد الحياة، إلا أنني أعتقد أنها ما كانت لتتفوه بذلك، أليس كذلك؟».

ابتسـمت آنـا وقالـت: «كلا». ثـم تابعـت وهـي تضحـك: «أبـداً، فهذا ليس أسلوبها».

أنهينا قهوتنا، ثم ركبنا المترو لنصل إلى شـارع سـانت مور، ثم مشـينا إلى شقة آنا. كانت آنا تعيش ضمن مجمع سكني، وشقتها تقع فوق صالة الغسيل. كان هنالك باب مشـترك، فجربت آنا أن تفتحه بالمقبض قبل أن تُدخل شـيفرة الدخـول، ثـم قالـت: «إنه معطل في معظم الأوقات». صعدنا إلى الطابق الأول، وكانـت هنـاك طاولـة للكتابـة تناثرت فوقها أوراق عند الفسـحة التي تفصل بين درجين، فقالت لي آنا: «ثمة مفتاح احتياطي هنا. لقد كانت هذه فكرة كيت؛ إذ كانت تنسى مفاتيحها دوماً. كما يمكن لصديقي أن يحصل على المفتاح من هنا أيضاً؛ في حال سبقني إلى الشقة».

قلت لنفسـي: إذاً، هنالك صديق. غير أنني لم أطرح عليها أي سـؤال، إذ لا بـد لـي أن أكتشـف تلـك التفاصيـل تدريجياً كما يحدث معـي في أي علاقة صداقـة جديـدة. دخلنـا الشـقة، فأخذت آنا حقيبتي، ورمـت بها قرب الباب، ثم قالـت لـي: «هـل أنـت متأكـدة من أنك لن تقيمـي عندي؟». فأخبرتهـا بأنني قد رتبت الأمر مسـبقاً، وأنني سـأقيم في الفندق الذي حجزت فيه، والذي تفصلها عنـه بضعـة شـوارع. كنـا قد تحدثنا في الأمر قبـل مجيئي، إذ لو أقمت معها في

الشقة كنت سأضطر إلى الإقامة في غرفة كيت، محاطةً بأشيائها، وأعتقد أن الأمر مبكر جداً على ذلك. قالت آنا: «سنتناول شراباً، ثم يمكنك أن تقصدي الفندق بعد أن نتناول العشاء. أعرف مطعماً رائعاً يمكننا أن نتناول العشاء فيه. على أي حال، هلمي معي».

كانت الشقة جميلة وكبيرة، وذات سقف عالٍ، ونوافذ تصل إلى الأرض. أما الأثاث الموجود في غرفة الجلوس فقد كان ينم عن ذوق رفيع؛ إن تم انتقاؤه عن غير قصد. وعلى الجدران، كانت هنالك ملصقات وضعت ضمن أطر لوفوليه بيرجير وشات نوار ولمطبوعات يمكن لأي شخص أن يحصل عليها على عجل؛ أي إن الشقة لم يتم تزيينها بتلك المطبوعات حباً بها.

سألت آنا: «هل أنت من استأجر هذه الشقة؟». فهزت رأسها إيجاباً. قلت لها: «إنها رائعة».

قالت: «إنها تفي بالغرض إلى حين. هل ترغبين في تناول كأس من الشراب؟».

إذاً، ثمة بعض الأمور التي لم تخبرها كيت عنها. عندها سألتها: «هل لديك عصير أو ماء؟».

أجابت: «بالتأكيد». تبعتها إلى المطبخ الذي يقع في الجهة الخلفية من الشقة. كان المطبخ أنيقاً ونظيفاً، بخلاف مطبخي حينما غادرت هذا الصباح. ومع ذلك، بدأت آنا تعتذر، وسارعت إلى إخفاء رغيف الخبز الذي كان متروكاً، وكذلك أخفت مرطبان زبدة الفستق، فضحكت ومضيت نحو النافذة وأنا أقول لها: «إنني أعيش مع مراهق، أي إن هذا لا يعني لي شيئاً».

وعندها، أخذت أفكر في أسرتي. ترى، كيف يتغلب هيو على مشكلاته مع كونر؟ لقد أخبرني بأنه سيصطحبه الليلة إلى السينما، أو لعلهما سيلعبان الشطرنج، وسيجلبان معهما وجبة جاهزة، أو سيتناولان الطعام خارج البيت. أعرف أنه كان يتعين علي أن أتصل بهما، لكنني كنت أشعر بالارتياح الآن؛ لأن علي أن أهتم بنفسي فقط.

ابتسمت آنا ابتسامة عريضة، ثم ناولتني كوباً من عصير التفاح وهي تقول: «هل أنت متأكدة من أن هذا كل ما تريدينه؟».

أجبتها: «أجل، أشكرك». ثم أخرجت زجاجة من الثلاجة وهي تقول: «ليس

باستطاعتي أن أغريك أكثر، إنها فرصتك الأخيرة».

ابتسمت لها وأنا أخبرها مرة أخرى بأن أموري على ما يرام. وقد كان بوسعي أن أخبرها بأنني لا أشرب الكحول، ولكنني لم أرغب في ذلك. فقد تبدأ بطرح الأسئلة علي، وأنا لا أرغب في الحديث عن شيء كهذا؛ ليس الآن. ولم أكن أريد أن يطلق أحد أحكامه علي.

جلست آنا قبالتي، ورفعت كأسها، ثم أخذت رشفة من العصير، وتمنيت للحظة لو كانت كأسي مملوءة بالشراب أيضاً. لكن، سرعان ما تخليت عن الفكرة كما يحدث في كل مرة.

قالت آنا: «هل ترغبين في رؤية غرفتها؟».

ترددت لأنني لم أكن أرغب في ذلك. لكن، يبدو أنه لا مفر؛ فغرفتها من الأمور التي أتيت إلى هنا لأعاينها... لأواجه حقيقة حياتها، وبالتالي موتها أيضاً.

أجبت: «أجل، هيا بنا».

لم تكن غرفتها شنيعة كما توقعت أن تكون. وكانت ثمة نافذة تطل على شرفة صغيرة، وسرير مزدوج يغطيه لحاف أبيض مائل إلى الصفرة، وجهاز لتشغيل الأقراص المدمجة موضوع فوق طاولة الزينة بالقرب من العطورات. كانت الغرفة مرتبة؛ إذ تم ترتيب كل شيء فيها بشكل أنيق، فأتى ذلك بعكس ما توقعته عن حياة كيت.

قالت آنا: «لقد قام رجال الشرطة بتفتيش الغرفة، وقد تركوا الأشياء على حالها كما وجدوها».

رجال الشرطة... تخيلتهم وهم يقومون برفع البصمات، وجمع أغراضها، وإعداد بيان حول حياتها. أصبحت بشرتي البيضاء حمراء حارة بفعل موجة الدهشة التي غمرتني. فهذه هي المرة الأولى التي أربط فيها بين المكان الذي أقف فيه ووفاة أختي.

سحبت نفساً عميقاً، وكأنه كان بوسعي أن أتنفسها. لكنها رحلت، ويمكن لهذه الغرفة أن تؤول إلى أي شخص آخر.. ابتعدت عن آنا ومضيت نحو السرير، وجلست عليه. شاهدت كتاباً فوق طاولة التزيين... قالت لي آنا: «هذا لك».

كان عبارة عن ألبوم صور، من النوع الذي يحتوي على صفحات قاسية وطبقات رقيقة من البلاستيك اللاصق لإبقاء الصور في مكانها. لكنني حتى قبل

أن أفتح الألبوم أحسست بما يمكنني أن أجده داخله.

هتفت آنا: «كان من عادة كيت أن تعرض هذه الصور على الناس، وتقول لهم: هذه أختي. أقسم إنها كانت فخورة بك».

رأيت صوري. جلست آنا على السرير بجانبي وقالت: «أخبرتني كيت بأن والدكما قد احتفظ بهذه الصور، وبأنها وجدتها حينما توفي».

«أبي؟!». قلت ذلك باستغراب؛ لأنه لم يخطر لي يوماً أن أبي كان يهتم بعملي ولو من بعيد.

ردت آنا: «هذا ما قالته لي».

على الصفحة الأولى، ظهرت صورة: ماركوس في المرآة.

هتفت: «يا إلهي!». كان علي أن أبتلع الصدمة؛ فقد كانت الصورة الكاملة، بدون أي تعديلات أو قص. وكنت أبدو فيها واقفة خلف ماركوس ورافعة آلة التصوير فوق عيني... كنت عارية.

سألتني: «أهذه أنت؟».

أجبت: «نعم».

سألت: «ومن هذا الشاب؟ أصبحت أراه أينما ذهبت حالياً».

شعرت بغرور عارم لم أكن أتوقعه وأنا أقول: «لقد عرضت هذه الصورة في أحد المعارض، وأصبحت مشهورة جداً».

سألتني: «إذاً، من هو؟».

نظرت إلى الصورة مجدداً وقلت: «إنه ماركوس، حبيبي السابق». وتعثرت الحروف وأنا أنطق باسمه، وتساءلت في سرّي عن المرة الأخيرة التي نطقت فيها باسمه بصوت عالٍ، ثم تابعت حديثي قائلة: «لقد عشنا معاً لفترة من الزمن. كان ذلك منذ سنين، كنت... بأي عمر كنت؟ هل كنت في العشرين؟ ربما لم أتجاوز العشرين وقتها. كان فناناً، وقد أهداني أول آلة تصوير في حياتي، فالتقطت هذه الصورة في شقتنا. حسناً، لقد كانت شقة صغيرة بالفعل، في برلين، وكنا نتشاركها مع بعض الأشخاص الآخرين. معظمهم كانوا فنانين، وكانوا يأتون إليها ثم يرحلون».

سألتني: «في برلين؟!».

أجبت: «أجل، فقد رغب ماركوس في الذهاب إلى هناك. كان ذلك في

منتصف التسعينيات؛ بعدما تمت إزالة جدار برلين، فبدا المكان جديداً، وكأنما قد تم تنظيفه. هل عرفت الآن؟». هزت رأسها موافقة، ولم أكن متأكدة من أن الحديث في هذا الموضوع يهمها، لكنني تابعت حديثي قائلة: «عشنا في مدينة كروزبيرج، وكان ذلك من اختيار ماركوس. كان لها طابع بووي». بدت لي محتارة، أو لعلها كانت لا تزال صغيرة حينها لذا لم تدرك ما كنت أعنيه. ولهذا أردفت: «أعني المغني ديفيد بووي. فقد عاش فيها، أو لعله سجّل إحدى أغنياته هناك، لست متأكدة...».

وضعت أصابعي على الصورة، فتذكرت كيف كنت أصطحب معي آلة التصوير الخاصة بي أينما ذهبت، كما كان ماركوس يصطحب معه دفتر الرسم الخاص به، في حين يقوم صديقنا جوهان باصطحاب مفكرته معه؛ إذ لم تكن تلك الأشياء مجرد أدوات، بل كانت جزءاً من كياننا، وكانت تمثل الطريقة التي ندرك بواسطتها العالم الخارجي. كان قد ظهر لدي هوس بالتقاط الصور الفنية للأشخاص حينما يستعدون لذلك، ويرتدون أبهى حلة، ويضعون أجمل زينة، وبعد أن يتأكدوا بالنظر إلى المرآة من أن شعرهم لا يزال مصففاً.

نقلت آنا بصرها عني وأخذت تحدق إلى الصورة، وبدأت تقول: «إنه يبدو...» لكنها توقفت، وبدا لي أنها قد رأت شيئاً في الصورة، شيئاً يبدو مقلقاً لدرجة أنها لم تعد قادرة على تحديد ماهيته. نظرت إلى الصورة مجدداً، لقد كان لها ذلك التأثير في الناس، فقد كانت تبدو وكأنها تزحف باتجاههم.

أكملت عنها جملتها: «تعيساً. لقد كان كذلك بالفعل، ولكن ليس طيلة الوقت. أعني أنه كان يدندن كلمات أغنية بثها المذياع مباشرة بعد التقاط هذه الصورة. لكن بلى، كان تعيساً. أجل، كان كذلك في بعض الأحيان».

سألتني: «لماذا؟».

لم أشأ أن أخبرها بالحقيقة... كاملة.

«لقد كان... أعتقد أنه بحلول تلك الفترة كان يشعر بالضياع قليلاً».

سألتني: «ألم تكن لديه أسرة؟».

أجبتها: «بلى. وكانت صلاتهم ببعضهم قوية... أتعرفين؟ للمخدرات ذلك الأثر الذي يجعل الأمور تبدو بتلك الصعوبة».

رفعت بصرها نحوي ثم قالت: «مخدرات؟!».

أومأت برأسي إيجاباً؛ فبالطبع لا يمكنها أن ترى ذلك في الصورة.

سألتني: «هل كنت تحبينه؟».

أجبتها: «أحببته كثيراً». ثم وجدت نفسي أرجوها رجاء حاراً ألا تسألني عما حدث بعد ذلك، كما كنت أتمنى ألا تسألني عن كيفية لقائنا.

ولا بد أنها أحست بإحجامي عن متابعة الكلام فقالت: «إنها صورة مذهلة». ثم وضعت يدها على ذراعي وأردفت: «كل صورك مذهلة، فأنت موهوبة للغاية. هل لنا أن نشاهد المزيد من الصور؟».

انتقلت إلى الصفحة الأولى، وهناك وجدت أن كيت قد قامت بإلصاق صورة التقطت قبل فترة طويلة؛ فقد كانت بالأسود والأبيض مع ظهور احمرار مقصود عند أطراف الصورة. لقد كانت صورة لفروستي بعدما تزينت، لكنها لم تكن تضع شعراً مستعاراً، بل كانت تنتعل حذاء عالي الكعبين، وكانت تجلس على الأريكة في بيتنا، وثمة منفضة سجائر مترعة عند قدميها، وبالقرب منها علبة السجائر والولاعة. لطالما بقيت هذه الصورة من الصور المفضلة لدي.

سألتني: «من هذه؟».

أجبت: «إنها فروستي، إحدى صديقاتنا».

سألت: «فروستي؟!».

أجبت: «لا أستطيع أن أتذكر اسمها الحقيقي. وهي كانت تكره اضطرارها إلى استخدام هذا الاسم على أي حال».

سألت: «هي؟!».

بدت آنا مصدومة، وكنت أدرك سبب ذلك حسبما أعتقد. ففي الصورة، تظهر فروستي بشعرها القصير_ رغم الزينة التي تغطي وجهها_ أكثر ميلاً إلى الذكورة من الأنوثة.

عندها، ضحكت وقلت لها: «أجل، إنها امرأة. وكان من عادتها أن تقول: عليك أن تختار في هذا العالم، فليس هنالك سوى حمامين في المقاهي، وليس هنالك سوى مربعين في الاستمارات: ذكر أو أنثى، لذا قررت أن تكون امرأة».

نظرت آنا إلى الصورة مرة أخرى، لكنني لم أتوقع منها أن تستوعب الأمر، وذلك لأن الأشخاص الذين يشبهون فروستي أو حتى ماركوس ليسوا جزءاً من عالمها، ولم يعودوا جزءاً من عالمي.

سألتني: «ما الذي حدث لها؟».

أجبت: «لست أدري. إذ لم يعتقد أي منا أنه يمكن لفروستي أن تستمر طويلاً، فقد كانت أضعف من أن تواجه العالم. ولكن ذلك قد لا يزيد عن كونه مجرد هراء ميلودرامي. والحقيقة هي أنني غادرت برلين على عجل، وخلفتهم ورائي، ولم تكن لدي أدنى فكرة عما حدث بعد رحيلي».

سألتني: «ألم تنظري إلى الماضي وراءك؟».

كانت عبارتها غريبة، فأجبتها: «لم أستطع». كان الماضي مؤلماً للغاية؛ هذا ما أردت قوله لها، لكنني لم أفعل، بل أغلقت ألبوم الصور وأعدته إليها.

عندها قالت لي: «كلا، إنه لك».

ترددت، فكررت: «احتفظي بهذه الصور، وهذه أيضاً».

وناولتني علبة كانت موضوعة على الأرض بالقرب من سرير كيت. كانت علبة بسكويت من القصدير، وعلى غطائها كتبت عبارة: زيت الزيتون بالفرنسية مع صورة لامرأة ترتدي ثوباً أحمر.

قالت لي: «إنها لك».

سألتها: «ما هذه؟».

ردت: «إنها مجرد شيء من أغراض كيت الشخصية. أعتقد أنه يجدر بك أن تحتفظي بها».

إذاً، هذا ما تبقى لدي من شقيقتي، وهذا ما جئت لأحضره معي كي يراه ابنها.

كنت متوترة، وكأن العلبة كان من الممكن أن تحتوي على مصيدة أو جرذ أو عنكبوت سام.

نزعت الغطاء، كانت العلبة ملأى بالدفاتر والصور والوثائق، وكان جواز سفرها في الأعلى، ففتحته إلى أن وصلت إلى صورتها. كانت صورة حديثة لم يسبق لي أن رأيتها. كان شعرها فيها أقصر، وتمكنت من ملاحظة أنها خسرت وزناً. كانت بهذا الشكل تشبه إحداهن.

نظرت إلى تاريخ انتهاء جواز السفر، فاكتشفت أنه صالح لثماني سنوات أخرى... ثماني سنوات لم تعد هي بحاجة إليها... أغلقت جواز السفر بسرعة وأعدته إلى مكانه، ثم أغلقت العلبة.

قلت: «سأطلع على ما تبقى في ما بعد». وأدركت حينها أنني بدأت بالبكاء لأول مرة منذ وفاتها. شعرت حينها أنني أصبحت مكشوفة وصريحة للغاية؛ وكأن أحداً ما قد فتح جسمي من الرقبة وحتى أسفل البطن كما يفعل هيو مع مرضاه. كنت كمن سلخ جلده، وشعرت بالألم والحزن الشديدين.

وضعت العلبة في الأسفل، ورغبت في الابتعاد وإيجاد مكان هادئ ودافئ حيث يمكنني البقاء إلى الأبد، وعدم التفكير هناك بأي شيء على الإطلاق.

لكن، ألم يكن ذلك ما أتيت من أجله؟ ألم آتِ لأنبش في ذكريات شقيقتي، ولأتأكد من وجود ذلك الجزء الضئيل منها الذي بقي لكونر؟ ألم آتِ لأحس بشيء ما؟ لأعتذر لها؟ لأودعها؟

أجل، أعتقد أن ذلك ما أتى بي إلى هنا. وأعتقد أنني أقوم بما يجب عليّ القيام به. إذاً، لماذا أكره نفسي؟

هتفت آنا: «هوّني عليك، وتابعي البكاء، فهذا جيد».

الفصل الرابع

نقلتنا سيارة أجرة إلى المطعم، وهناك أُعلمنا أن طاولتنا كانت خارج المطعم، على الرصيف. كانت الطاولة مغطاة بمفرش أبيض اللون تم تثبيته بمشابك بلاستيكية، وفوقها وضعت سلة الخبز. كان المساء دافئاً ولطيفاً، أما الهواء فكان ساكناً ومحملاً بالوعود.

أخذنا ندردش، لكنني تذكرت فجأة أننا قررنا أن نقضي هذه الأمسية بالتّحدّث عن حياة كيت، إلى جانب البكاء عليها لموتها. لقد ضحكنا يومها؛ إذ كان الشعور بالارتياح متبادلاً بيننا، لدرجة أن آنا أخرجت هاتفها والتقطت لنا صورة يظهر فيها النهر خلفنا. أخبرتني يومها أنها تحب هذه المنطقة من المدينة، وترغب في أن تعيش فيها يوماً ما، نظراً إلى كونها تقع في مركز المدينة حسب رأيها؛ بالقرب من النهر. ثم طلبت الشراب، وحينما أوشك النادل على سكب كأس من الشراب لي، وضعت يدي على قمة كأسي وهززت رأسي امتناعاً.

سألتني: «ألا تشربين؟».

أجبت: «كلا». وأخذت أفكر في الأعذار التي كنت أتفوّه بها في السابق؛ كأن أقول إنني أتناول مضادات حيوية، أو أخضع لحمية غذائية، أو أقود السيارة، إلا أن المحتوم لا بد أن يحصل بعد ذلك. لذا، بدأت أعذار أخرى تحتشد في رأسي. وكانت هذه الأعذار تحاول أن تقنعني بأنه بوسعي أن آخذ رشفة من الشراب هذه المرة فقط! لقد كان يوماً شاقاً، وكنت مرهقة، وقد مرت خمس عشرة سنة على ذلك ولن يؤذيني الأمر على الإطلاق.

لقد قتلت شقيقتي.

قلت لها: «أنا بخير».

عدت إلى التفكير في ما كنت قد تعلمته؛ فأنا لم أستطع أن أتجنب إغراء الشرب، وكان علي أن أتعرف ذلك الدافع، كما كان علي أن أعرف أن ذلك أمر طبيعي ومؤقت، وعلي أن أتحدى ذلك وأخرج من التحدي سالمة.

قلت لها: «في الحقيقة، أنا لا أحتسي الشراب. إذ لم أقم بذلك منذ مدة طويلة». هزت آنا رأسها، وأخذت ترتشف شرابها في الوقت الذي كنت فيه أطلب بعض المياه الغازية.

بدت لي مهتمة بالموضوع، إلا أنها لم تطرح أي سؤال، ممّا أشعرني بالراحة. لكن، حين وضعت كأسها على الطاولة، انتبهت إلى أنها كانت مشتتة الفكر وقلقة، ثم غيّرت وضعيتها على مقعدها، وأعادت ترتيب منديل المائدة الخاص بها.

بادرتني بالقول: «أريد أن أتحدث إليك بخصوص موضوع معين».

أجبتها: «تفضلي».

لكنها ترددت، فأخذت أسأل نفسي عن الموضوع الذي تريد أن تتكلم فيه. وكنت أعرف أن الشرطة قد حققت معها، وسألتها عن كل شاردة وواردة. كما أن المقهى الذي كانت كيت فيه في ذلك المساء هو نفسه الذي كانت آنا ترتاده، لذا بدأت أستعد للإصغاء إلى السر الذي كانت هذه الفتاة على وشك أن تبوح لي به.

قالت: «إن الموضوع يتعلق بالمال...».

ابتسمت، إذ لا بد أن تكون كيت قد فاجأتها بهذا الأمر. وقد حذرني هيو من أنها قد تذكر شيئاً من هذا القبيل.

قلت: «أتقصدين المال الذي تركته كيت لك؟».

قالت: «أجل. إن في ذلك مفاجأة لي...». تناولتْ بعض الخبز، ثم تابعت: «في الحقيقة، لم أكن أتوقع ذلك. وبصراحة، لم تكن لدي أدنى فكرة حول امتلاكها المال، ناهيك عن أنها قد تركت بعض أموالها لي... فأنا لم أطلب منها ذلك، وأريد منك أن تعرفي هذا».

أطرقت برأسي، وتذكرت أن هيو كان قد أقنع كيت بكتابة وصية بادئ ذي بدء. وقد شعر كلانا بالراحة حينما غيرت وصيتها أخيراً لتشمل آنا؛ لأن ذلك يعني أنه كان لديها أصدقاء، وأنها كانت ترسخ جذور علاقاتها معهم.

قلت لها: «أعرف، ولا مانع لدي في ذلك».

قالت: «هل تفاجأت لأنها تركت لي مالاً؟».

أجبت: «كلا، فهذا يبدو منطقياً. لقد كنت أفضل صديقة لديها، وكانت كيت امرأة كريمة، ولا بد أنها رغبت في أن تمنحك كل أموالها».

بدت آنا مرتاحة، فتساءلت إن كان مصدر ارتياحها هو المال، أم لأن هذا الحوار لم يكن محرجاً كما كانت تخشى أن يكون.

سألتني: «من أين أتت بالمال؟».

أجبتها: «من والدي. فقد توفي منذ عامين وترك لها أمواله؛ حيث حصلت على ما ادخره في المصرف، إلى جانب المبلغ المترتب على بيع منزله، والذي تحوّل إلى ثروة فاقت توقعات الجميع».

ثروة أكثر... فكرت في هذه العبارة. لقد كان المبلغ مليون جنيه، إلا أنني لم أصرح به.

سألتني: «هل ترك لك بعض المال؟».

حركت رأسي نافية وقلت: «لقد اعتقد أنني لن أحتاج إلى المال؛ هكذا خمنت».

ولعل السبب هو إحساسه بالذنب، فقد كان يعرف أنه أهمل ابنته الصغرى، وكان يحاول تعويضها.

تنهدت آنا.

بادرتها بسرعة: «أوه، لا بأس؛ فعائلة هيو ثرية، أما كيت فقد كانت تناضل».

ردت: «لكنها لم تنفقه».

أجبت: «كلا، إذ اقترح عليها هيو أن تضع قسماً منه جانباً، وأن تدخره لأي يوم أسود. إلا أننا_ أنا وهو_ لم نعتقد أنها ستطبق نصيحته فعلياً».

قالت: «سأتخلى عن حصتي لصالحك إن كنت ترغبين في ذلك».

بدأت المحادثة تتخذ منحى جدّي، فوضعت يدي على ذراعها وقلت: «بالطبع لا. كما أنها تركت بقية أموالها لكونر، وحصته تعادل ثروة». قلت في سري: لقد كانت حصته ثروة تفوق ما تركته لك. إلا أنني لم أتفوه بذلك أيضاً، وتابعت: «كما أنني الوصية عليه، ولن أعطيه المبلغ إلى أن أتأكد من أنه لن ينفقه كله على ألعاب الحاسوب والأحذية الرياضية الجديدة».

لم تنبس بكلمة، لكنها بدت غير مقتنعة بكلامي.

قلت لها: «يبدو أن كيت أرادت لك أن تحصلي على ذلك المبلغ، لذا استمتعي به...».

افترت شفتاها عن ابتسامة ارتياح، ثم شكرتني. وبعد هنيهة أتى النادل،

فاحترنا قليلاً في اختيار الطعام الذي نرغب فيه. ساد الصمت فور ابتعاد النادل. كانت الشمس تسكب نورها الذهبي فوق النهر، وكان الناس يتمشون متشابكي الأيدي. في تلك اللحظة، رفعت ستار حزني لفترة وجيزة، فلمحت حالة الطمأنينة، وشعرت بأنه يمكنني أن أسترخي.

قلت: «إنه مكان جميل بالفعل. يمكنني أن أدرك الآن سبب قدوم كيت إلى باريس». ابتسمت آنا، فأخذت أفكر: ترى، ما الذي كان من الممكن أن تؤول إليه الأمور لو تمكنا_ أنا وشقيقتي_ من إصلاح ذات بيننا بطريقة ما، ونسيان خلافاتنا، وإيجاد سبيل لإعادة التقارب الذي كنا نعيشه إلى أن فرقت بيننا السنوات القليلة الأخيرة؟ لعله كان بوسعي حينها أن أزورهما كلتيهما. ولعله كان من الممكن لثلاثتنا أن نتواجد هنا ونثرثر ونتجاذب أطراف الحديث ونستمتع بوقتنا. ترى، هل كنا_ أنا وكيت_ مختلفتين إلى هذا الحد؟

التفت نحو آنا، وللمرة الأولى شعرت أنه بإمكاني أن أطرح عليها سؤالاً، فقلت: «أتمنى أن أعرف ما قد جرى». ثم تابعت بهدوء: «في تلك الليلة...».

ارتشفت ما في كأسها ثم سكبت لنفسها المزيد.

قالت: «كنا عادة نخرج معاً». كان في نبرة صوتها ما جعلني أشعر بأنني لست الوحيدة التي تشعر بالذنب، ثم تابعت: «لكنني كنت مشغولة في ذلك اليوم، لذا ذهبت بمفردها».

تنهدت، إذ لم أرغب في تخيل ذلك.

سألتها: «هل كانت المنطقة سيئة؟ وأين وجدوها؟».

ردت: «كلا، ليست كذلك».

سألت: «ما الذي حدث يا آنا؟».

ردت: «ما الذي قاله رجال الشرطة؟ هل تحدثت إليهم؟».

أجبت: «نعم. ولكن، ليس بالقدر الذي تحدث به هيو إليهم. وقد صرحت وزارة الخارجية أنهم يفضّلون أن يتواصلوا مع أحدنا فقط؛ لأن ذلك سيجعل الأمور أكثر بساطة حسبما أعتقد. وقد تطوّع هيو للقيام بتلك المهمة، إلا أنني تحدثت إليهم أيضاً».

سألتني: «وهل تناقشتما في ما قالوه لكما؟».

أجبت: «حسناً، لقد أخبرني بكل شيء. لكن، ليس ثمة خبر أو معلومة

يمكنها أن تساعدني».

ردت: «أحقاً؟».

قلت: «أجل، فكلها تنتهي في طريق مسدود. وليس هناك أي محفز؛ إذ أخبروني بأنهم تحدثوا إلى أصدقائها، ولكن...».

أجابتني: «ولكن، لا أحد منا يعرف أي شيء...».

قلت: «أجل. وهم يواصلون السير على الدرب التي لن تفضي بهم إلى أي معلومة. غير أن الشيء الوحيد الذي حيرهم هو قرطها».

أغمضت عينيّ، فقد كان ذلك شاقاً علي؛ إذ لم أستطع أن أمنع نفسي من تخيل جثة شقيقتي حينما وجدوها وهي تضع قرطاً واحداً، فيما يبدو أن القرط الآخر قد انتزع منها.

قالت لي: «لقد سألوني عن ذلك».

قلت: «ألا تتذكرين أي شيء عن الموضوع؟».

هزت رأسها نافية وقالت: «كلا. هل كان باهظ الثمن؟».

أجبت: «كان رخيصاً؛ من المجوهرات التقليدية، ومن الذهب الرخيص حسبما أعتقد. لقد كان نموذجاً مضحكاً لتصميم شبكة الأحلام المزينة بأرياش ذات لون فيروزي. أعتقد أنه في الظلام يمكن أن يبدو باهظ الثمن. ولكن، لماذا أخذ قرطاً واحداً فقط؟ وبحسب ما أطلعونا عليه، لم يؤخذ منها أي شيء آخر؛ إذ بقي هاتفها بحوزتها وكذلك محفظتها». قلت ذلك وترددت، ثم تابعت: «أعتقد أن ذلك يجعل الأمر شاقاً علي؛ إذ يبدو ذلك بلا معنى، ولذلك يقترح علي هيو دوماً أن أنشد الاستشارة الطبية».

سألتني: «وهل تعتقدين أنه عليك القيام بذلك؟».

تناولت كأسي وقلت: «لست واثقة من جدوى ذلك؛ بالرغم من أن ذلك متوقع من هيو. فرغم أنه رجل رائع، إلا أنه في النهاية جراح؛ وفي حال توقف أي شيء عن العمل فإنه سيكون ذلك الرجل الذي يرغب في إصلاح ذلك الشيء ومن ثم تركه وشأنه. أحياناً أشعر بأنه يخفي غضبه لأنني لم أعد إلى سابق عهدي بالسرعة المطلوبة. سأخبرك شيئاً: إنه يعتقد أنني أسرف في هوسي بمعرفة من قتلها».

سألتني: «وهل أنت كذلك؟».

أجبتها: «بالطبع لا. لأنني أعرف أن ذلك لن يعيدها، بل إنها مجرد... لقد كنا قريبتين من بعضنا جداً؛ كأي شخصين متقاربين. هل تعرفين أن كلاً منا كانت تكمل الجملة التي تقولها الأخرى؟ ولكن، كيف لم أتمكن من معرفة أنها كانت واقعة بمشكلة؟».

بادرتني بالقول: «الذنب ليس ذنبك...» لكنني قاطعتها وقلت:

«لقد كنت أعرفها تماماً يا آنا، وأود أن أسألك: ما الذي كانت تفعله في ذلك المقهى بمفردها؟».

أخذت آنا نفساً عميقاً ثم قالت: «لست متأكدة». ثم أخذت تنظر نحو النهر. بدت المراكب بلون فضي مع آخر خيوط الشمس، أما الأبنية الموجودة على الضفة اليمنى فقد كانت تتلألأ.

سألتها: «ماذا؟ ماذا كانت تفعل يا آنا؟».

ردت: «أعتقد أنها ربما ذهبت إلى هناك لرؤية أحدهم...».

سألتها: «أتقصدين حبيباً؟».

ردت: «نوعاً ما...».

شعرت بدفقة من الطاقة، وقد حصل ذلك كردة فعل على طريقة عالم التكيف بافلوف تجاه الأمل الواعد بتطور الأمور.

سألتها: «ما الذي تقصدينه؟ من كانت تواعد؟ وهل علم رجال الشرطة بذلك؟».

ردت: «إن الأمر ليس بهذه البساطة». بدت لي منزعجة ثم تابعت: «لقد كان لديها الكثير من الأحباء.. أحباء بالجملة».

أخذت نفساً عميقاً، ثم وضعت شوكتي وسألتها: «أتقصدين أنه كان لديها أكثر من حبيب في الوقت نفسه؟».

هزت رأسها إيجاباً.

سألتها: «أتعتقدين أن أحدهم اكتشف أمر الأحباء الآخرين؟ هل أخبرت الشرطة بذلك؟».

أجابت: «لقد أخبرتهم بكل ما أعرفه، وأعتقد أنهم يفكرون في الموضوع، وما زالوا كذلك. فالأمر... الأمر لم يكن بتلك البساطة». قالت ذلك ثم ترددت،

لكنها لم تخفض صوتها، بالرغم من وجود أشخاص يجلسون إلى الطاولات المحيطة بنا، بل تابعت: «لم يكن أولئك الأشخاص أحبّاء حقيقيين. كانت كيت تتسلى، سأقول لك شيئاً: لقد كانت كيت تلتقي الشبان لتستمتع بوقتها، وأنا كنت أقوم بذلك أيضاً بين الفينة والأخرى».

سألتها: «في المقاهي؟».

أجابت: «لا، عبر الإنترنت».

قلت: «حسناً، إذاً لقد كانت تواعد الأشخاص عبر الإنترنت».

ردت: «لم يقتصر الأمر على المواعدة».

قلت لها: «هل كانت تلتقي الرجال لتقوم بعلاقة حميمة معهم؟».

بدت لي في موضع دفاعي حين قالت: «هذا ما يحدث! لكن، على كل الأحوال، أعرف أنها لم تلتقِهم جميعاً، لكنها كانت منخرطة في الموضوع أكثر مني. غير أن معظم ما كانت تقوم به لا يعدو عن كونه مجرد كلام، مجرد أوهام وتخيلات».

حاولت أن أتخيل كيت وحيدة في غرفتها أمام حاسوبها المحمول، ولسبب ما فكرت في كونر وهو جالس إلى حاسوبه ووجهه منار بأضواء الشاشة، ثم تخيلت هيو يقوم بالشيء ذاته.

أبعدت عني تلك الفكرة، فهيو ليس من هذا النوع من الأشخاص.

قالت لي: «لقد كان من عادتنا كلتينا أن نتصل بالإنترنت معاً، وذلك قبل أن ألتقي حبيبي بالطبع. وكنا نجري محادثات مع أشخاص، ثم نقارن ملاحظاتنا، وأحياناً نواعدهم... تعرفين ذلك».

قلت لها: «لكن رجال الشرطة أخبروني بأنها غادرت بمفردها».

ردت: «لعل من واعدته لم يأتِ لرؤيتها».

قلت لها: «هل تعرف الشرطة ذلك؟ فهم لم يخبروني أي شيء حول هذا الموضوع... وربما تكون قد عرّضت نفسها لخطر حقيقي».

ردت: «أوه، أجل، لقد أخبرتهم، فقد استجوبوني لساعات طويلة، وسألوني عن كل شيء؛ عن أصدقائها، وعن الأشخاص الذين تعرفهم، وحتى عنك وعن هيو». عندها، نظرت إليّ ومن ثم حوّلت نظرها نحو الطاولة. في تلك اللحظة، وخزني الغضب. أحقاً سألوا الناس عنا؟ وهل يعتقدون أنه يمكنني أن أؤذي

أختي؟

تابعت آنا: «لقد أخذوا حاسوبها وهاتفها، وأعتقد أنهم لم يجدوا أي شيء».

قلت لها: «لعلهم لم يبحثوا فيهما بما فيه الكفاية».

ابتسمت آنا بحزن ثم قالت: «حسناً، أعتقد أنه علينا أن نثق بأنهم يعرفون ما ينبغي لهم القيام به بكل تأكيد». ثم صمتت هنيهة قبل أن تتابع: «أعتذر إن سبّبت لك أي ضيق».

أخذت أنظر إلى المدينة؛ لقد كان السواد يلفها وقتئذ، أما السماء فكان لا يزال فيها القليل من النور. كانت كاتدرائية نوتردام تقبع قبالتنا؛ شاهدةً على التاريخ الروحي الذي عايشته. أما أنا فقد كان الحزن يلفني بسبب كل تلك الأسئلة التي لم تفضِ إلى أي نتيجة.

شرعت بالبكاء مرة أخرى، وكأن القيام بذلك كان مهارة جديدة بالنسبة إلي. وبما أنني كنت قد شرعت بذلك فهذا يعني أنه يمكنني أن أكف عنه... سألت آنا: «كيف يمكن لشخص ما أن يفعل هذا بأختي... أو بأي شخص كان، ثم ينجو بفعلته؟».

ردت وهي تناولني منديلاً ورقياً أخرجته من حقيبتها: «أعرف، أعرف». ثم وضعت يدها على يدي وقالت: «أنت بحاجة إلى أن تغلقي هذا الباب».

أغمضت عيني وقلت: «أعرف. إلا أن كل ما أحاول القيام به يفتح هذا الباب أكثر. يبدو لي الأمر كجرح لا يندمل».

أخذت أسترجع صورة كيت وهي طفلة صغيرة بالكاد تمشي، وتذكرت أننا كنا نستعد للذهاب إلى الحديقة، وأنها كانت ترتدي ثوباً أصفر كان يوماً ما لي، وأنها قد زينت شعرها بربطة ذات عقدة صفراء اللون. كانت قد نهضت لتوها عن الكرسي، لكنها جلست مجدداً، ثم أخذت ترتعش وتنظر إلي. لقد كانت مترددة ولكنها عازمة على الأمر. وبعد بدايتين فاشلتين، رأيتها وقد حرّكت إحدى قدميها، ثم الأخرى، ثم خطت بضع خطوات بعدما فتحت ذراعيها على اتساعهما، ثم بدأت تتهاوى. أتذكر أنني أمسكت بها بعد أن توجّهت نحوها، ورفعتها؛ وكانت قد بدأت بالضحك قبل ذلك. ومن ثم حملتها إلى الموضع الذي كانت أمي تقف فيه وهي ترتدي قفازيها، وقلت لها: «لقد مشت... مشت كيتي!». فما كان من أمي إلا أن عانقتنا. وبدأنا نحن الثلاث نضحك مبتهجات

بما حدث.

أحسست بثقل الجزع ووطأته علي، لذا أبعدت عن ذهني تلك الصورة، فرأيت آنا وهي تضع كأس الشراب على المائدة وتخاطبني قائلة: «هل ستتحسن حالتك إن ذهبنا إلى هناك؟».

سألتها: «إلى أين؟».

أجابت: «إلى المكان الذي وقعت فيه الحادثة». هززت رأسي موافقة، لكنها تابعت حديثها قائلة: «لقد ذهبت إلى هناك منذ بضعة أسابيع، لقد كان علي أن أعاين المكان بنفسي». أخذت تعتصر يدي بيدها ثم قالت: «كان مجرد زقاق، لا يميزه شيء، بالقرب من خط القطار».

لم أنطق بكلمة؛ إذ لم يكن بوسعي إخبارها عن عدد المرات التي رأيت فيها ذلك المكان، وكم مرة تخيلت شقيقتي هناك.

قالت: «لقد تركت بعض الزهور هناك».

لم أنطق بأي كلمة مجدداً، فأنا لم أكن مستعدة بعد لمواجهة حقيقة وفاة شقيقتي، ولم أكن أتمتع بالقوة الكافية للقيام بذلك.

قالت: «كل ما تحتاجين إليه هو المزيد من الوقت».

الوقت؟!!! ذلك الشيء الذي لدي منه الكثير، ولم يتبقَّ لكيت منه أي شيء!!!

سألتني: «هل ستأتين معي؟».

أغمضت عيني، وأخذت أتخيل كيت في ذلك المكان، بل لعله طيفها. لقد كانت محاصرة هناك وهي تصرخ لأنها لم تتمكن من الهرب، وأنا لم أتمكن من مساعدتها.

أجبت: «كلا... لا... لا أستطيع».

سمعت صوت ارتطام، وشعرت بذلك الشيء وهو يصدر ذلك الصوت، ليعقب ذلك السكون. لقد كانت يدي قد وصلت إلى الإبريق، وكانت العملية آلية. كنت بالكاد أدرك أنني قد تحركت، لأنني كنت أفكر في كيت وهي جالسة إلى حاسوبها وتجري محادثات مع غرباء مخبرة إياهم أسرارها. كنت أفكر في آنا... وهيو... وكونر... وفروستي وماركوس. وقبل أن أدرك ما كنت أقوم به، انتبهت إلى أن كأسي كانت لا تزال بيدي، وأنها كانت مليئة بالشراب، وأنني

كنت أفكر في أن كأساً واحدة لن تضرني بالتأكيد. ولكن، لِمَ لم أنتظر بما فيه الكفاية؟

فلو لم أكن مسرعة في احتساء الشراب لامتنعت عن ذلك؛ إذ رفعت الكأس إلى شفتيّ، وتجرعت ما فيها بالكامل، ثم أدركت أنني ولأول مرة منذ خمسة عشر عاماً بدأت أشرب وأشرب وأشرب.

الفصل الخامس

جلست في القطار. كنت عطشى، وقد تقرحت شفتاي، إلا أن ذهني كان صافياً بشكل لافت. أخذت أتذكر الأعراض التي يتسبب بها الإفراط في تناول الشراب، إلا أن هذين الأمرين لم يكونا من بينها. كما أنني لم أتجرع كمية كبيرة؛ إذ لا يمكن أن أكون قد فعلت، وإلا لا بد أن أعرف ذلك.

أخذت أفكر في الليلة الماضية، وفي كيفية انسياب الشراب داخل حلقي وكأنه جزء لا يتجزأ مني، أو وكأنه مفتاح في قفل؛ كأنه شيء اكتملت بوجوده. وكنت أشعر أنني أسترخي كلما ابتلعت المزيد من الشراب. كنت أحس بعضلاتي وهي تتخلى عن انقباضها؛ بالرغم من أنني لم أكن أدري أنني كنت متوترة، لذا فضلت العودة إلى البيت.

أعرف أن ذلك ليس تصرفاً صحيحاً، أعرف ذلك؛ وقلت ذلك لنفسي مرات ومرات. ولو لم أكن حريصة سابقاً لكنت قد أقنعت نفسي أنه يمكنني تدبّر أمر جرعة واحدة من الشراب هنا وهناك، أو أنني سأكون بخير طالما أن الشراب الذي أتناوله يقتصر على النوع الخفيف، أو طالما أنني لا أشرب قبل حلول المساء، أو طالما أنني أشرب مع الوجبات فقط؛ كان كل عذر يفضي إلى عذر آخر.

كنت أعرف أنه يتوجب علي القيام بأمر ما، وأعرف أنه ينبغي لي أن أقوم به الآن.

حينما وصلت إلى البيت اتصلت بأدريان؛ فقد كانت الصديقة الوحيدة التي أتصل بها على الدوام حينما أحتاج إلى مساعدة، وقد كانت متفهمة دائماً. وبالرغم من أنها لم تكن تشاهد أي برنامج على التلفاز لأنها مدمنة على العمل، إلا أنها أجابت على الفور حينما اتصلت بها.

سألتني: «أنت في البيت يا حبيبتي... كيف كان الوضع؟».

سكت، إذ لم أكن أعرف بماذا أجيبها؛ فسنوات السهر التي قضيتها قد

ذهبت كلها أدراج الرياح في ليلة واحدة. شعرت أنه ينبغي لي أن أعترف بكل شيء، لكن شيئاً ما في داخلي كان يمنعني من ذلك.

قلت لها: «لقد كنت فقط...».

ردت: «ما الأمر؟».

سألتها: «هل بإمكاني أن أخبرك بشيء؟».

ردت: «بالطبع».

لم يكن بإمكاني أن أخبرها بذلك؛ لم يحن الوقت بعد.

سألتها: «هل كنت تعرفين أن كيت كانت تستخدم المواقع الإلكترونية لتلتقي الشبان؟».

ردت: «حسناً، كنت أعرف أنها تستخدم مواقع المواعدة كأي شخص آخر. هل هذا ما تقصدينه؟».

أجبتها: «أجل، ولكنها لم تكن تواعد الشبان فقط. فقد أخبرتني آنا أنها كانت تقوم بعلاقات حميمة وهمية معهم».

سألت: «أتعنين الجنس الإلكتروني؟».

أجبت: «نعم. وقد كانت تلتقي أولئك الأشخاص على ما يبدو».

ترددت لأنني كنت أعرف أن ذلك لم يكن سبب اتصالي بها، أو السبب الحقيقي الذي دفعني للحديث إليها؛ لكن الأمر بهذه الطريقة بدا أسهل، إذ كان هذا الموضوع مجرد بداية... تمهيد.. ولم تتفوه أدريان بكلمة.

سألتها: «هل كنت تعرفين ذلك؟».

ردت: «أجل، لقد أخبرتني بذلك».

بدأت الغيرة تخز جلدي.

قلت لها: «لم تخبرني بذلك البتة».

تنهدت أدريان وقالت: «حبيبتي، لقد كانت تتسلى. وهذا الأمر ليس قضية مهمة، بل إنه مجرد شيء كانت تقوم به بين الفينة والأخرى. وبكل الأحوال، كنت قد انقطعت عن التحدث إليها لفترة طويلة».

لقد كانت محقة، واعتقدت أننا لم نتحدث عن أي شيء مهم بالفعل، ثم انتابتني موجة من الاشمئزاز.

هتفت: «ماذا لو كان الرجل الذي قتلها أحد أولئك الأشخاص الذين

تعرفت إليهم عبر الإنترنت؟».

أجابتني: «إن رجال الشرطة يعرفون ما كانت تقوم به، وأنا متأكدة من أنهم يبحثون في الموضوع».

أخذت أفكر: هل هم كذلك؟ غير أنني لم أكن قادرة على التركيز على هذا الموضوع، لذا أغمضت عينيّ، وأخذت نفساً عميقاً، ثم فتحت فمي لأنطق، لكن الكلمات لم تخرج.

سألتني: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟».

أعتقد أنها كانت تعرف، فقد كانت صداقتي معها ترجع إلى زمن طويل، ويمكنها أن تخمن. أخفضت صوتي بالرغم من أن البيت كان خاوياً.

سألتني: «جوليا... ما الأمر؟».

قلت: «لقد تناولت شراباً».

سمعتها تتنهد. ورغم أنني لم أكن قادرة على تحمل رفضها للفكرة، إلا أنني سمعتها تتنهد.

قلت: «لم أكن أريد ذلك. أعني لم أكن أعتزم القيام بذلك، لكن...».

كبحت جماح نفسي؛ فقد كنت أقدم أعذاراً، ولم أكن أتحمل المسؤولية، أو أعترف بأنني كنت عاجزة وضعيفة أمام الشراب؛ إذ كان هذا هو موضوعنا الأساسي.

أخذت نفساً عميقاً وكررت ما قلته:

«لقد تناولت الشراب».

ردت: «لا بأس. أكانت مجرد كأس واحدة؟».

أجبت: «كلا».

قلت في سرّي: أرجوك لا تقولي لي إنه منحدر زلق؛ لأنني أعرف ذلك. أتوسل إليك، لا تجعليني أصل إلى حالة أسوأ مما أنا فيه.

قالت: «آه يا حبيبتي».

قلت لها: «أشعر بأنني لست بخير، بل إن حالتي مريعة بالفعل».

ساد الصمت هنيهة. أرجوك، لا تقولي لي إن الموضوع لا يستحق كل ذلك، وإنه علي أن أنسى ما حدث.

ناديتها: «أدريان».

ردت: «ستمرين بهذه الحالة مرات كثيرة، وهذا ما يحدث عادة. إنها مجرد زلة... نكسة، لكن عليك أن تسامحي نفسك... هل فكرت في ما تحدثنا عنه؟».

كانت تقصد العلاج؛ فقد كانت توافق هيو الرأي في ما يتعلق بذلك. وكأي شخص يخضع للعلاج، كانت تعتقد أنه عليّ أن أخضع للعلاج أيضاً، أو أن أرى استشارياً في هذا المجال. ولقد رشحت لي أحدهم، وكان يدعى مارتن كذا وكذا.

غير أنني لم أكن أرغب في ذلك فعلاً، ليس الآن. فبرأيي، لم يكن الوقت قد حان بعد؛ ليس وأنا بهذه الحالة، لأنني أعتقد أن العلاج عندها لا بد أن يفشل. ثم إن هذا ليس بالأمر الذي يمكنني القيام به بصورة عكسية.

أجبتها: «كلا».

ردت: «لا بأس. حسناً، لن ألح عليك، ولكن آمل أن تفكري في ذلك. على الأقلّ، فكري في الموضوع».

قلت لها إنني سأفكر، غير أنني بدأت أتساءل: هل أستحق الشعور بهذا الألم؟ هل أنا مدينة لأختي بشكل أو بآخر بما يجعلني أمر بهذا العذاب؟ فأنا لم أتمكن من إنقاذها، كما أنني أخذت منها ابنها.

سألتني: «هل أخبرت هيو بهذا الأمر؟».

لكنني لم أجبها.

سألتني: «أعني، هل أخبرته عن موضوع الشراب؟».

أغمضت عينيّ. لم أكن أريد إخباره، بل لا أستطيع إخباره.

هتفت: «جوليا؟».

قلت: «ليس بعد؟ لا حاجة إلى ذلك؛ إذ لن يتكرر الأمر مرة أخرى...».

قاطعتني قائلة: «استمعي إلي يا عزيزتي: إنك أعزّ صديقة لدي، وأنا أعرفك منذ زمن بعيد، وأحبك. وحبي لك غير مشروط، لكنني أعتقد أنه عليك أن تخبري هيو». صمتت قليلاً متوقعة أن أقول شيئاً ما، لكنني لم أفعل، فتابعت: «أعرف أن الأمر برمّته عائد إليك، لكنني متأكدة من أن هذا هو الخيار الصائب الذي عليك القيام به».

لقد كانت لطيفة معي وعطوفة، إلا أن هذا الموضوع كان يبدو لي في غاية القسوة. ومع ذلك، قلت لها إنني سأخبره الليلة.

كان هيو يمضي أمسيته خارج البيت وهو يلعب الإسكواش. وبعد اللعب قصد المقهى. ومع ذلك، لم يأتِ متأخراً؛ حيث إن كونر كان قد خلد إلى النوم للتوّ حينما وصل، لذا قررت إخباره على الفور.

انتظرت إلى أن جلسنا في غرفة الجلوس لمشاهدة التلفاز، وبمجرد بدء أول فاصل إعلاني أطفأت التلفاز، ومن ثم التفتُّ إليه كمن يود أن يسأله إن كان يرغب في فنجان من الشاي.

بادرني بالسؤال: «ماذا يا حبيبتي؟».

قلت: «ممممم...».

تعثرت الكلمات في فمي، ثم قلت: «لقد تعرضت لانتكاسة».

لم أتفوه بأي كلمة بعد ذلك؛ إذ لم يكن علي أن أقول أي شيء بعدما أخبرته بالأمر، لأنه عرف ما الذي أعنيه. فبالرغم من أنه لم يتابع البرنامج أو يحضر أي لقاء، إلا أنه قرأ عن هذا الموضوع، ومعلوماته كافية؛ فهو يعرف جيداً ما تعنيه كلمة انتكاسة، كما يعرف أنه يجب عليه ألا يحاول السيطرة على سلوكي عبر تعديل سلوكه الشخصي؛ أي إنه لا يمكنه منعي من الشرب إذا توقف هو عن احتساء الشراب.

كما أنه يعرف أنه من الأفضل ألا يسأل عن عدد المرات التي تناولت فيها الشراب، ومتى حصل ذلك أو لماذا؛ لأن ذلك لن يكون مجدياً. فالإجابات لا بد أن تكون بعيدة عن الموضوع، لأن ما حدث قد حدث؛ فقد تناولت الشراب، سواء أكان مجرد رشفة صغيرة أم زجاجة كاملة، كلاهما سيان.

أمسك بيدي. كنت قد اعتقدت أنه لا بد أن يغضب، لكنه لم يغضب، بل حدث الأسوأ؛ فقد كان محبطاً، وكان بوسعي تمييز ذلك من عينيه.

قلت له: «آسفة».

فردّ قائلاً: «يجب ألا تعتذري لي».

لم يكن هذا ما كنت أرغب في سماعه. ولكن، ما الذي كنت أرغب في سماعه؟ وما الذي بوسعه أن يقوله؟ إن الإدمان مرض لا يشبه الأمراض التي يعالجها هيو. فهو ذلك الشخص الذي يقوم باستئصال الأجزاء المتضررة من الجسد، سواء أكتب الشفاء للمريض أم لا.

نظرت إليه. كنت أريد منه أن يقول لي إنه يحبني، وليس أن يقول لي إنه يعرف ما أعانيه وأمر فيه من ظروف. كنت أريد منه أن يذكرني بأن الهفوة ليست بالضرورة انتكاسة، أو أن يخبرني أنه بوسعي أن أحضر الاجتماعات مرة أخرى، أو أن يشعرني بأننا معاً في مواجهة هذه المشكلة.

قلت له: «لن أتناول الشراب مجدداً».

ابتسم لي، وقال إنه يأمل ألا يتكرر ذلك؛ من أجلي ومن أجل كونر. ثم قال لي إنه سيكون إلى جانبي دوماً؛ لكن الأوان قد فات. كان يحاول أن يخفي إحساسه بالذنب، وكنت بالكاد أصغي إليه، بل كنت أفكر في راعية البرنامج راشيل، ولكم تمنيت أن أتصل بها؛ لكنها كانت قد انتقلت منذ زمن طويل. ثم فكّرت في كيت.

وأخيراً، أمسك عن الكلام، فانتظرت بضع لحظات ثم شكرته. وبعد ذلك، جلسنا معاً بضع دقائق أخرى قبل أن أقول له إنه علي أن آوي إلى الفراش، فقبّلني وقال لي إنه سينضم إلي سريعاً.

لقد كنت بمفردي، لكنني لن أسمح لذلك بأن يحدث مرة أخرى. هكذا كنت أحدث نفسي... سأبقى متيقظة، فمهما حدث، ومهما تقلبت الأحوال لن أقدم على تناول الشراب مجدداً.

الفصل السادس

استيقظت مبكرة، وفتحت عيني حينما انتفض جفناي. كانت ليلة تعيسة أخرى من ليالي حزيران؛ بعد مرور شهرين على زيارتي لباريس، وأربعة أشهر على وفاة كيت. كان الظلام لا يزال مخيماً؛ إذ كان الوقت منتصف الليل.

كان جو الغرفة حاراً وخانقاً، أما الملاءات فكانت مبللة، لذا قام هيو برمي ملاءته بعيداً عن جسده، واستلقى بجانبي وهو يشخر بصوت منخفض. كنت أسمع دقات الساعة الموجودة إلى جانب السرير، قرب الجهة التي كنت أشغلها. كانت دقاتها عالية. إنها الساعة الرابعة وأربعون دقيقة فجراً؛ وهذا هو الوقت نفسه الذي استيقظت فيه ليلة البارحة، وقبل البارحة.

كنت أحلم بكيت. كانت في الرابعة من عمرها هذه المرة، وكان الوقت صيفاً، وكنا في الحديقة، وكانت مرتدية ثوباً أصفر اللون، ورأيت المعجنات الملفوفة بورق أصفر وشرائط سوداء. كانت تريد مني أن أطاردها، وكانت تصدر صوت طنين لأنها تمثل دور نحلة. كانت تناديني: «تعالي!». وقد كررت ذلك مرات ومرات، لكنني كنت قد شعرت بالملل، وودِدت أن أتوقف عن اللعب. كنت أريد أن أعود إلى كتابي، لكنها كانت تقول لي: «تعالي يا جوليا! تعالي!». ثم استدارت وركضت نحو الغابة. كنت أريد أن أطلب منها ألا تذهب إلى هناك، لكنني لم أفعل. كان الطقس حاراً ومشجعاً على الخمول والكسل، لذا تركتها تهرب مني، واستدرت عائدة إلى البيت. وفور قيامي بذلك، تغيّر الحلم وأصبحنا راشدتين. كان ثمة شيء مريع يحدث. وفجأة، وجدت نفسي أركض وأهرول خلفها وأنادي باسمها، لكنها اختفت في زقاق. كانت الظلمة تلف المكان، لذا قطعت الأمل من تمكني من اللحاق بها وإنقاذها. لكنني بعد ذلك انعطفت عند زاوية، فوجدتها هناك مسجاة على الأرض. لقد وصلت بعد فوات الأوان.

جلست على طرف السرير. ففي كل ليلة، كان الشيء ذاته يتكرر معي: كنت أرى كيت في نومي وهي تنزف حتى الموت، وبعدها أنتقل من كابوس إلى آخر

لأرى ماركوس_ ماركوس دوماً_ فاغراً فاه في حالة تشبه حالة الاتهام. عندها، أعلم أنني لن أتمكن من النوم مجدداً، وهذا ما كان يحدث بالفعل.

أما هذه الليلة فقد كنت أشعر بالوهن، ولم أستطع تحمل ذلك، لذا سمحت لنفسي بالتفكير فيه... في ماركوس. كانت هذه هي المرة الأولى منذ سنوات طويلة التي أفكر فيها في يوم لقائنا. أغمضت عينيّ، وعندها أصبح بوسعي استعادة ما جرى في ذلك اليوم كما لو أنني أراه. لقد عدت بالزمن إلى تلك اللحظة التي كان ماركوس فيها يجلس قبالتي في الجهة الأخرى للحلقة. كان ذلك أول اجتماع يحضره. كنا في قاعة دار العبادة التي كانت عرضة لتيارات هوائية من جهات مختلفة، وكنت أسمع صوت غلاية شاي كبيرة وهي تئز في إحدى الزوايا. كان رئيس الاجتماعات_ وهو شاب كان يعرف باسم كيث_ قد حدّد الخطوط العريضة للبرنامج، وعرّفنا إلى المتحدث الأول والذي كان امرأة نسيت اسمها؛ فقد كنت بالكاد أصغي إليها حين تحدثت. وقد بقيت أحضر تلك الاجتماعات لفترة من الزمن؛ منذ أن انهرت واعترفت بأنني مدمنة على الشراب منذ فترة طويلة. كنت أيضاً أراقب ماركوس، كان في مثل سني، وكان كلانا أصغر بكثير من بقية المجموعة. كان يجلس على كرسيه وهو يبدو متحمساً ومنتبهاً؛ بالرغم من أنه لم يكن يبدو مهتماً كلياً في الوقت ذاته. ثمة شيء ما بدا لي غريباً فيه، لذا سألت نفسي عمّا إذا كان قد أتى إلى الاجتماع من أجل نفسه أم من أجل شخص آخر. حينها، تخيلت صورة فتاة كان يأمل أن يقنعها بمرافقته إلى الاجتماع لكنها رفضت ذلك، أو لعله كان يريد أن يعود إلى البيت، إليها، ليخبرها بكل ما تعلمه. لا بد أنه كان سيقول لها: لم يكن الاجتماع سيئاً؛ فأولئك الأشخاص يريدون مساعدتنا، تعالي معي الأسبوع القادم.

كانت لدي رغبة في اكتشاف حقيقة أمره، لكنني لم أكن أعرف السبب الذي دفعني إلى ذلك. لعله بدا لي حينها شبيهاً بشخص اعتقدت أنه يمكنني أن أتفق معه. لذا، توجّهت نحوه خلال الاستراحة وعرفته بنفسي، فأخبرني أن اسمه ماركوس. قلت له: «مرحباً»، فابتسم لي، وخلال لحظة أدركت كم كنت منجذبة إليه. كانت تلك الرغبة التي شعرت بها راسخة وصلبة ولها شكل معين؛ فأنا لم أمر بمثل تلك التجربة من قبل، إذ لم يكن الأمر على تلك الشاكلة قطّ. كنت أرغب في أن أمد يدي لألمس رقبته وشعره وشفتيه؛ فقط لأتأكد بأنه موجود وحقيقي. سألته:

«أهي المرة الأولى لك؟». فأجابني: «نعم، إنها كذلك». تحدّثنا لفترة، وبطريقة ما_ لم أعد أتذكر كيف، أو حتى ما إذا كان هو قد تبرع بالمعلومة من تلقاء نفسه أم لا_ علمت أن الحبيبة لم تكن موجودة أصلاً، وأنه كان أعزب. وحين حان وقت العودة إلى مكانينا، أتى وجلس بجانبي. وبعد الاجتماع خرجنا معاً، ثم توقفنا لنودع بعضنا، وكنا على وشك أن نفترق في اتجاهين مختلفين عندما سألته: «هل ستكون هنا في الأسبوع المقبل؟».

هز كتفيه، ثم ركل الحاجز الحجري وهو يقول: «ربما». وبعد ذلك استدار ليغادر، لكنه ما لبث أن سحب قصاصة ورق من محفظته وقال: «ألديك قلم؟».

هل كان ذلك ما حدث بالفعل؟ سألت نفسي الآن. هل كانت تلك اللحظة هي اللحظة التي انزلق فيها قطار حياتي بعيداً عن مساره؛ مضحياً بحالة الانتعاش والاستقرار والرصانة التي كنت أعيشها ليسير في مسار آخر؟ أم إن ذلك حصل في ما بعد؟

فتحت عيني؛ إذ لم أستطع التفكير فيه أكثر. فقد أصبح جزءاً من الماضي، أما أسرتي فهنا، في الحاضر... أسرتي المؤلفة من هيو وكونر... وكيت.

نهضت من الفراش، إذ لا يمكن لذلك أن يستمر؛ أعني الاستيقاظ في منتصف الليل. كان استيقاظي الدائم ليلاً ناجم عن رغبتي في تجنب حقيقة الأمر؛ فقد كان طيف المكان الذي قتلت فيه أختي يتراءى لي باستمرار، ويتعين علي الذهاب لمشاهدته حينما تسنح لي فرصة القيام بذلك. لكن هنالك طرائق أخرى.

نزلت الدرج وجلست إلى طاولة المطبخ. لقد اتخذت قراري، وعلي القيام بذلك. لقد كنت جبانة في باريس. ولكن، بوسعي الآن إصلاح الموقف. فتحت حاسوبي المحمول، وقمت بتسجيل الدخول إلى برنامج الخرائط، وأخذت أسجل اسم المكان في شريط العنوان.

ضغطت زر الإدخال، فظهرت خارطة على الشاشة تقاطعت فيها الطرقات وتشابكت، وتوزعت عليها نقاط بحسب أهميتها. كان هنالك سهم يشير إلى المكان الذي أبحث عنه. لذا، حينما ضغطت على مشاهدة الشارع، اختفت الخريطة، وظهرت بدلاً منها صورة للشارع. بدا لي الشارع عريضاً، وقد اصطفت الأشجار على جانبيه، كما ظهرت المحال التجارية والمصارف وعدد كبير من

البيوت مسبقة الصنع التي تغطي الكتابات جدرانها. كانت الصورة قد التقطت خلال النهار، لذا بدا المكان مزدحماً. أما المارة الذين كانوا يمرون في الشارع أثناء التقاط الصورة فقد بدوا متسمرين في أماكنهم، غير أن وجوههم لم تكن واضحة بفعل البرامج الحاسوبية.

أخذت أحدق في الصورة، فبدا لي المكان عادياً. إذاً، كيف قتلت أختي في هذا المكان؟ وكيف لم يبقَ في المكان أي أثر للجريمة؟

حاولت أن أكون أكثر صلابة، ثم أخذت أتنقل في الشارع، فرأيت الزقاق الفاصل بين أحد الأبنية وخط السكة الحديدية البارز الذي يقطع الشارع.

أخذت أفكر: أنا هنا، إنه المكان الذي توفيت فيه.

كبّرت الصورة، فبدا لي المكان هادئاً ومسالماً. وعند أحد طرفيه، أقيم كشك لبيع الصحف طُلِي باللون الأزرق، ووضعت عليه لافتة إعلانية لمستحضرات أنتيل للتجميل، كما كان هنالك صفان من الأعمدة القصيرة التي تحدد شكل الرصيف. بعد ذلك، تعرّج الزقاق بعد أربع ياردات أو خمس كما بدا لي، لذا لم أستطع رؤية ما كان موجوداً هناك.

تساءلت عن المكان الذي يفضي إليه هذا الزقاق، وعمّا يوجد في الجهة الثانية منه، وعن سبب عدم وجود أحد هناك لينقذ شقيقتي. وللمرة المليون سألت نفسي: ما الذي كانت تفعله هناك؟

كنت بحاجة إلى إجابات. لذا، أحضرت العلبة التي أعطتني إياها آنا من تحت سريري، ونزلت إلى الأسفل. أخذت أحدق إلى الصورة من الأمام؛ صورة المرأة التي كانت ترتدي ثوباً أحمر. لقد حاولت طيلة الشهرين الماضيين أن أتجاهل الموضوع؛ بسبب خوفي من العثور على شيء ما. لكنني لم أعد خائفة البتة؛ إذ ما مدى السوء الذي قد يمسني من جراء ذلك؟ طرحت على نفسي هذا السؤال. لكن، ألم تخبرني آنا أن العلبة لا تحتوي إلا على أوراق ووثائق؟ هذا كل ما في الأمر.

ومع ذلك بقيت خائفة. ولكن، ممّ؟ لعلي خفت من ظهور أي دليل يوضّح مدى خوضها في تلك الأمور. أم تراني خفت من اكتشاف أنها كانت محقة، وأن كونر كان وضعه سيكون أفضل لو عاد إليها؟!

أخرجت جواز سفرها وحملته لثوانٍ قبل أن أعيده إلى أحد جوانب العلبة.

كانت ثمة بعض الرسائل تحته، وتحتها جميعاً كانت شهادة ميلادها ورخصة قيادة السيارة الخاصة بها، إلى جانب بطاقتها الطبية وورقة دونت عليها ملاحظة أعتقد أنها كانت تحتوي على رقم التأمين الوطني الخاص بها.

جعلني ذلك أهدأ بطريقة ما. فقد كنت أواجه أمراً كان بانتظاري، وقد أبليت في ذلك بلاء حسناً؛ لذا شعرت أنني بخير بطريقة مذهلة.

بحثت في العلبة أكثر، فبدا لي الأمر أكثر صعوبة؛ إذ ثمة صور التقطت أثناء بعض الحفلات، وبينها وجدت صورة لكونر كنت قد أرسلتها إليها، وصورة أخرى لبعض الأصدقاء في رحلة على متن قارب في نهر السين. أقنعت نفسي بأنني سأتأمل تلك الصور بما فيه الكفاية في ما بعد. وحينما تعمقت في البحث وصولاً إلى الأسفل، وجدت مفكرة ذات لون وردي بحجم الجيب. وقد بدا لي الاطلاع على ما يوجد فيها أصعب الأشياء على الإطلاق. لكن، حينما قلّبت صفحاتها، أدركت أنها لم تعد تستخدمها حسبما يبدو منذ أن اشترت جهاز الآيفون الخاص بها في الصيف الماضي. وفجأة، وجدت ورقة مطوية داخل المفكرة، فأخرجتها وفتحتها.

وعلى الفور، رأيت اسماً أعرفه؛ فلقد كتبت في أعلى الصفحة: «Jasper1234». لقد كان ذلك اسم الكلب الذي كان لدينا حينما كنا صغيرتين، وقد أعقبته أربعة أرقام، وإلى جانبه كتبت: «KatieB»، وبعدها عنوان موقع إلكتروني وهو: encountrz.com. أما بقية الصفحة فقد امتلأت بقائمة تضم كلمات غريبة مثل: Eastdude, Athletique27, Kolm, Ourcq، وجميعها كتبت في فترات مختلفة، وبألوان حبر مختلفة، وبواسطة أقلام مختلفة. إلا أن فهم الرابط بينها لم يستغرق مني سوى ثوانٍ. وهكذا، فإن Encountrz هو الموقع الذي أخبرتني آنا عنه، والذي كانت كل منهما تستخدمه. ولقد استخدمت كيت اسم كلبنا ككلمة مرور، أما اسم المستخدم الخاص بها فكان: KatieB.

أعدت طي الورقة ووضعتها في مكانها، إلا أن الإحساس بالذنب الذي كنت أقنع نفسي بعدم الإحساس به قد تسلل إليّ مجدداً، ورحت أفكّر في أنه كان يُفترض بي أن أطّلع على هذه الأمور سابقاً؛ فربما كان فيها ما يهم، وما فات رجال الشرطة الانتباه إليه. أجل، لقد خذلتها؛ إذ ثمة شيء كان بمقدوري القيام به؛ شيء ما زال بوسعي القيام به لإصلاح الأمر.

اتصلت برقم آنا. كان الوقت مبكراً، لكن الأمر بدا لي مستعجلاً. ثم إننا نسبق باريس بساعة، أي إنها السادسة صباحاً تقريباً هناك.

أجابت آنا على مكالمتي فوراً، وكانت لا تزال نائمة، لكنها بدت قلقة حينما قالت لي: «مرحباً». فأجبتها: «آنا؟ هذه أنا، جوليا».

هتفت: «جوليا! هل كل شيء على ما يرام؟».

أجبتها: «نعم، بخير. أعتذر عن اتصالي بك في هذه الساعة المبكرة. لم أرد إيقاظك، لكن الأمر يتعلق بالعلبة التي أعطيتني إياها. هل أنت متأكدة من أن الشرطة قد اطلعت عليها؟».

ردت: «العلبة؟ أتقصدين أغراض كيت؟».

قلت: «نعم، هل اطلع رجال الشرطة على ما فيها؟»

أجابت: «نعم، أنا متأكدة من ذلك. لكن، لماذا؟».

قلت: «إنني أطلع على محتوياتها الآن».

هتفت: «الآن؟! إن الوقت مبكر جداً...».

قلت: «أعرف، لكنني لم أستطع النوم، وكل ما هنالك أنني وجدت قائمة ببعض الأسماء، وأعتقد أنها تخص أشخاصاً كانت تتحدث معهم عبر الإنترنت، لذا اعتقدت أنه لا بد لرجال الشرطة أن يطلعوا على ذلك...».

ردت: «لقد قاموا بذلك. فقد اطلعوا على كل محتويات العلبة، وقالوا إنهم سيحتفظون بأي شيء قد يحتاجون إليه».

قلت لها: «هل أنت متأكدة؟».

ردت: «أعتقد ذلك. لحظة واحدة رجاء».

صمتت ثانية، فتخيلتها تهز نفسها لتستيقظ، ثم سمعتها تقول: «عفواً، ما هي الأسماء التي وجدتها؟».

قرأت لها أول اسمين وسألتها: «هل يبدو لك أي منهما مألوفاً؟ وهل سبق لها أن ذكرت أياً منهما أمامك؟».

أجابت: «كلا».

تابعت القراءة، وبعد مرور عدة أسماء أوقفتني. عندها، كانت قد صحت من نومها تماماً، فقالت:

«مهلاً! هل قلت: «Ourcq»؟ هذا ليس اسم مستخدم، بل اسم محطة مترو».

كنت أعرف ما كانت على وشك قوله.

قالت: «إنها تقع بالقرب من المكان الذي وجدوا فيه جثتها».

قلت: «إذاً، هل تعتقدين أن هذا ما كانت تفعله هناك؟ هل كانت تقابل أحد الأشخاص الذين كتبت أسماءهم في هذه القائمة؟».

ردت: «لا أعرف». شعرت قبل أن تجيبني بموجة غريبة من الطاقة، ثم قالت لي: «لكنني أعتقد أن ذلك ممكن».

أنهيت المكالمة، ونظرت مجدداً إلى قائمة أسماء المستخدمين في مفكرتها، وكأنني قد وجدت نقطة ضعف في جدار حزني؛ شيئاً ما قد يسمح لي بالدخول ثم يجعلني أعبره لأصل إلى الطرف الآخر؛ أعني إلى حالة السلام.

أعدت تشغيل حاسوبي المحمول، وكتبت على عجل: ecountrz.com، وأقنعت نفسي بأنني أريد فقط أن ألقي نظرة على ذلك الموقع، إذ لا يمكن لذلك أن يضر أحداً. وكنت على وشك أن أضغط زر الإدخال حينما سمعت صوت جلبة؛ بدأت بسعال، ثم سمعت صوت أحدهم.

ظهر هيو أمامي، ثم بادرني بالسؤال: «أهذه أنت يا حبيبتي؟ إنها الخامسة والنصف صباحاً، بالله عليك ماذا تفعلين؟».

أغلقت صفحة المتصفح واستدرت لأواجهه، كان يرتدي ثوب النوم الذي ربط حبله حول خصره، وكان يتثاءب وهو يفرك عينيه، ثم سألني: «هل أنت بخير؟».

أجبته: «نعم. لكنني لم أستطع النوم».

رد: «مجدداً؟! ما الخطب؟».

قلت: «كنت فقط أفكر في أنه لا بد أن رجال الشرطة قد فاتهم أمر ما».

تنهد، فقد كنت أقول له الكلام نفسه كل يوم.

قال: «أعتقد أنهم اطلعوا على كل شيء تماماً». ثم تقدّم نحوي وجلس قربي. كنت أعرف أنه بوسعه رؤية ما هو ظاهر على شاشتي.

تابع حديثه قائلاً: «إذا سمعت بأي جديد فسأخبرك عنه فوراً كما أفعل دوماً، وأنت تعرفين ذلك».

قلت: «أجل. لكن، هل تعتقد أنهم ما زالوا يحققون في ما حدث؟».

شرع بالقول: «أنا متأكد من أنهم يقومون بكل شيء...» لكنني قاطعته

وقلت:

«أعني، هل يقومون بالتحقيق فعلاً؟».

عندها، ابتسم ابتسامته الحزينة المفعمة بالحنان؛ ابتسامة الجراح التي كان يرسمها على وجهه. وكنت دوماً أتخيله وهو يتدرب على هذه الابتسامة أمام المرآة، وقد عزم على ألا يكون أحد أولئك الأطباء الذين يتهمهم الناس بمعاملة المرضى بطريقة سيئة.

قال لي: «أنا متأكد من أنهم يحققون. وقد ناقشنا الأمر معهم، وأخبرونا أنهم قابلوا جميع أصدقائها وحققوا معهم؛ كما حققوا مع جميع الأشخاص الذين عملت معهم، وقاموا بتفتيش سجلات هاتفها، وأخذوا المعلومات الموجودة في حاسوبها. إنّهم يتتبعون كل خيط متوفر؛ إلا أن أمراً كهذا لا يمكنه أن يتم بسهولة... فقد كانت الجريمة عشوائية، وغير مبررة».

سألته: «هل أخبرتهم عن مواقع المواعدة؟».

رد: «أجل، لقد اتصلت بهم حالما أخبرتني بذلك، فوجدتهم على علم بالأمر؛ إذ إن آنا قد أخبرتهم بذلك. كما قالوا لي إنه لم يكن لدى كيت أي حبيب...».

قلت: «لكن تلك الأسماء ليست لها علاقة بالمواعدة فقط، فقد ألمحت آنا إلى أن كيت كانت تغويهم من أجل القيام بعلاقة حميمة، ». هز رأسه موافقاً، لكنني تابعت: «أتعرف؟ كانت تقضي معهم ليلة واحدة فقط. غير أن آنا أخبرتني بأنها لم تكن تفعل ذلك كثيراً، لكن يبدو أنها كانت كذلك، ولم تكن تخبرها دوماً إلى أين تذهب أو من كانت تلتقي».

لمعت نظرة استنكار في عينيه وملأت وجهه، فسألت نفسي إن كان يعتقد أنها تستحق ما جرى لها، ومن ثم طردت الفكرة من رأسي على الفور.

سألته: «هل تعتقد أن هذا هو سبب قتلها؟».

سألني: «ماذا تقصدين؟».

أجبته: «شخص ذهبت لملاقاته؛ أي للقيام بعلاقة حميمة معه، أو أحد الأشخاص الذين كانت تراسلهم عبر الرسائل النصية على الأقل؟».

رد: «أنا متأكد بأن الشرطة تبحث في هذا الموضوع».

قلت: «إنهم لم يخبرونا بأنهم يقومون بذلك».

قال: «انظري، لقد خضنا في كل تلك الأمور يا جوليا، وهم يتولون هذا الأمر، إلا أن الحقيقة التي أثق فيها هي أنها كانت تتحدث إلى الكثير من الأشخاص عبر الإنترنت، لكنها لم تلتقِ منهم سوى شخص أو اثنين».

ترددت، كنت بحاجة إلى دفعه للكلام؛ فقد كنت شبه متيقنة من أنه يعرف أكثر مما يبوح لي به، وأن ثمة جزءاً صغيراً للغاية تم التغاضي عنه وإغفاله. ثمة تفصيل صغير لا بد أن ينفرط بموجبه العقد حتى يعود كل شيء إلى مكانه الصحيح.

قلت له: «لكن...»

فقاطعني قائلاً: «جوليا، لقد خضنا في هذه الموضوع ألف مرة. لقد احتفظوا بحاسوبها المحمول، وهم يقومون بكل ما في وسعهم. ولكن، إن كانت تمارس ذلك سراً، فسيصبح من المستحيل أن نكتشف جميع الأشخاص الذين تواصلت معهم. وربما تكون هنالك مواقع استخدمتها لكننا لا نعرف شيئاً عنها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أرقام الأشخاص الذين كانت تتحدث إليهم... ما هذا؟».

في البداية، لم أفهم ما قصده، ولكن بعد هنيهة اكتشفت أنه كان ينظر إلى شاشتي.

قلت: «إنها صورة ضوئية». لم يكن واضعاً نظارته، لذا كان عليه أن يقترب من الشاشة ليرى الصورة بشكل أفضل، فتابعت: «إنه المكان الذي وجدت فيه كيت ميتة».

وضع يده على كتفي، فشعرت بثقلها وبأنه كان يحاول طمأنتي، ثم قال لي: «هل أنت متأكدة من أن مشاهدة هذه الصورة فكرة رائعة يا حبيبتي؟».

قلت له: «كلا». لم أكن يائسة، لكنني كنت أريد منه أن يوافقني الرأي.

ولكن، لِمَ كان سيستحسنها؟ فقد كان يعتقد أن الشرطة تبذل كل ما في وسعها، وأن ذلك هو كل ما يمكن القيام به.

قلت له: «لست متأكدة من أنها فكرة رائعة على الإطلاق. لكن، ما الذي يفترض بي القيام به غير ذلك؟».

قال: «عودي إلى سريرك».

قلت: «سأعود قريباً».

رد: «تعالي». وأخذ يشدّ على كتفي، ثم قام بإغلاق حاسوبي بلطف وهو

يقول: «تعالي واستريحي قليلاً، وستشعرين بتحسن. أعدك بذلك. هذه هي أوامر الطبيب».

وقفت. لم أكن أريد أن أتحسن، بل كنت أود أن أقول له إنني لن أتحسن أبداً، لكنه التفت ليصعد إلى الغرفة.

قلت له: «سأوافيك بعد دقائق؛ لأنني سأعد لنفسي فنجاناً من الشاي. وقد أقوم بالمطالعة قليلاً إلى أن أشعر بالنعاس».

رد: «لا بأس». فقد كان يعرف أنني لا أنوي أن أتبعه، ثم قال: «هل نسيت أنك قد دعيت ضيوفاً على العشاء؟».

قلت: «كلا». بالرغم من أنني كنت قد نسيت فعلاً.

قال: «ماريا وبادي».

بالطبع، فقد كنا نعرف عائلة رينوف منذ سنوات طويلة؛ أي منذ أن انضمت ماريا إلى قسم هيو كأمينة سجل. وكان هيو يشيد بنجاحها منذ ذلك الحين؛ إذ يقول إنها كانت تذهب إلى أماكن لا يمكن أن يسمح لأحد بالذهاب إليها. لقد كنت أحبها هي وزوجها. لكنّ هذه المرة هي الأولى التي يدعوهما فيها زوجي إلى بيتنا. أو لنقل إنها كانت المرة الأولى التي يدعو فيها زوجي ضيفاً إلى بيتنا منذ وفاة كيت، وقد افترضت أنه كان يعتقد أن الطبخ قد يحسن حالتي.

لعله محق. فقد تذكرت كيف يقوم المرء باتباع وصفة ما، وبالتقطيع والفرم ووزن المكونات وقياسها. لقد كنت أستمتع بذلك، قبل وفاة كيت. كنت أحضر الدورات، وكنت فخورة بنفسي لأنني تحولت من شخص لا يعرف أي شيء عن الطهي إلى شخص يمكنه إعداد وجبة المعكرونة الخاصة به.

ولكن، ما الذي دهاني الآن؟ لم أكن أرغب الآن برؤية أي شخص.

قلت له: «ألا يمكننا أن نلغي الدعوة؟».

فاقترب مني وقال: «حبيبتي، لا بد أن يحسن ذلك حالتك. أنا متأكد من هذا». ثم قبلني من قمة رأسي. كانت قبلته ناعمة ودافئة، وللحظة وددت أن أقترب منه أكثر وأطلب منه أن يحميني.

قال لي: «سنستمتع بذلك كما كنا دوماً. إذ لا بد أن تتحدث ماريا عن العمل بلا انقطاع، ولا بد أن يبدأ بادي بملاطفتك، ومن ثم سنضحك على كل ذلك بعد مغادرتهما، أعدك بذلك».

كان محقاً، أعرف أنه كذلك، لكن لم يكن بمقدوري متابعة كل ذلك.
قلت له: «سأذهب للتسوق هذا الصباح».

صعد إلى الأعلى، فجلست على الكرسي، وأبقيت جهاز الكمبيوتر مغلقاً. لم أكن أريد دخول موقع encountrz، لأنني كنت خائفة مما يمكنني إيجاده فيه.

قمت بإعداد الشاي، ثم جلست بصحبة كتابي، فمضت ساعة وساعة أخرى، ثم نزل هيو بعد أن استحم وأصبح جاهزاً للذهاب إلى عمله، وبعد ذلك بقليل نزل كونر.

قال لي: «مرحباً ماما». كان قد ارتدى ملابس المدرسة المؤلفة من سترة رمادية وقميص أبيض وربطة عنق كستنائية اللون. أخذت أراقبه وهو يتناول صحفة من الحبوب، ويصب لنفسه بعض العصير. خلت ساعتها بأنه كان يكبر كل يوم.

سألته: «هل أنت بخير يا حبيبي؟». أجابني: «نعم». وهز كتفيه بطريقة ودودة، وكأنه لم يكن هنالك أي سبب يمنعه من أن يكون بخير.

لعله كان بخير حقاً، لكنني كنت أشك في ذلك. فرغم أنه توقف عن عادة البكاء في هذا الحين، إلا أن ذلك كان أمراً مقلقاً أكثر من موضوع البكاء. كانت المرة الوحيدة التي تحدث خلالها عن وفاة كيت هي حينما سأل إن كانت هنالك أي «أخبار جديدة»، وقد قصد بذلك: «هل أمسكوا بهم؟». لقد شعرت بالغضب في البداية؛ فهل هذا كل ما يمكنه التركيز عليه؟! ولكنني أدركت في ما بعد أن هذا المنظور هو الوحيد الذي يمكنه عبره معالجة حزنه. فقد أصبح في الرابعة عشرة من عمره للتو، فكيف له أن يتعامل مع الموضوع بطريقة أخرى؟!

جلس إلى المائدة ليتناول فطوره، فأخذت أراقبه حالما بدأ بتناول الطعام.

لقد أخبرنا الاستشاري الذي أخذناه إليه أن كل ذلك طبيعي، فقد كان كونر يتصرف كما هو متوقع منه، وكان يعالج حزنه بطريقته الخاصة، ويتوجب علينا ألا نقلق عليه. ولكن، كيف يمكنني ألا أقلق عليه؟ فهو لم يكن يتكلم معي مطلقاً، وكان يبتعد عني. وكنت أريده أن يعرف كم أحبه، وأنني سأقوم بكل شيء من أجله. ولكن، بدا لي كما لو أنه قرر ألا يهتم بأي شيء بعد الآن.

تنحنحت وقلت له: «لا بأس في أن تتحدث إليّ إن كنت ترغب في ذلك».

رد: «أنا بخير». ثم تناول وجبة الحبوب بسرعة فيما كنت أعد لنفسي فنجاناً من القهوة. وللحظة، عدت بذاكرتي إلى أيام كيت. لقد كانت هي من يستعد للذهاب إلى المدرسة وليس ابنها. ولكن بعد مرور لحظة أخرى، رأيت كونر واقفاً وهو يقوم بجمع أغراضه، فوددت لو أقول له: لا تذهب، بل اجلس معي، وتحدث إلي. لكنني لم أستطع فعل ذلك بكل تأكيد، بل قلت له: «أراك لاحقاً...». ولكن، قبل أن أتمّ كلامي كان قد خرج. ثم أتاني من حيث لا أدري إحساس غامر يحثني على معانقته وتقبيله.

وكنت قد قمت بذلك في إحدى المرات، لكنني لن أفعل هذا الأمر الآن؛ لأنه على الأرجح لا بد له أن يستجيب لمعانقتي إياه بعدم مبالاة وكأن ذلك لا يعنيه، ولم أكن قادرة اليوم على تحمل ذلك، لذا بدلاً من ذلك صرخت: «أحبك». فرد علي أثناء مغادرته: «إلى اللقاء ماما». كان ذلك كافياً بالنسبة إليّ تقريباً.

إنه يكبر، وأنا أعرف ذلك. فهو يتحول إلى رجل، ولا بد أن هذه مرحلة عصيبة بالنسبة إليه حتى لو لم تظهر مسألة وفاة كيت ليتصارع مع الحزن الناجم عنها. كان علي أن أتذكر ذلك مهما حدث، ومهما أخذ الكرب يشتد، ومهما ابتعد عني، وذلك لأن الألم كان يعتصر قلبه. وقد ينتابني إحساس بأنه سبق لي أن خذلته مليون مرة. لكن، لا بد لي من مواصلة الاعتناء به وحمايته، كما اعتنيت بأمه وحميتها حينما كانت طفلة.

ابتعدت عن النافذة، وتذكرت أنني سأقوم بالتقاط صور ضوئية لإحدى العائلات في الأسبوع المقبل، إذ إن سيدة الأسرة كانت زميلة لأدريان، لذا يتعين عليّ التقاط صور لها، ولزوجها وابنتيها الصغيرتين، ويتوجب عليّ التفكير في ذلك. لقد كانت هذه هي المرة الأولى منذ وفاة كيت التي أشعر فيها أنني قادرة على العمل، وأنني أريد أن أقوم به على أكمل وجه، هذا فضلاً عن حفلة العشاء التي لا بد لي أن أستعد لها. هنالك أمور كثيرة يتوجب عليّ القيام بها.

الفصل السابع

اتصلت بأدريان لأحصل على معلومات عن صديقتها؛ لأنني كنت أريد أن أجري ترتيباتي. كان لدي استديو في الجهة الخلفية من الحديقة، حيث أحتفظ هناك بمناصب ثلاثية القوائم، وأضواء، وستارتين للخلفية يمكنني تعليقهما بالسقف. وكان لدي مكتب هناك؛ بالرغم من أنني كنت أقوم بعمليات التحرير والتصحيح عادة على حاسوبي المحمول في المنزل، وعلى طاولة المطبخ أو في غرفة الجلوس. قلت لها: «سيكون الأمر رائعاً إن كان بوسعهم أن يأتوا إلى عندي، لأن ذلك سيسهل علي الأمر».

كان بمقدورها أن تلاحظ أن الحماسة الغائبة عن صوتي.

سألتني: «ما الخطب؟».

أجبتها: «أيمكنك أن تخبريهم؟».

ردت: «بالطبع، لكنْ تحدثي إلي».

لم أكن أريد ذلك، لكنني لم أستطع اكتشاف السبب. فهل شعرت بذلك لأنني كنت قلقة من أن تطلب مني ترك الأمور وشأنها والكف عن التدخل والقلق؟

قلت لها: «لقد اطلعت على أغراض كيت، أي الأشياء التي أعطتني إياها آنا».

قالت: «حبيبتي...».

قلت: «لقد اكتشفت جميع تفاصيل تسجيل الدخول الخاصة بها، والتي كان بإمكانها بواسطتها دخول الموقع الإلكتروني الذي كانت تستخدمه».

سألتني: «لماذا؟».

أجبتها: «لتلتقي الشبان. كما وجدت قائمة بأسماء الأشخاص الذين كانت تتحدث إليهم، أو لعلها كانت تلتقيهم حسبما أعتقد».

سألتني: «وهل سلمت القائمة للشرطة؟».

أجبتها: «أخبرني هيو أنهم قد حصلوا عليها».
قالت: «جيد. إذاً، لم يعد هنالك أي شيء آخر يمكنك القيام به».
لكن، كان هنالك شيء يمكنني القيام به بالرغم من ذلك.
قلت لها: «يمكنني أن أقوم بتسجيل الدخول على أساس أنني هي، إذ لدي كلمة السر الخاصة بها، ويمكنني بذلك أن أكتشف إن كان هنالك أي شخص آخر هناك».
بقيت صامتة لفترة طويلة.
ناديتها: «أدريان؟».
سألتني: «ألم يقم رجال الشرطة بذلك؟».
أجبتها: «لا أعرف. لعلهم لم يدركوا ماهية ذلك الموقع، أو أن Jasper1234 هي كلمة السر الخاصة بها. لذا، فكرت في الاتصال بالإنترنت ومراجعة محادثاتها لأتأكد إن كانت هنالك أي أسماء أخرى واردة فيها».
قالت لي: «لست أدري... يبدو الأمر في غاية الخطورة».
غير أن تحفظها عزز من إصراري فقلت:
«إنني أتحدث فقط عن استخراج قائمة بالأسماء».
ساد صمت طويل؛ وكأنها كانت تحاول أن تدرس الفكرة. فالحكمة من أن لدي شيئاً يمكنني القيام به، تقابلها فرصة أو احتمال بألا تفضي الأمور سوى إلى المزيد من خيبة الأمل.
حسناً، إنها على حق؛ فلا بد أن الشرطة سبق لها القيام بكل ذلك.
قالت لي: «أعتقد أن ذلك لن يضر طالما أنك تتحدثين فقط عن الحصول على تلك القائمة. ولكن، لم لا تتحققي من ذلك منهم أولاً؟».
فجأة، شعرت أن فكرتي لم تكن صائبة على الإطلاق؛ إذ ما الذي يمكن للشرطة فعله بقائمة أسماء؟!
«لن أزعجهم على الأرجح».
تنهدت وقالت: «فقط كوني حذرة يا جوليا في كل ما تفعلينه، ولنبقَ على تواصل».

أمضيت فترة الظهيرة بالتسوق ثم الطهي. ولبرهة، أحسست بأنني نسيت

نفسـي ضمن إيقاع الوصفة، لكن الأمر لم يسـتمر سـوى لفترة قصيرة. غير أن الأمسـية بدأت بداية سـيئة؛ إذ أعلن كونر أنه سـيقوم بكتابة واجباته المدرسـية، وأنه يريد أن يتناول العشـاء في غرفته؛ مما يعني أنني سأتشـاحن مع هيو بشـأن تركه على حريته.

تفاقمت حالة التوتر، ولم تعد الأمور إلى طبيعتها إلا بعدما وصل الضيفان.

بعد ذلك جرت الأمسية كالمعتاد، إلا أن الأجواء كانت مختلفة، ولم يكن بمقـدور أي كان أن ينكـر ذلـك. فوفـاة كيت ألقت بظلالها التي أصبحت مألوفة بالنسبة إلينا على جو تلك الأمسية؛ حيث ذكر بادي الأمر فور وصوله مع زوجته، وأخذا يعبران عن أسفهما لما حدث، لكن الأمر كان أسوأ من ذلك؛ فقد كنت منعزلة، ولم أسـتطع الانخراط في الجو. لقد تحدث كلاهما عن جنيف كثيراً؛ بما أنها المكان الذي دُعِي إليه هيو ليُلقي الكلمة الرئيسة في مؤتمر سيعقد هناك في الأسبوع المقبل. وكانت ماريا قد قررت الذهاب إلى هناك لتعرض أعمالها أيضاً. ولكن، بالرغم من أنني زرت جنيف، إلا أنني لم أشاركهم في الحديث؛ إذ كنت أشعر بأنني خارج الموضوع تماماً، وبقيت أراقب الوضع من مسافة بعيدة. كنت أراقب هيو وهو يصب الشراب، ثم وهو يهز رأسه عندما ارتشف كلاهما منه وأظهرا استحسانهما. بعد ذلك، أخذت أتناول طبق لحم بقر ويلينغتون الذي طهوتـه بنفسـي، وبـدأت أتقبل إطراءهم عليـه بلطف، لكنني كنت أمثّل، إذ كنت أتظاهر بأنني إنسانة طبيعية؛ بالرغم من أنني لم أكن كذلك.

وحالما أنهينا تناول الطعام، أخبرنا بادي أنه يود الخروج ليدخن لفافة تبغ، فقلت له: «لم أكن أعرف أنك تدخن».

فرد عليّ قائلاً: «إنها عادة قذرة، ولكن...». ثم أخذ يهز كتفيه، فأخبرته أننا لـن ننزعـج إن قـام بالتدخين داخل البيت بالقرب مـن إحدى النوافذ المفتوحة، لكن ماريا اعترضت على ذلك وقالت: «مستحيل! دعيه يخرج».

تظاهـر بالانزعـاج، لكـن ذلك كان على سـبيل الدعابـة اللطيفة، حيث أخذ علبة سجائره من جيب سترته، ونظر إلي ثم قال:

«أتحبين أن تأتي معي؟»

أخبرته أنني سأفعل، فنظر هيو إليّ ولم ينبس بكلمة. خرجت معه، وأغلقت باب فناء البيت خلفنا. كان الظلام قد خيم تقريباً، إلا أن الجو بقي دافئاً، فجلسنا

قرب الجدار عند طرف بقعة النور التي امتدت من المطبخ، وخلفنا كان الاستديو الخاص بي. قدّم لي سيجارة قائلاً: «أنت لا تدخنين، ولكن ما رأيك بواحدة؟».

أخذتها وأنا أقول: «نادراً ما أدخن». أشعل سيجارته ثم ناولني الولاعة، فسحبت من السيجارة نفساً عميقاً، وأخذت أحس بدفقة الدخان؛ تلك الضربة الفورية. جلسنا ندخن بصمت لفترة قصيرة، ثم بادرني بالسؤال عن الطريقة التي اتبعتها لأتغلب على حزني، حيث قال لي: «أعني، كيف تمكنت من القيام بذلك فعلاً».

ابتلعت لعابي بصعوبة وقلت: «لقد كان الأمر قاسياً، أنت تعرف...».

أجابني: «أعرف. فقد توفي شقيقي منذ عامين بمرض السرطان، وكان يكبرني و...».

قلت: «يا إلهي! لم أسمع بذلك».

«وما الفائدة؟». ثم ساد الصمت بيننا لفترة قصيرة ما لبث أن كسره بقوله: «لم تكن النهاية مفاجئة، لكنها كانت بشعة. لذا ليس بمقدوري أن أتخيل ما كنت تقاسينه».

جلسنا لفترة قصيرة ثم قال لي: «كيف حال كونر؟».

تنهدت، إذ لم يكن لدي ما أقوله، ومع ذلك كنت مسرورة لأنه كلف نفسه عناء السؤال، فأجبته: «إنه بخير حسبما أعتقد، إلا أنه لا يتحدث حول ذلك الموضوع. وأنا على يقين بأن هذا ليس بالوضع المبشر بالخير، بالرغم من أن...».

رد علي: «لا بد أن يتحدث حينما يصبح مستعداً حسبما أعتقد».

قلت: «أعتقد ذلك. لكنني أود أن أعرف ما يفكر فيه، وما يدور في خلده. إنه يقضي ساعات طويلة في غرفته. ومع أن ذلك ليس بالأمر الجديد عليه، إلا أنني أشعر وكأنه يتحاشاني».

قال: «أعتقد أنه بلغ ذلك العمر، كما أنه شاب وليس فتاة».

نظرت إليه، وتأملت جانب وجهه الذي كان الضوء الصادر من المنزل يظلله. هل الأمر بهذه البساطة؟ لقد توفيت أمي حينما كنت يافعة، لذا لم تكن لدي أدنى فكرة عن الوضع الطبيعي. ولكن، لعله على حق، فحقيقة كونه شاباً وأنا امرأة تفسر سبب ابتعاده عني. وقد وجدت في هذه الفكرة ما يطمئنني على

نحو غريب؛ إذ لعل الأمر لم تكن له أي علاقة بأنني لم أكن أمه التي ولدته.

سألته: «هل سبق لك أن فكرت أنت وماريا بالإنجاب؟».

نظر إلى زوجته التي كان باستطاعتنا مشاهدتها في المطبخ وهي تساعد زوجي في تحضير الحلويات. ثم انضم كونر إليهما، إذ كانا يضحكان حول أمر ما.

أجاب بادي: «كلا». ثم عاود النظر إليّ وقال: «أنت تعرفين مهنة ماريا... ثم إنني لا أكترث لهذا الموضوع، نظراً إلى كوني أتمتع بعائلة كبيرة، ولدي الكثير من أبناء وبنات الإخوة والأخوات».

بدا لي محبطاً، لكنني لم أكن أعرفه جيداً كي أقوم بسبر أغواره أكثر.

قلت له: «هذا جيد». ثم سحبت لفافة التبغ من فمي.

سألني: «ألا ترغبين في العودة إلى الداخل؟».

قلت: «بالطبع». فقام بمسح يديه ببنطاله، ثم وقف ومد لي يده وهو يسألني: «هل ستحضرين حفلة كارلا؟».

كنت قد نسيت الأمر كلياً، فقد كانت كارلا زميلة أخرى من زميلات هيو، وكان لديها منزل كبير في منطقة ساري، وفيها حديقة واسعة، وموقد للشواء يعمل على الغاز، لذا كانت تقيم حفلة في شهر تموز من كل سنة وتدعو إليها الجميع. وكنا قد أمضينا وقتاً ممتعاً لديها في السنة الماضية، لكنني اليوم لا أتحرق شوقاً للذهاب إلى الحفلة على الإطلاق، مع أنني وقعت في حيرة من أمري لأنها أرسلت الدعوات في شهر نيسان؛ أي لم تكن أمامنا أي طريقة للتملص من الذهاب إلى الحفلة.

قلت له وأنا أنهض: «أعتقد ذلك». فابتسم وقال إنه مسرور لسماع ذلك. جرى كل هذا في أقل من الثانية التي سبقت تركه يدي، وذلك قبل أن يتسنى لي الوقت الكافي لأتأكد بأن ذلك كان يعني شيئاً ما؛ إذ لم أكن مهتمة إن كنت أنا التي أمسك به أم هو من يمسك بي.

ثم غادر الضيفان المنزل، فمضى هيو إلى المطبخ من دون أن ينطق بكلمة وتبعته. عندها، بدأ يرتب المكان، ويزيل فضلات الطعام عن كل طبق من الأطباق قبل أن يقوم بغسله ووضعه في حوض الجلي. لم يكن يبتسم قط، حتى إنه لم يكن ينظر إلي وأنا أتكلم.

لذا سألته: «ماذا حل بك؟».

فلم ينظر إلي أيضاً، ولكنْ انزلق طبق من يده نحو الحوض. هل كان سلوكه هذا بسبب خروجي وجلوسي مع بادي؟

قال لي: «إنه كونر».

سألته: «كونر؟!». وأنا التقط قطعة قماش ثم أبدأ بمسح الرف، وتابعت: «ما به؟ هل سنواصل شجارنا لأنني سمحت له بتناول الطعام في غرفته؟».

رد علي: «هذا الأمر واحد من بين أمور أخرى كثيرة».

قررت أن أتجاهله لأنه إن كان يريد أن يضيف شيئاً، فعليه أن يتحدث بشأنه بدلاً من أن يدفعني إلى التخمين.

لكنني عوضاً عن ذلك قلت له: «لقد كان مستاء بالفعل طيلة الفترة الأخيرة، وأعتقد أنه علينا ألا نجبره على القيام بأي شيء لا يرغب في القيام به. أعتقد أن علينا أن نمنحه مساحة أكبر من الحرية».

عندها، وضع الطبق الذي كان يحمله جانباً، ثم التفت إليّ وقال: «أجل، حسناً، أعتقد أننا قد منحناه مساحة كبيرة جداً من الحرية في الفترة الأخيرة، لذا يجب علينا ألا نجعله مدللاً؛ إذ من الضروري أن نبقي الأمور طبيعية يا جوليا».

سألته: «ماذا تقصد؟».

قلب راحتيه نحو الأعلى وقال: «لقد أخبرنا المرشد النفسي المختص بحالة الحزن أنه علينا ألا نقدم تنازلات كبيرة؛ إذ عليه أن يدرك أن الحياة مستمرة».

الحياة مستمرة؟! اشتد غضبي، فالحياة لم تعد مستمرة بالنسبة إلى كيت، أليس كذلك؟ أخذت نفساً عميقاً ثم قلت: «إنني قلقة عليه فحسب».

رد: «وهل أنا غير قلق عليه؟ إنه يعود إلى البيت ورائحة السجائر تفوح منه».

سألته: «السجائر!؟».

قال: «ألم تلاحظي ذلك على ثيابه؟».

أخذت أهز رأسي نافية؛ إذ لم ألاحظ أي شيء من هذا القبيل، فإما أنني أصبحت مهملة، أو أن هيو بدأ يتخيل أشياء غير موجودة. وكنت أشك في أن الحالة الثانية هي ما يحدث فعلاً، لذا قلت له: «لعل أصدقاءه يدخنون. هل سبق لك أن فكرت في ذلك؟».

ضاقت عيناه من اتهامي وقال:

«ثم ماذا بعد ذلك؟ هل سيتناول الشراب؟».

قلت: «هيو...»

غير أنه قاطعني قائلاً: «أسيتشاجر مع زملائه في المدرسة؟».

هتفت: «ماذا؟».

رد: «لقد أخبرني بأنه خاض بعض الشجارات».

سألته: «هل أخبرك بذلك؟».

أجابني: «أجل، فلقد كان مستاء. غير أنه لم يخبرني عن سبب الشجار، لكن هذا لا يشبهه يا جوليا، إذ لم يسبق له أن تشاجر مع أحد في المدرسة».

فكرت: لأنه لم يفقد والدته من قبل، لكنني لم أنطق بذلك.

قلت له: «لعله ينبغي لنا أن نتركه يرتكب الأخطاء ليتعلم منها. وها هو يكبر، ويجب أن يفرغ طاقته، لاسيما في ظل الظروف التي يعيشها».

قال لي: «أعتقد أن كل ما يجب علينا فعله هو أن نراقبه ونرعاه أكثر».

سألته: «هل تقصدني؟ هل تعتقد أنه ينبغي لي أن أراقبه وأرعاه أكثر؟ أتعرف ماذا؟ يبدو لي أنك أب مثالي حينما يتعلق الأمر فقط بلعب الشطرنج أو طلب وجبات جاهزة حينما أكون خارج البيت، ولكن حينما يحتاج الفتى إلى بعض التهذيب والانضباط يصبح ذلك من واجباتي فجأة!!». لكنه تجاهلني، فقلت له: «حسناً، ما رأيك؟».

رد: «لم أقصد ذلك، انظري إلي، إنني لست على يقين من أنك...».

قلت: «من أنني ماذا؟».

كنت أعرف بالضبط ما كان يقصده: من أنني أمثل قدوة حسنة، لقد كان يلمح إلى ما جرى في باريس.

أجاب: «إنني لست على يقين من أنك تكونين متواجدة من أجل كونر في الوقت الذي يحتاج إليك فيه».

لم أستطع أن أكبح ضحكتي، لكنها كانت ردة فعل لا إرادية، فقد كان محقاً في بعض النواحي.

سألته: «ما الذي تقصده بالضبط؟».

أخفض صوته وهو يقول: «جوليا، أرجوك أن تهدئي وتكوني عاقلة».

عدت إلى الطاولة لأنهي ترتيبها، ولأدير ظهري له، لكن ما حدث كان أنني رأيت أمامي الكأس التي شربت منها. وعندما أمسكت بها، اجتاحني من حيث لا أدري دافع مفاجئ لا يقاوم؛ إذ تخيلت نفسي وأنا أملأ الكأس من زجاجة الشراب التي لم تفرغ تماماً، ثم أحتسي ما فيها دفعة واحدة. كان بوسعي أن أحس بها، بطعمها الثقيل في فمي. كان بوسعي تذوقها، تذوق طعمها اللاذع والدافئ؛ لقد كنت أريد ذلك أكثر من أي شيء آخر.

أمسكت بالكأس بيدي، وفكرت في سري بأن هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالإغواء منذ أن عدت من باريس. لم تكن تلك انتكاسة، بل كانت تعني ما سمحت لها بأن تعنيه.

هتف: «جوليا؟».

تجاهلته، وقلت لنفسي: سأركب تلك الموجة. أجل سأركبها، فقد غمرتني الرغبة كموج البحر ومن ثم خبت. كان علي أن أنتظر، فقد كان هيو هنا على أي حال، ومهما حدث فلن أتناول الشراب أمامه.

ومع ذلك، كنت قد تدبرت أمري وتناولت الشراب في باريس، وكان ذلك منذ بضعة أسابيع. إلا أن حالة الإغواء لم تنتبني منذ ذلك الحين. وحتى لو كنت أريد أن أشرب الآن، فإن ذلك لم يكن يعني بداية النهاية.

عدت للتفكير في البرنامج كخطوة أولى، إذ إن هذه الرغبة لم تكن بالأمر الذي يمكنني السيطرة عليه، كما أن الحقيقة المتمثلة بأن حالة الإغواء لم تنتبني طيلة الأسابيع الماضية لا تعني أنني قد تجاوزت الأمر؛ إذ إن حالة السيطرة ما هي إلا وهم.

أخذت أفكر في راعية البرنامج راشيل حينما قالت لي في إحدى المرات: «الإدمان مرض يعاني منه الشخص، وهذا المرض قد ينتظر الفرصة الملائمة للظهور طيلة حياتك؛ هذا إن كتب له أن يظهر. لذا، عليك ألا تنسي هذه الحقيقة».

قلت لنفسي: لم أنسَ ولن أنسى.

سمعت هيو يقول: «جوليا؟». وبدا لي متضايقاً. يبدو أنه قد فاتني شيء ما، فقد كان يتحدث إلي.

التفتُّ نحوه وقلت: «نعم؟».

قال: «أعرف أنه مضطرب بشأن وفاة والدته...»
كان اختيـاره للألفـاظ لاذعـاً، إلا أن غضبـي أجبر رغبتي في الشـرب على الهبوط.
قلت له: «لم يكن يفكر في كيت كأم له على الإطلاق».
رد علي: «إنك تعرفين ما أعنيه؛ إذ لا بد لوفاة كيت أن تزعجه، ولكن...»
سألت: «لكن، ماذا؟».
قال: «لكنه يصر على عدم الحديث بشأن ذلك، وإنني أجد ذلك مقلقاً؛ إذ عليه أن يتكلم بهذا الموضوع خلال هذه الفترة».
أغضبني تعليقه، لذا هاجمته قائلة: «هل خطر ببالك أن هذا الأمر لا بد أن يستغرق وقتاً؟ وأنه ما من جدول زمني لذلك؟ لا يمكن لأي شخص أن يتعامل مع وفاة كيت بالطريقة التي تعاملت أنت بها مع الموضوع».
سألني: «ماذا تقصدين؟».
أجبتـه: «سـيحتاج كونـر إلـى فترة أطول من الفترة التـي احتجت إليها أنت لتجاوز موضوع وفاة كيت؛ هذا كل ما في ما في الأمر».
أخـذت أفكـر فـي مـا قالته لـي أدريان: «لا تظني أن هيـو لا يهتم، فكل ما هنالك هو أنه يعشق الالتزام، لذا الحزن بالنسبة إليه حالة فوضى وتشوش، وهو يكـره تلـك الحالـة. كمـا يجـب عليك ألا تنسـي أنه يتعامل مـع موضوع الحياة والمـوت فـي عملـه طيلـة الوقـت، إذاً لا بد لذلك أن يقـوي من عزيمتك بعض الشيء».
بدا لي مندهشـاً، وأخذ يقول: «إنني لم أتجاوز موضوع وفاتها، فقد كانت كيـت مقربـة مني، وأنـا أفتقد إليهـا أيضاً. ما الذي جعلـك تتفوهين بذلك؟ لقد جرحني كلامك».
قلـت لـه: «أمـا زلـت تتواصل مع وزارة الخارجية؟ أم إنك تركت كل ذلك لي».
أجاب: «كنت أتواصل معهم طيلة الوقت، جوليا...».
قلت: «أنت تعتقد أنه ما كان يجدر بي الاتصال بالإنترنت ومشاهدة المكان الذي قتلت فيه، أليس كذلك؟».
أجاب: «كل ما فكرت فيه هو أنك كنت بحالة سيئة بما فيه الكفاية وقتها.

عليك أن تركزي على كونر وعلى عملك، وعلى المستقبل وليس الماضي».

سألته: «وما الذي يفترض بي فعله؟».

فتح فمه ليتكلم، لكنه بدا وكأنه يفكر في الموضوع بشكل أعمق. وبعد لحظة، استدار ورمى الفوطة التي كان يضعها فوق كتفيه وهو يقول:

«جوليا، أنا قلق عليك جِدياً».

سألته: «عليّ؟!».

أجاب: «أجل، سواء أصدقت ذلك أم لم تصدقي. أعتقد أنك بحاجة إلى مراجعة استشاري، فأنت لا تتأقلمين مع الواقع، وأنا سأسافر إلى جنيف يوم الاثنين المقبل، وستبقين هنا بمفردك...»

قلت: «آه، سأكون بخير». لكنه كان يواصل كلامه، فلم يسمع ما قلته له:

«... وكل ما أريده منك هو أن تراجعي طبيباً على الأقل...»

ثارت ثائرتي، وتضاعف غضبي، وانكسر شيء ما. لم أكن قادرة على تحمل ذلك أكثر، لذا قلت له: «أوه، اغرب عن وجهي يا هيو». بدأت الكأس الزجاجية التي لم أكن أدرك أنني ما زلت أحملها تتحطم على الأرض، لكنني لم أتذكر بأنني قد رميتها.

تقدم خطوة نحوي، ثم بدا وكأنه يفكر في الموضوع أكثر، وما لبث أن استدار وكأنه يريد أن يغادر. وأخيراً، شعر بالغضب كما شعرت أنا، وكان هذا الإحساس أفضل؛ إذ كان إحساساً آخر غير فقدان الحس أو الشعور بالألم.

سألته: «إلى أين أنت ذاهب؟».

أجابني: «سأخرج وأتمشى؛ فأنا بحاجة إلى ذلك حتى تهدأ أعصابي».

ثم غادر. كان البيت يرتعد بأسره، وبعد ذلك خيم الصمت، وأصبحت وحيدة.

الفصل الثامن

جلست على طرف السرير لفترة من الزمن، وأخذت أمسد اللحاف الذي يغطي السرير. كان من القطن المصري، ولونه أزرق فاتح مائل إلى الخضرة. أخذت أفكر في أن هذا سريرنا، لكنّ ما الذي حدث؟

لقد اشترينا هذا السرير عندما انتقلنا إلى هنا منذ أربع سنوات، ولم يكن فيه أي شيء مميز؛ فقد كان مجرد شيء ننام عليه ونتحدث ونقرأ. كنا نقوم بعلاقة حميمة بين الفينة والأخرى، وحينما نفعل ذلك نشعر بأن علاقتنا لا تزال لطيفة وبطيئة وممتعة في الغالب؛ إن لم تكن مثيرة أيضاً.

هل كان كل ذلك موجوداً فعلاً؟! أخذت أفكر في هذا السؤال لفترة من الزمن. وكنت أعلم أن الجنون الذي يصاحب الفترة الأولى من العلاقة لا يدوم طويلاً؛ إذ لا بد أن يذوي ذلك ويتحول إلى شيء آخر. لم يكن الذنب ذنبه أو ذنبي؛ لأن هذا ما يحدث مع الجميع.

لعل علاقتنا قد فترت بسرعة؛ فقد كان هيو ابناً لأحد أعز أصدقاء أبي، وكان يعرفني منذ أن كنت في المدرسة. وبالرغم من أنه كان يكبرني، إلا أن علاقتنا استمرت. وحينما حاول والده الاهتمام بي، اهتمّ هيو بي أيضاً وساعدني في الاهتمام بكيت. لذا، أتت حالة العشق_ عندما أتت أخيراً_ بشكل صامت، وذلك لأن تاريخ حياتينا قد رافق قصة الحب تلك. أشعر أحياناً بأن مرحلة ما قد فاتتنا، وكأننا انتقلنا من مرحلة الصداقة إلى مرحلة الاقتران مباشرة.

سمعت هيو عندما عاد إلى المنزل وذهب إلى غرفة الجلوس فوقفت، إذ كان علي أن أنزل وأتحدث إليه لنحل الخلاف بيننا. لأنني إن لم أقم بذلك فلا بد أن ينام على الأريكة في مكتبه، وسأمضي ليلة أخرى مستلقية على فراشي بمفردي وأنا أحاول أن أنام، بينما دماغي يجيش بالصور والأفكار التي لا تهدأ؛ وهكذا سأقلب الأحداث التي جرت في المساء مرات ومرات، وفي محور كل الأحداث ستظهر لي كيت وهي تسير في الزقاق وتنظر نحو الأعلى لترى ظل

شخص أمامها، فتبتسم مرحبة، ولكنْ حين تتقدم ويرفع يده تتحول ابتسامتها إلى ذعر، وتدرك أن الأمور لم تكن تسير بالاتجاه الصحيح. فقد أخطأت هذه المرة؛ والرجل الذي أتت لمقابلته لم يكن الشخص ذاته الذي تخيلته أن يكون.

كنت أعرف أنني إذا أغمضت عينيّ فلا بد أن أرى ذلك بشكل واضح؛ وكأنه يحدث أمامي: لكمة على الوجه، ركلة من القدم... لِمَ لم أعرف ذلك بطريقة ما؟ لماذا خذلتنا تلك الصلة الروحية التي كنت أعتقد أنها كانت تربط بيننا دوماً حينما كنا بحاجة إليها؟ وهل انقطعت تلك الصلة حينما أخذنا كونر؟ كان باستطاعتي رؤية دمائها وهي تسيل على الأسفلت... وبوسعي رؤية أنفها بعد أن كسر... وسماع نحيبها. كنت أتساءل عمّا إذا كانت تعلم بذلك، إن أحست بذلك. كنت أتساءل عن الألم الذي عانته... وإن كانت تفكر فيّ. وإن فعلت ذلك، فهل كانت تفكر فيّ بمحبة؟ كنت أتساءل إن كانت قد سامحتني في نهاية المطاف.

نزلت إلى الأسفل وناديت: «هيو».

كان جالساً في غرفة الجلوس وحاملاً كأساً من الشراب، فجلست على الأرض قبالته، وقلت:

«يجب أن تأوي إلى فراشك».

ردّ: «أنا آسف».

ثم نظر إليّ لأول مرة منذ أن دخلت الغرفة، وبعدها تنهّد وارتشف القليل من شرابه وقال:

«لقد جرحتني».

أجبت: «أعرف».

لم يعد هنالك ما يقال، لذا أوينا إلى السرير.

في الصباح، تحدثت إلى كونر وقلت له:

«لا أعلم ما الذي سمعته ليلة البارحة، لكننا نحبك كثيراً».

كان يسكب الحليب في طبق الحبوب فانسكب بعضه على الطاولة. لذا، قاومت الدافع الذي كان يحفزني على تجفيفه، ثم سمعته يقول: «لقد سمعتكما وأنتما تتجادلان».

كان ذلك أشبه بلطمة على وجهي؛ فقد أتى الأمر على عكس ما أردت له أن يكون مع ابني، وعكس ما وعدت به كيت؛ إذ وعدتها أن يعيش ابنها حياة الاستقرار في كنف والدين يحبان بعضهما داخل بيت خالٍ من النزاعات.

قلت له: «كل الأزواج يتجادلون، هذا أمر طبيعي».

سألني: «هل ستنفصلان؟».

أجبته: «كلا، بالطبع لا!».

فعاود النظر إلى وجبة الحبوب الخاصة به ثم سأل: «ما الذي كنتما تتشاجران حوله؟».

لم أكن أرغب في إخباره، ولكنني قلت له: «لقد كان الوضع عصيباً؛ فقد كانت الشهور القليلة الماضية قاسية على كل منا، بسبب ما حصل للخالة كيت وبسبب كل شيء». كنت أعرف أنني أفسر الماء بالماء، لكن ذلك بدا واقعياً وضرورياً. اكفهر وجهه، وللحظة رأيت كيف سيبدو شكله حينما يكبر، لكن ذلك لم يستمر طويلاً؛ بالرغم من أنه خلّف نوعاً من الحزن. اعتقدت أنه سيقول شيئاً، لكنه لم يفعل.

سألته: «هل تفتقد إليها؟».

تجمّد في مكانه، وبقيت الملعقة معلقة بين الوعاء وفمه، فأعادها إلى الوعاء، وبدا لي مجدداً مستغرقاً في التفكير، وأكبر من عمره. لقد كان يذكّرني بماركوس لسبب ما؛ فقد كان يُبدي التعابير ذاتها حينما يكون قلقاً أو مستغرقاً في التفكير في بعض الحالات النادرة. لكنّ كونر تكلم في النهاية وعاد إلى مراهقته مجدداً.

أجابني: «لا أعرف». لكنه انهار وظهرت الدموع في عينيه. لقد كان ذلك غير متوقع منه، لذا اندفعت نحوه لأهدّئ من روعه وأريحه.

قلت له: «لا بأس. فمهما كان إحساسك أو حتى إن كنت لا تعلم، فلا بأس في ذلك».

تردد ثم قال: «أعتقد أنني أفتقد إليها قليلاً، وأنت؟».

قلت: «أفتقد إليها كل يوم».

فتابع حديثه قائلاً: «أعني، لم نكن نراها كثيراً، لكن الأمر بقي...»

قلت: «الأمر مختلف، أليس كذلك؟».

أجابني: «نعم. فحينما يكون الشخص على قيد الحياة قد لا ترينه كثيراً، ولكنك تعرفين أنه بوسعك ذلك إن رغبت».

قلت: «أجل».

ثم بقيت صامتة لأنني كنت أريد منحه كل الوقت الذي يحتاج إليه ليتكلم، لكنني أيضاً كنت أتساءل عمّا إذا كان قد شعر بالفعل أنه بوسعه رؤية أمه، فقد كان من الممكن أن نأذن له أنا وهيو بذلك لو طلب منا. أعني، لو طلب منا أن يذهب إليها وأن يبقى معها. لكننا لم نكن نشجعه بالفعل على القيام بذلك، ولعلي كنت خائفة جداً من فكرة احتفاظها به وعدم سماحها له بالعودة.

قلت له أخيراً: أتعرف؟ مهما كان إحساسك، فبوسعك أن تسألني عن أي شيء، أي شيء على الإطلاق».

وبالرغم من أنني كنت أعني ما أقوله، إلا أن كلماتي بدت جوفاء؛ لأن الحقيقة هي أن هنالك أسراراً وأموراً لا يمكنني أن أبوح بها، حتى لو سألني.

ساد الصمت بيننا لفترة طويلة، وبعدها بادرني بالسؤال: «هل تعتقدين أنهم سيمسكون بهم؟ أعني أولئك الذين قتلوا كيت».

أوقفت جملته سيل أفكاري؛ إذ لم يشر إليها بأنها خالته، فتساءلت عما إذا كانت هذه هي الخطوة الأولى على طريق مناداتها أمي؛ وهذا ما شحن الأجواء بيننا.

قلت له: «آمل ذلك يا حبيبي، لكن الأمر صعب».

ساد صمت بيننا.

ثم قطعه بقوله: «أخبرني أبي أنها كانت امرأة رائعة، لكن من حولها كانوا سيئين».

وضعت بعض الخبز في المحمصة ثم نظرت إليه وابتسمت؛ إذ كانت تلك بالضبط الفكرة التي قد رسمها هيو عني: امرأة رائعة، لكن من حولها يبالغون في التأثير فيها. فحينما كنت في برلين كان يقول لي: «اعتني بنفسك» بدلاً من أن يقول: «اشتقنا إليك جميعاً...» وكنت أعلم أنه يعني ما يقوله، وأنه كان يقصد: إن أولئك الأشخاص ليسوا أصدقاءك. كان يحاول إنقاذي، لكنني وقتها كنت غير مستعدة للإنقاذ.

قلت له: «كانت امرأة لطيفة حقاً. نقطة انتهى».

تردد كونر.

سألني: «إذاً، لماذا لم تكن تريدني؟».

شرعت بالشرح: «كونر، الأمر معقد...»

فقاطعني قائلاً: «أخبرني والدي أنه لا يجدر بي القلق حيال ذلك، وقال لي إن خالتي كيت كانت تحبني كثيراً، لكنها لم تكن قادرة على التكيف مع الظروف، ولم يكن بمقدورها تحمل مصاريف طفل، في حين أنه كان بمقدورك القيام بذلك؛ وهذا يبدو منطقياً».

قلت: «حسناً، هذه طريقة مبسطة للغاية في النظر إلى الموضوع».

أخذت أسأل نفسي: متى كان هيو يخبر كونر بكل ذلك؟ إذ لم أكن أعرف أنهما يتحدثان إلى بعضهما. قلت لنفسي إنه ينبغي لنا أن نبذل جهداً أكبر، وأن نكون صريحين مع كونر، وأن نتوحّد في كل واحد، كما سبق لنا أن قررنا منذ سنوات طويلة.

سألني: «إن كنتما راغبين في تربية الأطفال، فلِمَ لم تنجبا طفلاً من صلبكما؟».

أجبته: «لم نتمكن من ذلك». وقد حاولت أن أحافظ على هدوء صوتي؛ إذ لم أكن أريده أن يتهدج ويفضح مدى الخسارة التي كنت أعيشها داخلي. وتابعت: «لقد كنا نحاول لسنوات عديدة، إلا أن أحدنا...» وهنا توقفت، فهو ليس بحاجة إلى معرفة هذه التفاصيل، ثم قلت: «لم نتمكن من ذلك، وهذا كل ما هنالك». وعندها، خطرت ببالي العيادة؛ بجدرانها البيضاء، وأرضيتها المطاطية، والعلب التي تنزل منها قفازات زرقاء، والملصقات التي تعلن عن خطوط المساعدة والجمعيات الخيرية التي كنت أعرف أنني لن أتصل بها على الإطلاق. أخذت أتذكر الدواستين اللتين كنت أضع قدمي فيهما، والقطعة المعدنية الباردة بين ساقي، كنت أشعر بأنها عقوبة.

أدركت أنني لم أخبر أحداً بعد حول هذا الموضوع، ولا حتى هيو؛ فهو لم يكن يعرف شيئاً عن الطفل الذي كان بوسعي أن أحمل به لكنني لم أفعل.

سألني: «من الذي لم يتمكن من ذلك؟».

نظرت إلى ابني، إلى ابن كيت، وقلت: «لست أدري». وعاودني ذلك الإحساس القديم بالخزي في تلك اللحظة. كنت أعتقد أنني قد قهرت ذلك

الإحساس منذ سنوات طويلة، لكنني كنت مخطئة. وتابعت كلامي: «لم نعرف من السبب، لكن هذا لا يهم، فلن يغير ذلك أي شيء. إننا نحبك يا كونر، فأنت ابن لنا».

رن جرس المحمصة ثم اندفع الخبز منها، فجفلت للحظات قصيرة، ثم بدأت بدهن الزبدة على الخبز المحمص الذي أعددته له.

قال لي: «شكراً يا أمي». ولم أكن متيقنة علام يشكرني بالضبط.

أخرجت المفتاح من حقيبتي وفتحت القفل، فانفتح باب الكوخ إلى الداخل مصدراً صوت صرير، لذا انتظرت بضع لحظات لأسمح للحرارة بالخروج قبل أن أدخل. وبالرغم من أن الجدران كانت مبطنة ومطلية إلا أنني أشعلت شموعاً معطرة داخل المكان الذي كنت أعمل فيه؛ لأن رائحة غريبة كانت تنبعث منه، غير أن هذا المكان كان مريحاً بالنسبة إليّ، لأنني كنت أعتبره المساحة التي أمتلكها والملجأ الذي ألوذ إليه.

أغلقت الباب خلفي وجلست إلى المكتب، ثم وضعت أمامي علبة البسكويت تلك التي أعطتني إياها آنا. شعرت أنني أصبحت أكثر هدوءاً الآن، وصرت أعرف ما عليّ فعله.

أخرجت مفكرة كيت من العلبة ووضعتها على المكتب بالقرب من حاسوبي المحمول. وأخذ الضوء الذي انساب داخل الاستديو عبر النافذة الواقعة خلفي ينعكس على سطح الشاشة، لذا قمت بتعديل موقع الكرسي، وغيّرت زاوية الشاشة، وأخيراً ضغطت على الزر.

كانت خلفية الشاشة عبارة عن صورة قديمة لي وأنا جالسة على مقعد فوق المرج وكونر جالس في حضني. كان عمره في الصورة أربعة أعوام، أو ربما كان في الخامسة من عمره. منذ عشر سنوات كنت أبدو سعيدة للغاية، وكُلّي حماسة لكي أصبح أماً أخيراً. ولكن اليوم بدت لي الصورة وكأنها تنتمي إلى زمن مختلف كلياً. أدركت مجدداً كيف شطرت وفاة كيت حياتي إلى نصفين.

ضغطت على زر آخر فاختفت صورة كونر، وظهرت بدلاً منها آخر نافذة كنت قد فتحتها. كانت تحتوي على فيديو، فضغطت زر التشغيل. لقد كان الفيديو عبارة عن فيلم لكلينا، أنا وكونر على الشاطئ. كان هيو قد التقطه لنا

منذ سنين عديدة، حينما كان لا يزال يستخدم آلة تصوير الفيديو. كان كونر في الخامسة من عمره تقريباً، وكان يرتدي سروال سباحة أحمر اللون، وقد دُهِن جسده بمرهم واقٍ من الشمس. كنا أنا وهو نركض بعيداً عن آلة التصوير باتجاه البحر ونحن نضحك.

لقد كان صيفاً رائعاً؛ فقد استأجرنا خلاله فيلا في البرتغال، وكنا نمضي أيامنا بجانب المسبح أو على الشاطئ. كما كنا نتناول الغداء في مطعم في القرية، أو نقوم بجولة بالسيارة في التلال. كنا نجلس في الشرفة الواسعة مراقبين الشمس وهي تغرب، وذلك بعد أن نضع كونر في سريره. كنا نجلس ونتكلم، ومن ثم نذهب إلى الفراش حيث نقوم بعلاقة حميمة بهدوء وحذر. لقد كنا سعداء... سعداء جداً جداً.

كان الفيديو قد شارف على الانتهاء حينما تلقيت اتصالاً هاتفياً. لقد كانت آنا هي المتصلة، وكانت تتصل عبر سكايب، لكنني لم أكن راغبة في الحديث إليها في هذا الوقت، لذا ضغطت زر تجاهل، وقلت لنفسي: سأتصل بها لاحقاً، لأن ما يتوجب علي القيام به لن يستغرق وقتاً طويلاً.

انتهى الفيديو بمشهد لكونر وهو يقف بعيداً مرتجفاً من البرد.

أصبحت مستعدة.

فتحت المتصفح الخاص بي وبدأت بكتابة عنوان الموقع الإلكتروني: encountrz. لم أكن بحاجة سوى إلى كتابة الأحرف الأولى فقط، إذ إن ما تبقى ظهر بصورة تلقائية؛ نظراً إلى أنني كتبت الكلمة سابقاً وبقيت محفوظة منذ ليلة ما قبل البارحة؛ حينما لم أجرؤ على الضغط على زر الإدخال.

لكنني ضغطت عليه الآن، فأحسست بحالة من انعدام الوزن؛ بطريقة لا يمكن تفسيرها لكنها حقيقية، فقد أصبح جسدي متحرراً من قيوده وأثقاله، وشعرت بأنني أطفو. بدأت النافذة بتحميل الصفحة، ثم ظهرت صورة لرجل وامرأة وهما يتمشيان على شاطئ البحر ويضحكان، بدت لي الصورة مبتذلة بطريقة ما، ولكنْ ما الذي كنت أتوقعه من موقع كهذا؟

كان هنالك مربع في أعلى الشاشة كتب عليه: اسم المستخدم، وآخر عُنوِن بكلمة: كلمة السر، لذا كتبت في المربع الأول KatieB، وفي الثاني Jasper1234، ثم اخترت كلمة دخول.

لم أكن واثقة مما يمكن أن يحدث. بدا لي كما لو أن الحاسوب قد توقف بشكل عرضي، وأن الأمر يحتاج إلى عصور ودهور ريثما يتم تحميل الصفحة. وعند ذلك تغيّرت الشاشة، وظهرت في وسطها رسالة جاء فيها:

«أهلاً بعودتك كاتي، لقد مر زمن طويل قبل أن تعودي».

شعرت وكأن شيئاً ما قد ضربني وصفعني فأوقعني أرضاً، وشعرت بأن أنفاسي قد توقفت، وبأنني لم أعد قادرة على التنفس، ولكن عندها أدركت أن الرسالة كانت تلقائية. تنفست بعمق، وحاولت أن أهدئ من روعي. كان هنالك زر بجانب الصورة كتب عليه: إدخال، فضغطت عليه.

لم أكن مستعدة لما رأيته، إذ كانت هنالك صورة لشقيقتي في الجهة اليسرى العلوية من الشاشة، تحت شعار الموقع الإلكتروني. صدمتني الصورة مرة أخرى، إذ بدت لي وكأنها جالسة هناك إلى حاسوبها، وكأن كل ما كان يتوجب عليّ القيام به هو كتابة رسالة والضغط على زرّ الإرسال_ كما أفعل مع آنا وأدريان ودي وفاطمة_ وعندها يمكنني أن أتحدث إليها مرة أخرى، وأن أعتذر لها، وأن أخبرها بأن كونر بأمان، وبأنني مشتاقة إليها.

لكنني لم أستطع، لأنها قد رحلت. لذا، بدأت بالتركيز على سبب دخولي هذا الموقع، وأجبرت نفسي على النظر إلى الصورة التي كانت تستخدمها. بدت لي الصورة وكأنها قد التقطت خلال عطلة ما. كان قد تمّ التقاط الصورة عن قرب، وكانت تظهر فيها مستلقية على بطنها على فوطة الشاطئ أثناء قراءتها كتاباً ما، أما نظارتها الشمسية فقد كانت مرفوعة فوق رأسها، وبشرتها مسمرة بفعل الشمس. كانت ترتدي ثوب سباحة من قطعتين، وقد رفعت جسمها إلى الأعلى بواسطة مرفقيها، فبدا صدرها بارزاً فوق الفوطة. ومع ذلك، بدت الصورة طبيعية، ومن دون أي تكلف في اتخاذ وضعية مناسبة.

كانت تبتسم سعيدة. أخذت أحدق إلى الصورة، وسألت نفسي عن الوقت الذي التقطت فيه، وعمّن التقطها؛ إذ بدت لي مسترخية للغاية، ولم أستطع أن أصدق أن الفتاة الصغيرة التي حملتها يوماً ونظفت جسدها في الحمام يوماً، وقرأت لها يوماً قد رحلت. لم أستطع أن أصدق أنني لن أتحدث إليها مرة أخرى أبداً.

بدأت بالبكاء، كنت أنزلق نحو الخلف... نحو الألم، وفكرت في أنه لا

يمكنني القيام بذلك، وبمفردي.
لذا، عاودت الاتصال بآنا.

قالت لي آنا: «يجب أن تكون هناك علامة تبويب في الأعلى مخصصة لآخر النشاطات، يمكنك أن تنظري إلى هناك؛ لأن هذه العلامة تضم قائمة بآخر الأشخاص الذين دخلوا صفحتها».

كانت قد سألتني قبل ذلك إن كنت على ما يرام، وعمّا كنت أفعله، كما تساءلت إن كانت هذه فكرة صائبة، فأخبرتها نصف الحقيقة، وقلت لها إن أدريان هي التي اقترحت علي الفكرة، ثم عللت ذلك بقولي: «أردت فقط أن أعرف ما إذا كان رجال الشرطة قد فاتهم أي شيء».

ردت: «حسناً، وصلت الفكرة».

ثم قالت: «بعد ذلك، عليك أن تطّلعي على الغرف الموجودة إلى اليمين».

قمت بتصغير نافذة المحادثة فاختفى وجه آنا، وظهر خلفها موقع المواعدة، وقائمة غرف المحادثات، وقرأت هناك: هل تبحث عن الحب؟ أمور إضافية، القليل إلى الجانب، ثنائيات ومجموعات، فتساءلت عن الغرفة التي جذبت انتباه كيت.

قلت لها: «حسناً».

قالت آنا: «اعتدنا أنا وكيت على دخول غرفة المحادثة العرضية. لكن، يجب أن تكون هناك علامة تبويب في أعلى الصفحة بعنوان: الأصدقاء والمفضلات».

قلت لها: «رأيتها».

قالت لي: «هؤلاء هم الأشخاص الذين كانت كيت تحادثهم أو تتصل بهم أو تربط صفحتها الشخصية بصفحاتهم».

نقرت على علامة التبويب فتغيرت الصفحة، وظهرت قائمة أسماء مزودة بصور مصغرة، فتجمدت في مكاني، وبدأت يدي اليمنى ترتعش... أخذت أقرأ: Robbie676, Lutture, SteveXXX... وامتدت القائمة وطالت...

انتقلت إلى الأسفل، كان هنالك خمسة عشر اسماً ضمن القائمة ككل.

سألتني آنا: «هل وجدت شيئاً؟».

تلاشى أملي بعيداً، وبت أعيش فجأة حالة من الخواء. شعرت بأنني جوفاء،

وأن كل ما أقوم به كان بلا جدوى، وبأنني كنت حمقاء؛ إذ ما الذي كنت أظن أنني سأجده هنا؟ هل كنت أتوقع أن أجد رسالة من أحد أصدقائها يخبرني فيها أنه قتل شقيقتي؟ أو رسالة موجهة إليها كتب فيها: «نلت منك أخيراً»؟!!

قلت لها: «لست أدري، إذ لم أجد سوى قائمة بالأسماء التي يمكن أن ترجع إلى أي شخص».

لم تنبس آنا بكلمة.

أدركت للمرة الأولى أنها قد تكون خائفة، فقد كانت تتواجد على الموقع ذاته، ولعلها كانت تتحدث أيضاً إلى الأشخاص أنفسهم. ولا بد أنها تفكر في أنه كان من الممكن وبكل بساطة أن تكون هي التي وجدت في الزقاق بدلاً من كيت.

وللحظة، تمنيت لو أنها كانت هي، لكنني بعد ذلك طردت تلك الفكرة بعيداً، ووعدت نفسي بألا أتمنى ذلك مجدداً؛ سواء أكان لها أو لأي شخص آخر.

قالت لي: «قد يتعين عليك أن تتقصّي حول بعضهم؛ أي أن تفتحي حساباتهم الشخصية، وتبحثي إن كان أحدهم يقطن في الجوار».

فوجئت بذلك، لذا سألتها: «ألا يسكن جميعهم في الجوار؟».

ردت: «ليس بالضرورة. وعليك ألا تنسي أن كيت لم تكن مهتمة فقط بلقاء الأشخاص في العالم الواقعي، إذ كانت تكتفي بأن تبقى في العالم الافتراضي مع بعضهم، وقد يتواجد هؤلاء في أي مكان؛ ربما في الجانب الآخر من الكرة الأرضية».

كانت محقة بالطبع، لذا اخترت حسابين من بين الحسابات لأطلع عليهما بالتفصيل، أحدهما اسمه: SexyLG وصورة حسابه كانت لغروب الشمس، وهو يعيش في كونيتيكت، والآخر CRM1976، وتبين لي أنه حساب لامرأة. نقرت على المزيد من الحسابات، واكتشفت أن معظم أصحابها يعيشون في الخارج؛ في أوروبا أو في الولايات المتحدة أو أستراليا. بعضهم كان أكبر من كيت بكثير، واثنان منهم كانوا أصغر منها. لم يكن بينهم أحد من ذلك النوع من الأشخاص الذين تخيلت أن تكون كيت مهتمة به، سواء أكان من الناحية الجنسية أو غير ذلك.

سألتني: «هل تعرفت إلى أحد منهم؟».

أجبت: «ليس بعد. فأنا بحاجة إلى الاطلاع على المزيد من التفاصيل».

مررت على باقي الحسابات، ولم يكن بينهم أحد يناسبها سوى شخص واحد فقط اسمه Harenglish.

هتفت: «هناك واحد، إنه ذكر ويعيش في باريس». ضغطت على حسابه الشخصي؛ كان يستخدم صورة لمنتج هيد آند شولدرز، وكان أصلع، ويضع نظارة، ويرتدي سترة جلدية كتلك التي يرتديها من يركبون الدراجات النارية. كان قد أخفى عمره، لكنه يبدو في منتصف العقد الثالث أو آخره. أما برجه فهو برج الحوت حسبما صرح، وكان أعزب ويبحث عن الحب أو «المتعة على الدوام» حسب تعبيره.

سألتني آنا: «ما اسمه؟». فأخبرتها، ومن ثم سمعتها وهي تكتب اسمه على حاسوبها. فخمنت أنها قامت بتسجيل الدخول إلى الموقع ذاته بحثاً عن حسابه الشخصي.

أخذت أحدق إلى صورته وكأنها لغز عليّ أن أجد له حلاً. كان يبدو وسيماً بما فيه الكفاية، ولديه مسحة من البراءة والصدق. ولكن، ما الذي يعنيه كل ذلك؟ يمكن لأي شخص أن يجد لنفسه صورة محترمة، وبوسع أي شخص أن يقدم نفسه بأبهى صورة؛ أوليس ذلك ما نحاول جميعاً القيام به وبالدرجة نفسها؟ أي أن نظهر أفضل وجه لدينا للعالم، وأن نترك الظلمة تقبع داخلنا. أما شاشة الحاسوب فهي ما سهّل علينا هذا الأمر.

تمنّيت لو كانت هنالك طريقة ما يمكنني بواسطتها اكتشاف مدى معرفته بأختي. فهل كانا مقربين بما فيه الكفاية لكي تقوم شقيقتي بإضافته إلى قائمتها كصديق؟ ولماذا لم يكن يراسلها؟ ولماذا لم يعبّر عن صدمته أو على الأقل عن دهشته حينما اختفت؟

قالت لي: «لم أتعرف إليه».

تخيلت نفسي وأنا أقوم بما اقترحته علي أدريان؛ أي أن أسجّل اسمه وأسماء آخرين ممن أظن أنهم قد التقوا كيت، ثم أسلم تلك المعلومات للشرطة. ولكن، لعلهم اطلعوا على تلك الأسماء مسبقاً.

قلت لها: «سأراسله».

ردت: «مهلاً!». كانت هنالك حدة في صوتها الذي أتاني مذعوراً ومندهشاً، لذا فتحت نافذة سكايب الخاصة بها، فرأيتها وقد ضاقت عيناها، كما لو أنها كانت تركز على شيء ما. بدت لي قلقة.

سألتها: «ما الأمر؟».

ردت: «قد يكون ذلك خطراً. أعني، عليك أن تفكري في الأمر ملياً، فقد سجلت الدخول إلى حساب كيت، وإن كان هو الشخص الذي قتلها، فسيعرف أنك لا بد أن تكوني شخصاً آخر غيرها، وأنك تنتحلين شخصيتها؛ مما سيجعله يختفي. لذا، يجب أن نتحلى بالذكاء في تعاملنا مع الموضوع». وترددت قليلاً ثم قالت: «لعله يجدر بي أن أرسل له رسالة أقول له فيها: مرحباً، ثم أرى إن كان بوسعي أن أكتشف أي شيء».

سمعتها وهي تبدأ بالكتابة، ثم هتفت بعد بضع ثوان: «إرسال». وفور قيامها بذلك، رن جرس جهازي معلناً عن وصول رسالة. وبالرغم من أن الرسالة لم تكن منها، كما لم تكن من Harenglish، إلا أن أحدهم قد أرسل رسالة إلى كيت، لقد كان Eastdude.

فجأة، سيطرت عليّ دفقة من الحماسة الغريبة التي لم أكن أتوقعها، فهتفت: «وصلتني رسالة!».

سألتني آنا: «مِمَن؟».

أخبرتها. كان الاسم مألوفاً، لذا فتحت قائمة أسماء المستخدمين التي طوتها كيت ووضعتها في مفكرتها، وتأكدت من أنني كنت على حق. كان الاسم موجوداً هناك.

قلت لآنا: «إن اسم هذا الشخص موجود ضمن قائمة كيت، إنه هو».

هتفت آنا: «جوليا، إننا لا نعرف ذلك».

لقد كانت محقة. وبالرغم من أنني بدأت بمناقشتها، إلا أنني أدركت أن المنطق الذي كنت أحاججها به كان بعيداً عن الصواب. فإن كان هو من قتل شقيقتي، فلِمَ يراسلها الآن؟

أخذتَ أحدق إلى الرسالة وكأنها شيء خطير أو سام.

قالت لي: «لعله يتساءل عن سبب غياب كيت طيلة تلك الفترة».

قلت: «سأقرأها».

نقرت على رسالة Eastdude ففتحت نافذة جديدة. بدت الرسالة وكأنها قد كتبت على عجل، حيث جاء فيها: «مرحباً كيتي... ها قد عدت، اشتقت إليك! إن كنت ترغبين في لقاء آخر، فأنا ما زلت مستعداً لذلك».

حاولت أن أتخيل كيف يمكن أن تتصرف كيت حيال ذلك: هل كانت ستقوم بإرسال رد يشتمل فقط على موافقتها؟ ثم ماذا بعد ذلك؟ هل ستقوم بترتيب موعد معه ثم يلتقيان؟ هل سيتناولان العشاء ويحتسيان الشراب، أم ستذهب إلى شقته مباشرة؟ أو هل ستصطحبه إلى شقتها؟ وهل سيكون الأمر أكثر بساطة إن استغنى كل منهما عن المقدمات؟

هتفت: «إنه يريد أن يعرف إن كانت ترغب في اللقاء».

سألتني: «وأين سيتم اللقاء؟».

أجبتها: «لم يذكر أين». ثم نقرت على حسابه الشخصي. كان في أوائل العقد الثالث حسب ما كان يزعم؛ بالرغم من أن صورته توحي بأنه أكبر من ذلك بعشر سنوات على الأقل. وفي خانة الموقع كان قد كتب: «نيويورك».

قلت: «نيويورك».

ردت: «لكن ذلك لا يدل على شيء».

قرأت عبارة «لقاء آخر» مرة أخرى. لكنني لم أتذكر إن كانت كيت قد زارت نيويورك أم لا.

أجابتني: «كلا. لا بد أنه يقصد الجنس الإلكتروني».

الجنس الإلكتروني... هذه العملية تعتمد على وصف لا نهاية له لما سيفعله شخص بآخر، وما يرتديه كل منهما، وما هو الإحساس الذي ينتابهما بفعل ذلك. لطالما كانت أدريان تسخر من فكرة تواجد أشخاص كثر يجلسون من أجل إجراء محادثات في مثل هذه المواقع وهم يرتدون سراويلهم الرياضية ويغطيهم قيء الأطفال الرضع.

سألت آنا: «لكن، هل يطلقون على ذلك اسم لقاء؟».

أجابت: «أعتقد أنهم يفعلون ذلك».

قلت: «لا توجد رسائل أخرى».

ردت: «إذاً، عليك أن تنسي الموضوع يا جوليا».

قلت: «بوسعي أن أرد على رسالته لأنه يعتقد أنني كيت».

سألتني: «وما الذي ستحققينه إن فعلت هذا؟».
قلت: «أريد فقط أن أكتشف ما يعرفه».
نظرت إلى الصورة مرة أخرى. كان هذا الشخص يبدو بريئاً وغير مؤذ، وكان شعره قد بدأ بالانحسار، وقد اختار أن يظهر في الصورة وقد لف ذراعيه حول امرأة قد تم اقتصاص جسمها ووجهها بطريقة غير احترافية، كما سبق وفعلت حينما أخرجت نفسي من صورة ماركوس.
تساءلت عن الأمور التي سبق له أن تحدث عنها مع كيت، وتساءلت عن مدى معرفته بها؛ هذا إن كان يعرفها أصلاً.
أليس هذا هو السبب الذي دفعني للمجيء إلى هنا؟ أليس هدفي أن أكتشف كل ذلك؟
قالت آنا: «لست واثقة من أن هذا قد يجدي نفعاً».
قلت: «ضعي ثقتك بي، وسأتحدث إليك لاحقاً».

أخذت رسائلنا تصعد إلى أعلى الشاشة. كان Eastdude يعتقد أنه يتحدث إلى كيت.
– ألم تتذكري كم كان الوضع حميمياً؟ أنا منزعج لذلك.
وعلى السطر التالي، ظهر رمز كان عبارة عن وجه مستدير أصفر اللون... كان يغمز بعينه؛ إذاً كان يمزح.
شعرت بعدم الارتياح، فهل هذه هي الطريقة التي تبدأ فيها مثل هذه المحادثات؟ أيتم ذلك بالإشارة إلى الحميمية؟
– لقد شعرت بالكثير من الحميمية مؤخراً.
فأتى جوابه بشكل فوري تقريباً:
– هل تعملين؟
لم أكن متأكدة مما كان يقصده، فقد كانت كيت تعمل في وظائف مؤقتة، وأخالها قد عملت كنادلة في مقهى، وكذلك في إدارة المكاتب، لكنني تساءلت مرة أخرى عن المعلومات التي أخبرته بها عن نفسها.
قلت لنفسي: عليّ أن أبقي أموري غامضة.
– ذلك سيئ جداً. على أي حال، أود أن نتابع من حيث توقفنا. هل أنت

بخير؟ ظننت أن شيئاً ما قد حصل لك.

- ما الذي حدث؟

- لقد سكت فجأة، ثم أتاني رجال الشرطة، وسألوني عما كنا نتحدث حوله، كما سألوني إن كنتُ قد زرت باريس مؤخراً، لذا اعتقدت أن الأمر قد يتعلق بك.

جمدت في مكاني.

- وهل أخبرتهم؟

استغرق جوابه لحظة حتى ظهر:

- ماذا تعتقدين؟

ما الذي يعنيه؟ أجل لقد أخبرهم، أو لا لم يخبرهم؟

أخذت أذكر نفسي بأنه من غير الممكن أن يكون هذا الشخص من قتل شقيقتي؛ لأنه يعتقد أنه يتحدث إليها... إلا إن كان يكذب.

- لم يحدث لي شيء. أعني، إنني بخير.

- وأنا ممتاز إن كنت ترغبين في سؤالي عن حالي.

ظهر رمز آخر، وكان هذه المرة لوجه أحمر فوق رأسه قرنان.

قلت له: «أشكرك». ثم أدركت أنه علي أن أكون حذرة إذا كنت أنوي استدراجه، فتابعت: «إذاً، قلت لي إنك تريد أن نتابع من حيث توقفنا».

- أخبريني أولاً، ما الذي ترتدينه؟

ترددت؛ فهذا خطأ، وشعرت بالحرج لأنني كنت أنتحل شخصية أختي_ أختي المتوفاة_ ولأي غاية يا ترى؟

حاولت أن أقنع نفسي بأنني كنت أسعى إلى معرفة من قتلها، وبأنني كنت سأقوم بذلك لأهداف نبيلة، من أجل كيت وابنها.

إذاً، لماذا أشعر بأنني على وشك أن أتقيأ؟

كتبت له:

- ما الذي كنت أرتديه آخر مرة؟

- ألا تتذكرين؟

- لا، لمَ لا تخبرني؟

- في النهاية، لم تكوني مرتدية الكثير من الثياب.

ثم ظهر وجه آخر، وكان ضاحكاً، ولسانه هذه المرة ممدود.

ترددت. كان المؤشر يومض منتظراً مني أن أقرر ما أريد كتابته، وإلى أي مدى سيطول ذلك. بدا لي الأمر سريالياً، فأنا في لندن، وهو في نيويورك، وتفصل بيننا حالياً آلاف الكيلومترات ولا شيء بيننا.

– أتخيل أن هذا ما ترتدينه الآن.

لم أجب.

– أفكر فيك وأنت لا ترتدين أي شيء على الإطلاق.

لم أقل أي شيء أيضاً، إذ لم يكن هذا ما أردت له أن يحدث.

– بدأت أشعر بقساوة هناك.

أغمضت عيني، كان يجدر بي ألا أقوم بذلك؛ فقد تحولت إلى متلصصة، وأنا أحاكي حياة أختي الافتراضية؛ الحياة الخاصة بأختي المتوفاة.

كان علي أن أتوقف، لكنني لم أستطع. ليس الآن، ليس قبل أن أتيقن من أنه لم يكن القاتل.

وصلت رسالة أخرى.

– كيف حالك؟ هل تريدينني؟

ترددت، لا بد أن تغفر لي كيت ما أقوم به، أليس كذلك؟ كتبت:

– أجل.

قال لي:

– جيد. أخبريني أنك ما زلت تتذكرين كم كان الوضع حميمياً بيننا، وذكّريني بالطريقة التي وصفت لي بها جسدك، والأشياء التي قمتِ بها.

– أتذكر.

– أخبريني، ما الذي تريدينه الآن؟

– أريدك.

– أنا أقبلك الآن... أقبل كل جسمك، أقبل شفتيك... ووجهك، وسأنزل بقبلاتي نحو الأسفل، لأقبل صدرك، ومعدتك.

مرة أخرى، سمعت صوتاً داخلي يخبرني أن ما أفعله خطأ؛ فقد كان يظن أنه يتحدث إلى كيت. إنه يتخيل نفسه في علاقة حميمة مع أختي المتوفاة.

– هل أعجبك ذلك؟

أخذت يداي تحومان فوق لوحة المفاتيح، وتمنيت لو كان بإمكاني أن أعرف ما عليّ أن أرد به.

- هل أعجبك ملمس فمي فوق جسمك؟
- بم كانت كيت سترد لو كانت مكاني؟
- أتريدينني أن أنزل إلى الأسفل؟

ما الذي يمكنني قوله له؟ أأجيب بأجل؟ نعم أريد. يمكنني أن أخبره بأنني أريد منه أن ينزل إلى الأسفل، وبأنني لا أريد منه أن يتوقف، أو يمكنني أن أسأله عمّا قاله للشرطة، وعن مكانه في شهر شباط ليلة وفاة كيت، وإن كان قد اغتال أختي أم لا... حتى حينما أقول هذا لنفسي يبدو لي هذا كله سخيفاً.

أمسكت بجهازي، ووقفت من دون أن أدري ما الذي عليّ فعله.

- هل أنت مستعدة لي؟

انشقت الأرض تحت قدمي، وبدأت أغرق، وبدأ قلبي يخفق بشدة، ولم أعد قادرة على التنفس. كنت أريد أن أوقف فكري عن الدوار، لكنني كنت أفكر دوماً في الأشياء التي يمكن أن تقولها كيت، والأمور التي كان من الممكن أن تقوم بها.

نظرت إلى الجهاز في يدي، وللحظة شعرت بأنني أكرهه؛ إذ بدا لي وكأنه يحتوي على جميع الإجابات، وكنت أريد أن أنفضها عنه، سعياً إلى إيجاد الحقيقة.

ومع ذلك، لا يستطيع الجهاز أن يزودني بالإجابات كلها؛ بل إنه لا يقدر على ذلك. فهو مجرد أداة، لذا ليس بمقدوره أن يخبرني بأي شيء. عندها، أغلقته.

عاد هيو من عمله إلى البيت، فتناولنا العشاء معاً. كنا نحن الثلاثة نجلس إلى مائدة واحدة. بعد ذلك، قام هيو بحزم حقيبة سفره، وأخذ يسألني بين الحين والآخر عن أحد قمصانه، أو إذا كنت قد رأيت عطر ما بعد الحلاقة الخاص به. ثم صعد إلى الأعلى ليقوم بإتمام خطابه، بينما جلسنا أنا وكونر في غرفة الجلوس، وأخذنا نشاهد فيلماً على قرص DVD كان عنوانه: «هوية بورن». لكنني لم أستطع التركيز على الفيلم، فقد كنت أفكر في ما حدث معي خلال فترة ما بعد الظهيرة، وتساءلت إن كان الشاب Harenglish الذي أرسلت إليه آنا

الرسالة قد عاود الاتصال بها. كنت أفكر في الجنس الإلكتروني أيضاً الذي لا يختلف برأيي عن الجنس عبر الهاتف؛ وهذا ما جعلني أفكر في ماركوس... لم تكن هنالك رسائل نصية، ولا بريد إلكتروني، ولا خدمة تراسل فوري وقتها؛ ما لم يحصل المرء على أجهزة نداء، والتي لم تكن متوفرة لدى أي شخص تقريباً. لم يكن هنالك سوى الصوت البشري.

انحنى كونر إلى الأمام، وأمسك بحفنة من الفوشار الذي أعددته من أجله، إلا أن فكري كان يتجه إلى أماكن أخرى.

تذكرت المرة الأولى التي قمت فيها بعلاقة حميمة مع ماركوس. وقتها لم يكن قد مضى على تعارفنا أكثر من بضعة أسابيع. كنا خلالها نتحدث عبر الهاتف، كما كنا نتسكع بعد الاجتماعات ونذهب لشرب القهوة. ثم بدأ يحكي لي حكايته. كان ينحدر من عائلة معروفة، وكان والداه على قيد الحياة، وكانت لديه أخت لطيفة وطبيعية ومستقرة. ومع ذلك، كان الشراب لا يبارح بيتهم، وكان تناوله محرماً عليه، لكنه كان مشدوداً إليه. وكان يتذكر المرة الأولى التي احتسى الشراب فيها، ويتذكر أنه شعر بأن جزءاً منه قد انفتح؛ ومنذ ذلك اليوم قرر أن يعيد الكرّة.

سألته وقتها: «كم كان عمرك؟».

هز كتفيه وقال: «لست أدري. ربما عشر سنوات».

اعتقدت أنه كان يبالغ، لكنه أخبرني أنها ليست مبالغة، ثم أخبرني أنه كان مبدعاً في مجال الفن دوماً، غير أن الشراب كان يجعله يشعر بأنه أصبح بحالة أفضل؛ فتحسّن مستوى أدائه في الرسم. وهكذا، أصبح الشراب والرسم متلازمين بالنسبة إليه، فكان يرسم ثم يشرب ثم يرسم. ثم ترك الكلية، فطرده والداه من البيت. كانت أخته هي الوحيدة التي وقفت إلى جانبه، لكنها كانت أصغر منه بكثير، لذا لم تستوعب الموضوع.

قال لي: «بعد ذلك أصبحت بمفردي، وحاولت أن أتغلب على مشكلاتي، لكن...»

سألته: «ماذا حدث؟».

قال مستخفاً بالفكرة: «كثيراً ما كنت أستيقظ من دون أن أعرف أين كنت أو كيف وصلت إلى ذلك المكان. وكثيراً ما كنت أتساءل عن سبب النزف الذي

كان يعتريني. وفي النهاية، اتصلت بأمي، وطلبت منها المساعدة، فطلبت من أحد أصدقائي أن يأخذني إلى أول اجتماع من هذه الاجتماعات».

قلت: «وهكذا التقينا».

رد: «أجل، هكذا التقينا». ثم صمت هنيهة، وقال بعدها: «أشعر بالسعادة لأنني تعرفت إليك».

وبعد مرور أسبوعين على ذلك الكلام اتصل بي. كانت كيت وقتها تشاهد التلفاز مع إحدى صديقاتها، فتلقيت المكالمة من هاتف المطبخ. بدا لي يومها منزعجاً، لذا سألته:

«ما المشكلة؟».

«لقد احتسيت الشراب».

تنهدت، ثم أغمضت عينيّ وقلت له: «هل اتصلت بكيث؟».

رد: «لا أريد أن أتحدث إلى كيث، ولا أرغب في رؤيته، أريد أن أراك».

شعرت بالخوف والسعادة في وقت واحد، فلقد احتسى الشراب، لكنني كنت الشخص الوحيد الذي طلب مساعدته. ثم طلب مني مباشرة أن أذهب إلى شقته، فأخبرته بأنني سأذهب بكل تأكيد. وعندما وصلت إلى هناك، كان يجلس على أريكته المهترئة، وكانت هنالك زجاجة عند قدميه، فجلست إلى جواره وأمسكت بيده. هل كنت أعرف وقتها بأننا سنتبادل القبلات؟ ربما. هل كنت أعرف أن ذلك كان غلطة بكل تأكيد، ربما لا.

انتهى الفيلم وصعد كونر إلى الأعلى، ثم تبعته بعد مرور وقت قصير. وفيما كنت في طريقي إلى غرفتي، وقفت قرب باب غرفته، وأصغيت السمع إلى ما يجري في الداخل، لكنني لم أسمع شيئاً سوى صوت النقر المتناغم لأصابعه على لوحة المفاتيح. أعددت لنفسي حوض الاستحمام، وتمددت في الماء لفترة طويلة. كنت مغمضة العينين، أغفو وأصحو في نوم منهك، لأتخبط بين الفينة والأخرى بالماء الساخن. وحينما خرجت من الحمام كان هيو قد سبقني إلى الفراش.

بادرني بالقول: «تعالي». وهو يربت على السرير بجانبه، فابتسمت وقلت له: «سأكون معك في غضون دقائق». ثم قمت بلف منشفة حول صدري وثنيتها بإحكام، وبعدها جلست إلى منضدة التزيين وأخذت أضع الكريم المرطب على

جسمي، وعندما فرغت من ذلك كان هيو يشخر، لذا أطفأت النور. كان الجو حاراً، لكن كان هناك نسيم لطيف، لذا توجهت إلى النافذة لأعدل وضع الستائر. رأيت في الخارج شبحاً لشخص، كان بالكاد يرى في الظلام، وكان ذلك الشبح رقيقاً كالدخان. بدا لي كطيف رجل، فاستدرت لأوقظ هيو، وأسأله إن كان بوسعه أن يراه أم إن ذلك مجرد تخيلات، لكنه عاود النوم بسرعة. وحينما نظرت من النافذة مجدداً، كان الشخص قد اختفى، فتساءلت إن كان موجوداً هناك بالفعل أو لم يكن هناك على الإطلاق.

الفصل التاسع

أوصلت هيو إلى المطار بالسيارة ثم عدت إلى المنزل. كان يوم اثنين، لذا كان وضع حركة السير سيئاً، كما كان الهواء ثقيلاً ومحملاً بالحرارة. كنت قد قررت أن أبقى مشغولة طيلة فترة غيابه؛ وذلك بمواصلة أعمالي، وترتيب غرفة كونر، والاطلاع على الملفات الموجودة على الحاسوب، والتأكد من قيامي بشحن الأجهزة وإعداد كل شيء لالتقاط الصور يوم الأربعاء. ولكن، عندما عدت إلى المنزل كانت فترة الظهيرة في بدايتها، وكان الجو حاراً لدرجة منعتني من القيام بأي شيء.

كنت أشعر بالقلق وعدم الاستقرار، لذا ذهبت إلى الثلاجة لأجلب عصير الليمون، ولكنني حينما فتحت باب الثلاجة رأيت زجاجة الشراب التي فتحها هيو في الليلة الماضية. تضخمت الرغبة في احتشاء الشراب لدي مرة أخرى؛ تماماً كما حدث لي بعد حفلة العشاء. غير أنني أخذت عصير الليمون، ثم أغلقت الباب. لكن، لم يكن هنالك أي سبب للتظاهر بأنني لم أشعر بتلك الرغبة الجامحة.

كانت راشيل تكرر على مسمعي ذلك وتقول: «تراجعي خطوة، وأمسكي بالزجاجة وارفعيها نحو الضوء، ثم فكري في الموضوع».

وهذا ما قمت به بالضبط. إذ كانت لدي رغبة في تناول كأس من الشراب؛ هذا أولاً. وثانياً، كنت بمفردي في حين أن هيو بعيد، وكونر في مدرسته، أي لم يكن هنالك أي سبب منطقي يمنعني من ذلك.

باستثناء ذلك السبب؛ باستثناء أنه كانت لدي كل الأسباب التي تمنعني من ذلك.

لقد تعاظمت الرغبة هذه المرة؛ أعترف بذلك. فأنا أحس بها كما لو أنها لم تفارقني، بل كانت تكبر، وأصبحت تفوقني قوة. إنها أشبه بحيوان مفترس لا يعرف الرحمة، أشبه بكائن ذي أنياب، يسعى إلى تحطيمي.

لكنني لم أكن لأسمح لتلك الرغبة بالتفوق علي؛ حتى هذه المرة. لذا، أخذت أقنع نفسي بأنني قوية، وبأنني أكبر من تلك الأمور التي تسعى إلى النيل مني. أخذت أتحملها بصعوبة، فشعرت بتلك الرغبة تنسحب أخيراً. قمت بوضع الثلج في الشراب الذي أعددته لنفسي، ثم بحثت عن الرواية التي كنت أقرأها، وأمسكت حاسوبي المحمول، ثم خرجت من البيت، وجلست إلى المنضدة الموجودة في الفناء. كان قلبي يخفق بشدة، وكأن هذا الصراع قد تم على أرض الواقع، لكنني كنت مسرورة مرة أخرى لأنني بقيت حذرة ومتيقظة.

ارتشفت من عصير الليمون وأنا أصغي إلى أصوات الصيف؛ إلى صوت حركة المرور، وصوت الطائرات التي كانت تمر فوقي، وحديث أتاني من حديقة بعيدة. كان كتابي أمامي لكنني تجاهلته؛ لأنني كنت أعرف أنني لم أكن قادرة على التركيز، وأنني سأقرأ الصفحة ذاتها مرات ومرات، لذا كان من العبث أن أضيع وقتي هكذا.

فتحت حاسوبي المحمول، فتساءلت إن قام الشاب Harenglish الذي صادفته البارحة بالرد على آنا، أو إذا كان Eastdude الذي أجريت محادثة معه، قد أرسل إلي رسالة مرة أخرى.

تجوّلت في صفحة الرسائل، وكان قد أرسل إليّ رسالة بالفعل. فتحت الرسالة وقرأت ما يلي: «ماذا حدث؟ أتمنى أن تكوني بخير».

سرت في جسدي رعدة قلق كان لها مفعول الكهرباء، إنه القلق ممزوجاً بالحماسة. إذ بالرغم من أنه كان يظن أنه يكلم كيت، إلا أن خيبة أمله أرضت غروري.

حاولت التركيز على ما هو أهم، إذ عليّ أن أرتب الأمر بشكل متناسق. قلت لنفسي إنه من غير المحتمل أن تكون لهذا الشخص صلة بوفاة كيت، هذا على افتراض أنه يقول الحقيقة. ثم إن الشرطة قد استجوبته كمتهم واستبعدته عن التحقيقات، كما أنه يعيش في نيويورك.

إذاً، لا داعي للرد على رسالته. لذا، نقرت على زر حذف، وأنا أشعر في داخلي بالأسف. لكنه في النهاية شخص غريب لم يسبق لي أن التقيته، لذا لن أهتم بما يفكر فيه؛ إذ لدي أمور أكثر أهمية عليّ القيام بها.

تجولت في صفحة كيت المخصصة للأصدقاء والمفضلات، وذهبت إلى

القائمة. كنت حذرة هذه المرة، حيث أخذت أتفقد كل اسم موجود فيها لأعرف أين يقيم صاحبه، واكتشفت أنهم كانوا موزعين على مختلف مناطق العالم. وإذا أخرجنا Eastdude من حساباتنا، يمكن القول إن هنالك أحد عشر شخصاً اعتادت كيت على إجراء محادثات معهم؛ ثلاثة منهم فقط يعيشون في فرنسا، وواحد من بينهم Harenglish_ وهو الشخص الذي قامت آنا بإرسال رسالة إليه_ كان يعيش في باريس.

ترددت، ثم فتحت حساب السكايب فوجدت أن آنا لم تكن متصلة. لذا، أرسلت لها رسالة سألتها فيها إن كانت قد تلقت رداً؛ مع أنني في الوقت ذاته كنت أعرف أنها كانت ستخبرني بذلك لو حصل.

أخذت أذكر نفسي بأن صمت هذا الرجل لم يكن يعني أنه القاتل. كلا، فربما كان من النادر بالنسبة إليهما أن يجريا محادثات، أو كانا بالكاد يعرفان بعضهما. ولعله كان نادراً ما يفتح رسائله، أو إنه لا يجيب مباشرة. هنالك مئات الأسباب لصمته، وقد لا تكون لذلك أي صلة بمعرفته بما حل بها بالضبط.

لكن، كان علي أن أتأكد من ذلك. لذا، جلست وأنا أفكّر، ثم ارتشفت القليل من العصير، وفكّرت في أختي وفي ما يمكنني القيام به لمساعدتها. وبينما كنت على تلك الحال، ولدت الفكرة التي كانت تتشكل في ذهني طيلة الليل في آخر الأمر.

اتصلت بآنا فقالت لي: «لقد كنت أفكر».

سألتها: «بماذا؟».

ردت: «باقتراحك حول إجراء محادثات مع ذلك الشاب. أعتقد أنها ليست فكرة سيئة».

وهنا أخبرتها بخطتي، فقلت:

«أفكر في إنشاء حساب شخصي خاص بي. فربما إذا أجريت محادثات مع أولئك الأشخاص من حساب مختلف، وإذا ظنوا أنني شخص آخر، فعندها من المحتمل أن يخبروني بكل ما أريد معرفته».

أخذت تناقشني في الموضوع، لكنني كنت أعمل بسرعة، لذا لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. ترددت حينما طلب مني أن أختار اسم مستخدم، لكنني قررت أن يكون JayneB، إذ كان قريباً من اسمي، ولكن ليس كثيراً. كانت الصورة التي

اخترتها صورة التقطها هيو منذ بضع سنوات حينما كنا في عطلة. وفي تلك الصورة، كانت الشمس تسطع خلف رأسي وتلقي بظلالها على وجهي بصورة جزئية. وطبعاً لم أختر الصورة بشكل عشوائي، فأنا وكيت لم نكن نشبه بعضنا عموماً، لكننا كنا كذلك في تلك الصورة. وإن كان أحدهم يعرف كيت، فلا بد له أن يلمح ذلك الشبه؛ ممّا سيفتح الباب أمامي للدخول. بعد ذلك، قمت بإدخال معلومات عني، كتاريخ الميلاد والطول والوزن، وأخيراً ضغطت على زر الحفظ.

هتفت: «لقد انتهيت».

طلبت مني آنا أن أكون حذرة، فاتصلت بالإنترنت مجدداً، وكنت في غاية الحماسة لأنني قمت بشيء ما أخيراً؛ فقد يتحدث إلي Harenglish_ ذلك الشاب الذي تعرفت إليه البارحة_ ظناً منه أنني شخص آخر. عندها، قد أتمكن من اكتشاف هويته ومدى معرفته بأختي.

أرسلت له رسالة قلت فيها: «مرحباً، كيف حالك؟». وكنت أعرف أنه لن يجيب عليها فوراً؛ هذا إن أجاب أصلاً. لذا، عدت إلى الداخل لأملأ كأسي. أمسكت بتفاحة من الوعاء، وأخذت أتساءل عما قد يفعله هذا الشاب حينما يرى رسالتي، وما إذا كان يتلقى رسائل كثيرة أم فقط بعض الرسائل، وما إذا كان يجيب عنها كلها، أو يرد على ما يعجبه منها. كما تساءلت عما يحدث في العادة، هذا إذا كان هنالك أي شيء طبيعي وعادي في هذا المجال.

خرجت مجدداً، فبدأ النسيم يهب، وأصبح الجو أكثر برودة. ارتشفت رشفة أخرى من العصير، ثم جلست. أخذت أقضم تفاحتي التي كانت هشة، لكنها حامضة قليلاً، ثم وضعتها على الطاولة. وحالما قمت بذلك رن جرس الحاسوب.

لقد وصلتني رسالة أخرى، لكنها لم تكن منه، بل من شخص آخر، بيد أنني عندما فتحتها انتابني أغرب شعور أحسست به... الإحساس بالانغماس والسقوط. ثم فتح الباب بلطف، ودخل أحدهم.

القسم الثاني

الفصل العاشر

جلست في الحديقة لساعات طويلة في ذلك اليوم، وكان حاسوبي المحمول يصدر صوت طنين أمامي. كنت أستكشف الموقع، وأنقر على الحسابات الشخصية، وأفتح الصور. بدا الأمر وكأنني كنت متيقنة من أنني سأتعثر بقاتل كيت بالصدفة، وبأنني سأنتبه إليه بطريقة ما. كان الثلج في كأسي قد ذاب، وبدأت رواسب عصير الليمون تجتذب الذباب. كنت لا أزال في مكاني حينما عاد كونر من المدرسة؛ بالرغم من أن بطارية حاسوبي كانت على وشك النفاد بينما كنت جالسة بصمت وأنا أفكر في كيت، وفي من عساها تحدثت إليه، وما تكلمت حوله.

قال لي: «مرحباً أمي». فأغلقت جهازي، ورحبت به وربت على الكرسي الذي كان بجواري، ثم قلت له عندما جلس: «كنت أجري بعض التعديلات وحسب». شعرت بالكذبة تنزلق من بين شفتيَّ بسهولة متناهية بالكاد تمكنت من ملاحظتها.

كان على كونر أن يذهب غداً مساء إلى حفلة أعز أصدقائه دايلان؛ وهو فتى لطيف للغاية رغم هدوئه الزائد. كانا يمضيان وقتاً طويلاً برفقة بعضهما_ في بيتنا غالباً_ وهما يلعبان ألعاب الحاسوب، أو لعبة الفيديو إكس بوكس. وكنت أتعمد البقاء بعيدة عنهما، لكنني كنت أصغي إليهما من حين إلى آخر. كانا يضحكان كثيراً، أو لنقل إنهما كانا معتادين على ذلك بكل تأكيد قبل وفاة كيت. كان دايلان يأتي إليَّ بين الفينة والأخرى ويطلب مني المزيد من العصير أو البسكويت بطريقة لبقة للغاية. وخلال عطلة الكريسمس الماضية، قمت باصطحابهما للتزلج في المرج مع صبيين آخرين من المدرسة لم أكن أعرفهما. يومها استمتعنا بوقتنا، وكان من الممتع بالنسبة إليَّ رؤية كونر مع أشخاص في مثل عمره، وإلقاء نظرة على ذلك الرجل الذي سيكونه يوماً ما. بيد أنني لم أكن أفكر في أن كونر ودايلان قد يناقشان موضوع المشاعر والعواطف، ولا يمكنني

أن أتصور كونر وهو يطلب الدعم من ذلك الفتى.

كانت الحفلة بمناسبة ذكرى ميلاد ديلان، وكان سيحتفل بها في بيته؛ حيث سيتم تقديم وجبات البيتزا مع الكولا، وسيستمع الجميع إلى بعض الموسيقى مع بعض الكاريوكي(1) ربما. كما سيقوم بعض الأصدقاء بالسهر في خيمة نصبت في حديقة منزل دايلان. وأعتقد أنه ستكون هناك أقراص فيديو في وقت متأخر من الليل إلى جانب وجبة خفيفة ختامية، قبل أن يقوم والدا دايلان بتوزيع مصابيح يدوية وأكياس النوم على الأولاد. وقد ينطلق الأولاد إلى المرج ليقضوا ليلتهم بالضحك والثرثرة ولعب ألعاب الفيديو على هواتفهم. وفي اليوم التالي، سيأتي ذووهم لاصطحابهم، ولن يخبرنا أحد منهم كيف قضى أمسيته، إذ سيكتفي كل منهم بالقول إن الأمور سارت على ما يرام.

قمت باصطحاب كونر إلى بيت صديقه بالسيارة. توقفنا خارج المنزل، فرأينا البالونات المربوطة إلى عمودي البوابة، والبطاقات الموجودة على نوافذ الردهة. قام كونر بفتح باب السيارة في الوقت الذي خرجت فيه سالي والدة دايلان إلى الشرفة. لقد كانت من بين الأشخاص الذين أعرفهم معرفة جيدة، فقد كنا نتناول القهوة معاً بعد المدرسة؛ بالرغم من أننا كنا نخرج بصحبة أشخاص آخرين، ولكنني لم أرها منذ فترة طويلة. لوّحت لها فلوّحت لي أيضاً، وكان بوسعي أن أرى خلفها اللافتات والأضواء التي رافقت الأولاد الذين كانوا يهرولون نحو الطابق العلوي. عندها، رفعت حاجبيها، فابتسمت متعاطفة معها.

قلت لكونر: «استمتع بوقتك».

فأجابني: «سأفعل».

ثم سمح لي بأن أقبله على وجنته، وبعد ذلك أمسك بحقيبته وهرول باتجاه المنزل.

حينما وصلت إلى البيت كان المكان خالياً ككهف موحش. فقد كان هيو في جنيف، وكان قد أرسل لي رسالة نصية يقول فيها: كانت الرحلة جيدة، والفندق جميل، وأخبرني بأنه في طريقه لتناول العشاء، ثم سألني عن حالي،

---

(1) نوع من أنواع الغناء الذي يمارس للتسلية في المقاهي والنوادي؛ حيث يقوم بعض الأشخاص بتأدية بعض الأغاني الدارجة أمام الجمهور باستعمال مكبر الصوت، إلى جانب تشغيل الأغنية ذاتها التي تم تسجيلها مسبقاً. (المترجمة)

فكتبت له رسالة قلت له فيها: «أنا بخير، أشكرك. اشتقت إليك».

ضغطت على زر الإرسال، ثم أعددت لنفسي العشاء، وجلست بعدها أمام التلفاز. كان يتوجب علي أن أتصل بصديقاتي، كنت أعرف ذلك، لكن ذلك كان صعباً علي؛ إذ لم أكن أريد أن أرمي بهمومي عليهنّ، فقد كان بوسعي أن أشعر بذلك، فما إن يسمعن صوتي حتى تهبط حماستهن فوراً، وكأن شبح موت كيت يخيم علينا جميعاً.

لم أعد كما كنت مطلقاً. كنت أدرك ذلك، فقد كنت أحمل في داخلي شيئاً آخر؛ كان ذلك أثر الجرح الذي خلفه الألم، لكنني لم أكن أريد أن أبقى أسيرة لهذه الحالة.

أخذت أفكر في ماركوس. كنا قد تواعدنا لفترة امتدت أقل من عام حين قال لي إنه يرغب في الرحيل، فسألته: «إلى أين؟». فأجابني: «إلى برلين».

كان يبدو واثقاً من نفسه جداً، كما كان يائساً جداً. لذا، اعتقدت أنه يحاول أن يتهرب مني؛ بالرغم من أننا كنا سعيدين حتى تلك اللحظة. وقد كان بوسعه أن يرى ذلك في عينيّ؛ من خلال ومضة خيبة الأمل التي كبحتها بعدما فات الأوان.

لذا، قال لي: «كلا، لم تستوعبي الفكرة. أريدك أن تأتي معي».

قلت: «ولكن...»

هز رأسه؛ فقد كان عازماً على ذلك، ثم قال:

«عليك أن تأتي، لأنني أريدك أن تأتي معي. فأنا لا أريد أن أذهب إلى هناك بمفردي».

حينها، فكرت في سري: لكنك ستفعل في حال لم أذهب معك؛ فقد قررت ذلك مسبقاً.

قال لي: «أرجوك تعالي؛ ما الذي يبقيك هنا؟». وهنا بدأت أهز رأسي، فتابع: «هل هي تلك الاجتماعات؟ لقد تخلصنا من تلك العادة منذ زمن طويل، ولم نعد بحاجة إلى الذهاب لحضور تلك الاجتماعات على الإطلاق».

قلت: «أعرف، ولكن...»

أطرق برأسه ثم قال: «إنها لا تزال في الثانية عشرة من عمرها».

ثم أخذ يمسد ذراعي، وبعدها قبلني وقال: «إنها في المدرسة حالياً، ولا

يمكنك أن تعتني بها إلى الأبد».

أخذت أفكر في كل المتع التي خضناها أنا وكيت معاً بالرغم من الصعوبات التي كنا نعيشها في بعض الأحيان. كنا نحضر الفوشار ونجلس لمتابعة أفلام الفيديو، أو نلعب فوق الأعشاب الطويلة في الجهة الخلفية من حديقتنا، ونتظاهر بأن الديناصورات كانت تلاحقنا. كنا نرتدي ملابس أمنا وننتعل أحذيتها ونتعطر بعطرها.

سألني: «كم سنة أمضيت وأنت تعتنين بها؟».

أجبت: «ثماني سنوات».

هتف: «بالضبط. والآن، حان الوقت ليشرع والدك بالقيام بهذا الدور قليلاً. أضيفي إلى ذلك أنها أصبحت الآن مراهقة تقريباً، وصارت لديك حياتك الخاصة».

أخبرته أنه علي أن أفكر في ذلك، لكنني كنت أعرف قراري مسبقاً. إذ كانت كيت قد شارفت على بلوغ الثالثة عشرة حينها، مما يعني أنها كانت أكبر مني حين بدأت بالعناية بها، وكانت في مقتبل العمر، لذا ستكون بخير.

غير أنها لم تكن كذلك. فتحت عينيّ، وأسرعت نحو حاسوبي المحمول. كانت آنا متصلة بالإنترنت، فأرسلت لها رسالة.

سألتني: «هل حالفك الحظ؟».

أخذت أفكر في العدد الضئيل من الأشخاص الذين قاموا بمراسلتي. في الحقيقة، لم يكن هنالك شيء مهم.

أجبتها: «ليس بعد».

عاد هيو من المؤتمر الذي حضره؛ حيث استقل قطاراً من المطار، ومن ثم سيارة أجرة، ووصل حاملاً باقة كبيرة من الأزهار. قبلني ثم قدمها لي، فسألته: «ما الذي فعلته لأستحق كل هذا؟». فهز كتفيه وقال: «لا شيء. أنا أحبك، وهذا كل ما في الأمر، وقد اشتقت إليك». قلت له بطريقة بدت أوتوماتيكية للغاية وأنا أبحث عن مزهرية: «وأنا اشتقت إليك أيضاً».

أحضرت المقص من درج المطبخ وبدأت بتهذيب سيقان الأزهار.

سألني: «كيف حال كونر؟».

أجبته: «بخير حسبما أظن».
سألني: «وأنت؟».
أخبرته أنني بخير، ثم أردفت: «لقد كان لدي عمل». وأخذت أفكر في ما جرى معي قبل يوم واحد، ثم قلت له: «إن ابنة إحدى صديقات فاطمة قررت أن تصبح عارضة، وكانت بحاجة إلى بعض الصور لتضيفها إلى ملفها التعريفي».
قال: «هذا رائع. هل التقيت أدريان؟».
أجبت: «كلا، لكنها اتصلت بي. إنها في يورك، لديها عمل هناك. لكننا رتبنا موعداً على العشاء».
ابتسم وقال لي إنه يعتقد أن ذلك سيجعلني أشعر بتحسن. لكنني لم أخبره بأن أدريان سألتني إن كنت قد قررت أن أظهر على الإنترنت، وأنني قلت لها: لا، لم يحن الوقت بعد.
كانت كذبة أخرى. قمت بتسجيل الدخول إلى الموقع مرات قليلة، يومها كنا في ليلة الجمعة، وكان هيو في الطابق العلوي ، أما كونر فقد كان في بيت صديقه ليقوم كلاهما بحل إحدى الوظائف. كنت قد فرغت من تحرير الصور التي التقطتها يوم الأربعاء، لذا كنت أشاهد التلفاز، لكنني لم أكن مركزة تماماً على ما كنت أشاهده. لقد كان مسلسلاً درامياً يحمل عنوان: رجال الشرطة السريون، ويعرض المسلسل سلسلة من الجرائم الوحشية، والأشرطة اللاصقة، والثأر، والاغتصاب. كانت كل ضحية من ضحايا تلك الجرائم تتمتع بجمال أخاذ، وكأننا لن نهتم بالأمر ما لم يكن حالهن كذلك، ومن المفترض بنا أن نحسدهن على الحياة التي كن يعشنها، إلى أن تأتي تلك اللحظة التي ينغرز فيها نصل السكين في لحم كل منهن.
كان هذا المسلسل بالنسبة إليّ غير مهمّ، ولم أكن مركَزة عليه، لذا أطفأت التلفاز. لكنني لم أستطع الكف عن التفكير في كيت. لقد كانت جميلة. نعم، لم تكن بارعة الجمال، لكنها لم تتعرض للاغتصاب. لقد قتلت كيت لأنها على ما يبدو مرت بالصدفة في الزقاق غير المناسب، وفي الجزء غير المناسب من المدينة، وفي الوقت غير المناسب أيضاً؛ هذا ما كان هيو والجميع يقولونه لي، وكأن الأمر بهذه البساطة!
لكنه لم يكن كذلك. هذا مستحيل!

قمت بتسجيل الدخول إلى موقع encountrz. كنت أعرف أنه علي ترك الموقع وشأنه، وأن أقوم بشيء مفيد بدلاً من ذلك، لكنني لم أستطع. كان قد مضى على الرسالة التي أرسلتها لـHarenglish أسبوع من دون أن يرد عليها.

لم يكن متصلاً بالإنترنت، لكنْ هناك شيء ما في صندوق الوارد عندي، شيء جديد.

كان Largos86. نقرت على صفحته الشخصية فاكتشفت أنه كان أصغر مني، إذ كان يزعم أنه في الحادية والثلاثين بالرغم من أنه لم يبدُ عليه أنه قد بلغ هذا العمر أصلاً. كان شاباً جذاباً وذا شعر مجعد وقصير. تخيلت أنه بإمكانه أن يصبح عارضاً أو ممثلاً؛ بالرغم من أنني ذكرت نفسي بأنه لا بد له أن يكون قد اختار أكثر صوره إغراء، ولو ظهر لي في مسلسل درامي وهو يمثل دور طبيب لطيف أو عاشق لكنت أطفأت التلفاز. لقد كان أكثر جاذبية من أن يمثل دور الزوج. وأخيراً، فتحت رسالته.

كتب لي فيها: «مرحباً، أود أن أتحدث إليك، فأنت تذكرينني بإحداهن».

أجفلت، كما لو أنني تلقيت لكمة: أنا أذكرك بإحداهن!!!

وللحظة، لم يخطر ببالي سوى شيء واحد، بل لنقل شخصاً واحداً لا بد أنه يقصده. ثم إنني قد تعمدت اختيار صورة لحسابي أظهر فيها شبيهة جداً بكيت.

كان علي أن أعرف أن رسالته تخفي صلة ما، وفيها دعوة إلى إجراء محادثة خاصة. كان Largos86 يعرف أنني متصلة، لذا نقرت على زر القبول، ثم كتبت له:

- مرحباً. بمن أذكرك؟

فجاءني رده على الفور:

- بفتاة كنت أحبها كثيراً.

كنت أحبها؟!!! في الزمن الماضي؟ أي أنها لم تعد موجودة بشكل أو بآخر.

- ولكنني أفضل ألا نتكلم عنها. كيف حالك؟

كلا! فهي بالذات من أود أن التكلم عنها.

قلت له:

- بخير.

رد علي بعد لحظة:

- اسمي لوكاس، أترغبين في إجراء محادثة؟
وهنا توقفت، إذ منذ أن صرت أدخل الموقع تعلمت أنه من غير الشائع أن يقوم شخص ما بالإدلاء باسمه بهذه السرعة، لذا أخذت أسأل نفسي إن كان يكذب أم لا.
جاء ردي:
- اسمي جين.

ثم صمتَ قليلاً، وبعدها سألته:
- أين تقيم؟
- في ميلانو، وأنت؟
تذكرت رسالته الأولى حينما قال: أنت تذكرينني بإحداهن، وكنت أريد أن أكتشف ما إذا كان قد تحاور مع كيت، لذا قررت أن أكذب كذبة خاصة بي، فقلت له:
- أنا في باريس.
- يا له من مكان رائع!
- وكيف تعرفت على هذه المدينة؟
- إنني أعمل هناك بين الحين والآخر.
أخذ العرق يرشح من جلدي. حاولت أن آخذ نفساً، ولكن يبدو أن الأكسجين كان قد اختفى من الغرفة.
أيمكن أن يكون قد أجرى محادثة مع شقيقتي، أو التقاها؟ أيمكن أن يكون هو من قتلها؟ بدا الأمر لي غير وارد؛ إذ كان يبدو بريئاً ومحل ثقة. ومع ذلك، كنت أعلم أنني بنيت هذا الانطباع على وهم، على مجرد إحساس، ويمكن للأحاسيس أن تخدعنا.
إذاً، ماذا علي أن أفعل؟ كنت أرتجف، ولم أكن قادرة على استنشاق الهواء. كنت أريد أن أنهي المحادثة، لكنني إن فعلت فلن أتمكن من معرفة ما أصبو إليه.
قلت له:
- أحقاً؟! كم مرة زرتها؟
- حسناً، ليس كثيراً. فأنا أزورها مرتين في السنة.
كنت أود أن أسأله إن كان في باريس خلال شهر شباط، لكنني لم أرد أن

أخاطر بطرح هذا السؤال؛ إذ ينبغي لي أن أكون حذرة. فإن كان يعرف كيت ولديه أمر يخفيه، فعندها سيكتشف بأنني هنا لأصل إليه.

عليّ أن أبقي المحادثة لطيفة كالنسيم. وفي حال تحولت إلى الجنس، فعندها لا مفر للهروب من ذلك، ولا يمكنني أن أقوم بشيء سوى إنهاء المحادثة بأقصى سرعة ممكنة. كنت أريد أن أبحث عن مفاتيح لحل هذا اللغز، لكنني لن أسمح للأمور بأن تنقلب ضدي.

سألته:

– أين كنت تقيم حينما كنت تأتي إلى هنا؟

انتظرت إلى أن ومضت الرسالة. لم أستطع أن أقرر ما إذا كنت أريد منه أن يخبرني بأن لديه شقة في الدور التاسع عشر، أو بأن المكتب الذي يعمل لديه يحجز له في فندق بالقرب من مترو أورك. لأنه إذا كان الأمر كذلك، فهو القاتل حتماً، وسأكون متأكدة من ذلك، ثم سأخبر أنا وهيو الشرطة بما اكتشفته، لذا كان بوسعي أن أستمر.

لكن، ماذا إن لم يخبرني بكل ذلك؟ ماذا بعد؟ لم أكن أدري.

وصلتني رسالته التي قال فيها:

– بما أنني لا أذهب إلى هناك كثيراً، لذا إنني أقيم في الفنادق.

– أين؟

– حسب الظروف، لكنني عادة أختار فندقاً في مركز المدينة، أو أقيم بالقرب من محطة الشمال.

لم أكن بحاجة إلى نشر خارطة باريس كي أعرف أن محطة الشمال قريبة من المنطقة التي وجدت فيها جثة كيت، لذا شعرت بارتياح غريب.

– لمَ تسألين؟

– لا سبب محدّد.

– أتعتقدين أنني قد أقيم في مكان قريب منك؟

ثم أضاف وجهاً مبتسماً، لذا أخذت أسأل نفسي إن كانت الملاطفة قد انتقلت إلى المرحلة الثانية. كان شيء ما في داخلي يحثني على إنهاء المحادثة، لكن شيئاً آخر في داخلي أيضاً لم يكن يريد ذلك، كما أنه قد يكون كاذباً.

ترددت للحظة ثم كتبت له:

– أنا في الشمال الشرقي، وأقرب محطة مترو إليّ هي محطة أورك.

كانت هذه مجازفة من قبلي، فلو كان هو القاتل فلا بد له أن يدرك أنني على صلة بكيت؛ إذ لا يمكن لذلك أن يكون مجرد مصادفة.

لكن، ما الذي سيفعله عندئذ؟ هل سيقوم بإنهاء المحادثة فقط وتسجيل خروجه؟ أم سيبقى ويحاول أن يكتشف ما أعرفه بالضبط؟ خطر ببالي أنه ربما خمّن من أكون، والسبب الذي دفعني إلى إجراء محادثة معه، ومن المحتمل أنه اكتشف ذلك منذ البداية.

ضغطت زر الإرسال ثم انتظرت، كان Largos86 يكتب، وطال الوقت؛ وكأنه أخذ يمتد إلى ما لا نهاية.

ثم ردّ علي بقوله:

– وهل المنطقة التي تقطنين فيها جميلة؟

– لا بأس بها. ألا تعرفها؟

– كلا. وهل يجدر بي أن أعرفها؟

– ليس بالضرورة.

– إذاً هل تسهرين كثيراً؟ وهل كان نهارك سعيداً؟

ترددت، ففي المرة السابقة، وفي هذه المرحلة بالذات سألني المتحدث عمّا كنت أرتديه، وإن كنت أرغب في تمثيل دور خيالي أو في القيام بذلك عبر الإنترنت بصورة مباشرة. لكن ما أراحني هو أن هذه المحادثة لم تكن تمثّل لي أي تهديد.

أجبته:

– لا بأس.

أخذت أسأل نفسي عن سبب ارتياحي. فهل من الممكن أن أخرج خلال هذه اللحظات القصيرة القليلة من حالة الحداد التي أعيشها؟

قال لي:

– أخبريني، بماذا كنت مشغولة هذا اليوم؟

– أتريد أن تتعرف إليّ؟

– أجل، أخبريني بكل شيء.

- فلتخبرني بشيء عنك أولاً؟

- حسناً، دعيني أفكر.

ثم قام بإضافة صورة متحركة لوجه آخر. بدت لي هذه الصورة محيرة، ولكن بعد مرور بضع ثوان وصلتني رسالته التالية:

- حسناً، هل أنت مستعدة؟

- نعم.

- إنني أعشق الكلاب، وأغاني الحب العاطفية. وكلما كانت الأغاني عاطفية أكثر كان ذلك أفضل. كما أنني أخشى العناكب كثيراً.

ابتسمت رغماً عني، وعاودت النظر إلى صورته، وحاولت أن أتخيل ما كانت كيت ستفكر فيه حينما تنظر إليه. كان جذاباً بالفعل، وقريباً من عمرها.

بعد ذلك وصلتني رسالته التالية:

- إنه دورك. عليك أن تخبريني معلومتين عنك.

أخذت أفكر في عدد من الأمور التي يمكنني إخباره عنها. كنت أبحث عن شيء يمكنه أن يشده؛ عن معلومة يمكنها أن تدفعه إلى إخباري إن كان في باريس خلال شهر شباط أم لا، أو إن كان قد أجرى محادثة مع كيت أم لا.

انحنيت إلى الأمام وبدأت بالكتابة:

- حسناً، إن الفصل المفضل لديّ هو الشتاء، وأحب باريس خاصة في شهر شباط.

ضغطت زر الإرسال، وبعد هنيهة جاءني رده:

- تلك هي المعلومة الأولى.

بدأت أكتب:

- و...

لكنني جمدت في مكاني، إذ سمعت صوت مفتاح في القفل. وهنا تدخل العالم الواقعي بشكل صارخ، كان كونر قد عاد إلى المنزل. وحينما فتح الباب، كنت أواصل تعديل وضع غرفة الجلوس التي كنت أجلس فيها، وكذلك تعديل وضع بيتي. أدرت التلفاز فظهرت الصور على الشاشة من دون كلام، ثم دخل كونر وقال:

«أوه، لم أعرف أنك هنا».

أغلقت جهازي ووضعته جانباً. كانت دقات قلبي مسموعة، وكأنني ضبطت وأنا أتعاطى المخدرات. كان كونر يعتمر قبعة بيسبول لم يسبق لي أن رأيتها، ويرتدي سترة سميكة سوداء اللون، ويمضغ العلكة.

سألته:

«ماذا كنت تفعل؟».

«أدرس فقط».

تكلفت الابتسام وقلت له: «وكيف تسير الأمور؟».

أجابني:

«لا بأس. ماذا كنت تفعلين؟».

شعرت بالدوار، وكأن الحياة المنزلية بدأت تقتحم حياتي بينما كنت أعيش حالة من التفاهة، ومن القيام بتحضير الوجبات، ومن الذهاب إلى المدرسة والعودة منها، ومن القلق حيال أمور مثل ما يجدر بي طهوه لوجبة العشاء، وإن كانت الرفوف في المطبخ نظيفة.

قمت بعديل وضع العقد على رقبتي ثم قلت له: «كنت أقرأ رسائلي الإلكترونية».

طلب وجبة خفيفة فأعددتها له ثم صعد إلى الأعلى. وعندها، عدت إلى جهازي. لكن Largos86 لم يكن متصلاً، لذا أرسلت رسالة إلى آنا.

قلت لها:

– أخبرني أن اسمه لوكاس.

– وماذا؟

ماذا أقول؟ بدأت أشعر بالشك، ولكن بناء على ماذا؟!

– لست أدري. ثمة شيء غريب فيه، يبدو لي دقيقاً جداً.

ترددت ثم تابعت:

– كنت أسأل نفسي إن كان على معرفة بكيت.

– هذا غير وارد، ألا ترين ذلك؟

وافقتها الرأي، فقالت:

– لكن، من الممكن أن يكون قد تحدث إليها.

– هل تعتقدين ذلك؟

– حسناً، إن عدد الأشخاص الذين يستخدمون هذا الموقع محدود.

– إذاً، أتعتقدين أن الأمر يستحق عناء التحاور معه لفترة أطول؟

– حسناً، لا تحلقي بآمالك عالياً. لكن، ربما تمكنا من التعرف إلى بقية الأشخاص الذين كانت كيت تتحدث إليهم، أو على الأقل التأكد بطريقة ما إن كان هذا الشخص يعرفها أم لا.

في اليوم التالي، أخذت حاسوبي المحمول إلى الاستديو الخاص بي، وعندما فتحت الموقع، وجدت الشخص ذاته_ Largos86_ متصلاً، فقال لي:

– لقد اختفيت، لذا أخذت أتساءل عمّا فعلته لك.

كانت تلك هي رسالته الرابعة أو الخامسة. في البداية، لم أكن متأكدة من أنني سأرد، إلا أن الرسائل ظلّت تردني تباعاً.

لم أستطع نسيان ما قاله لي: إنك تذكرينني بإحداهن.... فتاة كنت أحبها كثيراً.

قلت له:

– آسفة.

كنت أقاوم الدافع الذي كان يحثني على اختلاق عذر؛ إذ لم يكن بمقدوري إخباره أن كونر قد عاد وقتها إلى البيت. لن يكون ذلك مناسباً، ولا بد له أن يحرف المحادثة عن الاتجاه الصحيح. وأخذت أتساءل: ترى، من يراقب من؟ من القطة، ومن الفأر؟

– هل أنت بمفردك؟

ترددت، إذ إن كونر في البيت مشغولاً بكتابة وظائفه حسبما أخبرني. أما هيو فقد خرج لحضور حفلة موسيقية مع أحد أصدقائه، لذا يمكنني أن أكون بمفردي. وكنت أشعر بذلك بالفعل.

ثم أدركت أنه عليّ أن أمنحه شيئاً إن كنت سأحصل على شيء بالمقابل.

قلت له:

– نعم، أنا كذلك.

وبعد مرور لحظة، ظهرت رسالته التي قال فيها:

– لقد استمتعت بالمحادثة معك البارحة...

أخذت أسأل نفسي إن كان سيتبع كلامه بكلمة: ولكن...

- أشكرك.

- لكننا لم نتابع الحديث عنك.

- ما الذي تريد أن تعرفه؟

- كل شيء. لكن، يمكنك أن تبدئي بإخباري عمّا تفعلينه.

قررت ألا أخبره بالحقيقة، وقلت:

- أنا أعمل بالفنون، حيث أقوم بتنظيم المعارض.

- رائع! يبدو لي هذا ممتعاً.

- ممكن. ماذا عنك؟ عرفت حتى الآن أنك تسافر.

- أوه، دعك مني، فالحديث عني ممل.

لعله ليس كذلك، لكنني كنت أحاول أن أكتشف سبب حماسته للحديث معي مرة أخرى هذه الليلة فقلت:

- كلا. أنا متأكدة من أنه ليس كذلك، هيا.

- أعمل في مجال وسائل الإعلام، حيث أقوم بشراء مساحات إعلانية للشركات الكبرى.

- إذاً، ما الذي تفعله في ميلانو؟ هل أنت في إجازة؟

- كلا، فأنا أعيش هنا بصورة مؤقتة، وأقوم ببعض الأعمال. كما أنني أقيم حالياً في فندق، وأفكر في الخروج الآن لتناول العشاء، ثم بعد ذلك قد أعرج على أحد المقاهي. لكن، لا يوجد أي اهتمام بذلك من قبلك...

كانت هذه النقلة المفاجئة في الحديث توحي بأنه يدعوني لأثني عليه وأمتدحه، لكنني ذكرت نفسي بأنني بحاجة إلى معرفة ما إذا كان يلتقي الأشخاص الذين يجري محادثات معهم، وما يحدث بينهم في حال اللقاء.

حاولت أن أتخيل كيف يمكن لجين أن ترد؛ إذ على الأقل عليها أن تشير إلى ما سبق أن قاله.

قلت له:

- أراهن بأنك لن تبقى وحيداً لفترة طويلة.

فرد علي قائلاً:

- أشكرك.

ثم وصلتني رسالة أخرى سألني فيها:

- هل يمكنني أن أسألك عمّا ترتدينه؟

كان بغاية الأدب باعتقادي، فتصرفه لم يكن من النوع الذي كنت أتوقعه. ولكن، ما الذي كنت أتوقعه؟ هكذا تسير الأمور في العادة. فعلى ما يبدو، يبدأ الأمر بطرح السؤال: ماذا ترتدين؟ ثمّ صفي لي ما ترتدينه، أريد أن أخلعه عنك، أخبريني عن إحساسك؟ لكن، غالباً ما يتم ذلك بسرعة أكبر من سرعتنا؛ عبر بعض الرسائل، وليس على مدار يومين.

سألته:

- لماذا تريد أن تعرف؟

تساءلت في سرّي إن كان يتوجب علي أن أضيف وجهاً يغمز بعينه. هل هذا ما كانت كيت ستفعله؟

- أريد فقط أن أتمكن من تخيلك.

أحسست بأنني متوترة؛ إذ لم أكن متأكدة من أنني أريد منه أن يتخيلني، وقد ترك ذلك في نفسي إحساساً كريهاً، غير أنني أخذت أذكر نفسي بأنني أقوم بذلك من أجل كيت ومن أجل كونر، ومن أجلنا جميعاً.

كتبت له:

- إن كان لا بد لك أن تعرف، فأنا أرتدي بنطالي الجينز مع كنزة. حان دورك.

- حسناً، أنا متمدد على السرير فحسب.

نظرت إلى صورته مجدداً وبدأت أتخيله؛ فرأيت غرفته في الفندق التي تفتقر إلى أي طابع مميز، كما أنها لا بد أن تكون مشتركة، وتساءلت إن كان قد خلع ملابسه. تخيلت جسداً رائعاً وقوياً ونامي العضلات. قد يجلب لنفسه شراباً، ولسبب ما تخيلته وهو يحتسي الشراب من القارورة مباشرة، فبدأ شيء ما داخلي ينفتح، لكنني لم أكن أدري ما هو بالضبط. أيرجع سبب ذلك إلى أنني قد أصل أخيراً إلى نتيجة ما تساعدني على حل لغز مقتل شقيقتي؟ أم لأن رجلاً بهي الطلعة قرر أن يراسلني؟

سألني:

- إن كنت مشغولة فلا بأس في ذلك، سأدعك وشأنك.

- كلا، لست مشغولة.

- حسناً، إذاً أنا هنا وأنت هناك. ما الذي تفعلينه؟ وفيم تفكرين؟
حاولت أن أتوقع ما كانت كيت ستجيب به عن سؤاله، لكنني لم أفلح. فقلت له:
- لست متأكدة.
- هل أنت بخير؟
قررت أن أقول له الحقيقة لأن هذا أسهل بالنسبة إليّ.
- لم يسبق لي أن قمت بهذا.
- لا مشكلة. يمكننا أن نتحدث في وقت لاحق إذا كنت غير مرتاحة الآن.
- كلا، فأنا لست غير مرتاحة، وإنما كلّ ما أريده هو ألا أحبطك.
- كم أنت جميلة! كيف يمكنك أن تصيبيني بالإحباط؟
كانت هنالك خفقة إثارة ضعيفة في أعمق أعماقي، لكنها كانت هناك بلا شك... كانت إشارة بعيدة من أبعد نجمة.
قلت له:
- أشكرك.
مرت لحظة، ثم أتاني رده:
- العفو. لكنك رائعة، وإنني أستمتع بالتحدّث إليك.
- وأنا أستمتع بالتحدّث إليك أيضاً.
- فلتخبريني بما ستفعلينه هذا المساء.
توقفت قليلاً لأفكر، إذ عليّ أن أقوم بعد قليل بطهي وجبة العشاء، ثم قد أطالع كتاباً، لكنني لم أكن أرغب في إخباره بذلك.
- قد أخرج مع أصدقائي، أو قد أشاهد فيلماً في السينما.
- رائع.
تحدثنا لفترة أطول قليلاً، فسألني عن الأفلام التي شاهدتها مؤخراً، كما تحدثنا عن الكتب والموسيقى، وتبيّن لنا أن كلينا نحب إدوارد هوبر، وقد حاولنا إنهاء رواية سهر فينيغانس لكننا لم نفلح في ذلك. لقد كان ذلك ممتعاً، لكنني كنت أبتعد أكثر فأكثر عن محاولة اكتشاف ما إذا كان قد أجرى محادثات مع أختي، أو إن كان في باريس خلال شهر شباط، أو حتى معرفة الشخص الذي أذكّره فيه. وبعد مرور بضع دقائق قال:

- حسناً، عليّ أن أجهز نفسي للخروج لتناول العشاء.
- وهل ستذهب بعد ذلك إلى المقهى؟
- ربما. بالرغم من أنني لست متأكداً الآن من أنني قد أذهب.
- وكيف ذلك؟
- قد أكتفي بالعودة إلى غرفتي والتأكد من أنك ما زلت متصلة.
كانت تلك مفاجأة سارة صغيرة أخرى.
- هل ستحبين ذلك؟
- ربما.
- أودّ أن أتحدث إليك مرة أخرى.
لم أرد.
- هل ترغبين في ذلك؟
أخذت أحدق إلى المؤشر الذي كان يخفق، ولسبب ما بدأت أفكر في الوقت الذي أمضيته في برلين، وفي الشقة الصغيرة التي أقمت فيها مع ماركوس وفروستي والآخرين. كما تذكرت ذلك الإحساس بالرغبة وعدمها في آن واحد.
لكنني عاودت تذكير نفسي مجدداً بالأشخاص الذين أقوم من أجلهم بكل ذلك، وقلت:
- أجل.

أنهينا المحادثة، فقمت بتسجيل الخروج ثم اتصلت بآنا.
سألتني: «كيف جرت الأمور؟».
قلت: «لست متأكدة».
سألتني: «ألم يتحول الحديث إلى مواضيع جنسية؟».
أجبت: «لا، لم يحدث ذلك».
قالت: «لا بد أن يحصل ذلك».
قلت لها: «استمعي إلي، هلّا ألقيت نظرة على حسابه الشخصي عبر الإنترنت، ولتخبريني إن كنت تعرفينه».
أصابها تردد، ثم سمعتها وهي تنهض وتسير في شقتها، وبعد ذلك قالت لي: «بالطبع. لكنني لم أتعرف اسمه، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون من بين

الأشخاص الذين قابلتهم كيت. لكن، من الممكن أن يكون أحد الذين أجرت محادثات معهم».

قلت لها: «عليّ أن أكتشف ذلك».

ردت: «ولكن، لا تحلقي بأحلامك عالياً».

أخبرتها بأنني لن أفعل ذلك، ثم تحدثنا قليلاً بعد وأنهينا الاتصال. وبعد أن ودّعنا بعضنا، عاودت الاتصال بالإنترنت؛ إذ لم أستطع المقاومة. اطّلعت على الملف الشخصي للوكاس، وعلى الصور التي قام بتحميلها، وبدت لي عادية للغاية. كان يرتدي قميصاً ذا مربعات مفتوحاً عند الرقبة، وكان وجهه يبدو لطيفاً ووسيماً، أما عيناه فداكنتان. هل كان يعرف شقيقتي؟ هل هذا ممكن؟

قرأت ما تبقى من معلومات في ملفه الشخصي، فوجدت أنه وصف نفسه بالرياضي وعاشق المتعة، وأنه يستمتع بالقراءة والموسيقى وتناول الطعام في الخارج. وحينما نزلت إلى الأسفل، شاهدت رابطاً لصفحة حسابه على الفيسبوك، فنقرت عليه.

كان يستخدم الصورة ذاتها هناك أيضاً، لكنني بالكاد نظرت إليها. وأخذت أجول بناظريّ على صفحته وفقاً للتسلسل الزمني للأحداث لديه، ثم بدأت أعود إلى الخلف حتى وصلت إلى شهر شباط؛ إذ كان علي أن أتأكد.

كانت هنالك صورة له وهو يقف في الصحراء بجانب رجل آخر، وكان كل منهما يضع ذراعه على كتفي الآخر بوضع يوحي بالإحساس بالانتصار، ووراءهما في الخلفية بدت صخرة أولور. أما التعليق الذي أضيف إلى الصورة فقد وردت فيه عبارة: «لقد تمكّنا من ذلك أخيراً». إذاً، حينما قتلت كيت كان هو في أستراليا.

لكن ذلك لا يعني أنه لم يكن يعرفها. أخذت أفكر مرة أخرى في ما قاله لي: إنك تذكرينني بإحداهن.

أرسلت رسالة إلى آنا قلت لها فيها: «تفقّدي حسابه على الفيسبوك. لقد كان في أستراليا».

ذهبت للنوم؛ فقد تأخر الوقت أكثر مما كنت أظن. وكان هيو قد أطفأ النور ونام منذ زمن، لكنه ترك الستائر مفتوحة لأتمكن من خلع ملابسي تحت ضوء النور المنبعث من الشارع في الخارج. وقبل أن أقوم بذلك، تأكدت إن كان

هنالك أحد ما في الخارج، إلا أن الشارع كان خاوياً في تلك الليلة؛ باستثناء شاب وفتاة كانا يسيران وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر، وكان يبدو عليهما أنهما بحالة عشق أو فقدان التركيز؛ إذ كان من الصعب تحديد الحالة بالضبط. كنت عارية حينما تمددت على الفراش، ونمت على جانبي، وأخذت أنظر إلى هيو الذي كان النور والعتمة يظللانه. أخذت أقول لنفسي إنه زوجي؛ وكأنني كنت بحاجة إلى تذكّر هذه الحقيقة.

قبّلته على جبينه قبلة ناعمة. كان الجو في الليل حاراً ودبقاً، لذا أحسست بالعرق الذي تشكل على جبهته. انقلبت على جانبي الآخر مبتعدة عنه. لم أستطع منع نفسي من ذلك، وذلك بسبب الحديث الذي دار خلال فترة ما بعد الظهيرة؛ أعني المحادثة التي أجريتها عبر الإنترنت مع الشاب لوكاس. لقد أثار ذلك الحديث بداخلي شيئاً ما، نوعاً من الرغبة التي بدت لي معقدة، لكن لم يكن بوسعي إنكار وجودها.

سمحت لتلك الرغبة بأن تنتابني. كنت أفكر في لوكاس. لم أستطع منع نفسي من ذلك؛ بالرغم من أنني أدركت أن تصرفي هذا أشبه بالخيانة. لقد قال لي: أنت رائعة، فكانت الإثارة التي أحسست بها فورية وصرفة. رحت أتخيله الآن وهو يقول لي هذا مرات ومرات: أنت جميلة... أنت فائقة الجمال... أريدك، لكن شكله لسبب ما تغيّر وتحوّل إلى ماركوس. كان يقودني إلى الطابق العلوي، وكنا في تلك الشقة الصغيرة، في طريقنا إلى الغرفة التي تشاركناها، وإلى الفراش الذي كان على الأرض، إلى الكتلة المتشابكة من أغطية السرير الذي لم يرتب منذ الليلة الفائتة. كنت قد أمضيت النهار بمفردي هناك، فقد خرج، ولكنه عاد الآن، ولم يكن هنالك أحد سوانا. لقد تشاجر مع عائلته، وغضبت منه والدته لأنها كانت تريد منه أن يعود إلى البيت؛ حتى لو كانت عودته لبضعة أسابيع حسبما قالت له. لكنه يعرف أن ما تعنيه هو دوماً. أخبرته بأنني سأدعمه إذا قرر الذهاب، وإذا قرر أنه يرغب في ذلك، لكنني كنت أعرف أنه لن يفعل. ليس الآن، فهو هنا يشعر بالسعادة. أخذ يقبلني. أخذت أتخيل رائحته وبشرته الناعمة وزغب الشعر فوق صدره. كانت تلك تفاصيل أعرف جيداً أن نصفها ذكريات ونصفها الآخر تخيلات؛ أي إنها مزيج من الخيال والذكرى، وحملتني معها إلى مكان آخر... إلى مكان أصبحت فيه قوية ومسيطرة، وكانت

فيه كيت على قيد الحياة، وكل شيء على ما يرام.

حاولت أن أفكر في هيو؛ في نسخة مثالية عن هيو لم تكن موجودة مطلقاً. تخيلت الطريقة التي قد ينظر بها إليّ، والطريقة التي اعتاد أن ينظر بها إليّ. كانت عيناه تتنقلان من وجهي نزولاً نحو الأسفل، لتتوقفا بداية عند نحري، ثم عند صدري، وذلك قبل أن تنطلقا بسرعة نحو الأسفل لتبقيا هناك لحظات قصيرة قبل تعودا إلى وجهي مجدداً. كان تقييمه يستغرق ثلاث ثوانٍ، أو ربما أربع ثوانٍ. بدأت أتخيل نفسي، وسمحت لناظريّ بتتبع المسار ذاته الذي اتخذه هو، وأنا أتخيّل أنني أضمّ ذقنه غير الحليق، وألامس شعره الأسود الذي يظهر من تحت قميصه، وصدره، والقطعة المعدنية التي كانت تزين حزامه. تخيلته وهو يميل ليتحدث إليّ، كما تخيلت رائحة عطر ما بعد الحلاقة الذي يستخدمه، وكذلك رائحة أنفاسه الخفيفة. تخيلته وهو يقبلني، لقد كانت صورته صورة مثالية لهيو، لكنه في الحقيقة كان لوكاس الذي كان في الحقيقة ماركوس.

أخذت أنفاسي تتسارع، وبدأت أشعر بأنني حرة، وبأنني أصبحت خفيفة كالهواء، وبأنني مفعمة بالطاقة.

الفصل الحادي عشر

جلست وأنا أمسك كأساً من المياه الغازية، فقد تأخرت أدريان علي.

كان المطعم جديداً. وبحسب ما قالته أدريان، حتى بوب وجد صعوبة في حجز طاولة لنا؛ رغم أن شخصاً مثله يقوم بمراجعة حسابات المطاعم كان من النادر أن يصعب عليه أمر كهذا. لم أكن اليوم قادرة على اختيار ما أرتديه، لذا ارتديت في النهاية فستاناً بسيطاً من دون كمّين طُبعت عليه صورة، وتزيّنت بالعقد الذي أهداني إياه هيو في الكريسمس، كما تعطرت بالعطر المفضل لدي. كان قد مضى وقت طويل منذ أن خرجت لتناول العشاء في الخارج آخر مرة. لذا، شعرت بأنني أجهّز نفسي لموعد غرامي، وبدأت أشعر الآن بأنني وقفت على قدمي مجدداً.

وأخيراً، رأيتها آتية، ولوّحت لي وهي تقترب من الطاولة.

هتفت: «حبيبتي!». ثم قبلتني على وجنتي، وبعد ذلك جلسنا.

وضعت حقيبتها تحت كرسيها ثم قالت: «حسناً...» وأمسكت بلائحة الطعام. كانت تواصل حديثها وهي تقرأ، وقد قالت لي: «أعتذر عن التأخير، فقد تأخر قطار الأنفاق بسبب «سلوك أحد الركاب» حسب وصفهم». ثم نظرت إلى الأعلى وأكملت: «لقد كان السبب أحد الأوغاد الأنانيين الذي أصابه ما أصابه، فقرر أن يعكر نهار الجميع». فابتسمت، إذ غالباً ما كانت تعبّر عن سخطها بروح دعابة سوداوية. لم يكن بوسعي أن أشاركها في ذلك، إلا أنني كنت أعرف أنها لم تتعمّد هذا الأمر. إذ كيف يمكنها أن تفعل هذا بعد أن حدث لكيت ما حدث؟ سألتني: «هل ستمانعين إن طلبت كأساً من الشراب؟».

هززت رأسي نافية ذلك، فطلبت كأساً من الشراب، ثم أخبرتني أنه ينبغي لي أن أطلب طبق سرطان البحر. لقد كانت تشبه الزوبعة على الدوام، غير أنها بدت هذه الليلة على عجلة كبيرة من أمرها. قلت لنفسي: لعلّها تحاول أن تعوّض عمّا فاتها بسبب تأخرها، أو إنها قلقة حيال أمر ما.

«والآن». هتفت حينما وصل شرابها. كان صوتها قد أصبح مستريحاً ومطمئناً، ثم تابعت: «كيف حالك؟». هززت كتفي، إلا أنها رفعت يدي نحوها وهي تقول: «لا تقولي لي أياً من تلك السخافات؛ من مثل: أنا بخير. كيف حالك حقاً؟».

أجبتها: «أنا بخير، صدقاً». فنظرت إليّ، ثم أخذت تعابير الخيبة المبالغ بها تظهر على وجهها، فأضفت: «في أغلب الأوقات».

دفعت إليّ بالخبز الذي كان قد أُحضر للتو، لكنني تجاهلت ذلك، فقالت لي: «كم مضى على القصة الآن؟ لا بد أن أربعة أشهر قد مضت على الحادثة، أليس كذلك؟».

كانت هذه هي المرة الأولى التي لم أكن أعرف فيها الجواب عن هذا السؤال مباشرة، بل كان علي أن أحسب الفترة. لقد توقّفت عن عدّ الأيام والأسابيع، ولعل سلوكي هذا كان من أولى علامات التحسن، لذا كنت مسرورة بشكل غريب.

أجبتها: «خمسة أشهر تقريباً».

فابتسمت بحزن. كنت أعرف أنها تتفهم مشاعري أكثر من الآخرين. فمنذ بضع سنوات توفي زوج والدتها فجأة من جراء نوبة قلبية، وذلك أثناء قيامه بقيادة السيارة، وقد كان مقرباً منها كثيراً، لكن شدة حزنها صدمتني وقتها.

سألتني: «وهل اقتربوا أكثر من اكتشاف ما حدث بالفعل؟». وللحظة، بدت تعابير وجهها وكأنها قد تغيرت. كانت تبدو جائعة، إلا إن كنت أتخيل ذلك. لكن، سبق لي أن رأيت هذه التعابير على وجهها من قبل. كانت هذه هي روح الصحافة التي تسيطر عليها دوماً؛ إذ لم تكن قادرة على منع نفسها عن طلب التفاصيل.

قلت لها: «أتقصدين من فعل ذلك؟ ليس بعد. فهم لا يخبروننا بالكثير». ثم صمتُّ وتركت المحادثة تنتهي عند هذا الحد. بدا لي أنه مع كل أسبوع يمر يصبح احتمال إلقاء القبض على القاتل أضعف، لكنني لم أكن راغبة في التعبير عن ذلك بالكلمات.

بادرتني بالسؤال: «كيف حال هيو؟».

قلت لها: «إنه بخير. أتعرفين؟». وفكرت للحظة في أنه بوسعي أن أكون

صادقة معها، فقلت: «في الحقيقة، أشعر بأنه سعيد نوعاً ما أحياناً».

هل أشعر بذلك حقاً؟ أم إنني كنت أقول هذا فقط لأنني كنت لا أزال قلقة من احتمال كوني كذلك؟

مالت برأسها ثم قالت مستغربة: «سعيد!».

أجبتها: «أوه، لم أقصد أنه سعيد لأنها توفيت، بل إنه... أشعر أحياناً بأنه يحب أن تسير الأمور بشكل أبسط في ما يتعلق بكونر بحسب اعتقادي». ثم ترددت قليلاً وقلت: «لعله محق. فعلى ما يبدو، لقد أصبحا قريبين من بعضهما بشكل كبير خلال الفترة الأخيرة».

رفعت بصري نحو أدريان. لقد كانت تعرف أنني كنت سأقلق جداً في حال اضطرنا الأمر إلى اللجوء إلى المحاكم التي ستؤيد بدورها حق كونر في الاختيار.

قالت لي: «إنني أعرف هيو منذ زمن طويل يا جوليا. وهو يحب دوماً أن تكون الأمور منظمة ومتقنة، لكنه ليس سعيداً بسبب ذلك، فلا تكوني قاسية عليه بهذا الشكل».

شعرت بالخواء؛ وكأنني كنت أريد أن أشارك أدريان بكل شيء لأتخلص من تلك الأفكار... لأحوّلها وأعيش بحالة سلام.

قلت: «لكنه لم يكن متواجداً أيضاً في معظم الوقت».

ردت: «حبيبتي، ألم يكن كذلك دائماً؟». ثم تجرّعت بعض الشراب، وعندها انتابتني رغبة قوية؛ كانت الأولى من نوعها طيلة الأسابيع الماضية، لذا أخذت أقنع نفسي بأن أركب الموجة. كانت أدريان تواصل حديثها، أما أنا فكان علي أن أقاوم كي أتمكن من التركيز، وعندها سمعتها تقول: «إنهم جميعاً هكذا. إذ إننا نتزوجهم لأنهم ناجحون وطموحون وما شابه ذلك، لنكتشف في ما بعد أن تلك الأسباب هي التي تأخذهم منا؛ وهذا ما حدث مع ستيف، والآن مع بوب؛ إذ بالكاد أراه، لأنه مشغول جداً».

أصبحت مركزة، وعندها اكتشفت أن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إليها. إذ إن لديها مهنة خاصة تعتمد فيها على الكثير من التحدي، ولذا كان بوسعها أن تنتزع نفسها من زوجها بالسهولة التي يقوم فيها بانتزاع نفسه منها؛ ولكنني لم أكن راغبة في مجادلتها حول ذلك.

باغتتني بالسؤال: «هل تقومين بزيارة أحدهم؟».

شعرت بأنني قد انكفأت على نفسي. وبدأت أفكر إن كان ينبغي لي إخبارها بأمر لوكاس؛ بالرغم من أنه لم يكن هنالك أي شيء يمكن إطلاعها عليه، إذ كنا لا نزال نجري محادثات بصورة منتظمة. وبالرغم من أنني أخذت أقنع نفسي بعدم وجود أي سبب وراء تفكيري في أنه يعرف كيت، إلا أنني بقيت أفكر في ذلك الأمر وأقلبه من جوانبه كافة. في الحقيقة، لم أتمكن من كشف أمره حتى الآن، ولذلك كنت مستمرة في التواصل معه.

قلت لأدريان: «ماذا...» لكنها قاطعتني قائلة:

«أعني طبيباً معالجاً».

انحسر الذعر الذي شعرت به بكل تأكيد، وقلت لها: «أوه حسناً. كلا، لا أقوم بهذا حالياً».

مرت لحظة من الصمت، لكنها لم تحوّل بصرها عني؛ فقد كانت تقيّمني، وتحاول أن تكتشف سبب ردة فعلي تلك.

ثم بادرتني بالقول:

«جوليا... إذا كنت لا ترغبين في الحديث عن الموضوع...».

لقد كنت راغبة في التحدث عن الموضوع بالرغم من كل شيء. أجل، أريد ذلك، ثم إنها أقدم صديقة لدي.

لذا، فتحت قلبي وقلت:

«أتتذكرين أنني قلت لك إنني قد أدخل الموقع الذي كانت كيت تستعمله لأحصل على قائمة بأسماء الأشخاص الذين كانت تتحدث إليهم؟».

ردت: «أجل. لكنك قلت إنك غيّرت رأيك».

بقيت صامتة، فهتفت:

«جوليا!».

قلت:

«كان هنالك شخص كنت أشك في أمره».

عند ذلك، وضعت كأسها على الطاولة، ورفعت حاجبيها ثم قالت: «أكملي».

قلت: «إنه يزور باريس، وقد أخذ يراسلني، وكنت قد أقنعت نفسي بأنه قد

يكون أحد الأشخاص الذين كانت كيت تتحدث إليهم، وأنه أحد الأشخاص الذين لم تكتشف الشرطة وجودهم».

سألتني: «لذا، قمت بإعطاء السلطات معلومات عنه، أليس كذلك؟».

سكتُّ مرة أخرى، فنادتني:

«جوليا».

قلت: «ليس بعد».

سألتني: «لماذا؟».

أجبت: «عليّ أن أتأكد... فأنا أتحدث إليه فقط، وأحاول أن أكتشف ما يعرفه عن الموضوع».

سألتني: «حبيبتي، هل أنت متأكدة من أنها فكرة صائبة؟».

قلت لها: «وما البديل؟ أن أعطي الشرطة اسمه مثلاً؟».

ردت: «أجل. هذا بالضبط ما يتعين عليك القيام به!».

قلت: «لا أريده أن يخاف ويهرب. وبالإضافة إلى ذلك، من المحتمل أن يتجاهلوا هذه المعلومة».

قالت: «لن يتجاهلوها بكل تأكيد. ولِمَ سيقومون بذلك يا جوليا؟ إن مهمتهم هي التحقيق في الموضوع، وهو يعيش في باريس، لذا يجب أن يكون الأمر بغاية السهولة».

لم أخبرها بأنه يعيش في ميلانو، بل قلت: «أنا أعرف ما أقوم به. لقد تحدثنا معاً مرة أو مرتين».

لقد كانت كذبة، أو لنقل نصف الحقيقة. كنت أحاول أن أتراجع؛ فقد تطورت الأمور، إذ قام بتشغيل الفيديو لديه، وطلب مني القيام بالمثل. وبالرغم من أنني لم أستجب لطلبه إلا أنه أخبرني أنني جميلة، وقال لي إنه يتمنى أن يجد طريقة لأكون فيها معه. ومع أنني شعرت بالذنب لأنني كنت أكذب عليه، غير أنني قلت له إنني أرغب في ذلك أيضاً. وانتهت محادثاتنا بقوله إنه يعشق الحديث إليّ، وإنه لا يطيق الانتظار إلى أن نتمكن من التحاور مجدداً، وطلب مني أن أعتني بنفسي، وأن أكون حذرة. وقد بادلته الألفاظ والعبارات ذاتها لأنه من غير اللائق ألا أقوم بذلك، ولأنه لم يكن بوسعي أن أعرف ما يخفيه.

لقد بدا لي الأمر قاسياً في بعض الأحيان، لكنني لم أكن أقصد ذلك.

ورغم ذلك، لقد أحبني ذلك الشخص وكان ذلك واضحاً، بل لنقل إنه أحب الإنسانة التي اعتقد أنني هي.

سألتني أدريان:

«هل يعرف أين تقطنين؟».

فهززت رأسي نافية؛ رغم أنني كنت قد ارتكبت غلطة منذ بضعة أيام حينما ورد على لساني ذكر قطار الأنفاق. وهكذا، بتُّ مضطرة إلى الاعتراف بأنني أعيش في لندن وليس في باريس. ولكنه لم يعرف عني أكثر من ذلك.

لكنني قلت لها:

«كلا، بالطبع لا».

ثم ساد الصمت بيننا لفترة طويلة، وقطعته أدريان بسؤالها: «إذاً، عمّ تتحدثان؟».

لكنني لم أجبها، فكان ذلك جواباً بحد ذاته.

بادرتني بالقول: «أنت ضعيفة للغاية في الوقت الراهن يا جوليا، فهل أنت واثقة مما تقومين به؟».

هززت برأسي وقلت: «بالطبع». لكن، لم يبدُ عليها أنها اقتنعت بذلك.

قالت: «أنت معجبة به».

أخذت أهز رأسي نافية مرة أخرى وأنا أقول: «كلا. الأمر ليس كذلك، إنه مجرد... يبدو أن هنالك صلة ما بالموضوع، لذا كنت أحاول أن أعرف إن كان على علاقة بكيت».

سألتني: «من أي ناحية؟».

قلت لها: «أنت تعرفين كيف كان ارتباطي بها سابقاً؛ لقد كانت بيننا علاقة روحية تقريباً. وكذلك، حسناً...».

سألتني: «أتعتقدين أنك إن شعرت بوجود رابط ما مع ذلك الرجل فهذا يعني أن له صلة بالموضوع؟».

لم أجبها؛ لأن هذا ما كنت أفكر فيه بالضبط. ولم تكن لديها أي فكرة عن الفرق الذي أحدثه ذلك الإحساس في نفسي؛ فعلى الأقل أصبحت أشعر بأنني أفعل شيئاً... أي شيء يمكنه أن يوصلني أنا وكونر إلى قرار، وإلى بر الأمان.

هتفت أدريان والصرامة بادية على وجهها: «جوليا، تبدين كمراهقة أغرمت

بشاب وتسعى إلى الارتباط به في السنة المقبلة».

قلت: «هذه سخافة». وكنت أعني ذلك، لكنني لم أبدُ مقنعة حتى لنفسي. فهل هذا ما أشعر به بالفعل؟ لم يكن بوسعي أن أنكر أنني كنت أتحرق شوقاً إلى رسائل لوكاس.

لعل الأمر لا يتعلق بالتحقيقات البتة، ولعلي أصبحت الآن أعرف كيف كانت كيت تشعر في ما يتعلق بهذا الموضوع؛ أي إجراء المحادثات مع أولئك الشبان. أصبح بمقدوري أن أكون أقرب إلى مشاعرها، وأن أطلع على عالمها.

قلت: «أتعرفين، حتى لو كان الأمر عقيماً ومضيعة للوقت فلا يهمني هذا؛ لأنني أحاول أن أقوم بشيء لأتجاوز حقيقة وفاة شقيقتي».

سألتني: «إذاً، هل أخبرت ذلك الشاب عنها؟».

أخبرتها أنني لم أفعل، ولكنني كنت أكذب. ففي أحد الأيام، استيقظت ومزاجي معكر بعد ليلة قلق مضنية؛ إذ لم يكن بمقدوري التوقف عن التفكير في كيت، لذا كان بوسعه أن يشعر بأن هنالك خطباً ما، وهذا ما جعله يطرح علي أسئلة كثيرة ليطمئن إن كان كل شيء على ما يرام، وإن كان بإمكانه أن يفعل أي شيء ليخرجني من تلك الحالة. وعندها، لم أستطع تمالك نفسي، وأخبرته بالأمر.

قال لي يومها إنه يشعر بالأسف الشديد لسماعه نبأ وفاة أختي، ثم سألني عن سبب وفاتها. كنت على وشك أن أخبره بالحقيقة، لكنني أدركت أن ذلك سيكون خطأً جسيماً. لذا، أخبرته بأنها ماتت منتحرة، فمرت لحظة صمت طويلة بيننا قطعتها بسؤاله عما يريد أن يقوله، فكرر أنه يشعر بالأسف الشديد لذلك، وأنه يود أن يحتويني بذراعيه وأن يكون معي ليخفف عني.

ثم أخبرني بأنه يتفهم حالتي النفسية، وبأن ذلك لا بد أن يحسن من مزاجي. وللحظة، شعرت بالاستياء من الأسئلة التي خطرت في ذهني حول احتمال أن تكون له علاقة بوفاة أختي بشكل أو بآخر.

قالت أدريان: «حسناً، على الأقل أنت تقولين إن هذا شيء تقومين به. هل قمت بعلاقة حميمة معه؟».

هتفت: «بالطبع لا». لكنني بدأت أفكر كيف كانت مشاعري حينما قام بتشغيل الكاميرا، وحينما كنت أتابعه وهو يجيب على رسائلي ويبتسم لي ويلوّح

عند الوداع. هل كنت أرغب في القيام بعلاقة معه؟

أخذت أفكر في الليلة التي قضيتها في السرير في ذلك اليوم حينما قمت بعلاقة حميمة مع هيو للمرة الأولى بعد مرور أشهر. لقد لوكاس هو الشخص الذي كنت أفكر فيه طيلة الوقت الذي أمضيته مع هيو.

لكنه في الوقت ذاته لم يكن هو؛ إذ إن الرجل الذي كنت أتخيله وأحلم به كان مجرد خيال. فالصورة التي كنت أرسمها كانت بعيدة كل البعد عن صورة لوكاس الذي كنت أجري محادثات معه، وعن الشخص الذي رأيته عن طريق الكاميرا.

سألتني أدريان: «هل أخبرته عن هيو؟».

أجبت: «بالطبع لا».

سألتني: «لماذا؟».

أجبتها: «لأنني أريده أن يظن أنه بإمكانه الوصول إليّ، وإلا فكيف يمكنني أن أكتشف إن كان هو الشخص ذاته الذي أتحدث إليه؟».

ردت: «صحيح». وأخذت تنظر إليّ وتحدق إلى عينيّ مباشرة، ثم قالت: «وماذا تعتقدين سيكون رأي هيو في حال اكتشف الأمر؟».

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أفكّر فيها في هذا الأمر وأقلّبه من جوانبه كافة بالتأكيد، فقلت: «إنني فقط أحاول أن أكتشف ما حدث لأساعد كونر قبل أي أحد آخر».

بدا عليها الاستياء تماماً عندما قلت لها ذلك، وكأنها كانت تعتقد أنني غبية؛ إذ من الممكن أنها فكرت في ذلك، ولعلي كذلك بالفعل.

في تلك اللحظة وصل الطعام، فشعرت بالامتنان، ثم سرت رجفة من التوتر ونحن نرتب موضع الفوطتين الخاصتين بنا ونشرع بتناول الطعام، وهنا بادرتها بالكلام: «اسمعي، إن الأمر بعيد كل البعد عن أي مشاعر مرتبطة بأي شيء يتعلق بهذا الموضوع. إنها مجرد كلمات تظهر على الشاشة...».

أخذت تتناول السلطة بشوكتها، ثم ردت: «أعتقد أنك ساذجة، وأنهم يستغلونك».

قلت: «هل يمكننا أن نغير الموضوع؟».

وضعت شوكتها جانباً وقالت: «تعرفين أنني أحبك وأساندك، ولكن...».

كنت أنتظر منها أن تقول ذلك_ هذا ما قلته لنفسي_ ثم سألتها: «ماذا؟».

ردت: «كل ما هنالك... إنني مندهشة مما يمنحه الشخص عن طريق الإنترنت من دون أن يدري، وكيف يمكن أن يبدو له ذلك واقعياً وحقيقياً، وكيف يكون الإحساس بذلك في غاية البساطة».

هتفت: «أدريان! أنا لست حمقاء، وأنت تعرفين ذلك».

ردت: «آمل أن تكوني على دراية ومعرفة بكل ما تقومين به».

أنهينا وجبتينا، وتناولنا القهوة قبل مغادرتنا. كانت ليلة دافئة أخرى، ولهذا كان الشبان والفتيات يتسكعون في المدينة متشابكي الأيدي، وكان الجو محملاً بالمزاح والضحك والاحتمالات؛ ممّا جعلني أشعر بعدم التوازن. لذا، قررت أن أركب قطار الأنفاق لأصل إلى المنزل.

قالت لي: «سررت برؤيتك».

قلت: «وأنا أيضاً». ثم قبّلت كل منا الأخرى، لكنني شعرت بخيبة الأمل؛ لأنني اعتقدت أنها ستنظر إلى المحادثات التي أجريتها مع لوكاس ضمن الإطار الذي وضعتها فيه، بل توقعت منها أن تساندني، لكنها لم تفعل، ولن تفعل، فكل ما قالته كان: «كوني حذرة». فوعدتها بأن أكون كذلك.

وصلت إلى رصيف المحطة بمجرد أن توقف القطار الذي كان الركاب قد احتلوا معظم مقاعده، لكنني تمكنت من الجلوس على أحد المقاعد القليلة المتبقية. وبعد مرور فترة ليست قصيرة، اكتشفت أنه كان دبقاً من جراء انسكاب بعض الشراب عليه، فأخرجت كتابي من حقيبتي، كان تصرفي ذلك مجرد آلية دفاعية، لذلك لم أفتحه على الإطلاق.

وفي هولبورن سمعنا صوت جلبة، ثم صعدت مجموعة من الشبان إلى القطار. كان معظمهم من المراهقين الذين كانوا في أوائل العشرينيات من أعمارهم، وكانوا يرتدون سراويل قصيرة وقمصاناً خفيفة ويحملون بأيديهم زجاجات الشراب. فجأة، تفوّه أحدهم بشيء ما لم أسمعه، لكنني رأيت الآخرين ينفجرون بالضحك، ثم هتف أحدهم: «تباً!». وقال الآخر: «ما أروع ذلك العضو الأنثوي!». هكذا بصوت عالٍ، ومن دون أن يكلف أي منهم عناء خفض صوته، إذ كان هنالك أطفال يسمعون بالرغم من أن الوقت كان متأخراً.

في تلك اللحظة، لمحت نظرة في عين رجل كان يجلس قبالتي، فابتسم ورفع حاجبيه، ووخذتنا حالة من الاستهجان مما حدث. كان لذلك الرجل وجه متطاول وشعر قصير، كما كان يضع نظارة ويحمل حقيبة أوراق وضعها على حضنه، لكنه كان يرتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً خفيفاً. أخذ القطار يسير مبتعداً عن تلك المحطة، فابتسم ذلك الشخص لي، ثم عاود النظر إلى صحيفته، وعندها فتحت كتابي.

لم أستطع أن أركز؛ فقد كنت أقرأ الفقرة نفسها مرات ومرات. كما لم أتمكن من التظاهر بأنني لم أكن أتمنى أن تصلني رسالة من لوكاس حالما أصل إلى البيت؛ لذا أخذت أفكر في الشخص الذي كان يجلس قبالتي.

تنهدت ثم رفعت بصري، فبدأ ينظر إليّ مجدداً. لكنه هذه المرة أخذ يبتسم ويحدق إليّ لفترة أطول، وكنت أنا من أشاح بنظره بعيداً، ثم أخذت أحدق إلى الإعلان الذي كان فوق رأسه، وأتظاهر بأن الإعلان قد لفت نظري. كان ذلك الإعلان عبارة عن ملصق لإحدى الجامعات كتبت فيه العبارة التالية: فلتكن الشخص الذي تريد أن تكونه. وعليه صورة لامرأة تعتمر قبعة التخرج وتمسك بلفافة من الورق وتبتسم ابتسامة عريضة، وبالقرب من ذلك الملصق ثمة ملصق آخر لوكالة تختص بأمور المواعدة كتب عليه: ماذا لو عرفت بأن أحد الذين يستقلون هذه العربة معك والذي تحلم به كان أعزب؟ أخذت أفكر: ماذا لو عرفت ذلك؟ ماذا عساي أفعل؟ أعتقد أنني لن أفعل شيئاً، فأنا متزوجة، ولدي طفل. ألقيت نظرة سريعة إلى الأسفل، بعيداً عن الملصق... لقد كان يقرأ في صحيفته مجدداً، لكنني وجدت نفسي أحدق إلى جسده وصدره، ثم أخذت أحدق إلى ساقيه وفخذيه. وبالرغم من أنه لم يكن يشبه لوكاس في شيء، إلا أنني بدأت أرى فيه لوكاس، ثم تخيلته وهو يرفع بصره نحوي ويبتسم بالطريقة التي رأيت لوكاس يبتسم لي فيها على الشاشة في المرات الكثيرة التي فتح فيها الكاميرا خلال الأيام القليلة الماضية. أخذت أتخيل نفسي وأنا أقبله وأسمح له بأن يقبلني. ثم تخيلت نفسي وأنا أسحبه نحو إحدى المساحات الفاصلة بين السلالم في المحطة التالية...

الفصل الثاني عشر

ظننت أنه هناك مرة أخرى، فقد كان واقفاً في بقعة لا تقع تحت الضوء تماماً ليراقب نافذتي.

لقد كان هناك وليس هنالك في الوقت نفسه. فحينما نظرت إلى الظلال مباشرة كان بوسعي أن أقنع نفسي بأنه لم يكن هنالك أي شيء، وأن الأمر مجرد خدعة ضوئية، أو لنقل إنه خداع بصري. لقد كان دماغي يسعى إلى ترتيب نفسه عبر الفوضى، وهو يحاول أن يختلق معنى من الأمور العشوائية. ومع ذلك، حينما نظرت بعيداً بدا لي الشبح على وشك أن يظهر في مركز الصورة ليعلن عن نفسه بأنه حقيقي.

لم أستدر هذه المرة، وأقنعت نفسي بأنه حقيقي، وبأنني لا أتخيل. لذا، بقيت في مكاني لأراقبه. كنت قد أخبرت هيو عنه في المرة السابقة فقال لي إنه لا يوجد أي شيء من هذا القبيل، وإن ما يحصل مجرد خدعة ضوئية. ولهذا أردت هذه الليلة أن أطبع صورته على شبكيتَي عينيّ، لأستخرجها لزوجي وأريه إياها، فقد كنت أريد أن أقول له: انظر، لم أكن سخيفة، كما أنني لم أكن أتخيل، لقد كان هناك.

غير أن الشبح لم يتحرك، بل بقي ساكناً تماماً، فأخذت أراقبه. وبينما كنت أفعل ذلك، بدا لي أنه بدأ بالتراجع نحو الظلال بطريقة ما؛ أي إنه كان هناك وليس هناك.

استدرت وأيقظت زوجي قائلة: «تعال يا هيو وانظر، إنه هنا مجدداً».

نهض هيو على مضض، ولكنّ الشارع كان خالياً.

لعل هيو كان محقاً، ولعلي أصبت بمرض الشك.

أخذت أقول لأنا: «إن هيو يعتقد أنني فقدت عقلي». كنا نتحدث عبر سكايب بعدما فرغت من إضافة بعض الصور إلى موقعي الإلكتروني وترتيب

الأشياء فيه، وقد كان وجهها يظهر في نافذة عند زاوية الشاشة.

ردت: «قد يكون مجرد شخص يقوم بجولة مع كلبه».

أجبتها: «ليســت هنالك أي كلاب». بدأت بقول شــيء ما، غير أن صورتها تجمدت في مكانها ولم أعد أسمعها. وبعد مرور لحظة، عادت الصورة فتابعت حديثي قائلة: «إنه يقف خارج منزلي ووجوده يفزعني. وحين ألتفت لأوقظ هيو أو لأرى أي شيء آخر، أجده قد اختفى دوماً حينما أعود».

ردت: «قد يكون مجرد شخص غريب الأطوار».

قلت: «ربما. هكذا أعتقد».

سألتني: «هل تحدثت إلى أدريان بشأنه؟».

قلـت: «كلا». إذ كنـت قـد عزمـت على إخبارها بذلك فـي إحدى الليالي، لكننـي خفـت أن تظننـي قد جننت؛ نظـراً إلى كونها قد أخذت عني هذه الفكرة مـسبقاً.

سألتني: «ما الذي ستفعلينه؟».

قلـت لهـا إننـي لا أعـرف ما سـأفعله، ثـم تابعت قائلة: «لكنه يبـدو حقيقياً للغاية، أقسم إنه كذلك، ثم إنني لست مجنونة».

ردت: «بالطبـع لا. فأنـا لا أشـك فـي ذلـك للحظة، كما أن ردة فعلك هذه تعتبر منطقية تماماً تجاه كل ما حدث».

شعرت بالارتياح. فحتى لو كانت آنا تمازحني، فإنها تقوم بذلك على الأقل بدلاً من أن تحاول إقناعي بأنني مخطئة أو مجنونة.

سـألتني: «كيف هي الأمور مع ذلك الشـاب الذي تراسـلينه؟ ذلك الشـاب الذي تعتقدين أن له صلة بكيت؟».

قلت: «لوكاس؟».

هل يتوجب عليّ أن أخبرها؟ هل سـتطلب مني أن أدلي بهذه المعلومات للشرطة ومن ثم أذهب بحال سبيلي؟

قلـت: «لسـت متأكـدة». ثم أخبرتها ببعـض التفاصيل، فكان ما أخبرتها إياه أكثر مما أخبرت به أدريان، لكنني لم أخبرهما بكل شيء، وتابعت كلامي بالقول: «إننا نراسل بعضنا بين الفينة والأخرى. ثمة شيء ما حول شخصيته، وهو شيء لا يمكنني التعرّف إليه بدقة، ومن المحتمل ألا تكون لذلك الشيء أي أهمية».

ولكـن، هـل الأمـر كذلـك؟ لقد بقي يلاحقني، أم إنني من لاحقه؟! لسـت أدري. وعلـى أي حـال، كنـت قد بدأت بتشـغيل المكالمة المرئيـة عبر الكاميرا أيضـاً. وقـد بـدأت بذلـك في الليلة الماضية، حيث قمت بتشـغيل الكاميرا لفترة قصيرة، لأقل من دقيقة، لكنني سـمحت له بأن يراني.

ومع ذلك، لم أخبرها بما فعلته.

بل قلت لها: «حسـناً، لقد رد ذلك الشـاب الذي راسـلته والذي كان اسـمه موجوداً في قائمة كيت على رسالتي... إنه Harenglish».

«حقاً؟!».

لكنك لم تخبريني، قلت ذلك لنفسـي، لكنني كنت أعتقد أن ذلك الشـاب ليست له أي علاقة بالموضوع.

«ماذا قال؟».

«لم يتكلم كثيراً، لكنه قال إنه لا يسعى إلى أن يلتقي الأشخاص في الحياة الواقعيـة، لـذا يدخـل هـذا الموقع عبر الإنترنت ليسـتمتع بوقتـه قليلاً، وليجري محادثات مثيرة حسـب تعبيره. ولكن تواصله مع الفتيات يقتصر على الإنترنت فقط؛ نظراً إلى كونه يحب زوجته كثيراً ولن يخاطر بزواجه من أجل أي شـيء آخر».

«وهل صدقت ما قاله؟».

«نعم، صدقته».

إنه يوم حفلة كارلا التي تقطن في منطقة تبعد أميالاً عنا؛ في منطقة ما تقع فـي منتصـف الطريـق إلى غيلدفورد. كان هيو يقود السـيارة، وكونر يجلس على المقعد خلفي وهو يسـتمع إلى الموسـيقى عبر جهاز الآيبود الخاص به، وكان صوت الموسـيقى المنبعث منه عالياً للغاية. في السـنة الماضية، استمتعنا جميعاً بذلـك اليـوم، فقد أخذت معي سـلطة كنت قـد أعددتها، والتي كانت مؤلفة من باذنجان مشـوي وسـمكة سـلمون نقعت في عصير الليمون، كما اشتريت فسـتاناً جديداً لتلك الحفلة. أما كونر فقد انسـجم مع أولاد الجيران، في حين أن هيو استمتع بجلسـة استرخاء مع زملائه. أما اليوم، فلم أكن أريد أن أتواجد هناك، بل كنت أريد أن يقنعني أحد بالذهاب، ولهذا قال لي هيو: «ستكون الحفلة ممتعة،

وسيتمكن كونر من رؤية أصدقائه. كما ستكون الحفلة فرصة لك لتظهري له مدى تغلبك على مشاكلك».

ولكن، هل كنت أتغلب على مشاكلي؟ أخذت أفكر في لوكاس، فقد كان سيحضر حفلة زفاف في هذا اليوم، وقد قمت في الليلة الماضية بإعطائه رقمي بعد أن تحدثنا، وبعد أن حدثته عن الرجل الذي اعتقدت أنني أراه من نافذة غرفتي خارج بيتي. وبعد ذلك، قام هو بإعطائي رقمه.

وتمنيت الآن لو أنني لم أقم بذلك؛ لأنني شعرت بالاستياء جداً حيال عملية إغوائه بتلك الطريقة.

التفت لأنظر إلى هيو. لقد قال لي لوكاس إنه يتمنى لو كان بمقدوره أن يحميني، وعندها لن يسمح لأي شخص بأن يجرحني. شعرت حينها بالأمان. ولكن، ماذا عن زوجي؟ كان يجلس على المقعد الأمامي وعيناه ثابتتان على الطريق. وتخيلت أنه ينظر إلى المسرح بالطريقة ذاتها. كما تخيلت أنني أراه والمشرط في يده، وهو ينحني فوق الجسد الذي تم شقه وكأنه سمكة منزوعة الأحشاء. هل بوسعه أن يحميني؟ بالطبع لا؛ لأنه يعتقد أنني كنت ألفق القصة.

أخذت كارلا تحيينا بسيل من الابتسامات والقبلات، ثم قادتنا من المنزل إلى الفناء، فاتجه هيو نحو زوج كارلا، أما كونر فقد مضى نحو بطانية النزهات حيث تحلق الأولاد هناك. رأيت ماريا وبادي يقفان مع أشخاص آخرين فانضممت إليهما.

عانقتني ماريا، وكذلك زوجها. كان الجميع يتحدثون عن العمل، حيث ذكرت ماريا المؤتمر الذي حضرته في جنيف، وبدأت بوصف العمل الذي قدمته، ثم ذكرت الشرايين الأمامية الهابطة والتكلس ونقص الأكسجين، فبدأ بعض من حولها بهز رؤوسهم، بينما بدا البعض الآخر مرتبكاً. كان هنالك رجل مسن يقف بجانب بادي، فتذكرت أنني رأيته في السنة الماضية. لقد كان محامياً في المحاكم العليا من دنفرلاين. وحينما فرغت ماريا من حديثها شرع بالقول: «يبدو أنه لا سبيل لفهم الموضوع على الإطلاق». وهنا ضحك الجميع، وبعد هنيهة التفت نحوي وقال:

«وكيف تنسجمين أنت مع المجموعة؟ هل تقومين بتقطيع لحم الناس

لتحصلي على رزقك أيضاً؟».

سادت لحظة صمت؛ إذ بالرغم من أن كيت لم تتعرض إلى عملية ذبح، إلا أن الكلمة بقي لها وقع لاذع، حيث باغتتني صورة لأختي ولم أتمكن من استبعادها. فتحت فمي لأجيب، لكن الكلمات لم تخرج منه.

وهنا حاول بادي أن ينقذني، فأخذ يعرفهم إليّ قائلاً:

«جوليا مصورة فوتوغرافية». ثم ابتسم والتفت نحوي وتابع قائلاً: «وهي موهوبة للغاية».

حاولت أن أبتسم، لكنني لم أستطع. إذ كانت صورة كيت لا تزال ماثلة أمامي... وهي تموت. ثم انتبهت إلى أن الرجل الذي تم تقديمي إليه كان يمد يده وهو يبتسم.

قلت له: «عذراً، أريد الذهاب إلى الحمام».

أقفلت الباب خلفي واستندت إليه، وأخذت أستنشق الهواء بعمق، ثم خطوت نحو الأمام. كانت النافذة مفتوحة، وقد انساب إليها صوت الضحك من الفناء الموجود تحتها.

كان يجب ألا آتي إلى هنا، كان علي أن أجد عذراً، لقد تعبت من التظاهر بأن كل شيء طبيعي، في الوقت الذي لم يكن فيه شيء كذلك. أخرجت هاتفي بصورة تلقائية وفطرية، إذ لم أكن واثقة مما كنت أقوم به، لكنني كنت سعيدة، وعندها وجدت رسالة من لوكاس يقول لي فيها:

«لقد كان العرس مسلياً، وقد ثملت، وها أنا أفكر بك».

بالرغم من الحالة السوداوية التي كنت فيها، إلا أن البهجة غمرتني كما يغمر سائل التعقيم الجرح، ولم يكن ذلك لأن الرسالة التي وصلتني كانت منه_ هكذا كنت أقنع نفسي_ بل إنه مجرد إحساس بالإثارة لكوني مرغوبة.

أصبحت الآن أعرف كيف كانت كيت سترد، فكتبت له: «أنا في حفلة رهيبة، أتمنى لو كنت هنا».

ضغطت زر الإرسال، ثم غسلت يدي بالماء البارد، وبعدها نثرت بعض الماء على وجهي ورقبتي، فبدأ الماء يقطر منهما ويصل إلى تحت ثوبي، ، فجعل بشرتي نضرة. بعد ذلك نظرت من النافذة.

كان كونر في الخارج يجلس على العشب مع فتى وفتاة، كانوا جميعاً

يضحكون على شيء ما، وقد بدا لي كونر مقرباً من الفتاة بشكل خاص. ثم أدركت أن الأمر لن يطول حتى تبدأ مرحلة المواعدة لديه، لتأتي بعدها مرحلة الحميمية، وبعدها سأفقد جزءاً منه للأبد. كنت أرى أنه لا بد لذلك أن يحدث، لكن هذه الفكرة غمرتني بالحزن.

رأيته يرفع يده ليلوح لأبيه، فصدمني الشبه الكبير الذي كان بينه وبين كيت حينما كانت في مثل عمره، إذ لكل منهما الاستدارة الطفيفة ذاتها في الوجه، ونصف الابتسامة ذاتها التي يمكنها أن تختفي ثم تعود للظهور في لحظة.

لقد بدا لي شبيهاً بوالدته، إلا أن ذلك كان يجب ألا يسبب لي تلك الدهشة، ومع ذلك شعرت بالدهشة؛ فكان ذلك مؤلماً بالنسبة لي.

* * *

عدت للانضمام إلى المجموعة، لكنني لم أستطع الاستماع إلى المحادثة، فأخذت أسأل نفسي: ترى، لم كنت متحمسة جداً عند اكتشافي أن رسالة قد وصلتني من لوكاس؟ ولماذا أجبت على رسالته؟ أخذت تلك الأسئلة تدور في رأسي، وبعد مرور دقيقة أو اثنتين اعتذرت من المجموعة وذهبت لأرى كونر. كان بصحبة أصدقائه، وقد قاطعت أحاديثهم ، مماجعلني أشعر بالاستياء لأنني قمت بذلك. مضيت نحو البيت الصيفي الذي كان منزوياً في جانب الحديقة، بين المنزل والبوابة المؤدية للمكان الذي تم ركن السيارات فيه. كان ذلك البيت مثمن الأضلاع، وقد طلي بلون أخضر كلون النعنع، وقد تناثرت فيه الكثير من الوسائد. وحينما وصلت إلى هناك، رأيت الأبواب مفتوحة، واكتشفت أن البيت كان خاوياً.

جلست هناك واستندت إلى الجدار الخشبي. كانت الأصوات غير المفهومة للمحادثات مستمرة، فأغمضت عينيّ. كانت رائحة المكان توحي بأن الخشب قد تم طليه مؤخراً، وهذا ما جعلني أتذكر العطلة الوحيدة التي قضيتها مع أمي في طفولتي. تذكرت الكوخ الذي استأجرناه في منطقة فورست أوف دين. كان بوسعي أن أتخيلها وهي تقف عند الموقد بانتظار غليان الماء لتعد القهوة لأبي بينما كنت أطعم كيت. كانت تدندن لنفسها بكلمات أغنية كان المذياع يبثها، وكانت كيت تضحك على شيء ما. كنا جميعاً على قيد الحياة وقتئذ، وكانت السعادة تغمرنا إلى حد ما، لكن ذلك كان قبل أن تبدأ عملية الانفصال بشكل

بطيء، والتي انتهت بوفاة أختي وإحساسي بأنني أصبحت وحيدة تماماً.

كنت أرغب بتناول شراب في تلك اللحظة. أجل، كنت أرغب بتناول الشراب. والأسوأ من ذلك، والأخطر يتمثل في اعتقادي بأنني أستحق تناول ذلك الشراب.

خيم ظل ما على وجهي، ففتحت عيني. كان هنالك شبح يقف عند عتبة الباب أمامي، تظلله العتمة، ومن ورائه ينبعث ضوء شمس ما بعد الظهيرة. وقد استغرق الأمر مني هنيهة حتى أدركت أنه بادي، وقد بادرني بالقول:

«مرحباً». بدا لي مبتهجاً، لكن حماسته كانت مفتعلة بعض الشيء حين قال: «أيمكنني أن أنضم إليك؟».

أجبته: «بكل تأكيد». فخطا نحو الأمام، لكنه تعثر بإحدى الدرجات المنخفضة؛ لقد كان ثملاً أكثر مما كنت أتخيل.

سألني: «كيف تسير الأمور؟». ثم رفع إحدى الكأسين اللتين جلبهما من المنزل قائلاً: «ظننت أنك قد ترغبين في هذه».

أجل، أعتقد أنني أرغب في ذلك.

ولكنني أعرف أنه علي أن أتجاهل ذلك.

وضع الكأس على الأرض حيث يمكنني أن أصل إليها، فأخذت أقول لنفسي: اركبي الموجة... اركبيها. ثم جلس على المقعد إلى جانبي بالضبط، فكان قريباً مني للغاية، لدرجة أننا كنا نتلامس، وبعدها قال:

«ما زالوا يتحدثون بأمور العمل، ألا يكفون عن ذلك؟».

أخذت أهز كتفي بلا مبالاة؛ إذ لم أكن أريد أن أهتم بذلك الموضوع، أي بموضوع نحن وهم، الجراحين والجراحات، وأزواجهن وزوجاتهم على الغالب الأعم.

قلت له: «إنه عملهم».

قال: «لماذا علينا أن نقوم بذلك؟».

سألته: «نقوم بماذا؟».

رد: «حضور هذه الحفلات؟ أتستمتعين بها؟».

قررت أن أكون صادقة معه فقلت: «أبداً. فأنا لا أحب أن أكون قريبة من أشخاص ثملين، وتحديداً لأنني كنت أعاني من مشكلة الإدمان».

بـدا لـي مندهشـاً، لكـن كان يجب أن يعرف، فقد سـبق لنـا أن تحدثنا عن موضوع امتناعي عن الشرب، بالرغم من أن الموضوع طرح بشكل غير مباشر. وهنا سألني: «الإدمان الذي تعانين منه؟!».

أجبت: «على الشراب».

قال: «لم أكن أعرف ذلك».

بقينـا صامتيـن لفتـرة، ثم دس يده في جيب بنطالـه الجينز، فكانت حركاته بطيئة وبدت غير متناسقة.

ثم سألني: «أتدخنين؟».

مددت يدي لأتناول لفافة تبغ منه وأنا أقول: «شكراً». ثم أصبحت الأجواء بيننا ثقيلة وجامدة، لذا كان لا بد من حدوث شيء ما، أو انكسار شيء ما؛ كأن تنكسـر إرادة ما أو قوة دفاعية ما. كان لا بد لأحدنا أن يكسر الصمت.

شرعت بالقول: «اسمع...»، لكنه تكلم في اللحظة ذاتها أيضاً، فلم أسمع ما قاله. لذا طلبت منه أن يكرر ما تفوه به، فشرع يقول: «إنني فقط...» ثم خفض رأسـه، وتلعثم مرة أخرى، فسـألته: «ماذا؟ ماذا هنالك؟». أدركت وقتها ما كان على وشك أن يقوله.

أخذ يكرر: «إنني فقط... ماذا؟».

تـراءى لـي لـوكاس من حيـث لا أدري، وتخيلته وهو يقبلني. أخذت أفكر بتخيلاتي التي أردت أن تكون عبارة عن شهوة، شهوة صرفة تهدد بضرب رأسي بالجدار الموجود خلفي. كنت أريد ليديه أن تلمساني... وأن ترفعا ثوبي بتهور. كنت أريد أن أشعر بالرغبة بالاستسلام، لأسمح له بأن يقوم بما يحلو له.

كنت أريد أن أشـعر بتوق كبير، وأريد لذلك أن يتحول إلى حاجة، حاجة لا يمكن كبحها.

بادرته بالقول: «بادي... »، لكنه قاطعني قائلاً:

«كل ما أردت أن أقوله هو أنني أراك جميلة جداً». ثم أمسك بيدي بسرعة، فـسـمحت لـه بذلـك. كنت مصدومة وغير مصدومة فـي آن واحد، وفي داخلي كنت أعرف أنه سيقول لي ذلك، عاجلاً أم آجلاً.

أخذت أفكر بلوكاس مرة أخرى، بكلماته التي يتفوه بها فم آخر غير فمه. وخطر ببالي أنه لو رفع بادي نظره الآن وأمسـك برأسـي من الخلف ثم قبلني،

فلن أمنعه إن قام بذلك الآن، إذ إن لحظة الضعف قد بلغت أوجها لدي، لكنها لن تدوم.

خطرت لي فكرة سخيفة، فتساءلت في سري: أهذا أنت؟! هل أنت الشخص الذي يقف في الخارج تحت نافذة غرفة نومي، لتكون موجوداً وغير موجود؟

ثم فعل ما كنت أرغب فيه؛ لقد قبلني، ولكنه لم يلمسني، ولم يقحم يده بسرعة في ثيابي. كانت قبلة مراهقين استمرت لبضع ثوان، وبعدها ابتعدنا عن بعضنا. نظرت إليه، كان الجو ساكناً، والثرثرة المنبعثة من الحفلة أصبحت مجرد تمتمات بعيدة. لقد كانت تلك هي اللحظة التي علينا فيها إما أن نعاود تقبيل بعضنا بعجلة أكبر هذه المرة وشوق أشد، أو أن يشيح كل منا بنظره عن الآخر؛ لنعلن بذلك نهاية تلك اللحظة التي لا بد أننا سنفقدها للأبد.

أخذت عيناه تضيقان، هنالك خطب ما؛ فقد كان ينظر إلي، لكنه لم يعد يفعل ذلك الآن، لقد كان ينظر إلى ما يتواجد خلفي.

التفتُّ لأتتبع نظراته، كان أحدهم هناك.

إنه كونر.

وقفت، كانت كأس الشراب التي كان بادي يحملها قد انسكبت وبللت ثوبي، لكنني لم ألاحظ ذلك. هتفت: «ابق هنا!». فأتى صوتي همساً. بعد ذلك،فتحت الباب بقوة، وأخذت أجري، فأخذ بادي يناديني، لكنني تجاهلته أيضاً.

صرخت فور خروجي: «كونر!». لكنه كان قد ابتعد ليعود إلى أبيه، هتفت: «كونر!».

توقف، ثم استدار ليواجهني، فبدا لي وجهه غامض التعابير، ثم قال: «أمي، أأنت هنا؟! كنت أبحث عنك».

لحقت به، لأنني لم أستطع أن أعرف إن كان يسخر مني أم خُيّل لي ذلك.

سألته: «ما الأمر؟».

أجاب: «لقد أرسلني أبي لأبحث عنك، فقد كان يلقي خطاباً أو شيئاً من هذا القبيل».

قلت: «حسناً». وشعرت حينها بالاستياء؛ أكثر مما قد أشعر به إن أتى إلي وقال لي: لقد رأيتك وأنت تقبلين ذلك الرجل، وسأخبر أبي بأنك كنت تخدعينه.

فعلى الأقل،كنت سأعرف وقتهاماذا أفعل.

لكنه لم ينبس بكلمة، لقد كان جامد الشعور حيث لا يمكن قراءة تعابير وجهه أو أفكاره. فكرت في سري: هذا كل ما هنالك، لقد تدمرت. إنها المرة الأولى التي تصرفت فيها بطيش طيلة تلك الفترة، لأفاجأ بأن ابني كان موجوداً ورأى كل شيء. لم يكن هذا عادلاً، لكنني كنت أستحق ذلك في الوقت ذاته.

قلت: «سأكون هنالك في غضون دقائق».

حالما غادر كونر عدت إلى بادي وقلت: «اللعنة!».

سألني: «هل رآنا؟».

لم أجب، فقد كنت بحاجة إلى التفكير.

سألني: «هل قال لك أي شيء؟».

قلت: «لا. لكن هذا لا يعني أنه لم يرَنا». ثم أخذت أمرر أصابعي في شعري وأنا أقول: «تباً...».

فاقترب مني. لم أكن متأكدة مما قد يقوم به هذه المرة، لكنه أمسك بيدي وقال: «سيكون الأمر على ما يرام». ثم لامست يده وجهي.

قلت: «كلا يا بادي!».

سألني: «ما المشكلة؟».

المشكلة؟ كنت أود أن أقول: المشكلة هي زوجي وابني وأختي المتوفاة.

فتابع القول: «أنا أحبك وأنت تحبينني، هلمي...».

أخذت أذكر نفسي بأنه ثمل.

فأجبته: «لا».

قال: «جوليا...».

قلت: «كلا يا بادي، لن أنام معك أبداً».

بدا لي مجروحاً وكأنني قد لطمته على وجهه.

شرعت بالقول: «بادي...» لكنه قاطعني بقوله:

«أنت تعتقدين حقاً أنك إنسانة مميزة، أليس كذلك؟».

حاولت أن أبقى هادئة، وقلت:

«بادي، لقد شربت كثيراً، لذا دعنا نعود إلى الحفلة وننسى كل ما جرى،

هل أنت موافق؟».

فنظر إليّ، وكانت عيناه جامدتين، ثم قال:

«عليك اللعنة!».

الفصل الثالث عشر

إنها الساعة الثالثة صباحاً. يجب أن تكون كذلك، أو ربما تجاوزت ذلك الوقت. أصبح الطقس حاراً للغاية، فشعرت بثقل جلدي، وكان بوسعي أن أسمع صوت أمطار الصيف الناعمة التي أخذت تتساقط على نافذتي. كنت منهكة، ومع ذلك جافاني النوم.

لم يكن عقلي متزناً حينها، إذ لم أستطع الكف عن التفكير ببادي، وفي ما كان يجب علي فعله أو عدم فعله، كما لم أستطع الكف عن التفكير في ما قد شاهده أو لم يشاهده ابني.

اعتقد هيو أنني قد تناولت الشراب، وسألني عن ذلك حينما كنا في طريق العودة إلى البيت. وقد أتى سؤاله بشكل عرضي، ومن دون أن ينظر نحوي؛ فهذا أسلوبه حينما يريد أن يوقع بي ويخدعني بطريقة تجبرني على قول الحقيقة.

كان هيو يتكلم بهدوء، أما كونر فقد كان جالساً في الخلف، يستمع إلى جهاز الآيبود الخاص به. سألني هيو: «حبيبتي، هل...؟».

أجبته: «ماذا؟».

سألني: «هل تناولت شراباً؟».

شعرت بالسخط وقلت: «كلا».

استغرق منه الأمر هنيهة ليكتشف إن كنت أقول الصدق أم لا.

كان قد ابتعد عن الموضوع كثيراً.

ثم قال: «حسناً، لقد ظننت أنك فعلت ذلك لأنني رأيت بادي يأخذ لك كأساً».

قلت: «لقد فعل، لكنني لم أتناول منه شيئاً».

حبست أنفاسي، لكنّ كل ما قام به هيو هو أنه هزّ كتفيه بلا مبالاة. نظرت خلفي، فرأيت كونر غافلاً عن كل شيء وكأنه قنبلة موقوتة.

قلت: «سبق لي أن أخبرتك أنني لن أتناول الشراب مرة أخرى». ثم نظرت

إلى زوجي مجدداً وقلت: «أعدك».

* * *

في تلك اللحظة، ألقيت الغطاء بعيداً عني، ونزلت الدرج، وسكبت لنفسي كأساً من الماء. كان حاسوبي المحمول في المكان الذي تركته فيه في الصباح.

كان عليّ أن أدع حاسوبي وشأنه، فقد كان الوقت منتصف الليل، ولوكاس لن يكون متصلاً عبر الإنترنت، بل لن يكون هناك أحد. ثم ألم يكفِني ما سبّبته لنفسي من دمار اليوم؟ قمت بغسل كأسي ووضعتها فوق رف التجفيف، ثم اتجهت نحو النافذة. كانت الظلمة تلف المكان، فأخذت أنظر إلى الحديقة، وأخذ الضوء المنعكس من مطبخي يتراقص فوق الفناء.

لم يتواصل معي منذ عصر البارحة، فقد كان ثملاً وقتها، ومن يدري كيف كانت حالته حينما حان وقت نومه؟ أخذت أتخيله في غرفة الفندق؛ وهو متمدد على سريره، ووجهه نحو الأسفل . تخيلته نصف عار، وقد خلع إحدى فردتَي حذائه.

أو لعله لم يكن بمفرده؛ فالأشخاص يتعرفون إلى نصفهم الآخر في حفلات الأعراس، حيث تسود الأجواء الرومانسية، فضلاً عن تقديم الشراب بكميات كبيرة، كما أن غرف الفندق ليست بعيدة. إذاً، ماذا لو تعلقت به إحدى النسوة؟ أو تعلق هو بها؟ ماذا لو...

كبحت نفسي، فلماذا كنت أفكر بهذه الطريقة أصلاً؟! وكأنه لم يكن لدي أدنى سبب لأشعر بالغيرة.

جلست، وعندها لم أتمكن من كبح جماح نفسي.

كان متصلاً. ظننت في بادئ الأمر أنه ربما يكون قد ترك حاسوبه من دون أن يغلقه، لكنه أرسل لي رسالة قال فيها:

– أنت هنا ولا يمكنك النوم أيضاً؟

ابتسمت، فقد كانت بيننا – أنا وهو– رابطة من نوع غريب.

قلت له:

– أجل. هل استمتعت بوقتك؟

– دخلت الموقع منذ ساعة فقط، إذ لم أكن أرغب بالنوم.

- لماذا؟

- على أمل أن تتسنى لي الفرصة لأتحدث إليك، حسبما أعتقد. كنت على وشك الاتصال بك، لكنني لم أشأ أن أوقظك.

أحسست بمشاعر مختلطة: فقد أرضى ذلك غروري، وأشعرني بالارتياح. كان من الممكن أن يسمع هيو الاتصال، ومن يدري ما قد يظنه بي حينها؟

لا بد أن يبدو تصرف لوكاس متهوراً، لكنني أخذت أذكر نفسي بأنه يعتقد أنني عازبة ولا رجل في حياتي.

قلت:

- لم أكن نائمة.

- لم أستطع الكف عن التفكير فيك طيلة اليوم، تمنيت لو أجد طريقة ما تمكنك من التواجد معي؛ طريقة يمكنني من خلالها أن أعرف الناس عليك.

ابتسمت ، إذ لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أسأل فيها نفسي كيف يستطيع هذا الرجل أن يتفوه بالشيء المناسب دوماً.

وبعد هنيهة وصلتني رسالته التالية التي قال فيها:

- لدي اعتراف.

حاولت أن أبقي الأمر مرحاً فقلت:

- يبدو أن الأمر لا يبشر بالخير... أهو اعتراف بالخير أم بالشر؟

- لست أدري.

قلت لنفسي: هل هذا كل ما هنالك؟

- إذاً، من الأفضل لك أن تخبرني.

أخذت أتساءل عمّا سأشعر به إن كتب لي: «لقد كنت في باريس خلال شهر شباط، وقد قمت بشيء رهيب».

ثم تذكرت صفحته على الفيسبوك وما رأيته فيها. كلا، لم يكن الأمر كذلك.

فقال:

- إنه اعتراف بالخير حسبما أعتقد. وأنا لم أخبرك به من قبل لأنني لم أكن متأكداً، لكنني تأكدت منه الآن.

سادت لحظة صمت.

ثم تابع القول:

– لكنني أريد أن أخبرك به وجهاً لوجه، أريد أن ألتقيك.

أخذ كل شيء كان يكبر في داخلي ينتفخ في تلك اللحظة أكثر فأكثر، وأدركت أن شيئاً ما في داخلي كان يرغب بذلك أيضاً. لكن جزءاً مني كان يريد فقط مواجهته... وتقييمه... واكتشافه... والاطلاع على ما كان يعرفه أو ما كان يقوم به.

استبعدت الصورة من ذهني؛ فقد كنت في لندن، ولا يمكن لذلك أن يتم لأنه مجرد وهم، هذا كل ما في الأمر. لقد كانت الفكرة منافية للمنطق، وقد كنت أتخيلها لأنني أعرف أنها مستحيلة. يجب أن يتواجد لوكاس في ذلك المربع، يجب أن يكون هناك حاجز أمان يفصل بينه وبين حياتي الواقعية.

وصلتني رسالة أخرى قال لي فيها:

– بوسعنا أن نلتقي. لم أشأ أن أخبرك كي لا أصدمك، لكن حفل الزفاف كان في لندن.

جمدت في مكاني.

– أنا هنا حالياً.

انتابتني موجات الخوف، لكنها كانت ممزوجة بشيء آخر، لعله الإحساس بالإثارة. لذا كانت معدتي تقرقر، وكان بوسعي أن أحس بوخزة الأدرينالين القاسية فوق لساني، وعندها تبخرت أعذاري. لقد كان هنا، نحن في المدينة ذاتها. بدا لي الأمر وكأنه كان يقف أمامي بالضبط؛ وهكذا فالأمور التي فكرت بها، والأشياء التي وصف لي أنه سيقوم بها معي أصبح من الممكن أن تحدث على أرض الواقع لو أردت ذلك. بيد أن الأهم من ذلك هو أنه كان بمقدوري أن ألتقيه بشروطي وعلى أرضي. كان بوسعي أن أكتشف كل ما يعرفه، والأهم من ذلك التأكد مما إذا كان يعرف أختي أم لا.

حاولت أن أهدئ نفسي، فكتبت له:

– لِمَ لم تخبرني؟

شعرت بالارتياح لأنه لم يكن قادراً على رؤيتي، أو رؤية القلق البادي على وجهي في تلك اللحظة.

– لا أعرف، لم أكن وقتها متأكداً من أنك ترغبين بمقابلتي. لم أكن واثقاً من أنها فكرة صائبة. إلا أن شيئاً ما قد حدث اليوم. لقد اشتقت إليك بطريقة

غريبة؛ ربما لأن رقمك أصبح بحوزتي. على أية حال أعرف أن هذا ما أريده... أنت التي أريدها.

استقرت كلماته هناك... على الشاشة.

أنت التي أريدها.

– قولي لي إنك تريدين أن تلتقيني أيضاً.

هل أريد ذلك؟ نعم، حسبما أعتقد؛ من أجل كيت. فإذا كان يعرفها، فلا بد أنها قد أخبرته عن أشخاص آخرين سبق لها أن التقتهم . فمن الممكن أن تكون قد أخبرته عن مختلف الأمور التي قد لا تخبر بها أحداً سواه. وهكذا، سيكون بمقدوره مساعدتي.

أخذت أفكر بما قالته لي كل من أدريان وآن، وهو: كوني حذرة.

تمنيت لو أنني قد أخبرته عن هيو، وتمنيت لو كان يعرف أنني متزوجة وأن لي ابناً، فهذه الأمور لم تكن بتلك البساطة التي كانت تبدو عليها. لكن، كان بوسعي أن أكون صادقة معه الآن. كان بوسعي أن أخبره كيف أنه من المستحيل أن ألتقيه مهما كنت أرغب بذلك؛ كان الأجدر بي ألا أختلق أي عذر.

سمعته يقول:

– أنت تودين أن تلتقيني بالفعل، أليس كذلك؟

ترددت، كان علي أن أخبره بأنني مشغولة، وأن لديّ شيئاً ما لا يمكنني أن أتملص منه... كان عليّ أن أقول له إن لدي اجتماعاً أو موعداً، بل كان بوسعي أن أخبره بأنني سأسافر في إجازة. كان بإمكاني أن أبقى غامضة وأقول: «للأسف، لا يمكنني القيام بذلك حالياً. قد أتمكن من ذلك في المرة المقبلة».

ولكنه سيفهم معنى ذلك بالضبط، وذلك لأن عبارة المرة المقبلة تعني لن تراني أبداً. وعندها،لا بد أن أخسر كل شيء، وكل التقدم الذي أحرزته. وكنت سأبقى طيلة ما تبقى من حياتي أسأل نفسي إن كان بحوزته المفتاح الذي سيحل لغز ما حدث في إحدى ليالي شباط الباردة في باريس أم لا، وإن كنت قد ضيعته من يدي أم لم أفعل.

عاودت التفكير بكلماته الأولى لي: إنك تذكرينني بإحداهن.

وهنا اتخذت قراري وقلت:

- بالطبع! كم ستطول إقامتك هنا؟

- حتى مساء الثلاثاء. يمكننا أن نلتقي يوم الثلاثاء على الغداء.

كنت أعرف ما يمكن أن تقوله أدريان، إذ كانت قد أوضحت الأمور حينما قالت: أخبري هيو، وقومي بالإدلاء بكل تلك التفاصيل للشرطة، ثم اخرجي من الموضوع.

لكنني لم أستطع أن أقوم بذلك؛ لأنهم لن يقوموا بأي شيء. أخذت يداي ترفرفان فوق لوحة المفاتيح. في تلك الأثناء، بدأ النور يغمر المكان خارج البيت، لذا كان لا بد لزوجي أن ينهض بعد قليل، ومن بعده سينهض كونر، وسيبدأ يوم جديد وأسبوع جديد، وكان كل شيء سيبقى على حاله.

لذا، كان علي أن أقوم بشيء ما.

الفصل الرابع عشر

ها قد حل الصباح، وغادر هيو إلى عمله وكونر إلى مدرسته، لذا لم أكن أدري ما كنت سأفعله بمفردي.

اتصلت بآنا فلم تجب، ولكن بعد مرور دقيقة وصلتني رسالة نصية منها سألتني فيها: «هل كل شيء على ما يرام؟».

أخبرتها بأن الأمر عاجل، فقالت لي إنها ستجد عذراً للتحدث إليّ. وبعد بضع دقائق، اتصلت بي، وكان لصوتها صدى، فخمنت أنها لا بد أن تكون في أحد الحمامات الموجودة في مكان عملها.

قالت لي حينما شرحت لها ما حدث في الليلة الماضية: «حسناً، لكننا لم نرَ ذلك يتحقق!». ثم قالت لي: «هل قلت له إنك ستلتقيه ؟».

فكرت برسالتي الأخيرة ثم قلت:

«أجل».

ردت: «حسناً...».

قلت: «أتعتقدين أنها فكرة سيئة؟».

أجابتني: «كلا، أبداً. كل ما هنالك أنه... عليك أن تكوني حذرة للغاية، فهل أنت متأكدة من أنه تماماً كما أخبرك عن نفسه؟».

أجل، هكذا فكرت، فقد كانت نسبة تأكدي من ذلك كنسبة تأكدي حيال أي شخص لم ألتقِه البتة.

وهنا قالت: «قد يكون أي شخص».

كنت أعرف ما كانت تحاول أن تقوله لي، لكنني كنت أبحث عن أحد يقف في صفي، فقلت لها: «أتعتقدين أنه لا يجدر بي أن أذهب؟».

ردت: «لم أقل ذلك».

فقلت: «كل ما هنالك أنه عليّ أن أعرف؛ بطريقة أو بأخرى».

ردت: «ولكن...».

أجبتها: «أريد أن أعرف من أجل كونر، وكذلك من أجلي».

لم تجب، لكنني سمعت أصواتاً من حولها؛ صوت مياه تجري، وأصواتاً أخرى، وصوت باب يغلق، ومن ثم عاودَت الحديث.

بدت لي قلقة، لكنها كانت متحمسة بطريقة ما أيضاً، وكأنها كانت تحس بأننا كنا نقترب من الحقيقة أكثر.

سألتني: «أستلتقيه في مكان عام؟».

كنا _ أنا وهو _ قد رتبنا لموعد في الفندق الذي نزل فيه في منطقة سانت بانكراس.

أجبتها: «بالطبع».

فقالت لي: «عديني بذلك».

قلت: «أعدك».

سألتني: «هل بوسعك أن تصطحبي معك إحدى صديقاتك؟ أدريان مثلاً؟».

أجبتها: «إنه يعتقد أننا سنلتقي من أجل... حسناً، إنه يعتقد أنه موعد غرامي».

قالت: «إذاً، بوسعها أن تجلس في الزاوية، ولن تكوني مضطرة إلى تعريفها عليه».

لقد كانت على حق، لكنني كنت أعرف مسبقاً ما يمكن أن تقوله أدريان إن طلبت منها ذلك، وليست لدي صديقة أخرى يمكنني أن ألجأ إليها بخصوص هذا الموضوع.

قلت لها: «سأفكر بالأمر».

ردت: «اطلبي منها!».

قلت: «حسناً...».

وتمنيت في تلك اللحظة لو لم تكن بعيدة كل هذا البعد، ثم قلتُ لها: «سأكون بخير».

ردت: «أعرف، لكنْ عديني فقط بأن تكوني حذرة».

أجبتها: «سأكون كذلك».

أخذت أجهز نفسي، فاستحممت، واستخدمت الكريمات المرطبة على

جسدي، ثم حلقت شعر ساقيّ بشفرة حلاقة جديدة؛ حيث قمت بحلاقة الشعر بعدد الضربات نفسه على كل ساق، وبدا لي سلوكي هذا كحاجة عبثية للتناسق لم أكن قد اختبرتها طيلة السنوات الماضية.

تحدثت إلى هيو بينما كنا نتناول الفطور، وكنت قد قلّبت فكرة إخباره بالحقيقة في رأسي، لكنني كنت أعرف إلى أين سيذهب تفكيره، وما الذي سيقوله لي، إذ لا بد أن يشعرني بأنني سخيفة، ولا بد أنه سيمنعني من خوض هذه التجربة، لذا كنت بحاجة إلى عذر، إلى حجة تبرر غيابي في حال اتصل بي ولم أجب، أو في حال عودته إلى البيت بشكل غير متوقع، ولهذا ناديته بحبيبي حالما جلسنا لتناول القهوة، ثم قلت: «ثمة شيء أريد أن أخبرك عنه».

فرد: «ما هو؟ ما الخطب؟».

بدا لي قلقاً للغاية، فشعرت بوخزة حادة من الإحساس بالذنب، ثم قلت: «أوه، إنه ليس بالأمر الجدي. كل ما هنالك أنني كنت أفكر في ما اقترحته عليّ، حول قيامي بزيارة أحد الأطباء الاستشاريين، وقد رأيت أنك محقّ في ذلك».

عندها، أمسك بيدي ثم قال: «هذا رائع يا جوليا، وأعتقد أنك لن تندمي على ذلك. وإن أحببت، بوسعي أن أطلب من أحد زملائي الأطباء أن يرشّح لنا طبيباً مختصاً...».

قاطعته: «لا». وقلت تلك الكلمة بعجلة شديدة، ثم عاودت القول: «لا، فقد حسمت أمري، ووجدت الطبيب المناسب، وسأحدد معه موعداً في وقت لاحق».

فأطرق برأسه ثم سأل: «من هو؟ هل تعرفين اسمه؟».

أجبت: «أجل بكل تأكيد».

ساد صمت بيننا، فقد كان ينتظر إجابتي، ولهذا سألني:

«من هو؟».

ترددت؛ إذ لم أكن أرغب بإخباره، لكن لم يكن أمامي أي خيار، ثم لم يكن في ذلك أي ضير بالفعل، إذ لا بد أنه سيلتزم بقسم أبقراط، وقد يبحث عنه ويجده، ولكنه لن يحاول الاتصال به على الإطلاق، وهنا نطقت باسمه: «إنه مارتن غرين».

رد علي: «هل أنت متأكدة من أنه مناسب؟ فأنا أعرف الكثير من الأشخاص الذين يمكنهم أن يرشحوا لك...».

قلت له: «هيو، أنا لست مريضة من مرضاك، ثم إن علي أن أقوم بهذا الأمر بمفردي، أتفهمني؟». وهنا بدأ يحتج على كلامي، لكنني أسكته بقولي: «إنه مناسب يا هيو، فقد أخبرتني أدريان أنه جيد جداً. وعلى أية حال، إنها مجرد استشارة مبدئية، فقط لأعرف إن كنت سأنجح في ذلك، فهلا تثق بي».

رأيته يسترخي، فابتسمت، واختفى الغضب الذي حاولت أن أبديه له، فبادلني الابتسام، ثم قبلني وقال: «أنا فخور بك». وهنا شعرت بالإحساس بالذنب يغمرني، لكنني تخلصت من ذلك الشعور، وفكرت في سري: «لقد قضي الأمر على ما يرام».

* * *

توجهت نحو خزانة ملابسي. كان عليّ أن أختار ملابسي بعناية، إذ كان يتوجب علي أن أقنع لوكاس بأنني الإنسانة التي تطابق ما تخيله عنها، وبأنني أريد منه ذلك الشيء الذي يعتقد أنني أريده.

جرّبت بنطال جينز مع قميص أبيض، ثم لبست ثوباً مع مشد وجزمة، بعدها وقفت أمام المرآة، ورأيت أن ذلك كان أفضل. اخترت عقداً، ثم أخذت أزين وجهي بمساحيق التجميل، لكنني لم أكثر منها لأن الوقت كان منتصف النهار، غير أن ذلك كان يكفيني لأشعر بأنني لم أعد أشبه نفسي مطلقاً.

ولعل ذلك ما كنت أقوم به بالفعل، فقد كنت أختار ثياباً تحولني من جوليا إلى تلك الأخرى التي التقاها لوكاس عبر الموقع الإلكتروني... أي إلى جين.

جلست إلى طاولة التزيين، وأخذت أرش العطر على نفسي، حيث وضعت مقداراً قليلاً من العطر خلف كل أذن، ومقداراً أكبر فوق كل معصم، فأخذت رائحة زكية تفوح. لقد كان هذا عطراً غالياً اشتراه لي هيو بمناسبة الكريسمس منذ عامين، وكان من ماركة فريكاس؛ ذلك العطر الذي كانت أمي تتعطر به. كما كان العطر المفضل دوماً بالنسبة إلى كيت أيضاً، كان العطر الذي يقربني منهما.

وأخيراً، أصبحت جاهزة، فنظرت إلى المرآة، ورأيت انعكاس صورتي، وأخذت أفكر بصورتي: ماركوس في المرآة، وأخذت أتذكر المرة الأولى التي قمنا فيها بعلاقة حميمة. لم تكن تنقصني الثقة في ذلك الحين مطلقاً، لكنني في

تلك الليلة، حتى عندما كان يقبلني، كنت أعتقد أنه يمكن أن يبتعد عني. وحتى حينما أخذ ينزع عني الثياب، كنت أفكر في أن تلك كانت المرة الأولى، وأنها ستكون الأخيرة أيضاً، وأنه من المحتمل ألا أكون الإنسانة المناسبة لهذا الرجل.

ومع كل ذلك كنت مناسبة له؛ وقتها وفي ما بعد ، وفي معظم الأحيان بعد ذلك. ثم انتقلنا إلى برلين. لقد كان الطقس بارداً هناك، وأتذكر أننا نمنا في العراء أول ليلة، ثم التقينا أصدقاء له هناك. وقد تحول الأسبوع الذي قضيناه ونحن ننام على الأرض إلى شهر، وبعد ذلك وجدنا مكاناً خاصاً بنا، و...

لم أكن أرغب بالتفكير في ذلك الآن، لم أكن أريد أن أفكر بالسعادة التي كنا نعيش فيها.

* * *

وقفت، وتأكدت من الرسائل على هاتفي، فقد كان لديّ أمل ضئيل بإلغاء الموعد من قبله، وعندها يمكنني أن أخلع ملابسي، وأمسح مساحيق التجميل عن وجهي، وأرتدي بنطال الجينز والقميص اللذين كنت أرتديهما حينما ودعت هيو هذا الصباح، كما يمكنني أن أعد لنفسي فنجاناً من الشاي، وأن أجلس قبالة التلفاز، أو أن أستمتع بقراءة رواية. كان بوسعي أن أقوم ببعض الأعمال عصر ذلك اليوم، وكان بإمكاني أن أتصل ببعض الأشخاص. ومع الارتياح الذي قد أشعر به، قد يخالجني شعور بالامتعاض، لذا قد أقسم ألا أراسله مرة أخرى، ثم أعود إلى هيو لأقضي بقية عمري وأنا أسأل نفسي إن كان لوكاس يعرف كيت، أو إن كان بوسعه أن يرشدني إلى الشخص الذي قتلها.

لكن، لم تكن هنالك أية رسائل، إذ لم يكن لوكاس قد غير رأيه، ولم أشعر بخيبة الأمل لذلك. وللمرة الأولى منذ أشهر، شعرت بقرب وقوع حدث ما، بطريقة أو بأخرى. أخذت أشعر بنوع من المرونة؛ إذ كان المستقبل مجهولاً، لكنه بدا لي مطواعاً ولين العريكة، كانت فيه ليونة وطراوة، فيما كان يبدو لي في السابق قاسياً وصلباً وعنيداً كالزجاج.

استقللت سيارة أجرة. كان الجو دبقاً بفعل الحرارة، حتى بوجود نافذة مفتوحة، لذا أخذ العرق يتقطر فوق ظهري. وفي سيارة الأجرة أيضاً، رأيت الإعلان نفسه الذي شاهدته في طريق عودتي إلى البيت بعد تناول العشاء مع

أدريان، مع عبارة: (فلتكن الشخص الذي تريد أن تكونه).

وصلنا إلى منطقة سانت بانكراس، وأخذت السيارة تسير على الدرب المرصوف بالحجارة، ثم قام أحدهم بفتح باب السيارة لي. شعرت بالنسيم يلفح رقبتي وأنا أخرج من السيارة وأتوجه نحو الفندق. وهناك انفتحت الأبواب أمامي، ورأيت سلماً رخامياً يفضي إلى جو الراحة في الداخل حيث التكييف. كان السقف فوقنا زجاجياً، وفيه عوارض حديدية، فخمنت أن ذلك قسم من المحطة القديمة. لقد كان كل شيء هناك أنيقاً، بدءاً من الأزهار التي تم قطفها، ووصولاً إلى رائحة الليمون والجلود الفاخرة والثراء. أخذت أنظر حولي في بهو الفندق، فرأيت رجلين يجلسان جنباً إلى جنب فوق أريكة خضراء اللون، ورأيت امرأة ترتدي بزة رسمية تقرأ في جريدة. كانت هنالك لوحات تشير إلى المطعم، ومنتجع المياه المعدنية، وقاعات الاجتماعات. وخلف مكتب الاستقبال، كان الجميع مشغولين ويعملون بكفاءة عالية. نظرت إلى ساعة يدي، فاكتشفت أنني أتيت باكراً.

أخرجت هاتفي، لكن لم تكن هنالك أية رسالة.

انتظرت حتى يهدأ تنفسي، ويوقف قلبي ذلك التنبيه اللحوح؛ فقد كان قلبي يحاول أن يحذرني. سحبت خاتم الزواج من إصبعي ووضعته في حقيبة يدي، فشعرت بيدي كما لو أنها أصبحت عارية بدونه؛ كما كنت أشعر حيال بقية جسمي. ولكن، من دون خاتم الزواج كنت أشعر بطعم خيانة أقل نوعاً ما حيال ما كنت أوشك على القيام به.

وعند مكتب الاستقبال سألت عن مكان المطعم. كان الشاب الموجود هناك غضاً ووسيماً للغاية، فأشار لي نحو الوجهة الصحيحة، وتمنى لي يوماً سعيداً. شكرته وابتعدت، إلا أنني شعرت بعينيه تخترقانني حينما انسحبت، وكأنه كان يعرف سبب ذهابي إلى هناك. رغبت بأن ألتفت نحو الوراء وأخبره أنني لست كما يظنني، وأنني لن أخوض تلك المغامرة.

فقد كنت أتظاهر بذلك فقط.

كان لوكاس يجلس إلى طاولة في المطعم وظهره لي. وقد كنت قلقة حيال عدم قدرتي على التعرف عليه، لكنه كان من النوع الذي لا تخطئه العين. كان

يرتدي بزة رسمية مفصلة على مقاسه، بالرغم من أنني اكتشفت حينما اقتربت منه أنه لم يكلّف نفسه عناء وضع ربطة العنق. بدا لي أنه قد بذل جهداً كي يكون أنيقاً، لكن جهوده لم تكن كبيرة؛ مثلي تماماً، هكذا فكرت في سري. فوجئت بوجود كأس من الشراب أمامه، وكأس أخرى أمام المقعد الخالي إلى جانبه، لكنني ذكرت نفسي بأنني جئت إلى هنا من أجل كيت.

أخذ وجه كيت يحوم أمامي. كانت فتاة صغيرة، في السابعة أو الثامنة من عمرها، وكان والدي قد أخبرنا بأنه سيرسلنا إلى مدرسة داخلية لمدة سنتين فقط؛ بالرغم من أننا كنا نعرف أن ذلك سيستمر إلى أن تغادر كيت البيت. بدت لي خائفة، وأخبرتها مرة أخرى أن الأمور ستجري على ما يرام، حيث قلت: «سأكون معك، وسنكوّن صداقات كثيرة، أعدك بذلك!».

لم أكن أعرف إن كانت ستقوم بذلك حينها، إذ كان لديها مزاجها الخاص، وكانت نزعة مجنونة لديها قد بدأت بالتطور. فقد كانت تتأثر بالأمور حولها كثيراً، وتوقع نفسها بالمشاكل. لكنها كونت صداقات في نهاية الأمر، ومن بين تلك الصداقات لا بد أن يكون لأنا نصيب فيها، إلا أن هنالك صداقات أخرى. لقد كانت حياتها صعبة، إلا أنها لم تكن تعيسة؛ ليس دائماً، ثم إنني كنت أعتني بها، وقد بذلت قصارى جهدي في ذلك، إلى أن...

كلا، قلت لنفسي، يجب ألا أفكر بذلك الآن، وهكذا بددت تلك الصورة ومضيت.

لم يكن لوكاس قد رآني بعد، وكنت سعيدة بذلك، إذ كنت أرغب في أن أصل بغتة؛ أن أصل قبل أن تسنح له فرصة تقييمي عن بعد. لقد كان أصغر مني بعشر سنوات، وقد بدا ذلك واضحاً. ثم إنني كنت متوترة بما فيه الكفاية، لذا لم أكن أريد أن أخاطر برؤية مسحة من خيبة الأمل وهو يتأملني وأنا أقترب.

هتفت: «مرحبًا!» وذلك حينما وصلت إليه.

رفع بصره، كانت عيناه بلون أزرق غامق، وكان لونهما أروع على أرض الواقع. وللحظات قصيرة، اختفت التعابير من وجهه، وأخذت نظراته تقتحمني، تخلع عني ملابسي، تتعرف علي من الداخل. بدا لي وكأنه لا يعرف من أنا، أو لماذا كنت هناك، لكنه بعد تلك اللحظات ابتسم ابتسامة عريضة ثم وقف وهتف: «جين!». فلم أصحح له اسمي، وسرت خفقة سريعة للمفاجأة فأدركت

أنه كان يعتقد أنني لن آتي.

ثم قال: «ها قد أتيتِ!». وكان يبتسم ابتسامة كلها ارتياح، مما أشعرني بالارتياح أنا أيضاً. أحسست بأن كلينا كنا متوترين، مما يعني أن أحداً منا لم يكن يسيطر على ما يجري.

فقلت: «بالطبع أتيت!». ومرت لحظة كلها إحراج؛ إذ هل كان علينا أن نتبادل القبلات؟ أم أن نصافح بعضنا؟ رأيته يدفع الكأس إلي، ثم يقول: «حسناً، أنا سعيد بذلك». ثم ساد الصمت مرة أخرى، فقطعه بقوله: «لقد طلبت لك كأساً من الشراب، ولكنني لا أعرف بالضبط ما تحبينه».

قلت: «أشكرك، لكنني ربما سأطلب بعض المياه الغازية».

انسللت إلى مقعدي، فقام هو بطلب المشروب الذي أريده. أخذت أنظر إليه؛ أنظر إلى ذلك الرجل ذي العينين الزرقاوين والذقن غير الحليق، وسألت نفسي مجدداً عن سبب وجودي في ذلك المكان. كنت أقول لنفسي إنني هنا لأكتشف إن كان يعرف أختي أم لا. لكن لم يكن هذا كل شيء، بالطبع ليس كل شيء.

أخذت أسأل نفسي: هل أنا ساذجة؟ وهل هو الشخص ذاته الذي كانت ذاهبة للقائه في تلك الليلة؟ أخذت تلك الفكرة تبطش بي، لقد كانت فكرة قاسية ومتوحشة، إلا أن الشخص الذي يجلس قبالتي لم يبدُ عليه أنه قادر على التصرف بعنف. لكن هذا لا يعني شيئاً؛ إذ ليس كل من يتميز برأس حليق وجسد لطخته الأوشام هو الوحيد القادر على استخدام الأسلحة ببراعة.

أخذت أذكر نفسي بما رأيته، وبالمكان الذي كان فيه خلال شهر شباط، وكنت قد بدأت أهدئ من روعي حينما وصلت المياه الغازية.

هتف: «إليك هذا. ألا تشربين؟».

أجبت: «كلا، لا أشرب».

رأيت على وجهه أمارات إعادة ضبط الملامح المعهودة التي يبديها الناس حينما أخبرهم بتلك المعلومة. كنت أعرف أنهم يحاولون أن يعرفوا إن كنت من أتباع المذهب التطهري المتشدد؛ أي إنني على الأغلب متدينة، أو مدمنة.

وكالعادة، لم أتفوه بكلمة؛ إذ لم يكن يتوجب علي أن أقدم اعتذارات بخصوص هذا الموضوع، بل قمت عوضاً عن ذلك بإجالة بصري في المطعم،

فبدا لي أنه كان يستخدم في السابق كمكتب لقطع التذاكر، حيث كان الناس يصطفون في هذا المكان قبل أن يستقلوا القطار، وقد تم الاحتفاظ بالعديد من سمات المكان القديمة وعلى رأسها الألواح الخشبية، والساعة الضخمة المثبتة على الجدار فوقنا. كان المكان مزدحماً؛ إذ كان الناس يجلسون ومعهم حقائبهم التي يحملون فيها أوراقهم المهمة، أو بصحبة الجريدة. كانوا يتناولون غداءهم هنا، أو يشربون الشاي وقت العصر. كانوا إما في حالة مرور كمرور الكرام، أو يقيمون في الفندق الموجود في الطوابق العليا. ولوهلة، تمنيت لو كنت كأحدهم، ولو كان السبب الذي اختلقته لوجودي في هذا المكان بعيداً عن كل هذا التعقيد.

وأدركت _ وكأنني أدرك ذلك للمرة الأولى _ أن للوكاس غرفة، وأنها تقبع في أحد الطوابق فوقنا. وهكذا، أخذ السبب الذي كان لوكاس يعتقد أنني أتيت من أجله يسبح أمام ناظريّ ليصل إلى بؤرة تركيزي.

سألني: «هل أنت على ما يرام؟». إذ كان التوتر يخيم على الأجواء بيننا، وكان التردد قد أصاب كلينا بسهمه، فذكرت نفسي بأنه يعتقد أن كلينا عازبان، وأنه حتى لو مر دربه بدرب كيت، إلا أن ذلك ليس مبرراً لكي أجد صعوبة في ذلك الموقف.

أجبته: «أنا بخير، أشكرك». ثم أمسكت بالكأس وكأنني أردت أن أثبت له صحة ذلك وقلت: «نخبك!».

قرعنا كأسينا ببعضهما، ثم حاولت أن أتخيله مع أختي، لكنني لم أستطع.

أخذت أسأل نفسي عما يمكن أن يحدث بعد ذلك، وتخيلت كيت أو آنا، لأنني كنت أعرف أنها كانت تقوم بمثل هذه الأمور أيضاً.

تجرعت رشفة من المياه الغازية، وحينما وضعت كأسي رأيت قلم حمرة على حافة الطاولة، ففوجئت بلونه للحظة، إذ كان يبدو فاقعاً، وكأنه كان بالألوان السينمائية، إلى جانب أنه لم يكن من النوع الذي كنت أستخدمه في العادة، وخاصة في منتصف اليوم. ثم إنه لم يكن لي، وكان ذلك بالطبع سبب وضعه أمامي؛ لأجربه.

شعرت بالضياع، إذ اعتقدت أن الأمر سيكون سهلاً، وأنني سألقاه وستنساب الإجابات منه، وأن الطريق لبلوغ حقيقة ما جرى لكيت سيتضح أمامي على الفور، لكنني لم أعتقد أنه سيكون موحلاً وقذراً إلى هذه الدرجة، لذا لم أكن

أعرف كيف سأتصرف.

قال لي: «تبدين جميلة». فابتسمت وشكرته، ثم نظرت إليه، فبدا لي راسخاً، بل أكثر رسوخاً من أي شيء نظرت إليه منذ فترة طويلة. وبالكاد استطعت أن أصدق أنه هنا، وأنه بوسعي أن أمد يدي وألمس بشرته من دون بذل جهد كبير.

ابتسم لي، فبادلته النظرات، ولكنني كنت أشعر بأنني عارية بطريقة ما، فأبعدت نظري عنه، وأخذت أفكر بهيو وهو في عمله، وأمامه جسد مغطى بملاءات، ثم تخيلته وهو يشقّ اللحم الذي كان رطباً ولامعاً. كما أخذت أفكر بكونر وهو في الصف، ورأسه قد انحنى فوق مقعده عند نهاية سنة دراسية أخرى، وأصبحت أمامه عطلة صيفية طويلة. بعد ذلك، ابتسم لي لوكاس، فاستبعدت تلك المشاعر، وحبستها بعيداً عني. ثم وضع كأسه، فوقعت عيناي على شيء يلمع في يده اليسرى.

شعرت بالارتياح نوعاً ما؛ فبالرغم من أنها كانت مفاجأة، إلا أن حالة الارتباك التي نشأت بيننا قد تبددت في تلك اللحظة.

قلت له: «هل أنت متزوج؟».

رد: «لست كذلك».

قلت: «لكن خاتمك...».

نظر إلى يده، وكأنه كان يتحقق مما قد رأيته، ثم نظر إلي وقال: «ألم أخبرك؟».

هززت رأسي نافية، وتذكرت أنه ليس بإمكاني أن أتهمه بالغش والخداع مع الكذبات التي أخبرته إياها.

قاطع أفكاري بقوله: « كنت متزوجاً...». ثم أخذ نفساً عميقاً، وتنهد بعده بقوة، ثم قال: «إنه السرطان، منذ أربع سنوات».

قلت: «يا إلهي». لقد كنت مصدومة، فقد كان الأمر قاسياً. أخذت أحدق في عينيه فلم أر إلا الألم... الألم والبراءة. مددت يدي وكأنني كنت أحاول أن أمسك يده، وقد قمت بذلك بشكل تلقائي وعفوي، ومن دون تفكير. وبعد لحظة، مد يده وأمسك بيدي. لم تكن هنالك أية رعدة من هول المفاجأة، ولا شعلة من الطاقة التي انتقلت من أحدنا إلى الآخر. وبالرغم من كل ذلك، كنت أدرك بصمت أن هذه هي المرة الأولى التي نتلامس فيها، وأن هذه اللحظة

تحمل أهمية كبيرة لهذا السبب، مهما حدث بعد ذلك.

قلت له: «أنا آسفة جدا لذلك». فبدت كلماتي غير كافية؛ تماماً كما تكون التعزية على الدوام.

رد: «أشكرك. لقد أحببتها كثيراً، لكن الحياة تستمر، إنها مجرد صيغة مكررة، لكن هذا هو الواقع». ثم ابتسم، وكان لا يزال ممسكاً بيدي.

كانت عيناي مغمضتين في البداية، ثم أخذت أرمش ببطء، لكنني لم أبعد نظري وقتها، لأنني شعرت بشيء ما؛ بشيء لم أشعر به منذ مدة طويلة، طويلة لدرجة أنني لم أتمكن من اكتشاف ذلك الشعور.

أهي الرغبة؟ أم القوة؟ أم خليط من كلتيهما؟ لم أكن قادرة على تحديد ذلك.

ومرة أخرى، حاولت أن أتخيله مع كيت. ولكن، هل كنت سأعرف بالتأكيد؟ لقد كنت على علم بكل ما كانت تفكر به طيلة فترة طفولتنا، وحتى حينما كانت تعاني من مشكلة، كنت أعرف. ولكن، إن كانت لهذا الشخص أي علاقة بمقتلها أما كنت سأعرف؟

سمعته يقول: «لم أعد قادراً على تحمل ذلك أكثر، فهلا صعدنا إلى الغرفة».

هذا ليس صحيحاً، فهذا ليس السبب الذي جئت إلى هنا من أجله.

قلت له: «آسفة. هلا تحدثنا مع بعضنا قليلاً».

فابتسم وقال: «بالتأكيد». ثم خلع سترته وعلقها على ظهر الكرسي، وأمسك يدي مرة أخرى، فسمحت له بذلك، ثم تحدثنا لفترة من الزمن، إلا أن الحديث كان قصيراً، فقد كنا نتجنب بعض الأمور؛ بالرغم من اختلاف الأمور التي كنا نتجنب الخوض فيها. فأنا كنت أتجنب الحديث عن كيت، ولكن ماذا عنه؟ اعتقدت أنه كان يتجنب الحقيقة المتمثلة برغبته باصطحابي إلى غرفته. وبعد مرور بضع دقائق أتت لحظة القرار، إذ كان قد فرغ من الشرب، وكنت قد سبقته في ذلك، وكان بوسعنا أن نطلب المزيد من الشراب ونتابع الحديث، أو يمكننا أن نغادر المكان. كانت هنالك حالة من التردد؛ من التوقف، ثم باغتني بقوله: «أعتذر لأنني لم أخبرك بأنني كنت متزوجاً». فلم أرد، عندها قال لي: «هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟».

أجبته: «بالطبع».

سألني: «لم قلت لي إنك كنت في باريس حينما تحدثنا للمرة الأولى؟». وبذلك بدأنا نقترب من تخوم الموضوع، وندور حوله.
قلت: «لقد ذهبت إلى هناك في عطلة ».
سألني: «وحدك؟».
فخطرت ببالي آنا، عندها أجبته: «مع صديقة لي». ورأيت أن الفرصة قد سنحت لي، فسألته: «لماذا؟ متى كانت آخر مرة زرت فيها باريس؟».
أخذ يفكر قليلاً ثم قال: «أعتقد أن ذلك كان في أيلول من السنة الماضية».
سألته: «ألم تزرها منذ ذلك الحين؟».
أمال رأسه وقال: «لا، لماذا؟».
أجبته: «من دون سبب». وحاولت أن أبدي حركة مختلفة.
سألني: «ألديك أصدقاء هناك؟».
أجبته: «ليس تماماً، كلا».
سألني: «لا أحد؟».
ثم ضحك
حاولت أن أبدو تواقة ومشتاقة فقلت: «لطالما رغبت بأن أتواجد هناك في الشتاء، وتحديداً في شهر شباط، أتعرف لماذا؟ لا بد أن الاحتفال بيوم الحب في باريس رائع للغاية». قلت ذلك وأنا أبتسم وكأنني أحلم.
فقال لي: «يا لها من صورة رومانسية جداً!».
تنهدت وقلت: «أعتقد أنك لم تزرها قط في فصل الشتاء».
فهز رأسه وقال: «ذلك ممتع. لكن، لا يمكنني أن أتخيل الثلج وهو يتساقط هناك. أعتقد أنني أربط هذه المدينة بالصيف، ومع ذلك أعتقد أنك على حق، لا بد أن يكون يوم الحب رائعاً هناك».
نظرت إلى كأسي وتساءلت: لِمَ سيكذب عليّ؟ فهو لا يعرف من أنا، فلِمَ عليه أن يخبرني بأنه لم يزر باريس في الشتاء إن كان قد زارها بالفعل؟
سألني: «إذاً، من صديقتك هناك؟».
بدا علي الارتباك، فعاود طرح السؤال بطريقة أخرى:
«أعني تلك الصديقة التي كنت تزورينها».
ترددت وقلت: «أوه، إنها مجرد صديقة». لكنني لم أستطع أن أقرر وقتها

ماذا عليّ أن أفعل، فأعقبت ذلك بقولي: «كنت أعتقد أنك تعرفها أنت أيضاً».
سألني: «أعرفها؟».
قلت: «إنها تستخدم موقع encountrz في بعض الأحيان».
ردّ: «لا أعرف الكثير من الأشخاص على ذلك الموقع، أصدقت ذلك أم لم تصدقي».
أجبرت نفسي على الضحك وقلت: «أبداً؟».
قال: «أبداً، فأنت أول شخص ألتقيه هناك».
سألته: «أحقاً؟».
أجاب: «أقسم لك».
أدركت أنني كنت أصدقه، وأنه لم يتحدث إلى كيت على الإطلاق، وبدأ الإحساس بخيبة الأمل يتزايد داخلي.
سألته: «لكنك تتحدث إلى أشخاص عبر ذلك الموقع، أليس كذلك؟».
أجاب: «بعض الأشخاص، وهم ليسوا بكثر».
كنت أعرف ما يجب علي القيام به، لذا أخرجت هاتفي وفتحت قفل الشاشة، وكنت أبتسم وأنا أحاول أن أبقي الموضوع خفيف الظل، ثم أخذت أقول: «على كل حال سيكون من الممتع أن... نكتشف هذه المصادفة... سيعجبها ذلك لو...».
وأمسكت بهاتفي ووضعته أمام عينيه. كنت قد فتحت صورة كيت، ثم أجبرت نفسي على الكلام فقلت:
«تلك هي صديقتي».
خيم الصمت، فنظرت إليه مباشرة وهو يأخذ هاتفي في يده، ثم سألته:
«هل سبق لك أن تحدثت معها؟».
بدا وجهه خالياً من التعابير، وكنت أدرك أن الانفعال التالي الذي سيشع من عينيه لا بد أن يكشف الحقيقة، فقد كنت قد دفعت إليه بالصورة من دون أن يكون مستعداً لذلك. وإذا كان قد سبق له أن رأى كيت فلا بد أن يكشف نفسه بنفسه، بل يجب أن يحدث ذلك.
مرت لحظة صمت طويلة قطعها بابتسامة منه، ثم نظر إليّ وهو يهز رأسه ويضحك قائلاً: لم أرها يوماً في حياتي عبر ذلك الموقع، أبداً، لكنها تبدو

لي لطيفة».

شعرت بأنه كان يقول الحقيقة، وكنت متأكدة من ذلك، إلا أن المزيد من الإحساس بخيبة الأمل أخذ ينسل داخلي، لكن ذلك كان يتم بصمت؛ ممزوجاً بنوع من الارتياح. قلت: «إنها كذلك». وتكلفت ابتسامة ثم أبعدت هاتفي، وبعد ذلك بدأت بالثرثرة فقلت: «لأكون صريحة معك، إنها لا تستخدم الإنترنت كثيراً، وفي الحقيقة لم تعد تفعل ذلك، ولا أعتقد أنها ستفعل ذلك مجدداً...».

بدأ لوكاس بالضحك، فقلقت حيال كونه قد اكتشف السر في الموضوع، لكنه بادرني بالقول: «كان من الممكن أن تكون مجرد صدفة! هل نطلب المزيد من الشراب؟».

فرفضت وقلت: «أنا بخير، أشكرك».

ثم حاولت أن أهدئ من روعي.

وهنا سألني: «وماذا عنك؟ هل تلتقين الأشخاص الذين تتحدثين إليهم عبر ذلك الموقع؟».

أجبت: «كلا، لا أفعل، لا».

قال: «لكنك وافقت على لقائي».

قلت: «أجل، أجل، لقد فعلت».

فأمسك بيدي مرة أخرى، وأخذ يحدق في عيني، وأصبحت بالكاد ألتقط أنفاسي. إنه لا يعرف أختي، ولم يلتقها في حياته.

سألني: «لماذا؟».

شعرت أنه علي أن أقف. كنت أدرك ذلك في قرارة نفسي، كان علي أن أمضي، وأن أخبره بأنني ذاهبة إلى الحمام، ثم أذهب من دون أن أعود. وكان الأمر سيتم في غاية السهولة، فهو لم يكن يعرف أين أسكن.

قلت لنفسي: سأفعل، بعد قليل.

ثم قلت له: «أعتقد أنني أعجبت بك».

رد علي: «وأنا أعجبت بك».

ثم مال نحوي، وتنهد، فشعرت بأنفاسه فوق خدي.

وعاود القول: «أعجبت بك كثيراً».

كان بوسعي أن أشعر بدفء بشرته، وأن أشم عطر ما بعد الحلاقة الذي

كان قد استخدمه ممزوجاً برائحة عرقه، ففتح بذلك الباب حيال شيء كنت قد كبحته لأسابيع وشهور وسنوات، ثم أخذ ذلك الشيء يجتاحني كالسيل.

بادرني بالقول: «هلمي، لنصعد إلى الأعلى».

قلت: «لا، كلا، أنا آسفة...».

فردّ عليّ بصوت أقرب إلى الهمس: «جين... جين الجميلة... سأغادر غداً، وهذه فرصتنا، وأنت ترغبين بذلك، أليس كذلك؟ ألا ترغبين بذلك مثلي؟».

عاودت النظر إليه، فشعرت بأنني أصبحت مفعمة بالحياة أكثر مما كنت في السابق، لذا لم أرد أن أوقف هذا الإحساس، ليس الآن... يجب ألا ينتهي الأمر عند هذا الحد.

أطرقت برأسي ثم قلت:

«بلى».

أخذ يقبلني، والتفت يداه حول خصري، وكان يسحبني نحوه، مع أنه في الوقت ذاته كان يدفعني نحو الخلف... الخلف... الخلف باتجاه السرير، فوقعت على السرير على ظهري، وأخذت أخرج قميصه من بنطاله، وأفك أزراره من دون أن أنظر إلى موضع أصابعي؛ حيث كانت يداي تتلمسان الأزرار بشكل أخرق. أما يداه فكانتا فوق صدري، ثم أتبع يديه بفمه، وهكذا تم الأمر بحرارة وجنون، من دون أن أقاوم، لأنه لم يكن هنالك أي سبب يدفعني لذلك التصرف، ولأننا كنا قد تجاوزنا ذلك الحد مسبقاً؛ حيث كنت قد تجاوزته حينما التقيته في المطعم، وتجاوزته حينما تركت البيت لآتي إلى هذا المكان، وتجاوزته حينما قلت: «أجل، أجل، أجل، سآتي وألتقيك». لذا، لم يكن هنالك أي مبرر للتظاهر بأنني كنت أعتقد أن الأمور ستجري بطريقة أخرى. وقد أتت خيانتي بطريقة تدريجية، لكنها كانت حتمية. لذا، وبلمح البصر، قادتني الأمور إلى هذا المكان، لأقضي وقت ما بعد الظهيرة هنالم أكن وقتها أشعر بالندم، ولم ينتبني ذلك الشعور على الإطلاق؛ بالرغم من أنني أدركت كم كنت غبية، لأن كل الأمر كان يدور حول ذلك طيلة الوقت ومنذ البداية.

بعدما أنهينا، استلقى كل منا على ظهره جنباً إلى جنب. لقد كانت تلك

مرحلة ما بعد التوهج والاتقاد، لكنها كانت محرجة بطريقة ما، وهذا ما جعلني أدرك وقتها سبب تسمية ذلك بالموت الأصغر. ولكن، حتى لو كان ذلك حقيقياً، فهذا كان يعني على الأقل أنني كنت على قيد الحياة قبل ذلك.

استدار نحوي، وأسند رأسه على ذراعه، فأدركت مرة أخرى السنوات الفاصلة بيننا، وأنه كان في مثل عمر كيت؛ فهو يكبرها أو يصغرها بقليل. كانت بشرته مشدودة، أما عضلاته فقد كانت تنثني مع كل حركة من حركاته، إذ كانت واضحة ومفعمة بالحياة، وأثناء علاقتنا الحميمة فوجئت بذلك، وأخذت أسأل نفسي إن كنت قد اختبرت ذلك مع هيو من قبل، لكنني لم أستطع أن أتذكر ذلك بالضبط، إذ بدت لي ذكرياتي معه حينما كان أصغر سناً كما لو أنها قد مسحت بطريقة ما وكتبت فوقها ذكريات لكل ما حدث منذ ذلك الحين وحتى الآن.

وعندها، تذكرت أنه إن كان لوكاس يصغرني بعشر سنوات، فهذا يعني أنه يصغر زوجي بعشرين سنة.

وفي تلك اللحظة، مد لوكاس يده ليداعب ذراعي، ثم سمعته يقول: «أشكرك...». فشعرت بأنه كان يتوجب عليّ أن أشكره أنا، لكنني لم أفعل، ولذلك بقينا صامتين لفترة من الزمن. أخذت أنظر إلى جسده الذي أصبح الآن ساكناً، ثم نظرت إلى بطنه الذي كان مشدوداً، وإلى الشعر الموجود على صدره، والذي لم تكن بينه شعرة واحدة بيضاء. أخذت أتفحص فمه؛ شفتيه النديتين، ونظرتُ إلى عينيه فرأيت أنه كان ينظر إليّ بالطريقة ذاتها.

قبلني ثم سألني: «هل أنت جائعة؟ هل أطلب شيئاً لنتناوله؟».

سألته: «في المطعم؟».

رد: «يمكننا أن نطلب منهم إرسال الطعام إلينا هنا».

كانت الساعة قد شارفت على الثالثة حسبما كنت أعتقد، بل لعلها قد تجاوزت الثالثة، ولا بد أن كونر قد عاد منذ فترة قصيرة. وحتى لو لم يكن قد عاد، وحتى لو كان لدي كل الوقت، إلا أن تناول الغداء مع هذا الرجل بدا لي أشبه بخطوة بعيدة للغاية، بدت لي تلك الخطوة أشبه بمشاركة شيء آخر أكثر من مجرد علاقة حميمة، وبدا لي أن ذلك يوحي بحميمية أكبر مما قمنا به لتونا، والذي كان مجرد شهوة جسدية.

ابتسمت فسألني:

«ما المضحك في الأمر؟».

أجبته: «لا شيء».

أدركت أن ثمة شيئاً ما في داخلي يرغب بالذهاب، فقد كنت بحاجة إلى أن أبقى بمفردي، وأن أجد تلك العزلة التي تسمح لي بالتفكير في ما قمت به لتوي، والأسباب التي دفعتني لذلك؛ إذ لم أكن أقصد ذلك حينما أتيت إلى هذا المكان، ومع ذلك هذا ما جرى معي، ولهذا قلت له: «أود ذلك، لكن يجب علي أن أغادر سريعاً».

أخذ يداعب كتفي وهو يقول: «هل يتوجب عليك أن تذهبي؟».

أجبته: «نعم». وأخذت أبحث عن عذر فقلت: «عليّ أن ألتقي إحدى صديقاتي».

هز رأسه، فأدركت حينها أنني كنت أود لو يطلب مني البقاء. كنت أتمنى أن يترجّاني لألغي الموعد مع صديقتي، كنت أرغب في رؤية خيبة الأمل بادية عليه حينما أخبره أنه لا يمكنني القيام بذلك.

لكنني كنت أعرف أنه لن يطلب مني ذلك؛ وذلك لأن قضاءنا بقية اليوم معاً لم يكن جزءاً من الاتفاق الذي كان يعتقد أنه قد عقده معي؛ إذ كان ذلك مخالفاً لشروط الالتزام القائم بيننا. وهكذا، طالت فترة الصمت بيننا، وتحولت إلى حالة من عدم الارتياح نوعاً ما. لقد كان ذلك فصام الشهوة؛ إذ من الصعب التصديق بأن الحميمية التي تشاركناها منذ بضع ثوانٍ يمكنها أن تتبخر في لمح البصر. أخذت أدقق في تفاصيل الغرفة؛ في الساعة الموجودة فوق التلفاز الذي تم تركيبه على الحائط المقابل لنا، وفي الموقد، وفي كومة الكتب القديمة ذات الغلاف السميك التي كانت موجودة فوق رف الموقد والتي لم يعد أحد يقرأها بكل تأكيد، إذ لم ألاحظ كل تلك التفاصيل من قبل.

سألته: «متى سيكون موعد طائرتك؟».

فتنهد وقال: «ليس قبل هذه الليلة؛ عند الساعة الثامنة، حسبما أعتقد». ثم قبلني، لكنني تساءلت عن سبب عدم قيامه بتفقد موعد رحلته، ثم أدركت أنني كنت السبب، وهنا قال لي: «أمامي فترة ما بعد الظهيرة بأكملها». ثم قبلني مرة أخرى، وكانت قبلته أقوى هذه المرة، وبعدها قال: «ابقي...».

أخذت أفكر به وهو يركب طائرته ويعود إلى موطنه، وبعدم رؤيتي له مرة

أخرى، فتذكرت حينما فكرت بذلك الأمر مع ماركوس؛ حينما اعتقدت أنه قد قابل إحداهن في برلين، والتي كان من الممكن أن تكون أفضل مني بالنسبة له، وكيف كان من الممكن أن ينتهي بي الأمر بالعودة إلى بلدي، وإلى كيت وأبي، وإلى حياتي السابقة. لكنه لم يفعل، بل تعمق حبنا أكثر، وأصبح أقوى وأمتن. كنا في الشتاء نفتح نافذة شقتنا وننسل نحو الحافة الباردة، وكنا نلف جسدينا ببطانية، وننظر إلى برج التلفزيون وهو يتوهج في السماء الزرقاء اللامعة، وعندها نبدأ بالحديث عن مستقبلنا، وعن كل الأماكن التي نرغب بزيارتها، وعن الأشياء التي نرغب برؤيتها. أو كنا نأخذ معنا زجاجة من الشراب إلى حديقة الحيوانات، أو نتسكع عند محطة حديقة الحيوانات. كانت لدي آلة التصوير الخاصة بي، وكنت ألتقط صوراً للشبان، وللمتسربين من مدارسهم، وللهاربين من بيوت أهاليهم. وهكذا كنا نلتقي الأشخاص، فتوسعت دائرة حياتنا، وأصبحنا أكثر انفتاحاً. كنت أشعر وقتها بشوق مرعب إلى كيت، لكنني لم أندم على تركي إياها.

لكن كل ذلك كان يمثل النسخة القديمة مني، لأنه لم يعد بوسعي أن أتصرف على هذا النحو على الإطلاق.

وهنا بادرته بالقول: «أنا آسفة». وكان لدي ذلك الانطباع المميز بأنني كنت أنسل بعيداً، وأن جين التي تمثلني وتمثل نسخة مني، والتي كانت قادرة على القيام بما قمت به لتوي قد بدأت بالتلاشي، وسرعان ما ستحل محلها جوليا: الأم والزوجة والتي كانت في سالف الزمان ابنة. لكنني لم أكن واثقة من أنني كنت أريد منها أن تغادر.

وهنا قلت: «يتعين علي أن...».

قاطعني بقوله: «أرجوك لا تفعلي». بدا عنيفاً هذه المرة، وللحظة خيّل إليّ أنه أصبح يائساً للغاية، وأن الرغبة كانت تحييه، لدرجة أنني شعرت بدفقة شعورية مفاجئة أتتني على حين غرة، فاعتقدت أنها حالة السعادة التي كنت قد نسيتها ونسيت كل شيء عنها، إلا أن هذه السعادة الصرفة البعيدة عن كل التعقيدات كانت أقوى من أي مخدر، ولم تكن مرتبطة بما قمت به للتو _ والذي أدركت أنني على وشك أن أقوم به مرة أخرى _ كما لم تكن مرتبطة بفكرة خداعي لزوجي وإفلاتي من العقاب على فعلتي تلك، بل لأنني كنت

نفســي، ولأنه أصبح لدي شــيء الآن، شــيء لي، شــيء خاص، أو لنقل: لديّ سر. أصبح بوسعي الآن أن أخفي الأمر داخل صندوق، وأن أخرجه بين الفينة والأخرى كأي كنز ثمين، أصبح لدي الآن شيء لا يخص أحداً سواي.

وهنا سمعته يقول: «ابقي، لبرهة قصيرة على الأقل». ففعلت.

الفصل الخامس عشر

عدت إلى البيت، وحينما فتحت الباب وجدت مجموعة من البطاقات البريدية تم إلقاؤها عبر فتحة الرسائل، فانحنيت لألتقطها، لكن الدهشة تملكتني حينما اكتشفت أن تلك البطاقات لم تكن إلا بطاقات كتلك التي تتركها بائعات الهوى في كبائن الهاتف العامة. فعلى كل واحدة منها ثمة صورة لامرأة ـ تختلف عن النساء الموجودات على بقية الصور ـ وهي ترتدي ملابس داخلية مغرية، وقد كتب على إحداها: «شابة ومثيرة»، وعلى الأخرى: «المتعة بالضرب على الأرداف»، ومباشرة خطرت بذهني آخر عبارة قالها بادي لي وهي: عليك اللعنة، ومباشرة خطر لي أن هذه البطاقات منه، وأنه دفع بها عبر فتحة الباب خلال نوبة غضب طفولية حاقدة.

حاولت أن أهدئ نفسي، فقد أصبحت مصابة بجنون الشك، إذ لا يمكن أن تكون هذه البطاقات منه بكل تأكيد، ثم إنه من السخف أن أفكر بأنه هو من كان يقف تحت نافذتي؛ إذ كلما كان التفسير أكثر بساطة ازداد احتمال كونه حقيقياً. ثم إن بادي لن يجتاز نصف المدينة خلال يوم يفترض أن يكون أثناءه في عمله، وفي الوقت الذي يعرف أنني لن أكون فيه موجودة في البيت. إذاً، من المحتمل أن من قام بذلك أولاد، مجرد أولاد يتسكعون في الجوار.

ومع ذلك، بقي طعم الخوف في فمي وأنا أمزق تلك البطاقات إلى أجزاء صغيرة وأضعها في سلة المهملات. لكنني تجاهلت ذلك الإحساس، لأنني لم أكن أريد له أن يتملكني؛ إذ لم يكن هنالك أي شيء يدعو إلى القلق. إنها مجرد مزحة غبية، لذا كان علي أن أكف عن الشك بهذه الطريقة المرضية.

صعدت إلى الطابق العلوي وخلعت جزمتي، ثم مسحت الزينة التي كنت قد وضعتها على وجهي، وبعدها خلعت ملابسي. كان من الصعب أن أتخيل نفسي وأنا أضع كل تلك المساحيق وأرتدي كل تلك الأشياء منذ بضع ساعات فقط. بدا لي الأمر كفيلم يعرض أمامي من نهايته وحتى بدايته؛ وكأن شريط

الحياة كان يدور بشكل عكسي، ومع نهايته اكتشفت أن المرأة التي تقف هناك كانت مختلفة عني تمام الاختلاف؛ أنا جوليا التي تقف الآن أمام المرآة. بيد أن تلك المرأة لم تكن أفضل مني ولا أسوأ، بل كانت مختلفة عني فقط.

ارتديت سروالي الجينز مع القميص، ثم نزلت إلى الطابق الأرضي، فسمعت هاتفي يرن، وبدا لي ذلك غريباً؛ إذ كان الصوت عالياً جداً، فأقلقني ذلك، فقد كنت بحاجة إلى المزيد من الوقت لأبقى بصحبة أفكاري قبل أن تقتحم الحياة الواقعية عزلتي. لكنني حينما رفعت سماعة الهاتف واكتشفت أن آنا هي المتصلة سررت بذلك، لأنها كانت من الأشخاص الذين يمكنني أن أتحدث إليهم حول ما جرى، وأن أكون صادقة معها.

سألتني: «كيف سارت الأمور؟ هل توصلت إلى أي معلومة؟».

أجبت: «إنه لا يعرف عنها شيئاً، وقد تأكدت من ذلك».

أصابها التردد، لكنها قالت: «أشعر بالأسف».

كان صوتها ناعماً، فقد كانت تعرف كم كنت بحاجة إلى الحصول على إجابات منه.

قلت لها: «لا بأس».

ثم بدأت تقول: «اعتقدت أن... »، وهنا تملكتني الرغبة بإخبارها بالحقيقة، نظراً إلى كونها الشخص الذي يمكنه أن يتفهم موقفي.

قلت لها: «لقد قمنا بعلاقة حميمة».

هتفت: «ماذا؟!».

كررت على مسمعيها ما قلته؛ لأنني كنت أعتبر أن قيامي بذلك يمكنه أن يساعدني على تجاوز المسألة، لكن ذلك لم يجد نفعاً. ثم إنها ليست الحقيقة _ مهما حاولت أن أصدقها وأن أقتنع بها _ فقد قمنا بعلاقة حميمة لأنني كنت راغبة بذلك.

سألتني: «هل أنت بخير؟».

فتساءلت في سري: هل من المفترض ألا أكون بخير؟ طبعاً أنا بخير.

أجبتها: «أجل، أنا بخير. لقد استمتعت بذلك».

سألتني: «هل قمت بذلك بسبب كيت؟».

فعلاً، هل كان ذلك بسبب كيت؟ لست أدري، هل كنت أرغب بالقيام

بعلاقة حميمة مع لوكاس كي أتمكن من تقمّص شخصيتها؟

على أية حال، أصبحت أتفهمها أكثر بعد ذلك.

أجبت: «ربما».

سألتني: «هل ستقابلينه مرة أخرى؟».

فاجأني سؤالها، فبحثت عن مسحة إدانة فيه، لكنه أتى خالياً من أي إدانة، إذ كنت أعرف أنها متفهمة.

أجبتها: «كلا. لن أراه ثانية، فهو سيغادر الليلة بكل الأحوال».

سألتني: «هل تشعرين بأنك بخير حيال ذلك؟».

أجبت: «ليس لدي أي خيار في ذلك. لكن أجل، أنا بخير».

كنت أحاول أن أبقي الموضوع غير مهم وأن أبدو غير مكترثة، لكنني لم أتأكد بأنها كانت تصدقني، وخاصة حينما قالت: «إذا كنت متأكدة من ذلك». لكنني عند هذه النقطة غيّرت الموضوع، ثم تحدثنا قليلاً عنها وعن صديقها الحميم ريان، وكيف كانت أمور علاقتهما تسير، وأخبرتني أنه يجب علي أن أذهب لزيارتها مرة أخرى حينما تسنح لي الفرصة، وقالت لي إنها ستفرغ من عملها خلال الأسابيع القليلة القادمة، لكن مواعيد انتهاء العمل لم تحدد بعد. ثم قالت لي: «يمكننا أن نلتقي حينها، وأن نتناول العشاء خارج البيت، وأن نستمتع بوقتنا قليلاً».

نستمتع؟!! أخذت أسأل نفسي عن نوع المتعة التي تقصدها، فتذكرت أنها أصغر سناً مني، لكن الفارق في العمر بيننا لم يكن كبيراً.

قلت لها: «سيكون هذا رائعاً». وكنت أعرف أنه لا بد أنني أبدو لها مشتتة التفكير؛ فقد كنت لا أزال أفكر بلوكاس، وأتخيل لقاءنا مرة أخرى، وأتساءل عن كيفية سير الأمور إن كان بوسعي أن أعرّفه على أصدقائي وصديقاتي يوماً ما. كما أخذت أتساءل عن السبب الذي لن أدركه والذي أخال أنه يجعل الفكرة براقة في نظري.

أخذت أذكّر نفسي بأنني عدت إلى الحياة الواقعية، وأن آنا صديقة أعرفها على أرض الواقع، وأنها مختلفة عن لوكاس، لذا قلت لها: «سأستمتع بذلك كثيراً».

دخل كونر حينما كنت أعد له شطيرة، فأخبرته بأنه يجب أن يضع ملابسه الرياضية في سلة الغسيل. وبعد هنيهة، سمعت مفتاح هيو يدور في قفل الباب، حيث دخل المطبخ وأنا أطهو طعام العشاء، فقبلته كعادتي، وأخذت أراقبه وهو يجلب لنفسه شراباً ثم يخلع ربطة عنقه ويعلق سترته بعناية على ظهر الكرسي. كان الإحساس بالذنب الذي شعرت به متوقعاً، لكنه لم يدم طويلاً؛ مما أدهشني. وذلك لأن ما قمت به عصر اليوم ليست له أية علاقة بالحب الذي أكنه لزوجي؛ فعلاقتي مع لوكاس شيء، ومع هيو شيء آخر تماماً.

سألته: «كيف كان يومك؟».

لكنه لم يجبني، فعرفت أن ذلك يعني أن يومه كان سيئاً، ثم سألني عن جلسة العلاج فأجبته:

«لا بأس». وكنت أدرك أنني لم أكن مقنعة، فأردفت: «جيدة حسبما أعتقد». فتقدم نحوي، ووضع يده على ذراعي ثم قال: «لا تيأسي من ذلك، فالأمر يستغرق وقتاً. وأعرف أنك تتصرفين على النحو المناسب».

ابتسمت، ثم عدت لمتابعة إعداد طعام العشاء. وحين أخبرني هيو أنه سيصعد إلى مكتبه في الطابق العلوي، سررت بذلك. لكن، حينما استدار ليغادر المطبخ، شعرت بأنني لم أعد أتحمل أكثر من ذلك، إذ لم يكن هيو الذي أعرفه... فقد كان صوته منخفضاً، وكان يمشي بتثاقل وكأن الهواء يلقي أحمالاً على كاهله، وبدا لي أن شيئاً غريباً قد حدث له فسألته:

«ما بك يا حبيبي؟».

التفت نحوي، فكررت:

«ما الأمر؟».

أجابني: «كان يومي تعيساً، هذا كل ما هنالك».

وعندها، وضعت السكين التي كنت أستخدمها لتقطيع الخضار جانباً، وسألته: «أتود أن تتحدث عن ذلك؟».

فهز رأسه نافياً، وهنا شعرت بخيبة الأمل تقطعني إرباً، وأدركت كم كنت أريد أن أشعر بالارتباط بزوجي. أما الآن، وبعد ما حدث عصر اليوم، وبعد ما فعلته، أحتاج بشدة إلى أن يثق بي؛ بيد أن تكتمه أشعرني بالرفض.

سألته: «هيو، ماذا دهاك؟».

رد علي: «لا شيء. وسنتحدث حول ذلك لاحقاً، وبكل صدق».

وأخيراً، جلس ثلاثتنا إلى طاولة المطبخ لتناول العشاء. كان كونر يجلس قبالتي، وكان حاسوبه مفتوحاً أمامه، وبجانبه مفكرة وكومة من الكتب المدرسية المتخصصة بعلم الأحياء. كان يدرس صمامات القلب، أي الموضوع الذي يختص به والده، وكان ينحني نحو الشاشة لينقر على لوحة التتبع بصورة منتظمة. وكانت تبدو عليه أمارات التركيز الشديد. أما هيو فقد جلس بجانبه وهو يحمل ورقة، ويضع ملاحظات خاصة به. وبين الفينة والأخرى، كان يلقي بنظرة على ما يقوم به كونر، ويعلق حينما يسأله كونر أي سؤال. كان يبدو عليه أنه قد عاد إلى طبيعته الآن، وأنه قد نسي كل ما أزعجه صبيحة اليوم، أو أنه أخفى ذلك الإحساس. ومن المحتمل أنه لم يكن هنالك أي شيء على الإطلاق، بل مجرد خيال من الخيالات التي تنتابني.

وفجأة، سمعنا طنين هاتفي ووصلتني رسالة قرأت فيها:

– كنت أتمنى أن أشتري لك أزهاراً عصر هذا اليوم؛ فأنت تستحقين بعض الأجواء الرومانسية.

عندها، وضعت هاتفي مكانه، إلا أنني قلبته على وجهه، وأخذت أتفرس في وجهَي زوجي وابني. يبدو أنهما لم يلاحظا أي شيء، وعلى الأرجح أنه لا يمكنهما أن يريا ما كتب في تلك الرسالة. إلا أن الإحساس بالذنب ما فتئ يراودني؛ إذ لم يكن يجدر بي القيام بذلك، في هذا المكان والزمان.

لكنني لم أقم بأي شيء على الإطلاق، مطلقاً. غير أن هاتفي عاود الطنين مرة أخرى، فقرأت رسالة جاء فيها:

– أنت مذهلة، أشعر كما لو أنني أعرفك منذ زمن طويل وبطريقة غريبة.

كان علي أن أرد هذه المرة فكتبت له:

– أحقاً؟ أتعتقد ذلك؟

– أجل.

أتاني جوابه بشكل فوري، فتخيلته وهو جالس قرب لوحة المفاتيح ينتظر ردي التالي، فكتبت له:

– لا بأس بك أنت أيضاً.

بعدها ضغطت زر الإرسال وكتبت رسالة أخرى:

- ثم إنك اشتريت لي كأساً من الشراب.
- لكنك لم تشربيها.
- لكنك اشتريتها لي، وهذا أهم ما في الموضوع.
- لكنها أقل مما تستحقين.

هنا، أخذ هيو يسعل، فرفعت بصري نحوه. كان ينظر إلي، وإلى الهاتف في يدي، فسألني: «هل كل شيء على ما يرام؟».

أجبته: «أوه، أجل». وحاولت أن أحافظ على ثبات صوتي، ثم أردفت: «إنها آنا، فهي تفكر بالمجيء لزيارتنا».

سألني كونر وهو ينظر إليّ بترقب: «وهل ستقيم هنا؟». لذا، أخذت أتساءل إن كان يفكر بكيت، وبكل ما يمكن أن يكتشفه عن والدته من صديقتها القديمة.

فقلت: «كلا، لا أعتقد ذلك. فهي ستأتي من أجل عملها، وأعتقد أنهم سيحجزون لها في الفندق».

لم ينبس بكلمة، فخطر ببالي أن زيارتها يمكنها أن تخفف عنه، نظراً إلى كونه سيتعرف على آنا بشكل أفضل. ولهذا، أخذت أحدث نفسي بأنه لا بد لي من جعلهما يلتقيان حينما تأتي.

عاودت النظر إلى هاتفي، فوجدت رسالة أخرى جاء فيها:

- ماذا تفعلين؟

كان السؤال يحمل بين طياته تلميحاً جنسياً بشكل لا يمكن إنكاره؛ على الرغم من أنه حينما سألني هذا السؤال من قبل، وذلك عندما تحادثنا للمرة الأولى، كان سؤاله ذاته يحمل بين طياته الطهر والبراءة.

أو لعلي اخترت حينها ألا أرى فيه ما كان يعنيه.

وفجأة، وقف هيو وقال: «سأعد القهوة، ما رأيك جوليا؟».

أخبرته بأنني لا أريد أن أحتسي القهوة، لكنه توجه نحو آلة صنع القهوة وقام بتشغيلها قبل أن يملأ خزانها من الصنبور الموجود خلفه. وعندها، قربت هاتفي من صدري قليلاً، فبادرني بالسؤال:

«كيف حالها؟».

قلت: «إنها بخير حسبما أعتقد».

هتف: «لم يخطر ببالي أنكما بقيتما على تواصل».
دهشت من ملاحظته؛ إذ كان يجب عليه أن يعرف أننا ما زلنا نتحدث إلى بعضنا، ولذا خطر ببالي أنه كان يشك بطريقة أو بأخرى بأنني أكذب، لذا قلت له: «آه، بلى».
لكنه لم يجب. وحينما عاد إلى مكانه، أخذ هاتفي يصدر طنيناً مرة أخرى. ووردتني رسالة جاء فيها:
- هل أنت هنا؟
لقد لاحظ هيو ذلك، وبدا لي متضايقاً أو منزعجاً، لكنني لم أستطع أن أميز، لذا قلت له:
«آسفة حبيبي».
فرد: «لا بأس». ثم أمسك بقلمه، وكأنه كان على وشك أن يعود إلى ورقته. إلا أن انزعاجه لم يدم أكثر من ثوانٍ، فقال: «يمكنك أن تراسلي صديقتك، وستتحدث في وقت لاحق».
قلت: «آسفة». ثم أغلقت هاتفي، إلا أن كونر كان قد بدأ بطرح الأسئلة على والده حول الشرايين، وهكذا في لمح البصر أصبح هيو منشغلاً بالشرح له، أي لم أكن أؤذي بتصرفي أحداً منهما.
فقلت لهما: «سأذهب لأقوم ببعض الأعمال».

* * *

عبرت الحديقة ودخلت الكوخ الذي يوجد فيه مكتبي، ووضعت هاتفي جانباً، ثم فتحت حاسوبي المحمول.
أخذت أكتب:
- آسفة، كنت في الخارج، ووصلت إلى البيت الآن.
- ماذا تفعلين؟
- لا شيء.
- ماذا ترتدين؟
- ماذا تعتقد؟
سادت لحظة من الصمت، ثم جاءني رده:
- أحتاج إلى رؤيتك مرة أخرى. أخبريني أنك تريدين أن تريني أيضاً.

فكرت في سري: أجل، أريد ذلك. كان من المضحك كيف أصبحت رغباتي أقل غموضاً الآن حينما بات تحقيقها غير ممكن.

وهنا قلت:

– بالطبع أريد.

– أتخيلك عارية، فهذا كل ما أستطيع أن أفكر به...

كنت أجلس على الكرسي، فشعرت بالمعدن الذي صنع منه المسند الموجود تحت قدمي، كما شعرت بقماش الأكرليك القاسي الذي صنع منه المقعد الموجود تحت مؤخرتي. أغمضت عينيّ، وكان بوسعي أن أراه، هنا في الغرفة معي. بدا لي حقيقياً، بل أكثر واقعية من أي شيء آخر.

لم أجب على رسائله هنيهة، لأنني كنت أرى صورة عائلتي في المطبخ. كنت أرى كونر والحيرة بادية عليه، فيما هيو يحاول مساعدته وهو يرتشف من قهوته. لكنني استبعدت تلك الصورة، وأخذت أتخيل ما كان لوكاس يصفه لي. أخذت أتخيل ما كان يرغب بالقيام به.

بدأت بالكتابة، وتخيلته وهو يكتب، وشعرت به يقف خلفي. كان بوسعي أن أشم رائحة عطر ما بعد الحلاقة الخاص به، ورائحة عرقه الخفيفة.

كتبت له:

– أريد أن أقوم بشيء من أجلك.

– أريدك بشدة.

أخذت أفكر بإلحاحه عصر ذلك اليوم، وبحاجته إلي بشكل أرعن، والصدمة التي شعرت بها حيال رغبته، والتي جعلتها تعبر جسدي، فأحيتني بعد رقاد.

كتبت له:

– وأنا أريدك أيضاً.

– إنني أتخيل ذلك. وأنا أمد يدي نحوك، وأمرر يدي بين خصلات شعرك.

مرة أخرى، لمعت أمامي صورة زوجي وابني، ففكرت بأن كل ما أقوم به خطأ، وبأنه لا يحق لي أن أقوم بذلك، وأنه عليّ أن أحتج على ذلك. لكنني كنت أشعر بيديه فوق فروة رأسي، وهما تجمعان بين الخشونة والرقة في وقت واحد. كان لوكاس يدفعني للتفكير في ذلك، ورويداً رويداً جعلني أشعر بالأمان، وكان يشجعني مرة بعد مرة على التخلي عنهما. لقد كان يداعب خيالاتي التي

كانت تتجلى أمامه.
قال لي:
- قولي لي ماذا تريدين.
امتدت يدي إلى حنجرتي، وتخيلت أن يده تلمسني.
كتب لي:
- أخبريني عن رغباتك.
استدرت، وسحبت المزلاج الذي يقفل الباب من الداخل، ثم أخذت نفساً عميقاً، وسألت نفسي: هل بوسعي القيام بذلك؟ فأنا لم أقم بذلك من قبل.
كتب لي:
- حدثيني عن خيالاتك.
ثمة الكثير من الأشياء التي لم يسبق لي أن قمت بها، لذا قمت بحل أحد أزرار قميصي وبدأت أكتب:
- أنا بمفردي في المقهى، وثمة شخص غريب.
- تابعي.
تركت الصور تندفع فكتبت:
- لا أستطيع أن أبعد نظري عنه.
- إنه خطر...
- إنه شخص لا يمكنني أن أقول له لا.
- لا يمكنك أن تقولي له لا؟ أم إنه لا يقبل بكلمة لا كجواب؟
ترددت لفترة قصيرة، لأنني كنت أعرف ما يريده، ولكنني كنت أعرف ما أريده أنا أيضاً.
أخذت أقنع نفسي: إنها مجرد كلمات على الشاشة، وهذا كل ما في الأمر.
سألته:
- من الذي لن يقبل بكلمة لا على سؤاله؟
- ماذا حدث؟
أخذت نفساً عميقاً، وجعلت تفكيري منفتحاً على سائر الاحتمالات، ثم فتحت زراً آخر من أزرار قميصي، إذ لم أكن أضر بذلك أحداً.
كتب لي:

– أخبريني.

ففعلت.

* * *

بعدما فرغنا لم أكن أشعر بأي إحراج.

أخذت أقنع نفسي بأن ذلك مجرد خيال، وأنه لم يكن خيالاً غير مطروق، لأنه أتاني من الكتب التي كنت قد قرأتها، وهو ليس بالأمر الذي أرغب برؤيته في الحياة الواقعية.

وهنا أرسل لي رسالة قال فيها:

– يا للروعة! أنت عظيمة فعلاً.

أخذت أفكر: هل أنا كذلك؟ إذ لم أكن أشعر بذلك. في تلك اللحظة، بعدما انتهى كل شيء، كنت أرغب بإخباره بكل شيء، كنت أرغب بأن أحدثه عن هيو؛ ذلك الزوج الذي لا يعرف عنه شيئاً. كنت أرغب بأن أحدثه عن هيو؛ ذلك الزوج اللطيف والحنون الذي يهتم بأمري ويراعي مشاعري.

كما كنت أود أن أخبره أيضاً بأن هيو لا يكفيني في بعض الأحيان. ونعم، أجل، كثيراً ما كنت أرغب بأن أشعر بأنني مستغلة، وكأنني لا شيء، ومن أجل المتعة الصرفة والخفيفة والسهلة.

وكنت أريد أن أشرح له أنه لا يمكن لشخص واحد أن يمثل لك كل شيء، في كل الأوقات.

ولكن كيف يمكنني أن أخبره بذلك، وهو لا يعرف بوجود هيو أصلاً؟

قلت له:

– وأنت كذلك.

نظرت إلى الساعة، فكانت قد قاربت التاسعة؛ أي مضى على بقائي هنا مدة خمس وأربعين دقيقة.

قلت له:

– علي أن أذهب.

وفي تلك اللحظة بالذات، سمعت هدير طائرة فوقي فخطر ببالي خاطر.

فكتبت له:

– ألا يجب أن تكون في الطائرة الآن؟

- أجل.
- هل تأخرت على موعد طائرتك؟
- لم أتأخر، بل ألغيت الرحلة. أعتقد أنه ما زال لدي يوم آخر في لندن.
سألته وكلي أمل أن أكون على معرفة بالجواب مسبقاً:
- لماذا؟
- كي أراك.
لم أكن متأكدة من نوع المشاعر التي يجب أن تراودني لدى سماعي لذلك، لكنني كنت متحمسة. أما في الجزء السفلي فقد كان إحساسي مختلفاً. وفي تلك اللحظة، كان بوسعي أن أقنع نفسي بأنني لم أكن خائنة، وأنني لم أخدع زوجي. لكن، ماذا إن رأيته مرة أخرى؟
أخذت أقنع نفسي بأنه يجب عليَّ ألا أفعل ذلك.
وصلتني رسالة أخرى، جاء فيها ما كنت أتوقعه بالضبط:
- في الحقيقة، لدي أمر أريد أن أخبرك به.

الفصل السادس عشر

رتبنا لموعد في الفندق ذاته في اليوم التالي. وصلت يومها باكراً، إذ كنت بحاجة إلى وقت كي أتمكن من جمع شتات نفسي، حتى أهدأ؛ فقد كنت متوترة لأنني لم أتمكن من توقع الشيء الذي يريد أن يخبرني عنه. ومن المستحيل أن يكون ذلك الشيء حسناً، وإلا كان سيخبرني به البارحة بكل تأكيد ؛ وذلك حينما تمددنا على السرير معاً، أو ليلة البارحة حينما أخذنا نتحاور عبر الإنترنت. من الصعب على المرء أن يستعد للأسوأ في الوقت الذي لا يمكنه فيه أن يتوقع شكل الشيء الأسوأ ونوعه.

وبالإضافة إلى ذلك، كنت مشتتة التفكير بما فيه الكفاية؛ فأخيراً أخبرني هيو هذا الصباح بما كان يجول في خاطره. كانت قد وصلته رسالة، وهي عبارة عن شكوى، وقد طبعت منها نسخة قدمت لرئيس قسم الجراحة وللمدير العام. سألته: «علامَ الشكوى ؟ ما الذي حدث؟».

فقام بصب الشاي الذي أعده بنفسه ثم قال: «لا شيء. في الحقيقة، أجريت عملية مجازة لمريض منذ بضعة أسابيع، وقد تمت العملية بحسب المعايير بالضبط، ولم يكن فيها أي شيء غير طبيعي، وكان المريض على ما يرام، لكنه أخذ يعاني من حالة الرأس المتضخم».

انتظرت أن يكمل، ولكنه لم يفعل، فقد كان يقوم بذلك كثيراً حينما أتوقع أن أعرف أكثر.

قلت له: «وما هي؟».

رد: «متلازمة ما بعد التروية؛ حيث يضعف انتباه المريض، وينخفض مستوى مهاراته الحركية الدقيقة، كما تظهر لديه بعض المشكلات في الذاكرة قصيرة الأمد، ويعتبر ذلك شائعاً للغاية، ثم يتحسن المريض عادة».

سألته: «إذاً، لِمَ الشكوى؟».

وضع فنجانه وقال: «إن العائلة تشتكي لأنني لم أحذرهم من احتمال ظهور

تلك الأعراض قبل العملية. ويدّعي هؤلاءأن ذلك كان من الممكن أن يؤثر على قرارهم بخصوص إجراء العملية لو علموا بالأمر».

سألته: «وهل أخبرتهم بذلك؟».

نظر إليّ، لكنني لم أستطع أن أميز إن كان غاضباً وهو يقول: «بالطبع. فأنا ألفت نظر المرضى وأهاليهم لذلك على الدوام».

سألته: «إذاً، ما المشكلة؟».

رد: «لقد سحبت الملاحظات من جميع استشاراتي البارحة، وقرأتها كلها، فاكتشفت أنني لم أضف ملاحظة حول قيامي بتنبيه تلك الأسرة حول احتمال ظهور تلك الأعراض». ثم تنهد، وبعدها تابع: «وعلى ما يبدو، إن لم أقم بتدوين ذلك، فهذا يعني من الناحية القانونية أنني لم أخبرهم بذلك أيضاً. وبالتالي، إن حقيقة كوني أخبر كل مريض بذلك على الدوام لن تغير شيئاً في هذه الحالة».

وهنا وضعت يدي على كتفه وقلت: «ألن يقف الأمر عند هذا الحد؟».

أجاب: «حسناً، إن الشكوى رسمية». ثم أخذ يهز رأسه ويقول: «إنه أمر محزن. أعني، ما الذي كانوا سيفعلونه على أية حال؟ إذ لن يلتفت أحد ليقول إنه لن يجري عملية مجازة بسبب احتمال عدم تذكره ما تم تدوينه في قائمة التسوق اللعينة لديه وذلك على مدى بضعة أسابيع فقط! أعني...»

كنت أراقبه وهو يسعى جاهداً ليسيطر على غضبه. كان قد سبق له أن اشتكى لي حول بعض المرضى الذين تصل بهم الأمور إلى القيام بأشياء غير معقولة، وكيف أنهم يصممون بكل إصرار على إيجاد أي شيء ليقدموا شكوى ضده؛ مهما كان ذلك الشيء تافهاً. غير أنه بدا لي هذه المرة مغتاظاً جداً.

عاد ليقول: «يجب أن يجري تحقيق حول ذلك، ومن ثم علي أن أكتب رسالة اعتذار حسبما أعتقد. لكنني أعرف هذا النوع من الناس الذين يسعون للحصول على تعويض، إلا أنني لم أخطئ بحقهم، غير أنهم مضوا في ذلك إلى أبعد حد يمكنهم أن يصلوا إليه».

«آه يا حبيبي...».

«وهذا ما كان ينقصني في هذا الوقت».

وهنا شعرت بالذنب، فقد كنت غارقة بقصة وفاة كيت، ونسيت أن لديه عملاً وحياة لا بد أن تستمر هي أيضاً. أخذت أخبره أنني معه، وأننا سنكون

بخير، وهكذا نسيت كل شيء حول لوكاس تقريباً.

* * *

في تلك اللحظة، كان هو الإنسان الوحيد الذي كنت أفكر به. مررت بالمحطة، وصعدت الأدراج، وصولاً إلى نقطة التقاء أرصفة المحطة، وأخذت أفكر بالبارحة، وبالوقت الذي أمضيته هنا وأنا في طريقي لرؤية آنا؛ لدى ذهابي لزيارتها في باريس. في تلك الفترة، كان الشيء الوحيد الذي كنت قادرة على التفكير فيه هو كيت.

كان لوكاس ينتظرني؛ بالرغم من أننا رتبنا للقائنا في بهو الفندق. لكنه كان قد خرج من المطعم، ووقف تحت تمثال ضخم كان يقبع عند نهاية الأرصفة حاملاً باقة من الزهور. كان التمثال لرجل وامرأة يتعانقان، حيث كانت يدا الرجل حول خصر المرأة، أما هي فقد وضعت يديها على وجهه ورقبته. وعندما اقتربت، لاحظت أنه لم يرني حينما وصلت، فقد كان يعدل وقفته بالتبديل بين قدم وأخرى، كما كان التوتر بادياً عليه، لكنه حينما رآني افترت شفتاه عن ابتسامة، ثم تبادلنا القبل. وهكذا، بدونا لأي شخص يراقبنا كما لو أننا نحاول تقليد التمثال البرونزي الذي كان يشرف علينا.

قال لي حينما انتهت القبلة: «سنطلق على هذا المكان اسم: مكان اللقاء». ثم تابع: «اعتقدت أنه من الأفضل الانتظار هنا بدلاً من هناك، لأن هذا المكان يبدو مناسباً».

ابتسمت، فرفع الأزهار وقدمها لي. كانت عبارة عن ورود ذات لون أرجواني داكن، وكانت جميلة للغاية، وعندها قال لي: «إنها لك».

أخذت منه الباقة، فانحنى وقبلني مرة أخرى، لكن يدي اتجهت هذه المرة نحو كتفه في محاولة لإبعاده؛ فقد كنت أشعر بأنني أصبحت مكشوفة للغاية، وكأن كل العالم قد تجمع في تلك المحطة ليراقبنا. كنت متوترة، وبدا لي أنني كنت أريد كل شيء دفعة واحدة، فقد كنت أريد منه أن يتحدث في الموضوع بسرعة ثم يغادر، وكنت أريده أن يدعوني للغداء، ويخبرني بأن ما جرى البارحة كان غلطة، وأن يعترف لي بأنه لم يشعر بالندم على الإطلاق؛ كلّ ذلك في الوقت نفسه.

لكنه في بداية الأمر بقي صامتاً حينما كنا نجتاز العتمة لنصل إلى ضوء

البهـو، وهنـاك قـال لي: «إنها أنت». وذلك حالما خرجنا إلى النور، فسـألته عما يقصده بذلك فقال:

«ذلك العطر الذي تعطرت به البارحة...».

«ألم يعجبك؟».

هز رأسه ثم ضحك وهو يقول: «ليس كثيراً».

وهنا اجتاحتني صدمة خاطفة بفعل خيبة الأمل، ولا بد أنه قد لاحظ ذلك، فاعتذر بقوله: «إنه جميل، لكن مفعوله قوي جداً، بالنسبة لي على الأقل...».

ابتسـمت، ثـم أبعـدت نظـري عنـه لفتـرة وجيزة. لقـد كان تعليقـه جارحاً، واستمر ذلك الجرح للحظة، لكنني أخذت أقول لنفسي إن ذلك غير مهم، لأن ثمة الكثير من الأمور الهامة التي يتوجب علي أن أقلق بشأنها.

قلت له: «أعتقد أن عطري كان فواحاً جداً بالنسبة إلى منتصف اليوم».

فـرد: «آسـف. كان يجـدر بـي ألا أذكـر ذلـك». ثم فتح البـاب ووقف إلى جانبي لأدخل.

سألته: «ما هو الأمر الذي تريد أن تحدثني عنه؟».

أجاب: «سأخبرك بعد قليل، ما رأيك بتناول شراب ما؟».

جلسنا، ثم طلبنا القهوة، فوضعت الورود فوق حقيبة يدي التي تركتها عند قدمي، وكأنني كنت أحاول إخفاء تلك الباقة، وكنت آمل ألا يلاحظ هو ذلك.

سألته مرة أخرى عن سبب وجودنا في هذا المكان، فتنهد، ثم أخذ يخلل شعره بأصابعه، إلا أنني لم أعتقد أنه كان متوتراً، لأنه بدا لي تائهاً وخائفاً.

قال لي: «لا تغضبي مني، لكنني كذبت عليك».

قلت له: «حسناً». وقلت لنفسي: لا بد أنها الزوجة التي ما زالت على قيد الحياة، والتي تظن أنه بقي هنا لأن موعد الطائرة قد فاته، فأردفت: «تابع...»

قـال: «أعـرف أنـا بدأنا بذلك كنوع من التسـلية عبـر الإنترنت، لكن الأمر يتلخص في أنني أرغب حقاً برؤيتك مجدداً».

ابتسـمت، إذ لـم أكـن أدري مـا الـذي يجـب علـيّ أن أفكـر فيـه في تلك اللحظة؛فقد كان يمتدحني. لذا شـعرت بالارتياح، لكنني لـم أفهم سـبب وجود هـذا التصعيـد فـي الموضـوع، ولماذا قال لي: ثمة أمـر يجب أن أخبرك عنه، لا تغضبي مني، أي لا بد أن تكون هناك كلمة ولكن في الموضوع.

سألني: «هل ترغبين برؤيتي مجدداً؟». وبدا لي متفائلاً، لكنه لم يكن واثقاً من ذلك.

ترددت، فأنا لم أكن أعرف ما الذي كنت أريده بالضبط، كما أنني لم أستطع أن أتخلى عن فكرة إمكانية كونه قادراً على مساعدتي في إيجاد الأجوبة التي كنت بحاجة إليها.

غير أن القصة لا تتلخص في ذلك فقط؛ إذ كانت لديّ رغبة برؤيته مجدداً لأسباب لا علاقة لها بكيت نهائياً.

قلت له: «أجل. إنني أرغب بذلك، لكن الأمر ليس بتلك السهولة؛ وذلك لأنك ستعود إلى بلدك اليوم، وأنا أعيش هنا، ثم...»

رد علي: «لن أعود إلى بلدي اليوم، أو لن أعود إلى إيطاليا على الأقل».

قلت: «حسناً...». والآن، أصبحنا نقترب من صلب الموضوع. لذا، أخذت أفكاري تسبق الحدث، وكنت أود أن أسأله: ماذا بعد؟ إلى أين؟ لكنني أطرقت بدلاً من ذلك، لأن شيئاً ما في داخلي كان يعرف ما كان سيخبرني به.

قال لي: «أنا أقيم هنا».

كانت ردة فعلي فورية؛ إذ شعرت بالخدر في جلدي، لأن حساسيتي كانت مفرطة، ولم أعد أشعر بوهج الشمس على كتفي، وبخشونة قماش المقعد، وبثقل ساعة اليد على معصمي، وبدا لي أن كل الأمور التي كانت بعيدة عن بؤرة التركيز قد تم قصها بشكل حاد.

سألته: «هنا؟!».

فهز رأسه إيجاباً.

سألته: «في لندن؟».

أجاب: «كلا، لكنني لست ببعيد عنها ، فأنا أعيش في منطقة على تخوم كامبريدج».

إذاً، هذا هو السبب الذي جعلنا نلتقي هنا، في المحطة.

قلت له: «حسناً...» لأنني كنت لا أزال أحاول أن أستوعب ما قاله لي. لقد كان ذلك حميمياً للغاية، وقريباً للغاية. وعلى عكس ما هو متوقع، جعلتني تلك الأخبار أرغب بالابتعاد عنه، لأتمكن من الجلوس والتفكير بالأمور لفترة قصيرة، وذلك لأكتشف طبيعة شعوري حيال ذلك.

هتف: «تبدين هادئة للغاية».

أجبته: « إنه وقع المفاجأة، فقد أخبرتني بأنك تعيش في ميلانو».

«أعرف، وأنا آسف. هل أنت غاضبة مني؟». بدا لي فجأة صغيراً وساذجاً للغاية. لقد كان يذكرني بنفسي بطريقة ما، حينما كنت في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر؛ أي حينما وقعت في حب ماركوس.

ثم تابع قائلاً: «بالنسبة إلى الكذب، إن هذه الكذبة كانت مجرد شيء من الأشياء التي نتفوه بها حينما نتحاور عبر الإنترنت، نظراً إلى كونها لن تفضي إلى أي نتيجة، وأنت تعرفين كيف تكون».

هتفت: «أنا متزوجة». فجاءت عبارتي فظة، وكأنني لم أكن أتوقع أن تخرج من فمي. وحالما نطقت بها أبعدت ناظريّ عنه، وأخذت أنظر من فوق كتفه، لأنني لم أكن أدري كيف ستكون ردة فعله. وسواء أتمثلت ردة فعله بالغضب أو خيبة الأمل أو أي شيء آخر، فلم أكن أريد أن أرى أياً من ذلك.

أما هو فقد أمسك عن الكلام لفترة طويلة، ثم تكلم أخيراً وقال: «متزوجة؟!».

أجبته: «أجل. وأعتذر لأنني لم أخبرك بذلك، لأنني ظننت أن الأمر لا يهمك، واعتقدت أن كل الأمر مجرد تسلية عبر الإنترنت؛ تماماً كما ظننت أنت».

تنهد وقال: «كنت أظن أنك متزوجة».

سألته: «كنت تظن؟!».

هز رأسه باتجاه يدي وقال: «لقد ترك خاتمك أثراً على إصبعك».

نظرت إلى يدي، فوجدت كلامه صحيحاً؛ إذ كان ثمة فراغ حول إصبعي يعكس شكل الخاتم الذي كنت أضعه عادة، ولكن بالمقلوب.

ابتسم لي، غير أن الانزعاج كان بادياً عليه بوضوح.

سألني: «ما اسمه؟».

أجبت: «هارفي». وهكذا انسلت الكذبة على لساني بكل سهولة، وكأنني كنت أعرف منذ البداية أن علي أن أكذبها.

سألني: «ماذا يعمل؟».

أجبته: «في مشفى».

سألني: «أهو طبيب؟».

ترددت، إذ لم أكن أريد أن أتفوه بالحقيقة، فقلت له: «نوعاً ما».
سألني: «أتحبينه؟».
فاجأني سؤاله، غير أن جوابي أتى على الفور فقلت:
«أجل. لا أستطيع أن أتخيل الحياة من دونه».
فقال لي: «قد يكون الأمر مجرد فقر في الخيال في بعض الأحيان، بالرغم من أن...».

ابتسمت، فقد كان بوسعي أن ألتقط الإهانة في كلامه، لكنني لم أفعل. فكما تبيّن لي، كانت لكل منا كذباته الخاصة، فقلت له: «ربما». ثم وصلت القهوة: كابوتشينو لي وإسبريسو له، انتظرته ريثما أضاف السكر، ثم قلت: «لكن، ليس بالنسبة لي ولهارفي، فأنا لا أعتقد أن علاقتنا تحتاج إلى الخيال».

أخذت أحرك قهوتي، وأقول لنفسي: لعله على حق، فالأمر يبدو كذلك، ولعلي لا أستطيع أن أتخيل حياتي بدون هيو لأنه مر وقت طويل على زواجنا، ولعله قد تحول إلى طرف من أطرافي؛ إلى شيء أفترض وجوده على الدوام إلى أن أفقده، أو لعله تحول إلى ندبة؛ إلى جزء مني، فلم أعد ألاحظ وجوده، لكن أثره في الوقت ذاته من الصعب أن يمحى.

سألني: «إذاً، أهذا كل ما هنالك؟». وقد احمر وجهه وبدا متحدياً بشكل طفولي، فحولت نظري عنه، وأخذت أنظر باتجاه مكتب الاستقبال. كان هنالك زوجان قد نزلا لتوهما في الفندق، ووقفا عند المكتب. كانا أكبر منا، وكانت الحماسة بادية عليهما. كانا أمريكيين، لذا أخذا يطرحان الكثير من الأسئلة؛ إذ كانت هذه رحلتهما الأولى إلى أوروبا حسبما اعتقدت.

أدركت أنني في الوقت الذي لم يكن بوسعي فيه أن أفهم شكل علاقتي بلوكاس، لم أكن أريد لهذه العلاقة أن تنتهي؛ لأنني كنت قد بدأت أشعر بتحسن كبير خلال الأيام والأسابيع الأخيرة، وأصبحت الآن أدرك أن الأمر لا يتعلق بأكمله بمحاولة إيجاد الشخص الذي اغتال كيت.

قلت: «لم أكن أريد لذلك أن يحدث، لكن زوجي الذي هو...» وهنا كبحت جماح نفسي، فقد كنت على وشك أن أقول: والد ابني؛ بالرغم من أن ذلك لم يكن مجرد شيء لم أرد أن أخبره به، بل كان أيضاً كذبة أخرى. لذا، أخذ ينظر إليّ بترقب، فأصبحت بحاجة إلى أن أقول له أي شيء، فقلت:

«إنه الشخص الذي أنقذ حياتي».

سألني: «أنقذ حياتك؟ ممَ؟».

رفعت فنجان قهوتي ثم أعدته إلى مكانه، فقد كنت بحاجة إلى أن أشرب شيئاً ما.

اخرجي من الموضوع وانجي بنفسك؛ هكذا قلت لنفسي، ولذلك قلت له: «ربما سأخبرك بذلك في وقت لاحق».

سألني: «ما رأيك بالصعود إلى الغرفة». كان ثمة نوع من الإلحاح في صوته؛ وكأنه كان يرغب بإنهاء جملته قبل أن أتمكن من قول لا.

هتف: «ما زالت لدي غرفة».

فهززت رأسي بعدم الموافقة؛ بالرغم من أنني كنت أرغب بذلك، أرغب بذلك كثيراً. لكنني كنت أعرف أن هذا يجب ألا يحدث، ليس الآن، بعدما عرفت ما يمكن أن يحدث. وهنا أخذت أفكر في سري: اخرجي من الموضوع وانجي بنفسك. فقلت له:

«كلا، لا أستطيع».

وضع يده على الطاولة بين يدي، فلم أستطع منع نفسي، لذا وضعت يدي فوق يده وقلت: «آسفة».

أخذ ينظر إلى عينيّ مباشرة، وبدا لي متوتراً ومتردداً، ولكنه قال لي:

«جين، أعرف أننا بالكاد نعرف بعضنا، غير أن لقاءنا أشعرني بأن هذا أفضل شيء حصل لي منذ وفاة زوجتي، لذا لن أتركك بهذه البساطة».

قلت: «أخشى أن...»

سألني: «هل تعتبرين أن ما حدث البارحة كان غلطة؟».

قلت: «كلا، أبداً، إطلاقاً، إنه مجرد...»

كنت أريد أن أقول إن الأمر كان أكثر تعقيداً من مجرد غلطة؛ فالأمر لا يتعلق بي وبهيو، فهناك كونر أيضاً، وهنالك ما يجري في حياتنا جميعاً؛ بداية بوفاة كيت، وليس انتهاء بقضية هيو. لم تكن تلك الفترة سهلة، ولم يكن كل شيء يتم بيسر وسهولة.

اكتشفت أنني كنت أريد أن أخبره بحقيقة أمر كيت، إذ لعله قد يقف إلى جانبي ـ من دون أي مواربة أو تحيز ـ ويدعمني. فبما أنه فقد زوجته، يمكنه إذاً

أن يتفهم بطريقة ما الأمر الذي عجز كل من هيو وآنا وأدريان عن فهمه واستيعابه.

سألني: «مجرد ماذا؟».

لكن شيئاً ما أوقفني، فقلت:

«لا أريد أن أخاطر بزواجي».

فقال لي: «لا أريد منك أن تتركي زوجك. كل ما طلبته هو أن تصعدي معي إلى الغرفة مرة أخرى».

وهنا أغمضت عينيّ، إذ كيف لي أن أعرف أنها مرة أخرى؟ وتذكرت أنني قلت ذلك لنفسي في السابق، وذلك حينما وقع الفأس بالرأس مرة ثانية، وكذلك قلته لنفسي حينما حدث ذلك للمرة الثالثة.

ولهذا قلت له: «لا». بالرغم من أنني كنت أفكر بما قد يحصل بعد ذلك _ حتى وأنا أنطق بكلمة لا _ وذلك ونحن نستلقي معاً، ونتغطى بالملاءات. كان يمكنني أن أتخيل الغرفة، بسقفها العالي، والتيار الهوائي الذي يدفع به جهاز التكييف. كان يمكنني أن أرى لوكاس وهو نائم، وأسمع ذلك الصوت الخفيض للغاية فيما صدره يصعد ويهبط. ولسبب ما، وبالرغم من الطريق الوعر الذي سلكته لأصل إليه، أدركت أنني أشعر بالأمان معه.

لكنني سأعود إلى بيتي بعد فترة قصيرة، سأعود إلى حياتي الواقعية، سأعود إلى هيو وكونر، سأعود إلى أدريان وآنا، سأعود إلى حياة لا توجد فيها شقيقتي. ولكن، لو أنني قمت بذلك منذ البداية لكان الأمر مختلفاً؛ إذ لم أكن أعتقد أن المرارة التي سببها موتها يمكن أن تختفي، لكن لا بد أنها ستضعف؛ لأنني لم أكن سأهتم كثيراً بأمر الشخص الذي اغتالها وبأنه ما زال طليقاً، بل سأنشغل عوضاً عن ذلك بالتفكير في هذه اللحظة؛ حينما يبدو كل شيء مفعماً بالحياة وبعيداً عن التعقيد، وحينما تتضاءل أحزاني وآلامي وتنكمش، لتتكثف وتتحول إلى هذا الشيء، إلى هذه الحاجة، إلى هذه الرغبة؛ إلى وجودي معه ووجوده معي. وإذا قمت بعلاقة حميمة معه مرة أخرى فهذا على الأقل يعني أن هذه اللحظة القصيرة ستتكرر، حيث سيختفي الماضي والمستقبل، ولن يبقى أي شيء آخر في العالم سوانا، وستكون لحظة سلام قصيرة.

أمسك يدي، وتكلم بنعومة:

«تعالي، هلمي، فلنصعد إلى الأعلى».

القسم الثالث

الفصل السابع عشر

وصلت آلة التصوير الجديدة الخاصة بي. كانت من نوع كانون، ومزودة بعدسة واحدة، وذات صورة منعكسة، ولم تكن الأحدث من نوعها، لكنها كانت أصغر حجماً وأخف وزناً من تلك التي بقيت أستعملها طيلة السنوات القليلة الماضية. كنت قد بحثت عنها عبر الإنترنت وطلبتها منذ بضعة أيام. لم أكن بحاجة إليها فعلاً، بل كان الأمر نوعاً من الإسراف. لكنني كنت أريد أن أستغلها، وأن ألتقط المزيد من الصور في الشارع كما كنت أفعل في السابق. وقد كان الأمر من اقتراح هيو الذي اشتراها لي بمناسبة ذكرى ميلادي، وبدا عليه السرور حينما قدم لي العلبة يوم السبت.

فتحت العلبة في وقت متأخر من ذلك اليوم، وذلك حينما كنت في الطابق العلوي بمفردي، ثم أخرجت آلة التصوير ورفعتها لأصور شارع آبر ستريت، والمنطقة الممتدة حول سوق دار العبادة، وكذلك منطقة آنجل. أخذت أجرب بعض اللقطات التجريبية. وحينما قربت آلة التصوير من عينيّ، بدا لي ذلك أمراً بديهياً. وعندما نظرت عبر عدستها، شعرت بأن هذه هي الطريقة التي أفضّل أن أرى بها العالم، كنت أحب أن أرى كل شيء ضمن إطاره.

أخرجتها مرة أخرى بعدما علقتها برقبتي، وأضفت لها عدسة تقريب كنت قد طلبتها في الوقت ذاته. إن التقاط الصور أثناء الحركة يختلف تمام الاختلاف عن التقاطها في الوضع الثابت. إذ يتعين عليّ أن أحدد موضع اللقطة المحتملة بين الفوضى، ومن ثم عليّ أن أنتظر اللحظة المناسبة؛ وكل ذلك يتم أثناء محاولتي أن أبقى غير واضحة للعيان وبعيدة عن ملاحظة الآخرين. كانت اللقطات التي أخذتها يوم السبت سيئة للغاية؛ وذلك لأنني كنت مشوشة، وهذا ما جعلني أشعر بأن مهارتي قد ضعفت بسبب قلة الاستخدام؛ تماماً كما يحدث للمطرب الذي قضى سنوات في صمت مفروض عليه.

بالرغم من ذلك، حاولت ألا أسمح لخيبة الأمل بالتسرب إلى نفسي،

وأخذت أقول لنفسي إنني حالما أستعيد الثقة بمهارتي فلا بد لي من إيجاد الموضوع المناسب. أما حالياً، فكل ما أحتاج إليه هو أن ألتقط صوراً وأن أطور مهارة عيني. ثم إن المتعة في تلك اللقطات كانت تكمن في عملية التقاطها، وليس في الشكل الذي تخرج به.

لكن، بعد ذلك كانت الأمور تتم دوماً بتلك الطريقة. أخذت أفكر بالصور التي التقطتها في برلين؛ كانت العملية سهلة هناك، إذ كانت الصداقات التي كوّناها عميقة، وأخذ الناس ينجذبون إلينا، وسرعان ما أصبح مكان إقامتنا ملجأ لمن فقد أسرته ونبذه الجميع. كانت شقتنا تغص بالفنانين والعازفين، وغيرهم. كانوا يأتون إلينا لقضاء بضع ساعات أو بضعة أيام أو أشهر، وقد اكتشفت حينها أنني كنت أرغب بتوثيق كل ذلك؛ فقد كنت مبهورة بهم، إذ كانوا بالنسبة إلي عبارة عن أشخاص يتمتعون بهويات متغيرة. فقد كانوا هم من يختارون هوياتهم بأنفسهم، من دون القيود التي تفرضها توقعات الآخرين. في البداية، أخذ بعضهم يعاملني بريبة، لكنهم سرعان ما أدركوا أنني كنت أحاول فهم سلوكهم وتوثيقه؛ بعيداً عن محاولة تقييدهم ومطالبتهم بإجابات محددة. وهكذا بدأوا يثقون بي، وتحوّلوا إلى عائلة بالنسبة إلي.

ودائماً في المركز كان ماركوس يظهر. فقد كنت أصوره بطريقة مهووسة، حيث ألتقط له صوراً حينما ينام، أو يأكل، أو يجلس في الحوض المليء بالماء الفاتر الذي ينتهي به الأمر وهو يبدو كالطين، وكذلك وهو يعمل على لوحة قماشية، أو يرسم الشوارع التي دمرتها الحرب ضمن ما كان يعرف باسم المنطقة الشرقية. كنا نقوم بإعداد طعام العشاء للجميع؛ حيث كنا نقدم أوعية ضخمة مملوءة بالمعكرونة إلى جانب صحون الطماطم والخبز، وكنت ألتقط صوراً لكل ذلك. ذهبنا ذات مرة لحضور استعراض الحب(1)، فانتشينا ورقصنا على أنغام الموسيقى الإلكترونية مع غيرنا من المهووسين، وكنت ألتقط الصور طيلة الوقت، وكأنني كنت أعتبر أنني لا أعيش الحياة بدون توثيق كل لحظة فيها.

واليوم وصلت إلى جسر الألفية. كان الوقت ظهراً، والجو حاراً. وأثناء سيري في ذلك المكان بدا لي أن بخار المدينة يتصاعد من الشوارع. ولكن هنا، على الجسر على الأقل، ثمة نسيم يهب علينا.

---

(1) مهرجان للموسيقى الراقصة. (المترجمة)

انحنيت لأقلل من المساحة التي يحتلها جسمي قدر الإمكان، ثم نصبت معداتي. شربت بعض المياه من قارورة جلبتها معي في طريقي إلى هنا، ثم عادت يدي إلى آلة التصوير الخاصة بي. كنت أقوم بمسح للوجوه بحثاً عن لقطة، لذا كنت أنتظر.

أنتظر ماذا؟ الشعور بالآخرين والإحساس بهم، الإحساس بالاستثنائية التي تكمن في الأشياء العادية. لكنني لم أر ما يلفت انتباهي طيلة فترة طويلة من الزمن؛ إذ إن نصف الأشخاص على الجسر كانوا من السياح الذين يرتدون سراويل قصيرة وقمصاناً خفيفة. أما النصف الآخر فقد أغرق العرق بزاتهم الرسمية. لكنني قمت بالتقاط بضع لقطات على أية حال، ثم غيّرت الوضعية، وبعدها رأيت شخصاً لفت انتباهي. كان هناك رجل يمشي باتجاهي، وكان في أواخر العقد الثالث من عمره حسبما أظن، وكان يرتدي قميصاً وسترة بدون ربطة عنق. في البداية، بدا لي ذلك الشخص غير جدير بالملاحظة والاهتمام، ولكنني بعد ذلك لاحظت فيه شيئاً، كان شيئاً غير ملموس، ولكن العين لا يمكن أن تخطئه. وعندها شعرت برعشة، وأصبحت حواسي متيقظة، فقد كان ذلك الرجل مختلفاً عن الآخرين؛ وكأن لديه جاذبية، وكأنه كان يحرك الهواء حينما يمر عبره، لذا رفعت آلة التصوير إلى عيني، ووضعته ضمن إطار العدسة، ثم قربت الصورة أكثر، وبعدها ركزت عليه، ثم انتظرت، ثم قمت بإعادة التركيز حينما أخذ يقترب مني. كان ينظر إليّ مباشرة؛ إلى أسفل العدسة. وبالرغم من أن تعابير وجهه لم تتغير، إلا أن ثمة شيئاً ما قد ربط بيننا. كان يبدو لي وكأنه ينظر إليّ ولا ينظر إليّ في آن معاً. كنت كشبح يومض ويتمتع بخاصية الشفافية. ضغطت على زر إغلاق مصراع عدسة الكاميرا، ثم انتظرت لمدة ثانية قبل الضغط عليه مجدداً، وبعد ذلك كررت تلك العملية.

لكنه لم يلاحظ أي شيء، بل نظر بعيداً فوق كتفي باتجاه جسر البرج، ثم تابع سيره. وبعد لحظة، كان قد اختفى من أمامي.

بقيت هناك لمدة أطول، لكنني كنت أعرف ما يجب علي فعله؛ حتى من دون مشاهدة الصور التي التقطتها. فقد قمت بالتقاط الصور، وحان وقت الرحيل.

مررت بالبهو ثم صعدت إلى الغرفة، ففتح لي لوكاس الباب وهو يلف

جسده بالمنشفة، وكان ذلك أمراً عادياً. ثم صب لنفسه كأساً من الشراب، وصب لي مياهاً غازية. وحينما أخذنا نتبادل القبل ناولني كأسي. أخذت أستنشق رائحته؛ تلك الرائحة العميقة لعطر ما بعد الحلاقة الذي يستعمله والتي تشبه رائحة الخشب، وذلك الأثر الخفيف لرائحة جسمه الحقيقية التي تكمن خلف تلك الرائحة، فابتسمت، ثم وضعت آلة التصوير الخاصة بي فوق الطاولة، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أحضرها معي إلى هنا.

سألني: «أتعملين بنصيحتي؟».

قلت: «أجل. كانت هدية مبكرة أهديتها لنفسي بمناسبة ذكرى ميلادي». وكنت أكذب في ذلك.

قال: «هل حانت ذكرى ميلادك؟».

أجبت: «الأسبوع القادم. في الحقيقة، يوم الثلاثاء القادم».

وهنا قبلني مرة ثانية، فقد تحول يوم الثلاثاء إلى يوم خاص بنا، ولم نفوت أي يوم من أيام الثلاثاء منذ التقينا وحتى الآن، لكننا كنا نجري محادثات عبر الإنترنت خلال أيام الأسبوع الأخرى. لقد بدا لي ذلك مناسباً إلى حد ما، ولكن ليس تماماً؛ فقد كان كل منا يشارك الآخر حياته، حيث يصف كل منا ما يحب أن يفعله مع الآخر حينما نكون معاً، وكنا نخبر بعضنا بأكثر الخيالات خصوصية، إلا أن يوم الثلاثاء كان موعد لقائنا.

قال لي: «كان يجب علي أن أعرف ذلك، يجب علي أن أعرف يوم ميلادك».

ابتسمت، إذ كيف له أن يعرف طالما أنه أمر لم أخبره به، واحتفظت به لنفسي، إلى جانب اسم زوجي الحقيقي، وحقيقة أن لدي ابناً؟

لكنني كنت قد أخبرته بالحقيقة بخصوص موضوع كيت.

لم تكن لديّ أية نية بإخباره بذلك الموضوع. ولكن، حينما أخبرني في الأسبوع الماضي كيف أنه عرف منذ اللحظة الأولى التي بدأنا فيها بالتحاور مع بعضنا بأنه يريد أن يلتقيني، شعرت حينها بالذنب.

ولكن، كيف كان علي أن أرد؟ هل كان من الممكن أن أقول له: لقد التقيتك فقط لأنني اعتقدت أن لك صلة بشقيقي المتوفاة؟

لذا، عوضاً عن ذلك قلت له: «إن الأمر ليس بهذه البساطة». ثم قررت أن

أكون صادقة معه، وأن أخبره بالحقيقة، فقد شبعنا من الكذب، ولهذا قلت له: «لدي أمر أريد أن أخبرك عنه، أتتذكر شقيقتي التي حدثتك عنها؟ إنها لم تمت منتحرة، بل مقتولة».

بدت عليه نظرة الصدمة المعهودة، ثم مد يده ليلمسني، لكنه تردد ثم قال: «لكن... ؟».

وهنا أخبرته بكل ما جرى، وبأن كل ما سلب منها هو مجرد قرط، ووصفته له أيضاً، إذ كان عبارة عن شكل دمعة ذهبية تشتمل على تصميم لشبكة الأحلام المزينة بأرياش ذات لون فيروزي. ثم أخبرته عن الرحلة التي قمت بها لزيارة آنا، وقائمة الأسماء التي وجدتها بين أشياء كيت، والمرة الأولى التي سجلت فيها الدخول عبر موقع encountrz.

سألني: «أهذا ما دفعك للمجيء لرؤيتي؟».

أجبته: «للأسف، نعم».

قربني منه ثم قال: «إنني أتفهم ذلك يا جين، وقد يكون بوسعي مساعدتك».

هتفت: «مساعدتي؟ كيف؟».

رد: «ثمة مواقع أخرى ربما تكون أختك قد تسجلت فيها أيضاً. سأحاول أن أجدها هناك».

بدت لي الفكرة مغرية، لكنها بدت عبثية أيضاً، كما أنني لم أكن متأكدة من كوني قادرة على خوض تلك التجربة مرة أخرى، لذا قلت له إنني سأفكر بالموضوع.

والآن، ها هو يقف أمامي، ويقول لي إنه لم يعرف متى تكون ذكرى ميلادي، ثم يهتف: «سنقوم بشيء مميز». وبعد ذلك، أمسك بآلة التصوير الخاصة بي وقال: «هل كنت تقومين بالتقاط الصور؟».

مميز؟! أخذت أتساءل عما يعنيه بهذه الكلمة، فهل سنخرج لتناول الطعام في مطعم؟ أم سنحضر عرضاً مسرحياً؟ بدا لي كل ذلك سخيفاً.

قلت له: «اعتقدت أن الأوان قد حان، فقلت لنفسي إنه ينبغي لي أن أجرّب لأرى إذا كنت لا أزال أحتفظ بتلك المهارة».

سألني: «وهل ما زلت تحتفظين بها؟».

هززت كتفي بالرغم من أنني بقيت متواضعة؛ إذ شعرت اليوم وأنا على

الجسر بأنني عدت إلى سابق عهدي؛ حينما كنت في برلين ألتقط الصور طيلة الوقت. بدأت أشعر بأنني أستعيد موهبتي، فكان الأمر أشبه بالعودة إلى الوطن.

رأيته يرفع آلة التصوير ثم يقول: «أيمكنني أن أرى ما التقطته؟».

فارتشفت القليل من الشراب وقلت: «بوسعك، إن أحببت».

أدار آلة التصوير؛ ثم أخذ ينقر على الصور، ويهز برأسه وهو يفعل ذلك ويقول: «إنها رائعة».

قلت له: «لقد أحضرت لك بعض الصور القديمة التي التقطتها، ألم تطلب ذلك؟».

وهنا وضع آلة التصوير جانباً وتقدم نحوي.

سألته: «ألا تريد أن تراها الآن؟».

أخذ يقبلني وهو يقول: «لاحقاً». ثم قبلني مرة أخرى وقال: «يا إلهي! لقد اشتقت لك». ثم أزاح المنشفة عن خصره، فلمحتالجزء الأسفل من جسده.

قلت له: «وأنا اشتقت لك أيضاً». وبالرغم من أنه لم يمضِ سوى أسبوع واحد على آخر مرة كنت فيها في غرفة كهذه، ورغم أننا كنا نتحدث عبر الإنترنت يومياً، إلا أنني كنت أعني ما أقوله.

أخذنا نتبادل القبل مجدداً، ثم شعرت بعدها أن كل شيء سيكون على ما يرام مرة أخرى.

بعد ذلك، وقف أمام النافذة، فرفعت عصفة ريح الستائر. وعندها، استطعت أن ألمح الشارع في الخارج، فقد كنا في الطابق الأول. رأيت السماء والقليل من الغيوم، وسمعت همهمة الشارع، والمرور، والأصوات. كان الجو في الغرفة حاراً ودبقاً.

سمحت لعينيَ بأن تجولا فوق منحنيات جسده، ورقبته، وظهره، ومؤخرته، فلاحظت عيوبه، والتفاصيل التي لم أكن أراها في آلة التصوير، وكنت أنساها بعد كل مرة نلتقي فيها. لاحظت الشامة على رقبته، وندبة التطعيم على كتفه والتي تماثل ندبة هيو، وكذلك تلك اللطخة الحمراء التي تمثّل وحمة في أعلى فخذه. كان قد مضى شهر على علاقتنا، إلا أن هذه التفاصيل بقيت تفاجئني، لذا تناولت آلة التصوير الخاصة بي، ورأيته يستدير حالما نقرت على مصراع

الكاميرا. وحينما اكتشف أنني قد التقطت له صورة، افتر فمه عن نصف ابتسامة كنت قد اعتدت أن أراها على وجه ماركوس.

قلت له: «عد إلى السرير، ودعنا نشاهد هذه الصور».

استلقينا جنباً إلى جنب، وكان بيننا المغلف الذي أحضرته معي، وقد خرجت منه محتوياته من الصور؛ من الأعمال التي قدمتها، من الماضي الذي عشته. كانت مجموعة من الصور اللامعة التي كان عرضها 10 سم وطولها 8 سم.

رأيته يحمل صورة لماركوس، ثم يسألني:

«ما هذه؟».

إنها ماركوس في المرآة، وأخذت أخبره القصة ذاتها التي أخبرتها لآنا، ولعلها كانت أطول أو أقصر. ثم علّقت قائلة: «إنه حبيبي السابق، وقد التقطت هذه الصورة في حمام الشقة التي كنا نعيش فيها».

سألني: «في برلين أيضاً؟».

أجبت: «نعم». ثم أخذت أخبره عن الوقت الذي أمضيته هناك، وعن حالي في تلك الفترة، وكيف كنت قبل أن أتحول إلى الإنسانة التي يراها أمامه اليوم.

سألني: «كنت سعيدة هناك، أليس كذلك؟».

أخذت أهز كتفي بلا مبالاة، لكن ذلك لم يكن جواباً.

فقلت: «في بعض الأوقات».

سألني: «ولماذا تركت المدينة؟».

تنهدت ثم استدرت لأنام على ظهري، وأخذت أنظر إلى السقف، وإلى المنحنيات التزيينية في أعمال الجص. وحين لم يأته جوابي، وضع الصورة جانباً واقترب مني، إلى أن أصبح بجانبي بالضبط، فأخذت أحس بدفء جسده، ولا بد أنه قد أحس بالصراع الذي يعتريني.

سألني: «متى غادرت؟».

كان سؤاله سهلاً، لذا أجبت عليه مباشرة بقولي: «ذهبت إلى هناك في منتصف التسعينيات، وبقيت لمدة ثلاث سنوات أو أربع».

فضحك وقال: «كان ذلك حينما كنت في المدرسة...».

وضحكت أيضاً ثم قلت: «أكنت كذلك؟».

فأخذ يقبلني ويقبل كتفي وهو يقول: «إنه شيء رائع أن أحب امرأة أكبر مني».

وهكذا ظهرت تلك الكلمة مرة ثانية: الحب، إذ لم نكن نستخدمها لأنها كانت مفهوماً نقترب منه بشكل غير مباشر، كأن نقول مثلاً: أحب أن... أحب طريقتك في...

لكننا مع ذلك لم نفقد ذلك الفعل الذي يصف ذلك المفهوم، إلا أننا لم نكن قد وصلنا بعد إلى كلمة: أحبك.

قلت: «وهكذا، كنت أتسكع في المقاهي والنوادي، وكنت أعيش في شقة صغيرة للغاية».

سألني: «في شرق برلين، أليس كذلك؟».

أخذت أهز رأسي إيجاباً وأنا أقول: «كروزبيرج».

فابتسم وقال: «مدينة المغنّيين باوي وإيجي بوب».

قلت: «أجل، بالرغم من أنهما ظهرا قبل سنوات طويلة من ذهابي إلى هناك. كنت أقوم بالتقاط الصور، وبدأ عملي كمشروع صغير، إلا أن الناس أحبوا ما كنت أقدمه. أتعرف ماذا حصل؟ لقد قابلت ذلك الشاب الذي كان يدير معرضاً، وكان محرر الصور في إحدى المجلات قد سمع عني، وأراد أن يستخدمني لالتقاط بعض الصور، ومن هنا بدأت مرحلة الجنون؛ فدخلت عالم المعارض وحتى الصور التي كانت تؤخذ للأزياء». ثم توقفت عن الكلام قليلاً؛ فقد كنت أقترب من القصة الآن، من ذلك الشيء الذي أردت أن أخبره عنه، من ذلك الشيء الذي قد لا يعجبه، ثم تابعت: «كان ذلك في منتصف التسعينيات، مع موضة هيروين شيك».

لكنه بقي صامتاً.

فتابعت: «وهكذا، كان هنالك الكثير من الصرعات من هذا النوع».

سمعت صوت نبضة، وبعدها سأل:

«هيروين؟».

كنت أود لو كان صمتي يكفي لكي يكون إجابة، لكنه لم يكن كافياً؛ إذ كان علي أن أخبره، لذا قلت:

«نعم».

«أكنت تتعاطين الهيروين؟».

أخذت أنظر إليه، لكنني لم أستطع قراءة تعابير وجهه غير المفهومة، فتساءلت في سري: هل من الصعب تصديق ذلك؟ كان ثمة شيء ما داخلي يرغب بالنهوض، ليدافع عني، وكنت أريد أن أقول له: الكثير من الناس كانوا يتعاطون تلك المادة، وما زالوا كذلك، فما العيب في أن أكون كذلك؟

لكنني لم أفعل، بل أجبرت نفسي على أخذ نفس عميق. بيد أنني كنت أرغب بالرد بدلاً من إظهار ردة فعل، ولهذا قلت له: «كنا جميعاً نتعاطى هذه المادة». ثم استدرت لأواجهه وتابعت: «أقصد أنني لم أقم بذلك في بداية الأمر، بل مضيت نحو ذلك مع ماركوس. فقد كان فناناً، أي رساماً بارعاً جداً، وموهوباً جداً. كان أكبر مني بقليل، وقد التقيته حينما كان في كلية الفنون، فكان هو من شجعني على احتراف التصوير الضوئي. وحينما انتقل إلى برلين ذهبت معه». ثم أومأت باتجاه الصور التي كانت بيننا وقلت: «ثم صادفنا تلك المجموعة».

أو هي التي صادفتنا؟!

سألني: «هل كانت مجموعة سيئة؟».

قلت: «كلا». وظهر لدي مرة أخرى ذلك الحافز الذي كان يدفعني للدفاع، فقلت: «أبداً، لم أقل ذلك على الإطلاق، بل كانوا أصدقاء لنا، وقد اعتنوا بي». وهنا أخذت أفكر بفروستي والآخرين؛ إذ لم يكونوا من متعاطي المخدرات، أو حتى من المدمنين عليها، ليس بالطريقة التي يمكن أن ينظر هو بها إلى ذلك المصطلح، ولهذا تابعت وقلت: «لم تكن تلك المجموعة سيئة، بل كانوا مجرد... كنا فقط... مختلفين، حسبما أعتقد. لم نكن مناسبين للأجواء التي تحيط بنا، وهذا ما جذبنا إلى بعضنا».

بعد ذلك ترددت، فقد كان الأمر أسهل مما كنت أظن؛ إذ تحولت عادة تعاطي الهيروين كل يوم عطلة إلى عملية تتكرر كل بضعة أيام، ثم أصبحت تحدث كل يوم. كانت العودة بالزمن إلى تلك الفترة مخيفة. فبالرغم من أن جميع ذكرياتي عن تلك المرحلة لم تكن سيئة، إلا أنها بدت لي قاسية، وشعرت بأن أحداً ما يسحبني للخلف، ومن ثم للأسفل؛ إلا أن ذلك لم يكن المكان الذي أستطيع أن أبقى فيه لفترة طويلة.

قلت له: «كانت المخدرات مجرد جزء من كل ذلك».

فرد: «إذاً، ما الذي حدث؟».

سألته: «حينما غادرت؟».

أجاب: «نعم، فقد قلت لي منذ أسبوع إن زوجك «أنقذ حياتك».

قلت: «لقد حدثت الكثير من الأمور». وكنت أحاول أن أكون حذرة؛ إذ لم أكن أريد أن أطلعه على كل شيء، ومع ذلك كان علي ألا أكذب، فقلت: «كان يتوجب علي أن أخرج من تلك الدائرة وبسرعة». ثم ترددت، وتلعثمت بالاسم الذي أعطيته لزوجي فقلت: «وكان هارفي هناك لمساعدتي».

أخـذ تفكيـري يعـود إلى تلك الفترة، فتذكـرت عندما كنت في المطب مع فروسـتي، وكانت تعد لي القهوة، وتحتسـي الشـراب من فنجان كبير، ولم أكن أعتقد أنها ستأوي إلى الفراش؛ لأن الوقت كان وقت احتفال، وقد كنا في الليلة الماضيـة نسـير مـع أصدقـاء جوهان لنحتفل في المقاهـي، فعادت مجموعة من الأشخاص معنا إلى حيث كنا نقيم. إلا أن المكان أصبح هادئاً في ذلك الوقت؛ لأن معظـم الأشـخاص إمـا غـادروا ليتابعـوا احتفالهم، أو كانـوا يغطون في نوم عميق.

كان ماركـوس فـي الطابـق العلـوي يعـزف علـى الغيتـار الـذي تركـه أحد الأشـخاص منـذ بضعـة أشـهر. وفجـأة، قالت لي فروسـتي: «إليك هـذه». وهي تناولنـي فنجـان القهـوة ثـم تابعت قائلة: «ليس لدينا حليـب». وكنت قد اعتدت على هذا الوضع، إذ لم نكن نشتري الحليب وقتها.

قلت لها: «أشكرك».

سألتني: «كيف حال ماركي؟».

أجبـت: «إنـه بخيـر، حسـبما أعتقـد؛ بالرغـم مـن أن أفـراد عائلتـه قد جن جنونهم».

علقت بقولها: «مرة أخرى؟».

قلت: «إنهم يريدون منه أن يعود إلى البيت».

أخـذت فروسـتي تتظاهـر بأنهـا تلهث رعباً، ثم قالت: «ماذا؟! أسـيبتعد عن كل هذا؟ ولكن، لماذا؟». وبعدها ضحكت وعلقت: «أعتقد أنهم لا يستوعبون».

أخذت أهز رأسي موافقة وأقول: «أجل، إنهم لا يستوعبون».

سألتني: «هل التقيتهم؟».

فوضعت فنجاني جانباً، وقلت:

«كلا، ليس بعد. فهو يعتقد أن والده يمكن أن يأتي إلى هنا، وهو يريد أن نعود ثلاثتنا إلى الوطن، ويرى أنه يتوجب علينا أن نصر على موقفنا، فهو يريد أن يظهر لهم أنه قد تعافى».

أمالت فروستي رأسها وسألتني: «أهو كذلك؟».

قلت لها: «نعم». وكنت وقتها أقول نصف الحقيقة فقط، فقد كنا نتخلص من الإدمان معاً، وكنا نعاني من جراء ذلك؛ فقد كان الأمر أشبه بالغرق في العرق، مع إقياء وإسهال وتشنجات في المعدة كانت حادة لدرجة أننا كلينا كنا نئن تحت وطأة الألم. كانت عظامنا تؤلمنا، ولم نكن نشعر بالراحة خلال النوم. كنت أشعر بأنني أحترق؛ إذ لم يكن هنالك شيء يمكنه أن يساعدني. وطيلة الوقت، كنا نعرف أن أي محاولة لتناول الشراب مرة أخرى لا بد أن تقضي على الألم، وكانت الفكرة تخطر ببالنا، إلا أن إرادة كلينا كانت قوية، فساعدنا بعضنا بعضاً حينما وقعنا تحت خطر أن تسوء الأمور، واستطعنا أن نشفى من الإدمان لبضعة أسابيع. وفي ذلك الحين كان والد ماركوس في طريقه إلينا، وكان ماركوس يتوسل إلي لنتناول الكحول للمرة الأخيرة. وفي النهاية وافقت، لمرة واحدة فقط، واتفقنا على أن نقوم بذلك في وقت متأخر من ذلك اليوم، أو في صباح اليوم التالي حينما تشرق الشمس، لنودع الإدمان نهائياً.

ومع ذلك لم أخبر فروستي بكل ذلك.

بل قلت لها: «لقد تعافينا معاً». لكنها لم تنبس بكلمة، ثم ابتسمت، وقالت: «هذا جيد». ثم عمدت إلى تغيير الموضوع. أنهينا شرابنا، ثم تحدثنا حول الاحتفال الذي كنا نخطط لإقامته خلال عطلة نهاية الأسبوع، فسألتني: «أستساعدينني في التحضير للحفلة؟». فقلت لها: «أجل، أجل، بالطبع سأفعل».

قالت لي: «رائع». ثم حدث ما حدث، وذلك عندما اجتاح فروستي شيء ما، فبدت وكأنها كانت في مكان آخر مختلف كلياً، وقد استمر ذلك لثانية فقط، ثم أخذت تنظر إليّ، وبعدها قالت:

«أين ماركي يا حلوتي؟».

لكنني لم أجب. كانت الغرفة ساكنة، وقد بقيت كذلك لفترة من الزمن، كما أن صوت الغيتار كان قد توقف.

أخذت أنظر إلى الصورة التي كانت على السرير: ماركوس في المرآة، ثم نظرت إلى لوكاس. كان يهز رأسه، فقلقت لأنني ظننت أنه لم يحبذ ذلك، وأن هذه المحادثة ستكون بداية انفصالنا، لكنه مع ذلك كان يستحق أن أكون صادقة معه، في هذا الموضوع على الأقل، ثم رأيته يمسك بيدي ويسأل: «ماذا حدث؟».

لم أكن أريد أن أعود إلى تلك المرحلة، لكنني لم أستطع تجنب ذلك. أحياناً كنت أفكر بأن ما قمت به في تلك الليلة كان المحفز الذي ساعد على وقوع ما حدث لكيت. فلو كنت قد تصرفت بطريقة مختلفة، لبقيت هي بيننا، وهنا قلت للوكاس: «تلقيت اتصالاً هاتفياً أيقظني مما كنت فيه حسبما أعتقد فغادرت، وكنت أعرف أنه عليّ أن أغادر، لكن لم يكن لدي أحد يمكنني أن ألجأ إليه، إلى أن أتى هارفي وأنقذني».

سألني: «أكنت تعرفينه قبل ذلك؟».

قلت: «أجل. فقد كان ابن أعز أصدقاء أبي، وقد التقينا حينما كنت في المدرسة، وأصبحنا صديقين. وقد كان الشخص الوحيد تقريباً الذي بقيت على تواصل معه حينما كنت في برلين. وحينما انتهى بي الأمر تلك النهاية لم أتصل بأحد سواه، وطلبت منه أن يكلم والدي بشأني؛ هكذا بدون أي مقدمات».

سألني: «وهل فعل؟».

قلت: «لقد دفع ثمن تذكرتي، وكان ينتظرني حينما ترجلت من الطائرة، وأخبرني أنه بوسعي أن أقيم عنده لبضعة أيام، إلى أن أرتب أموري...».

سألني: «وهل بقيت عنده؟».

شعرت بسورة غضب انتابتني بشكل خاطف، فقلت: «أجل، لكنك تجعل الأمر يبدو وكأنه حادث، بيد أن الحقيقة هي أنني بقيت عنده لأننا كنا نحب بعضنا وقتها».

أطرق برأسه، فأخذت أهدئ نفسي، وسررت لأنه لم يسألني السؤال المنطقي الذي يعقب ذلك وهو: وهل بقيتما كذلك؟ لأن الجواب لم يكن سهلاً. ففي ذلك الحين، كان حبنا عميقاً وواضحاً، أما اليوم فقد بات أكثر تعقيداً. كنا قد تشاطرنا الأوقات السعيدة والتعيسة، وتشاجرنا مراراً. وقد غضبت منه كثيراً، وكرهته بقدر ما أحببته، لكننا بقينا معاً . إلا أن هذا لا يعني أن الأمر لم يكن

معقداً، فقد استقرت الأمور على مدار السنين، وتحولنا إلى شخصين مختلفين، ولهذا لم يكن بوسعي أن أختصر كل ذلك ببساطة بعبارة: نعم، ما زلت أحبه. أو لا، لم أعد أحبه.

قال: «ثم التقيتني».

فحبست أنفاسي وقلت: «نعم».

كانت الغرفة ساكنة، لكنني كنت أسمع من مكان ما من بعيد تلك الأصوات التي تتردد في أجواء الفندق، مع أصوات النزلاء، والأبواب وهي تغلق وتفتح، وأصوات الضحك. ومن الخارج، كان يصل إلى مسامعنا ضجيج حركة المرور بصورة دائمة، أما في الداخل فكان كل شيء ساكناً.

استدرت لأضطجع على جانبي ولأنظر إليه وجهاً لوجه، ثم قلت: «أخبرني عن زوجتك». فأغمض عينيه، ثم تنفس بعمق، وبعد ذلك فتحهما وقال: «كان اسمها كيم، وقد التقينا في العمل؛ إذ كانت تعمل لصالح أحد العملاء، وقد أحببتها كثيراً».

سألته: «كم استمرت فترة زواجك؟».

أجاب: «لقد تم تشخيص حالتها قبل ذكرى زواجنا الأولى، وقد قرر الأطباء أنها ستعيش ما بين سنة وسنة ونصف، ولكنها توفيت بعد ذلك بسبعة أشهر».

ساد الصمت بيننا، ولم يكن هنالك شيء لأقوله، ولهذا قلت له: «آسفة من أجلك». فنظر إلي وقال: «أشكرك». ثم مد يده ليمسك بيدي، وبعدها قال: «إنني أفتقدها؛ بالرغم من أن سنوات قد مرت على وفاتها، لكنني أفتقدها». ثم ابتسم، وأخذ يقبلني، وبعدها قال: «كانت ستحبك».

فابتسمت، لكنني لم أكن أعرف نوع المشاعر التي انتابتني بفعل ذلك؛ فقد كان إحساسي بلا معنى، لأننا لم ولن نلتقي أبداً. فلو بقيت على قيد الحياة، لما كان لوكاس معي في هذه اللحظة. ولهذا بقيت صامتة لفترة طويلة، وبعدها قطعت صمتي وسألته:

«سبق لك أن قلت لي إنك ستساعدني في البحث عن حسابات أختي عبر الإنترنت».

فقال: «بالطبع. هل تودين أن أقوم بذلك؟».

كان أسبوع قد مضى على ذلك العرض الذي قدمه، لكنني كنت أفكر

فيه منذ ذلك اليوم. فقد يكون الأمر مؤلماً، ولكنه يستحق التجربة. ثم إنني لن أكون بمفردي هذه المرة، ولهذا قلت له: «أجل، إن كنت تعتقد أنه بمقدورك القيام بذلك».

أخبرني أنه سيرى ما الذي يمكنه فعله، فأعطيته اسمها؛ أي الاسم الذي كانت تستخدمه على موقع encountrz، وتاريخ ميلادها، وأي معلومات إضافية يعتقد أنها قد تفيده، فأخذ يكتب تلك المعلومات على هاتفه، وبعدها أخبرني أنه سيبذل ما بوسعه.

قال لي: «اتركي الأمر لي». بدت لي الغرفة خانقة، ومليئة بالأشباح، ولا بد أنه قد شعر بذلك أيضاً، لذا اقترح علي أن نخرج منها؛ وذلك حينما قال: «يمكننا أن نتناول الغداء أو نحتسي القهوة».

ارتدينا ملابسنا، ثم نزلنا، وبعدها غادرنا الفندق ومشينا باتجاه المحطة. كانت نقطة الالتقاء مزدحمة، لكننا وجدنا طاولة في أحد المقاهي، وكانت تلك الطاولة بالقرب من النافذة، لذا شعرت بأنني مكشوفة، إلا أن الأمر لم يكن يهمني في ذلك الوقت بطريقة أو بأخرى؛ إذ كانت نظرات الناس تتجاوزني، وكأنني غير مرئية. وهنا طلب لوكاس شراباً لكل منا.

قال لي: «هذا أفضل». ثم جلس وسألني: «هل أنت بخير؟ أعني بعد أن تحدثت عن كيم؟».

قلت: «أجل. نعم، بالطبع».

فابتسم وقال: «إنني سعيد لأنه بوسعنا أن نتحدث عن أمور واقعية؛ أمور لها أهميتها. إنني لم أخض مثل هذه التجربة من قبل».

سألته: «إذاً، ما الذي تفعله عادة؟».

فسألني: «أتقصدين مع الأشخاص الذين أتحاور معهم عبر الإنترنت؟».

فأومأت برأسي إيجاباً. عندها، أخذ ينظر نحو الأسفل ويحك كتفه بشرود، كان لا يزال مبتسماً، لذا أخذت أفكر بالخيالات الجامحة التي كنا نتبادلها.

سألته: «هل كنت تقوم بالأمور ذاتها التي كنا نقوم بها معاً؟».

أجاب: «أجل. ولكنها لم تكن بذلك الجنون الذي عشته معك». ثم أمسك عن الكلام هنيهة، وقال بعدها: «وماذا عنك؟».

كان يعرف أنني لم أمارس أي شيء من هذا القبيل، فقد سبق لي أن أخبرته

بذلك.

شرعت بالقول: «أنا وزوجي...»، لكن جملتي تبخرت فجأة فقلت: «مضت على زواجنا فترة طويلة».

سألني: «ماذا تقصدين؟».

قلت: «أعتقد أن ما أقصده هو أنني أحبه، وأريد أن أبقى قربه، ولكن...».

قال: «لكن الأمر لا يكون مثيراً معه دوماً، أليس كذلك».

لم أجب، بل تساءلت في سري: هل هذا ما كنت أقصده؟

نظرت إلى لوكاس وقلت في سري: إن الأمر أسهل معك؛ فأنا أريد أن يكون لي تأثير على الطرف الآخر. ثم إن كلاً منا يدّخر أفضل ما عنده للآخر، كما أننا لا نتشارك في ضغوطات الحياة اليومية، حتى إن تبادلنا الخسائر الكبرى في حياتنا. إذ إنني لم أجلس معك وأنت تنفس عن سخطك تجاه العائلة التي اشتكت عليك، وأنت تشتكي من أنه يتعين عليك أن تكتب رسالة اعتذار ذليلة، رغم معرفتك تمام المعرفة أنك قمت بتنبيه تلك الأسرة حول الآثار الجانبية المحتملة التي يمكن أن تترتب على تلك العملية الجراحية. كما أنني لم أحاول أن أقدم لك الدعم، وأنا على يقين من أن هذا الدعم سيذهب أدراج الرياح، وأن كل ما يمكنني قوله أو فعله لن يجدي نفعاً.

قلت: «ليس دائماً».

سألني: «لكنك كنت مخلصة له دائماً، أليس كذلك؟».

أخذت أفكر ببادي في البيت الصيفي، فأجبت: «نعم، إلى حد كبير».

فابتسم، وكانت ابتسامته توحي بشيء داعر.

قلت: «لم يكن الأمر مثيراً حقاً».

فقال: «أخبريني».

قلت: «لقد ظهر ذلك الرجل مؤخراً».

فعدل من جلسته، وقمت أنا بتناول فنجان قهوتي ثم قلت:

«إنه صديق زوجي». وهنا أخذت أسترجع ما حدث في حفلة العشاء؛ إذ كنت أريد أن أروي للوكاس قصة ما، فقلت: «اسمه بادي، وقد بقي يلاطفني لفترة».

سألني: «أيلاطفك؟ بأي طريقة؟».

قلت: «حسناً، حينما كنا نجتمع كان يضحك على النكات التي أرويها دوماً، ويثني على ما أرتديه من ثياب، أقصد هذا النوع من الملاطفة».

فهز رأسه، وبعد ذلك سمعت صوتي وأنا أقول: «اعتقدت أيضاً أنه يمكنه أن يقوم بملاحقتي وتتبع خطاي».

سألني: «ملاحقتك؟! كيف؟».

قلت: «لقد ظهر رجل مقابل بيتي في إحدى الليالي، حينما كنت أستعد للنوم».

فقال: «لقد أخبرتني بذلك».

أجل، لقد فعلت. ويومها قال لي إنه يتمنى لو كان باستطاعته أن يحميني.

سألني: «وهل تعتقدين أنه هو؟».

بالرغم من أنني كنت أعرف أن ذلك الرجل الذي كان يظهر في الشارع ليس بادي، وأنه لم يكن لذلك الرجل أي وجود على الإطلاق، بل كان الأمر مجرد خيال من خيالاتي الخصبة؛ نتيجة حالة الأرق التي كنت أعاني منها، إلا أنني سمعت صوتي وأنا أقول له: «نعم».

وهنا لمعت عيناه وتوسعتا، وبدا لي مسروراً إلى حد ما، فأخذت أفكر بما سبق أن قاله لي: لن أسمح لأي شخص بأن يؤذيك.

فشعرت بأنني بأمان، وأن هناك من يحميني.

ولكن، هل هذا هو السبب الذي دفعني لإخباره بأنني أعتقد أن ذلك الرجل هو بادي؟ هل فعلت ذلك لأنني أريد أن أستعيد ذلك الإحساس مرة أخرى؟

قلت: «ولقد قام أحدهم برمي بعض البطاقات عبر فتحة الرسائل أيضاً».

سألني: «وما هي تلك البطاقات؟».

فأجبته: «إنها بطاقات كتلك التي تضعها بائعات الهوى في كبائن الهاتف العامة».

أخذ يحدق بي، فسألت نفسي: هل أثارته الفكرة؟

سألني: «أتعتقدين أنه هو من فعل ذلك؟».

وهنا شردت أفكاري، وأخذت أفكر ببادي ومحاولته الخرقاء لتقبيلي؛ إذ لا بد أنه سيشعر بالغيظ حين يعرف بتلك الأكاذيب التي اختلقتها عنه، لكنه لن يعرف بها مطلقاً.

قلت: «ربما. فقد حاول أن يقبلني، و...»

سألني: «متى؟».

قلت: «أتذكر تلك الحفلة، عندما كنت أنت في حفلة الزفاف؟ لقد حاول تقبيلي يومها، وأخبرته أنني لن أقيم علاقة معه أبداً، لذا أعتقد أنها طريقته في الانتقام مني».

سألني: «هل بادلته القبلة؟».

تذكرت أننا كنا طيلة الوقت الذي أمضيناه في التحاور عبر الإنترنت نتحدث حول الأوهام الجامحة ذاتها. أليس هذا مثل ذاك؟

قلت: «كلا، لم أرغب بذلك؛ فقد فرض نفسه عليّ».

رد: «الوغد! لماذا لم تخبريني بذلك؟».

أجبت: «لأنني شعرت بالخجل».

سألني: «بالخجل!؟ ولماذا؟».

قلت: «لأنه كان بوسعي أن أقول لا».

سألني: «ألم تفعلي ذلك؟».

قلت: «بلى، بلى، فعلت». ثم أخذت أنظر إلى سطح الطاولة، وبعدها أردفت: «لا أعرف، ربما كان بوسعي أن أدافع عن نفسي بضراوة أكبر».

أمسك بيدي ثم قال: «أخبريني أين يسكن».

سألته: «لماذا؟».

أجاب: «يجب ألا ينجو بفعلته الغبية. يجب ألا ينجو أحد بفعلة كهذه، سأكلمه بهذا الشأن».

سألته: «وماذا ستقول له؟».

رد: «سأفكر بشيء ما لأقوله له».

أخذت أفكر به وهو يطرق باب بادي، إلا أن الفكرة المتخيلة اختفت كحلم انكفأ على نفسه وتحوّل إلى شيء مرعب، وهنا رأيته يقف فوق جثة كيت.

صرخت: «كلا». وحاولت أن أبدد تلك الصورة، لكنها أبت إلا أن تبقى.

سألني: «هل أنت خائفة؟».

قلت: «كلا، أبداً، أنا بخير».

وهنا رفع يدي نحو شفتيه، وقبلها ثم قال: «أريد أن أحميك». وبعدها، نظر

إلى عينيّ مباشرة وقال: «سأعتني بك إن كنت خائفة».

وهنا سمعت نقراً لشيء ما في الغرفة، فأخذت أفكر بالأمور التي أخبرته عنها، والتي كنت أرغب بالقيام بها، لكنني لم أفعل.. أخذت أفكر بالأمور التي كنت أرغب في أن تحصل لي، فأصبح جو الغرفة مفعماً بالرغبة.

قلت: «أعرف».

سألني: «هل أنت خائفة؟».

رفعت بصري نحوه، فأصبح الحبل بيننا مشدوداً، وبدا لي أن بشرة يده كانت تنبض بالطاقة، وأدركت حينها أنني أريده وأنه يريدني، وأنه كان يريد مني أن أكون خائفة. وبما أنه كان يرغب بذلك، فقد كانت تلك رغبتي أيضاً.

قلت: «أجل». وكنت أهمس بذلك، فاقترب مني أكثر وهو جالس على مقعده، ثم قال: «وأنا خائف جداً».

كان قد أخفض صوته أيضاً؛ بالرغم من أنه لم يكن في المقهى حينها سوى شخص واحد؛ كان مسافراً وحيداً، معه حقيبة، وكان جالساً يقرأ.

سألني: «ما الذي تعتقدين أن هذا الرجل المدعو بادي يريد أن يفعله بك؟ هذا إن تمكن من ذلك؟».

بدأت حالة الإثارة لديّ تنبض وتزداد. كانت شيئاً موجوداً في داخلي، شيئاً عضوياً يمكنني أن ألمسه، وأن أشعر به، كانت شيئاً بدأ يفتح أبوابه.

فتحت فمي لأجيب، لكن الكلمات لم تخرج؛ إذ لم تبقَ لدي سوى الرغبة، فابتعد عني، لكنه بقي ممسكاً بيدي حينما قال: «هلمي».

دفع بي إلى داخل حجرة المرحاض وأقفل الباب. كانت تصرفاته مختلطة؛ إذ أخذ يقبلني ويدفعني ويحملني، فاستسلمت لإرادته ولأي شيء كان يحدث وقتها.

هتفت: «لوكاس...» لكنه أسكتني بفمه، ودفع بي نحو الجدار قائلاً: «ماذا تعتقدين أنه قد يفعل بك؟ أهذا ما سيفعله؟».

حاولت أن أومئ برأسي، إلا أن ذراعه كانت حول رقبتي.

أخذت أفكر: أليس هذا ما جرى مع كيت؟ أليس هذا ما شعرت به؟

همس لي: «أخبريني، أتريدين مني أن ألقنه درساً لا ينساه؟ أخبريني كم أنت خائفة...».

الفصل الثامن عشر

شعرت بالألم حينما استيقظت، إذ كان بوسعي أن أشعر بأصابعه وبيديه فوق جسدي.

غير أن الألم هو الشيء الذي كان يشعرني بأنني على قيد الحياة. فعلى الأقل، كان هذا الإحساس أفضل من الإحساس بألم من النوع الآخر؛ ذلك الألم الذي كان يدفعني للرغبة بالموت.

نهضت لأذهب إلى الحمام، لكنني توقفت أمام باب غرفة كونر لأصغي، فسمعت صوت الموسيقى الخافت الذي كان ينبعث من مذياعه، وكنت على وشك أن أطرق الباب حينما عدلت عن تلك الفكرة، فقد كان الوقت مبكراً، ثم إنه كان بخير، كنا جميعاً بخير.

وفي الحمام أخذت أفكر بلوكاس، لقد قال لي إنه سيحضر لي شيئاً مميزاً، بمناسبة ذكرى ميلادي، لذا كنت بالكاد أستطيع الانتظار. إلا أن ما كنت أشعر به هو متعة الترقب الرائعة التي كانت مؤجلة. أخذت أفكر فيه حالما نظرت إلى المرآة، وأخذت أتفحص ذراعي، وفخذيّ، ثم التفت في محاولة لمعاينة ظهري. كانت هنالك آثار. أحدها على شكل يد، والآخر على شكل عصفور، وكانت كلها حمراء اللون، وبدت لي متوهجة وكأنها غاضبة، أما الجلد المحيط بها فقد استحال إلى اللون القرمزي.

وهكذا، بدأت تظهر عليّ آثار الكدمات.

مرت ستة أيام، أي أسبوع تقريباً، التقيت خلالها أدريان، وذهبت مع هيو إلى المسرح. وبعدها، جاء يوم الثلاثاء مرة أخرى، والذي كان يصادف يوم ذكرى مولدي، إذ كنت قد بلغت السابعة والثلاثين من العمر. نمت ليلتها متأخرة، وكنت آخر من ينهض من سريره، فكانت تلك هي المرة الأولى التي أقوم فيها بذلك. نزلت الأدراج، فوجدت أن أسرتي قد سبقتني إلى هناك. كانت ثمة كومة

مـن البطاقـات علـى الطاولـة، إلى جانب هدية مغلفـة. كان الوقت وقت العطلة الصيفيـة، لـذا لـم يكـن هنالـك أي داعٍ للعجلة. أما هيو فقـد كان قد أعد إبريقاً من القهوة، وكان هنالك صحن يحتوي على الكرواسـان التي لم أكن قد رأيته حين اشتراها.

وعندمـا رآنـي هتـف: «حبيبتي!». ثم قدم لي باقة ضخمة من الأزهار كانت موضوعة على رف المطبخ، وكانت تضم أزهار أقحوان حمراء وخضراء وكذلك وروداً. كان لا يزال مرتدياً ثياب النوم بلونها الرمادي الداكن الواضح، وقال لي: «ذكرى ميلاد سعيدة!».

جلسـت، فدفـع كونـر نحوي بطاقة قمت بفتحها، ثـم قلت: «إنها جميلة!». فقد كانت صورة لثلاثتنا معاً، قام بطباعتها كصورة ضوئية بواسطة حاسوبه، ثم ألصقها بالبطاقة التي كتب داخلها: «ذكرى ميلاد سعيدة يا أمي». قبلته من رأسه الـذي كانـت تفـوح منـه رائحة الشـامبو، وللحظة تخيلته طفلاً صغيراً، فشـعرت بوخزة من الإحساس بالذنب؛ إذ كنت هنا مع أسرتي، ولكنني أفكر بما سيجري بعد ذلك، خلال زيارتي لعشيقي.

أخذت أفكر: هل بوسعي أن أسميه عشيقي الآن؟ أخذت أقلب الكلمة في عقلي: عشيق؟!! ثم التفتُّ نحو هيو. وسألته: «هل ستتأخر في العمل؟».

كان يبتسـم لـي، وكان يبـدو عليـه أنه يبذل جهداً للقيـام بذلك، وكأنه كان يجبر نفسـه على نسـيان أمر القضية التي يواجهها في عمله، والتي تتلخص في أن الأسـرة لـم تقبـل بالرسـالة، وكانت تفكر في رفع دعـوى ضده، إلا أن كونر أخذ يجاريني في المزاح، ثم قدم لي هدية، وهو يقول:

«افتحي هذه أولاً، وبعدها سنتحدث في ذلك الموضوع».

تناولـت الهديـة منـه، والتـي كانت مغلفة بشـكل جميل، وقـد كتب عليها: «ذكرى ميلاد سعيدة يا حبيبتي!».

كان هنالـك شـيء مـا في داخلي على علـم بمضمون الهدية، حتى قبل أن أقوم بفتحها.

«إنه عطري المفضل: فريكاس!».

بدت الحماسـة في صوتي بشـكل صريح، لدرجة أنني اسـتغربت من ذلك، كمـا تخللـت صوتـي نبـرة من النفاق. إلا أنني كنت آمل ألا يعتقد أنني لم أكن

ممتنة له على هديته.

قال لي: «لاحظت أن عطرك على وشك النفاد».

قلت: «أجل، تقريباً».

لكنه العطر الذي يكرهه لوكاس.

قال: «ثم إنني أعرف أنه العطر الذي كانت كيت تفضله أيضاً».

ابتسمت، وقلت: «يا لعمق تفكيرك يا حبيبي!».

هتف: «ضعي القليل منه، لم لا تقومين بذلك؟».

أجبت: «لا أريد أن أهدره بلا طائل».

هتف: «أرجوك». وبدا لي محبطاً، وعلت وجهه أمارات القلق لهنيهة قصيرة، لكنه ابتسم مرة أخرى بعد ذلك وقال: «ستغدو رائحتك طيبة حينما تضعين منه». ثم قبلني وقال: «ضعي القليل منه اليوم...».

قلت: «هيو...»

قال: «أما زلت تحبينه؟».

قلت: «أجل، أحبه». ثم فتحت العلبة، وسحبت منها الزجاجة، وأخذت أفكر بأن ما يبهج رجلاً، لا يمكنه أن يبهج رجلاً آخر. لذا، سأرش منه رشة بسيطة، ثم يمكنني أن أغسل المنطقة التي رششته عليها قبل أن ألتقي لوكاس. وللحظة، شعرت بأصابع لوكاس تقبض على معصمي، فابتسمت في سري وأنا أرش القليل من العطر خلف كل أذن من أذنيّ.

هتف هيو: «ثم إن هذه ليست هديتك الحقيقية».

قلت: «حقاً؟».

هتف كونر وقد تهلل وجهه بهجة وحبوراً: «سيصطحبك والدي خارج البيت». وهنا اكتشفت أنهما خططا لأمر ما معاً، فسألت:

«متى؟».

أجابني هيو: «اليوم، فقد أخذت إجازة».

كان كلاهما ينظران إليّ في ذلك الحين ترقباً، فقلت:

«رائع!». وكنت أحاول التركيز على منع نفسي من إظهار شعور الهلع على وجهي، ثم أردفت: «متى؟».

هتف كونر: «طيلة اليوم. أما أنا فسأخرج مع دايلان».

قلت: «جميل!». وكنت قد بدأت حينها أشعر بالقلق؛ إذ تخيلت صورة لوكاس وهو يجلس في مكان ما، ويتساءل أين يمكن أن أكون. تخيلته وهو يفكر بأنني خذلته، وبأنني فقدت الاهتمام والشغف، وبأنني لم أكلف نفسي حتى عناء إخباره بذلك.

لكنني لم أكن كذلك، ولم أكن أريده أن يظن ذلك بي.

أخذت أفكر بسرعة، فقلت: «هل ما زلت تتذكر أن موعد جلسة العلاج يصادف اليوم؟».

شعرت به يجفل هلعاً، فقد نسي ذلك، ولهذا قال: «لم أتذكر ذلك، مطلقاً». ثم أخذ ينتظر أن أقترح عليه شيئاً ما، لكنني لم أنبس بكلمة، فقال: «إنه ليس بموعد لا يمكنك تفويته، لذا ألا يمكنك إلغاؤه؟ فقط هذه المرة؟».

شعرت بالتوتر، ثم استحال ذلك التوتر إلى غضب فقلت:

«لا أريد أن أفوت عليّ أي جلسة؛ لأن مارتن يعتقد أنني أتحسن بالفعل».

مارتن؟! أهذا هو الاسم الذي سبق لي أن استخدمته؟ لم أستطع أن أتذكر للحظات.

أخذ هيو ينظر إلى كونر، ثم إلي، فسألت نفسي إن كان يبحث عمن يدعمه، أو إن كان يعتقد أنه علينا ألا نتجادل أمام ابننا.

ثم شرع يقول: «أعرف...»

فقلت: «أعني أنني بدأت أشعر أخيراً بأنني صرت أفضل، هل تعرف هذا؟».

أجابني: «نعم، وأنا سعيد جداً بذلك. بالطبع أعرف ذلك، ولكن ألا يمكنك تأجيل الموعد إلى وقت آخر؟».

وضع كونر ملعقته على الطاولة، فقد كان ينتظر جوابي، ولهذا سألت:

«أتقصد إلى وقت لاحق خلال هذا الأسبوع؟».

قلت ذلك وأنا أقول في سرّي: كلا، لا أستطيع.

فكرت بسرعة ثم قلت: «إنه مشغول للغاية... ثم إنه يطالب بأجر معاينة كامل عند إلغاء أي موعد».

مال هيو بذقنه نحو الأسفل، وبدا عليه أنه تضايق، حسبما رأيت، لكنه قال لي: «أعتقد أنه بمقدورنا أن نتحمل تلك الخسارة يا حبيبتي، ثم إنني قد حجزت لنا في مكان ما على أية حال، أي ستكون هنالك غرامة بسبب الإلغاء أيضاً».

هتفت: «ماذا حجزت لنا؟».

رد: «إنها مفاجأة، فقد حجزت لشيء سيستغرق منا اليوم بأكمله، وأعتقد أنه علينا أن نكون هناك عند الساعة الحادية عشرة تقريباً».

قلت له: «دعني أفكر». ثم وقفت، وشعرت بأنني ممزقة بين زوجي وعشيقي، إذ لا يمكنني الاحتفاظ بكليهما؛ تماماً كما لا يمكنني ألا أتناول الشراب على الإطلاق، أو أن أمد يدي إلى المحقنة وأن أدعها وشأنها. كان علي أن أختار من تلك الثنائيات شيئاً واحداً فقط.

إلا إذا...

أمسكت بهاتفي، ثم قلت لهيو:

«سأرى إن كان بوسعي أن أستبق موعد جلستي، وبعد ذلك يمكنني أن ألاقيك عند الساعة الحادية عشرة والنصف، ما رأيك؟».

بدأ يحتج على ذلك، لكنني أسكته بقولي: «لا أريد أن أبدو غير جديرة بالثقة. ثم إن الموعد مهم بالنسبة إلي». قلت ذلك وأنا أحاول ألا أغيّر نبرة صوتي حيث تبدو مقنعة ومعقولة، إلا نأني كنت قد رفعت صوتي قليلاً أثناء الكلام، وبعدها ابتسمت وقلت: «أنا متأكدة بأن نصف ساعة من الوقت لن تقدم أو تؤخر من الأمر شيئاً». ثم خرجت من الغرفة إلى الصالة، وأغلقت الباب خلفي، وبعدها ضغطت على زر الاتصال، وبعد مرور بضع ثوانٍ رد علي لوكاس.

هتفت: «مرحباً». وبدون تفكير أضفت: «هذه أنا، جوليا بلومر».

رد علي: «جوليا؟». وبدا لي مشوشاً، إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي أستخدم فيها اسمي الحقيقي معه، ولهذا قال لي بهدوء: «أهذه أنت يا جين؟».

شعرت بخوف مفاجئ، فقد كنت أعرف أن هيو كان على بعد بضع خطوات مني، إذ كان عند الجهة المقابلة من الباب، لذا حاولت أن أحافظ على هدوئي، وقمت بتخفيض الصوت على هاتفي بإبهامي إلى أن تأكدت بأنني الشخص الوحيد الذي كان بوسعه أن يسمع ردود لوكاس.

هتفت بهدوء: «نعم، أنا بخير». ثم انتظرت لحظة، وبعدها تابعت قائلة: «كلا، لا...»، ثم ضحكت وقلت: «إطلاقاً!».

سألني: «ألا يمكنك أن تتحدثي؟».

قلت: «هذا صحيح. على أية حال، كنت أود أن أسألك إن كان بمقدورنا أن نلتقي قبل ساعة من موعدنا اليوم. فاليوم ذكرى ميلادي، وسأخرج برفقة زوجي».

حاولت أن أبدو متحمسة من أجل هيو وكونر، لكنني لم أفلح في ذلك، لأن لوكاس سيعتقد أن هذه الحماسة مقصودة، وأنني أشعر بالحماسة فعلاً لمجالسة زوجي بدلاً من مجالسته. إذاً، لن يجدي ذلك نفعاً.

صمت لوكاس هنيهة، ولم أستطع أن أحدد إن كان يلعب تلك اللعبة، أم يحاول فعلاً أن يفهم ما جرى.

وأخيراً، نطق فقال: «أتقصدين أن نلتقي في المكان المعتاد قبل ساعة من موعدنا؟».

بدا لي غريباً، ولم أتأكد إن كان قد عبّر عن خيبة أمله أم عن غضبه.

قلت: «أجل، إن كان ذلك يناسبك».

فضحك وقال: «هذا رائع، لأنني منذ هنيهة لعينة كنت أعتقد أنك قد اتصلت لتلغي الموعد».

هتفت: «إطلاقاً. إذاً، أراك هناك».

ثم أنهيت المكالمة وعدت إلى هيو وأنا أقول: «سنلتقي هناك، لقد سويت الأمر».

قلت: «إنها هديتي من هارفي».

كان بوسعي أن أكتشف أنها لم تعجبه.

سألني: «هل أجبرك على أن تضعي منها؟».

أجبت: «ليس تماماً».

سألني: «هل طلب منك القيام بأمور أخرى؟».

قلت: «ليس كما تفعل أنت».

لكنه لم يبتسم، ولم يسترخِ منذ أن وصلت قبل بضع دقائق، فقد كان شيء ما قد تغير فيه.

سألني: «إنها ليست سيئة، أليس كذلك؟».

ابتسمت، وكنت أحاول أن أبقي الموضوع خفيفاً وبعيداً عن الجدية، حيث

يبدو غير ذي أهمية، وقد كان كذلك بالفعل؛ هذا بالنسبة إلي على الأقل، لذا قبلته مرة أخرى، وقلت له:

«آسفة». ثم حاولت أن أبتعد عن معانقته، لكنه أخذ يقبلني، ويندفع نحوي، وهكذا أخذت الأمور تجري على عجلة وبشكل عنيف نوعاً ما؛ حيث أخذت يده تمتد نحو رقبتي، فأخذت أتسأل إن كان سيقبض على حنجرتي، لكنه أمسك برأسي من الخلف، ثم بدأ يدفعني باتجاه السرير، وهنا قلت له: «سامحني أرجوك». فتركني بدفعة صغيرة منه، ثم رفع يده وكأنه كان على وشك أن يضربني.

هتفت: «لا تعاقبني أرجوك». وللحظة، بدا لي هائجاً بالفعل، لذا جفلت وتراجعت خطوة إلى الوراء، وفجأة لمع وجه كيت أمامي، كانت قد فتحت عينيها على اتساعهما وبدت مرتاعة. حاولت أن أركز على ما كنت أعرفه، والذي يتلخص بأنه ليست لديه أية صلة تربطه بشقيقتي.

قلت له: «لا تفعل...» لكنه قاطعني بقوله:

«ولم لا؟». ثم بدأ يضحك. كانت قبضته لا تزال مرفوعة، ولهذا أردف: «أعطيني سبباً مقنعاً واحداً لعدم قيامي بذلك؛ فلقد طلبت منك ألا تستخدمي هذا العطر اللعين». وعندها، وللحظة قصيرة، كنت قد تقمصت شخصية شقيقتي، وأخذت حالة من الخوف الصرف الحقيقي تسيطر على الأجواء، وحينها بدأت عضلات وجهه بالاسترخاء، ثم أنزل يده، ولكنه أمسك بي.

قلت له: «كنت تمزح بكل تأكيد».

أجابني: «أهكذا ترين الأمر؟».

سألته: «ألم تكن كذلك؟».

فابتسم، ثم قبلني بقوة وقال:

«إن الأمر يختلف حسب الموقف».

بعد ذلك، استلقينا على الأرض معاً، وكنت شبه عارية؛إذ كنت قد خلعت نصف ملابسي وبقيت بالنصف الآخر. أما قلقي فقد كان بخصوص قميصي الذي كنت أعتقد أنه بات ممزقاً، لأنني سمعت صوت تمزيق للثياب حينما كان يفك أزرار قميصي بطريقة جنونية. وفوراً، اتجه تفكيري نحو الطريقة التي

يمكنني أن أستعين بها لأشرح الأمر لهيو، كما أنني كنت قد ضربت رأسي بزاوية السرير.

فالتفت إليّ لوكاس وقال: «لقد أصبت برضة».

قلت: «أعرف».

سألني: «هل كنت السبب في ذلك؟».

فابتسمت وقلت: «نعم». وكنت أشعر بالفخر حيال ذلك نوعاً ما.

قال لي: «أنت تعرفين أنني لم أؤذِك فعلاً، أليس كذلك؟».

قلت له: «بلى، أجل، أعرف هذا».

وأخذت أتساءل عما إذا كنت حقاً أعرف، وعن طبيعة هذا الشيء الذي أقحمت نفسي فيه، وإلى أي مدى سيصل بنا هذا الأمر.

ومع ذلك، لم يكن بوسعي أن أنكر أنني كنت السبب في ذلك بقدر ما كان هو السبب أيضاً؛ إذ كان كل شيء متبادلاً في ما بيننا. حيث إن أي فكرة جامحة كنت أطلعه عليها كان يشجعني على القيام بها، كما كان يمضي بها بعيداً في شطحاته، ولم يكن بوسعي أن أتظاهر بأنني لم أكن أستمتع بذلك.

هتفت: «أجل، فأنا أثق بك».

رد: «جيد». ثم قبلني. كانت قبلته هذه المرة في غاية اللطف، وكانت بطيئة للغاية، وبعيدة عن العجلة التي كانت قد انتابته منذ بضع دقائق، كما كانت بعيدة كل البعد عن حالة الاعتياد والأسلوب العملي والسطحي الذي تنقصه الحماسة والذي تتسم به قبلات هيو.

سألني: «إذاً، إلى أين سيأخذك؟».

سألته: «من؟». إذ لم أكن قادرة على اكتشاف ما إذا كان يتكلم بلسان الغيرة، فسألته مجدداً: «أتقصد زوجي؟ لست أدري».

سألني: «أين تتمنين أن يأخذك؟».

انتصبت جالسة، فقد كان الأمر غير مريح؛ إذ كان يحاول أن يقحم هيو في الغرفة، مع أنني تدبرت أمري حتى تلك اللحظة معه لأنني تمكنت من إبقائه بعيداً عنا؛ تماماً كما أبعدت كونر.

أخذت صورة كونر تسبح أمام ناظريّ؛ إذ لا بد أنه في هذه اللحظة مع دايلان، وهما يلعبان على الحاسوب، أو ربما كانا في الحديقة.

وهنا تساءلت في سري عن سبب شعوري بالسعادة لأن لوكاس لم يكن يعرف أن لدي ابناً.

قلت: «لست أدري. ربما سنخرج لتناول الغداء أو إلى المسرح. منذ عامين اشترى تذكرتين لحضور عرض في الأوبرا، لكنه لم يتمكن من الحضور، لذا ذهبت بصحبة أدريان».

سألني: «ومن تكون أدريان؟».

قلت: «إنها مجرد صديقة أعرفها منذ سنوات طويلة، أي منذ أن انتقلت إلى لندن، أي منذ فترة طويلة».

سألني: «هل ستقومين بعلاقة حميمة مع زوجك؟.»

فنظرت إليه وقلت: «هذا ليس عدلاً».

كان يعلم أنني كنت على حق، لكنه قال: «أتعرفين؟ تبدين وكأنك لا تكترثين كثيراً بشأن المكان الذي سيصطحبك إليه زوجك، أو حتى بشأن ما ستقومان به».

وقفت وبدأت أجمع ملابسي؛ إذ كان كلامه غير صحيح تماماً، لكننا كنا نلعب لعبة، وكنت أعرف ما علي أن أقوله، ولهذا قلت: «لست كذلك فعلياً، لكنني أفضل أن أمضي نهاري هنا، بصحبتك».

فهتف: «وهذا ما أريده أنا أيضاً».

وهنا أخذت نفساً عميقاً، إذ كنت أحاول أن أرجئ طرح هذا السؤال، لكنني اضطررت إلى طرحه قبل أن أغادر فقلت:

«هل اكتشفت أي شيء في ما يتعلق بموضوع كيت؟».

فوقف وبدأ يرتدي ثيابه، ثم قال:

«ليس بعد، لأنني ما زلت أعمل على الموضوع».

تساءلت في سري: أحقاً؟ ولسبب ما، لم أكن واثقة من أنني كنت أصدقه.

هتف: «كنت أفكر بموضوع القرط الذي قلت لي إنه لم يكن موجوداً».

قلت: «أجل، ما به؟».

سألني: «هل أنت متأكدة من أن الشرطة بحثت في هذا الموضوع؟ أقصد أن هذا الموضوع يمكن أن يكون مقدمة مفيدة للبدء أفضل من البحث عن أصدقائها الموجودين عبر الإنترنت».

قلت له: «حسناً، لقد أخبرونا بأنهم بحثوا في الموضوع، لكنني لست متأكدة من ذلك».

وهنا قبلني ثم قال: «اتركي الأمر لي. فأنا متأكد من أن شيئاً ما سيظهر من خلال هذه المعلومة، وكل ما علينا أن نقوم به هو أن نواصل البحث».

قلت: «شكراً».

أجاب: «لا شكر على واجب». ثم قبلني قبلة الوداع، وبعدها قال: «بالمناسبة، إنك لم تحصلي على هدية مني بعد».

فابتسمت، وقلت:

«سأحصل عليها في وقت لاحق، إذ يجب أن تكون مفاجأة».

غادرت فندقاً لأذهب مباشرة إلى فندق آخر. كان رأسي يدور، وثمة شق في قميصي حاولت أن أغطيه بإغلاق أزرار السترة. وحينما وصلت، رأيت هيو في البهو، وهو جالس على كرسي ذي ذراعين، وكانت آلة البيانو قبالته في البهو، ومن السقف تدلت ثريا ضخمة. توجهت نحو زوجي، فوقف حينما اقتربت منه، وبدا لي متعباً، وهنا شعرت بالذنب.

هتف: «كيف كانت الجلسة يا حبيبتي؟».

أخبرته بأنها مضت على ما يرام، ثم اكتشفت أنه أحضر معه حقيبة الشاطئ الخاصة به، وأخرى من أجلي، ولا بد أنها أول حقيبة صادفها. بعد ذلك، جلسنا ثم صب لي الشاي.

هتف: «إليك هذا». فتناولت الفنجان منه، ونظرت حولي في الغرفة لأشاهد النزلاء الآخرين، فوجدت زوجين عجوزين يتناولان الكعك، كما رأيت امرأتين تتناولان غداءهما وتتناقشان حول أمر ما بصوت منخفض، ثم شاهدت رجلاً يحمل جريدة، فتساءلت عن أولئك الأشخاص الذين يقيمون في الفنادق، وإن كان هذا المكان يناسب ذوق لوكاس حيث يمكنه أن يدعوني إليه يوماً ما.

بيد أن هيو هتف فجأة: «أعتقد أن الأمر يسير بشكل جيد، أعني علاجك، إذ إنك تبدين أكثر...»

سألته: «أفضل، أليس كذلك؟».

هتف: «كلا، تبدين مسترخية، وتنعمين بالسلام، أليس كذلك؟ تبدين وكأنك

قد تخلصت مما أصابك إثر وفاة كيت».

أخذ ينتظر ردي؛ وكأنني كنت على وشك أن أقول المزيد، وحينما لم أفعل تابع: «يمكنك أن تتحدثي إلي، أخالك تعرفين ذلك».

قلت: «أجل، أعرف ذلك».

قال: «لقد بذلنا ما بوسعنا، ألا تعرفين هذا؟ وذلك لنساعدها، ولنكون هناك من أجلها».

أبعدت ناظري عنه، فقد كنت أريد أن أغير الموضوع، ثم قلت: «إنه مجرد... حسناً... إن الأمر معقد».

سألني: «أتقصدين كونر؟».

أجبت: «نعم».

قال: «لن تكون الأمور أفضل مما هي عليه الآن. فلو كان قد بقي معها، لكان الأمر قد بقي على حاله بالضبط... ولربما كان أسوأ. ثم كان علينا أن نخرجه من ذلك المكان؛ إذ لم يكن مناسباً له».

أخذت أهز كتفي، ثم قلت: «ربما. ولكن، هل تعتقد أنه كان بخير طيلة تلك الفترة؟».

أجاب: «أظن ذلك. أعني، لقد تعذب بعض الشيء بسبب موضوع كيت؛ إذ لا بد أن الأمر كان مربكاً بالنسبة إليه».

قلت: «أعتقد ذلك. لذا، سأخرج معه في الأسبوع المقبل، وسنقضي طيلة اليوم معاً؛ إما في السينما أو في أي مكان آخر، وسأتحدث إليه حينها».

هز رأسه موافقاً فشعرت بالذنب، إذ كان يتوجب علي أن أناقش هذا الموضوع معه قبل ذلك؛ وكان الأجدر بنا أن نقف صفاً واحداً حينما يتعلق الأمر بكونر؛ كما كنا دوماً قبل هذه المرحلة».

هتف: «فكرة جيدة. أتعرفين؟ لا بد أنه سيكون بخير. فهو فتى طيب، ولا يمارس أي عادة قبيحة أو غبية».

قلت: «أتمنى أن يكون كذلك».

هتف: «أتعرفين؟ أعتقد أن لديه حبيبة».

ثم ابتسم، فكان ذلك بمثابة تواطؤ جميل بين أب وابنه.

قلت: «أحقاً؟!». فقد كنت مندهشة؛ بالرغم من أنه لا يجدر بي أن أكون

كذلك. ثم بدأت أشعر بنار الغيرة؛ لأنني كنت أريد أن أبقى على الدوام الملاذ الذي يلجأ إليه كونر ويثق به.

سألني: «ألم تلاحظي ذلك؟ إنه لا يفتأ يذكر تلك الفتاة، إن اسمها إيفي».

ابتسمت، ولم أكن أدري سبب شعوري بالارتياح وقتها.

ثم قلت: «أعتقد أنني قد قابلتها».

سألني: «حقاً؟».

أخذت أسترجع ذكرياتي المتعلقة بحفلة كارلا، وتذكرت تلك الفتاة التي رأيت كونر بصحبتها، فتأكدت أن ذلك الاسم يعود لها.

قلت: «أجل. وإنها تبدو لي مناسبة».

هتف: «هذا جيد». ثم أخذ يشرب بعض الشاي، وبعدها قال: «إنه يزور دايلان كثيراً أيضاً، ويبدو أنه يتمتع بشعبية، وسيكون على ما يرام».

ثم أمسك عن الكلام، وبعدها تابع حديثه بقوله:

«أما الليلة، فلا أحد غيرنا في البيت. لذا فكرت بأن نتناول الغداء وبعدها...»

تلاشت بقية الجملة، فأخذت أفكر بالآثار الموجودة على ظهري وفخذي؛ إذ بقيت لمدة أسبوع آوي إلى الفراش في وقت مبكر، وأخلع ملابسي في العتمة، وأرتدي ثوبي حالما أستيقظ، إذ لم أكن قادرة على السماح له برؤية الرضوض الموجودة على جسمي.

لكن، بدا لي أن جهودي وحرصي قد ذهبت أدراج الرياح، فقلت له: «سيكون هذا رائعاً».

فابتسم.

ثم قلت له:

«إذاً، ما الذي نفعله هنا؟».

فابتسم ابتسامة عريضة، ثم وضع فنجانه، وغيّر جلسته؛ وكأنه كان على أهبة الوقوف لإلقاء محاضرة، أو لإصدار بيان، ثم قال: «حسناً، ظننت أنه يتوجب علينا أن نسترخي». وهنا، أخذ وجهه يشع بهجة، ثم ناولني حقيبتي، وبداخلها تمكنت من رؤية الزرقة الداكنة لبزة السباحة، وكذلك الشامبو الخاص بي مع البلسم.

ثم هتف: «لديهم حمام مياه معدنية هنا». وأشار إلى اللوحة الموجودة في

البهو، ثم قال: «والآن حجزت لك في قسم العناية بالقدمين، وسنخضع لجلسة تدليك أنا وأنت؛ فقد رتبت الأمور حيث يتم ذلك في منتصف النهار، لكن لا بأس بأن ننقل الموعد إلى وقت العصر».

هتفت: «حمام مياه معدنية!؟».

أجابني: «أجل، ويمكننا أن نقضي النهار بطوله هنا؛ إذ لديهم غرف بخار، وساونا ومسبح...».

هتفت: «عظيم». وقد بدأ القلق يهبط إلى معدتي ثم ينتفخ ليتحول إلى ألم، فقد كانت بزة السباحة قصيرة، حيث تكشف أسفل ظهري.

هتف: «ما رأيك بأن ننطلق؟ إلا إذا كنت ترغبين بتناول الغداء هنا أولاً».

أخذت أهز رأسي إيجاباً؛ إذ لم أكن أدري ما الذي ينبغي لي فعله، ولهذا قلت: «هذا جيد».

هتف: «إنه يومك...».

قلت: «أعرف». فقد كنت أحاول يائسة التفكير بعذر؛ بمخرج من هذه الورطة، لكنني لم أتوصل إلى ذلك، فقد كنا نعبر البهو، ونتجه نحو حمام المياه المعدنية. أخذت أفكر بآخر مرة كنت أرتدي فيها ملابسي، منذ ساعة أو أكثر، في الغرفة مع لوكاس. وتذكرت أنني ألقيت نظرة على كتفي في المرآة التي كانت تعكس الطول الكامل، وحينها كانت الرضوض داكنة اللون ومائلة للون القرمزي، لكن لا يمكن لعين الناظر أن تخطئها.

كان يجلس بالقرب من المسبح، في الموضع الذي أخبرني أنه اختاره لنفسه، وكان قد طلب كأساً من العصير لكل منا. كان لون العصير أخضر، وبدا لي مصنوعاً من مواد عضوية. أما هو فقد كان يرتشف من كأس العصير الخاصة به. كان يرتدي سرواله القصير الذي كنت قد اشتريته له قبل آخر عطلة قضيناها، وكانت في تركيا. أما أنا فقد كنت أدرك أن شكله قد أصبح مقبولاً بعدما خسر وزنه الزائد؛ إذ كنت أفكر بذلك إلى جانب ظلمات القلق التي كانت تعتريني وقتئذ.

جلست على الأرض بالقرب منه، بعدما غطيت نفسي بمنشفة حول صدري فسألني:

«أترغبين بالسباحة؟».

لكنني اضطجعت على كرسي المسبح، وقلت له: «سأسبح بعد قليل». غير أنه وضع الجريدة من يده وهتف:

«تعالي». ثم وقف وقال: «يوجد جاكوزي، وسأذهب إلى هناك الآن».

كان قد مد لي يده، فلم يكن أمامي أي خيار سوى أن أمسك بها. وهنا راودني إحساس لا يرحم من الزخم العاطفي الرهيب، هذا إلى جانب الإحساس بالذنب؛ فمنذ ساعتين فقط كان رجل آخر يمسك بيدي.

ذهبنا ثم جلسنا في حوض الجاكوزي. كانت المياه دافئة وصافية، ثم قام هيو بتشغيل الجاكوزي، فبدأ بإصدار فقاعات. اضطجعت على ظهري، وأخذت أحدق في الضوء الذي كان يتراقص على السقف، والذي كانت المياه التي تتحرك بعنف تعكسه. ثم أخذت الرضوض البادية فوق ظهري تؤلمني، وكأنني قد وسمت بالنار.

وللحظة، فكرت في إخباره بكل شيء عن لوكاس، وكل ما كنت أقوم به. إذ لم يكن الذنب ذنبي؛ هذا ما كنت أريد أن أقوله له. فمنذ أن ماتت كيت فقدت توازني، وأصبحت أتصرف بطريقة غير مقبولة، ثم...

ثم ماذا؟ ثم إن ذلك لا يعني أي شيء. كنت أعتقد فعلاً أنني كنت أحاول أن أكتشف الشخص الذي قتلها. ولكن، أكان ذلك من أجلي؟ أم أجل ابنها؟ وهل كنت أقوم بالشيء الصحيح؟

ولكن، من كنت أخدع؟

هتفت: «هيو...» لكنه قاطعني بقوله:

«أريد أن أتحدث إليك».

نظرت إليه، فكان ذلك كل شيء حسبما اعتقدت.

وفجأة، خطرت لي فكرة. لقد رأى كونر كل شيء في البيت الصيفي خلال حفلة كارلا، ولا بد أنه أخبر والده في نهاية المطاف.

أو ربما رآني أحدهم في الشارع أو في بهو الفندق وأنا أقبّل شخصاً آخر غير زوجي.

سألته: «ما الأمر؟».

لكنه مد يده تحت الماء وأمسك بيدي، ثم قال:

«أريد أن أتحدث إليك بشأن موضوع الشرب».

وهنا اختلط الإحساس بالارتياح مع الارتباك، فهتفت: «ماذا؟! أي شرب؟».

أجابني: «جوليا، إنني قلق عليك». وبدا لي غير مرتاح، إلا أن إحساسه كان أقل مما ينبغي. وفجأة، وجدت نفسي أتمنى أن يصبح الأمر أصعب بالنسبة إليه، وأن يتحول إلى موضوع شائك، لكن الأمر لم يكن كذلك، ليس تماماً، لأنه كان قد ضبط أموره على الوضع الاحترافي.

هتفت: «هيو، لا داعي للقلق؛ إذ لم أضع في فمي قطرة واحدة منه».

رد علي: «جوليا، أرجوك لا تستهيني بذكائي، فقد سبق لك أن أخبرتني بذلك حينما عدت من باريس».

أجبته: «أعرف. لكنني كنت أنفس عن انفعالاتي، إذ لم تكن الرحلة سهلة».

هتف: «أعرف، لكنني أعتقد أنه يتوجب عليك أن تشرعي بارتياد اجتماعاتك مرة أخرى، فقد مضت بضعة أشهر على...»

أخذت أفكر بالزيارات التي كنت أقوم بها إلى العيادة حينما عدت من برلين. فتذكرت المقاعد الموضوعة على شكل دائرة، وعودتي إلى الدرجة الثانية عشرة ضمن البرنامج. أخذت أفكر بالأيام والأسابيع التي قضيتها وأنا أعاني من التشنجات والمرض، إذ كنت أشعر بأنني أعاني من أسوأ دوار أو أسوأ حالة وِحام، ولا شيء على الإطلاق يمكنه أن يساعد في التخفيف من آلامي. أخذت أتذكر الشهور التي قضيتها وأنا أتوسل إلى هيو كي يساعدني؛ في الوقت الذي كان فيه قد قدم لي المساعدة بالفعل.

وهنا هتفت: «انظر، إذا كان أحدنا خبيراً بموضوع الإدمان فلا بد أن يكون أنا».

لم ينطق بكلمة.

فقلت: «لقد توفيت شقيقتي، وأنا أذكِّرك الآن إن كنت قد نسيت ذلك».

رد بحدة: «بالطبع لم أنسَ». وبدا لي أن الأمر لم يجر بسهولة كما كان يظن، ولهذا أردف: «ثم إنك تسألينني طيلة الوقت عن سير التحقيقات، إذاً كيف لي أن أنسى ذلك؟».

هتفت: «إن طرح موضوع كهذا الآن بنظري أسلوب لئيم يا هيو. لا تقلق، فأنا أهتم بنفسي، وهذا كل ما لدي».

رأيته يتردد، وددت لو أسأله: لم لا تذهب أنت إلى بعض الاجتماعات بنفسك؟ لم لا تذهب إلى مؤسسة ألأنون لمعالجة الإدمان على الشراب؟ لم لا ترتب أمورك أنت قبل أن تقوم بترتيب أموري؟

وأخيراً قال: «أنا آسف. كل ما هنالك أنني لست واثقاً من أن الوضع صحي بالنسبة إليك، وأتمنى أن تثقي بي وبقدرتي على معالجته».

قلت: «إنني أثق بك، وسأضع كل ثقتي بك». وأخذت أفكر بأن أقول له إنني لست الوحيدة التي لن تعرف للسلام طعماً، ولن ترتاح إلى أن يلقى القبض على قاتل كيت، لأن كونر كان يشاركني الإحساس ذاته أيضاً.

هتف: «إنني قلق عليك فقط، وهذا كل ما في الأمر».

قلت: «إنني لم أتناول أي شراب منذ ذلك الحين، ولا حتى قطرة منه».

أخذ يشد على يدي؛ وكنت قد نسيت أنه كان ممسكاً بها، ثم قال: «خلال حفلة كارلا...».

فقاطعته وقلت: «إنه بادي. فقد أحضر لي الشراب، ولكنني لم ألمسه، وبعدها تحاورنا، ثم سكب الشراب علي».

أخذت أنظر إليه وأسأل نفسي إن كان يصدقني.

بيد أن صوته أصبح ناعماً حين قال: «لا أريد أن أراك تعودين إلى تلك المرحلة وحسب، بل لا أستطيع ذلك، ولن أعود إلى الحديث عن ذلك».

قلت: «لكنني لا أعود إلى الوراء لأصل إلى أي مكان».

هتف: «إذاً، أخبريني بالحقيقة أرجوك».

سألته: «وما هي؟».

سألني: «هل وقعت يومها؟».

فسألته: «عفواً؟ أين وقعت؟».

سألني: «هل زلّت قدمك يومها؟ هل تناولت الشراب حينما كنت بصحبة أدريان؟».

هتفت: «هيو، ما الذي تفعله...»

قاطعني وقال: «لقد لاحظت تلك الرضوض منذ بضعة أيام، ورأيت كيف أنك تحاولين تغطيتها اليوم أيضاً. إذاً، ما الذي حدث؟».

كان الإحساس بالارتياح غامراً، إذ كان يعتقد أن بضعة أكواب من الشراب

هي كل ما يجب عليه أن يقلق بشأنه.

سألني: «هل كنت ثملة؟».

قلت: «لقد وقعت يا هيو، لكنني لم أكن ثملة». ورأيت في ذلك مخرجاً؛ إذ كان قد لاحظ الرضوض بلا شك، ولم يعد بإمكاني إنكار وجودها، لكن بوسعي أن أشرح له سبب إخفائها عن الأعين.

تنهدت وقلت: «كنت قد تناولت كأساً من الشراب، وهذا كل ما في الأمر. وأعتقد أن الأمر لم يستغرق وقتاً طويلاً». ثم ترددت، وبعدها قلت: «لقد زلت قدمي حينما كنت أخطو نحو السلم المتحرك في محطة قطار الأنفاق».

هتف: «لكنك لم تخبريني بذلك».

حاولت أن أبتسم ثم قلت: «أجل، لأن الأمر كان مخزياً للغاية. لو علمت فقط بما حدث معي...». ثم صمتّ قليلاً وبعدها قلت: «ما عليك سوى أن تسأل أدريان، إن كنت لا تصدقني...».

وحتى عندما قلت ذلك، كنت أعرف أنني أتصرف بشكل خاطئ؛ إذ من المحتمل أن يسألها، ولهذا أخذت أبذل أقصى ما بوسعي، عبر إضافة المزيد من التفاصيل، فقلت:

«آسفة، لقد كنت محرجة، واقترفت خطأ بذلك».

هتف: «تقصدين خطأ آخر».

أخذ الغضب يتصاعد داخلي فقلت: «أجل، إنه خطأ آخر. انظر، يكفيني أنني لست على ما يرام كما تراني، وقد سبق لي أن اعتذرت، فهلا نسينا هذا الموضوع برمته».

فقال لي: «إن من يجب عليك أن تعتذري منه ليس أنا».

سألته: «إذاً، من هو؟».

قال: «كما قلت لك، أعتقد أنه عليك أن تشرعي بالذهاب إلى اجتماعاتك».

فكرت في سري: كلا، لن أذهب، فأنا لست مستعدة لذلك.

ثم أخذت أهز رأسي.

قال لي: «على الأقل، عديني بأن تفكري في الموضوع».

كلا، لم أكن أتحمل الفكرة؛ إذ كان يتعين عليّ أن أعترف بكل شيء مرة أخرى، وكان يجب عليّ أن أعترف بأنني عدت إلى النقطة التي بدأت منها.

قلت: «لا أستطيع».
سألني: «لماذا؟».
قلت: «إنني فقط...».
قال: «فقط قولي لي إنك ستفكرين في الموضوع».
تنهدت وقلت: «حسناً، سأفكر في الموضوع».
قال: «أو على الأقل تحدثي إلى طبيبك المعالج بشأن هذا الموضوع».
قلت: «سأفعل».

أخذ الغضب يختفي من قسمات وجهه، فترك يدي، وأخذ يربّت على فخذي وهو يقول: «حبيبتي، إن كل ما أريده هو ألا أراك تخوضين في تلك المرحلة مرة ثانية».

قلت: «لن أفعل. وعلى أية حال، لقد مضى زمن طويل على ذلك، كما أنني أصبحت أعرف أكثر الآن. أضف إلى ذلك أنني حصلت عليك، لتحميني من كل سوء». وهكذا، نطقت تلك الجملة الأخيرة برفق.

أخذت أحدق في عينيه وأتفرس فيهما. لقد كان الأمر أسهل مما كنت أظن، ومع ذلك ما زلت أكره نفسي لأنني قمت بذلك. أخذت أتذكر عمداً السنوات التي قضيتها وأنا أقنع الناس بأنني لا أعاني من أية مشكلة، غير أن الأمر المختلف هذه المرة هو أنني لم أقم بذلك، بل أخذت أتظاهر بذلك وأمثّل على الجميع.

قال لي: «أعرف». وكانت يده لا تزال فوق فخذي، ثم كرر كلامه: «أعرف». وقد بدا لي هادئاً خلال فترة قصيرة، وعندها بدأت مرحلة الاسترخاء لديّ، ثم أدركت أنه علي أن أقوم بشيء ما، إذ يمكن ألا يحالفني الحظ في المرة المقبلة. ومهما حدث بيني وبين لوكاس، فلن أسمح لذلك بأن يدمر ما بنيته مع هيو.

ملت برأسي إلى الوراء، ثم أغمضت عينيّ، وأخذت أفكر: ترى، هل كنت ساذجة حين فكرت أنه بوسعي أن أبقي لوكاس بعيداً عن أسرتي؟ وهل لا بد للأسرار أن تنكشف في نهاية المطاف؟

بقينا صامتين لفترة من الزمن. وبعدها، ومن دون سابق إنذار، قطع هيو الصمت بقوله:

«أوه، يا إلهي! لم أخبرك بما حدث لبادي».

فتحت عينيّ بسرعة، إذ لم أكن أتوقع أن أسمع هذا الاسم، وقد ضايقني ذلك، لذا تمنيت ألا يظهر أي من ذلك على تعابير وجهي.

تابع هيو: «لقد اتصلت بي ماريا البارحة، لكنني نسيت تماماً إخبارك بالأمر. لقد تعرّض بادي إلى هجوم».

سمعت صوتي وأنا أكرر ما قاله، فبدا لي كما لو أن الصوت صوتي ولكنه يخرج من مكان بعيد جداً.

هتفت: « هجوم؟!».

كان الجو حاراً في هذا المكان، لذا بدأت أتعرق فجأة، أما الماء فقد كان زيتياً ولزجاً.

أجابني: «أجل، وكان ذلك خلال عطلة نهاية الأسبوع. وأعتقد أن ماريا ذكرت أن ذلك حدث يوم الجمعة».

سألته: «أين؟ ومن الذي هاجمه؟ وهل هو بخير؟».

عندها، بدأت فكرة مخيفة تتشكل أمامي. فخلال الأسبوع الماضي، أخبرت لوكاس عما فعله بادي بي، كما جعلته يعتقد أن الأمر أسوأ مما كان عليه... أسوأ بكثير.

وأذكر أنه قال لي إنه يريد أن يحميني.

سمعت هيو وهو يقول: «لقد تعرض للضرب، وظهرت عليه كدمات، كما كسر أنفه؛ إلا أنه سيكون على ما يرام. وقد حدث ذلك بالقرب من المكان الذي يسكن فيه حسبما يبدو؛ إذ كان عائداً إلى البيت في وقت متأخر، ولكنه لم يستطع أن يتذكر الكثير من التفاصيل».

أخذت أفكر بلوكاس، وكيف قال لي إنني سأحصل على هديتي في وقت لاحق. فهل كان هذا ما يعنيه بقوله؟

اتجهت أفكاري نحو كيت، فرأيتها ممددة هناك وغارقة بدمائها، وقد كسر أنفها، وعيناها متورمتان.

ألقيت نظرة على زوجي، وشعرت بأنني أعرف ما كان سيقوله بعد ذلك.

وعندها، سمعته يقول: «والغريب في الأمر أنهم لم يأخذوا منه شيئاً».

في تلك اللحظة، بدأ شيء ما ينهار في داخلي، فوجدت نفسي أقف، من دون أن أعرف سبباً لذلك، أو إلى أين كنت ذاهبة، وأخذ الماء ينساب بعيداً

عني، وللحظة خُيِّل إليّ أنه دم.

أخذت أقول: «مثل كيت، تماماً مثلما حدث لكيت».

وهنا وقف هيو أيضاً، وأخذ يهتف: «جوليا؟ جوليا... أعتذر. كان يجدر بي ألا أخبرك، لكنني لم أفكر في ذلك. جوليا... اجلسي أرجوك».

فكرت في سري: لا يمكن أن يكون هو!

لقد قال لي: قولي لي إنك تريدين مني أن ألقنه درساً، وذلك حينما كنا تماماً في منتصف ما نقوم به، وأعتقد أنني قلت له: نعم. هل قلت له نعم؟

لكنه لم يكن يقصد بذلك أي شيء بكل تأكيد. ثم إنه لم يأخذ الأمر الذي أخبرته به على محمل الجد. إنها مجرد مصادفة، بل يجب أن تكون كذلك، بل لا بد أنها كذلك.

أخذت أفكر بلمسات يديه علي، بالرضوض، بالأشياء التي فعلها، وبالأشياء التي أخبرني أنه يود أن يقوم بها.

هتف هيو: «إنني أحمق. جوليا... أنا آسف».

التفت وأنا أرتجف، فقد كنت أتجمد من البرد، غير أن العرق كان يتفصد مني، لذا هرولت نحو غرفة تبديل الملابس، وقطعت المسافة البعيدة التي كانت تفصل بين الحمام وموقعي.

الفصل التاسع عشر

وصل كونر إلى البيت في وقت متأخر من صبيحة اليوم التالي، وكان دايلان برفقته. اندفع كلاهما نحو الداخل وهما يتحدثان بلا توقف. وكنت أنتظر غليان الماء في الإبريق حينما دخلا المطبخ.

إنه ابني. كنت قد اشتقت إليه، وكان هو كل من أريده حينما عدت إلى البيت في الليلة الفائتة. فقد كان الشخص الوحيد في حياتي الذي كنت لا أزال أعتقد أن لدي فرصة لأفهمه على نحو صحيح ومناسب.

صاح: «مرحباً ماما». وبدا لي مندهشاً لأنني كنت هناك. ولوهلة، خلت أنه سيسألني إن كنت بخير، لكنني لم أكن متأكدة مما كنت سأقوله له إن سألني. كان دايلان يقف خلفه، وحينما ابتسمت له قال: «مرحباً سيدة ويلدينغ».

هتف كونر: «يمكننا أن نصعد إلى الطابق العلوي».

تكلفت الابتسام ثم قلت: «حسناً، هل قضيتما وقتاً ممتعاً؟».

رد: «نعم». لكنه لم يتوسع في الموضوع.

سألته: «أترغبان بتناول شيء ما؟».

رد: «كلا، شكراً».

قلت: «ما رأيك دايلان؟».

هز الفتى الثاني رأسه وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة، فبدا لي أنحف مما كنت أتذكره.

وهنا قال كونر: «لقد سبق لنا أن تناولنا شيئاً. هل بإمكاننا أن نشاهد فيلم DVD؟».

هتفت: «بكل تأكيد. أخبراني إن أردتما أي شيء». قلت ذلك فيما كانا يختفيان وهما يصعدان إلى الطابق العلوي، ثم استدرت نحو الإبريق وأخذت أعد شرابي.

كنت أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله، فقد كنت أرجئه طيلة فترة الصباح.

لذا، جلست إلى الطاولة، واتصلت بلوكاس، فأتاني صوته:

«صباح الخير يا جميلتي. كنت أفكر بك للتو أيضاً».

كان هذا التعليق يثيرني في العادة، لكنني بالكاد انتبهت إليه اليوم؛ فقد كنت متوترة وقلقة للغاية، وقد نفدت مني طاقتي. إذ أمضيت الليل بطوله وأنا أفكر به وبباديي، وبما يمكن أن يكون قد فعله به، وبما يمكن أن أكون قد فعلته، ولهذا كنت منهكة تماماً.

هتفت: «أريد أن أتحدث إليك يا لوكاس».

أحسست به وهو يغير من جلسته، فتخيلته مستلقياً على سريره، ثم تخيلته ينتصب جالساً فجأة. حاولت أن أتخيل تفاصيل تلك الصورة، لكنني فشلت؛ إذ لم يسبق لي أن رأيت غرفة نومه، أو حتى بيته. كان قد أخبرني أن بيته جميل، وأن منزله شبه منفصل؛ أي متصل من جهة واحدة بمنزل آخر، وكانت فيه ثلاث غرف نوم. وقد وصف لي بيته بأنه: «عصري، لكنه يتسم بطابع مميز». وكان يبدو لي فخوراً بمنزله دوماً، لكنْ لِمَ لم أزره هناك؟

أخذت أتساءل إن كان يحافظ على نظافة منزله وترتيبه، فالرجل حينما يسكن بمفرده نادراً ما يقوم بترتيب سريره. فكونر مثلاً لا يقوم بترتيب سريره أبداً إن لم ألح عليه ليقوم بذلك.

سألني: «ما الأمر؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

شعرت باندفاع دم مفاجئ، فأردت أن أصرخ وأصيح، كنت أريد أن أقول له: لا، لا شيء على ما يرام.

لكنني بدلاً من ذلك أخذت نفساً عميقاً وحاولت أن أهدئ من روعي ثم قلت:

«لقد تعرض بادي لهجوم».

إن مجرد النطق بتلك الكلمات كان يجرحني، لأنها كانت تذكرني بما حدث لكيت.

سألني: «من؟».

قلت: «بادي». وكنت متضايقة وخائفة في آن واحد، فهل نسي اسمه؟ أم أن هذا جزء من اللعبة؟ أخذت أشرح له: «إنه الشخص الذي حدثتك عنه، أعني الصديق الذي أخبرتك أنه قبلني». ثم ترددت، فأخذ صوتي يرتعش حين قلت:

«لقد تعرض للضرب».

هتف: «يا إلهي!». وهنا بدا عليه الاهتمام بالموضوع، لذا خمنت بأن ردة فعله كانت حقيقية، ولكن كيف لي أن أعرف؟! إنني لا أعرف شيئاً، وهنا سمعته يقول: «هل أنت بخير يا جوليا؟».

لم أكن أريد أن أطرح عليه ذلك السؤال، إلا أنه كان أشبه بثقل يرهق كاهلي، فلم يكن لدي أي خيار آخر، ثم إنه السبب الذي دفعني إلى مهاتفته أصلاً، ولهذا سألته:

«هل لك أي علاقة بما حدث؟».

خيم السكون بيننا، فالنطق بهذا السؤال بصوت عالٍ جعل من الأمر حقيقة واقعة، وتحول الشك إلى يقين.

أخذت أتخيله وهو يهز رأسه غير مصدق، بل رأيت أن عضلات جسمه كانت متوترة ومشدودة، وبعدها سمعته يقول:

«أنا؟! ماذا تقصدين؟...».

فقاطعته بالرغم من أنني لم أكن أريد ذلك، إلا أنني لم أستطع منع نفسي من ذلك، وكررت عليه السؤال مرة أخرى وبصوت أعلى: « هل لك أي علاقة بما حدث؟».

فجاءني رده بسرعة أكبر هذه المرة، إذ كان قد هرع للدفاع عن نفسه، فقال: «بالطبع لا. ليست لدي أية علاقة بذلك». وحينها لم أستطع أن أخمن ما إذا كان غاضباً أم يؤكد على كلامه فقط، وسمعته أخيراً يقول: «وهل سيكون ذلك الرجل بخير؟».

أخذت الكلمات تتدفق وتزاحم بعضها فقلت: «إن الأمر يبدو وكأنه صدفة، وهذا كل ما في الأمر. أعني، لقد أخبرتك بالموضوع في الأسبوع الماضي، ثم حدث ما حدث خلال هذا الأسبوع...».

هتف: «اسمعي! اهدئي...»

لكنني تابعت وقلت: «هذا الأسبوع، لقد حدث ذلك خلال هذا الأسبوع».

ثم أمسكت عن الكلام، وفجأة شعرت بأن جسمي قد دبت فيه الروح، فأصبحت أحس بلمسات يديه، أما بشرتي فقد كانت تتغنى بالسرعة الفظة لما قام به في غرفة المرحاض، ومعصماي كانا يحملان ذلك الألم الممل الذي ظهر

في الموضع الذي كان لوكاس قد أمسك بي منه. وهنا أخذت أستعيد ما قاله لي.

هتفت: «لقد سألتني إن كنت أريد منك أن تلقنه درساً».

رد: «أعرف، وقد قلت لي: نعم؛ إن كنت ما زلت تتذكرين».

أخذت أنهار من الداخل، وشعرت بأن أنفاسي على وشك أن تنقطع بفعل الهلع والغضب، فهتفت:

«لكنني لم أكن أعني ذلك، فقد كنا نتسلى! كانت مجرد لعبة تقمص أدوار».

هتف: «أكان الأمر كذلك؟». كانت نبرة صوته قد ارتفعت، فبدا لي شخصاً مختلفاً لا يشبه الشخص الذي أعرفه على الإطلاق، ثم قال: «أتعرفين؟ عليك أن تكوني حذرة حيال ما تتمنينه يا جوليا... يجب أن تكوني حذرة للغاية».

وهنا اعتراني الخوف والرعب، فقد أصبح الأمر حقيقياً ومادياً، وقد كنت أحترق، وكان الهاتف في يدي ينبض بالخطر، لذا كنت أرغب بأن أرميه بعنف وسط الغرفة. تمنيت لو أنني لم ألتقِ هذا الشخص، إذ لم أكن أعرف من هو، فمن هو هذا الرجل... هذا الشخص الذي سمحت له بدخول حياتي؟ كنت أريد أن يعود كل شيء كما كان في سابق عهده.

هتفت: «لوكاس... أرجوك». فأتاه صوتي متوسلاً، لكنني كنت أصرخ تقريباً، وبالكاد أدرك أن كونر في الطابق العلوي. كنت في تلك اللحظة على استعداد لكي أضحي بأي شيء مقابل التأكد من أن ما حدث لبادي ليست له أية علاقة بلوكاس. أجل، كنت على استعداد للتضحية بأي شيء.

ثم توقفت عن التفكير، فقد كان يصدر ضجة. وفي البداية، لم أستطع أن أميز ما هي، لكنني أدركت ما كان يجري بعد ذلك؛ فقد كان يضحك في سره وبمفرده، وعندها أشرق شيء ما في نفسي فهتفت:

«لوكاس؟».

رد: «اهدئي، إنني أمزح...».

سألته: «تمزح!؟ وما المضحك في الموضوع؟».

أجابني: «أعتقد أنه عليك أن تهدئي يا جوليا، ثم فكري في الموضوع، ألم تكوني شكاكة بعض الشيء بخصوص هذا الأمر؟ أعني، أنت لم تخبريني عن ذلك الرجل إلا خلال الأسبوع الماضي، فهل تعتقدين أنني ذهبت إلى هناك وقمت بضربه؟ وكيف تمكنت من ذلك وأنت لم تخبريني أين يسكن؟ حتى

إنك لم تقولي لي اسمه بالكامل! أتوسل إليك جوليا، إنني لم أكتشف اسمك الحقيقي إلا البارحة».

لقد كان على حق. إذ لا يمكن أن يكون هو الفاعل. ولكن، هل يمكن لذلك الموضوع أن يكون مجرد مصادفة؟!

وهنا قلت له: «لست أدري. أنا آسفة».

فرد وقال: «وأنا آسف أيضاً لأنني ضحكت، ولأنني لم آخذ الموضوع بجدية». ثم أمسكنا عن الكلام، فبدا لي نادماً، ثم سألني: «ومتى وقع ذلك الحادث؟».

أجبت: «ليلة الجمعة حسبما أعتقد».

رد علي: «لقد كنت في كامبريدج يوم الجمعة مع ثلة من رفاقي». ثم تردد، وبعدها قال: «يمكنك أن تتحققي من ذلك عبر حسابي على موقع فيسبوك إن أردت، فقد أضاف صديقي إيد الكثير من الصور».

كان حاسوبي أمامي لذا فتحته، فسمعته يقول:

«هل أنت واثقة يا جوليا من أن ذلك الرجل سيكون على ما يرام؟».

قلت: «نعم». ثم فتحت موقع فيسبوك وانتقلت إلى التسلسل الزمني للأحداث على حسابه، إلى أن وصلت إلى ليلة الجمعة، فاكتشفت بأنه كان على حق، إذ ثمة صور له هناك.

شعرت بالسوء وانتابني الإحساس بالذنب، وغمرتني رغبة ساحقة لتحسين جميع الأمور معه فقلت: «لقد كنت غبية حقاً، آسفة».

فرد علي بالقول: «إنك تثقين بي، أليس كذلك؟». كان صوته هذه المرة هادئاً ولطيفاً، وكان له مفعول مهدئ علي، فقد كان ذلك الصوت الذي اعتدت سماعه. لكن، تراءت لي صورة من مكان مجهول، فرأيته يقول الكلام ذاته بالضبط، ولكن لكيت.

سألني: «هل أنت بخير يا جوليا؟».

فأدركت أنني لم أجب عن سؤاله، ولهذا قلت:

«أجل، آسفة، فقد شعرت بالذعر، وهذا كل ما في الأمر». وهنا، أخذ الإحساس بالارتياح يغمر عروقي حينما أدركت حقيقة ما كنت أتفوه به، وعاد النور إلى العالم أمامي، واختفى ذلك الشيء الذي لم ألاحظه، فتابعت حديثي

وقلت: «أعتذر عن كل الأوهام التي تفوهت بها، أعتقد أنني كنت قلقة ».

رد علي: «لا بأس».

قلت له: «كان عليّ ألا أوجّه اتهامي لك». وأخذ السرور يفيض في عروقي؛ ذلك السرور الذي يأتي بعد التخلص من التوتر، فتابعت قولي: «لست أدري ما حل بي».

قال لي: «لا بأس. اهدئي يا جوليا، وسيكون كل شيء على ما يرام».

هل سيكون كذلك بالفعل؟ كنت أريد لذلك أن يحدث، ثم أخذت أفكر بالأوقات السعيدة التي أمضيناها معاً، وبكل الدعم الذي قدمه لي في ما يتعلق بموضوع كيت. فشعرت أنه إن كان بوسع شخص ما أن يجعل الأمور تسير على ما يرام، فلا بد أن يكون هو ذلك الشخص.

إن لصوته ذلك التأثير، ثم إنه يقوم بذلك، إنه يدفعني نحو التحسن والتحلي بهدوء أكبر.

هتف: «اسمعيني، أعتقد أنني قد توصلت إلى شيء ما يتعلق بكيت».

أخذ قلبي يخفق بعنف وقلت: «ماذا؟ وما هو ذلك الشيء؟».

بدا لي أن جوابه سيستغرق دهراً، لكنه قاطع أفكاري بقوله:

«أنا لست واثقاً من ذلك».

هتفت: «ماذا؟ ما هو ذلك الشيء؟».

قال: «ومن المحتمل أنني لم أتوصل إلى أي شيء أصلاً».

سألته: «ماذا اكتشفت؟».

شعرت مجدداً أنه يتردد، إذ لم يكن يريد أن يرفع سقف توقعاتي وآمالي، فقال:

«ثمة موقع...»

قلت: «أي موقع؟».

أجاب: «لا أتذكر، لكنني اكتشفت أن إحداهن قد سجلت فيه واستخدمت اسم جوليا».

هتفت: «جوليا؟».

رد: «نعم، وهذا ما دفعني للبحث مرة أخرى، فوجدت صورة، واكتشفت أنها في الثامنة والعشرين أو التاسعة والعشرين من العمر، وأنها تعيش في

باريس، ثم...».

سألته: «ثم ماذا؟».

قال: «حسناً، إن الشيء الذي اكتشفته هو أنها لم تقم بتسجيل الدخول إلى ذلك الموقع منذ نهاية شهر كانون الثاني».

سألته: «ما اسم الموقع؟».

سألني: «لماذا؟».

قلت: «لأنني أريد أن أجرب معلومات تسجيل الدخول التي نجحت مع موقع encountrz. أريد أن أعرف إن كانت هي أم لا».

سألني: «لِمَ لا تتركين الأمر لي؟».

لأنني أريد أن أعرف.

قلت له: «أرجوك يا لوكاس، فقط أخبرني باسم الموقع، وسألقي عليه نظرة».

أخذ يتنهد بصوت مسموع، وقد كان بمقدوري أن أسمعه وهو يحاول أن يتخذ القرار الأكثر صواباً.

شرع بالقول: «لست واثقاً من أنها فكرة صائبة، لأن كل ما ستصلين إليه هو مجرد حالة من الانزعاج، ثم...»

هتفت: «لوكاس!».

فرد: «اسمعيني، ثمة أمر أعتقد أن علينا القيام به، سأرسل رسالة إلى تلك الشخصية، وإن وصلني منها رد، فسنعرف حينها أنها ليست كيت».

قلت: «ولكنها لم تتصل بالموقع منذ كانون الثاني...».

قال لي: «لا بأس. حسناً، فلتعطيني معلومات تسجيل الدخول الخاصة بكيت، وسأقوم بالمهمة بدلاً منك، ما رأيك؟».

قلت لنفسي: هكذا إذاً، عليَّ أن أقرر الآن إن كنت أثق به أم لا.

لكن، ما الخيار الذي يلوح أمامي فعلياً؟ وهنا أعطيته كلمة المرور وهي Jasper1234

ثم قلت له: «إنه اسم الكلب الذي كبر في بيتنا. والآن عدني بأنك ستجربه».

*

عاود الاتصال بي بعد مرور ساعة، إلا أنني لم أكن قادرة على التوصل إلى قرار، لأنني كنت أذرع المكان ذهاباً وإياباً، ثم أجلس إلى حاسوبي، وأحاول أن أنشغل بعملي، لكنني كنت أفشل في كل مرة. لذا، حينما رن الهاتف هرعت لأرد عليه وقلت:

«آلو».

فأتاني صوته وهو يقول لي: «أعتذر».

سألته: «ألم تتمكن من الدخول؟».

هتف: «كلا...».

قلت: «لعلها استخدمت كلمة مرور مختلفة...»

رد عليّ: «جوليا، رويدك... لقد ردت تلك المرأة على رسالتي، فقد طلبت منها صورة، فأرسلت لي إحدى صورها، أي إنها ليست كيت».

سألته: «هل بإمكاني أن أرى الصورة؟ فربما كانت هذه المرأة تحاول أن تنتحل شخصية كيت...»

رد: «إنها ليست كذلك، إنها امرأة سوداء».

شعرت بأن حماستي قد اختفت كلياً، إذ كان يجدر بي ألا أرفع سقف توقعاتي إلى ذلك المستوى المزيف طالما أن الأمر برمته لم يفضِ إلّا إلى خيبة أمل ساحقة. ولهذا كان أي شعور أفضل من ذلك الشعور، بل حتى الإحساس بالخواء كان أفضل.

سمعته يقول: «سأتابع البحث إن كنت ترغبين بذلك».

قلت له: «إنني أشعر بخيبة الأمل؛ هذا كل ما هنالك».

هتف: «حاولي أن تبعدي عنك ذلك الإحساس. والآن، هل سأراك في الأسبوع القادم، في يوم الثلاثاء؟».

ترددت، فقد كان كل شيء يلمع أمامي بشكل مكثف وشديد، لذا كنت أرغب ببعض الاستقرار وبحالة من الاعتياد، ولهذا أخذت أتذكر الحب العميق الذي أكنه لابني، وكيف اشتقت إليه ليلة البارحة بعدما اكتشفت أن بادي قد تعرض لهجوم. واكتشفت أن هذا الحب لا يتوافق مع ما أقوم به من أمور؛ وكأنني أكتشف تلك الحقيقة للمرة الأولى.

أخذت أذكر نفسي بسبب تحاوري مع لوكاس في بداية الأمر، وبسبب

لقائي به لأول مرة؛ كان ذلك لأكتشف قاتل أختي، كان ذلك من أجل كونر، ومن أجل عائلتي.

إلا أن ذلك لم يساعدني على التوصل إلى ما كنت أريده، كما أن كونر بات يريد مني الآن شيئاً آخر. عندها، قررت أن أخرج معه إلى السينما، ثم نتناول شطيرة لحم مشوي كأي أم وابنها.

ولهذا قلت له: «لا أستطيع، لا يناسبني يوم الثلاثاء، فأنا مشغولة».

في تلك اللحظة، غادرني الإحساس بالانقباض فجأة، فشعرت بالارتياح، وكان لذلك الإحساس طعم رائع. أجل، لقد كنت أنانية، أما الآن فأنا أقوم بالشيء الصحيح.

هتف: «هل أنت مشغولة؟».

قلت: «أجل، أعتذر».

أدركت حينها أنني كنت أحبس أنفاسي؛ إذ كان ثمة شيء ما داخلي يريد منه أن يتشاجر معي، وأن يحتج على انشغالي. أما ما تبقى مني فكان يأمل أن يقترح عليّ يوماً آخر. إلا أنني كنت أريد أن أتأكد من أنه يمكن لأسبوع أن يمر عليّ من دون أن أراه.

ساد الصمت بيننا، فشعرت بحاجتي إلى عذر، ولهذا قلت له: «كل ما هنالك أن صديقتي ستزورني. إنها آنا، وهي تريد مني أن أساعدها في البحث عن فستان زفاف».

سألني: «هل بمقدورها أن تختار يوماً آخر؟».

قلت: «لا، آسفة».

فقال: «حسناً». كنت أريد منه أن يتناقش معي أكثر في الموضوع، وأن يحاول إقناعي، وأن يسألني عن الشخص الأهم عندي؛ هو أم آنا؟

لكنه لم يفعل، بل ودّعني، فانتهت المكالمة بلحظة.

الفصل العشرون

وجاء يوم الثلاثاء؛ ذلك اليوم الذي خصصته لكونر بعدما قررت أننا سنقوم بكل ما يريده في ذلك اليوم. إذ خصصت له ذلك اليوم لأنه يستحقه، فبدا لي مبتهجاً أكثر، وأصبح يتحدث أكثر، وعاد إلى سابق عهده.

وفي عطلة نهاية الأسبوع ذهبنا لنعود بادي، وكانت تلك الفكرة فكرة هيو. غير أن وضع بادي لم يكن سيئاً كما كنت أتوقع، بالرغم من أن عينيه كانتا متورمتين، وآثار الرضوض بادية عليهما، إلى جانب السحجة الموجودة على خده. لكنه لم يستطع أن يحدد عدد الأشخاص الذين قاموا بمهاجمته، أو حتى إن كانوا أكثر من واحد. ثم إنهم لم يسلبوا منه شيئاً، بل اكتفوا بالاعتداء عليه بالضرب فقط، غير أنه لم ينظر إليّ طيلة الوقت الذي قضيناه عنده.

نهضت مبكرة، إذ لم أكن قد نمت جيداً، وذلك لأنني ليلة البارحة كنت قد رأيت الشبح ذاته من شباك غرفتي، وقد بدا لي حقيقياً هذه المرة أكثر من أي وقت مضى، أي بدا لي مادياً أكثر؛ حتى إنني خلت أنني رأيت توهج لفافة تبغ. ولكن، كما يحدث دوماً، حينما أبعدت ناظريّ لأتحدث إلى هيو ثم عاودت النظر إليه، كان قد مضى بعيداً، هذا إن كان موجوداً هناك أصلاً.

كان قد غُشّي بصري حينما نزلت إلى الطابق السفلي، فوجدت هاتفي هناك، واكتشفت أن هناك مكالمة فائتة أخرى من أدريان من ليلة البارحة، فشعرت بالذنب، لأنها مسافرة، وتريد أن تعرف إن كانت هديتها قد وصلتني أم لا؛ إذ كانت هديتها لي عبارة عن عقد من الفضة كنت قد أبديت إعجابي به منذ أشهر حينما خرجنا للتسوق معاً. وقد أوردت في رسالتها الأخيرة لي: «فقط أعلميني بوصولها، ودعينا نلتقي في أقرب فرصة، فأنا مشغولة كالعادة، لكنني أتحرق شوقاً للقائك! عاودي الاتصال بي».

لكنني لم أقم بذلك، ولم أكن متأكدة من السبب الذي منعني من القيام بذلك؛ إذ لعل ذلك يعود إلى الحقيقة التي تتمثل في أنها تعرف الكثير عني،

وأنها ستكتشف أمري مباشرة إن حاولت أن أخفي عنها أي شيء، هذا إلى جانب الكذبة التي تفوهت بها أمام هيو، والتي تخص أمر وقوعي على السلم المتحرك، ولهذا كان عليّ أن أوجد مسافة بيني وبينها. وقد كان من السهل تجنب أدريان؛ لفترة قصيرة فقط.

تناولت أنا وكونر طعام الفطور أمام التلفاز، وحينما فرغنا سألته عما يريد القيام به في ذلك اليوم، فسألني إن كان بوسعنا أن نخرج لنشاهد فيلماً، فقلت له: «بالطبع!». وطلبت منه أن يختار فيلماً يعجبه مهما كان نوعه، فاختار فيلم كوكب القرود الجديد، وعندها شعرت بالإحباط، لكنني كنت حذرة؛ لذا حاولت عدم إظهار تلك المشاعر.

مشينا إلى السينما، وذلك عبر طريق آيسلينغتون غرين، فأدركت أن وقتاً طويلاً قد مضى على آخر مرة قمنا فيها بذلك معاً. كنت قد افتقدت هذه المتعة، لذا أخذت أسأل نفسي إن كان هو يفتقدها أيضاً. ومن حيث لا أدري، أتاني إحساس عميق بالمحبة، لكنه كان ممزوجاً بالإحساس بالذنب. ثم خطر ببالي أنه بما أن كيت قد رحلت، فلم يبق لي من الأقارب سوى كون؛ إذ كان الشخص الوحيد الذي يشاركني الحمض النووي ذاته، وهنا أدركت أن كيت كانت صلة الوصل بيننا جميعاً، أي بين أمي وأبي وبيني، وبينها وبين كونر الآن؛ لقد كانت محور كل ذلك.

كان علي أن أقول شيئاً، وكانت الحاجة إلى قول ذلك الشيء طاغية، وهذا ما دفعني لأقول له: «أنت تعلم أنني أحبك، أليس كذلك؟». فما كان منه إلا أن نظر إليّ. غير أن تعابير وجهه بدت لي مبهمة، وكأنه كان محرجاً من كلامي بعض الشيء. وللحظات، رأيت فيه ذلك الفتى الصغير الحساس الذي بقي داخله، وهو يحاول التأقلم مع عالم الكبار الذي وجد نفسه يغرق فيه يوماً بعد يوم. لكن كل هذا اختفى بعد ذلك، ثم ظهر شيء ما على وجهه لفترة وجيزة، وقد كان الشعور بالألم حسبما أعتقد، غير أن ما أعقبه بعد ذلك كان تلك العزيمة التي اعترته، والتي أخذت تدفعه للتغلب على الألم.

هتفت: «هل كل شيء على ما يرام يا كونر؟».

أخذ يهز رأسه إيجاباً وهو يرفع حاجبيه كما هي عادته؛ فقد كانت هذه الإيماءة معهودة منه، وهي تعني التأكيد على أمر ما، لكنها الآن كانت تلقائية

للغايـة؛ لدرجـة أنهـا لـم تكن تعني أي شـيء على الإطـلاق. بعدها قال لي: «أنا بخير». ثم عبرنا الشارع، وتوقفنا كلانا في الوقت نفسه في الجهة المقابلة، وكأننا كنا قد تدربنا على ذلك سلفاً، وهنالك أعقب كلامه بقوله: «بصدق».

أحطـت كتفيـه بذراعـيّ، فقـد كان يكـره فـي بعـض الأحيـان أن يقوم أحد بمعانقته، لذا خمنت أن الوقوف في وسط شارع آبر ستريت أحد تلك الأحيان، ثـم قلـت لـه: «بإمكانـك أن تتحدث إلّي يا كون.، وهنـا أخذت أتذكر كم مضى من الوقت منذ أن كنت أناديه بهذا الاسـم. ولكن، هل كان هو من طلب مني أن أتوقف عن مناداته به، أم إن الاسـم أخذ يتلاشـى من كلامي؟ لعل ذلك ما يحـدث دومـاً بيـن الأمهـات والأبناء. قلت له: «أرجـوك تذكر ذلك، فأنا هنا من أجلك دائماً».

شعرت بالذنب وأنا أقول له ذلك، إذ هل كنت حقاً هناك من أجله؟ كلا، لم أكن كذلك خلال الفترة الأخيرة.

رد علي: «أعرف».

وهنا شـرعت بالقول: «إن الأسـابيع... الشـهور القليلة الأخيرة... »، لكنني لـم أكـن أعـرف إلـى أين سـيفضي حديثي، فقد كنت أحاول إحـداث صلة بيني وبينه، وكان ينبغي لي ألا أخاطر بتلك الصلة، فتابعت: «... لم تكن سهلة على الإطلاق، وأنا أعرف ذلك، وأعرف أنها لـم تكن كذلك بالنسبة لي ولك». عندها، أخـذ ينظـر إلـي، إلا أننـي كنت أريد منه أن يـسـامحني، وأن يقول لي إنني كنت هناك من أجله، وإنه كان بخير، لذا أكملت: «أعرف أن تلك الأيام كانت عصيبة بالنسبة لك أيضاً يا كونر، وأريد منك أن تعرف ذلك، وأنا أتفهم الأمر تماماً».

لكنـه أخـذ يهـز كتفيـه بعدم مبالاة؛ تماماً كما توقعت منه أن يفعل. ثم بقي صامتـاً، لكنـه أخـذ ينظـر إلي وقد علت وجهه تعابير الامتنان، فـسـرى شـيء ما بيننا؛ وكان حتماً شيئاً إيجابياً.

في السينما، ذهب كونر إلى الحمام بينما كنت أقوم بشراء تذكرتَي الدخول لكل منا عند الآلة. وبعد ذلك، وقفت في الصف لأحصل على الفوشـار الذي وعدته بشرائه له. وحينما عاد من الحمام، أخذنا نشق طريقنا نحو الصالة. كنت أعتقـد أن المـكان لا بـد أن يكـون مزدحماً، إلا أن الحضور كان أقل من نصف

الصالـة. كان النـاس موزعيـن هنـا وهنـاك، ومعظمهم في ثنائيـات. لذا، اقترحت عليه أن نتجه نحو صف مقاعد كان خاوياً تقريباً، وكان يقع في الوسط من جهة الخلـف، فوافـق علـى ذلك، ثم جلسـنا هنـاك. إلا أن الفيلم لم يكن قد بدأ بعد حينما امتلأت الصالة بمعزوفة أصوات القوارير وهي تفتح، وصوت المشروبات التي كانـت تنزلـق داخل الأفواه بسـرعة بواسـطة المصاصـات، وصوت أكياس الحلويات أو الرقائق وهي تمزق. قمت بتمرير الفوشـار إلى كونر، ثم همسـت لـه: «هـل حصلـت على كل شـيء تريده؟»، فأخبرنـي بأنه قد حصل على كل ما يريده. كان يتفقد هاتفه، ويبحث فيه وكأنه يشعر بالذنب، فاعتقدت أنه لا بد أن يكون قد تلقى رسالة من حبيبته إيفي؛ فقد كان يذكرها بين الحين والآخر، وقد أخبرنـي بأنهـا لـم تكن موجودة فـي حفلة كارلا، لكنه كان يراوغ في ذلك، لأنه كان لا يزال في العمر الذي تمثل خلاله مناقشة الأمور التي تتعلق بالحبيبة مع الوالدين أمراً محرجاً. ولهذا، ومن دون تفكير مني، ولأؤكد له أن الأمور بخير، أمسكت حقيبتي وأخذت أتفقد هاتفي أنا أيضاً.

كانت قد وصلتني رسالة من لوكاس، فشعرت بالارتياح؛ إذ كانت محادثاتنا القليلة الأخيرة قد أصبحت باردة. ومنذ أن التقيته آخر مرة، كنت قد وجهت له اتهاماً وأخبرته بأنني لا أرغب برؤيته اليوم، ولهذا كنت أظن أنه لا بد أن يكون قد اتخذ قراراً بشأن إنهاء الأمور قبل أن أفعل أنا ذلك، ولا بد أنه قد فكر بأن ينهيها بهدوء، لكنه برسالته كان يسألني: «كيف حال التسوق؟».

فكتبت له ردي على عجل:

«ممل، غير أنني أشكرك على اهتمامك».

ثم ضغطت زر الإرسال، وكان ثمة شيء ما في داخلي يأمل ألا يقوم بالرد علـى الرسـالة، لكنني أبقيـت هاتفـي في يدي لأكون جاهزة فـي حال رد علي. وبالتأكيد، وبعد مرور لحظة واحدة وصلني رد منه يقول فيه:

«أتمنى لو كنت معك».

فابتسـمت في سـري، إذ تلاشـى غضبه مني؛ هذا إن كان قد غضب مني أصلاً، فقد أصبحت سخيفة مؤخراً.

كتبت له: «وأنا كذلك». ثم ضغطت زر الإرسال مرة أخرى، وبعدها أطفأت جهازي.

ثـم بـدأ الفيلـم. لم يكن الفيلم من النـوع الذي أحبه على الإطلاق، لكنني أخذت أذكر نفسـي بأنني أتيت إلى هنا من أجل كونر. وحينما كنت أنظر إليه، كان بوسـعي أن أراه مسـتمتعاً بذلك. لذا حاولت أن أسـترخي، وألا أفكر بأمر لوكاس، وأن أتجاهل الإغراء المتمثل بإخراج هاتفي من حقيبتي لأتأكد إن كان قد أرسل رداً، وهكذا أخذت أركز على الفيلم.

وبعد مرور دقيقة أو أكثر، قام كونر بتغيير وضعية سـاقيه، فاندفع شـخص ما متجاوزاً إياه وهو يتمتم: «آسف». وذلك أثناء مروره. كان ذلك الوضع غريباً حسـبما كنت أعتقد، فقد كان هذا الوافد الجديد قد أتى بمفرده، ثم إن العديد من المقاعد كانت شـاغرة، فلِمَ اختار الصف الذي كنا نجلس فيه؟ كان قد مر بطريقي أنا أيضاً، واعتذر مني كذلك؛ بالرغم من أنه كان ينظر إلى الشاشة أثناء مروره. إلا أن دهشتي كانت أكبر حينما جلس على المقعد الموجود على يميني بالضبـط، ففكـرت بـأن أخبـره بأن هنالك الكثير من المقاعد الشـاغرة في أماكن أخـرى، لكننـي عدلـت عـن ذلـك حينما فكـرت: وما الضير فـي أن يجلس هذا الشخص قربي؟ وعدت لمتابعة الفيلم بعد ذلك.

وبعد مرور بضع ثوانٍ بدأت أشعر بضغط على ساقي، لم أكن متأكدة من ذلك في البداية، لكن الأمر أصبح واضحاً، إذ أخذ الوافد الجديد يضغط بساقه على سـاقي، وبدا لي الأمر مقصوداً، بالرغم من أنه لم يكن بوسـعي أن أتيقن مـن ذلـك. نظرت إلى الأسـفل، فوجدت أن سـاقه كانت عاريـة، إذ كان يرتدي سـروالاً قصيراً وفضفاضاً، لذا أبعدت سـاقي عنه مسـافة بوصة أو ما شـابه. فقد يكـون الأمـر عرضيـاً، لـذا لـم أكن أريد أن أثير أية ضجـة حوله. تظاهرت بأنني كنت منشغلة بما أراه على الشاشة، بيد أن ساق الرجل تحركت لتلتصق بساقي مرة أخرى، وبسرعة أكبر هذه المرة، وبشكل مقصود أيضاً، حيث لا يمكن اعتبار ذلك مجرد صدفة.

تجاهلت الموضوع، وأخذت أنظر إلى الشاشة. كانت الأحداث تتم تحت جنح الظلام، ولم يكن بوسـعي أن أرى كل شـيء. لاحظت على وجه الرجل نظارة ذات إطار سـميك، كما رأيت قبعة بيسـبول؛ من تلك القبعات التي تكون صلبـة وتمتـد لمسـافة بعيـدة عنـد مقدمة الرأس. كان الرجل يحدق في الشاشـة

ويفرك النصف السفلي من وجهه بيده اليمنى، وكأنه كان في حالة تأمل عميق.

أبعدت ساقي مجدداً، ثم أخذت نفساً عميقاً وأنا أجهز نفسي لأقول شيئاً ما؛ لأقول له أن يكف عن ذلك أو أن يرحل، لكنني لم أكن واثقة بأي منهما سأبدأ. وفي الوقت ذاته، كان الغريب قد أنزل يده عن وجهه واستدار نحوي، وحينما قام بذلك، انتقلت الحركة على الشاشة فوق سطح الأرض، وانتقلنا إلى مشهد كان النور فيه ساطعاً لدرجة أنه غمر المسرح. وعندها، اكتشفت أن الرجل الذي جلس بجواري لم يكن غريباً، بل كان لوكاس الذي أخذ يتسم لي.

أخذت ألهث، غير أن معدتي في الوقت ذاته كانت قد بلغت ذروة الرغبة، فانفتحت هاوية الخوف أمامي، وبدأت أهوي نحوها. فما الذي كان لوكاس يفعله هنا؟ في صالة السينما هذه بالتحديد! وما الذي كان يجري؟ إذ لا يمكن أن يحدث هذا الأمر صدفة؛ لأنه سيكون سخيفاً للغاية. ولكن، أيمكن أن يحصل ذلك بشكل آخر؟ إنه لا يعرف أين أسكن، إذ لم أكن قد أخبرته بذلك. كنت متأكدة من هذا، كما كنت حذرة طيلة الوقت معه.

إلا أنه أصبح هنا الآن، وأخذ ينظر إلى الشاشة من جديد. كان قد أبعد ساقه عني، وكأنه كان يحاول أن يتجنب أي تماس معي، فعدت للتركيز على الفيلم. وبعد مرور هنيهة قصيرة، أخذت أنظر إلى كونر الذي كان جالساً بجانبي على الطرف الآخر، فبدا لي أنه لم يلحظ أي شيء.

كان قلبي يخفق بسرعة كبيرة، ولم أكن أعرف ما يتعين علي فعله، لكنني كنت أريد أن أقول له: لقد زاد الأمر عن حده كثيراً هذه المرة، وقد شطحت بالأمر كثيراً... ولكن...

إلا أنه أخذ يضغط بساقه على ساقي مرة أخرى، لكنني لم أغيّر مكان ساقي هذه المرة، كما أن بشرته كانت تستمد طاقتها من بشرتي؛ إذ كان بوسعي أن أحس بكل شعرة في ساقه، وبحرارة عضلاته. وبالرغم من أن ابني كانت تفصله عني بضع بوصات فقط، إلا أنني اكتشفت أنني قد أحببت ذلك من لوكاس.

أغمضت عينيّ، إذ كان فكري يدور في دوامة بسبب التشوش؛ فمنذ بضع دقائق كان لوكاس قد أرسل لي رسالة قصيرة حول موضوع التسوق الذي أخبرته بأنني سأقوم به، ولا بد أنه قد عرف قبل قدومه أن موضوع التسوق كان محض كذب. ولكن، كيف عرف أنني هنا؟

أخذت أنظر إلى كونر مرة أخرى. كان منشغلاً بالفيلم، وكانت يده تنزل بين الفينة والأخرى إلى علبة الفوشار التي كانت على حضنه. وبعد قليل، التفت لأنظر إلى لوكاس، فبدا لي مركزاً على الفيلم أيضاً. ولا بد أنه قد أحس بنظراتي، فأخذ يستدير ببطء نحوي، حيث يستطيع أن ينظر إليّ مباشرة، وكأنه كان يريد أن يتأكد من أنني عرفته. فنظرت إلى عينيه مباشرة، ثم سألته ذلك السؤال من دون أن أنطق بحرف، فأخذ يتبسم. لم يكن هنالك أي دفء في الأجواء، فشعرت بخيبة أمل فظيعة، ثم عدت لمتابعة ما يجري على الشاشة. وبعد مرور بضع لحظات أخذت أحدق إليه مجدداً، لكنه غمزني هذه المرة من دون أن يتخلل ذلك شيء من الدفء في الأجواء، ثم نظر إلى الأمام من جديد. وبعد مرور بضع لحظات وقف ليغادر، وأثناء قيامه بذلك هتف: «عذراً». ثم اندفع متجاوزاً ابني وهو يقول: «مرحباً يا صاح».

بعد ذلك، غادر وكأنه لم يكن موجوداً على الإطلاق.

* * *

ظللت جالسة مكاني، إلا أن أفكاري لم تهدأ، ولم أكن قادرة على التركيز على الفيلم. فقد كنت أفكر بلوكاس، من دون أن أستطيع اكتشاف ما كان يريده أو حتى سبب حضوره، أو كيف عرف أنني كنت هنا.

أخذت يدي تمتد إلى المقعد الذي كان جالساً عليه، وكأنه كان بوسعي أن أحس بوجوده هناك. كان مقعده لا يزال دافئاً، لدرجة أنني لم أستطع أن أتخيل أنه كان كذلك. وهنا بدأت أرتجف، ثم جف لعابي، فتناولت رشفة من الماء الموجود في القارورة التي أحضرتها مع الفوشار الذي أعطيته لكونر. وهكذا، ازدادت حالة الغثيان لدي، فكان لا بد لي من أن أهدأ. ولذلك، أخذت نفساً عميقاً، إلا أن الهواء كان محملاً بروائح شطائر الهوت دوغ التي لم تؤكل بكاملها، وكذلك الكاتشب الذي تم رش كميات كبيرة منه فوق تلك الأطعمة. ولهذا شعرت بالضيق، فأغمضت عينيّ، لكنني رأيت لوكاس.

كان علي أن أخرج لأستنشق بعض الهواء.

ناديت: «تعال».

سألني كونر: «ماذا؟».

قلت: «سنغادر».

اعترض بقوله: «لكن يا ماما!».

هتفت: «إنه هراء».

رد علي: «حسناً، لكنني أستمتع به». كنت أدرك أننا نثير ضجة كبيرة، إذ قام أحد الأشخاص الذين جلسوا في مكان ما في الخلف بالتعبير عن امتعاضه مما كنا نقوم به.

وهنا وقفت، إذ كان علي أن أستمر بالحركة فقلت له: «حسناً، ابقَ هنا، وسأعود إليك خلال دقائق».

ذهبت إلى الحمام، وشعرت بالتوتر وأنا أدفع الباب لأفتحه، فقد يكون لوكاس في هذا المكان؛ إذ كان ذلك ما خطر ببالي. ومباشرة ذهبت أفكاري إلى تلك المرة التي قمنا فيها بعلاقة حميمة في حجرة المراحيض بالقرب من الفندق. لكنه لم يكن هناك، بل رأيت بعض الفتيات اللواتي كن بعمر كونر أو أكبر منه بقليل، وهن يعدلن زينتهن، ويثرثرن؛ إذ سمعت أن إحداهن كانت غير معقولة بحقارتها، أما الأخرى فقد كانت ستجبره على أن يدفع حسبما يبدو. فتجاهلتهن ومضيت إلى إحدى الحجيرات، ثم أقفلت الباب وأخرجت هاتفي الذي لم يكن فيه أي جديد سوى رسالة من هيو يخبرني فيها أن الحليب قد نفد من عندنا. لذا، أرسل لي الرسالة ليسألني إن كان بوسعي أن أجلب معي بعض الحليب.

جلست في الداخل لبرهة من الزمن على أمل أن يرن هاتفي أو تصلني رسالة عبره، أو حتى وجه مبتسم أو غمزة... أو أي شيء يمكنه أن يؤكد لي أن لوكاس كان يحاول أن يتسلى قليلاً. إلا أنه لم يصلني أي شيء، ولم أكن أدري ما الذي كان علي أن أفكر فيه.

اتصلت به، فانتقل هاتفه مباشرة إلى البريد الصوتي. حاولت مرة أخرى، وثانية، وثالثة، وبعد ذلك استسلمت لأنه لم يكن بوسعي القيام بأي شيء آخر سوى ذلك، فوضعت هاتفي في حقيبتي، ثم عدت لأنضم إلى ابني.

الفصل الحادي والعشرون

عدنا إلى البيت، وكنت أشعر بالخدر ولا أستطيع أن أفكر، لكنني كنت أتمنى ألا يكون كونر قد انتبه إلى لوكاس. ولكن، عندما كنا نسير باتجاه البيت قال لي: «ألا تعتقدين أن ذلك الرجل كان غريب الأطوار؟».

كنت وقتها ألتفت يمنة ويسرة وأنتظر كي أتمكن من عبور الشارع، لكنني أيضاً كنت أبحث عن لوكاس، غير أنني لم أجده في أي مكان.

هتفت: «عفواً؟!».

كرر: «الرجل الذي دخل وجلس بجانبنا بالضبط حينما كانت الصالة شبه مظلمة».

قلت: «آه، هو؟». وحاولت أن أبدو طبيعية، لكن لم تكن لدي أدنى فكرةإن نجحت في ذلك أم لا، فتابعت: «بعض الأشخاص غريبو الأطوار».

فقال: «وبالإضافة إلى ذلك، غادر قبل أن ينتهي الفيلم. يا له من مجنون!».

أخذت أتساءل إن كان كذلك فعلاً، وإن كان ذلك جزءاً من اللعبة، ثم تساءلت في سري: هل كان من المفترض بي أن أعتذر من ابني وألحق بلوكاس، ثم أسمح له بالقيام بعلاقة حميمة معي في حجيرة المرحاض؟ أخذت أتساءل في أعماق روحي إن كان ذلك ما كنت أريد القيام به بالضبط.

والآن، أخذ رأسي يدور. إذ لم أستوعب كيفية قيامه بكل ذلك، ولماذا. لكن السبب كان يقض مضجعي. وفي كل مرة يخطر فيها احتمال ما ببالي، كنت أجبر نفسي على تجاهله ورفضه. فلو كان الأمر صدفة، إذاً لِمَ لم يلقِ عليّ السلام؟ ثم إن كانت تلك لعبة، فلِمَ لم يبتسم لي على الأقل حتى أعرف أننا كنا نلهو ونلعب؟

بقيت أقلب تلك الأفكار في رأسي، إذ لا ينبغي لذلك أن يكون ممكناً أصلاً؛ فهو لم يكن يعرف أين أسكن. وبالإضافة إلى ذلك، كان يعتقد أنني ذهبت للتسوق بصحبة آنا.

سـألني كونـر: «هـل أنت بخير يا أمـاه؟». فأدركت أنني كنت لا أزال واقفة في منتصف المطبخ.

تكلفت ابتسامة ثم قلت له: «أعتقد أنني أعاني من الشقيقة». وهنا اعترتني موجـة هلـع أخـرى، فنظرت إلى ابني، وفكرت في سـري: إنـه بات يعرف عني الآن كل شيء، مما يعني أنني لم أعد بأمان، وبدأت أشعر بأنني كنت أختنق.

هتـف كونـر: «هـل أحضـر لك بعض الماء؟». ثم ذهـب وتناول كوبين كانا موضوعين على رف التجفيف قرب حوض الجلي.

فقلت له: «نعم، أشـكرك». وتناولت الكأس منه ثم أخذت أرتشـف منها، غير أن المياه كانت فاترة، فقلت:

«أعتقد أنني سأذهب لأستلقي».

صعدت إلى الطابق العلوي لأكتشـف أن لوكاس لم يكن يرد على هاتفه، ولم أجد رسـائل على هاتفي. فتحت حاسـوبي فرأيته متصلاً، وعندها تضاعف غضبي منه، وكتبت له:

– لِمَ كل هذا؟

لكنني ترددت قبل أن أضغط زر الإرسال، فقد كان الأجدر بي أن أغادر، بل كنت أريد ذلك، لكنني لم أستطع، ولم يكن هنالك أي مخرج من هذه الورطة في هذا الحين، إذ كنت أراه أينما ذهبت.

جاءني رده بعد ثانية فقط ليقول فيه:

– هل استمتعت بذلك؟

أخذت ألهث؛ إذ لم تكن لديه أية فكرة حول ما كنت أشعر به، وما فعله بي.

– كيف عرفت مكاني؟

لم يأتني منه أي جواب لفترة طويلة، فأخذت أشتمه في سري وأقول: اللعنة عليك... اللعنة عليك، إلى أن جاءني منه أخيراً هذا الرد:

– اعتقدت أنها ستكون مفاجأة رائعة.

مفاجأة رائعة؟! كان بودي أن أضحك لو لم يكن جسـمي بأكمله يرتجف رعباً.

سألته:

– كيف عرفت؟
– كان علي أن أبدع في ذلك.
– والمعنى؟
ساد الصمت بيننا، واستمر لفترة أطول من السابق، ثم قال لي:
– لا تخافي، فقد كنت في آيسلينغتون، وهناك يوجد متجر للتحف كنت قد اعتدت على الذهاب إليه بين الحين والآخر، فرأيتك في الطرف الثاني من الشارع، وتبعتك.
قلت لنفسي: تحف؟!!! منذ متى وهو يهتم بالتحف؟! إنني لا أعرف أي شيء عن هذا الرجل.
أرسل لي يقول:
– اعتقدت أن ذلك سيكون ممتعاً.
– ممتعاً؟! لقد أفزعتني!
أخذت أقرأ رسائله مرة أخرى، لأنني كنت أريد أن أصدقه، لكنني لم أستطع ذلك. إذ كيف حدث أنه كان يتسوق في آيسلينغتون؟! أهي صدفة؟ وحتى لو كان الأمر كذلك، كان سيرسل لي رسالة بكل تأكيد.
لكنه لحق بي عوضاً عن ذلك، ثم جلس إلى جانبي، وأخذ يغمزني في العتمة. واكتفى بالحديث إلى ابني من دون أن يتحدث إلي. ثم إن تعابير وجهه لم تكن توحي بأنه شخص يحاول أن يبهج شخصاً آخر بمفاجأة رائعة، بل كانت تعابيره تشبه تعابير وجه شخص كان يعتقد أنه قد اكتشف شيئاً ما.
أرسل لي يقول:
– هل أفزعتك؟ لِمَ؟ ماذا كنت تعتقدين أنني سأفعل بك؟
– لست أدري.
أدركت فجأة _ وكانت تلك لحظة صفاء ذهني محضة، حينما يصبح كل شيء كان يبدو في السابق مشوشاً ورمادياً، صافياً وشفافاً كالماء الزلال البارد _ بأنني تورطت معه من أجل ابني، إلا أن ابني الآن قد أصبح في خطر، لذا لم يكن أمامي أي خيار سوى أن أنهي هذه العلاقة.
حاولت أن أتخذ قراراً بناء على هذه الفكرة، ولكن حتى حينما قمت بذلك كان ثمة شيء داخلي أقوى مني يحاول أن يستبعد هذه الأفكار. وفي تلك

اللحظة، أرسل لي لوكاس رسالة أخرى يقول فيها:
- ما الذي كنت تريدين مني فعله؟
- ماذا؟
- في السينما، أخبريني.
شعرت برغبة بالصراخ؛ إذ كيف كان بوسعي أن أجعله يفهم أن الأمر لم يكن مجرد لعبة؟ لقد أصبحت أمور كثيرة الآن على المحك، وهي أمور يمكن أن أخسرها إلى الأبد.
- ليس الآن يا لوكاس، أتفهمني؟
ضغطت زر الإرسال، ثم جلست مجدداً، فقد كنت أريد منه أن يستوعب ما قام به، ومدى الرعب الذي أشعرني به، كنت أريد منه أن يعرف أن ثمة خطوطاً ينبغي لنا ألا نتجاوزها.
وردني رده بعد بضع ثوان حيث قال:
- أخبريني، كيف كنت تريدين مني أن ألمسك؟ فقد كان ذلك واضحاً. أخبريني أنك كنت تتخيلين ذلك، أمام كل الناس الذين كانوا موجودين.
قلت له:
- لن أخبرك.
فرد:
- ما الخطب؟
لكنني لم أجب، ولم تكن هنالك طريقة لتجنب ذلك، كما أنني لم أكن أريد لتلك المحادثة أن تتم عبر الإنترنت؛ إذ لم يكن بمقدوري أن أشرح له ما فعله بي، فلا الوقت ولا المكان كانا مناسبين لذلك. لم أكن أريد أن أراه مرة أخرى، لكن لم يكن أمامي خيار آخر ولهذا قلت له:
- أريد أن أراك لأمر هام.
- كما تشائين.
ثم مرت فترة صمت طويلة، وبعدها أرسل لي رسالة يسألني فيها:
- بالمناسبة، من ذلك الفتى؟

«إنه ابني». كان يجلس قبالتي، وكنا نتناول طعام الغداء. وبالرغم من أنني

أتيت إلى هذا المكان باختياري، إلا أنني تمنيت لو اقترحت عليه مكاناً أكثر عزلة. فقد كان يريد أن نلتقي في فندق، لكنني كنت أعرف أن هذه الفكرة لم تكن صائبة، ولهذا ذهبنا إلى مطعم يشرف على النهر، وجلسنا في الخارج تحت مظلة، حيث كان خط النقل يتجاوزنا ليصل إلى المحطة.

لم أسأله عمّا اكتشفه في ما يتعلق بملفات كيت وحساباتها الشخصية عبر الإنترنت، لأنني كنت أشك في أنه قد تخلى عن هذا الموضوع؛ هذا إن كان قد بحث بجد أصلاً.

هتف: «ابنك؟!». ولوهلة خلت أنه لم يكن يصدقني، لكنه أردف: «لكنك لم تخبريني بذلك».

قلت: «أجل». وتنهدت، كان علي أن أكون صادقة، فقد حان الوقت لكي أكون كذلك ولهذا قلت له:

«كنت أريد أن أخفي الموضوع عنك».

لكنني فشلت في ذلك، فقد أصبح لوكاس يعرف كل شيء الآن، بل يعرف أشياء كثيرة. فما بدا لي مطواعاً وسهل الانقياد أصبح الآن خارج السيطرة، وما أخفي في الصندوق تحرر منه وخرج بعدما كسر الصندوق.

أخذت أنظر إلى هذا الرجل، وشعرت كما لو أنه يمتلكني، وكان علي أن أسترد نفسي منه.

سألني: «ما اسمه؟».

فجفلت، وكانت ردة فعلي هذه ناجمة عن رغبتي بحماية ابني، إلا أنني كنت غاضبة أكثر مما كنت أتخيل.

حوّلت نظري بعيداً عنه، فرأيت رجلاً في الطرف الآخر من الشارع يرتدي ملابس ضيقة من نوع قماش ليكرا، ويتجادل مع سائق لا بد أنه قد صدمه بدراجته.

التفت إلى الوراء وقلت: «لا أريد أن أخبرك. فكما قلت لك، كنت أريد أن أخفي الأمر عنك».

سألني: «ألا تثقين بي؟».

أجبت: «إن الأمر ليس بهذه البساطة يا لوكاس، فقد كنت أريد أن أبقي ما كان بيننا بعيداً عن حياتي الواقعية. أردت أن أبقيه بعيداً عن كل شيء؛ إذ لم

أكن أريد أن أضطر إلى التفكير بزوجي وكذلك ابني».

هتف: «ما كان بيننا؟!!!». جاءت جملته تقريرية ولم تكن استفهامية.

قلت: «عفواً؟!».

رد: «لقد قلت: ما كان بيننا، واستخدمت الزمن الماضي، فهل أعتبر أن ما بيننا قد انتهى؟».

لم أجب، إذ لم يكن اختياري للكلمات يأتي بشكل محسوب ودقيق، لقد كان خطئي خطأ فرويدياً، لكنني كنت قد ارتكبته، ولم يعد الأمر يحتاج الآن إلى أكثر من كلمة واحدة. كان بوسعي أن أقول أجل، ثم أقف. كان بوسعي أن أمضي، وأن أغيّر رقم هاتفي، وألا أتصل بتلك المواقع بعد اليوم، وهكذا لا بد أن يصبح كل شيء من الزمن الماضي. كان ذلك خطأً، لكنه كان من النوع الذي يمكن التراجع عنه بسهولة. إذ لم يكن لوكاس قد زار بيتي، ولا يعرف أين يكون، وكذلك أنا لا أعرف أين يقع بيته. نعم، لقد ارتبطنا، لكن ارتباطنا لم يكن وثيقاً إلى تلك الدرجة التي لا يمكن معها لقرار حاسم وحيد أن يفرقنا بسرعة وبسهولة، وللأبد.

ولكن، هل كان ذلك كل ما أريده؟ كنت أفكر في طريقي إلى هنا بأن ذلك كل ما أريده، إلا أنني لم أعد متأكدة من ذلك الآن. إذ عندما جلست هنا، فقدت قدرتي على حسم الأمور، وأخذت أتساءل: هل سيؤذي أحداً بالفعل؟ إنه يبدو لي لطيفاً للغاية، ومحباً للغاية. أخذت أفكر بليالي الوحدة الطويلة، وبالعودة إلى تلك الأيام التي كانت فيها أي رسالة جديدة على هاتفي لا تحمل بين طياتها أي شيء مثير أكثر من قيام هيو بإخباري بأنه سيتأخر مرة أخرى، أو قيام كونر بسؤالي إن كان بوسعه أن يقضي وقتاً أطول خارج البيت.

هتف: «انظري». وكان قد تقدم نحوي وفتح ذراعيه ليهز كتفيه، ففوجئت مرة أخرى بحضوره، وبجسمه الذي تراءى أمامي، وكان متقداً، وبأبعاده الثلاثة، حيث يبدو كل شيء ثنائياً، ثم قال لي: «لقد اختلطت علي الأمور في السينما، لذا أعتذر لأنني اعتقدت أنك سررت بذلك فعلاً».

أجبته: «كلا، لم يعجبني ذلك». واختلست نظرة إلى كتفه وسط الجدال الذي بدأ يفقد زخمه الآن، ثم عاودت النظر إليه.

قال لي: «لقد كانت صدفة، وهذا كل ما في الأمر. فقد كنت في آيسلينغتون،

ولم أكن أعرف أنك تسكنين بالقرب من تلك المنطقة».

هتفت: «لوكاس...»

رد: «ألا تصدقينني؟».

سألته: «ماذا كنت تفعل في آيسلينغتون؟».

تردد لجزء من الثانية، لكن تلك المدة كانت كافية لأحكم على كلامه بأنه كذب، حيث قال: «لقد أخبرتك، كنت أتسوق. فأنا أذهب إلى هناك كثيراً حينما أكون في المدينة».

سألته: «إذاً، لماذا كنت في المدينة؟».

رد: «إنني آتي إلى هنا كل ثلاثاء إن لم تكوني قد لاحظت ذلك؛ لأنني عادة ألتقيك في هذا اليوم. كان ذلك بحكم العادة حسبما أعتقد». ثم تنهد وواصل كلامه قائلاً: «لقد اشتقت لك، وبدا يومي ضائعاً بدونك، لذا فكرت بالذهاب إلى المدينة على أية حال».

قلت له: «وهل تتوقع مني أن أصدق كل ذلك؟».

فقال: «لقد كنت منزعجاً، وأردت أن أراك؛ فقد كان ذلك اليوم هو اليوم المخصص لنا، لكنك ألغيت موعدنا».

قلت: «إذاً، كنت في آيسلينغتون هكذا بصورة اعتباطية، وتصادف وجودك في المكان الذي كنت فيه حينما كنت ذاهبة برفقة ابني إلى السينما؟!!!».

رد: «أنت تعرفين أن الصدف تحدث».

وجدت نفسي أتمنى لو أستطيع تصديقه.

هتف: «إنك تعتقدين أنني كنت أتبعك، ممّا يعني أنك أصبحت مريضة بمرض الشك فعلاً».

أجبته: «لا يجدر بك أن تتفوه بكلام فظّ كهذا».

رد: «آسف، ولكن أصغي إلي. لقد رأيتك وأنت تعبرين الشارع، وأنا صادق في ذلك، ثم إنني لم أفكر بشيء إلا أنت طيلة أسبوع كامل، ولهذا تبعتك. قد يكون ذلك خطأ...»

هتفت: «إنه كذلك».

فرد: «لكنني أصبحت مجنوناً بك، فانا أفكر بك طيلة الوقت».

قلت: «لوكاس...»

هتف: «أخبريني أنك كنت تفكرين بي».
قلت: «بالطبع كنت أفكر بك، ولكن...»
سألني: «إذاً، ما المشكلة؟».
قلت: «لا أدري. كل ما أريده... لقد أفزعني ذلك، فقد كان ذلك... خطراً».
رد: «فعلت ذلك لأنني ظننت أنك تحبين المخاطرة والمخاطر؟».
قلت: «ليس بهذه الطريقة».
هتف: «لكن هذا ما كنت تقولينه لي».
رفعت صوتي وقلت: «ليس كذلك، وليس حينما يكون كونر جزءاً من الموضوع».
فكرت في سري: اللعنة، لقد أخبرته باسم ابني، لكن الأوان قد فات الآن.
إلا أنه لم يقل شيئاً، وبقينا صامتين هنيهة، ولم يشرع أحد منا بتناول الطعام الذي كان أمامه، والذي كانت يتألف من شطيرة له، وسلطة لي. فخطر ببالي أنه لم يسبق لنا أن تناولنا وجبة معاً كما ينبغي، ومر بخاطري أننا لن نفعل ذلك على الإطلاق.
سألته: «كيف عرفت أننا كنا سنحضر ذلك الفيلم؟ وهل كنت تسترق النظر حينما كنت أشتري التذاكر؟».
لكنه لم يجب عن سؤالي.
هتفت: «أريد أن أثق بك يا لوكاس».
قال: «إذاً ثقي بي. فأنا لم أكذب عليك قط، لكنني ارتكبت غلطة، وهذا كل ما في الأمر. ثم إنني لم أكن أطاردك، ولم أهاجم صديقك، أعني بعد كل ما مررتِ به وعانيته».
بدا لي غاضباً، لكنه كان مجروحاً أيضاً، وهذا ما قربني أكثر من الاقتناع بكلامه، لكنني مع ذلك كنت غير متأكدة؛ ليس تماماً.
كنت قد أتيت إلى هنا لأنهي ما كان بيني وبينه، ولأخرج من العلاقة التي تجمعنا، لكنني أصبحت الآن غير واثقة من قدرتي على ذلك؛ إذ لم يكن الأوان قد حان للقيام بذلك.
قلت له: «آسفة».
فرد: «يجب أن تثقي بي يا جوليا».

نظرت إلى الطبق الموضوع أمامي ثم قلت: «إنني أجد صعوبة في منح ثقتي لأي شخص».

وهنا مد يده وأمسك بيدي، ثم هتف: «كونر». وكأنه كان يجرب الاسم ليرى وقعه عليّ، وكيف سيبدو لي، ثم تابع: «لماذا لم تخبريني بأن لديك ابناً؟».

نظرت إلى خاتم الزواج الذي كان يضعه، إذ كنت أريد أن أقول له: وأنت لم تخبرني بأنه كانت لديك زوجة؟ إذ ها قد بدأت الأمور تتضح أمامنا، حيث ظهر الخاتم أولاً، ثم تكشفت حقيقة كونه لم يقترح علي أن أرافقه إلى كامبريدج ولو لمرة واحدة، بالرغم من أن تلك المدينة لا تبعد عنا كثيراً.

قلت له: «إنك متزوج، أليس كذلك؟». فجاءه كلامي خافتاً وهادئاً، وكأنني لم أكن أريد منه أن يسمعه بالفعل.

رد: «لقد كنت كذلك، وأنت على علم بذلك».

قلت: «أعني أنك ما زلت متزوجاً. هيا، اعترف بذلك».

هتف: «كلا». وبدا لي غاضباً ومصدوماً؛ إذ كيف كان بمقدوري أن أشير إلى شيء كهذا؟

ثم تابع: «لقد أخبرتك بالحقيقة، ولم أكذب قطّ في ما يتعلق بهذا الموضوع».

أخذت أراقب غضبه وهو يتحول إلى ألم داخلي عميق لا تخطئه العين. لقد كان ذلك ألم الفقدان؛ وهو شعور أعرف كنهه بالضبط، ولهذا شعرت بالذنب لوهلة، كما شعرت بالأسى من أجله، ولم يكن بوسعي أن أمنع نفسي من ذلك. وهكذا، صرت أتمنى لو أنني أقحمته في حياتي، وأخبرته عن ابني منذ بداية علاقتنا.

قلت له: «عدني».

فأخذ يدي بين يديه وقال: «أعدك».

فأدركت حينها أنني كنت أصدقه.

قلت له: «لقد عانى ابني كونر كثيراً، ولهذا كنت أريد أن أحميه».

سألني: «وهل ظننت أنني قد أؤذيه؟».

أجبت: «لا. لكنني لا أحاول أن أحميه من الناس، بل من المواقف، فهو بحاجة إلى الاستقرار». ثم أخذت نفساً عميقاً، وبعده قلت: «إن الأمر معقد،

فكونر هو ابني بالتبني، ثم إنه... إن أمه هي شقيقتي».

أخذت أنتظر ريثما يستوعب ما قلته له.

سألني: «أتقصدين شقيقتك التي ماتت مقتولة؟».

أجبت: «نعم».

ومرت فترة صمت طويلة، سألني بعدها:

«ومتى تبنيته؟».

أجبت: «حينما كان صغيراً جداً، وذلك لأن شقيقتي لم تستطع التأقلم مع ظروفها، لذا أخذنا نعتني به».

سألني: «وهل يعرف هو بذلك؟».

أخذت أهز رأسي إيجاباً، فصمت لفترة من الزمن، وبعدها قال: «آسف».

أخذ ينظر إليّ، إلا أنه لم يكن لديّ أي شيء أقوله؛ إذ كنت خائرة القوى، ومتجردة من كل شيء، ولهذا شرعت بتناول طبق السلطة الخاص بي. وبعد دقيقة أو اثنتين سمعته يقول: «إذاً، هل هذا كل ما في الأمر؟».

سألته: «أي أمر؟».

أجاب: «استخدامك للزمن الماضي خلال محادثتنا، وحقيقة كونك لا تريدين أن نذهب إلى أي فندق. هل تريدين مني أن أدعك وشأنك؟».

كان يجب أن يكون الجواب: نعم. لكنني ترددت، ولم أكن أدري سبب ترددي. لكنني كنت أعرف أنني سأفتقد الإحساس بالرغبة، وسأفتقد ذلك الإحساس المتبادل بها، كما سأفتقد قدرتي على التحدث معه حول أمور لا أستطيع أن أبوح بها لأي أحد سواه.

كنت أريد أن أحتفظ بكل ذلك، حتى لو استمر الأمر لبضع دقائق فقط.

قلت: «لست أدري».

فرد: «لا بأس. لكن، كان لدي إحساس بأن الأمور ستتخذ نوع الحوار الذي يبدأ بعبارة: «آسفة، لكن...» أو «لم أعد أستطيع القيام بذلك..» وأنت تعرفين هذا النوع من الأمور».

أخذت أفكر بشكل عابر: ألم يكن لديك الكثير من تلك الأمور؟ وإن كان الأمر كذلك، فكيف تم الأمر مؤخراً؟ ومن أية ناحية؟ هل كنت الغالب، أم المغلوب؟

أبعدت نظري عنه، وأخذت أفكر بكل ما حدث، فعرفت إلى أي مكان موحش قادني حزني. كنت قد أصبحت هشة وضعيفة، أو لنقل إنني صرت مصابة بمرض الشك، فقد أصبحت أرى الخطر في كل مكان؛ إذ ثمة شخص يقف تحت نافذتي، وقام حبيبي بمهاجمة شخص لا يعرف عنه حتى اسمه الكامل، أو حتى مكان إقامته. ولهذا، إن لم أكن حذرة في تعاملي مع هذه الحالة، فلا بد لها أن تقضي على كل شيء جميل في حياتي.

وعندها، اتخذت قراري، فقلت له:

«لا أريد لعلاقتنا أن تنتهي. إلا أن ما قمت به في ذلك اليوم... أرجو ألا يتكرر، اتفقنا؟ فأنا لا أريد لكونر أن يكون جزءاً من ذلك».

رد علي: «اتفقنا».

قلت: «إنني أعني ما أقوله. فإذا تكرر الأمر فلا بد أن أتركك بكل بساطة».

رد علي: «حسناً». وبدا لي قلقاً، لكن بمجرد رؤيتي ذلك القلق على وجهه بدأت أساريري تنفرج، فقد تغير ميزان القوى، ومع ذلك ثمة أمور كثيرة أخرى بالإضافة إلى ذلك.

أدركت أن هذا ما كنت أريده طيلة الوقت. إذ كنت أريد أن أراه متضايقاً، وأن يستوعب الأمور التي باتت على المحك. كنت أريد أن أراه خائفاً من فكرة أنه من الممكن أن يخسرني يوماً. كنت أريد أن أرى حالة انعدام الأمان التي كنت أعاني منها متمثلة في شخصه.

جعلت صوتي أنعم مما هو عليه وأنا أقول له: «لا أريد المزيد من الألعاب، اتفقنا؟ أعني بذلك جميع الأمور التي كنا نتحدث بشأنها». ثم أخفضت صوتي وقلت: «أي تمثيل الأدوار، والقيام بعلاقة حميمة بخشونة. إذ يجب علينا أن نمتنع عن كل ذلك».

رد علي: «حسناً».

هتفت: «لا يمكنني أن أتحمل وصولك إلى مرحلة الرغبة من دون سابق إنذار؛ إذ ليس بمقدوري أن أعود إلى البيت والرضوض تغطي جسدي».

رد علي: «أوافق على كل ما تطلبينه؛ طالما أنك لن تنهي هذه العلاقة».

مددت يدي وأمسكت بيده ثم قلت: «كيف يمكن لعلاقتنا أن تنتهي؟».

سألني: «ماذا لديك الآن؟».

قلت: «الآن؟ سأعود إلى المنزل».
سألني: «هل سأراك يوم الثلاثاء؟».
أجبته: «أجل، نعم، بكل تأكيد».
رد علي: «أعتذر عن كل الألعاب وكل الأمور التي قمت بها؛ فأنا أعتقد أنني لا أصلح للأمور الرومانسية». ثم أمسك عن الكلام هنيهة، وبعدها قال: «سنقوم في المرة المقبلة بشيء ما، وسيكون هذا الشيء رائعاً، فقط اتركي الأمر لي».

الفصل الثاني والعشرون

مضى أسبوع، وعاد كونر بعده إلى المدرسة، وبذلك اقترب سنة من امتحانات الشهادة، ومن مرحلة بلوغ سن الرشد وما يصاحبها؛ أي اقترب سنة من لحظة الابتعاد عني. كنت قد أرسلت سترته الرياضية ليتم تنظيفها بطريقة التنظيف الجاف، كما أخذته للتسوق بهدف شراء قمصان وحذاء جديد. لم يكن كونر متحمساً حيال العودة إلى المدرسة، لكنني كنت أعرف أن ذلك سيدوم يوماً أو يومين، وبعد ذلك سيجتمع مع أصدقائه من جديد، وستبدأ حياته الاعتيادية في المدرسة، وسيتذكر كيف كان يستمتع بالدراسة. لقد كان هيو على حق حين قال إن كونر ولد صالح.

وفي اليوم الأول لعودته إلى المدرسة، وقفت أمام النافذة وأخذت أراقبه وهو يسير في الشارع. وما إن اجتاز بضع أقدام تجاوز بها نهاية الدرب حتى حل ربطة عنقه، وأخذ ينتظر عند الزاوية، ثم وصل أحد أصدقائه، فصفع كل منهما الآخر على كتفه، ثم انطلقا معاً. لقد أصبح كونر رجلاً.

ابتعدت عن النافذة، وتذكرت أن لدي عملاً يوم غد؛ فالمرأة التي صورت عائلتها منذ بضعة أسابيع، نصحت إحدى صديقاتها بالتعامل معي. كما أن لدي عملاً آخر خلال الأسبوع المقبل. وهكذا، بدأ ذلك الفراغ في روحي يمتلئ، إلا أن شيئاً ما داخلي كان لا يزال يشعر بالفراغ. إذ إن موضوع وفاة كيت كان لا يزال يجتاح كل ما أمارسه من أعمال. ولهذا، حينما غادر كونر لم أكن أدري كيف سأتغلب على تلك المشكلة.

حاولت ألا أفكر بذلك الموضوع، وقلت لنفسي إن اليوم هو يوم الثلاثاء، وسألتقي لوكاس، ولدي فترة الصباح بكاملها لأجهز نفسي. كان الأمر أشبه بأول مرة التقينا فيها، لذا أخذت أسترجع كل تلك الأسابيع والشهور الماضية، وعدت بذاكرتي إلى المرحلة التي ظننت فيها أن الأمر لن يتعدى مجرد الخروج لمرة واحدة، وأن الأمر ليس أكثر من فرصة لأكتشف ما حدث لشقيقتي.

ولكن، كم تغير كل ذلك!

ومع ذلك، كنت أعرف أن علاقتنا لا بد أن تنتهي. وأحياناً كنت أفكر بتلك اللحظة التي سنفترق فيها في نهاية المطاف، والتي ستنهي علاقتنا إلى الأبد، وكنت أسأل نفسي إن كنت سأقدر على التعايش مع الموضوع. ومع ذلك، كان علينا أن نفترق، لأن علاقتي بلوكاس لن تنتهي نهاية سعيدة؛ فأنا متزوجة، وأم، وأحب زوجي وابني، ولا يمكنني أن أحتفظ بكل شيء.

حينما غادرت البيت كانت أدريان توقف سيارتها، فكانت تلك مفاجأة لا تشبه شخصيتها على الإطلاق. أخذت ألوح لها، ففتحت باب سيارتها. كان وجهها كالحاً، وقسماتها توحي بالشدة والقسوة، لذا قلقت وسألتها:

«أهذه سيارتك الجديدة؟».

أجابتني: «لا يهم يا حبيبتي. هل يمكنني الدخول؟».

سألتها: «ما الأمر؟ إنك تخيفينني».

ردت: «أعتقد أنني كنت سأسألك السؤال ذاته». ثم أشارت إلى الطريق التي أتيت منها وقالت: «هلا عدنا».

فجمدت في مكاني، ثم سألتها:

مكتبة

«ما الخطب يا أدريان؟».

أجابت: «لماذا تتجاهلينني؟».

قلت: «حبيبتي... إنني...».

هتفت: «جوليا، لقد كنت أحاول أن أمسك بك طيلة الأيام الماضية».

قلت: «آسفة، لم أكن على ما يرام».

كانت تلك كذبة أخرى، لذا شعرت بأنني حقيرة.

سألتني: «هل حدث لك أي شيء؟ لقد أخبرتني دي بأنك لا تعاودين الاتصال بها هي أيضاً، كما أخبرتني آلي بأنها دعتك إلى حفلة لكنك لم تردي عليها».

سألت نفسي: هل دعتني إلى حفلة؟ لا يمكنني حتى أن أتذكر ذلك. وهنا شعرت بأن شيئاً في رأسي قد غاب، لكنه كان يحاول الدفاع عني بطريقة ما. ثم بدأ عقلي يفيض بالأفكار، أجل، كنت أريد أن أتكلم، إذ ثمة شيء ما كان قد

حدث، كنت أريد أن أخبرها كل شيء، كنت أريد أن يفتضح كل شيء.

لكنني كنت أعرف ما ستقوله لي، فاكتفيت بالسؤال:

«شيء ما حدث! مثل ماذا؟».

أخذت تهز رأسها وهي تقول: «آه يا حبيبتي...».

سألتها: «ماذا؟».

أجابت: «لقد رآك بوب».

فجفلت، ولم أشعر ساعتها بضباب الذنب أو العار يلفني، بل كان إحساسي مختلفاً، وكان حاداً كحدة الشفرة أو المشرط على جلدي.

سألتها: «ماذا رأى؟».

أجابت: «لقد رآك مع رجل، وقال إنكما كنتما تتناولان طعام الغداء معاً».

أخذت أهز رأسي إيجاباً.

سألتني: «هل كان ذلك بالقرب من النهر؟».

توترت، وأخذت نسبة الأدرينالين تفيض في جسمي، لكنني لم أكن لأسمح لها بأن ترى حقيقتي، فقلت: «أتقصدين الأسبوع الماضي؟ نعم، كنت أتناول الغداء مع أحد أصدقائي، ثم لماذا لم يسلّم بوب عليّ؟».

ردت: «كان في سيارة أجرة. هل تقولين لي إنه صديق؟ لقد أخبرني بوب بأنه لم يعرفه!».

حاولت أن أضحك ثم قلت: «أنت تعرفين أن بوب لا يعرف جميع أصدقائي».

وهنا رأيتها وقد بدأت تلين وتخفض صوتها حين قالت: «صديق شاب! لقد أخبرني بوب أن الوضع بدا له حميمياً للغاية. إذاً، من هو ذلك الرجل؟».

أجبت: «إنه شخص التقيته، والتقطت له صورة مع زوجته». ثم بدأت بالمخاطرة حين قلت: «ثم إن زوجته كانت معنا».

هتفت: «لقد أخبرني بوب بأنكما كنتما بمفردكما».

أجبت: «لا بد أنها كانت في الحمام وقتها. ثم لِمَ كل هذا؟ أتعتقدين أنني أعيش قصة حب؟».

فنظرت إليّ مباشرة وقالت: «هل أنت كذلك؟».

أجبتها: «لا!».

ثم أخذت أحدق فيها، وبعدها قلت:

«إنني أصدقك القول يا أدريان».

ردت: «آمل ذلك».

لم أبعد ناظريّ عنها؛ فقد كنت أريد أن أقول لها: إنني كذلك... كنت أريد أن أدافع عن براءتي.

ولكن، هل كنت أريد القيام بذلك ليبدو الأمر حقيقياً، أم لأنني كنت أريد أن أخرج من تلك الورطة؟

قلت: «آسفة، عليّ أن أذهب، عندي تصوير».

إلا أنني لم أكن أحمل أية معدات للتصوير، وقد رأيت أنها لاحظت ذلك، فقلت لها:

«سنتكلم في الموضوع لاحقاً لأنه علي أن أجلب بعض الأغراض من السوق أولاً».

تنهدت ثم قالت: «حسناً. لكن، اتصلي بي لنتكلم كما ينبغي».

أخبرتها بأنني سأتصل.

سألتني: «إلى أين أنت ذاهبة؟ ألا تريدين من يرفع لك معنوياتك؟».

قلت لها: «كلا، فأنا بخير».

هتفت: «عديني بأن تتصلي بي». ثم غادرت.

ركبت سيارة أجرة، وشعرت بأنني كنت عصبية ومتوترة، فقد رآني بوب بصحبة لوكاس. أعتقد أنني نجوت بنفسي لحسن الحظ. لكن، ماذا عن المرات المقبلة؟ ربما قد تراني أدريان بنفسها، أو حتى هيو.

كنت قد أهملت زوجي، وكنت أعرف ذلك، لذا كان علي أن أتخلى عن لوكاس.

أي كان أمامي إما هذا الخيار أو أن أبدأ بالاحتياط أكثر. لكنني لم أكن متأكدة من الخيار الذي كنت أرغب فيه أكثر.

توقفت سيارة الأجرة عند فندق سانت بانكراس، فتوجهت نحو البهو. كانت الأجواء تذكرني بالمرة الأولى التي أتيت فيها إلى هنا، إذ كان الإحساس ذاته بالخطر والإثارة يراودني؛ إلى جانب الفكرة ذاتها التي كانت تشعرني بأن كل

شيء كان على وشك أن يتغير.

توجهت نحو مكتب الاستقبال وأعطيت الموظفة اسمي، فأخذت الموظفة التي كانت تقف خلف المكتب تهز رأسها وهي تقول: «السيد لوكاس؟».

أجبت: «نعم، هذا صحيح».

فابتسمت ثم قالت: «هنالك طرد لك». بعدها، مدت يدها تحت المكتب، ثم ناولتني علبة كانت أكبر بقليل من علبة حذاء، وكانت مغلفة بورق بني اللون، ومربوطة بشريط مخصص للتغليف، وكان اسمي مكتوباً بخط سيئ على واجهة العلبة بقلم أسود اللون. وبعدما تم تسليمي إياها قالت: «وقد طلب مني السيد لوكاس أن أعطيك رسالة». ثم ناولتني قصاصة ورق كتب عليها: «لقد تأخرت. ثمة زجاجة شراب تم وضعها في الثلج في القسم الخلفي من المطعم. أتمنى أن تعجبك الهدية».

شكرت الموظفة، وتساءلت عن سبب قيامه بطلب الشراب لكل منا بالرغم من أنه يعرف أنني لا أشرب. كنت قد بدأت أبتعد عن المكتب حينما هتفت فجأة وأنا أستدير: «أوه، هل لديكم مقص؟».

أجابتني: «طبعاً». ثم ناولتني مقصاً، فوقفت عند المكتب وأخذت أقص الشريط. كنت أفكر بهيو وأنا أقوم بذلك، وأتخيل نفسي وأنا أمسك بالمشرط وأمرره على جسد ملطخ بلون أصفر، ثم أراقب الجلد وهو يستسلم لضربة المشرط ثم ينفجر وينتفخ بالدم الأحمر. أعدت المقص إلى الموظفة، ثم حملت الصندوق إلى أحد الكراسي بالقرب مني. كنت أريد أن أبقى بمفردي وأنا أفتح الهدية.

أخذت نفساً عميقاً، ثم قمت بثني أطراف العلبة إلى الخارج، فباغتتني رائحة لم تعجبني، لأنها كانت مبتذلة وخفيفة وأشبه ببقايا عطر تم استخلاصه من الزهور. وجدت داخل العلبة منديلاً ورقياً ومغلفاً مختوماً، فقمت بفتحه أولاً.

كانت بداخله بطاقة بريدية بلون أبيض كلون القشدة. وهنا أخذت أفكر بالبطاقات التي رميت عبر فتحة الرسائل في بيتي، أي تلك البطاقات التي أخبرته بأنها يمكن أن تكون من بادي، لكنني لم أجد صورة أي امرأة ترتدي ملابس مغرية، ولم أجد أي فتاة تعبس بطريقة مغرية ويبدو عليها أنها ما زالت صغيرة على اتخاذ الوضعية التي اتخذتها، مع التعابير التي كانت على وجهها.

قلبت البطاقة على الوجه الآخر، فوجدت رسالة كتب فيها: «هدية صغيرة... أراك قريباً... ارتديها... لوكاس».

وضعت البطاقة على أحد وجهيها، وقلت لنفسي: إن كان قد أدخل أي قطعة ثياب داخل الصندوق، فلا يمكن أن يتسع المكان لها، ولهذا رفعت الرزمة ثم مزقت المنديل الورقي الذي كان يغلفها.

لقد كان ثوباً ذا لون أحمر فاقع. وكان قصيراً جداً وذا كمين طويلين وظهر مكشوف. وكان بوسعي أن ألاحظ أنه سيكون ضيقاً للغاية، حيث إنه سيحتضن جسدي من دون أن يخفي من معالمه شيئاً، بل سيبرز تضاريس جسمي. حاولت أن أتأكد من مقاسه، فوجدت أنه اختار القياس المناسب، لكن الثوب لم يكن من النوع الذي يمكنني أن أرتديه على الإطلاق، ولا بد أن يكون ذلك هو السبب وراء اختياره له. وتحت تلك الرزمة وجدت حذاء أسود اللون ذا كعب عالٍ طوله 10 سم تقريباً، أي كان أعلى بكثير من الكعب الذي كنت أرتاح فيه. كما كان للحذاء تقوس طفيف عند أصابع القدمين. أخرجت الحذاء من العلبة. كان رائعاً للغاية، وبدا لي باهظ الثمن أيضاً.

لاح لي شيء آخر في قعر العلبة، كان علبة مجوهرات مبطنة وخارجها من الجلد الأحمر الناعم، لذا أخذ قلبي يخفق بإثارة طفولية وأنا أفتح تلك العلبة التي وجدت داخلها قرطين على شكل دمعة ذهبية داخلها تصميم لأربع ورقات نبات، لكنها بدت لي رخيصة الثمن، بخلاف الحذاء.

أخذت أتصرف بعفوية وتلقائية، وكان قلبي يخفق، ولهذا أغلقت العلبة. فقد كان القرطان شبيهين بالقرطين اللذين كانت كيت تضعهما. قلت لنفسي: إنها مجرد مصادفة. بل لا بد أن تكون كذلك، ولا بد أنه نسي موضوع القرط. إن الأمر كان يشبه تلك الحالة حينما ذكر هيو بشكل عرضي أن بادي تعرض للاعتداء بالضرب لكن من اعتدى عليه لم يسلب أي شيء من متعلقاته. لا بد أنني أصبحت مفرطة بحساسيتي، ولهذا كان علي أن أجمع شتات نفسي.

وجدت الحمام، وكنت حينها متوترة ومشتتة الذهن؛ إذ كنت أشعر بأن شيئاً ما لم يكن على ما يرام. أهو الفستان أم الحذاء؟ ثم إن القرطين كانا رائعين، إلا أنهما لا يمكنهما أن يكونا هدية يشتريها شخص لامرأة يهتم بها، ولهذا فهما مجرد شيء زائف يخفي وراءه شيئاً ما. وقد أوضح لوكاس هذه المرة ما كان

يخفيه حتى تلك اللحظة: أي أن كل شيء زائف... مجرد وهم. كان يتوجب علي أن أتحول إلى امرأة أخرى، وأن أخلع خاتم زواجي؛ حتى لو كان يعرف أنني متزوجة. كان علي أن أتظاهر بأنني لست أنا؛ إنها مجرد لعبة، حفلة تنكرية، وهذا بالضبط ما سبق لي أن أخبرته بأنني لا أريده.

إذاً، لِمَ بدأت أتغير؟ لِمَ أخذت أرتدي الفستان؟ هكذا بدأت أتساءل، فبدا لي الأمر وكأنه لم يكن أمامي أي خيار آخر؛ فما كان يحدث كان يتمتع بزخم خاص به، بل كان أشبه بدفعة كانت أقوى من أن يقاومها المرء. كنت أتجه نحو المجهول، نحو شيء لا أعرف كنهه، وكنت أشعر بخفة، لأن ثمة ما كان يشدني نحو الظلمة.

دخلت إلى أبعد حجرة مرحاض عن الباب وأقفلت بابها خلفي، ثم خلعت الثياب التي كنت أرتديها وقتها، ورفعت الفستان أمامي، فانسدل وكأنه ستارة حمراء، ثم أدخلته من رأسي قبل أرفع السحاب لأغلق فتحته. بعد ذلك، وضعت الحذاء ذا الكعب العالي على الأرض وانتعلته، فرفعني طول الكعب إلى مستوى آخر، إلى مكان كنت أتمتع فيه بالقوة. ثم قمت بخلع قرطيّ ولبست عوضاً عنهما القرطين اللذين أهداني إياهما. كان التحول الذي حدث لي جذرياً؛ إذ أصبحت امرأة أخرى، فقد اختفت جوليا من المكان.

خرجت من الحجرة وتوجهت نحو المرآة، كان شكلي قد تغيّر، وبدا كل شيء مختلفاً، فلم أعد أعرف من أنا، وكنت سعيدة بذلك.

أخذت أبتسم لصورتي المنعكسة على صفحة المرآة، إلا أن امرأة غريبة أخذت تبادلني النظرات. كانت جميلة وواثقة من نفسها تماماً، فبدت لي شبيهة بكيت قليلاً، بالرغم من أنها كانت أنحف وأكبر سناً. كل ما حدث بعد ذلك هو أن باب الحمام أغلق خلفي حينما خرجت وأنا أتنفس الصعداء.

بدأت أشعر بالاسترخاء حينما وصلت إلى المطعم، حيث عاد نبض قلبي إلى سرعته الطبيعية، وأصبح تنفسي أعمق. قام النادل بصب الشراب لي من الزجاجة التي تركها لوكاس؛ وذلك قبل أن أتمكن من منعه، لكنني طلبت منه أن يجلب لي الماء أيضاً. وبعدها، أخذت أنظر حولي. لم يكن المطعم يغص بالناس، حيث توزع فيه عدد قليل من الأشخاص هنا وهناك. وضعت كأسي،

لأنني كنت أريد أن أبدو مرتاحة حينما يصل لوكاس، كنت أريده أن يراني رابطة الجأش وهادئة، كما هي حالي حينما أصنع أو أبتدع أي شيء، إلا أن هذا الشيء لم يكن سوى خيال ووهم في هذه الفترة.

أخذت أشرب الماء ببطء، إلا أن لوكاس لم يكن قد وصل حينما فرغت من شرب كأس الماء الأولى، فسكبت لنفسي كأساً أخرى وأنا أنظر إلى الساعة الموجودة في هاتفي مجدداً. كان قد تأخر كثيراً هذه المرة، ولم يكن قد أرسل لي أي رسالة بخصوص ذلك. أخذت أرتشف من الكأس وأعيد تعديل وضع فستاني. ورحت أتساءل: ترى، ما هو الأمر الذي منعه من الوصول؟ وبعدها، تمنيت لو أنني كنت أرتدي ملابسي التي خلعتها قبل أن آتي إلى هنا.

وبعد مرور فترة قصيرة أخرى، أدركت أن هنالك شخصاً يجلس خلفي ويتكئ على الطاولة قربي. لم يكن باستطاعتي أن أراه، لكنني كنت أعرف أنه رجل؛ إذ كان يتمتع بصلابة وثبات، كما كان يشغل الحيز الذي جلس فيه بكل ثقة، فاعتقدت أنه لوكاس، وأخذت أبتسم حينما استدار، لكن ظني خاب؛ إذ لم يكن لوكاس، بل كان رجلاً أضخم منه جثة، وكان يرتدي بزة رمادية اللون، ويحمل كأساً من الشراب. كان يجلس بمفرده، أو بدا لي كذلك. لكنه حينما استدار ابتسم لي، فبدا لي الأمر واضحاً وجلياً، إلا أنني لم أكن قد اعتدت على ذلك. ومع ذلك، كانت تلك مجاملة منه، فقد كان شاباً جذاباً في مقتبل العمر، وتميزه لحية وفك قوي، أما أنفه فيبدو أنه قد كسر منذ فترة. ابتسمت له لأنه من غير اللائق ألا أقوم بذلك، ثم حولت نظري بعيداً عنه.

لا بد أنه اعتبر ابتسامتي دعوة له، فاستدار بجسده ليصبح قبالتي ثم قال لي: «كيف حالك؟».

قلت: «أنا بخير». وأخذت أفكر بلوكاس، وأقاوم إغراء فكرة إخباره بأنني أنتظر شخصاً، لذا أردفت: «أشكرك».

فانفرجت أساريره، ثم ابتسم وقال: «هل تمانعين؟». وكان يشير إلى المقعد الفارغ الذي يفصل بيننا. وقبل أن أتمكن من إخباره بأنني قد تركته من أجل شخص آخر، كان قد جلس عليه، فانزعجت منه. إلا أن انزعاجي كان أقل ما يمكن أن يظهره المرء في موقف كهذا.

صافحني وهو يقول: «اسمي ديفيد». كانت راحتاه تظهران خشونة لم تكن

ثيابه توحي بوجودها لديه. وقد رأيت عينيه وهما تمسحان جسدي، وتنتقلان إلى رقبتي، وذراعي، ثم إصبعي التي لم تكن مزينة بخاتم، فلم أدرك أنه بقي ممسكاً بيدي إلا حينما وضعتها مجدداً فوق وجهي.

وهنا نفد صبري، إذ كنت أريد أن ألمس يدي لوكاس وجسمه، وليس يدَي هذا الرجل وجسمه.

غير أن لوكاس لم يكن موجوداً، فشعرت بالضيق، حتى لو لم أعترف بذلك.

قلت: «وأنا جين».

سألني: «هل أنت بمفردك؟».

أخذ نسيم عليل يداعب رقبتي من الخلف، فخطر ببالي هيو أولاً، ثم لوكاس.

أجبت: «حالياً نعم».

رد علي: «حسناً، سررت بلقائك يا جين». ثم أخذ يحدق بي، فشعرت كما لو أن تحديقه قد وصل إلى أعماقي. كان ذلك بمثابة عرض... اقتراح، كما أنني لم أكن أتوهم؛ إذ كنت أعرف أنه قد فعل ذلك بسبب الثياب التي كنت أرتديها. لم أكن منذ بضعة أشهر فقط أنتبه إلى تلك العروض، غير أن لوكاس علمني كيف أنتبه لها.

إلا أنني لم أشعر بالإثارة ذاتها التي كنت أشعر بها حينما التقيت لوكاس؛ تلك الإثارة المبنية على الإحساس بأنني مرغوبة، وكذلك على الإحساس بالرغبة من طرفي أنا أيضاً. بدا الوضع لي هذه المرة غير مريح بعض الشيء، لذا فكرت مجدداً بأن أخبره بأنني أنتظر شخصاً، أو بأنني متزوجة، لكنني لم أفعل ذلك لسبب ما؛ إذ بدا لي الأمر وكأنني كنت أحاول أن أختبئ خلف رجل، وكأنني كنت أقول: لا يمكنك أن تأخذني لأنني وعدت رجلاً آخر بذلك، وهذا بحد ذاته سيشعرني بالضعف. أخذ يتحرك فوق كرسيه، لدرجة أن ركبته اليمنى باتت قريبة من الاحتكاك بركبتي اليسرى، وهنا شعرت بإثارة مفاجئة وشديدة لدرجة أنها صدمتني.

هتفت: «وأنا كذلك». ثم سألني إن كنت أقيم في الفندق أم جئت إلى هنا في عمل، فأجبته بلا؛ لأنني لم أكن أريد أن أشجعه على إقامة علاقة معي.

سألته: «وماذا عنك؟».

أجاب: «حسناً، أنا أعمل في مجال الأموال، وهو عمل ممل للغاية».
سألته: «هل أنت مسافر؟».
أجاب: «نعم، فأنا أقطن في واشنطن العاصمة».
هتفت: «حقاً؟!».
فهز رأسه إيجاباً ثم قال: «ماذا تتناولين؟».
أجبته: «لقد سبق لي أن تناولت شراباً». فرسم نظرة إحباط كاذبة على وجهه، وعندها ابتسمت، ثم ألقيت نظرة على الساعة الموجودة في هاتفي. لقد تأخر لوكاس، ولم يرسل لي أي رسالة، ولهذا قلت لهذا الرجل:
«حسناً، سأطلب ما طلبته أنت».
أخذت الرغوة تظهر مع حالة الفوران أثناء سكب الشراب، ثم قرعنا الكأسين، لكنني لم أشرب. كنت أدرك بشكل مبهم كيف سيبدو الأمر حينما يصل لوكاس، والذي لن يتأخر وصوله بعد كل هذا التأخير، لكن الفكرة أبهجتني، إذ كنت أفضل أن يراني على هذه الحال بدلاً من أن يراني وحيدة وبائسة وأنا أنتظره.
لكنني في الوقت ذاته أخذت أتساءل إن كان بإمكاني التخلص من هذا الرجل المدعو ديفيد بسهولة.
وهنا سمعت ديفيد يقول: «إذاً، حدثيني عنك، من أين أنت؟».
هتفت: «أنا؟ لا مكان محدد». فبدا لي حائراً، ولهذا ابتسمت، لأنني لم أكن أريد أن أقول له الصدق، لكنني لم أرد في الوقت ذاته أن أكرر الخطأ نفسه، فقلت: «لقد تنقلت بين أماكن كثيرة حينما كنت طفلة».
سألني: «هل لديك إخوة أو أخوات؟».
قلت: «كلا». إذ لم أكن أريد أن أستحضر صورة كيت في هذا المكان، «لا يوجد أحد سواي».
أخذت أنظر إلى عينيه، كانتا واسعتين، أما تعابير حسن النية التي كانت بادية على وجهه، فقد كان متقناً تمثيلها لدرجة أنه كان من الممكن أن تبدو زائفة. أدركت أننا كنا نجلس بشكل متقارب، وأن يده كانت فوق فخذه، وأن ركبته تلتصق بركبتي، فبدا لي الوضع حميمياً للغاية. أما القاعة فقد بدت لي وكأنها قد انقلبت وفقدت توازنها؛ إذ كان هنالك شيء ما خارج مكانه الصحيح، وقد

بدا لي ذلك واضحاً جداً.

قلت: «عذراً، أعتقد أنني سأستخدم حمام السيدات».

ثم وقفت، إلا أنني بدأت أترنح وكأنني قد شربت فعلاًبدلاً من اكتفائي برفع الكأس إلى شفتي ومن ثم إعادته إلى مكانه مرة أخرى. وفي الحمام، أخذت أنظر إلى نفسي في المرآة، وأحاول أن أستعيد الثقة التي كنت قد شعرت بها قبل ذلك، لكنني لم أفلح، إذ كانت جوليا قد بدأت بالعودة؛ أي كانت هناك، لكنها ترتدي ملابس شخصية أخرى.

أخرجت هاتفي واتصلت بلوكاس فلم يجب، فأرسلت له رسالة قصيرة، وبعدها أخذت أرش الماء على وجهي، ثم أخذت عدة أنفاس عميقة، وبدأت أستجمع قوتي.

عندما عدت، كان ديفيد لا يزال جالساً على الكرسي، ومتكئاً إلى الطاولة، فأخذ يراقبني وأنا أقترب، ثم ابتسم. كان قد باعد بين ساقيه ليحافظ على توازنه _ هذا ما اعتقدته _ بالرغم من أنني سألت نفسي إن كان يعرض نفسه عليّ بطريقة بدائية وحيوانية. ثم اتخذت مجلسي على الكرسي.

ابتسم لي وأخذ يخفض من صوته وينحني نحو الأمام. لوهلة خلت أنه سيقوم بتقبيلي، إلا أنه قال: «أعتقد أنه بوسعنا أن نصعد إلى الطابق العلوي لننعم ببعض الخصوصية في مكان ما هناك».

لم أستطع أن أكبح رعشة الإثارة التي انتابتني، إذ أدركت أن فكرة انزعاج لوكاس من رغبتي بشخص آخر كانت قد راقت لي. إلا أنه لم يكن يدري بكل هذا، ولهذا أخذ الخوف يجتاحني، فأنا لم آتِ إلى هنا من أجل ذلك، ومن المفترض ألا يحدث هذا. بدا لي هذا الرجل قوياً، ومن النوع الذي لا يمكن أن أصده، حتى إن كان يتعيّن عليّ فعل ذلك. ثم إننا كنا في مكان عام، ولم أكن أريد أن نتحول إلى مشهد يتفرج عليه الجميع، ولهذا أخذت ألعب على عامل الزمن، فقلت:

«هنا؟! في الفندق؟». فأومأ برأسه إيجاباً، ولهذا قلت لنفسي إنه يجب عليّ أن أركز، فشرعت أقول له: «آسفة، ولكن...».

أخذت أهز كتفي، لكنه لم يكف عن الابتسام، وهذا ما جعلني أفكر ببنات المدارس، وبما يطلقه عليهن الفتيان من تسميات حينما لا يقبلن بالمضي معهم

قدماً تبعاً لما وعدن به عن غير قصد، إذ كانوا يسمونهن: العابثات بالرجال.

بدا لي أن الرسالة لم تصله؛ إذ وضع يده على ركبتي، ثم حركها نحو الأعلى قليلاً باتجاه فخذي. بعد ذلك، اقترب إلى الأمام حيث أصبح بوسعي أن أشم رائحته التي كانت تعبق بالفلفل والخشب، والجلود، وكانت تشبه رائحة الكتب القديمة. بعد ذلك، بدأ بمداعبة منطقة معصمي من الداخل، وكنت أعرف أنه سيحاول أن يقبلني، وأنه خلال لحظة سيغمض عينيه، وأنه يتوقع مني خلال فترة وجيزة أن أقوم بالمثل.

بدأت بالسعال، ثم نظرت إلى الأمام، فأخذ يتلمس ذراعي، فسرت في جسدي فرقعة صغيرة أخرى لكهرباء ساكنة.

أخذ يهمس لي: «إنني أعرف من أنت». قالها وكأنه يقرأ أفكاري، ثم ابتسم كاشفاً عن أسنانه، وكأنه كان يزمجر، وكان لا يزال يداعب بشرتي.

أخذت أنظر إلى شفتيه، وبشرته الداكنة، وتلك اللحية الخفيفة التي كان من المحتمل أنه لا يبقى بدونها، وهنا هتفت: «ماذا...» وبدأ الذعر يتراكم داخلي.

فقال: «قبليني».

أخذت أهز رأسي، ثم حاولت الابتسام كي أبدو واثقة من نفسي، لكنني لم أفلح؛ إذ لم أكن كذلك وقتها، ولم أستطع أن أصدق ما كان يجري، لذا ومن دون أي تفكير امتدت يدي إلى كأس الشراب.

كنت أقول لنفسي: تخلصي من هذا وانجي بنفسك... تخلصي من هذا... تخلصي من هذا.

بدأت بالقول: «أنا...»، لكنه قاطعني مرة أخرى بقوله:

«قبليني».

أدرت رأسي بعيداً عنه، ثم انتزعت يدي من يده، وبدأت بالكلام والاحتجاج على ما كان يقوله، إذ كنت أريد أن أقول له: نحن في مكان عام، دعني وشأني، إلا أن كلماتي تعثرت. كان فمه لا يبعد عن فمي سوى بضعة سنتيمترات، وكان بوسعي أن أشم رائحة الشراب تنبعث منه. أما خلف تلك الرائحة فقد كانت هنالك رائحة كريهة، لعلها أتت بسبب تناول الثوم. وهنا بدأت أفكر: أين لوكاس؟ إنني بحاجة إليه، إنني أريده.

نظرت إلى الوراء فوجدت أن عدد الناس أصبح أقل بكثير. أما من بقي

من رواد المطعم فقد كانوا منشغلين بحواراتهم وأحاديثهم الخاصة، لدرجة أن أحداً منهم لم يلاحظ ما كان يجري، أو تجاهلوا ذلك بكل بساطة.

أخذ يسألني: «كم مرة ستقبلينني؟». فأخذت ألهث، ثم صدر مني صوت نخرة رعب صغيرة، لكن كل ما فعله هو أنه هز كتفيه بلا مبالاة، وبدا لي أنه لم يكن ليكترث بجوابي عن سؤاله، تماماً كما سبق له أن تغاضى عن احتجاجي عليه.

سألني مرة أخرى: «كم مرة ستقبلينني؟ فهذا كل ما طلبته منك، ولك أن تحددي السعر الذي ترغبين فيه».

السعر الذي أرغب فيه!؟ بدأ رأسي يدور؛ إذ كان هذا الرجل يعتقد أنني سأبيع نفسي، وما علينا سوى أن نتفاوض بشأن السعر.

هتفت: «لقد فهمتني بشكل خاطئ». وأتاه صوتي هذه المرة متهدجاً وبلا لفظ واضح، ولم يكن ذلك بسبب الشراب، إنما بسبب الوجل.

رد علي: «هل فعلت ذلك؟». ثم أخذ يحرك يده إلى أعلى فخذي، فقد كان إبهامه وأصابعه كلها تحت حافة الجزء السفلي المتدلي من فستاني. ومن مكان قصي، وكأنني كنت أنادي من ارتفاع شاهق، أخذت أتساءل عن سبب عدم ابتعادي عنه. ثم تخيلت كل من في المطعم وهم يشاهدوننا، حيث أصبح كل شخص موجود هنا يعرف ما كان يفعله بي بطريقة ما، ويمكنه أن يرى بأم عينيه أنني لم أوقفه. نظرت باتجاه أقرب طاولة إلينا، فرأيت أن الشاب والفتاة اللذين كانا جالسين هناك قد علّقا حوارهما ليقوما بارتشاف شرابهما، أما الشخص الذي كان خلفهما فقد كان يتحدث عبر هاتفه؛ممّا يعني أن أحداً لم يلاحظ ما كان يجري، حيث لم يكن هنالك من ينظر إلينا.

همست بصوت خافت: «كف عن هذا».

فرد: «سأفعل إن حصلت على قبلة منك، وإن وعدتني بالصعود إلى الطابق العلوي، ثم إن سمحت لي بأن أقوم بعلاقة حميمة معك». ثم أخذ يلعق شفتيه وكأنه كان جائعاً، وكان تصرفه متعمداً، بل كان يحمل رسالة. ولو كان هذا التصرف صادراً عن لوكاس لكنت قد شعرت بالإطراء والإثارة، إلا أنه _ بما أنه صدر عن هذا الرجل _ بدا لي أشبه بتهديد.

«كما أنني أعرف أنك تريدينني أيضاً، أيتها القذرة الصغيرة».

انكفأت على نفسي لدى سماعي ذلك، ثم تضخم غضبي وازداد؛ إذ كان من المفترض أن يكون لوكاس هنا، وليس هذا الرجل. أخذت أشعر بعد ذلك بأنني أصبحت متوازنة، فكانت لحظة صفاء ذهني كاملة كان من غير الممكن أن يكتب لها البقاء. لذا، بقيت لفترة طويلة غير متأكدة مما كنت سأفعله، وبأي طريقة كنت سأقع.

تماسكت وقلت: «انظر»، وكنت قد رفعت صوتي قليلاً فقط، لأنني كنت أريد أن ألفت انتباه الآخرين، من دون أن أسبب حالة من الهلع. ولهذا، أخذت أتكلم بثبات، وكلي أمل بأن تكون لصوتي سطوة لم أكن لأحس بها، حيث قلت: «إنني أطلب منك وبأدب، ولمرة واحدة فقط، أن تبعد يديك عني حالاً، وإلا فسأكسر لك ذراعك القذرة».

وحتى حينما تفوهت بذلك لم أكن متأكدة من الطريقة التي كان سيرد بها؛ إذ ربما سيجرحه كلامي، لكن الرسالة ستصله بكل تأكيد. لذا، توقعت منه أن يبتعد عني وهو يتمتم بكلمات بصوت منخفض. لكن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً؛ إذ كنت سأقف حينها، وسأخرج من هذا المكان، وسأرفع رأسي عالياً وأنا أخرج من دون أن أنظر إلى الخلف.

لكنه لم يتحرك، بل جمد في مكانه. ثم ومن دون سابق إنذار، أمسك بمعصمي بقوة فتراجعت في محاولة للتخلص منه، غير أن قبضته كانت قوية، فأخذ يشد على يدي أكثر ويحكمها أكثر، وهو يلويها أثناء قيامه بذلك، ويقول: «تريدين العودة إلى البيت، أليس كذلك؟ إلى البيت، وإلى حضن زوجك المنحرف الذي لم يمتلكك منذ أسابيع، أليس هذا ما تريدينه يا جوليا؟».

جمدت في مكاني. إذ بالرغم من أنني كنت أعرف أنه كان علي أن أصرخ بأعلى صوتي، إلا أنني لم أفعل، بل لم أستطع، فقد كنت مشلولة وقتها.

كان قد استخدم اسمي الحقيقي.

هتف: «ما اسمه؟ أقصد زوجك؟ أليس اسمه هيو؟».

بدأ الخوف يجتاحني؛ إذ لم أكن قد ذكرت له أنني متزوجة، كما أنني لم أقل له اسم زوجي، فكيف عرف اسمه؟ لا يمكن أن يكون ما يحصل صحيحاً. بدأت الصالة تدور أمام ناظري، ولوهلة شعرت بأنني على وشك الانهيار، لكنني سمعت وقتها صوتاً يسألني: «هل كل شيء هنا على ما يرام؟». فالتفت ورأيت

لـوكاس أمامـي، وعندهـا غمرنـي إحسـاس بالارتيـاح على الفور؛ وكأن سـدادة الأوردة قـد انحلـت. بعـد ذلـك، بـدأت الأصوات في المطعـم بالعودة؛ كخلايا الدم التي تطبق على جرح ما لتغلقه، وهكذا أصبحت بأمان.

أما ذلك الرجل الآخر المدعو ديفيد فقد تركني؛ إذ رفع يديه وجعل راحتيه نحـو الخـارج، وكانـت فـي تصرفه هذا إيماءة خضوع لـم أكن أنا المقصودة بها وإنما لوكاس. إذ بدا لي وكأنه يطلب السماح من الرجل الآخر، وكأنه يقول له: آسـف لأنني اقتربت من أملاكك؛ وهذا ما أثار غضبي. إذ بدا لي وكأنه يقول: ماذا؟ لقد كنت أتسلى قليلاً من دون أن أضر أحداً. وفي الوقت الذي دخل فيه لوكاس، سـارع ليقف بيني وبين ديفيد، لذا كان بوسـعي أن أرى ظهره العريض وشعره المجعد الأشعث. لكنني لاحظت أخيراً أن دفقة الإثارة والخوف التي شعرت بها كانت قد سببت لي الدوار؛ لدرجة أنني ظننت للحظة أنني كنت على وشـك أن ألهث بصوت مسـموع. إلا أنني كنت قد طلبت ذلك من قبل؛ أجل، كنت أبحث عن شخص غريب _ حسب تعبيري في إحدى محادثاتنا _ وأتبعت ذلك بقولي: في مطعم، شخص لا يقبل بكلمة لا كجواب.

إذاً، هو من خطط لكل ذلك. وبعد كل ما قلته له، قام بالتخطيط لذلك.

صعدنا إلى الطابق العلوي وأغلقنا الباب وراءنا. وبشـكل غامض، أدركت أنني من صفع الباب وأغلقه، ثم استدار لوكاس ليواجهني، وكان لدي إحساس بأنـه يجـب ألا أشـعر بالأمـان معه. ومع ذلـك، وبطريقة ما، كنت لا أزال أحس بالأمان برفقته؛ إذ أدركت حينها أن هذا الإحساس بات مألوفاً لدي؛ حيث كان يشـبه ذلك الإحسـاس الذي كنت أشـعر به حيال الهيروبين. فكيف يمكن لشيء يشعرك بهذا الإحساس الرائع أن يسبب لك الضرر أو يؤذيك؟!

صرخت: «ما الذي تفعله بالله عليك؟».

شرع بالقول: «لا تكوني...»، لكنني قاطعته وقلت:

«أين كنت بحق الله؟ ما الذي...؟»

شـرع يقـول: «لقـد تأخـرت...» لكنني قاطعته مجـدداً لأنني كنت أتميز من الغيظ وقلت له:

«تأخرت! إن عدم التزامك بموعدك بالوقت المحدد من بين الأمور الهامة التي كنا ناقشها هنا. ثم من ذلك الرجل؟ وكيف عرفت اسم زوجي؟».

هتف: «ماذا؟!».

قلت: «لقد قال لي ذلك الرجل إن اسم زوجي هو هيو، لكنني لم أخبرك بأن اسمه هيو، بل هارفي، وكنت أشير إليه بهذا الاسم دائماً».

رد علي: «أجل. ولكن، لماذا كنت تستخدمين ذلك الاسم؟».

أجبته: «لدي كل الحق في ذلك، غير أن هذا ليس موضوعنا . أخبرني، كيف عرفت...؟».

«اهدئي، كانت زلة لسان منك؛ حيث تلفظت باسمه لمرة واحدة، وناديته باسم هيو. كان ذلك منذ بضعة أسابيع، وقد كنت متضايقة حسبما أعتقد، ولهذا أشرت إليه باسم هيو، فتذكرت هذا الاسم».

حاولت أن أسترجع ذلك، أن أتذكر، لكن ذلك كان مستحيلاً. ومع ذلك، كنت أريد أن أصدقه، بل كان عليّ أن أصدقه، لأن عدم تصديقه في ما يخص هذا الموضوع يعني أنه عليّ ألا أصدقه في ما يتعلق بالأمور الأخرى أيضاً. وعندها، لا بد أن ينهار كل شيء.

هتف: «جوليا». ثم خطا خطوة أخرى إلى الأمام.

صحت به: «لا تقترب مني!». ولدهشتي بقي في مكانه.

وبعد برهة من الزمن، استدار وتوجه نحو الثلاجة الصغيرة الموجودة في الغرفة، وسألني:

«أترغبين بالمزيد من الشراب؟».

تذمرت على ذلك بسخرية وقلت:

«إنني لا أحتسي الشراب».

رد علي: «أنت لا تشربينه معي، لكنك تفعلين ذلك مع شخص غريب».

وهنا ثار غضبي فقلت له: «أنت من طلب تلك الزجاجة».

رد علي: «وأنت من شربها».

أبعدت نظري عنه، إذ لم أكن أستطيع أن أدخل في جدال معه، فلا جدوى من ذلك. لقد كنت حمقاء، فأنا لا أعرفه مطلقاً، وقد نبذت كل تنبيه، ولم ألاحظ ما كان يجري في كل مرة. كان قد وصل إلى أعمق رغباتي؛ إلى تلك الأمور التي يتعين عليّ ألا أخبرها لأحد، ثم جعل كل ذلك ينقلب علي.

فتح زجاجة شراب صغيرة، ثم صب منها القليل في كأس، وأخذ يقول

لي: «سبق لك أن أخبرتني بأن أوهامك قد تحررت، أو لعل وهماً واحداً منها على الأقل قد تسنى له أن يتحرر».

أجبت: «وهل تعتقد أن هذا ما أردته؟».

سألني: «ألم تستمتعي بذلك؟».

«إذاً، أنت من طلب من ذلك الرجل أن يكون عدوانياً، أليس كذلك؟ وذلك لـ... لتجعلني أعتقد... لأتصرف على تلك الشاكلة، أليس كذلك؟ لقد كنت تخبر أناساً آخرين بكل ما كنت أقوله لك».

رد علي: «ليس كل شيء، بل ما يكفي؛ لأنني كنت أحتفظ ببعض أوهامك لنفسي».

قلت له: «طلبت منك أن تكف عن ممارسة مثل هذه الألعاب معي يا لوكاس؛ فأنا لا أريد المزيد منها، ألا تتذكر ذلك؟».

كنت قد جلست على الكرسي، أما هو فقد جلس على السرير، وهنا أدركت أنه كان يحول بيني وبين الباب، وكان في ذلك خطأ جوهري؛ حسب تعبير هيو، بالرغم من أنني لم أكن أجد أي مبرر لقلقه، إذ لم يكن مرضاه من النوع العدواني المشاكس. وعندها، وقفت مجدداً.

فقال لي: «اعتقدت أن ذلك سيكون مسلياً». ثم تنهد وهو يمرر أصابعه في شعره، ويقول: «انظري، لقد أخبرتني أن أوهامك أصبحت في خطر، وأنها تتحرر، ألم تخبريني بذلك؟».

قلت: «لقد أخبرتك بأشياء كثيرة، غير أن هذا لا يعني أنني أريدها أن تحدث؛ ليس تماماً. ولهذا نطلق عليها اسم أوهام يا لوكاس».

أخذ الرعب ينتابني، وذلك حينما تذكرت أموراً أخرى كنت قد أخبرته بأنني أتخيلها ... فهل كان يخطط لكل ذلك أيضاً؟

حاولت أن أسترجع شريط الأحداث، فقلت: «إن نصف الأمور التي قلت إنني أريدها كانت من أجل إسعادك لا أكثر».

سألني: «حقاً؟! مثل محاولة بادي فرض نفسه عليك؟».

كان يبتسم ابتسامة ساخرة، فبدا لي وكأن أمري لا يهمه على الإطلاق، أي كما لو أنني لا أعني له شيئاً.

هتف: «يا لبادي المسكين! لقد اتهم بكل تلك الأمور التي لم يقم بها

أصلاً، وانظري الآن إلى أين أودى به ذلك».

تراجعت إلى الوراء؛ إذ كانت كل ذرة في داخلي ترغب بأن ترفض أن ما كان يقوله هو الصدق، فقلت: «إذاً، كنت أنت من يقف وراء ذلك!».

فرد علي: «كان ذلك ما أردته أنت».

كررت: «كنت أنت من يقف وراء ذلك!». وهنا بدأ قلبي يخفق بشدة، وتوترت وكأنني كنت على وشك الهروب، ثم عاودت القول: «كنت أنت من يقف وراء ذلك طيلة الوقت!».

هتف: «وذلك الشخص الغامض الذي كان يقف تحت نافذتك...».

سألت: «ما به؟».

أجاب: «إنه ما أردته أنت، أليس كذلك؟ كي تكوني خائفة».

حاولت أن أستوعب الفكرة؛ فقد كانت المرة الأولى التي اعتقدت فيها أنني رأيت شخصاً يراقبني قبل أن ألتقي لوكاس. لكن، ماذا عن تلك الليلة؟ لقد بدا لي يومها حقيقياً أكثر مما كان عليه في السابق. إذاً، هل يمكن أن يكون هو؟

كلا، لا، إنه لا يعرف أين أسكن، ولا بد أنه يستخدم مرض الشك الذي أعاني منه ضدي.

قلت له: «أنت مجنون».

فنظر إليّ، وأخذت أبادله النظرات، وعندها انسل شيء ما إلى داخلي، كعتلة تم إلقاؤها. وبطريقة ما، أخذت أرى نفسي من خلاله، منعكسة في عينيه. كنت أرى الثياب التي كنت أرتديها، والحذاء، حتى إنني شممت رائحة جسمي؛ وأدركت للمرة الأولى المكان الذي كنت فيه، وكم أصبح ما بداخلي عميقاً.

لقد كنت هنا قبل ذلك، أسيرة لشيء كان يحطمني، وغير قادرة على الهروب. أخذت أفكر بماركوس وفروستي.

ثم أجبرت نفسي على القول:

«سأغادر الآن. لقد انتهى كل شيء».

كانت الغرفة ساكنة، فانسلت الكلمات من فمي ولم يعد بإمكاني استرجاعها بعد ذلك، حتى لو كنت أرغب بذلك. فما كان منه إلا أن أغمض عينيه ثم فتحهما مجدداً، وبعدها تهلل وجهه، وابتسم؛ إذ لم يكن يصدقني.

أتاني صوته منخفضاً وثقيلاً حين قال: «لن تفعلي ذلك». فبدا وكأنه صوت

شخص آخر. والآن، ها قد سقط الستار عن كل مزاعمه، فلم يبقَ هناك سوى الحقد الشديد.

خفقت عيناي وأنا أنظر نحو الباب، وقلت في سري: إن أراد أن يمنعني فلن أتمكن من التغلب عليه بأي وسيلة.

أخذت نفساً وحاولت أن أستجمع قوتي قدر الإمكان، ثم قلت:

«ابتعد عن طريقي».

هتف: «اعتقدت أننا كنا نمزح».

أجبته: «لقد كنا نمزح، غير أننا لم نعد كذلك الآن، ولن نكون كذلك بعد اليوم».

نزل فكه الذي كان نصف مفتوح إلى الأسفل، ثم قال:

«لكنني أحبك».

كان ذلك آخر شيء توقعت منه أن يتفوه به، فجمدت في مكاني؛ لأنني كنت مجردة من أسلحتي، ومصدومة كلياً. أذكر أنني فتحت فمي، غير أن الكلمات لم تخرج منه.

كرر الكلمة على مسمعيّ مرة أخرى وقال: «أنا أحبك». كنت أريد أن أمنعه، إلا أنني لم أقم بذلك في الوقت نفسه، فقد كنت أرغب بتصديقه، لكنني كنت أعتقد أنني لن أتمكن من ذلك.

هتفت: «ماذا؟».

فرد: «لقد سمعتني. كنت أعتقد أنني سأسعدك. فكل هذا...» وأخذ يومئ إلى كل ما في الغرفة، وتابع: «... كان من أجلك، لأنني ظننت أن هذا ما كنت تريدينه».

أخذت أهز رأسي، إذ كان ما يقوم به لعبة أخرى، وكنت أعرف أنه كذلك، ولهذا قلت له: «كلا، يا لوكاس، كلا...».

هتف: «ألن تقولي لي إنك تحبينني أيضاً؟».

نظرت إليه، كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما وهما تتوسلان. كنت أريد أن أصدقه؛ فقط هذه المرة. أجل، كنت أريد أن أعرف أنه كان يقول الصدق.

هتفت: «لوكاس...»

فمد يده نحوي وقال: «جوليا، قولي لي ذلك، أرجوك».

قلت: «حسناً، أجل، نعم».

ثم جمدت في مكاني؛ إذ كان قد أنزل يديه، ثم ابتسم، وبعدها بدأ يضحك وهو يقول لي:

«إن هذا مجرد وهم من أوهامك، أليس كذلك؟ أي أن أحبك أنا؟».

وفجأة شعرت بالخواء، وبأنني قد هزمت، وبدا كل شيء وكأنه كان يبتعد عني. وفي هذه اللحظة شعرت بأنني أكرهه، فصرخت به:

«عليك اللعنة».

فرد: «كلا يا جوليا. ما بك؟ وما هي مشكلتك؟ هل سببها ما حدث اليوم؟ أم ديفيد؟ كنت تريدين أن تتحرري، وأردت أن أحررك، كما أردت أن أجعلك تشعرين بأنك كنت في خطر». ثم أخذ ينظر إليّ، محاولاً أن يكتشف إن كنت قد بدأت ألين، أو إن كان الغضب قد جعلني أستشيط غيظاً. لكن الوضع لم يكن كذلك بالضبط، ولهذا قال لي: «انظري، كل ما قلته هو أنه يتوجب عليه أن يحاول أن يأخذك، فقد تكونين توافة إلى ذلك، وقد تكونين غير توافة، وبأي حال من الأحوال، كان يجب عليه ألا يقبل بلا كجواب؛ تماماً كما أردت».

تراجعت خطوة إلى الوراء وهمست قائلة: «أنت مجنون». كنت أقول ذلك لنفسي كما كنت أقوله له، لكنه تجاهلني، وقال لي:

«هل أخبرك بما أفكر فيه؟ أعتقد أنك تُحجِمين حينما تصبح الأمور ممتعة». ثم تظاهر بأنه يعيد النظر في الموضوع، وبعدها قال: «أو لعل العكس هو الصحيح، فربما كنت تمتعين نفسك كثيراً». وهنا هممت بالكلام، لكنه تابع كلامه قائلاص: «إنك تشعرين بالقلق لأنك تعتقدين أنك لا تستحقين ذلك». ثم أنهى شرابه، وصب لنفسه كأساً أخرى، وبعدها قال: «انظري، إنها لعبة، وأنت تعرفين هذا، ومع ذلك لا تستطيعين أن تفكري بها كلعبة، لأنك ما زلت تنظرين إلى الألعاب على أنها أشياء يلهو بها الأطفال، وتفكرين أنك قد كبرت على ممارسة ذلك».

هتفت: «كلا». فبدا صوتي متهدجاً، لذا سحبت نفساً وهتفت مجدداً: «كلا، أنت مخطئ. إنها ليست لعبة».

فما كان منه إلا أن ضحك وسألني: «إذاً، ما هي؟». فأردت أن أخرج من هذه الورطة، إذ لم أستطع أن أفكر حينها سوى بالهرب. عندها، قال لي: «إن

مشكلتك تكمن في أنك لا تزالين متعلقة كثيراً بشخصيتك القديمة؛ إذ بوسعك أن ترتادي الفنادق، وأن ترتدي كل تلك الأمور، لكنك لا تزالين سيدة المنزل الصغيرة المتزوجة من هيو. ما زلت تلك المرأة التي تقوم بالتسوق وتطبخ الطعام لزوجها وتضحك على نكاته؛ حتى لو كانت قد سمعتها مليون مرة قبل ذلك. كان من عادتك احتقار النساء اللواتي يقتصر طموحهن في الحياة على زوج لطيف وغني، وابن محب، وبيت في آيسلينغتون فيه باحة وحديقة. غير أن هذه الشخصية بالذات هي الشخصية التي تحولت إليها. إنك لا تزالين من ذلك النوع من الأشخاص الذين يعتقدون أن هنالك طريقة واحدة للزواج، وطريقة واحدة ليعيش المرء قصة عاطفية».

كنت أتميز غيظاً. وبما أنه قد نكأ جرحي، كنت أريد أن أصرخ في وجهه، وأجرحه؛ إذ بدا لي وكأنه كان يطّلع على أعماقي، ثم يخرج كل ما فيها، فيجعلني أشعر بالخواء.

سألني: «كيف يكون إحساس المرء حينما يكره نفسه؟».

هتفت: «ابتعد عن طريقي!».

فتحرك وحال بيني وبين الباب، ثم قال:

«أعرف. فقد كنت أراقبك طيلة الوقت، واليوم في المطعم أيضاً». وهنا تردد، ثم أخفض صوته وقال: «ثم إنك أحببت ذلك، أليس كذلك؟ أعجبك الاهتمام».

كان على حق، وكنت أعرف ذلك في أعماقي. أجل، كان على حق، وكنت أشعر بالعار، لكنني كنت أحتقره.

هتفت: «أرجوك، دعني أذهب».

سألني: «وإلا...»

هتفت: «لوكاس...» وحاولت أن أتجاوزه، لكنه كان يقف في طريقي.

تراجعت خطوة إلى الوراء، ثم نظرت إليه؛ إلى هذا الرجل الذي كان غريباً عني تقريباً. أخذ يخفض صوته أكثر فأكثر، وأصبح يهددني الآن؛ إذ لديه القوة، وكان يريد مني أن أعرف ذلك.

سألني: «لقد استمتعت بذلك، أليس كذلك؟ أعجبك أن تعرفي أنه كان يريدك؛ بالرغم من أنه شخص غريب». تقدم مني خطوة أخرى، لكنني هذه

المـرة بقيـت فـي مكانـي، وهنا قال: «لم تكن هنالك أيـة خيوط رفيعة... أو أي شيء لتقلقي بشأنه».

جربت معه طريقة مختلفة فقلت:

«إذاً، ماذا لو قمت بذلك؟ ماذا لو قررت أن أعجب به؟ هل كنت سـأقوم بعلاقة حميمة مع ديفيد هذا؟ ثم ماذا بعد؟».

فـرد علـي: «كانـت الأمـور ستتكشـف حينها بصـورة مختلفـة. ولكن، هل شعرت بالإغراء؟».

لم أتردد حينما سألني هذا السؤال الأخير؛ لأن كل ما كنت أريده وقتها هو أن أراه مجروحاً، وأن أراه يشعر ببعض الألم الذي جعلني أعاني منه.

قلت: «ربما».

لكنه لم يتحرك، إلا أنني لم أكن أدري ما الذي كان سيفعله.

سألني: «قبل أن يبدأ بتهديدك أم بعد ذلك؟».

أجبت: «من الصعب أن أحدد». ولم أتحرك من مكاني أنا أيضاً.

قـال: «لقـد أضـاف الخوف شـيئاً ما، اعترفي بذلك. وهذا ما أشـعل الرغبة داخلك». كان يهمس ويتمتم حينما قال لي هذا الكلام. وبما أنني بقيت صامتة، فقد تحرك إلى الأمام باتجاهي؛ لدرجة أنه لم تكن تفصل بين فمه وأذني سوى بضعة سنتيمترات. أما يده فقد امتدت نحو خصري، فشعرت بها على جسدي، وعندها حاولت أن أبتعد، لكنه كان أقوى مني؛ فأصبح جسده ملامساً لجسدي، وعندهـا سـألني: «هـل كنت سـتصعدين معـه إلى الطابق العلوي؟». ثم سـحبني نحوه، فشـعرت بدفء جسـده، وبيديه على جسـدي وهما تبحثان عن جلدي، وتتحـركان بثبـات وقـوة. لقـد حـرك كل ذلـك شـيئاً ما فـي داخلي، إنهـا ذاكرة العضلات، ومن دون أن أرغب بذلك ، بدأ جسدي يستجيب لحركاته، وعندها سألني: «لوحدك؟ أم معي؟».

فلـم أجبـه، إلا أن شـيئاً مـا فـي داخلـي كان يحثني علـى أن أصرخ بأعلى صوتي، وأن أقاومه وأركله. كان ينبغي لي أن أصرخ طلباً للنجدة.

لكنني لم أفعل، ولـم أقم بأي شـيء من تلك الأمور، وبدا لي أن جسـدي قد تمرد علي، فلم يعد يستجيب لأي شيء سوى لمساته.

هتفت: «أرجوك... لوكاس...».

حاول أن يقبلني، وبدأت أستجيب لذلك، وكانت تلك آخر خيانة يقوم بها جسدي، ثم استجمعت طاقتي، وأجبرت نفسي على الكلام، حين قلت:

«توقف يا لوكاس! يجب أن يتوقف كل هذا».

لكنه لم يقم بأي شيء، بل واصل ضم جسده إلى جسدي، بقوة أكبر هذه المرة، وهو يقول: «أوقفيني إذا أردت، إن كنت تريدين ذلك بالفعل».

بدأت أشعر بيديه وهما تجوبان كل مكان في جسدي؛ خلف رقبتي، في شعري، وعلى ساقيَ. كان يدفعني ويمسك بي بقوة، وبعجلة أكبر وأكبر. وقد حاول أن يدفعني إلى الخلف، أو أن يجعلني أستدير، فتذكرت تلك المرة التي قمنا فيها بعلاقة حميمة في حجرة المرحاض، وكيف كانت يداه حول رقبتي، حيث كان الأمرلعبة وقتها، لكنه لن يكون كذلك الآن، لذا كان علي أن أبتعد عنه.

هاجمته، وتعمدت الوصول إلى وجهه وعينيه. كانت مجرد ضربة خاطفة، غير أن أظفاري تلوثت بالدم، فأخذ يمسح وجهه بيده بعدما فتح عينيه على اتساعهما، وكان غضبه قد وصل إلى أوجه، وبدا وكأنه كان على وشك أن يضربني، لذا حاولت أن أبتعد عنه.

وقفنا كل منا باتجاه الآخر، ففتحت فمي لأتكلم، ولكن في تلك اللحظة سمعت صوت قفل الباب وهو يفتح، فغمرني إحساس بالارتياح، وفكرت في سري: لا بد أنها الخادمة، أو لعله شخص من خدمة الغرف، ولا بد أنه سيرى ما يحدث، وعندها لا بد أن يتوقف لوكاس، وأن أتمكن من نفض الغبار عني، ثم سأجد لنفسي عذراً وأرحل، ولن يتمكن من اللحاق بي، بل لن أسمح له بذلك.

نظر كل منا نحو الباب، لكن الأوان كان قد فات. فقد رأيت لوكاس يبتسم ويقول: «آه، اعتقدت أنك ستضيع الغرفة».

وهنا عضني الخوف بنابه، ووصل إلى أحشائي، فقد كان ديفيد هو من أتى.

أمسكت بحقيبتي ثم هرولت، وضربت ديفيد أثناء مروري، ثم خرجت إلى الممر. كانت دموعي تنهمر، فأغمضت عينيَ، لكنني أخذت أصطدم بالجدران وأنا أهرول باتجاه الدرج، غير أنني تابعت الجري. كنت أرى نفسي وكأنني على مرتفع شاهق، حيث كانت صورتي وشكلي يبدوان كما هما عليه، غير أنني

لـم أكـن نفسـي، فقد كانت تلك الشـخصية ترتدي ثيابـاً لا أرتديها عادة، وتقوم بالأشياء لا أقوم بها.

هرولـت وهرولـت وهرولـت، وفجأة وجدت نفسـي كما لو أنني قد عدت إلـى برليـن. حينهـا، كنت أرتجـف في المطار، إذ لم أكن أعرف كيف أعود إلى وطني. اتصلت بهيو من إحدى كبائن الهواتف العمومية التي كانت موجودة في صالـة المغـادرة، ثـم أخـذت أنتظر. كنت أنتظر أن ينقذني رجل كنت سـأتزوجه قريبـاً، فـي الوقـت الـذي كان فيه الرجل الذي اعتقـدت أنه كل حياتي يقبع ميتاً في شقة صغيرة في الطرف الآخر من المدينة.

القسم الرابع

الفصل الثالث والعشرون

تمكنت من مغادرة الفندق. كانت ساقاي ترتعشان، والعرق ينهمر مني. أما قلبي فقد كان يخفق بشدة؛ لدرجة أنني اعتقدت أنه سيحطم صدري. ومع ذلك، حاولت أن أتظاهر بالهدوء حينما عبرت البهو، ومن ثم خرجت إلى الشارع. وحينما أصبحت خارج الفندق، أخذت أمشي وأمشي، ولم أتوقف لأتحقق من الوجهة التي كنت أسير فيها إلا بعد أن تأكدت بأنني ابتعدت عن الأنظار وأصبحت بعيدة عن الفندق. أوقفت سيارة أجرة ثم صعدت إليها، فسألني السائق: «إلى أين؟». أجبت: «إلى أي مكان». ثم أعقبت ذلك بقولي: «إلى النهر»، ثم قلت: «إلى الضفة الجنوبية». وبدأت رحلتي في السيارة، فسألني السائق إن كنت بخير، فأجبته: «نعم»، بالرغم من أنني لم أكن كذلك. وحينما وصلنا إلى الضفة الغربية، وجدت مقعداً يطل على نهر التايمز. وبما أنني كنت أعرف أن أدريان كانت ستقول لي: «قلت لك ذلك»، وأنني لم أكن أعرف أحداً غير آنا لأتصل به، أعني أحداً لم أكن قد أبعدته عن قصصي، لذا اتصلت بها مباشرة.

سألتني: «كيف حالك؟».

فأخبرتها بكل شيء؛ إذ اندفعت لإخبارها بكل ما جرى بشكل مختلط ومشوش، وحدثتها عن كل النتائج الغريبة التي لا بد أنها بدت لها غير مفهومة، فأخذت تصغي إليّ في البداية، ثم أصبحت تهدئ من روعي وتطلب مني أن أحاول أن أصف لها ما جرى معي مرة أخرى. وعندما فرغت من الكلام قالت: «عليك أن تذهبي إلى قسم الشرطة».

بدت لي صلبة وحازمة وواثقة من نفسها بشكل مطلق.

سألتها: «قسم الشرطة؟!». وكأنني كنت أفكر بذلك للمرة الأولى.

ردت: «أجل، فقد تعرضت لهجوم يا جوليا».

وهنا بدأت أتذكر يديه فوق جسدي بالكامل، واللتين كانتا تمسكان بجلدي وتمزقان ثيابي.

هتفت: «ولكن...»

ردت: «يجب عليك أن تذهبي يا جوليا».

قلت: «كلا، لا. إنهم لم... إنه لم... وهيو...».

أخذت أتخيل نفسي وأنا أحكي القصة لهيو، ثم أتصل بالشرطة، وتساءلت: ماذا يجب عليّ أن أقول؟

كنت قد سمعت قصصاً من هذا القبيل. فحتى لو كنت قد تعرضت لاعتداء، فلا بد أنهم لن يأخذوا الأمر على محمل الجد. وفي حال أخذوا الأمر بجدية، فلا بد أن أخضع للمحاكمة، دوناً عن ديفيد أو لوكاس، ولا بد أن يسألوني إن كنت قد ذهبت إلى هناك من أجل القيام بعلاقة حميمة، ولا بد لي أن أجيب بنعم، ثم سيطرح عليّ هذا السؤال: «هل ارتديت الملابس التي أرسلها لك؟». وسأجيب بنعم، وميسألونني: «هل سبق لك أن أخبرته أن الاعتداء كان وهماً من الأوهام والخيالات التي تفكرين بها؟».

وسأجيب بنعم أيضاً.

ولكن، كيف سأدافع عن نفسي؟ أيمكنني أن أقول: ومع ذلك، لم أكن أريد لذلك أن يحدث، أي ليس بتلك الطريقة.

شعرت بأنني أنهار، وبدأت أبكي مرة أخرى حينما تخيلت ما يمكن أن يحدث، وما يمكن أن يفعله لوكاس، وكيف يمكنه أن ينجو بنفسه.

أخذت أفكر بهيو وكونر، وتخيلتهما وهما يكتشفان أين كنت، وكيف انتهى بي الأمر إلى هذا المآل. كان علي أن أخبرهما؛ إذ لم تكن هنالك أية طريقة أستطيع من خلالها أن أكذب عليهما، خاصة بعدما كذبت عليهما بما فيه الكفاية في السابق.

قلت لها: «إنني لا أعرف حتى أين يسكن».

صمتت هنيهة، ثم سألتني: «هل ثمة أي شيء يمكنني أن أساعدك من خلاله؟».

أخذت أفكر بأنه لم يكن هنالك أي شيء يمكن لأحد أن يفعله من أجلي، فقد كان علي أن أتركه وأرحل فقط؛ أن أقطع تلك العلاقة التي كنت أخشى قطعها قبل أربع ساعات فقط.

أجبت: «لا».

عـدت إلـى البيـت، وكنت أعرف مـا كان عليّ أن أقوم به. كان يجب عليّ أن أجعل لوكاس ينحسر ليصبح من الماضي، ثم علي أن أبذل جهدي لأنساه، وذلك من خلال عدم تسجيل الدخول إلى الموقع، وعدم تفقد الرسائل، وعدم رفـع سـقف آمالـي إلى المسـتوى الوردي؛ أي عدم توقـع وصول أي اعتذار أو تبرير أو شرح منه. كان عليّ أن أتخطى كل ذلك.

ولقد نجحت في ذلك عموماً، فقد كنت أمارس عملي، حيث أخبرت هيو بأنني قد قررت التوقف عن الذهاب إلى عيادة الطبيب الاستشاري، لكنني كنت سـأعود لحضور الاجتماعات التي كنت أحضرها في السـابق، وقد قمت بذلك فعـلاً؛ فبقيـت منشـغلة عبـر اتباع أسـاليب أخرى. كما اتصلت بآلـي ودي وبقية الصديقـات، وأصبحـت أتحـدث إلـى آنا كل يوم. أخـذت أمضي وقتاً أطول مع كونر، كما حاولت أن أتحدث معه بموضوع إيفي، وذلك لأؤكد له أنه بمقدوره مصارحتـي بالموضـوع الـذي يتعلق بحبيبته إن كان يرغب في ذلك، حيث قلت لـه: «أود أن ألقاهـا يومـاً مـا». وقد كانت هزة كتفيه اللامبالية متوقعة منه، لكنني على الأقل لم أوفر جهداً في هذا السياق.

التقيت أدريان أيضاً، حيث دعتني أخيراً إلى حفلة موسيقية، وبعدها تناولنا العشـاء معاً، ثم تحادثنا، وبدا لي أنها نسـيت الجدل الذي دار بيننا خارج بيتي. لكن، قبل أن نودع بعضنا التفتت إلي وقالت:

«جوليا، تعرفين أنني أحبك حباً غير مشـروط». فأخذت أهز رأسـي إيجاباً، وأنتظرها حتى تكمل، فقالت: «ولهذا لن أسألك عما جرى، لكن يجب أن أعرف إن كنت بخير أم لا، وهل هنالك شيء يستدعي أن أقلق عليك بسببه؟».

أخذت أهز رأسـي وأنا أقول لها: «كلا، لم يعد هنالك أي شـيء من هذا القبيل».

فابتسـمت، وكانـت تلـك اللحظة مـن اللحظات التي شـعرت خلالها أنني اقتربت كثيراً من الاعتراف لها، وأنها كانت تعرف أنني سأخبرها بسري يوماً ما.

لكنني ضعفت مرة واحدة، وكان ذلك في عصر يوم أحد منذ بضعة أسابيع، إذ كنـت قـد تشـاجرت مع هيو، وكان من المسـتحيل بالنسـبة إلـيّ تحمل كونر يومها، لذا لم أتمكن من كبح جماح نفسـي، وذلك حينما سجلت الدخول إلى

موقع encountrz، وتجاهلت الرسالتين الجديدتين اللتين كانتا بانتظاري، ثم بحثت عن اسم المستخدم الخاص بلوكاس، فلم أجد شيئاً، حيث ظهرت عبارة: اسم مستخدم غير موجود؛ ممّا يعني أنه كان قد اختفى.

غير أنني لم أستطع منع نفسي من الاتصال به.

لكن رقمه كان غير متوفر أيضاً، كما أنه لم ينقلني مباشرة إلى البريد الصوتي، فحاولت مرة أخرى لأتأكد بأن المشكلة لم تكن من الاتصالات، وتبيّن لي أنه سافر إلى خارج البلاد، ثم ظهرت مشكلة في الاتصال، فعاودت الاتصال مرة بعد مرة بعد مرة، إلا أنني لم أتوصل إلى أي شيء.

وعندها، أدركت أين كنت، وما كنت أقوم به، وأخذت أقول لنفسي إنني أصبحت سخيفة. ثم قطعت عهداً على نفسي بالقطيعة الكاملة معه، لأن ذلك سيكون أسهل، بل إنها الطريقة المثلى.

وهذا ما حدث؛ إذ حدثت القطيعة التي كنت بحاجة إليها، لهذا كان يجب علي أن أكون ممتنة لذلك.

وصلت متأخرة، فقد كنت خارج البيت ألتقط صوراً، إذ كانت أولى الصور الفنية لعائلة تعرفت علي عن طريق موقعي الإلكتروني. وفي طريقي إلى المنزل، كنت قد توقفت لالتقاط بعض الصور لأشخاص كانوا يقفون خارج المقاهي في سوهو؛ في محاولة مني لكي أعود إلى المواضيع التي كنت أهتم بها بالفعل. إلا أن هيو كان قد سبقني إلى المنزل، إذ كان قد طلب مني أن أعود برفقته لأن لديه شيئاً يريد أن يخبرني به.

بدا لي هذا الأمر نذير شؤم؛ إذ تذكرت تلك المرة التي عدت فيها إلى البيت من المعرض، فوجدت رجال الشرطة في المطبخ، وبلغني يومها نبأ وفاة كيت. كنت أعرف أن كونر بخير، إذ كان النور مضاءً في غرفته الموجودة في الطابق العلوي؛ فذلك أول شيء أتفقده على الدوام حينما أصل إلى البيت، وهذا ما فعلته في تلك الليلة، لكنني بقيت متوترة. كنت أريد أن أقول لهيو: أخبرني الآن، مهما كان الموضوع. لكنني لم أفعل، بل تبعته إلى المطبخ، ثم رميت بحقيبتي على الأرض، ووضعت آلة التصوير الخاصة بي على الطاولة.

سألته: «ما الأمر؟ ما الأمر؟ ما الخطب؟». وذلك لأنه بدا لي جدياً، غير أنه

أخذ نفساً عميقاً وقال: «لقد اتصل روجر، من وزارة الخارجية، وأخبرني أنهم يعتقدون أن لديهم معلومات حول ما حدث لكيت».

شعرت بنفسي أنهار، ثم أخذت الكلمات تتلعثم فيما كنت أنطقها، فقلت: «ماذا؟ من؟». فأخذ يشرح لي قائلاً: «ثمة رجل ألقوا القبض عليه بتهمة شيء لا يمت بأي صلة إلى موضوع كيت، إلا أنه لم يسمح لروجر بأن يخبرنا عن ذلك الأمر بالضبط، غير أنه ألمح إلى أن الموضوع له علاقة بالمخدرات. وحسبما أعتقد، الرجل تاجر مخدرات. وعلى أية حال، يبدو أن هذا الشخص معروف في المنطقة، لدرجة أنهم استجوبوه حول موضوع كيت، لكنه أنكر رؤيته لأي شيء بخصوص ذلك». ثم أخذ نفساً عميقاً، وبعد ذلك تابع: «لكنهم حين فتشوا شقته وجدوا قرط كيت».

أغمضت عينيّ، وأخذت أتخيل ذلك الرجل وهو ينتزع القرط منها، أو يجبرها على إعطائه إياه، وهي تقوم بذلك اعتقاداً منها بأن التعاون يمكنه أن يحافظ على حياتها، بينما هو في الحقيقة لم يفدها بأي شيء.

تاجر مخدرات؟! هل كان الأمر يتعلق بالمخدرات في نهاية الأمر؟ وليس بأمر آخر؟

وفجأة، وجدت نفسي هناك مرة أخرى بصحبة ماركوس. كنا على وشك الخروج معاً، وكنت أنتظره. وفي نهاية الشارع، عند إحدى الزوايا خارج المحطة، كان سيلتقي تاجر المخدرات الذي اتفقنا معه ليسلمه المبلغ نقداً.

وكان يعود مبتسماً وبجعبته الشيء الذي كنا نريده نحن الاثنين.

لكن كيت لم تشهد أي شيء من هذا القبيل، فقد كنت على يقين من ذلك؛ حتى خلال المرة اليتيمة التي زارتنا فيها خلال العطلة المدرسية. وقتها لم تكن تريد أن تعود إلى المنزل لتبقى بمفردها مع أبي، لذا ترجتني لأسمح لها بأن تأتي لزيارتي، حيث أكدت لي أن الزيارة ستكون «لبضعة أيام فقط» على حد تعبيرها، وهذا ما جعلني أرضخ لها. وهكذا، جمعت لها وبشق الأنفس بعض المال لأتمكن من دفع ثمن بطاقة الطائرة، وقام والدي بدفع ما تبقى من تكاليف الرحلة، فبقيت عندي طيلة أسبوع كامل، وكانت تنام على السرير الذي كان موجوداً في غرفتنا، بينما كنا ننام على الأريكة. وقد كنت متأكدة من أنها لم تر أي شيء من تلك الصفقات. فقد كانت زيارتها قبل بضعة أسابيع من وفاة

ماركوس؛ في الوقت الذي لم يكن أي منا _ أعني أنا وهو _ يتعاطى المخدرات. وقد كنت أصطحب كيت إلى المعارض، ونتمشى على طول جادة أونتر دين لندن، ونشرب «الهوت تشوكليت» في قمة برج التلفزيون. كنت أصورها في شوارع ميتي، إلا أن تلك الصور لم تعد موجودة لدي الآن، كما كنا نتجول في حديقة الحيوانات. أذكر أنني تركتها مع ماركوس مرة واحدة، وذلك حينما ذهبت لشراء البقالة للبيت. لكنه كان يعرف كم كنت أرغب بإبقائها بعيدة عن المخدرات، ثم إنني كنت أثق به بشكل كامل. وحينما عدت إلى المنزل، كانا يلعبان الورق مع فروستي، وكان التلفاز يعرض أفلام الرسوم المتحركة، أي أنها لم تر أي شيء من هذا القبيل على الإطلاق.

ومع ذلك، ألم يكن الأجدر بي أن أكون قدوة صالحة لها؟

شرعت بالبكاء، ثم تحول صوت البكاء إلى عويل من شدة الألم، فأخذ هيو يدي بيديه. كنت قد اعتقدت سابقاً أن التعرف على الشخص الذي قتل شقيقتي، وإلقاء القبض عليه، ونيله عقابه يمكن أن تحسن من حالتي؛ لأن ذلك لا بد له أن يضع النقاط على الحروف، كما يجب أن يفتح صفحة المستقبل، وأن يسمح لي بالمضي نحوها.

لكن كل ذلك لم يكن مجدياً، بل بدا لي بلا معنى، وكان مبتذلاً أيضاً؛ للغاية. ولعله الأسوأ من بين كل ما حدث.

هتف هيو:

«جوليا... جوليا... إن الأمور بخير».

فنظرت إليه وقلت:

«لا يمكنني أن أتحمل ذلك».

رد: «أعرف».

سألته: «هل هو القاتل بلا ريب؟».

أجاب: «إنهم يعتقدون أنه هو». وهنا بدأت أبكي فعلاً، وأخذت الدموع تنهمر كجداول غزيرة من عينيّ، فهل ماتت أختي، وتدمر مصير ابنها بسبب المخدرات؟

هتفت: «لماذا؟». وأخذت أكرر هذه الكلمة مرات ومرات، فاحتضنني هيو إلى أن هدأت.

كنت أريد ابني.

سألته: «هل أخبرت كونر؟».

فهز رأسه نفياً، ولهذا قلت له:

«علينا أن نخبره».

فهز رأسه موافقاً، ثم وقف واتجه نحو الدرج في الوقت الذي توجهت فيه نحو المطبخ. وهناك، أخذت لفافة مناديل ورقية مخصصة للمطبخ وبدأت أمسح دموعي عن وجهي، ثم سكبت لنفسي بعض الماء. وحينما عدت إلى غرفة المعيشة كان كونر يجلس قبالة والده، فرفع بصره إلي وقال: «أمي؟».

وهنا جلست على الأريكة وأمسكت بيد كونر.

شرعت أقول: «حبيبي...» غير أنني لم أكن متأكدة مما كنت سأقوله، لذا نظرت إلى هيو، ومن ثم عدت ببصري نحو ابننا، وبدأت أسبر أغواري وصولاً إلى أعمق نقطة يمكنني الوصول إليها؛ وذلك بحثاً عن آخر ما ادخرته من قوة، ثم قلت: «لقد أمسكوا بالرجل الذي قتل الخالة كيت يا حبيبي».

جلس صامتاً هنيهة، وبقيت الغرفة ساكنة كلياً حينها.

سألته: «حبيبي؟».

رد: «من هو؟».

ماذا علي أن أقول؟ إن هذا ليس ما يحدث في الأفلام؛ إذ ليس ثمة حبكة كبيرة هنا، أو حل يرضي الجميع في هذه القصة، حيث يرتبط كل ذلك بحل للعقدة في نهاية الرواية. بل كان ذلك أشبه بمضيعة للحياة لا معنى لها.

أجبت: «إنه مجرد رجل واحد».

سألني: «من هو؟».

نظرت إلى هيو مجدداً، ففتح فمه ليتكلم، لكنني أخذت أفكر في سري: لا تقل ذلك. لا تخبره أنه شخص كان يبيع المخدرات. لا تجعل الفكرة تنتقل إلى رأسه وتفكيره.

قال هيو: «لقد كانت خالتك كيت في المكان والزمان الخاطئين، وهذا كل ما في الأمر. إذ كانت قد تعرفت على رجل شرير، ولم نعرف السبب الذي دفعها للتعرف عليه، أو ما حدث معها. لكنهم أمسكوا به الآن، وسيسجن وسيدفع ثمن ما اقترفته يداه».

أطرق كونر، فقد كان يحاول أن يستوعب الفكرة، كما كان يحاول أن يفهم الموضوع حتى مع غياب الشرح الوافي.

وبعد هنيهة، أفلت كونر يدي وقال: «أيمكنني العودة إلى غرفتي الآن؟».

أجبته بنعم، إلا أنه كان هناك ما يدفعني للحاق به؛ بالرغم من أنني كنت أعرف أنني يجب ألا أفعل شيئاً كهذا. وهكذا تركته بمفرده لمدة عشر دقائق... ثم طالت المدة لتصل إلى ربع ساعة، وبعدها اتصلت أدريان، ثم آنا التي صعقت بالخبر وهتفت: «مخدرات؟!»

قلت: «أجل، فهل كانت...»

أجابت: «كلا، كلا. حسناً، أقصد أنها كانت تذهب إلى الحفلات، ألا تعرفين ذلك عنها؟ إننا جميعاً نقصد تلك الحفلات، إلا أنه لم تكن في تلك الحفلات أمور فاضحة للغاية كتلك».

أخذت أقول لنفسي: بحسب معرفتي، إنني الشخص الوحيد الذي يدرك تماماً كيف أنه من السهل أن يبقي المرء تلك الأمور مخفية، فقلت لها: «لعلك لم تطلعي على ذلك».

هتفت: «لا أعتقد ذلك. بصراحة، لا أظن ذلك».

تحدثنا لفترة أطول، لكنني كنت أريد أن أرى ابني، ولهذا أخبرت آنا بأنني كنت أتشوق لرؤيتها بعد أسبوعين من الزمن، فأخبرتني بدورها بأنها لا تطيق صبراً، ثم ودعنا بعضنا. بعدها، قلت لهيو إنني سأصعد إلى الأعلى لأرى كونر.

طرقت الباب، فأتاني صوته وهو يأذن لي بالدخول. كان يستمع إلى الموسيقى وهو مستلقٍ على سريره، ووجهه ينظر باتجاه السقف، أما عيناه فكانتا حمراوين.

لذا، لم أنطق بحرف واحد، بل دخلت وحضنته، وبدأنا نبكي معاً.

الفصل الرابع والعشرون

كانت آنا ستصل اليوم، وكنت سأوافيها في وقت لاحق؛ إذ كنا قد خططنا لتناول القهوة أو أي شيء آخر معاً، لكنني الآن بمفردي، وقد فرشت الجريدة أمامي، وبعدها انتقلت لتصفح المجلة، وأخذت أقرأ على عجل شيئاً حول مصممة أزياء وأمنياتها حينما كانت صغيرة. ثم قلبت الصفحة، فطالعتني مقالة من واقع الحياة حول شخص تحولت ابنته إلى مدمنة على الهيروين، فقلبت تلك الصفحة أيضاً، وأخذت أفكر بالمهرب الضيق الذي نفذت منه؛ هذا إن كان مهرباً بالأصل، وإن كان يصح القول إنني قد هربت. وأخذت أتساءل للحظات إن كانوا قد لفقوا قصة عني وعن لوكاس، فارتعدت خوفاً من تلك الفكرة. غير أن قصتي كانت معروفة، فقد ورطت نفسي مع رجل لم يكن الشخص الذي اعتقدت أنه سيكون عند حسن ظني به، وتوغلت في الأمور كثيراً؛ إلا أن هذه القصة تحدث في أي زمان.

أغلقت المجلة، وأخذت أفرغ آلة جلي الصحون من محتوياتها بصورة تلقائية، ثم أمسكت بإسفنجة التنظيف وزجاجة سائل التبييض، وأخذت أنظف الرفوف. وتساءلت إن كان هذا هو الشعور الذي كان الجيل الذي تنتمي إليه أمي يحس به، وذلك عندما يصادفهن دواء فاليوم في الحمام، وزجاجة شراب تحت حوض الجلي، وعلاقة حب مع بائع الحليب كنوع من المغامرة، مع الكثير من التطورات؛ وهذا ما أشعرني بالخزي.

وحينما فرغت من أعمالي المنزلية، صعدت إلى الطابق العلوي كي أرى هيو. فقد كان في مكتبه، بالرغم من نزلة البرد التي ظل يقاومها لمدة أسبوع تقريباً؛ إذ كان يعمل على إعداد بيان، وذلك لأن القضية التي رفعت ضده أخذت تتطور، حيث انتكست حالة المريض، وتم إبلاغ المجلس القضائي بذلك، وقد كان الفريق القانوني التابع للمشفى يرغب في منع وصول القضية إلى المحكمة، حيث قال لي هيو: «لقد أخبروني بأنني سأتدمر لو حدث ذلك، إلا أن الحقيقة

هـي أنني لـم أدوّن مـا قلتـه لهم. لـذا، بات من المحتمل أنني لـم أخبرهم بأي شيء أيضاً».

سألته: «ألن يغيّر من الأمر شيئاً أنهم تابعوا معك بكل الأحوال؟».

رد: «كلا. لأن كل ما يريدونه هو المال».

كانت ماريا تتعامل مع تلك الأسـرة في ذلك الحين. وبحسـب ما قاله لي هيـو، لـو انزعجـت هذه العائلة من ذلك الأمر، لكان أفرادها قد طلبوا استشـارة طبية أخرى من مشفى آخر مختلف عن المشفى الذي يعمل فيه هيو.

سألته إن كان سيفقد عمله من جراء ذلك، فأجاب بلا؛ إذ لم يتسبب هذا الأمر في وفاة أحد، كما أنه لم يمارس الإهمال المعاقب عليه جنائياً؛ إلا أنني كنت أرى التوتر الذي سببته له هذه القضية. طرقت على الباب ثم دخلت. كان يجلـس إلـى مكتبـه، وكان قد فتـح النافذة؛ بالرغم من التيار الهوائي الذي حمل معه الهواء البارد الذي يهب في مطلع شهر تشرين الأول، فبدا لي شاحباً.

سألته: «كيف أصبحت؟».

أجاب: «بخير». وكان العرق يلمع على جبينه.

قلت: «هل أنت متأكد؟». إذ كان من واجبي أن أقلق عليه، فقد مضى زمن طويل منذ أن شعرت بأنه بحاجة إلي، وأردفت: «هل تريد أي شيء؟».

فهز رأسه نافياً وهو يقول: «لا، أشكرك. ماذا عنك؟ ما هي خططك لليوم؟».

أخذت أذكره بزيارة آنا، ثم قلت: «سأصطحبها من المحطة».

سألني: «حتى إن كانت لن تقيم معنا؟».

أجبت: «أجل. فقد حجزت في فندق، لكنها ستأتي لتناول الغداء معنا يوم الاثنين».

سألني: «أين كونر؟».

أجبته: «خرج مع دايلان حسبما أعتقد».

سألني: «ألم يخرج مع حبيبته؟».

هتفت: «لسـت أدري». وشـعرت مرة أخرى بالإحسـاس بالفقدان، فالتفت إلـى تلـك الرفـوف الموجـودة فـي غرفة مكتـب هيو، وبـدأت بترتيب ما فيها؛ إذ كنـت قـد بـدأت أقلـق حينهـا لأن كونـر كان لا يزال متضايقاً بعـد النقاش الذي دار بينـي وبينـه منـذ بضـع ليالٍ، ولـم يتكلم إلي منذ ذلك الحين. إذ كيف يتوقع

الآخرون مني أن أحميه وأنصحه وهو يخطو نحو عالم الراشدين إن كان لا يسمح لي بدخول عالمه؟

ثم إن هذا واجبي، أليس كذلك؟ فقد تعاظمت الحاجة إلى حمايته وإبقائه سالماً فقط خلال الأسابيع القليلة الماضية. إلا أنني كنت أعرف أنه علي أن أثق بابني، لذا كان علي أن أتصرف بحكمة ونضج، وليس أن أخلق مشكلة معه، أو على الأقل ألا تكثر مشاكلي معه، وألا تكون لتلك المشكلات تداعيات فعلية. ثم إنني كنت محقة إلى حد ما حينما طلبت منه أن يحيا حياة طاهرة ونظيفة بعد كل الذي قمت به. إلا أنه كان عليه أن يرتكب أخطاءه، كما سبق لي أن ارتكبت أخطائي.

ثم إنه سيرتكب تلك الأخطاء عاجلاً أم آجلاً، ولهذا انحصرت آمالي في ألا تكون أخطاؤه كارثية؛ فالتدخين هو إحدى الطرائق التي تودي إلى تلك الأخطاء. أجل، كما أن زجاجة شراب رخيص قد يأتي بها أحد أصدقائه من محل سحبت منه رخصة بيع المشروبات كانت بالنسبة إلي أقرب إلى تربية لحية. كما أن تدخين الممنوعات لا بد أن يحدث عاجلاً أو آجلاً، وسواء أأعجبني ذلك أم لم يعجبني. أما ما هو أقوى من ذلك فلم أكن لأسمح به، كما لم أكن لأسمح بأي حادث سير، أو حالة حمل،أو هروب من المنزل، أو اختلاط بأشخاص ينبغي له التعرف عليهم أكثر.

سألت: «ألا يزال يراها؟».

فرد: «لست متأكداً من ذلك». وهنا شعرت بحالة ارتياح آنية، إلا أنني كنت أدرك أن في ذلك تناقض؛ إذ كنت أريد من كونر أن يقترب من هيو، لكن فكرة قيام كونر بإخبار هيو بأشياء لم يكن يخبرني بها لم تكن تعجبني على الإطلاق.

سألني: «وماذا استنتجت من كل ذلك؟».

سألته: «ماذا؟». ثم التفت نحوه وقلت: «أتقصد حبيبته؟».

فهز رأسه موافقاً ثم قال: «لقد تعرفا على بعضهما عبر الإنترنت، فهل أنت على علم بذلك؟».

وهنا جفلت، والتفت نحو الرفوف مجدداً وأنا أسأل: «عبر موقع فيسبوك؟».

رد: «حسبما أعتقد؛ فهي صديقة له».

قلت: «لست أدري. لكن يجب أن تكون صديقة برأيي».

سألني: «حسناً، هل لا يزال يراها؟».

قلت: «لم لا تسأله يا هيو؟ إنه يحدثك عن تلك الأمور أكثر مما يحدثني عنها».

فأخذ يشير إلى شاشته وهو يقول: «لأن لدي ما يكفيني من الهموم».

* * *

وصلت إلى محطة سانت بانكراس، وطلبت مياهاً معدنية من المقهى القريب، ثم جلست. ومن مقعدي، كان بوسعي أن أرى التمثال عند نهاية الأرصفة حيث كنت ألتقي لوكاس خلال تلك الأسابيع الماضية.

كنت أجلس في الطرف المقابل للتمثال، فأخذت الذكريات تعاود الظهور. كان ثمة ألم، لكنه أصبح كليلاً ومن الممكن تحمله، لذا أخذت أفكر بالموضوع كاختبار كان لوكاس قد نجح فيه، لذا كان علي أن أتجاوز ذلك الشخص بشكل نهائي وكلي، ومن ثم أستطيع أن أبدأ من جديد.

كنت أرتشف من الماء حينما وصل القطار.

رأيت آنا عبر الفاصل الزجاجي الذي كان يفصل القطارات عن المكان الذي كنت أجلس فيه. ثم أخذت تمشي على الرصيف، وكانت تضغط بهاتفها على أذنها، وتحمل حقيبة بدت لي كبيرة بالنسبة إلى الأسبوع الذي قالت إنها ستقضيه في لندن. كنت أراقبها وهي تنهي مكالمتها وتختفي عند أسفل السلالم الكهربائية. بدت لي جدية، وكأن شيئاً سيئاً قد حصل لها. لكنها حينما أصبحت أمامي بعد مرور بضع دقائق، ابتسمت ابتسامة عريضة حالما رأتني، وبدت لي سعيدة ومرتاحة، وهنا وقفت فأخذتني بالأحضان، وهي تقول:

«كم أنا سعيدة برؤيتك يا جوليا!».

هتفت: «وأنا كذلك». غير أن كلماتي ضاعت في ثنيات الوشاح الحريري الذي كانت تضعه. بعد ذلك، شدتني إليها بقوة، ثم تركتني فسألتها: «هل كل شيء على ما يرام؟».

بدت لي في حيرة من أمرها، فأومأت برأسي باتجاه الرصيف الذي كانت تسير عليه وقلت: «حينما نزلت من القطار بدوت لي قلقة». فضحكت وقالت: «أوه، كلا، كل شيء على ما يرام. إنها فقط مشاكل في مكتبي، وتلك الأمور التي تختلط أحياناً. ليست هنالك قضية ذات أهمية». ثم أخذت تنظر إلي وتقول:

«تبدين بخير، كما تبدين جميلة أيضاً».
فشكرتها وقلت لها: «وأنت كذلك».
فردت علي بقولها: «حسناً...» إلا أن ثمة شيئاً ما في ابتسامتها جعلني أشعر بأن بهجتها لم تكن لمجرد رؤيتي مرة أخرى فحسب، إذ كان ثمة شيء تريد أن تخبرني به... شيء كانت تخفيه عني، لكنها لم تعد تطيق صبراً.
سألتها: «ما الأمر؟». فقد كنت متحمسة ومحتارة أنا أيضاً، بالرغم من أنني تساءلت في سري إن كنت أعرف ما جعلها تبدو كذلك قبل أن تخبرني؛ فقد سبق لي أن رأيت التعابير ذاتها على وجهها، كما أن تلك التعابير كانت مرسومة على وجهي أنا أيضاً.
فضحكت، لذا قلت لها:
«أخبريني!».
فابتسمت ورفعت يدها اليسرى، وبعد لحظة عرفت سبب سرورها، إذ وجدت خاتماً في إصبعها أخذ يلمع تحت الضوء القادم من النوافذ الموجودة فوقنا، ثم هتفت:
«لقد طلب يدي للزواج».
فابتسمت لها، لكن كل ما شعرت به خلال فترة قصيرة هو الغيرة، فقد كنت أرى حياتها مترعة بالإثارة والاكتشاف والعواطف.
ثم عانقتها مرة أخرى وقلت: «هذا رائع... رائع بالفعل!». وكنت أعني ما أقوله. فبالرغم من أن ردة فعلي الأولية لم تكن لطيفة، إلّا أنها لم تدم طويلاً. ثم أخذت أنظر إلى الخاتم الذي كان يحتوي على ماسة مستديرة واحدة ضمن إطار ذهبي، فبدا لي باهظ الثمن. وهنا بدأت بالكلام؛ إذ كان قد طلب يدها في الأسبوع الماضي، فحدثتني عن ذلك بقولها: «لقد أحضر الخاتم، لكنه لم يركع على ركبة واحدة تماماً، بل...» ثم ترددت، وكان يبدو عليها بوضوح أنها تحاول أن تتذكر، ثم تابعت: «أردت أن تكوني من الأشخاص الأوائل الذين سأطلعهم على هذا الأمر».
تكلفت الابتسام، فقد كنت أشعر بالغيرة من أجل كيت؛ إذ بدا لي وكأن وفاتها قد حررت آنا بطريقة ما، بالرغم من أنه لم يكن يبدو عليها أنها كانت تلاحظ تلك الحقيقة. وهنا أمسكت ذراعي، وشدت عليها بقوة ثم قالت: «إنني

أشعر بأنك قريبة مني كثيراً يا جوليا، وأعتقد أن سبب ذلك هو كيت، وما حدث لها».

فأمسكت أنا أيضاً بيدها وقلت: «أجل، أجل، أوافقك الرأي. إذ إنني أرى أحياناً أن الأمر لا يتعلق بطول الفترة التي تعرفتِ فيها على شخص ما، بقدر ما يتعلق بما عانيتماه معاً». فبدت لي مرتاحة عند قولي ذلك، فقد أصبحنا صديقتين فعلاً. بعد ذلك، تركت يدها وحملت حقيبتها قبل أن أشبك ذراعي بذراعها، ثم بدأت أقول حينما شرعنا بالمسير نحو السيارة: «إذاً، أخبريني بما حدث! وكيف طلبك؟».

بدا لي أن تلك الفكرة قد قفزت إلى ساحة اهتمامها، فأخذت أفكارها تعود إلى ذكرياتها الماضية حسبما أظن، وهنا قالت: «ذهبنا إلى منطقة كنيسة القلب المقدس، فاعتقدت أننا ذهبنا إلى هناك لنتمشى، ولنستمتع برؤية المناظر _كما تعرفين _ وقد نتناول طعام الغداء هناك». ثم أخذت تتلعثم بالكلمات؛ إذ تحولت جميعها إلى هتافات تعجب وأنصاف جمل. وحينما أصبحت كلماتها كذلك بدأت حماستها تغمرني، فشعرت بالندم حيال ردة فعلي التي أبديتها في بداية الأمر، وأخذت أسأل نفسي إن كانت تدور حول الغيرة أم هي مجرد حزن وأسى... الحزن لأن هذه البهجة كانت من نصيبها وليس من نصيب كيت.

وحينما كانت تتحدث، كنت أتذكر كيف طلبني هيو للزواج. إذ حدث ذلك في مطعم، وكان المطعم المفضل لدينا في ساحة بيكاديللي، حيث طلب مني الزواج في الفترة الفاصلة بين تناول الطبق الرئيس وتناول الحلوى. بدأ كلامه بالقول: «جوليا»، وأتذكر وقتها كيف بدت الجدية والعصبية عليه، فاعتقدت أنه سينهي كل شيء خلال ثوانٍ قصيرة؛ إذ ظننت أنه اصطحبني إلى ذلك المكان ليخبرني بأنه التقى إحداهن، أو ليقول لي إنني تحسنت وشفيت الآن، وإن عليَ أن أرحل من حياته، لكنني فكرت في الوقت ذاته بأنه من غير المحتمل أن يكون هذا هو السبب؛ فقد كنا بغاية السعادة خلال الأشهر القليلة التي سبقت ذلك، كما كنا مغرمين ببعضنا كثيراً.

فسألته: «ما بك؟ ما الأمر؟».

رد علي: «تعرفين أنني أحبك، أليس كذلك؟».

أجبته: «وأنا أحبك». فابتسم، إلا أن الارتياح لم يغمره تماماً، لذا عدت

إلى بداية ظنوني حول ما كان يريد أن يخبرني به.

إلا أنه شرع بالقول: «حبيبتي»، ثم أمسك بيدي فوق الطاولة وتابع: «جوليا، أنا...»

أجبته: «أنت ماذا يا هيو؟ ما الأمر؟».

رد: «أتتزوجينني؟».

فغمرتني السعادة على الفور. وبالرغم من أنه لم تكن هناك تصرفات رومانسية، إذ لم يركع على ركبة واحدة ولم يقف ليعلن عن نيته الزواج بي أمام بقية الحاضرين في المطعم، إلا أنني سعدت بذلك؛ لأن تلك التصرفات لم تكن تلائم أسلوبه، ولا أسلوبي أنا أيضاً. لقد كان رجلاً طيباً، وقد كنت أحبه، فلِمَ كنت سأرفض؟ ثم إنه يعرفني، وقد رآني في أسوأ حالاتي على الإطلاق، ويعرف كل شيء عني؛ كل شيء تقريباً، فالأمور التي لا يعرفها عني هي تلك التي لم أخبر بها أحداً قط.

أجبته: «بالطبع». إلا أنه كان ثمة شيء ما داخلي يشعرني بالتردد؛ إذ كنت أشعر بأنني لا أستحق ما عرضه عليّ هيو، وما كان قد منحني إياه، أي هذه الحياة الثانية. بيد أن الارتياح الذي غمر وجهه جعلني أشعر بأنني اتخذت القرار الصائب الوحيد في حياتي.

أدركت أن آنا أمسكت عن الكلام، فأجبرت نفسي على العودة إلى الحاضر وقلت لها:

«يبدو لي مناسباً!».

هتفت: «نعم، أتعرفين؟ أعتقد أنه مناسب تماماً».

سألتها: «أهو من باريس؟».

أجابتني: «كلا، لكنه يقيم هناك. أما عائلته فتنتمي إلى إحدى المناطق الواقعة جنوب ديفون». ثم ابتسمت وتابعت: «ستكون زيارتي هذه سريعة للغاية، لأنني سأقابل عائلته في غضون بضعة أسابيع». كنا قد وصلنا إلى السيارة، فوضعت حقيبتها في الصندوق. وحالما قمنا بربط الأحزمة، وشرعت بالقيادة، أخذت تخبرني مرة أخرى عن قصة لقائهما، حيث بدأت بالقول: «حسناً، لقد أخبرتك عن حفلة العشاء، أليس كذلك؟». ثم تنهدت، وكأن لقاءهما كان أمراً حتمياً؛ أشبه بالتقاء مصيرين، فقلت لها نعم، بالرغم من

أنني لم أكن متأكدة من ذلك، إلا أنها تابعت قصتها على أية حال، فأخذت تحدثني عن كيفية انسجامهما مباشرة، وكيف بدا الوضع مثالياً على الفور.

ثم قالت: «أتعرفين تلك الحالة حينما لا يبدو الأمر معقولاً لكنك تشعرين بأنه مناسب؟».

أجبتها: «أعرف». وأنا أدير عجلة القيادة، ثم تنهدت وكررت: «أعرف». كانت تعتقد أنني كنت أتحدث عن هيو، لكنني لم أكن كذلك، إذ كنت أفكر بلوكاس. كنت أحاول طيلة الفترة الماضية أن أمثل على نفسي بأنني لم أكن مشتاقة له، لكنني كنت مشتاقة له، أو مشتاقة لما اعتقدت أنه كان بوسعنا أن نحصل عليه.

كنت أعتقد أنه يعرفني، وكأنه قد فتح ما بداخلي واطلع على حقيقتي، وكنت قد أقنعت نفسي بأنه الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه القيام بذلك.

سمعت آنا تقول: «... لذا، فنحن نفكر بأن نبقى في باريس لفترة، ثم يمكننا أن ننتقل إلى هنا».

أجبتها: «فكرة جيدة. لكنْ ذكريني، متى التقيتما؟».

سألتني: «متى؟ حسناً، لقد كان ذلك بعد الكريسمس مباشرة، أي قبل بضعة أسابيع من حادثة كيت...» وهنا تلعثمت، وأخذت تصحح ما قالته، لكن الضرر كان قد حل بي، ثم سمعتها تقول: «... قبل أن ألتقيك». بعد ذلك ابتسمت، لكن كان بوسعها أن ترى مدى انزعاجي، إذ كان بإمكاني أن أتحدث عن كيت في هذه المرحلة، وأن أفكر بها أيضاً، إلا أن أي إشارة صريحة إلى وفاتها تأتيني من حيث لا أدري كانت كفيلة بإزعاجي، فهتفَتْ: «آسفة، إنه لساني الطويل».

قلت لها: «لا بأس». إذ لم أكن أريد أن أبقى عند تلك النقطة، كما لم أكن أريدها أن تشعر بالذنب، فآنا آخر شخص كنت أتوقع من نفسي أن أتجنب الحديث معه حول موضوع شقيقتي، ومع ذلك غيرت الموضوع وقلت: «لكن، يبدو لي أن الأمور حدثت بسرعة كبيرة». وأخذت أفكر بلوكاس مرة أخرى، وكيف وقعت بسببه بسرعة، ثم قلت: «أتمنى ألا يضايقك كلامي هذا؛ لأن كل ما أعنيه هو: هل أنت واثقة من قرارك؟».

ردت: «أوه، أجل، إنك محقة! لكنني واثقة من ذلك تمام الثقة. وكلانا على يقين من ذلك». ثم أضافت: «وهو يقول لي الكلام ذاته. إذ إننا كلينا لا نجد

مبرراً لتأجيل الموضوع طالما أننا متأكدان من مشاعرنا».

بعد ذلك سكتت قليلاً، وأحسست بها وهي تنظر إلي وأنا أقود السيارة، ولا شك في أنها كانت تفكر في ما قلته لها، وتتساءل عن مدى السعادة التي يمكنني تحملها. وهنا خرجت عن صمتها وقالت: «أتعرفين؟ أعتقد أن كل الموضوع يرتبط بطريقة غريبة بكيت وبما حدث لها؛ إذ إن ذلك يذكرني بأن الحياة قد خلقت لتعاش، أليس كذلك؟ فالحياة ليست تجربة».

أجبتها: «كلا». فقد كانت تلك عبارة مكررة، لأنها كانت واقعية، ثم تابعتُ بالقول: «كلا، إنها ليست كذلك».

قالت: «أعتقد أن ذلك ما تعلمته من وفاة كيت».

أجبتها: «حقاً؟! لكنني أشعر أنني لم أتعلم شيئاً من وفاتها».

ظهرت تلك الجملة من حيث لا أدري، فتمنيت لو كان باستطاعتي استرجاعها وكأنني لم أنطق بها، إلا أن ذلك كان ضرباً من المستحيل.

ردت علي: «لا تقولي ذلك».

فقلت لها: «هذا ما حدث؛ إذ إن كل ما فعلته كان محاولة الهروب من تلك القصة».

وانظري إلى أين وصلت، فقد أمضيت فترة الصيف وأنا مهووسة بلوكاس؛ ذلك الرجل الذي يصغرني بعشر سنوات، ووقعت في حب جعلني غبائي أظن أنه يمكن أن يكون متبادلاً.

وهكذا انتهت بي الأمور بالهرب من ذلك الألم الذي كنت مدينة بتجربته إلى أختي، ولم يكن باستطاعتي أن أعوض عن ذلك، فبدا الأمر أشبه بالخيانة الأخيرة.

قلت لها: «إنني أشعر بالأسى على نفسي. لكن ريان يبدو رائعاً، وأنا لا أطيق صبراً حتى ألتقيه ».

ردت: «لا بد أن تلتقيه، فقد يأتي إلى هنا خلال الأسبوع القادم. الأمر غير مؤكد بعد، لكنك قد تلتقينه يوم الاثنين القادم».

أجبتها: «لم أكن أعرف أنه في مدينتنا. إذاً، يجب أن يحضر لتناول العشاء معنا».

ردت: «أوه، كلا. إنه لم يصل إلى هنا بعد، إذ عليه أن يبقى هناك لإنهاء

بعض الأعمال. ثم إنني لا أعرف متى سيصل، و... حسناً، سأطلب منه أن يحضر على أية حال، إن كنتِ متأكدة بأن هذا لن يزعجك».

أخذت أهز رأسي نافية وأنا أقول: «بالطبع لا».

سألتني: «كيف أصبحتما أنت وكونر هذه الأيام؟».

أجبتها: «أحسن بكثير». أخذت تهز رأسها، فقلت لها: «يبدو أنه قد اتخذ لنفسه حبيبة».

هتفت: «حبيبة؟».

شعرت بشيء من الكبرياء وأنا أقول لها: «أجل». ثم توقفت عند إشارة ضوئية، وعبر المرآة الجانبية لمحت راكب دراجة يشق طريقه بين السيارات، لدرجة أنه بات قريباً منا كثيراً، وهنا تابعت: «بالرغم من أنه لا يتحدث إلي حول هذا الموضوع بالطبع». ثم أضفت: «إنه بالكاد يعترف بأنها موجودة في حياته؛ بالرغم من أنه يتحدث إلى هيو حول ذلك».

سألتني: «وهل هذا أمر معتاد؟». وهنا بدت لي مهتمة بالموضوع بالفعل، ثم أردفت: «أعني بالنسبة إليه؟».

أخذت أفكر بما قالته لي أدريان: «إن هذا أمر عادي بالنسبة إلى جميع المراهقين». فتنهدت، ثم تغير لون الإشارة الضوئية، فانطلقنا. كنا قد وصلنا إلى شارع غريت بورتلاند تقريباً، وهناك خامرني شعور بالسعادة لأن كونر كان يكبر. لكن، كان لا بد لتلك السعادة أن تختلط ببعض الحزن لأن هذا يعني أنه سيكبر بعيداً عني. أخذت أتذكر الحديث مع أدريان حول هذا الموضوع، والذي دار منذ بضعة أسابيع، حيث قالت لي: «إن هذا أمر يمر به المراهقون». ثم ترددت وصححت جملتها وقالت: «حسناً، إنهم لا يمرون بذلك تماماً، بل إنهم لا يخرجون منه. وأخشى أن تكون هذه هي المرحلة الأولى التي يخوضها ابنك قبل أن يتركك...».

نظرت إلى آنا وقلت: «إنه لم يعد يرغب بالخروج معنا حين نخرج، بل يبقى في غرفته».

فابتسمت وقالت: «إذاً، أنت متأكدة من أن السبب في ذلك هو حبيبته، أليس كذلك؟».

أجبتها: «أوه، أجل، أعتقد ذلك. بالرغم من أنه يطلب مني أن أفكر بشؤوني

الشخصية فقط». لكنني لم أخبرها بأنه أراني صورة لها تحت ضغط إلحاحي هذا الصباح، بعد نقاش طويل مع هيو. وأنها بدت لي أكبر منه قليلاً، وأنني كنت مقتنعة بأنها الفتاة التي رأيتها في حفلة كارلا؛ بالرغم من تأكيداته لي بأنها لم تكن هناك، لذا تابعت بالقول: «إنها صديقة لأحد أصدقائه. وقد تعرفا على بعضهما عبر موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك». فنظرت إلي وابتسمت ابتسامة العارف، لكنني تجاهلتها وقلت: «لقد تحدث إليه هيو بشأنها؛ إذ إنهما يجريان محادثات عبر الإنترنت حسبما يبدو، بالرغم من أنها تسكن في مكان قريب منا».

مرت فترة صمت طويلة، قطعتها آنا بقولها: «ألم يصلك أي خبر من ذلك الشاب لوكاس بعد ذلك؟».

أجبتها: «أوه، كلا، لم يصلني أي شيء منه على الإطلاق».

كنت مسرورة لأنني كنت أقود السيارة، إذ كان بوسعي أن آخذ الوقت الكافي لأجيب عن أسئلتها، ولأقرر ما علي أن أقوله. كما كان بوسعي أن أتظاهر بأن صمتي كان بسبب الحاجة إلى زيادة التركيز، وليس لأنني أجد صعوبة في إكمال ذلك الحوار. كان بوسعي أن أثبت نظري على الطريق، وأن أخفي التعابير التي كانت على وجهي، وأن أجافي الحقيقة وأنا أخبرها بما كان يحدث. فبقدر ما كنت أشعر بأنه كان يمكنني أن أثق بآنا، إلّا أنني كنت أشعر بالخزي والعار أيضاً.

سألتني: «وماذا عن هيو؟».

أجبتها على عجل: «ليس لديه علم بكل ذلك». ثم نظرت إليها، إذ كانت تنظر إليّ ووجهها خاليمن التعابير. لذا حاولت أن أخفف من حدة لهجتي، لأؤكد لها أنني كنت أعرف كم كنت غبية، إلا أن الأمر قد انتهى الآن، فقلت: «إنه لن... لن يتفهم الأمر».

فهتفت: «أوه، يا إلهي! لن أخبر هيو بأي شيء! لا... لن أفعل، صدقيني».

قلت لها: «كان الأمر مجرد محاولة للتسلية، مجرد متعة قصيرة دامت لفترة من الزمن».

ردت: «أجل، تماماً، بكل تأكيد...».

إلى أن لم يعد في الأمر أي متعة على الإطلاق؛ هكذا فكرت في سري.

ثم قلت لها: «لقد اختفى ذلك الرجل على أية حال».

ردت: «تبدين لي محبطة».

أجبتها: «أبداً».

مرت فترة صمت أطول من سابقتها، فشعرت بالتوتر والحرج، لأنني وآنا كنا نعرف كيف انتهت قصتي مع لوكاس. وامتدت فترة الصمت تلك؛ إذ كانت كل واحدة منا تنتظر من الأخرى أن تخرج عن صمتها. لكنها هي التي فعلت ذلك أخيراً، حيث سألتني عن الخطط التي أعددتها لذلك الأسبوع، فأخبرتها أنني سأقوم ببعض الأعمال، وسأذهب إلى السينما لمشاهدة أحد الأفلام. ثم وصلنا إلى الفندق أخيراً.

قلت لها: «ها قد وصلنا».

توقفنا، وكان المكان مدهشاً بروعته، بالرغم من أنه لا يقارن بفخامة الأماكن التي كان لوكاس يأخذني إليها. وعندها، سألتها: «أتريدين مني أن أدخل؟».

فهزت رأسها نافية الحاجة إلى ذلك، ثم قالت: «هذا جيد. أعتقد أنك بحاجة إلى إنهاء أعمالك».

كان ذلك بمثابة عذر، فابتسمت. فقد كنت أريد أن أتحاور مع أي شخص، لكنها بدت لي متعبة، وكنت قد نسيت أنها أتت إلى هنا في عمل، لذا من المحتمل أنها ترغب بالحصول على قسط من الراحة قبل الاستعداد للمؤتمر الذي كان سيعقد صباحاً. ثم سيكون أمامنا متسع من الوقت حينما تأتي لزيارتي وتناول طعام العشاء في بيتي.

خرجنا من السيارة، فأخرجت لها حقيبتها من الصندوق الخلفي، وأنا أقول: «إذاً، أراك يوم الاثنين».

وهنا سألتني عن الموعد الذي يجب أن تصل فيه، ثم سألت: «ماذا أحضر معي؟».

أجبتها: «لا شيء، لا شيء البتة. تعالي أنت فقط. أعتقد أنه يجب علي أن أدلك على البيت». فأخرجت هاتفها من حقيبتها ثم قالت:

«كلا، لأنني سأستعين بهذا». ثم مسحت شاشتها فظهرت لها نوافذ أخرى، وعندها قالت: «إن هذا أسهل بكثير. ها أنت، لقد قمت بإضافتك».

لم أكن أعرف ما كانت تعنيه، لذا شرعت بالقول: «ليس لدي...» لكنها قاطعتني بقولها:

«البحث عن الأصدقاء. إنه تطبيق يظهر المكان الذي يتواجد فيه الصديق بالنسبة إلى المكان الذي أنت فيه، وذلك على خارطة قياسية. تفقدي بريدك».

قمت بتفقد بريدي، وكانت هناك رسالة جديدة، فقالت لي: «اقبلي الدعوة، وعند قبولك إياها سيرتبط حسابي بحسابك، وهكذا أستطيع أن أرى أين أنت على الخارطة، كما تستطيعين رؤيتي أنت كذلك. إنني أستخدم هذه التقنية طيلة الوقت في البلد الذي أقيم فيه. فبعد وفاة كيت، أصبح هذا التطبيق نوعاً من التأكد من مكان تواجد أصدقائي».

وهنا أخذت هاتفي وبدأت توضح لي ذلك، حيث انفتحت خارطة ظهر فيها مكان وقوفنا، إذ كانت هناك نقطتان نابضتان فوق بعضهما، فهتفت آنا: «أترين؟ هذه لك والأخرى لي».

نظرت إلى الشاشة، فوجدت تحت الخارطة قائمة بأسماء الأشخاص الذين يتبعونني. كان اسم آنا موجوداً فيها، لكن تحت اسمها، ثمة اسم آخر، إنه لوكاس!

وهنا شعرت كما لو أن أحداً ما قد صفعني على وجهي، فهتفت:

«انظري إلى هذا الهراء!».

بدت لي آنا مصدومة وهي تسأل: «ما الأمر؟».

هتفت: «إنه هو... لوكاس!». وكنت أحاول أن أحافظ على ثبات نبرة صوتي؛ لأنني لم أكن أريد لآنا أن تسمع الخوف فيها، ثم تابعت: «لقد كان يتبعني عبر هذا...»

هتفت: «ماذا؟».

أمسكتُ بهاتفي وقلت: «انظري كيف...» لكنها كانت قد بدأت بالشرح قبلي، حيث أخذت تقول:

«لا بد أنه قد ربط حسابك بحسابه. ألم تكوني على علم بذلك؟».

أخذت أهز رأسي نافية؛ إذ لم أكن قادرة على تصديق ما كان يجري.

قالت: «لا بد أنه وجد طريقة ما لإرسال طلب إليك، ومن ثم قبوله بدلاً عنك. ثم إن هذه العملية سهلة للغاية؛ خاصة إن كنت قد تركته مع هاتفك بمفرده».

لقد كانت على حق، إذ كان الأمر في غاية السهولة؛ ففي كل تلك المرات التي كنت أذهب فيها إلى الحمام، كان هاتفي إما في حقيبتي أو على طرف

الطاولة.

سألتها: «ألا يمكننا أن نوقف تتبعه لي؟».

ردت: «إنها عملية سهلة». ثم أخذت تمسح شيئاً ما على الشاشة، وبعدها أعادت لي هاتفي وهي تقول بثبات: «إليك هاتفك، لقد تم الحذف».

نظرت إلى الشاشة فلم أجد غير اسمها الآن، فسألتها: «لن يستطيع أن يعرف أين أكون منذ الآن، أليس كذلك؟».

أجابتني: «نعم». ثم وضعت يدها على ذراعي وقالت: «هل أنت بخير؟».

أخذت أهز رأسي إيجاباً، إذ كنت قد أدركت أنني بخير حقاً، وأنني كنت أشعر بالارتياح بطريقة غريبة. إذاً، كانت هذه هي الطريقة التي اتبعها ليعرف أين أكون طيلة ذلك الوقت. وعلى الأقل، ها قد أصبحت الآن أعرف، وها قد تخلصت منه نهائياً؛ الآن على الأقل.

سألتني: «هل أنت متأكدة؟».

أجبتها: «كانت صدمة بالنسبة إلي نوعاً ما، لكنني الآن بخير، صدقيني».

هتفت: «إذاً، أراك يوم الاثنين». فأخذت أهز رأسي موافقة، ثم أردفت: «وسأخبرك بما سيفعله ريان حالما يتأكد من ذلك».

قلت: «عظيم. أهلاً وسهلاً به، إنني أتطلع شوقاً للقائه».

قبلتني ثم استدارت لتغادر وهي تقول:

«وهو لا يطيق صبراً حتى يلقاك».

في البيت، توجهت مباشرة إلى حاسوبي؛ إذ إن رؤية اسمه كانت قد أيقظت شيئاً ما داخلي. أخذت أقول لنفسي: ستكون هذه هي المرة الأخيرة. فتحت على موقع encountrz وأخذت أبحث عن اسمه، فوصلتني الرسالة ذاتها مرة أخرى، وكانت صارمة وواضحة؛ تماماً مثل خيبة أملي:

اسم مستخدم غير موجود

وكأنه لم يُخلَق أصلاً؛ إذ كان قد اختفى كلياً، كما اختفت الرضوض التي سببها لي.

كتبت اسمه في محرك البحث غوغل فلم أجد شيئاً؛ إذ لم يرد اسمه أو

اسم أي شخص قد يكون هو. حاولت البحث عنه في موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، فلم أجد لحسابه الشخصي أي أثر. عندها، اتصلت برقمه مرة أخرى، بالرغم من أنني كنت أعلم أن ما سأسمعه هو ذلك الصوت الذي لا حياة فيه. كان من عادتي أن أعود إلى الوراء في مثل هذه الحالة، وذلك بأن أكرر ما أقوم به مرات ومرات، لكنّ هذه المرة كانت مختلفة؛ لأنني كنت أعرف أنه عليّ أن أتوقف عن ذلك. لذا، سجلت الدخول إلى حسابي الشخصي على موقع encountrz؛ ذلك الحساب الذي أنشأته عصر ذلك اليوم في الحديقة، وأخذت أتجول بين القوائم إلى أن وجدت طلبي، وهو: حذف الحساب.

ترددت، ثم تنفست بعمق مرة ثم مرتين، وبعد ذلك نقرت نقرة واحدة، فجاءتني رسالة:

هل أنت متأكد؟

فاخترت: نعم. وعندها، تغيرت الشاشة أمامي وظهرت لي عبارة: تم حذف الحساب.

وهكذا لم تعد جين موجودة على الإطلاق.

اعتدلت في مكاني، وأخذت أفكر بأن كل شيء قد انتهى الآن.

الفصل الخامس والعشرون

كنت في غرفة الجلوس عندما وصلت آنا، وقد كانت بمفردها؛ إذ كانت لدى ريان خطط أخرى حسبما أخبرتني، لكنه سيأتي ليصطحبها لاحقاً. ناديت هيو الذي كان في الطابق العلوي، ثم توجهت لأفتح الباب، إذ كانت ضيفتنا تقف في الخارج وتحمل معها زجاجة من الشراب وباقة أزهار. هتفَت حالما أدخلتها: «جئت مبكرة، آسفة!». فقلت لها: لا بأس، وأخذت منها المعطف المطري الأحمر الذي كانت ترتديه، والذي كان قد تبلل بالمطر قليلاً، فسألتها: «هل السماء تمطر؟».

فردت: «قليلاً. إنه مجرد رذاذ خفيف. يا له من منزل رائع!».

توجهنا نحو غرفة الجلوس، وهناك أخبرتني أن المؤتمر قد مر على خير؛ بالرغم من ظهور الكثير من الأمور التي كان عليها أن تفكر فيها. كما أجابتني حين سألتها عن غرفتها في الفندق بأن الوضع جيد. وبينما كانت تتحدث، توجهَت نحو صورة كيت الموجودة على رف الموقد وأمسكت بها، ثم أخذت تنظر إليها هنيهة قبل أن تعيدها إلى مكانها. بدت لي وكأنها تريد أن تقول شيئاً، وكان قد سبق لنا أن تحدثنا حول أنهم اكتشفوا الشخص الذي اغتال كيت، ففكرت في سري: لعلها تريد أن تضيف شيئاً آخر. لكن هيو في تلك الأثناء كان قد نزل من الطابق العلوي ليسلم عليها، حيث تعانقا بحرارة؛ وكأنهما يعرفان بعضهما منذ سنين طويلة.

بعد ذلك قالت لي: «أوه، لقد جلبت معي هذا». ثم سلمته كيساً، ففتحه هيو ووجد فيه علبة من حلوى المعكرون التي كانت مغلفة بشكل جميل، فهتف: «عظيم!». ثم جلسا بعد ذلك، فاستأذنت منهما لأتفقد الطعام، وكنت سعيدة لأنهما كانا يتجاذبان أطراف الحديث. وللحظة، شعرت بأنني كنت أختبر آنا بصفتها أفضل صديقة جديدة لديّ. لذا، شعرت بالقلق حيال أدريان، ثم ساورني إحساس بالذنب؛ إذ كانت علاقتنا قد خرجت لتوها من المنعطف الخطير الذي

كانت تمر به، وكنا حالياً نحاول العودة للسير على الطريق الصحيح.

غير أنه كان من الطبيعي أن نصبح أنا وآنا صديقتين أيضاً؛ فقد فقدنا كيت. ولهذا، كانت الرابطة بيننا حديثة العهد، إلا أنها كانت قوية للغاية.

سألتني آنا حينما عدت من المطبخ: «أين كونر؟ لا أطيق صبراً حتى ألتقيه مرة أخرى».

أجبتها: «لقد خرج مع أصدقائه». ثم جلست على الأريكة المقابلة لهيو، بجانب آنا، وتابعت: «أعتقد أنه عند صديقه دايلان، لذا لن يتأخر في العودة».

كنت قد أخبرته بأنه عليه أن يعود إلى البيت باكراً. ولربما كان هيو على حق؛ إذ كان يجب علي أن أكون أكثر جدية معه.

أخذت أهز كتفي بلا مبالاة، وأنا أقول لها: «تعرفين أي نوع من الأشخاص هم هؤلاء الأولاد». فابتسمت، بالرغم من أنني اعتقدت أنها لم تفعل ذلك.

سألها هيو: «هل تريدين أطفالاً؟». فضحكت وقالت:

«كلا. ليس الآن على أية حال؛ لأن كل ما هنالك هو أنني أصبحت مخطوبة ليس إلا».

سألها هيو: «ألديك إخوة أو أخوات؟».

ردت: «ليس لديّ إلا أخ من زوج أمي، واسمه سيث. إنه يعيش في ليدز، ويزاول عملاً له علاقة بالحواسيب، لكنني لا أعرف ما عمله بالضبط».

سألها هيو: «هل يعيش والداك في ليدز أيضاً؟».

فتنهدت وقالت: «كلا، لقد توفي والدي». وعندها، أخذت أتذكر حديث آنا عن والديها عندما زرتها في باريس، حين كنا جالستين على الأريكة في بيتها ونحن نتناول الشراب؛ حيث أخبرتني أن والدتها كانت تعاني من الاكتئاب، وقد حاولت أن تنتحر ولكنها نجت بأعجوبة، وأصبحت بحاجة إلى عناية طيلة الوقت خلال السنوات التي بقيت فيها على قيد الحياة. أما والدها فقد ساء وضع إدمانه على الشراب، وبعد مرور أقل من عشر سنوات على زواجهما، توفي والداها في غضون ستة أشهر، فبقيت هي وأخوها بمفردهما.

وهنا أخذ هيو يسعل ثم قال: «يؤسفني سماع ذلك، لكنني أرى أنك مع أخيك غير الشقيق كنتما تشعران بالرضى حيال ذلك، بالرغم من كل ما جرى، أليس كذلك؟».

أجابـت: «بـكل تأكيـد. وقد حدث ذلـك بطريقة رائعة، فقد كنا كذلك على الدوام. لقد أصبح أخي كل شيء بالنسبة إلي، ولست أدري ما بوسعي فعله إن حدث له أي شيء».

حاولـت ألّا أبـدي لهـا ردة فعلـي، لكن لا بد أنهـا رأت وجهي وأنا أنهار، فهتفت:

«أوه، يا إلهي! جوليا... إنني لم أكن... لم أقصد أن... أنا آسفة».

قلـت: «لا بأس». إذ كانـت هـذه هي المرة الثانية التي تشير فيها إلى وفاة كيـت بشـكل أخـرق فـي غضـون أيام قليلة؛ وإن لم تكن قد فعلت ذلك بشـكل مباشـر. ولهذا أخذت أتسـاءل إن كانت قد تجاوزت الموضوع ونسـيت الأمر؛ لأنني لم أشك للحظة بأن الموضوع كان مقصوداً.

قلت لهما: «هيا بنا لنأكل».

كان عشـاءً رائعـاً؛ إذ كنـت قـد أعـددت فطيرة محشـوة بالدجـاج، لذا كان الطعام شـهياً، كما أن كونر وصل بعد وقت قليل من سـكب الحسـاء، فجلس معنا، وبدا لي أنه قد تعرف إلى آنا وتعلق بها بشكل كبير. وهكذا، أخذت تسأله عـن المدرسـة، وعـن كـرة القدم التي كان يمارسـها؛ حتى إنهـا أخرجت هاتفها خلال الحديث، فسـاعدها بإصلاح شـيء ما كانت تعاني بسـببه. وحينما انتهينا من الوجبة الرئيسة، قامت آنا بمساعدتي في رفع الصحون ونقلها إلى المطبخ، وعندما أصبحنا بعيدتين عن مرمى السمع هتفت لي: «يا له من شاب رائع!».

سألتها: «أتعتقدين ذلك؟».

أجابـت: «أجـل». ثـم وضعت الأطبـاق وقالت: «يجب أن تكوني فخورة به كثيراً، كلاكما يجب أن تفخرا به!».

فابتسمت وقلت لها: «أشكرك». إذ كان استحسانها مهماً نوعاً ما. بعد ذلك، أخبرتني أنها سـتصعد إلى الطابق العلوي لتسـتخدم الحمام، فأرشـدتها إليه، ثم طلبت من هيو أن يساعدني في إعداد القهوة.

فجاء إلي وقال: «كيف تسير الأمور؟».

قلـت: «بخيـر». وكنـت قد أعددت حلـوى البودينغ، كما صنعت كريمة من الحليب والقليل من الشراب والليمون، لكنني كنت أتساءل إن كان يجب عليّ أن أقدم حلوى المعكرون معها أيضاً، لذا سألت هيو، فقال:

«إن كنت تريدين رأيي فسأقول لك: قدمي كلا الطبقين. هل تملك آنا سيارة لتعود إلى الفندق؟».

كنت أعرف أنه يفكر في زجاجة الشراب الموجودة في الثلاجة، فقد أصبح يشعر بالقلق من الشراب منذ أن كذبت عليه وقلت له إنني تناولت الشراب مع أدريان. لكنه لم يذكر ذلك؛ بالرغم من أن لدينا شراباً في البيت دائماً. غير أنه كان يعرف أن اللجوء إلى تجاهل ذلك كان أفضل من التظاهر بأن الشراب غير موجود في البيت أصلاً.

أجبته: «كلا، بل سيأتي حبيبها ليقلّها من هنا». وهنا شعرت بالاستياء قليلاً، إذ كان هيو يفكر بتقديم المزيد من الشراب، ولم يكن بوسعي تناول أي شيء منه. لذا، اعترفت بذلك في سري، ثم أبعدت عني تلك الأفكار. في ذلك الحين، كان هيو يخرج علبة القهوة من الخزانة، ويضع القليل منها في الإناء، ثم سألني: «كيف التقت آنا كيت؟». فأخبرته بقولي: «كانتا صديقتين منذ أيام المدرسة، ثم انقطعت علاقتهما لفترة، وبعد ذلك اجتمعتا مجدداً».

وهنا خطر ببالي أنني كنت أفكر بكيت وأنا أتحدث عن آنا، لكن الأمر لم يكن مؤلماً بالنسبة إليّ، ولعل ذلك يرجع إلى وجود آنا هنا؛ فربما كان هذا ما جعل الأمر أسهل برأيي، طالما أنني كنت أفكر بحياة كيت وليس بموتها.

أخرجت الكريمة من الثلاجة، وكان هيو قد أنهى إعداد القهوة، فناديت كونر وطلبت منه أن يحضر معي بعض الأطباق، فأتى مباشرة، وهكذا حمل ثلاثتنا أدوات الضيافة إلى غرفة الطعام، حيث قمنا بترتيب الأطباق على المائدة. لقد كانت التجمعات العائلية تسعدني، إلا أن شيئاً ما في داخلي كان محبطاً لأن آنا لم تكن هنا لترى ذلك، بل كانت في الطابق العلوي. لذا، ناديتها، وسألتها إن كانت أمورها بخير، فأكدت لي ذلك، وقالت إنها ستوافينا خلال دقائق. وعندما نزلت، وضعت هاتفها على الطاولة وهي تبتسم ابتسامة خجولة.

ثم قالت: «آسفة، لقد اتصل ريان». وبدت فجأة سعيدة ومتألقة.

تابعت: «إنه في طريقه إلى هنا».

فقال لها هيو: «لا بد أن يتناول العشاء هنا. كم يوماً سيبقى في لندن؟».

ردت: «لست متأكدة، لكنني أعرف أنه سيبقى حتى الأسبوع المقبل».

سألها هيو: «ومتى ستعودان إلى باريس؟».

أجابت: «يوم السبت». ثم التفتت إليّ وقالت: «لقد تذكرت شيئاً. ما رأيكما بأن نتناول طعام الغداء معاً يوم السبت؟ أي قبل أن أغادر بالقطار؟».

قلت لها إن فكرتها رائعة.

فقالت: «إذاً اتفقنا؛ إن كنت متأكدة من ذلك».

فأخبرتها أنني متأكدة، ثم قلت لها: «عليك أن تدعي ريان لتناول بعض الشراب هنا أيضاً».

فقالت: «أوه، كلا، لن أحلم...».

فقال لها هيو: «ما هذا الهراء؟! يجب أن يدخل». ثم التفت إليّ، فهتفتُ: «بكل تأكيد!».

بدا الارتياح على آنا، فسكبت لها بعض القهوة، وعندها سألني كونر إن كان بإمكاننا أن نعذره لأنه يريد أن يتوجه إلى غرفته. بعد ذلك تحدثنا قليلاً، وشربنا القهوة، لكن الأمسية مضت بسرعة. إذ بعد مرور ربع ساعة أخرى على مسامرتنا سمعنا سيارة تقف في الخارج. وبعدها سمعنا باب السيارة وهو يغلق، أعقبه صوت جهاز الإنذار الخاص بالسيارة. بعد ذلك، سمعنا أصوات وقع خطوات على الممر، ثم قرع جرس الباب، فنظرت إلى آنا التي قالت: «لقد أتى باكراً!». وبدت متحمسة كفتاة صغيرة تنتظر ساعي البريد ليحضر لها بطاقات ذكرى ميلادها، ولهذا شعرت بنوع غريب من الإثارة أنا أيضاً. إذ كنت متشوقة لألتقي هذا الشخص الذي منح آنا هذه السعادة الشفافة البعيدة عن كل تعقيد، وساعدها على تجاوز حزنها على كيت.

حينها، وقفت وقلت: «سأذهب وأطلب منه أن يدخل». ثم توجهت نحو مدخل البيت، وقمت بإعادة ترتيب شعري، وشددت القسم الأمامي من قميصي، ثم فتحت الباب.

فوجدت أمامي لوكاس.

تراجعت خطوة إلى الوراء وكأن أحداً قد لكمني. كان الإحساس عضوياً وشديداً؛ إذ أخذ جلدي يؤلمني حينما ارتفعت نسبة الأدرينالين فجأة، وكأن أحدهم قد غرز فيه إبرة. لم أستطع أن أبعد عينيّ عنه، وأخذ جسمي يستجيب لذلك، فتوترت عضلاتي وأخذت تستعد للقتال أو الهروب، إذ إن ذكرى الهجوم

الذي باغتني به كانت تحرق جسمي. وحينما نظرت إليه، أمال رأسه قليلاً، ثم ابتسم وقال:

«لا بد أنك جوليا». قال ذلك بوضوح، وبدا صوته عالياً بما فيه الكفاية كي يسمعه من كان في الغرفة المجاورة.

كان قلبي يخفق بشدة، فقد عاوده الشعور بالهلع والألم مجدداً؛ موجة إثر موجة. وهنا بدأت أقول لنفسي: اخرجي من الموضوع وانجي بنفسك، لكنني لم أفلح في ذلك. وللحظات، ظننت أن الأمر مجرد لعبة، لعبة غبية أخرى، وكأنه قد عرف أنني حذفت حسابه وقررت ألا أتصل به مجدداً، فأراد أن يعلمني بأنني لن أتمكن من اتخاذ أي قرار بعد أن تركته.

شعرت بأنني أتهاوى، وبأن الغرفة ورائي تميل وتدور، فقلت له بصوت منخفض:

«ما الذي تفعله هنا؟». لكنه لم يجب عن سؤالي، فأدركت وقتها أنني كنت أمسك بإطار الباب وأنا أرتجف.

إلا أن الابتسامة لم تفارق وجهه، خاصة حين قال لي: «حسناً، ألن تسمحي لي بالدخول؟».

نظرت بعيداً ثم إلى الأسفل نحو الأرض، وأخذت أفكر: إن هيو في الغرفة الثانية، وآنا تتوقع دخول ريان، أما كونر فقد كان في الطابق العلوي.

نظرت إلى الأعلى مجدداً، حيث أصبح كل منا يحدق في عيني الآخر، ثم قلت بصوت أقرب للهمس: «ما الذي تفعله هنا بالله عليك؟».

لكنه لم يجب، بل بقي واقفاً في مكانه وهو يبتسم. عندها، فتحت فمي لأتكلم، ولأسأله مجدداً وللمرة الثالثة عن السبب الذي أتى به إلى هنا، لكنه أخذ ينظر من فوق كتفي؛ وتغير كل شيء فجأة وكأن أحداً رماه بسوط؛ حيث تهلل وجهه، وأشرقت ابتسامته، وبدأ يثرثر، ثم أمسك يدي بيديه، وصافحني وكأنه يراني لأول مرة.

شرعت أقول: «ماذا...»، لكن بعد مرور هنيهة أدركت أن آنا كانت تقف خلفي بالضبط، وهتفَت: «حبيبي!»، فظننتها تخاطبني، لكنها أخذت تتقدم نحو المدخل متجهة نحو لوكاس الذي استدار نحوها، ثم أحاطها بذراعيه وقبلها. كل ذلك حدث في ثانية، لكنها بدت لي طويلة للغاية. وبعدما فرغا من العناق

والتقبيل، التفتت آنا إلي وقالت: «جوليا» وقد أشرق وجهها، ثم تابعت: «أعرفك إلى ريان».

وهنا باغتتني موجة أخرى، تصاعدت فورتها حتى بلغت خدي، فشعرت بالحر الشديد، وانحسر المدخل أمامي، وضعف صوت الموسيقى التي كان كونر يشغلها في غرفته في الطابق العلوي بطريقة ما، لكنها بقيت تصم الآذان في الوقت ذاته؛ وكأنني كنت أسمعها بأعلى صوت، ولكن من خلال أجواء تعوزها التهوية. وهنا شعرت بأنه سيغمى علي، لذا مددت يدي لتصل إلى مقبض الباب أو أي شيء آخر، لكنني لم أصل إليه.

سألتني آنا: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟».

حاولت أن أهدئ نفسي وقلت لها: «نعم، إنني فقط... لست أدري، أشعر بأنني متوعكة قليلاً...».

قال لوكاس: «تبدو بشرتك محمرة قليلاً...». لكنني قاطعته وقلت:

«إنني بخير... صدقاً...». وبعد مرور فترة قصيرة، تغيرت الحركة في الغرفة مرة ثانية وظهر هيو، فأخذت أراقبه وهو يتقدم إلى الأمام ويسلم على لوكاس. كان يبتسم له ويصافحه وهو يقول: «لا بد أنك ريان». وبدا مبتهجاً برؤيته وبالترحيب به للدخول إلى البيت. ثم أخذ يقول له: «سعدت برؤيتك»، و«كيف حالك؟»، وهكذا كانا يبدوان كصديقين قديمين. عندها، أخذت معدتي تنقبض لدى رؤيتي زوجي وحبيبي السابق معاً!

أجابه لوكاس: «إنني بخير بالرغم من أنني قلق قليلاً على جوليا».

فالتفت هيو إليّ وقال: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟».

فقلت له: «نعم». بالرغم من أنني لم أكن كذلك. لكن الغرفة في تلك اللحظة كانت قد توقفت عن الدوران، إلا أنني كنت لا أزال أرتجف بفعل القلق الذي كان شديداً؛ لدرجة أنني بتّ قلقة حيال عدم قدرتي على ضبط حالة الارتجاف لدي، ولذلك قلت:

«لست أدري ما الذي حدث لي».

فقال هيو: «حسناً، على الأقل تفضل يا ريان... تفضل!».

فشكره لوكاس، وتوجهنا جميعاً إلى غرفة الجلوس، إلا أننا كنا كمجموعة كل من فيها أخرق. عندها، دعا هيو لوكاس للجلوس على الأريكة، فجلست آنا

بجانبه وأمسكت بيده. ثم قدم هيو للوكاس كأساً من الشراب، إلا أن الأخير هز رأسه رافضاً الفكرة؛ بحجة أنه كان عليه أن يقود السيارة. أما أنا فكنت أراقب كل ذلك عبر حجاب رقيق من الخوف؛ وكأن ما يجري يحدث في مكان آخر، ومع أشخاص آخرين. ذلك المشهد الغريب لتلك الحالة السوية من التهذيب التي لم تعد لها أي صلة بي! لذا، ومن دون أن أنبس ببنت شفة قبلت بتناول الشراب الذي قدمه لي هيو، والذي كان عبارة عن كأس من الماء.

أخذ يقول لي: «تناولي هذه وستشعرين بتحسن».

ثم سألتني آنا: «هل أنت متأكدة بأنك بخير؟».

فارتشفت رشفة من الماء، ثم أخذت أهز رأسي وأقول لها: «نعم». بعدها، التفت لوكاس إليّ وقال:

«إنني سعيد جداً بلقائك، فقد سمعت عنك الكثير».

فابتسمت قليلاً وأنا أقول له: «وأنا أيضاً». ثم أخذت أراقبه وهو يشكرني، ثم يمسك بيد آنا ويعصرها بين يديه وهو يقول: «هل أخبرتك آنا بآخر أخبارنا؟». قال ذلك وهو يداعب يدها وينظر إلى عينيها وعلى وجهه تعابير كنت أعرفها؛ لأنها كانت أشبه بتعابير تنم عن الحب والوله الخالص.

أجبته: «أجل، نعم، ذلك رائع!».

صاح هيو: «إنه كذلك!». ثم أخذ يمارس فنونه، ويحاول أن يترك أثراً طيباً لديهما، فقال: «هل أنت متأكد أنك لن تشرب؟ تناول كأساً واحدة فقط!». إلا أن لوكاس أمسك عن الكلام للحظة، ثم أومأ برأسه موافقاً وهو يقول: «حسناً إذاً، لم لا؟ إن كاساً واحدة لن تجعلني أتجاوز حدود السرعة، لكن يجب أن تكون كأساً صغيرة. ثم هل أنت متأكد من أنك لا تمانع زيارتي لكم بصورة غير رسمية ؟».

رد عليه هيو: «إطلاقاً». ثم توجه إلى خزانة المشروبات، وأخرج عدة زجاجات من الشراب وسأل لوكاس: «أي واحدة ستختار؟». فاختار لوكاس شراباً لم أره يشربه قبل ذلك.

وبينما كان هيو يصب له الشراب.التفت لوكاس إليّ وقال: «أخبرتني آنا أنك مصورة». وكان وجهه منفرج الأسارير، وقد أمال رأسه وكأنه مهتم بالموضوع حقاً، فنقلت بصري منه إلى آنا، ثم عاودت النظر إليه مجدداً؛ إذ لم أستطع أن

أستنتج ما كان يقوم به. هل يتعين علي أن أقول شيئاً وأخبره به الآن؟ كنت في حالة صدمة حسبما أعتقد؛ بالرغم من حالة الانعزال الغريبة التي انتابتني. إلا أنه كان علي أن أكتشف ما وراءه، فطيلة تلك الفترة التي كنت أعتقد فيها أنني أعيش قصة حب كان يخرج لملاقاة أعز صديقة لدى شقيقتي، أي كنت أعيش خيانة مطلقة من طرفه؛ لقد كنت أنا العلاقة الغرامية.

لكنهما التقيا قبل أن تقتل كيت حسبما أعتقد. إذاً، لم اختارني؟ لا يمكن أن يكون الأمر صدفة، فلو كان كذلك، كان لا بد له أن ينصدم عندما فتحتُ له الباب الليلة، وكان سيسألني: «ما الذي أتى بك إلى هنا يا جوليا؟ أين آنا؟». وكان عليّ حينها أن أخبره أنني أعرف خطيبته، ثم كان علينا بعد ذلك أن نتفق على إبقاء الأمر سراً. كان يجدر به أن يحاول الخروج من هنا بأسرع وقت ممكن، لا أن يقبل دعوة هيو لتناول الشراب، ولا أن يبقى هنا ليتجاذب أطراف الحديث مع زوجي لفترة طويلة، ولا أن يسأل أسئلة يعرف إجاباتها مسبقاً.

أدركت أن الجميع كانوا ينظرون إليّ بترقب، وأن الغرفة أصبحت هادئة، وأن الهواء أصبح ثقيلاً وحاراً جداً. كنت قد سُئلت سؤالاً، وكان عليّ أن أجيب، فقلت: «نعم، نعم، هذا صحيح».

أبعدت نظري عنه وأخذت أنظر إلى هيو. إن مجرد كلمة واحدة كانت كفيلة بإنهاء كل ما بيننا، فهل هذا ما يريده؟ أن ننفصل أنا وزوجي؛ أن يفجر القنبلة التي وضعتها بنفسي تحت المكان الذي يتواجد فيه أفراد أسرتي؟

هتف لوكاس: «يبدو لي هذا العمل ممتعاً». ثم انحنى إلى الأمام، فبدا كشخص مفتون بما كنت أقوله، بل غارق في ذلك. ثم سألني عن نوع الصور التي ألتقطها. وبالرغم من أن الألم والقلق اللذين كنت أعاني منهما كانا جسديين، وبالرغم من أنه كان قد رأى الصور التي التقطتها، وبالرغم من أننا كنا قد تمددنا على سرير واحد معاً وأخذنا ننظر إلى أعمالي، إلا أنني أخبرته بكل شيء.

فأطرق برأسه، ثم قال بعد هنيهة: «بالمناسبة، لقد شعرت بشديد الأسف لدى سماعي بما حصل لشقيقتك».

فقلت في سري: يا لك من نذل! هل تتسلى بهذا أيضاً؟

فأومأت برأسي، ثم ابتسمت، لكن عينيّ ضاقتا وأنا أقول: «أشكرك». إذ

كان عليّ أن أذكر نفسي بأنه لم يقتل كيت،؛ بالرغم من أنني أصبحت أكرهه الآن أكثر مما لو كان قاتل شقيقتي.

نظر إلى عينيّ مباشرة وقال: «لم ألتقه قط، لكنني شعرت بشديد الأسف عليها... لأنها رحلت».

عندها انتابتني سورة من الغضب، إذ لم أستطع أن أتحمل ذلك؛ بالرغم من أن آخر ما كنت أريده هو أن أريه أنه تمكن من إزعاجي، فقلت له: «إنها لم ترحل، بل قتلت». وأخذت أقول في سري: أنت تعرف ذلك. أخذت أبحث عن علامة ندم أو حزن أو حتى أذى، إلا أنني لم أجد أياً من ذلك. كنت أفكر بأنني أريد منه أن يضحك أيضاً، كي أكرهه من دون أن أشعر بالخوف منه. لكنه لم يقم بذلك، بل لم يقم بأي شيء على الإطلاق، حتى إن عينيه لم تكشفا في ذلك الحين عما يدل على أنه سبق لنا أن التقينا، ولهذا بدا شبيهاً بأخيه التوأم.

كانت الأجواء في الغرفة جامدة، وكنت أدرك أنني قد رفعت صوتي، وظهرت بمظهر المتحدية؛ إذ كنت أتحداه ليقول شيئاً ما. ولهذا، كان هيو ينقل بصره بيني وبين لوكاس، ثم يعود إلي. وقد طالت تلك الفترة وامتدت، لدرجة أن الصوت الوحيد الذي كنا نسمعه في الغرفة هو ذلك الصوت الآتي من غرفة كونر في الطابق العلوي.

ازدادت حدة التوتر حتى بلغت مرحلة الانفجار حينما أخذ لوكاس يهز برأسه وهو يقول: «أوه، يا إلهي! لقد أزعجتك بذلك، أنا آسف جداً جداً، فأنا لا أعرف ماذا ينبغي لي أن أقول في مواقف كهذه».

تجاهلته، إذ كنت أراقب هيو وهو ينتفض ويريد مني أن أقول شيئاً، لكنني لم أفعل، بل أخذت أحدق بلوكاس، فأخذت آنا تنقل بصرها بيني وبينه وهي في حالة ترقب. غير أنني استسلمت بعد قليل وقلت: «لا بأس، فلا أحد يعرف ما يجدر به قوله في هذه المواقف؛ لأنه لا يمكن لأي شيء أن يقال».

فهز كتفيه بلا مبالاة، ثم أخذ يحدق بي. وكان هيو وآنا في الغرفة يراقبان ذلك المشهد، كما كان بوسعهما أن يشعرا بما دار بيننا حسبما أعتقد، بل بكل تأكيد. لكن، هل هو مجنون؟! وهل يريد منهما أن يلاحظا ما كان يجري بيننا؟!

ربما لم يكن يكترث بكل ذلك؛ فقد كنا نخوض قتالاً، وكانت القوة تتأرجح فيه بشكل عنيف بيننا؛ لذا لم نكن نرى من كان معنا في الغرفة؛ لأنهما غير

مهمين الآن، فقد حولناهما إلى مجرد متفرجين. لقد كنا كالبوتاسيوم في الماء، وكالحمض على الجلد. كان بوسع كل منا أن يحرق الآخر، وأن يدمر كل شيء من دون أن يلاحظ أو يكترث بكل ذلك.

فتحت فمي لأقول شيئاً، إلا أنني لم أكن حتى تلك اللحظة أدري ما هو الشيء الذي كنت سأقوله، لكن هيو تكلم حينها فقال: «ذكرني، ماذا تعمل يا ريان؟». إذ كان يحاول أن يبدد أجواء التوتر. ولدى طرحه هذا السؤال بقي لوكاس صامتاً هنيهة، وبعدها سمعت آنا تقول: «إن ريان يعمل في مجال الفن». وعندها، استدار لوكاس ليمسك بيدها، وليقول:

«لدي شركتي الخاصة المتخصصة في مجال الإنتاج الرقمي».

لم يسبق له أن أخبرني بذلك.

أخذ هيو يهز رأسه وهو يقول: «ومقرها في باريس، أليس كذلك؟».

أجاب: «أجل. فقد بقيت هناك لمدة خمس سنوات حتى الآن؛ بالرغم من أنني أسافر كثيراً».

أخذت أنظر إلى يديّ اللتين كانتا مشبوكتين على حضني. فمع كل إجابة من إجاباته كان الألم يجتاحني مرة أخرى، لأنني كنت أكتشف أنه كان يكذب عليّ طيلة الوقت، وأنه لم يكذب على آنا؛ خطيبته التي كان يراها عدة مرات في الأسبوع. رفعت بصري، لكنني لم أستطع أن أتوقف عن التفكير في تلك المرة الأخيرة التي كانت في غرفة الفندق، حينما وصل ديفيد. كنت لا أزال أحس بيديه فوق جسدي.

وها قد عاد الآن ليمارس المزيد من تلك الحركات. لكنني لم أستطع أن أتحمل ذلك، لذا وقبل أن أعرف بما كنت سأفعله وقفت. لكن، ما الذي كان بوسعي فعله؟ وما الذي كنت أستطيع قوله؟ لقد كانت آنا على وشك أن تتزوج من هذا الرجل، ويبدو أنها لا تعرف شيئاً عما يجري هنا. فتحت فمي لأنطق، لكنني أغلقته مجدداً، إذ كانت الأفكار تدور في عقلي.

بعد ذلك، شعرت فجأة بأنني كنت أنهار من الداخل، وكأنني كنت أتلاشى وأتحول إلى هباء منثور. وهنا هتف هيو: «هل أنت بخير يا جوليا؟».

فقلت: «أجل، اعذروني». ثم توجهت نحو الحمام في الطابق العلوي.

عندما عدت سألتني آنا إن كنت بخير، فأجبتها: «نعم، بخير». وكان لوكاس يشرب ما تبقى في الكأس، ثم وضعها على منضدة القهوة.

بعد ذلك هتف: «علينا أن ننطلق!». ثم التفت إليّ وقال: «كنا نفكر بالذهاب إلى سوهو لنقضي بعض الوقت في مقهى يعرف باسم: روني سكوت. هل تعرفانه؟». وعندها، التفت كلاهما إليّ وقالا: «يجب أن تأتي معنا».

فقلت كلا، ثم بدأت أشعر بالخدر؛ إذ كل ما كنت أريده في هذه اللحظة هو أن يتوقف كل ذلك.

قال لي هيو: «يمكنك أن تذهبي إن أحببت، أما أنا فمتعب للغاية».

اجتاحتني موجة من الإحساس بالذنب وأنا أتخيلهما هناك، ثم أخذت أقول لنفسي: ما الذي فعلته بصديقتي؟ ما الذي يمكن أن يحدث بعد هذا؟

قلت: «كلا، إن الوقت متأخر، ويجب علي أن آوي إلى الفراش أيضاً».

فقالت آنا: «كلا، تعالي معنا، سيكون ذلك مسلياً».

قال لي هيو: «إنني لن أتضايق يا حبيبتي».

هتفت: «كلا». وقلت ذلك بقسوة وحدّة هذه المرة، ثم التفت إلى آنا وخاطبتها بنبرة ألطف: «صدقاً لا. يمكنكما أن تذهبا».

فوقفا، وتوجهنا جميعاً إلى مدخل البيت، فالتفتت آنا نحوي، ثم ابتسمت وقالت: «حسناً...». ثم رفعت يديها، فتقدمت نحو الأمام لتضمني بذراعيها، بينما كان هيو ولوكاس يتصافحان. ثم قالت آنا: «لقد كانت هذه زيارة سريعة للغاية!». وبدا لي أنها قد اكتشفت شيئاً ما، ثم تابعت الكلام قائلة: «عديني بأن تأتي لزيارتي قريباً، وأحضري كونر معك! عديني! وسأخبرك بكل شيء عن حفلة زفافي حالما نبدأ بالتخطيط لها. ستأتين، أليس كذلك؟».

نظرت إلى لوكاس الذي كان يبتسم وهو ينتظر جوابي، فقلت: «بالطبع سآتي، وسأراك يوم السبت على أية حال، لكنني سأتصل قبل المجيء. إذاً، أراك قريباً، في ما بعد، اتفقنا؟». عندها تركتني، لكنني كنت أريد أن أتمسك بها، وأخبرها بأن تكون حذرة. كنت أريد أن أنبهها من دون أن أخيفها. لكن لوكاس كان قد تقدم نحوي على أية حال، وأخذ يقول:

«حسناً، سررت بلقائك، وأعتذر عما بدر مني، فلم أكن أقصد إزعاجك». وللحظة قصيرة ظننت أنه يتحدث عن الهجوم، لكنني أدركت بعد ذلك أنه كان

يتكلم حول موضوع كيت.

قلت له: «أنا لست متضايقة». ثم رفعت يدي، إلا أن آخر شيء كنت أريده منه هو أن يلمسني، غير أنه لم يكن من اللائق أن أتحاشاه بوضوح، لذا قلت له: «وأنا أيضاً سررت بلقائك». فأمسك بيدي وسحبني نحوه، فأدركت أنه يريد أن يعانقني كما لو كنا مرتبطين، أو صديقين عزيزين، غير أنني لم أكن أرغب بأن أحس بجسده، لذا قاومته، لكنه كان أقوى مني، فاحتضنني بقوة ثم قبلني... قبلة على الخد الأيمن، ثم الأيسر. كان بوسعي حينها أن أحس بعضلات صدره. وبالرغم من كل شيء، لم أستطع أن أقاوم رعشة الرغبة الواضحة، حيث بقي على تلك الحالة للحظة، كنت قد تجمدت حينها، وأصبحت جوفاء من الداخل. كنت أدرك أن آنا وهيو يتبادلان تحيات الوداع ويضحكان على أمور أخرى، وأنهما كانا غافلين عما كان يجري وقتها.

في تلك الأثناء، همس لوكاس في أذني: «إن أخبرتها فسأقتلك». فشعرت ببرودة وبشلل في أطرافي، لكنه تركني بعد لحظة وابتسم لي مرة أخرى، ثم أمسك بيد آنا وقبض على ذراعي بقوة وهو يقول:

«لقد سررت بلقائك». وبعدها غادرا مع فورة أخرى من الابتسامات والتلويح، وبقينا أنا وهيو بمفردنا.

الفصل السادس والعشرون

أغلقت الباب، فسمعت وقع خطوات لوكاس وآنا عندما كانا يسيران على الطريق الذي يفضي إلى الشارع. وبعد ذلك سمعتهما يقهقهان، وكانا يبدوان سعيدين، ويشعران بالراحة وبالتصالح مع الحياة التي كانا يعيشانها معاً. كان بوسعي أن أصدق أن ريان هو ذلك الشخص الذي رسم صورته أمامنا بأقواله، وأن نصف الساعة الأخيرة من اللقاء كانت مجرد وهم وخيال. كنت على وشك إقناع نفسي بأن علاقتي الغرامية بلوكاس كانت شيئاً من الماضي، وأن خطوبة آنا قد بدأت لتوها، وأن هذين الشخصين -أي لوكاس وريان- لا يمتان إلى بعضهما بأي صلة نهائياً.

إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً؛ لأن كلماته الأخيرة كانت لا تزال ترن في أذني.

التفت إلى هيو الذي كان يقف خلفي، في الموقع الذي ودع فيه ضيفينا؛ إذ لم يكن قد تحرك منه، وسألني: «ما الذي حدث لك بحق الله؟!». كان يتكلم بهدوء، حيث لا يمكن لأحد أن يسمع ما قاله إلا أنا، غير أن لهجته كانت تنم عن غضب كبير.

لم يكن بوسعي أن أخبره، أو أن يجعله يشك بأمري، ولهذا قلت له: «لا أعرف ما الذي تعنيه». ثم توجهت إلى غرفة الجلوس، فتبعني وقال: «لمَ قمتِ بكل ذلك؟».

رفعت أحد الأطباق مع كأس ثم قلت:

«ماذا؟».

فقال: «أعرف أنك تنزعجين حينما يقول أحدهم إنها رحلت، لكن هذه العبارة المخففة شائعة للغاية، وأنت تعرفين ذلك. والرجل لم يكن يقصد إلا الخير».

لم يكن بمقدوري حتى أن أبدأ بإخباره بالحقيقة، لذا قلت له:

«إنني فقط... إنني أنزعج من هذه الكلمة. فأنت تعرف أنها لم ترحل، ولم تذهب إلى مكان أفضل، بل قُتلت؛ حيث ضربها ذلك الرجل على رأسها، ولا أحد سوى الله يعلم كيف حدث ذلك، إلى أن تحطمت جمجمتها ونزفت حتى الموت على الأرض في زقاق في... في... مدينة باريس الحقيرة».

عند ذلك، تقدم خطوة نحوي، وكان بوسعي أن أراه وهو يحاول أن يهدأ الآن، ليحاول استرضائي بقوله: «حبيبتي، أعرف أنك غاضبة. بيد أن هذا ليس مبرراً لتصبي جام غضبك على ضيفنا. ثم يجب عليك أن تفكري بكونر...».

هتفت: «كفّ عن ذلك يا هيو بالله عليك».

كنت أرتجف، وكان بوسعه أن يرى مدى انزعاجي، لكنني لم أكن أريد منه أن يشك في السبب الذي جعلني أشعر بذلك، ولم أكن أريد منه أن يربط ذلك بالسلوك الذي أبديته في المدخل حينما وصل لوكاس.

أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عينيّ، ثم حاولت أن أخرج نفسي من حالة الغضب تلك. وبعد ذلك قلت:

«اسمع، أنا آسفة».

فابتسم، لكن ابتسامته كانت حزينة.

ثم قال: «إنك لست على ما يرام يا جوليا». إلا أنني كنت أعرف إلى أين سيفضي هذا الكلام، فقلت:

«لا تبدأ يا هيو». ثم استدرت لأكون بمواجهته، وكنت أرتجف من شدة الغيظ، أما قلبي فكان يخفق بشدة وكأنه كان على وشك أن ينفجر.

فشرع يقول: «إنني فقط...»، لكنني استدرت إلى الوراء، وخرجت من غرفة الجلوس، وبعدها صعدت الدرج، وكنت أعلم أن كونر يمكنه أن يسمعني، لكنني لم أكن لأهتم بذلك حينها، إذ لم تعد لدي وقتها أية قدرة على التفكير بابني.

دخلت غرفة النوم وأغلقت الباب، وهناك جمدت في مكاني وكأنني أصبحت مشلولة؛ إذ لم أكن أعرف ما الذي يجب علي أن أقوم به. سمعته يلحق بي ويقف عند قمة الدرج.

فأخذت أقول لنفسي: عليّ أن أحذّر آنا؛ حتى لو دمر هذا علاقة الصداقة التي تجمعنا. إذ لا خيار آخر لدي.

سمعت صوت هيو يسأل: «جوليا؟».

فصرخت: «أنا بخير، فقط امنحني دقيقة من فضلك».

أخذت أفكر مرة أخرى بما قاله لي: سأقتلك، فشعرت بالرضوض التي كانت قد ظهرت في السابق على ظهري وذراعي وفخذيّ، وبدأت أرتعد مرة أخرى، وكأن تلك الرضوض لا تزال موجودة. أخذت أتذكر ما فعله بي في غرفة الفندق، وكيف كانت مشاعري في تلك اللحظة؛ إذ شعرت بأنه قد تم استغلالي مرات ومرات، ثم تم رميي بعد ذلك.

لكن، أيعقل أن يقتلني؟!!! لا أرجّح أنه كان يعني ما يقوله.

سمعت هيو يتراجع، فحاولت أن أهدأ، وأخذت أقنع نفسي بأن قاتل كيت أصبح في عهدة الشرطة، وكررت ذلك مرات ومرات، غير أن تلك الفكرة بقيت تعاود الظهور. لا بد أن لوكاس هو الفاعل، ولا بد أنهم أخطأوا حينما أتوا بشخص آخر.

كان من المستحيل أن يهدأ فكري، أو أن يحكم على الأمور بطريقة منطقية. فهذا بالضبط ما فعله لوكاس بي؛ وإلى تلك الدرجة حاول أن يذلني، لكنني أخذت أطرد كل تلك الأفكار.

عاد قلبي لينبض بشدة، وأخذت أتذكر كيف قمت بتسجيل الدخول إلى موقع فيسبوك، وأخذت أتجول في صفحته، وكيف شاهدت صوره في أستراليا وسيدني أمام صخرة أولورو. وحينها، كانت التواريخ ظاهرة على تلك الصور، لذا نقرت على أسماء أصدقائه الذين كانوا معه، ورأيت أنهم كانوا قد نشروا المزيد من الصور التي التقطوها خلال تلك الإجازة؛ إذ ظهرت لي صورة أحدهم على الشاطئ، والثاني وهو يقوم بممارسة رياضة ركوب الأمواج، والثالث وهو يقفز ليغطس من على حافة قارب؛ مما يعني أن الأدلة كانت موجودة في تلك الصور.

إذاً، إن كانت لديه أية علاقة بمقتل كيت، فلا بد أن يكون نصف أصدقائه قد ظهروا في ذلك اليوم.

شعرت بتنفسي يعود إلى وضعه الطبيعي، فأخذت أقول لنفسي: إنه ليس بقاتل، بل هو مجرد شخص شرير حاول أن يخيفني لأنه علم بمقتل شقيقتي. ولعل ذلك هو الثأر الذي اختاره لأنني قمت بإنهاء العلاقة، والهروب منه؛ إذ لا بد أنه يكرهني كثيراً الآن.

أخذت أفكر: لا بد من وجود طريقة ما لأحذر بها صديقتي. تناولت هاتفي عن المنضدة التي توضع بجانب السرير، وبدأت أمرر قائمة الأسماء نحو الأسفل بسرعة بحثاً عن اسم آنا، ثم ضغطت زر الاتصال بلا تردد، وتوقفت عن التفكير حينما بدأ الهاتف يرن. لكن المكالمة تحولت إلى البريد الصوتي، وكأن آنا قد قامت بفصل المكالمة. لذا أخذت أسأل نفسي: ترى، ما الذي كانا يفعلانه؟ لعلهما قد تركا مقهى روني سكوت، أو أي مكان آخر ذهبا إليه بدلاً من ذلك، وكانا في طريقهما إلى الفندق.

أخذت أتخيلهما، لا بد أنه يقبلها. أما هي فلا بد أنها تمرر أصابعها على عضلات ظهره.

أو لعلها كانت ترتعد خوفاً بعدما ترك رضة على جسدها.

في تلك اللحظة، انتابني شعور بالغثيان فسيطرت عليه؛ لأنه كان عليّ أن أصدق بأنه يحبها. كان يجب علي أن أصدق ذلك، وأن أصدق أن علاقتهما صادقة وحقيقية، وأنه مجرد شخص رأى صورتي _ ولعلها تلك الصورة التي التقطتها لي آنا حينما كنت في باريس _ فقرر في لحظة أنه يريدني.

أخذت أتخيل محادثتهما، وأتخيل آنا وهي تقول له إنها التقتني، ثم تريه الصورة وهي تقول: «إنها رائعة بالفعل». فيوافقها هو على ذلك، وبعدها يأتي إليّ، فأظهر له استعداداً كبيراً للسماح له بامتلاكي.

لا بد أن هذا ما حصل. وهو لن يهاجمها.

إلا أن ذكرياتي حجبت كل تلك الأفكار مرة ثانية، فرأيت السجادة الحمراء في غرفة الفندق تحتي، ورأيت الآثار التي تشبه الحروق التي بدت على معصمي. كنت أعرف ما الذي كان بإمكانه أن يقوم به، لذا كان عليّ أن أحذرها، وعليها أن تعرف قبل أن يتزوجا أنه كان يرتب للقيام بشيء من هذا القبيل.

أمسكت بهاتفي مرة أخرى، لكنني تركت لها رسالة صوتية هذه المرة، وقلت لها فيها: «اتصلي بي». وحاولت أن أسيطر على صوتي، وأن أجعله يبدو وكأنني لم أكن وقتها أشعر بالتوتر أو الخوف، ثم أضفت إلى الرسالة: «إن الأمر عاجل. ثمة شيء أريد أن أخبرك به». أخذت أخفض صوتي بالرغم من أن هيو كان لا يزال في الطابق السفلي ولا يمكنه سماع صوتي. وتابعت بقولي: «إن الأمر يتعلق بذلك الشاب الذي كنت أراه، إنه لوكاس». فجفلتُ عندما نطقت

باسمه، لكنني رجوتها أخيراً: «أرجوك اتصلي بي».
وضعت الهاتف في مكانه، ثم أخرجت حاسوبي من حقيبتي، وبحثت بيدين مرتجفتين عن سلة المحذوفات، فوجدت فيها الملف الذي حذفته منذ بضعة أيام، وكذلك الرسالة التي كنت قد احتفظت بها، وهكذا قمت بفتح بعض الملفات لأتأكد من أنني كنت أتعامل مع المسألة بشكل صحيح. لقد أخبرني أنه يعيش في كامبريدج، ولم يذكر أن لديه حبيبة؛ هذا إن لم تكن خطيبة.
قررت أنه يجب علي أن أقوم بطباعة أحد الملفات في حال احتجت إلى أن أبرهن ما كنت سأقوله لآنا. إلا أن الطابعة كانت في الطابق العلوي داخل مكتب هيو. لذا، حملت جهازي، وصعدت إلى الأعلى وأنا أتحرك بسرعة تحت الضوء أثناء قيامي بذلك، وبالكاد لاحظت أوراق الأعمال المكتبية التي كانت تملأ الأرضية منذ أن حان موعد الفصل بالشكوى التي تم تقديمها ضد هيو. قمت باختيار رسالة ثم طبعتها، فخرجت في صفحة واحدة، وبدت لي حجتها قوية وغير قابلة للدحض، إذ كان قد ورد فيها: «لا أريد أحداً سواك، فقد خلقنا لبعضنا».
وبالرغم من ذلك، إن كل ما تثبته هذه الورقة هو أنني كنت أراسل شخصاً يدعى لوكاس، وقد كانت آنا على علم بذلك. تمنيت لو بقيت لدي صورة له، أو صورة تضم كلينا، إلا أنه لم يكن لدي أي منها، لأنني كنت قد حذفت كل الصور التي التقطتها معه؛ خوفاً من أن يكتشفها هيو يوماً ما.
لكنني بكل الأحوال طويت الورقة ووضعتها في حقيبتي، ثم تحققت من هاتفي، فوجدت أنها لم تتصل، وكنت أعرف ما الذي كان يتوجب عليه فعله، فنزلت إلى الطابق السفلي، وكان هيو في المطبخ يقوم بتعبئة آلة جلي الصحون.
فقلت له: «إنني سأخرج قليلاً».
سألني: «إلى أين بحق الله؟!».
حاولت أن أبدو هادئة ومرحة؛ بالرغم من أنني كنت عكس ذلك تماماً، فقلت: «بعد كل ما حصل، أعتقد أنه علي أن أذهب وألاقي آنا وريان في مقهى الجاز».
سألني: «هل أنت متأكدة؟».
أجبت: «نعم. إذ إنني أشعر بالسخط حيال ردة الفعل المبالغ فيها التي

أظهرتها لهما، لذا أريد أن أعتذر. على أية حال، قد أتسلى معهما. ثم إن آنا محقة، فأنا لا أراها كثيراً».

بدا لي هيو محتاراً ومرتبكاً. وللحظة، قلقت ظناً مني أنه سيقترح علي أن يذهب معي. لكنني حينها تذكرت كونر، فقلت له: «لن أتأخر. لكن، هلّا تأكدت إن كان كونر قد أوى إلى الفراش».

رد علي وهو يحمل طبقاً آخر: «بالطبع».

أردفت: «يجب أن يذهب إلى المدرسة غداً».

فرد: «أعرف. لذا، اذهبي أنت واستمتعي بوقتك. هل ستأخذين السيارة؟».

كنت أعرف السبب في طرحه هذا السؤال؛ فقد أراد أن يتأكد من أنني لن أقع في زلة تناول الشراب. لكن، كان يجب عليه ألا يقلق، لأنني لم أكن ذاهبة إلى مقهى روني سكوت؛ إذ إن مواجهة أحد ما في مقهى يغص بالغرباء تتضمن مخاطرة. لذا، كنت قد عزمت على أن أنتظر بدلاً من ذلك خارج الفندق الذي كانت آنا تقيم فيه.

قلت: «أجل. ولكن، هلّا تركت تلك الأمور لي. سأرتب ما تبقى من الأشياء التي استخدمناها في العشاء غداً صباحاً».

فهز رأسه موافقاً وهو يقول: «حسناً».

توجهت إلى الفندق فوراً. وعندما وصلت، ركنت السيارة واتصلت بآنا مرة أخرى، لكنها لم تجب أيضاً؛ حيث تم تحويل المكالمة مباشرة إلى البريد الصوتي، فضربت عجلة القيادة، إذ أصبح يتوجب علي دخول الفندق لأنها لم ترد.

كان بهو الفندق واسعاً ومثيراً للإعجاب، لكنني بالكاد كنت ألاحظ ذلك؛ إذ توجهت نحو المقهى، فوجدت أريكة جلدية عميقة بالقرب من الباب. وبالرغم من وجود الفاصل الزجاجي، إلا أنني تمكنت من رؤية المدخل الرئيس، وهكذا لن تفوتني مشاهدتهما حين يدخلان.

اقترب مني نادل ليسألني عما أحب شربه، فقلت: «أريد مياهاً معدنية». عندها، هز رأسه وكأنه كان يتوقع هذا الطلب طيلة الوقت، ثم عاد إلى مكانه خلف المنضدة، وقدم طلبي همساً، ثم ألقى نظرة من فوق كتفه نحو المكان الذي كنت أجلس فيه.

وصل ما طلبته مع طبق يحتوي على بسكويت مملح وجاف. غير أن النادل تردد للحظة، فمنعني من رؤية المدخل، ثم انحنى نحوي وقال: «هل تنتظرين أحداً؟». قال ذلك وهو يمسح الطاولة قبل أن يضع كأس الماء عليها ويقوم بترتيب طبق الوجبة الخفيفة والمناديل. كان يحاول أن يبدو الأمر عرضياً، غير أن سؤاله كان فيه بعض الاستنكار، فقلت له: «أجل». وكان صوتي ينم عن عصبية كبيرة، لذا أردفت: «أجل. إنني أنتظر أحداً». قلت ذلك بقوة أكبر.

فقال لي: «جيد جداً». لكنني لم أشعر بأنه صدقني، ولهذا سأل: «أتنتظرين أحد نزلائنا؟».

قلت: «أجل، فهي تقيم هنا». لكنه لم يغادر، فتابعت: «وقد تمت خطوبتها مؤخراً، لذا هلّا أحضرت لي زجاجة من الشراب؛ فأنا أريد أن أفاجئها عندما تصل، مع كأسين لو سمحت».

فهز برأسه إيجاباً، ثم وقف وقال: «جيد جداً». وبعد ذلك استدار ليغادر، وحينما نظرت إلى البهو مجدداً رأيت آنا. إذ لا بد أنها كانت قد وصلت أثناء حديثي مع النادل، لكنها بدت لي مختلفة نوعاً ما، إذ كان الحزن بادياً عليها، كما كانت أكثر جدية مما كانت عليه حينما غادرت بيتي منذ ساعة أو أكثر، لذا احتجت إلى بعض الوقت كي أميزها وسط جميع الناس. شرعت بالوقوف، لكنها كانت قد توجهت نحو المصعد. كان بوسعي أن أناديها بصوت عالٍ، غير أن الباب الذي يفصل بيننا كان مغلقاً، لذا لم تكن قادرة على سماعي. ولكن بالرغم من ذلك، انقشعت الغمامة عن قلبي، فقد كنت محظوظة للحظة؛ إذ كانت بمفردها. لكن إحساسي هذا تراجع بعد ذلك حالما رأيت لوكاس على بعد بضع خطوات منها، فجمدت في مكاني، ثم أخذت أراقبه وهو يتمهل ليسمح لرجل وامرأته بأن يتجاوزاه. وفي الوقت الذي بدأت التحرك فيه مجدداً، كان بوسعي أن أرى أنني سأصل بعد فوات الأوان.

هتفت: «اللعنة». إذ كان باب المصعد على وشك أن يغلق، لكن آنا رأتني حينه؛ إذ كانت تنظر من فوق كتف خطيبها، فحدقت بي للحظة، ثم بدت عليها الصدمة. ولكن، قبل أن أتمكن من الابتسام لها، أغلق باب المصعد دوني، فلم أعد أستطيع أن أراها.

خرجت من مقهى الفندق متوجهة نحو البهو، ثم هرولت نحو المصعد،

لكنه كان قد صعد إلى الأعلى لتوه، لذا أخذت أراقبه وهو يقف عند الطابق الثالث، فالخامس، ثم السادس؛ وأنا أشتم حظي العاثر بصوت منخفض. لم تكن أمامي أية وسيلة لمعرفة الطابق الذي تتواجد فيه غرفتهما. لذا، حينما بدأ المصعد بالنزول مجدداً، استدرت وعدت إلى مقعدي، وأخذت أبحث عن هاتفي وأتخيل شكل محادثتهما.

لا بد أنها قالت له: «إنني متأكدة من أنني رأيت جوليا في البهو. ترى، ماذا تفعل هنا؟».

ووسيرد عليها بقوله: «كلا، إنها ليست هي».

ثم سيصلان إلى الغرفة وسيقول لها: «تعالي...»، ثم سيقبلها، وسيخلع عنها ثيابها بالطريقة التي كان يتبعها معي، وستشعر بأنها مستسلمة له. وعندها، ستجد يداه يديها، وثغره ثغرها، وتبدأ هي بخلع بنطاله عنه.

أخذت أستبعد تلك الفكرة؛ إذ كان علي أن أحافظ على تركيزي. كان هاتفي قد بدأ بالطنين حينما وجدته، لذا أجبت عليه بسرعة، فكانت آنا هي المتصلة، حيث قالت:

«أهذه أنت؟ هل أنت في الطابق السفلي؟».

وبدت لي سعيدة ومسترخية ومتفاجئة أيضاً، وكان بوسعي أن أسمع صوت لوكاس خلفها؛ حيث خيل لي أنه كان يسكب الشراب.

قلت: «نعم».

هتفت: «اعتقدت أنني رأيتك عندما دخلت. هل كل شيء على ما يرام؟».

أجبتها: «نعم». لكنني أدركت عدم جدوى التمثيل والتظاهر، ولهذا قلت لها: «في الحقيقة، لا. اسمعي، يجب أن أراك. لقد كنت أحاول أن أتصل بك، وتركت لك رسالة، وسأشرح لك الأمر، فهل بوسعك أن تنزلي إلي؟».

بدت لي مترددة ومحتارة حينما قالت:

«لم لا تصعدين أنت إلى هنا؟».

أجبتها: «لا، كلا، عليك أن تنزلي أنت، أرجوك».

أخذت أفكر بالورقة المطبوعة التي جلبتها معي، إذ لم أكن أريد أن أريها إياها، إلا أنني قد أضطر إلى ذلك. ولكن، هل ستصدقني؟ لا بد أنها ستفعل، لكن بالرغم من ذلك كان بودي ألا أريها إياها.

سألتني: «هل هيو معك؟».
أجبتها: «إنه في البيت. أرجوك انزلي، ودعيني أشرح لك».
سمعتها تغطي هاتفها عند مكان فمها لتتشاور مع لوكاس، غير أن كل شيء كان سيقوله لها كان واضحاً بالنسبة إلي، لذا هتفت: «آنا! آنا...».
فأجابتني بعد مرور بضع دقائق بقولها: «سنوافيك خلال دقيقتين».
هتفت: «كلا». وحاولت أن أتحكم بصوتي الذي بقي بالرغم من ذلك كئيباً ومذعوراً، وتابعت: «كلا. من الأفضل... أيمكنك أن تأتي بمفردك؟ أرجوك».
ترددت ثم قالت: «أمهليني خمس دقائق فقط».

بالرغم من أن الوقت كان متأخراً، إلا أنها كانت قد بدلت ثيابها وارتدت بنطالاً وسترة، وانتعلت حذاء بلا كعب. وكان الازدحام في المقهى قد خف في تلك الآونة؛ إذ كان من بقي من الأشخاص فيه ينهون كؤوسهم الأخيرة قبل توجههم إلى الطوابق العلوية. بدت زجاجة الشراب الموضوعة أمامي على الطاولة لا تنتمي إلى المكان، وهنا هتفت آنا: «جوليا!». وبعدما تبادلنا القبلات سألتني: «هل كل شيء على ما يرام؟ تبدين لي قلقة للغاية!». ثم أخفضت صوتها وقالت: «هل أمورك بخير مع هيو؟».
أجبتها: «أجل». ثم نظرت من فوق كتفها، فلم أجد أحداً سوى النادل الذي كان يقوم بجمع الكؤوس ويتفقد القادم الجديد. وعندما جلسنا، هتفت آنا: «جيد، لقد قلقت وظننت أن شيئاً ما قد حدث، أو أن هيو قد اكتشف أمر ذلك الرجل».
كانت قد تفوهت بالكلمتين الأخيرتين من دون صوت تقريباً؛ وكأنها كانت تظن أن ثمة جواسيس في كل مكان يسعون إلى نقل الخبر لزوجي، فقلت لها: «كلا، ليس الأمر كذلك، إذ لم يحدث شيء كهذا».
هتفت: «جيد». ثم رفعت كأسها، فأخذت أهز رأسي، إذ كانت كأسي لا تزال فارغة.
سألتني: «ما الأمر؟».
قلت لها: «ألم تستمعي إلى الرسالة التي تركتها على هاتفك؟». فأخذت تهز رأسها نافية.

لـم أسـتطع أن أتكلـم، إذ لـم أكن أريـد أن أخبرها بالأمر، لـم أكن أريد أن أدمر سعادتها، حتى وإن كانت مبنية على أكاذيب. لكنني حينها أخذت أفكر بكل الأمـور التـي فعلهـا لوكاس بي؛ تلك الأمور التي طلبتها، وتلك التي لـم أطلبها. لـم أكـن أسـتطيع أن أخذلهـا وهي على هذا الطريق الوعر الذي كانت تسـلكه. أعرف أنني كنت قد خذلت شقيقتي، لكنني ما كنت لأخذل آنا فقط لأوفر على نفسي عناء الدخول في حوار صعب.

قلت لها: «إن الأمر يتعلق بريان».

هتفت: «ريان؟!»..

قلت: «اسـمعي»، ثم أمسـكت بيدها، وفكرت في سـري بأن هذا ما كانت كيت ستقوم به، ثم تابعت: «لا أريد منك أن تعتقدي أنني... أغار...».

ردت: «تغارين؟! أنت تهذين!».

أجبتها: «أعني منك ومن ريان».

سألتني: «ولم ستغارين يا جوليا؟ وعلام؟».

وهنا ترددت، إذ كنت أبحث عن الكلمات المناسبة، لكنها بدت لي صعبة المنال.

قلت لها: «إن الأمر فقط...».

هتفت: «ماذا؟».

سألتها: «هل تعتقدين أنه بإمكانك أن تثقي به؟».

ردت: «بالطبع. ولكن، لماذا تسألين؟».

قلت: «لا شيء. لكنك لـم تتعرفي عليه لفترة طويلة، ثم...».

بـدت طريقتـي فـي عرض الموضوع ضعيفة للغايـة وخرقاء؛ إذ كنت أعلم بأنني تفوهت بالشـيء الذي لا يناسـب الموضوع. وعندها رأيت تعابير وجه آنا وهي تنقلب لتتحول إلى غضب وهي تقول:

«لقد كانت فترة تعارفنا طويلة بما فيه الكفاية، فلمَ هذه الأسئلة يا جوليا؟ لم أكن أتوقع هذا منك من بين كل الناس!».

أخذت نفساً عميقاً، ثم شرعت بالقول: «لا أعتقد أنه الشخص الذي يحاول أن يرسمه لنا». ثم أغمضت عيني وقلت: «آسفة... ».

هتفـت: «مـاذا؟!». وبـدت لي مصدومة، ثم صاحت: «ما الذي تتفوهين به؟

ماذا تقصدين؟».

كنت أخطو بحذر، إذ كنت أريدها أن تستنتج ذلك بنفسها، وأن تدرك أن الشخص الذي تناديه باسم ريان كان يكذب عليها بخصوص الأماكن التي كان يذهب إليها كل أسبوع، ولهذا سألتها:

«ما الذي يفعله أيام الثلاثاء؟».

أجابت: «يذهب إلى عمله...».

سألتها: «في باريس؟».

أجابت: «حسب الوضع، لأنه يسافر كثيراً».

سألتها: «إلى لندن؟».

ردت: «أحياناً... لمَ تسألين يا جوليا؟».

بدأت بالقول: «إن الأمر كله...» لكنني صمت فجأة، إذ تغيرت الأجواء في الصالة حينما فتح باب المقهى، مما سمح بدخول تيار هواء بارد. ومن فوق كتف آنا رأيت لوكاس يمسح المكان بنظره بحثاً عنا، وبدا عليه الهدوء الشديد.

هتفت: «اللعنة!».

ردت: «ماذا؟». ثم نظرت من فوق كتفها وصاحت: «أوه، مرحباً». ثم أخذت تنادي عليه من بين الطاولات القليلة التي كانت تفصل بينها وبينه. وحينما رآها أخذ يلوح لها.

أمسكت بيدها وقلت: «اسمعي». وأخذت أتكلم بسرعة، إذ كان علي أن أفضي لها بسري قبل أن يصل لوكاس إلى هنا، فقلت: «لا يمكنك أن تثقي به، فهو ليس الشخص الذي يدعي أنه هو. ثم إنه يواعد امرأة أخرى، وعليك أن تصدقيني في ذلك... ».

هتفت: «جوليا!». وهي تهز رأسها، فشعرت بوتيرة السرعة وهي تتصاعد، وكان يمكن لذلك أن ينقلب في أية لحظة إلى ذعر.

قلت لها: «فقط اتركيه!». ونطقت بذلك بصوت مسموع، لدرجة أن النادل قد لاحظ ذلك، وبلا شك لوكاس أيضاً.

فما كان منها إلا أن سحبت يدها من يدي، ثم وقفت وهي تنظر إليّ مشككة. كانت نظراتها نظرات شك ممزوج بالغضب.

لذا، سارعت بالقول: «أنا آسفة...». غير أن لوكاس وصل بعد لحظة من

ذلك وقال:

«ما الأمر؟». فأخذت عضلات وجه آنا تسترخي، ثم استدارت لتقبله، وبعدها عاودت النظر إلي.

وقالت: «كانت جوليا على وشك المغادرة، أليس كذلك؟».

قلت: «كلا. أصغي إلي...».

فتقدم لوكاس إلى الأمام، ووقف بيني وبين آنا وكأنني كنت مصدر الخطر، وبدا لي غاضباً وهو يحاول أن يحمي زوجة المستقبل.

ثم سأل: «لمَ كل هذا؟».

فاستدارت آنا لتواجهني وقالت: «أصبحت أعرف سبب كل هذا». وبدت لي منزعجة وعازمة وهي تقول: «إنك تشعرين بالغيرة؛ فقط لأن علاقتك بهيو تنهار. أما نحن فقد أصبحنا أكثر قرباً من بعضنا، فهل أنا على حق؟ أم إن الأمر يتعلق بالمال؟».

هتفت: «المال؟!!». إذ لم تكن لدي أية فكرة عما كانت تتفوه به.

ردت: «أنت تعرفين أننا سنقوم بتوزيع التركة يوم الجمعة...».

هتفت: «ماذا؟!». وبدأت الأفكار تدور في عقلي؛ إذ لم أكن أعرف أي شيء حول هذا الموضوع، وأخذت أسترجع ما جرى في محاولة لتذكر آخر محادثة لنا.

قلت: «آنا، كلا، ليس الأمر كذلك على الإطلاق! فالمال مالك، بعدما تركته كيت لك، ثم إنني أريد منك أن تحصلي عليه».

أخذت أستعيد حوارنا عندما كنت في باريس، وتذكرت أنني قلت لها الشيء ذاته وقتها منذ شهور طويلة.

هتف لوكاس: «اسمعي». ثم وضع يده على ذراعي فجفلت، وبعدها تابع: «لا أعرف ما الذي يجري هنا، لكن عليكما أن تهدآ».

كانت آنا غاضبة الآن، وقد انتبه إليها كل من يعمل في المقهى، وجاء أحدهم وقال لي: «سيدتي، هل كل شيء على ما يرام هنا؟».

فرد عليه لوكاس: «كلنا بخير، وبوسعنا أن نعالج أي مشكلة». ثم بدأ يدفع آنا باتجاه الباب، أما هي فقد كانت تنظر إلي نظرة متشككة، وتهز رأسها كما لو أنها لم تكن تصدق أنني تحولت إلى هذه الشخصية التي تراها أمامها. لكن،

ترى ما الذي كانت تفكر فيه أيضاً؟ ربما كانت تفكر بأن كيت كانت على حق طيلة تلك الفترة، وأنني كنت أغار منها، وخنتها وسرقت ابنها منها من دون أن أعيده إليها. وهنا سمعت لوكاس يقول بثبات وقوة وهو يلتفت نحوي: «أعتقد أنه من الأفضل لك أن تغادري». ولكنني في الوقت ذاته شعرت بيد على ذراعي، لقد كانت يد الساقي الذي جعلني أستدير إلى الخلف، ثم رافقني إلى الجهة المقابلة.

صرخت حينما بلغنا الباب: «إنه لوكاس». لكنها كانت تنظر باتجاه آخر، كما أن صوتي ابتلعته زوايا المكان الذي يبدو كالكهف. وهنا، أخذ زبائن المقهى ينظرون إليّ _ ولا بد أنهم اعتقدوا أنني كنت ثملة، أو أنني شخص يسبب مشاكل كثيرة، أو أنني مجرد حبيبة سابقة تشعر بالغيرة - لكنني لم أكن متأكدة من أن آنا قد سمعتني. غير أنني لم أكتشف بأن الأوان قد فات إلا بعدما أفلتُّ من قبضة النادل الذي كان يمسك بذراعي، والتفتّ لأقول تلك العبارة مرة ثانية.

إلا أنها كانت قد غادرت المكان.

دفعت الحساب وغادرت، لكن هنالك شيئاً آخر كان عليّ القيام به، ولهذا لم يكن بوسعي أن أبقى أكثر؛ خاصة بعد الفوضى التي سببتها. وحينما وصلت إلى السيارة فتحت النافذة، ثم أشعلت لفافة تبغ أخرجتها من علبة السجائر التي كنت قد بدأت بتخزينها في صندوق القفازات. وفي تلك اللحظة، أخذت أفكر بهيو الذي لم يكن ليقبل بالتدخين في السيارة، فتمنيت لو كنت معه في هذه اللحظة.

قلت لنفسي: لقد خربت كل شيء. إذ لم أكن أعرف ما الذي كان بوسعي فعله بطريقة مختلفة، إلا أنني فشلت في هذا الأمر.

أرسلت زفرة، ثم اعتدلت في مجلسي على المقعد الجلدي، وبعد ذلك ركنت السيارة في شارع جانبي مقابل بورتلاند بليس. كان بوسعي أن أرى الممر الذي يفضي إلى الفندق عبر المرآة الجانبية للسيارة. وبالرغم من أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل حينها، إلا أن الناس كانوا لا يزالون يدخلون إلى الفندق ويخرجون منه.

ترى، هل كانت آنا على حق؟ فربما كان الأمر بأكمله يتعلق بالمال الذي

تركته شقيقتي لها؛ بالرغم من أن ذلك لم يكن بالطريقة التي تخيلتها آنا. أخذت أتخيل لوكاس بعد سماعه خبر وفاة كيت وهو يتقرب مني ليستغلني، ليكتشف بعد ذلك أن شقيقتي كانت قد تركت كل مالها لأعز صديقة لديها.

لكن، لا. لا يبدو هذا منطقياً؛ إذ لا شك في أنه كان يواعد آنا قبلي؛ حتى قبل وفاة كيت. وهكذا، عدت إلى المربع الأول.

عاودتني تلك الفكرة التي بقيت تخطر لي، لكنها تضخمت هذه المرة، فلم يكن بوسعي أن أتخلص منها أو أن أمنع ظهورها؛ وذلك لأنني أصبحت أعرف أنه يعيش في باريس الآن. لذا، أخذت تلك الفكرة تطفو على السطح بشكل عنيد، حيث بات من المستحيل إيقافها أو منعها.

لقد كان هو الفاعل.

لكن هذا مستحيل؛ إذ وجدت الشرطة قرط كيت الآخر، وبناء على ذلك ألقي القبض على ذلك الشخص. ثم إننا كنا نعرف أن رجال الشرطة قاموا بالتحقيق مع كل الأشخاص الذين تعرفهم كيت، وكذلك جميع الأشخاص الذين كانت تتواصل معهم عبر الإنترنت، وقد كانوا مقتنعين بالنتيجة التي توصلوا إليها، لذا لا يمكن أن يكون هو الفاعل.

إذاً، لماذا استهدفني؟ أم إنني لم أكن هدفاً بالنسبة إليه على الإطلاق؟ أي كان الأمر مجرد صدفة محضة؟

أنهيت سيجارتي، ورميت بها على الرصيف عبر النافذة التي كانت نصف مفتوحة. وعلى الفور، شعرت بالرغبة في إشعال لفافة تبغ أخرى. لقد وجدتها، لكن الفكرة كانت تبدو لي عقيمة وغير معقولة. كان علي أن أهدئ من سرعة أفكاري، وأن أقوم بترتيب تلك الأفكار. لذا، رفعت حقيبتي التي كانت على مقعد الركاب وبدأت أفتش فيها بدقة.

وقد حدث ذلك بسرعة، لدرجة أنني لم أره وهو يخرج من الفندق، ولم أسمعه وهو يقترب؛ إذ بالكاد انتبهت إليه وهو يفتح السيارة. رفعت رأسي فوجدته هناك، وانتقلت من حالة الوحدة التامة إلى عكس ذلك خلال لحظة، وهذا ما جعل قلبي يقفز من شدة الرعب الذي أتاه على حين غرة.

فبدأت أقول: «ما الذي...». لكنه التفت نحوي وقال:

«مفاجـأة!». فـكان هتافـاً جافـاً وتنقصـه الدعابة. أما وجهه فـكان على بعد سنتيمترات قليلة من وجهي، لذا شممت رائحة عطر ما بعد الحلاقة الذي كان يستخدمه، والذي كنت قد اعتدت عليه؛ إذ كان أشبه برائحة الخشب _ خشب الصندل حسبما أعتقد _ ممزوجاً برائحة أخرى تشبه رائحة الأدوية. بدا لي أكثر شـحوباً مما كنت أتذكره عنه، أما قسـماته فكانت أكثر نحولاً. عندها، حاولت أن أقـول لنفسـي إنني إن التقيتـه الآن فلن أقدر علـى التفكير في الموضوع مرة ثانية، لكنها كانت مجرد كذبة.

هتفت به وأنا ألهث: «لوكاس». إذ كانت ذاكرة عضلاتي تنبض مرة أخرى، لـذا غصـت فـي مقعدي إلى أبعد مـكان أمكنني الوصول إليه، وحاولت الابتعاد عنه قدر الإمكان من دون أن أقوم بفتح الباب والهروب من السيارة. وهنا أخذت أتساءل إن كان يجب عليّ القيام بذلك؛ أي الهروب، لكنني سألته:

«ما الذي تريده؟».

فأجـاب: «آه يـا حبيبتـي، لا تكونـي هكـذا...» وهنـا بدا لي صوتـه غليظاً؛ لدرجة أنه لم يكن يشبهه على الإطلاق.

سـألته: «أيـن آنـا». وقـد كنت أتخيلهـا وهي تصعد الأدراج مسـرعة. ترى، هل تعرف أنه معي الآن؟ أم قال لها إنه سيخرج ويتمشى قليلاً ليستنشق الهواء العليل؟

أخـذ يتبسـم ابتسـامة مريـرة تنم عن الاسـتياء، ثـم قال: «اسـترخي، فأنا لا أعلـم مـا الـذي يحـدث من وجهـة نظرك، لكن دعيني أخبـرك بأنك قد أخطأت في كل حساباتك». ثم أمسك قليلاً عن الكلام، لكنه عاد بعد ذلك ليقول: «آنا في الطابق العلوي. تركتها في الحمام». ثم ابتـسم، فأخذت أسأل نفسي إن كان من المفترض بي أن أجد في تعليقه أي إشـارة موحية، أو أي محاولة لدغدغة المشاعر، فهل كانت هذه لعبة من ألاعيبه؟

ثـم أردف: «إنهـا تعـرف أنني هنا. فهي التي أرسـلتني لأعتـذر بالنيابة عنها لأنها فقدت أعصابها. وهي تطلب منك أن تصعدي إليها لتتناولي الشراب معنا. لذا، رتبي أمورك». ثم أخذ يهز كتفيه بلا مبالاة، وبعد ذلك قال: «إذاً، ما رأيك بذلك؟».

كنت أريد أن أصدقه، لكنني لم أفعل. إذ كيف يمكنني ذلك وآنا تعتقد أن

أول مرة ألتقيه فيها هي الليلة؟!

قلت له: «من أنت؟ أخبرني ماذا تريد؟». لكنه تجاهل سؤالي وقال: «لا، لا تفكري بهذه الطريقة». ثم استدار وهو يقول: «انظري، آنا امرأة عاقلة، ويمكنها أن تعتني بنفسها، ولست أدري لماذا تريدين أن تأتي وتتدخلي بأمورها».

هتفت: «أتدخل بأمورها!؟».

فرد: «هل أتيت لتحذيريها؟ لتقولي لها إنني لست الشخص الذي سيكون عند حسن ظنها؟ لعلي أنا الشخص الذي كان عند حسن ظنها تماماً، فيما أنت لست كذلك بالنسبة إليها». ثم بدا لي رصيناً وهو يقول: «لعلك أنت من لا يعرف أي شيء عني، وليست هي». ثم انحنى نحوي وقال: «إن آنا تثق بي، هل تعرفين ذلك؟ لقد أخبرتني بكل شيء...».

أخذت أفكر بالورقة المطبوعة التي أحملها في حقيبتي، وبأنه كان علي أن أعطيها تلك الورقة حينما سنحت لي الفرصة.

وهنا قلت له: «ربما، أما الآن...»، لكنه تحرك بفظاظة، وأمسك بذراعي وأخذ يلويها، فكانت حركته مفاجئة وقاسية، ولهذا صرخت بأعلى صوتي صرخة صدمة وألم، وبعد ذلك التزمت الصمت.

أخذ يهمس بأذني: «أتعرفين؟». وكان لا يزال يقبض على ذراعي وأصابعه تحفر بصماتها فوقها، ثم تابع: «لا يعجبني وجود نساء مثلك وتدخلهن بيني وبين المتعة التي أنوي التمتع بها، ولذلك هذا ما سيحدث...» وعندها، أخذ يلوي ذراعي أكثر، فقاومته، لكنه أمسك بي. كان يستخدم فقط يداً واحدة، لكن الأمر كان يبدو سهلاً بالنسبة إليه، لذا شعرت بأنه قد يكسر ذراعي من دون أي جهد يذكر؛ وكأن هذا بالضبط ما كان يرغب بالقيام به. أخذت ألهث مرة أخرى وأتذكر يديه وهما فوق جسدي، وكيف أنهما كانتا تداعبان جلدي الذي كان يصرخ الآن تحت وطأة الألم. وفي تلك اللحظة أخذ يقول لي: «ستخرجين تلك القذارة من حياتي، وستدعين آنا وشأنها، ولن تتدخلي بها بعد اليوم، أفهمتِ؟».

أخذت أستجمع سائر قوتي، ثم التفتُّ نحوه، وأخيراً تمكنت من سحب ذراعي من يده. وعندها قال: «وإلا... لقد رأيتك قبل ذلك، أتعرفين؟ وأنت تستقلين المصعد، ولم يكن يبدو عليك أنك تعيشين حالة حب معي، ولم أكن

أعرف ما الذي كنت تفعلينه، لكنها لا تستحق ذلك؛ فهي لم تفعل شيئاً من أجلك، وهي تعتقد أنك تحبينها فعلاً».

وهنا شعرت بأن عزيمته قد اهتزت قليلاً لأنني ضايقته. لكنه أخذ يتكلم مجدداً وقال: «لا فرق عندي بالنسبة إلى ما تعتقدين أنك رأيته». ثم ابتسم بطريقة واهنة وضعيفة، وبعدها قال: «ثم إنك ستتركيننا بمفردنا».

بدا لي عندها واثقاً من نفسه للغاية، فغمرني الفزع.

سألته: «وإلا؟».

فرد: «وإلا سأجعل السجلات الخاصة التي أحتفظ بها عامة بعض الشيء...».

لم أفهم ما كان يقوله، إلا أنني شعرت بالتوتر، وبدا لي أن جسدي قد اكتشف الأمر بينما أبطأ ذهني في إدراك ذلك.

قلت له: «سجلات! ماذا...؟».

فقال: «نعم، فلدي بعض الصور المسلية ضمن مجموعتي، إلى جانب بعض أفلام الفيديو أيضاً. ألا ترغبين برؤيتها؟».

شعرت بأنني كنت أتهاوى وأسقط، إذ بدا لي واثقاً من نفسه تماماً، أما أنا فلم أكن أمامه شيئاً مذكوراً، إذ كان بوسعه أن يحطمني من دون أدنى محاولة.

أخذت أهز رأسي وأنا غير مصدقة ما أسمعه، فأخرج هاتفه من جيبه، وأخذ يمرر يده عليه فتتغير النوافذ أمامه، ثم هتف: «هذه صورة مناسبة».

كان قد اختار صورة، وعندها أضاء نور الشاشة عتمة السيارة من الداخل لفترة وجيزة، ثم قام بتعديل زاوية الشاشة حتى أتمكن من رؤية الصورة. كانت صورة لامرأة عارية، أخذت من منطقة الخصر فما فوق.

وقد استغرق مني الأمر هنيهة حتى أدركت أنها صورتي.

أخذت ألهث، ثم شرعت بالقول: «إنها...» بيد أن الكلمات علقت في فمي ولم أستطع أن أخرجها منه.

وهنا قال: «هذه من أول مرة... أول مرة قمت فيها بتشغيل الكاميرا، أتتذكرين؟».

كنت أتذكر. فقد كنت في الاستديو الخاص بي، وكان الباب مقفلاً، وقد قمت بتعديل زاوية الكاميرا ثم وقفت. وقتها، شعرت في بداية الأمر بأنني كنت

غبيـة، لكنني بعـد ذلك أصبحت مسـتغرقة بالموضوع؛ لدرجـة أنه لم يعد هناك سوى أنا وهو، أما باقي العالم فقد استحال إلى هباء.

بدت لي الصورة كخيانة بحتة، فلم أعد أستطيع أن أنظر إليها مرة أخرى، وكذلك لم أعد أريد أن أراه هو أيضاً مجدداً.

سألته: «أأنت من التقطها؟ وهل احتفظت بها؟».

رد: «أحـب أن يكـون لـدي سـجل خاص». ثم أخذ يهـز كتفيه بعدم مبالاة وكأن شيئاً لم يحدث، ثم قال: «حينما أشعر بالملل... تعرفين ذلك».

هتفـت: «كيـف تجـرؤ؟». وكان الحنـق يتصاعد في صـدري، بالإضافة إلى شيء آخر؛ كان رعباً من نوع جديد، إذ كان بارداً وقاسياً ولذاعاً.

أخذت أفكر: إن كان يحتفظ بهذه فلديه المزيد أيضاً.

بدأ يقلب النوافذ في هاتفه ثم قال: «لدي العديد من الصور الأخرى. هذه على سبيل المثال، أو هذه».

أخـذ يرينـي الصـورة إثر الصورة، فكان ذلك أشـبه بإعادة لعرض ما حدث خلال الشهور القليلة الماضية، مع عرض لأهم الأحداث التي تم تعديلها. ومع كل صورة، كنت أغوص في مقعدي أكثر، إلى أن شـعرت بأنني أغرق بالفعل، وبأن الماء قد أطبق عليّ من كل الجوانب، وبأنه كان يغطيني حتى لم أعد قادرة على التنفس.

سمعته يقول: «وهذه». كانت الصورة مختلفة، إذ التقطت في الفندق بعدما قمنا بعلاقة حميمة، حيث كنت أظهر فيها وأنا واقفة وأبتسم للكاميرا، وكان قد التقطها لي وأنا أرتدي ثيابي. تذكرت ذلك اليوم... كان حينها يغازلني ويطلب مني تذكاراً... شيئاً يذكره بذلك اليوم.

وقـد كنـت سـعيدة يومهـا، لكنني أتذكر أنني طلبت منـه أن يحذفها بقولي: «إننـي فقـط لا أشـعر بالارتيـاح». غيـر أنه أخذ يقول لي إننـي كنت جميلة، وإنه يريد صورة، فقلت له: «أرجوك، احذفها يا لوكاس».

ومـن الواضـح أنـه لـم يحذفها، لذا شـعرت بالرعب وأنا أنظـر إليها الآن؛ شـعرت بأن إحدى شـخصيتيَ تنظر إلى الأخرى، أي إن جوليا كانت تنظر إلى جين. كنت أعتقد أنه بوسعي أن أحتفظ بكل واحدة منهما على حدة، وأن أبقي كل واحدة منهما في صندوق مقفل بعيداً عن الأخرى، لكنني كنت مخطئة؛ إذ

من عادة الأشياء أن تتسرب وتهرب.

وعندها، غمرتني موجة من اليأس، لأن كلتا الشخصيتين لم تكونا حقيقيتين؛ إذ قام كل شيء منذ البداية على كذبة، على وهم الحب.

وهنا سمعته يقول: «على كل حال، أصبحت لديك فكرة عامة عن الموضوع».

فهمست له: «أيها الوغد...». وحتى إن كلمة وغدلم تكن كافية بعد كل ما أخذه مني.

فرد: «أوه، الآن عليك أن تعرفي أن هذه الصور رائعة، ومن الأنانية أن أحتفظ بها لنفسي...». ثم امتدت يده مرة أخرى إلى جيبه، وحينما أخرجها كانت تحمل شريحة ذاكرة، فرفعها أمامي وهو يقول: «على سبيل المثال، إليك نسختك». فحدقت إليها، لكنني رفضت أن آخذها منه، فقال: «كلا؟ يمكنك أيضاً أن تحتفظي بها، إذ ثمة الكثير منها لدي...». قال ذلك وهو يبتسم، ثم وضع الشريحة بيننا على لوحة عدادات السيارة.

وهنا قلت له: «لكن نصف هذه الصور لك، فلِمَ ستقوم بنشرها؟».

فقال: «أجل، إنني أظهر في بعض الصور، لكن ليس فيها جميعاً. ثم إنني بكل الأحوال ليس لدي ابن، ولست متزوجاً من جراح، لذا أعتقد أنني قد أنجو بفعلتي». ثم ابتسم وتابع: «فقط فكري...». وبعد ذلك أخذ يهز رأسه استهجاناً ويقول: «تخيلي ما يمكن أن تكتبه الصحافة عن ذلك. تخيلي صحيفة ذا ميل تكتب: زوجة جراح مشهور في فضيحة جنسية. كما قد يصبح الموضوع فيروسياً ومعدياً، ألم تفكري في ذلك؟».

فلم أجبه؛ إذ كان على حق. كان المستقبل ينهار بحركة سريعة، فإلى جانب الشكوى المقدمة ضد هيو، ستكون قصتي أكبر من طاقته على الاحتمال. أخذت أتخيل وقع الفضيحة، وكيف سيبتعد أصدقاؤنا عنا ويتحاشوننا. أخذت أتخيل موقف ماريا وكارلا وجميع زملاء زوجي. وتخيلت نفسي وأنا أمشي في الشارع وأحس بعيون الناس تحرقني من دون أن أعرف ما كانوا يرونه فيّ، وما نوع الأحاديث التي سيصدقونها عني.

أخذت أفكر أنه هو الفائز؛ إذ لم يكن بوسعي القيام بأي شيء، أما هو فلديه آنا، وسيضع يده على أموال شقيقتي، وبعدها سيؤذي آنا ويسيء معاملتها؛

تماماً كما فعل بي.

ومع ذلك، لم يكن قد انتهى من كل شيء، ولهذا شرع بالقول: «هناك رئيس هيو في المشفى أيضاً، وجميع زملائه. إذاً، لا يمكن لفضيحة كهذه أن تفيده في عمله، ولا بد أنها ستؤثر على سمعته. وعليك أن تتذكري حياة كونر في المدرسة، مع كل أولئك الأهالي، إذ إنني لا أتخيل مدى الصعوبة التي سأعانيها لأحصل على عناوينهم عبر البريد الإلكتروني. آه...». قال ذلك، وبدا كما لو أن فكرة ما قد خطرت بباله للتو فهتف: «لقد تذكرت. هنالك جميع المواقع الإلكترونية الإباحية التي يمكنني أن أحمل عليها هذه الفيديوهات والصور تحت عنوان: هاوية مثيرة». بعد ذلك، نظر إليّ وأخذ يراقب ردة فعلي وهو يقول: «أو تحت عنوان: امرأة كبيرة تقوم بعلاقة حميمة مع شاب أصغر منها».

فما كان مني إلا أن قمت فجأة ومن حيث لا أدري بصفعه بكل ما لدي من قوة؛ وكأن كل الطاقة التي كنت أتشبث بها قد انفجرت دفعة واحدة، فكنت على استعداد للركل والصراخ والقتال.

إلا أن ردة الفعل الوحيدة التي أبداها هي الضحك بهدوء، وبصوت أقرب إلى الهمس، فأدركت حينها أن ذلك أسعده.

ثم أخذ ينظر إلي، وكانت عيناه خاليتين من أي معنى، فتساءلت إن كان بإمكانه خوض تجربة مع الألم أم لا.

وهنا قال: «إذاً، وكما سبق لي أن قلت لك، ستبقين بعيدة عني وعن آنا».

شعرت بأنني كنت على وشك البكاء، لذا قررت ألا أسمح لدموعي بأن تنهمر، وذلك لأحرمه مما قد يرضيه ويسعده، إلا أن دموعي كانت تحترق خلف عيني.

لكنني في الوقت ذاته كنت أشعر بالارتياح نوعاً ما؛ إذ حينما يختفي كل شيء من حياتك سيختفي الألم مع ذلك؛ إذ لن يعود هنالك أي شيء لتخسره.

أخذت أفكر بالابتعاد عنه وعن آنا، وقلت لنفسي: قد يكون ذلك صعباً، لكنه ليس مستحيلاً.

وهنا أخذ يقول: «ثم ألا تفكرين بقيمة هذه الصور بالنسبة إليك؟ أقصد أنني أعرف أن شقيقتك قد تركت بعض المال لآنا، لكنني أفهم من ذلك أن مبلغاً كبيراً من المال قد ذهب إلى ابنك...».

هتفت مجدداً: «أيها الوغد!».

فاستدار ليفتح الباب، وبدا لي أن درجة الحرارة داخل السيارة ستهبط حينما يبتعد عني، وكل ما تبقى في هذا العالم كان سيندفع نحوي، وقال لي: «علي أن أذهب؛ لأن آنا ستسأل عني. ثم إنني أعتقد أن هنالك الكثير من الأمور التي عليك أن تفكري بها. وسأخبرها أنك ما زالت مستاءة، وأنه عليك أن تعودي إلى البيت من أجل كونر، أو أي شيء من هذا القبيل».

كنت أريد أن أستسلم وأسمح له بالخروج، لكنني أخذت أفكر مرة أخرى بكيت، فعرفت ما يجدر بي فعله؛ إذ كنت أتمتع بما يكفي من القوة، فقد تعلمت ذلك خلال هذه السنة؛ هذا إن كنت قد تعلمت شيئاً أصلاً، وهكذا أصبحت أقوى مما كنت أتوقع.

وفي تلك اللحظة هتفت: «مهلاً».

كان يسحب المزلاج، لكنه لم يغادر السيارة، بل التفت إليّ عوضاً عن ذلك وقال: «ماذا؟».

كنت قد اتخذت قراري، ولهذا كان صوتي قوياً ومتحدياً وأنا أقول: «إن آنا تثق بي، ولن تصدقك أبداً، خاصة إن أخبرتُها بما تفعله أنت».

عندها، أغلق باب السيارة وقال:

«أخبريها بما شئت، لأن الحقيقة هي أن آنا قد بدأت تعتقد أنك مجنونة نوعاً ما، ومريضة، وأن وفاة شقيقتك قد أودت بعقلك؛ بما أن حياتك كانت مثالية... والآن...». ثم مد يده إلى جيبه وهو يقول: «إنها تعتقد أنك شخص لا يمكن توقع التصرف الذي يصدر منه، وأنك أصبحت غيورة ربما، وهذا بالطبع ما أنت عليه؛ بالرغم من أنها لا تعرف سبب غيرتك».

أخذت أفكر بالوقت الذي قضيته مع آنا في باريس، وبكل المحادثات التي أجريناها خلال الأشهر الماضية؛ لا بد أنه مخطئ.

وهنا هتفت: «أنت تكذب، إذ ما الذي... ؟».

فرد: «جعلها تفكر بذلك؟ أعتقد أن ذلك لن يفيد...»، ثم رفع يده بيني وبينه، وكان يحمل شيئاً ما؛ بالرغم من أنه لا بد ليده أن تكون في جيبه حينها. لكن الأمر استغرق بضع ثوان حتى أدركت أنه كان يحمل سكيناً.

كان الذعر قد تمكن مني، فحاولت أن أتراجع إلى الوراء، إلا أن السيارة

كانت مركونة في مكان ضيق، ولم يكن أمامي أي مكان آخر ألجأ إليه، وهكذا حدث ذلك في ثوان معدودة؛ فقد أمسك بيدي بكلتا يديه، حيث أصبح مطبقاً علي، ثم أخرج السكين ووجّهها نحوي بيده؛ بالرغم من أنها كانت تبدو وكأنها كانت في يدي أنا. حاولت أن أحرر نفسي من قبضته، لأنني كنت أعتقد أنه سيحاول أن يطعنني، فبدأ يلوي لي يدي يمنة ويسرة ثم يعيد تلك العملية مجدداً، وكأننا كنا نتصارع، أو كما لو أنه يحاول أن ينتزع السكين مني؛ بالرغم من أنه هو من كان يحملها. ثم سمعت صوتاً، بل كان صراخاً، واعتقدت في البداية أنه صادر من مكان ما خارج السيارة، إلا أنني اكتشفت بعد ذلك أن ذلك الصوت صادر مني، وأنني كنت أرى المشهد بكامله، وكأنني كنت أراقب ما يجري من الشارع، وأنا أحدق بالسيارة. بدا الأمر وكأنني كنت أحاول أن أطعنه، فيما هو يحاول أن يصدني بكلتا يديه. ثم استرخى للحظة، وبمجرد أن اعتقدت أنه كان على وشك إسقاط السكين، سحب كلتا يدي بوحشية فجائية نحو وجهه، فجرحت السكين التي كان يحملها خده، فصاح: «اللعنة». وبعد مرور لحظة، كان الدم يتدفق منه بغزارة.

وهنا سمعته يقول: «أيتها المرأة الغبية!». ثم ابتسم، وأخذ يبعد يدي عنه وكأنني كنت أصده بهما، ثم رمى السكين فسقطت في حضني، ورأيت أنها مجرد سكين مطبخ، كتلك التي أستخدمها لتحضير الخضراوات؛ أي أنها لا تؤذي كثيراً، غير أنها كانت حادة _ بما أنها جرحته _ حيث بدأ الدم يسيل أسفل خده.

سمعته يهتف: «لقد حاولت أن تطعنيني». وهو يتلمس طريقه وكأنه يحاول أن يهرب مني، لكنه تعثر وهو يخرج من السيارة. أما أنا فقد فقدت القدرة على الكلام وأصبحت بكماء. وفي هذه اللحظة بالذات، مر رجل وامرأة بجانب السيارة، وأخذا يحدقان في محاولة لاستيعاب ما كان يحدث. كنت أقوم بفتح فمي وإغلاقه من دون أن أتكلم، فقد كنت أشفق عليه؛ إلا أنني استطعت أن أميز أن الجرح الذي كان على خده لم يكن أكثر من خدش، لكن الدم كان يتدفق منه، لدرجة أنه أصبح فوق فمه، وسال من تحت ذقنه، ولطخ قميصه الأبيض.

أخذت أفكر ببردة فعل آنا حينما يصعد إليها، حيث لا بد أن يكون الدم قد غطى كل شيء حينها. سيبدو الأمر وكأنه تعرض لهجوم مسعور، كما سيبدو

وكأنه تمكن لحسن حظه من الفرار، وستصدق كل شيء سيقوله لها، ومن ضمن ذلك قوله عني إنني غيورة ومجنونة، وإنني كنت أحاول أن أفرق بينهما بدافع الحقد، لأنه لم يكن لدي رجل يحبني كما كان يحبها.

سمعته يقول أخيراً: «أما زلت تعتقدين أنها ستثق بك؟». وبعد لحظة، كان قد غادر، ووجدت نفسي وحيدة؛ إذ بالرغم من وجود السيارات والناس حولي كنت أشعر بالوحدة. وكل ما كان بوسعي أن أسمعه هو صوت دقات قلبي، وصوت نباح كلب من مكان بعيد تحت جنح الظلام.

الفصل السابع والعشرون

لم يكن أمامي أي خيار آخر، لذا عدت للبيت.

كان الوقت متأخراً، والبيت هادئاً تحت جنح الظلام؛ لذا كان لا بد للمرء أن يشعر بالأمان، وأنه وصل إلى ملاذ آمن؛ إلا أن إحساسي لم يكن كذلك. كان هيو وكونر نائمين في الطابق العلوي. وهنا أدركت أنني من دون أن أفهم ما كان يجري، وإلى أين كنت أتجه، كنت قد أبعدت نفسي عن أسرتي، ولهذا كنت منعزلة ووحيدة.

توجهت نحو الردهة وأشعلت مصباح الطاولة، ثم جلست لأستمتع بوهجه الدافئ، وأخذت أقلب شريحة الذاكرة بين يدي. كانت صغيرة جداً ورقيقة، لدرجة أنه كان يمكنني أن أحطمها بكل سهولة، أو أن أسحقها تحت قدمي، أو أن أذيبها بلهب ولاعتي. وللحظة، خيل إلي أنني سأقوم بذلك، لكنني كنت أعرف أن ذلك لن يكون مجدياً، ولهذا وضعتها جانباً، ثم تناولتها مرة أخرى.

أحضرت حاسوبي، ثم شغلته ووضعت الشريحة في المنفذ المخصص لها. كنت أعرف أنه لا يجدر بي أن أشاهد تلك الصور، لكنني لم أتمكن من منع نفسي من ذلك بطريقة ما. فمنذ بضعة أسابيع، كنت أتمنى أن يتحول الأمر إلى مجرد مزحة، أي كنت أتمنى لو أنه قام بتحميل تلك البطاقات البريدية المبتذلة التي كنت أكرهها على ذلك الجهاز، والتي أصبحت الآن أرسلها بصورة اعتيادية حينما أنسى ذكرى ميلاد شخص من معارفي. كنت أشك في أن هذا الملف يشتمل على رسوم متحركة كقرود راقصة مثلاً، بعد أن تم تركيب وجهي على جسم أحد القرود لأغني أغنية ما، ولتظهر في النهاية عبارة: لقد وقعت في الفخ!

لكن ليس بعد الآن، إذ لم أكن أستطيع التمثيل حتى على نفسي.

كانت هنالك العشرات من الملفات؛ بعضها لصور، وبعضها الآخر لمقاطع فيديو. لذا، تأكدت من أن جهازي أصبح على الوضع الصامت، ثم اخترت أحد تلك الملفات بصورة عشوائية.

كان ذلك الملف عبارة عن مقطع فيديو، وكنا فيه على السرير معاً وعاريين، لكن وجهي كان ضمن إطار الصورة، حيث يمكن التعرف علي.

كانت عيناي مغمضتين، أما فمي فقد كان مفتوحاً، وقد بدوت غبية بعض الشيء. استطعت تحمل ذلك المقطع لثانية أو اثنتين، إلا أنني كنت أشعر بنوع من الهلع الذي كان منفصلاً عني، فقد كان كذلك لأنه كان يمكنني وبسهولة أن أصدق أن المرأة التي تظهر على الشاشة لا تمت بأي صلة لي. أما الخوف فقد راودني لأن هذه التصرفات الحميمية للغاية كانت تظهر في ذلك المقطع، وقد تم تسجيلها من دون علمي، كما تم حفظها للأبد.

وهنا غمرني إحساس بالإنهاك. إذ كيف قام بتصوير شيء كهذا؟ وهل قام بوضع حاسوبه الشخصي وتوجيهه نحو زاوية حيث تكون الكاميرا الداخلية موجهة نحو السرير، وحيث لا أتمكن من الانتباه إليها ؟!

لعل الأمر كان أكثر تعقيداً. إذ لعله استخدم كاميرا مخفية على شكل علبة شراب، أو كاميرا وضعت في رأس قلم حبر كروي، إذ إنني أعرف أن هذا النوع من الأقلام كان متوفراً، كما أنني رأيت أقلاماً على تلك الشاكلة من ماركة جون لويس وسيلفريدجيز في المتاجر التي تشتمل على أقسام، وذلك حينما كنت أعاين آلات التصوير. لقد كانت تلك الأقلام مخصصة للاحترافيين والمحققين الخاصين بكل تأكيد، وذلك لأنها تنتمي إلى عالم جيمس بوند حسبما أعتقد الآن.

أخذت أرتعد؛ إذ كانت تلك المقاطع والصور تعود إلى بداية علاقتنا، أي لا بد أنه قام بالتخطيط لكل ذلك طيلة الوقت. وهنا اجتاحتني موجة من الغثيان، فأخذت أتنفس بعمق قدر الإمكان، وذلك لأن أخذ نفس طويل وبطيء لم يكن ليفيدني على الإطلاق. وبعد ذلك أغلقت جهازي، ونزعت الشريحة من المنفذ، ورميت بها إلى إحدى زوايا الغرفة؛ غير أنها ارتدت عن الجدار، وعادت لترتطم بالأرضية عند قدمي.

وقفت، إذ لم يكن بوسعي أن أتركها هنا، حيث تخيلت كونر وهو يلتقطها، ثم يلقي نظرة على محتوياتها، فما الذي سيقوله عندئذ؟! وما الذي سيخطر بباله؟ وهكذا بحثت عنها إلى أن وجدتها، ثم صعدت إلى الطابق العلوي، ووضعتها في درجي، وقلت لنفسي إنني سأخرجها غداً وسأرمي بها في القناة أو تحت

عجلات حافلة ما. كنت بحاجة إلى شراب، لكنني كنت أدرك أنه الشيء الأخير الذي كان علي القيام به؛ إذ حينما أبدأ بالشرب لن يكون بمقدوري أن أكف عن ذلك. ولهذا استحممت عوضاً عن ذلك بمياه ساخنة قدر احتمالي؛ إذ كان جلدي لا يزال يحس بأنه ينبض بالحياة، إلا أنه حينما تكون المياه ساخنة جداً ويصبح جلدي على وشك أن يحترق، عندها فقط لا أحس بأي شيء على الإطلاق.

لم أنم طيلة اليومين التاليين، إذ كنت أتصل بآنا مرات ومرات، لكنها لم تجبني. لقد كنت على حافة الهاوية، لذا كنت أجفل عند سماعي أي صوت، وأسأل نفسي إن كان لوكاس أم لا. كنت أخاف من أي اتصال أو رسالة تردني، ومن كل طرد يصلني عبر البريد. لم أكن واثقة مما كان ينبغي لي فعله، لذا اتصلت بأدريان، إلا أنني لم أستطع أن أخبرها عن مشكلتي، بل اكتفيت بالقول إنني لم أكن بخير، وإن جرثومة قد أصابتني بوعكة، وإنني سأخبرها بما حدث لي خلال الأسبوع المقبل، فأخبرتني بأنها ستكون خارج البلاد لبضعة أيام على أية حال؛ إذ كان بوب سيأخذها معه إلى فلورنسا.

قررت ألا أحضر دعوة الغداء بصحبة آنا في الفندق الذي نزلت فيه بحسب اتفاقنا السابق. فقد يكون هو موجوداً بالطبع، أو قد لا ترغب هي بالتحدث إلي، إلا أنه لم يكن أمامي خيار آخر. وعلى أية حال، قررت أن القطيعة قد تكون أفضل بالفعل؛ إذ يمكنني عندئذ أن أعود إلى حياتي الخاصة، وأن أركز على كونر وهيو.

إلا أنني لم أستطع أن أستقر على قرار؛ فقد كنت أريد أن أغادر البيت، إلا أنني لم أتمكن من التفكير بمكان آخر يمكنني أن آوي إليه. كنت أريد أن أطفئ هاتفي، لكنني لم أجرؤ على ذلك خشية أن يفوتني أي اتصال من آنا. وبحلول يوم الخميس، لاحظ هيو حيرتي، فأخبرني أنه علي أن أخرج، وأن أقوم بشيء يصرف تفكيري عن كيت، حيث قال لي: «لقد قمت فقط بالتراجع خطوة إلى الوراء». إذ كان يعتقد أن الحزن قد عاودني، وكان على حق في ذلك نوعاً ما، إذ كان هناك الحزن الذي يعرفه، إلى جانب الحزن الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً.

ذهبت مع كونر لتناول طعام العشاء خارج المنزل، فاخترت قطعة برغر من

دون خبـز مـع سـلطة، بالرغـم من أنني حيـن ألقيت نظرة على وجبة كونر، بكل ما فيها من جبن ذائب وطبقتي رقائق البطاطا المقلية، عرفت سبب الضيق الذي كنت أشعر به.

كانـت حياتـي تنهـار أمـام عينـي، وكانت علاقتـي الغرامية على وشـك أن تنفضـح فـي أسـوأ الأحـوال المحتملـة، إذاً لِـمَ كان علي أن أهتم بشـكلي وبما كنت أتناوله من طعام؟!

لعل فكرة كيت كانت صائبة، إذ إنها كانت تنصح من حولها بالأكل والشرب والقيام بعلاقة حميمة من دون التفكير بالنتائج.

بعد ذلك عليك أن تنتظر الموت.

مـددت يـدي وأمسـكت بقطعتي بطاطس مقليتيـن من وجبة كونر، فما كان منـه إلا أن رفـع بصـره عـن هاتفه، ثم تغضـن جبينه، وتحول وجهه لتمثيل حالة من السخط. ثم هتف: «ماما!». لكنه كان يضحك وقتها. لقد كانت هذه اللحظة لحظة متعة قصيرة رأيته فيها سعيداً. لذا، أخذت أتساءل إن كانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها سعيداً منذ أن أخبرناه بأنهم ألقوا القبض على قاتل كيت.

اقتربت من هاتفه وقلت: «ما الذي يشغلك؟».

فوضـع هاتفـه علـى الطاولـة، وجعله في متناولي، أمـا واجهته فكانت نحو الأسفل، ثم إنه أخذ يرن مباشرة.

فهتف مبرراً: «إنه الفيسبوك، كما أنني ألعب لعبة شطرنج في الوقت ذاته».

سألته: «مع أبيك؟».

فأجاب: «لا، فهيو لا يحب أن يلعب إلا في الحياة الواقعية».

تساءلت: «هيو؟!». إذ صدمتني هذه الكلمة منه للحظة.

فـرد: «لقـد قـال ليانـه بمقدوري أن أناديه باسـمه إن أحببـت، وأخبرني بأن ذلك لا يهمه».

إلا أن ذلـك أشـعرني بالضيـق، إذ كان كونـر يكبـر، لكنه كان يشـق طريقه بعيداً عنا. وفي الوقت الذي تكون فيه المسـألة الأولى حتمية، إلا أنني كغيري من الآباء والأمهات أتمنى أن أتفادى الثانية؛ ولو لفترة أطول قليلاً على الأقل.

بيد أنه من المريح أنني انزعجت لسـبب كهذا بعد كل الرعب الذي مررت به طيلة الأيام القليلة الماضية، والتي كنت أشعر خلالها بالقلق على مصير آنا،

وبالخوف من الصور التي كان لوكاس يحتفظ بها في حاسوبه. أما هذا الموضوع فقد كان حياتياً وعادياً ويمكن حل مشكلته بسهولة؛ إذ بدا لي طبيعياً، شأنه شأن أي قضية عائلية.

هتفت: «لا تطلب مني أن أسمح لك بمناداتي جوليا فقط». وكنت أريد أن أضيف: فأنا أمك.

رد علي: «حسناً».

فابتسمت، إذ كنت أريد منه أن يعرف أنني متفهمة، وأنني أتذكر أيام المراهقة التي عشتها، وذلك التعطش المتهور للوصول إلى مرحلة الرشد وتحمل المسؤولية. كنت أريد منه أن يعرف أنني جزء من عالمه، وأنني أحبه. رأيته يتناول قضمة كبيرة من شطيرته، كما رأيت العصارة تسيل تحت ذقنه، ورأيته يمسح ذلك بظاهر يده، لذا قدمت له منديلاً؛ إذ لم أستطع أن أمنع نفسي من ذلك، فأخذه مني، لكنه لم يستخدمه. وعندها، أخذت أتناول لقيمات من وجبة السلطة الخاصة بي، وأبحث عن موضوع لنتحدث عنه.

سألته: «كيف حالك مع كرة القدم؟».

رد: «لقد اختاروني ضمن تشكيلة الفريق مرة أخرى، لذا سألعب معهم يوم السبت المقبل».

ثم أمسك عن الكلام هنيهة، وبعد ذلك سألني: «أوه، ألم أخبرك بذلك؟».

وضعت الشوكة على الطاولة؛ إذ بدت لي الضجة في المطعم وكأنها قد ازدادت فجأة، فأخذ كونر ينظر إلي بترقب، وقد ارتفع حاجباه، وأخذت أهز رأسي لأنني لم أكن أعرف ما يجري.

وهنا تناول لقمة أخرى من شطيرته، مع بضع شرائح من البطاطس المقلية.

ثم شرع بالقول: «حسناً...»، فكنت على وشك أن أطلب منه أن يفرغ من مضغ طعامه قبل أن يبدأ بالكلام، غير أن شيئاً ما، كان أقرب إلى الهاجس، منعني من ذلك، فتابع قوله: «أتذكرين حينما ذهبنا لمشاهدة فيلم كوكب القرود؟».

شعرت بالتوتر وقلت: «أمممممم؟».

مد يده ليتناول صلصة المايونيز، وهو يقول: «حسناً، أتذكرين ذلك الشاب المندس؟ ذاك الذي دخل وجلس إلى جانبنا ثم غادر بعد قليل؟».

حاولت أن أبدو أنني كنت أبذل جهداً في تذكر ذلك الشخص، ثم سمعت

نفسي أقول: «أوه، أجل». غير أنني لم أتعرف إلى صوتي وقتها، لأنه بدا مشوهاً وكأنه كان يصل من مسافة بعيدة، ثم أضفت: «لقد نسيت أمره تماماً». كانت ثمة نبرة في صوتي بدت مزيفة حتى لي. ومع ذلك، لم يبد على كونر أنه قد لاحظ ذلك، فأخذت أراقبه بصمت بينما كانت المرارة في داخلي تتصاعد حتى بلغت حلقي، وأنتظر منه أن يواصل كلامه بينما هو يضع المايونيز على طبقه، ثم ينتقل إلى صلصة الكاتشب. وبينما كان يتكلم، أخذ يمزج نوعي الصلصة مع بعضهما ليحصل على مزيج بلون زهري أشبه بالرخام، فطلبت منه أن يعجل بإخباري ما يريد أن يطلعني عليه.

فقال: «لقد رأيت ذلك الرجل مرة أخرى ليلة البارحة. ألا تتذكرين أنني ذهبت للعب البولينغ مع دايلان ومولي والآخرين؟ حسناً، لقد رأيته هناك، عند الزقاق التالي»، ثم تناول حفنة من البطاطس المقلية، وغمسها بالصلصة الزهرية، وبعدها تابع بالقول: «لاحظته أول الأمر لأنه بدا لي بمفرده؛ من دون أي أولاد أو أي شيء آخر كما تعرفين، فاعتقدنا أنه كان ينتظر شخصاً ما، إلا أن أحداً لم يصل لملاقاته. ولهذا وقف هناك، وأخذ يلعب البولينغ بمفرده، ثم غادر. إنه غريب الأطوار، أليس كذلك؟ أعني، من يقوم بذلك؟ لقد ظن مولي أنه ظاهرة سبقت غيرها».

بدأ رأسي بالدوار، ثم ارتفعت حرارتي، وكأن كل الدم الذي كان في جسمي أخذ يندفع نحو رأسي ورقبتي، ثم إلى كامل جسدي بعد لحظة. أما كونر وباقي من كان في المطعم فأخذوا جميعاً ينحسرون، وكأنهم كانوا يختفون داخل نفق.

هتف كونر: «هل أنت بخير يا ماما؟».

تناولت كأس الماء الموجودة أمامي، فكان ملمسها بارداً، ثم رفعتها إلى فمي بحركة آلية قمت بها من دون تفكير، وارتشفت رشفة فانسكب بعض الماء من الكأس المليئة؛ لكنني بالكاد لاحظت ذلك، إذ بدا لي الأمر وكأنني أراقب نفسي من جانب آخر من القاعة.

هتف كونر بإلحاح أكبر: «ماما؟». فبدا لي قلقاً، لكنني لم أستطع القيام بأي شيء لأهدئ من روعه.

أخذ رأسي يدور، وتراءت أمامي صور لوكاس، ففكرت في سري: كان

علي أن أعرف، كان علي أن أحمي ابني، وها قد خذلته كما فعلت مع كيت وآنا. وهنا أجبرت نفسي على العودة إلى الحاضر.

هتفت: «نعم؟». فأدركت حينها أن الماء كان يتساقط من أسفل ذقني، فمسحته، ثم قلت: «أنا بخير، آسفة، تابع...».

فقال: «حسناً، هذا كل ما في الأمر. إذ ظهر ذلك الرجل وأخذ يمارس لعبة البولينغ، ثم...».

انتابتني لحظتها دفقة ذعر أخرى، فسألته: «كيف عرفت أنه هو؟».

فأجاب: «حسناً، ألا تعرفين؟». ثم تناول شريحتي بطاطا مقليتين، فأمسكت بيده وقلت:

«كونر! كيف... هل أنت متأكد؟».

أخذ كونر ينظر إلى يدي التي كانت على ذراعه، ثم رفع بصره لينظر إلى وجهي، وبعدها قال: «أجل يا أمي. لقد تعرفت عليه، فقد كان يعتمر القبعة ذاتها، أتذكرينها؟ تلك القبعة التي تشبه قبعة سائقي الشاحنات؟ كانت تلك الرقعة التقليدية ذاتها...».

لم أكن أفهم ما يتحدث عنه، لذا كان علي أن أبدو محتارة، وبدا أنه كان على وشك وصف تلك القبعة لي، ثم عدل عن رأيه وقال: «على أية حال، كان يضع على رأسه القبعة ذاتها».

سألته: «هل أنت متأكد؟».

أجاب: «نعم!».

سألته: «هل قال لك أي شيء؟».

رد: «ليس تماماً».

بدأ الغضب يحل محل الذعر، إذ كنت غاضبة من نفسي ومن لوكاس ومن كونر، فهتفت: «ليس تماماً؟ وهل هذه الـ(ليس تماماً) تعني نعم أم لا؟ أيهما يا كونر؟ حدد».

كان صوتي قد ارتفع في الشدة والنبرة، لذا بذلت جهدي لأتحكم به من جديد.

قال كونر: «كل ما قاله هو آسف». وبدا لي ساخطاً ومتجهماً، ثم أخذ ينظر إليّ وكأنني قد جننت. كان بوسعي أن أعرف أمنياته من دون أن يخبرني بها. ثم

تابع: «كان قد أراق كأس الشراب التي كانت معه علي، وهذا كل ما في الأمر، كانت مجرد حادثة. على أية حال...»

كان من الواضح أنه يريد تغيير الموضوع، لكنني تجاهلته وسألته: «إذاً، ما الذي قاله لك ذلك الشاب؟».

فتنهد، ثم قال: «لقد قال لي: عفواً يا صاح، وهذا كل ما في الأمر. وبسبب ذلك عرفت أنه كان الشخص ذاته، لأنه خاطبني بالكلمة نفسها في السينما، أقصد كلمة صاح، إذ لم يعد أحد يستخدم هذه الكلمة الآن». ثم أخذ يرتشف من شراب الحليب المخفوق وهو يقول: «هل بإمكانك أن تتركي ذراعي؟».

لم أكن أدرك أنني ما زلت أقبض على ذراعه ، لذا حررته من قبضتي واعتدلت في مكاني، إلا أن الغضب والغيظ كانا يحرقانني من الداخل. ومع ذلك، لم يكن بوسع نار غيظي أن تبارحني أو أن تحرق أي شيء آخر، ولهذا كانت تشتعل في أعماقي بنار السموم. لكنني كنت أسعى جاهدة لتبقى تعابير وجهي محايدة، وقسماتي هادئة، غير أنني فشلت في ذلك لأنني كنت متوترة، ولهذا أخذت أعض على شفتي السفلى.

وهنا خطر ببالي سؤال يحمل بين طياته فكرة بشعة مقززة؛ إذ كنت قد عرفت أن لوكاس كان يتبعني عبر تطبيق جهاز الآيفون، لكن كيف عرف بالمكان الذي سيتواجد فيه ابني؟ وكيف وصل إلى كونر؟

عدلت جلستي نحو الأمام وسألت كونر: «من عرف أنك كنت ذاهباً لتلعب البولينغ؟». قلت ذلك وأنا أحاول أن أبعد الذعر عن صوتي، ثم تابعت بالسؤال: «من الذي أخبرته عن ذلك؟».

فأجابني: «لا أحد. لماذا يا أمي؟».

قلت: «لا تكن سخيفاً!». وكنت أصرخ حينها تقريباً، «لا بد أنك قد أخبرت أحداً ما!».

سألني: «أمي...؟».

فقلت: «مولي ودايلان يعرفان منذ البداية! لكن، من كان معك غيرهما؟».

أخذ ينظر إلي، وكانت تعابير وجهه غريبة، بل ومرعبة، ثم قال: «إن والد دايلان هو من أخذنا».

سألته: «متى؟». فأتى سؤالي فظاً وسريعاً، ثم وضحت السؤال بقولي: «متى

رتبتم لذلك؟ ومن أخبرت بذلك يا كونر؟ من كان يعرف أنك ستذهب إلى هناك؟».

فرد: «يا إلهي يا أمي! بعض الشباب كانوا يعرفون بذلك. أتعرفين؟ لقد دعونا سهيل وروري، لكنهما لم يتمكنا من الذهاب معنا. كما أعتقد أن مولي قد دعا بعض الأشخاص الآخرين، وأظن أن والد دايلان أخبر أمه بذلك، ربما...»

كانت في صوته نبرة جديدة لم أكن قد سمعتها منه من قبل؛ لقد كانت نبرة سخرية، فقلت:

«لا داعي لاتخاذ هذا الموقف...».

لكنه تجاهلني، وتابع: «... ومن المحتمل أنني أخبرت إيفي، وأعتقد أنني قد نشرت ذلك على صفحتي على الفيسبوك، وهكذا وجدت جميع الأشخاص الذين يتبعونني هناك، ثم...».

وهنا قاطعته بسؤالي: «من يتبعك عبر الفيسبوك؟».

فأجاب: «لست أدري. إنهم أصدقائي، وأصدقاء أصدقائي، وهكذا».

عند ذلك، بدأت الصورة تكتمل في ذهني؛ إذ طيلة تلك الفترة كان لوكاس يعرف عني أكثر مما كنت أعتقد أنني سمحت له أن يعرفه، وكنت قد عرفت كيف كان يتعقب مكاني لحظة بلحظة، لكنني لم أكتشف كيف عرف عني بقية التفاصيل؛ مثل أننا كنا نخطط أنا وكونر للذهاب إلى السينما، والفيلم الذي كنا سنشاهده، واسم هيو؛ في الوقت الذي كنت أشير إليه باسم هارفي.

أما الآن فقد أصبحت أعرف: فإذا كان يتتبع منشورات كونر، وكان كونر ينشر كل شيء...

وهنا خطرت ببالي فكرة شنيعة؛ إذ هل يمكن أن تكون هذه هي الطريقة التي اتبعها ليكتشف اسم عائلة بادي أيضاً ومكان سكنه؟ كان بوسعي أن أدرك كيف تم ذلك. إذ يمكن أن يكون كونر قد ذكر اسمي ضيفينا بشكل صريح، واعتماداً على ذلك، وبعملية بحث سريعة حول اسمي ماريا وهيو متبوعين بكلمة جراح، كان من الممكن التوصل إلى الكنية. بعد ذلك، يمكنه بسهولة أن يجد صفحة بادي على الفيسبوك أو اللينكد إن أو أي موقع من المواقع التي يستخدمها.

وهنا هتفت: «أعطني هاتفك».
فشرع يقول: «أمي...» لكنني أسكته بقولي:
«أعطني هاتفك يا كونر الآن».
مرره لي، فطلبت منه أن يفتح قفل الشاشة، وذلك لأفتح صفحته على فيسبوك. وكان بوسعي أن أدرك أنه كان يريد أن يتشاجر معي، وأن يحتج على ذلك، لكنه كان يعرف أنه لم يكن كبيراً بما فيه الكفاية ليقف ضدي. ومع ذلك، رفعت يدي ليعيد إليّ الهاتف، لكنه رماه على الطاولة.

فالتقطته من على الطاولة، ثم بدأت بقراءة تحديثاته الأخيرة على عجل، لكنه كان قد نشر الكثير من الأشياء في معظم الأيام، أي كان أمامي الكثير من المنشورات التي كان يجب علي أن أدقق فيها، كما أنني لم أفهم ما ورد في العديد من منشوراته؛ إذ كانت تشتمل على رسائل لأصدقائه، والنكات الخاصة بهم، وبعض القيل والقال، والمحادثات المتعلقة بكرة القدم أو بالأشياء التي كان يشاهدها على التلفاز.

عدت إلى الماضي، وأخذت أبحث عن المنشورات القديمة خلال تلك السنة حتى وصلت إلى فترة الصيف، فرأيت ما كنت أبحث عنه، إذ قرأت في منشور عبارة: «سأذهب إلى آيسلينغتون فيو مع أمي». فعدت إلى الوراء أكثر، وإلى الرسائل القديمة، فأدركت وأنا أقوم بذلك كم كنت معتادة على قراءة الأمور حسب تسلسلها الزمني العكسي، أي من الأحدث إلى الأقدم. ومن بين بعض الرسائل التي وردت في ما بعد قرأت عبارة: «رحلة عائلية إلى السينما غداً، إلى فيلم كوكب القرود!».

سألت كونر وأنا أعيد له الهاتف: «من هم أصدقاؤك؟ أرني إياهم».

وهنا بدأ يحتج، لكنني قاطعته بقولي: «كونر! أرني إياهم الآن!». فأعاد إلي الهاتف، وعندها اكتشفت أن هنالك مئات الأشخاص الذين يتابعون تحديثاته. بعضهم تعرفت على أسمائهم، لكن معظمهم لم ترد أسماؤهم أمامي. أخذت أمر على الأسماء بسرعة، ثم بعد مرور ثانية رأيت اسمه: ديفيد لارغوس. وبدون سابق إنذار استرجعت أول محادثة لي مع لوكاس، حينما كانت الأمور بسيطة وطيعة. كانت هذه الكنية مطابقة لاسم المستخدم الخاص به وقتها، وعندها بدأت كل آمالي تنهار؛ خاصة تلك الآمال التي كانت تدفعني للتفكير بأنني كنت

مخطئة وبأنني لم أكن على حق.

رفعت الهاتف في وجه كونر وصحت: «من هذا؟ من هو ديفيد لارغوس؟».

فرد: «لست أدري يا أمي». ثم أخذ يرفع صوته ويقول: «إنه مجرد شخص ما، أتفهمين ذلك؟ فهذا ما يجري عادة، أي إنني لا أعرف كل شخص يقوم بمتابعتي، أتفهمين؟».

قمت باختيار اسم المستخدم، فظهرت صورة أمامي. كانت صورة لكلب يعتمر قبعة بيسبول كتبت عليها كلمة: (شاحنات)، ولم تكن هناك أية معلومات أخرى، إلا أنه كان هو.

قلت في سري: لقد وجدتها. إذاً، هذه هي الطريقة التي عرف من خلالها... عرف كل شيء.

كان قد تعرف في البداية على آنا، ثم تعرف عليّ، أما وقد أصبحت الآن أعرف ذلك، فقد دخل كونر في لعبته أيضاً.

قمت بإعادة هاتفه إليه ثم قلت: «احذفه... احذف حسابك الشخصي». كنت أرتجف، لكنه لم يحرك ساكناً.

غير أنه انتفض فجأة وقال: «كلا!». وبدا لي مذعوراً وكأنني قد طلبت منه أن يقوم بشيء غير معقول على الإطلاق. كنت أتمنى لو كان بوسعي أن أخبره عن سبب أهمية ذلك بالنسبة إلي، لكنني لم أستطع. وتمنيت لو كان بوسعي أن أخبره كم أشعر بأنني سخيفة، وكم أغضب حينما أتذكر ذلك الشعور المتواصل بأنني قد تعرضت للإساءة، لكنني لم أفعل.

قلت له: «إنني لا أمزح معك يا كونر؛ إذ عليك أن تحذف حسابك الشخصي». فبدأ يجادلني ويمطرني بوابل من الكلمات مثل: ولكن... لا أستطيع... لا يمكنني... لن أفعل...

فتجاهلت ما قاله وصرخت به «كونر!»، وعندها سادت لحظة هدوء وسكون خاطفة داخل المطعم، وكنت أعرف أنني لو نظرت حولي لرأيت الناس يحدقون بنا. كان هناك شاب وفتاة يجلسان إلى الطاولة المجاورة لطاولتنا، وكان الشاب يرتدي بنطالاً رياضياً، ويضع على رأسه قبعة، أما الفتاة فكانت ترتدي ثوباً قصيراً. وعلى الجانب الآخر، كانت ثمة امرأة مع فتاة خلتها ابنتها، وهناك عربة أطفال تم ركنها بينهما. لذا، لم أكن أرغب بأن أتحول إلى مادة للتسلية

طيلة المساء، لكنني لم أكن أريد منهم أيضاً أن يعرفوا أنني كنت محرجة. لذا، أخفضت صوتي، لكنني ثبتُّ عينيَّ على ابني، ثم هتفت:

«هذه ليست لعبة، وها أنا أخبرك بذلك. لذا احذف حسابك الآن، وإلا سآخذ منك هاتفك، وسأجبرك على العودة لاستخدام هاتفك القديم...».

رد قائلاً: «لن أفعل!».

هتفت: «إذاً راقبني».

فتدلى فكه إلى الأسفل لأنه لم يكن يصدقني، ثم إن الأمر كان خارجاً عن المألوف، ولهذا لم يكن يصدق أنني قد أفكر في شيء كهذا، لذا أخذ يحدق بي وأحدق به.

رفعت يدي ومددتها وأنا أقول:

«أعطني هاتفك يا كونر الآن».

فانتزع هاتفه لكي لا أصل إليه ثم وقف. في البداية، اعتقدت أنه سيعتذر، أو سيجد حجة ما تناسب طبيعتي، لكنه بدا لي هائجاً، أي لن يقوم بالاعتذار بالطبع، لكنه همس لي قائلاً: «عليك اللعنة». وخلال لحظة، استدار وتوجه إلى مكان الخروج تاركاً إياي في حالة صدمة فغرت لها فمي.

وقفت أنا أيضاً، فسقط منديل الطاولة الخاص بي على الأرض، ثم هتفت: «كونر!» بأقوى ما يمكنني، لكنه تجاهلني، فصحت: «عد إلى هنا!». أخذ الناس حولي يحدقون بي، ثم ساد الصمت، فبدأت أفقد السيطرة؛ إذ كان كل شيء أمامي يتراجع وينحسر وكأنني كنت أندفع بسرعة داخل نفق وأحاول العودة منه إلى الواقع، لكنه كان يفلت مني بسرعة كما كنت أفلت منه بسرعة. حاولت أن ألحق بكونر حينما كان قد تجاوز الأشخاص عند الباب وخرج، أجل كان علي أن ألحق به، ولهذا أرغمت نفسي على العودة إلى الواقع.

«سأعود». قلت للنادل الذي بدا وكأنه سبق له أن رأى هذا النوع من التصرفات من قبل، ثم أخذت أجتاز الطاولات بصعوبة، لدرجة أن الأشخاص كانوا يبعدون كراسيهم عن طريقي، ثم يديرون رؤوسهم بعيداً عني، وكأنه كان من الأفضل أن يتفاداني الجميع. لكن، في الوقت الذي أصبحت فيه خارج المطعم، كان كونر قد غادر، فلمحته من بعيد يركض في شارع آبر ستريت بعكس اتجاه طريق البيت. لذا، ومن دون التفكير في الأمر كثيراً، أخذت أطارده.

كان هيو بانتظاري حينما وصلت، لذلك توجه نحو الباب وفتحه لي حينما كنت أتحسس حقيبتي بحثاً عن مفاتيحي بارتباك، ثم رميت بها حالما أخرجتها من الباب، فانحنى هيو وجلبها ثم أعطاني إياها.

سألني: «ما الذي يحدث؟». فخلعت معطفي وسألته:

«أهو هنا؟».

فرد: «نعم».

قلت في سري: لا بد أنه قد عاد مرتين إلى المكان نفسه، أو أتى إلى البيت عبر الشوارع الخلفية.

سألته: «أين هو؟».

رد علي: «في الطابق العلوي. ما الذي يجري يا جوليا؟». وبالرغم من أنه رفع صوته، إلا أنه بدا لي غير مهتاج كما يحاول أن يظهر نفسه.

اندفعت متجاوزة إياه، فقد كنت أتميز من شدة الغيظ؛ إذ كان علي أن أعود إلى المطعم، وأخذ الناس يحدقون بي وأنا أطلب الحساب ثم أدفعه، حيث أمالت امرأة رأسها وأظهرت نصف ابتسامة بطريقة توحي بأنني كنت المقصودة بالتعاطف والتفهم الذي أبدته لي، غير أن ذلك جعلني أرغب في الحقيقة بلطمها على وجهها. وبعد ذلك، غادرت المطعم على عجل، ونسيت الحقيبة التي خبأتها تحت مقعدي، لذا كان علي أن أعود لأجلبها.

قلت لهيو: «لقد جعلني أبدو كبلهاء لعينة».

وهنا حاول أن يقاطعني، لكنني لم أسمح له بذلك، بل صعدت إلى الطابق العلوي، وتوجهت إلى غرفة كونر. إلا أن الشيء الوحيد الذي لم أستطع أن أخفيه عنه هو أنني كنت خائفة وغاضبة؛ إذ قد وصل لوكاس إلى ابني كما وصل إلي، ووصل إلى صديقتي أيضاً. لقد أصبح يلاحقه الآن من دون أن أدري سبب ذلك. لذا، لم يكن أمامي سوى أن أتمنى أن يكون تصرفه هذا لمجرد إخافتي؛ حتى أعرف أن لديه القوة والقدرة على القيام بذلك. لم يكن أمامي سوى أن أتمنى أنه قد حقق غايته الآن، وهذا كل ما في الأمر.

لكن، لعله قد تذوق تلك النكهة، نكهة إرعابي؛ لإثبات أنه يمكنه أن يخترق حياتي إلى أبعد مدى، فأدركت أنه كان علي أن أراه مجدداً؛ لأواجهه بذلك

بطريقة ما، إذ لا يمكنني أن أسمح له بأن ينجو بفعلته.

كنت قد وصلت إلى أعلى الدرج حينما ناداني هيو وهتف: «جوليا! ما الذي يجري بالله عليك؟».

فاستدرت لأواجهه ثم قلت: «ما الذي قاله لك؟».

فرد: «تحدث عن جدال وشجار بسيط حول هاتفه، وربما الإنترنت؟ وأخبرني أنك كنت غير معقولة نهائياً».

أخذت أفكر: بإمكاني أن أخبر هيو... أن أخبره بكل شيء، وعندها لن يكون للوكاس أي سلطان علي.

إلا أن ذلك قد ينهي زواجنا، وقد لا يتمكن كونر من التأقلم مع هذه المشكلة؛ هذا إلى جانب وفاة أمه، وقد أخسره في هذه الحالة أيضاً إن حدث ذلك.

كان علي أن أحميه، فقد وعدت كيت بأن أضعه دوماً في المقدمة، وأخبرتها أنه كل عالمي، وذلك في بداية مرحلة تبنينا له، كما كررت ذلك على مسامعيها مرات ومرات حينما حاولت أن تستعيده مني. لذا، لن يكون خذلانه هذه المرة بمثابة الخيانة الأخيرة، بل الفشل الذريع.

هتفت: «لن يبارح البيت». وكان ذلك بمثابة عقاب له لتركه إياي في المطعم، ولاستعماله موقع فيسبوك لإخبار كل العالم عن حياتي الشخصية، لكنني أدركت عندئذ أن هذا التصرف سيكون بمثابة حماية له أيضاً؛ فإن لم يستطع الخروج، فلن يتمكن لوكاس من الوصول إليه.

أردفت: «إنني أعني ما أقوله».

فجمد هيو في مكانه، ثم هز كتفيه بلا مبالاة، وكأنه يحاول أن يقول لي: كما تريدين. لكنه قال أخيراً: «هل الأمر على هذا القدر من الأهمية؟». غير أن سؤاله هذا زاد من غضبي؛ إذ كان يعتقد أنه يحمي كونر، لكنه لم يكن قد استوعب الفكرة، لذا استدرت لأتوجه إلى غرفة كونر، فقد كان غضبي في ذلك الحين قد بلغ أوجه، وهذا ما جعلني أرتجف. وضمنياً، كنت أدرك أنه من الأفضل لي أن أصب جام غضبي على لوكاس، إلا أن هذا لم يكن بإمكاني؛ غير أنه كان علي أن أنفس عن غضبي بأي طريقة، ولهذا وقفت هناك وأضفت: «وسآخذ منه هاتفه؛ هذا كل ما عندي». وكأنه كان على وشك مجادلتي.

وبالطبع، كان كونر قد أغلق باب غرفته، فطرقت الباب بطريقة اعتيادية، ثم فتحته قبل أن أنهي جملتي التي قلت فيها إنني سأدخل، لكنني لم أكن أتوقع ما سأراه في الغرفة.

فقد كنت أتوقع أن أراه مستلقياً على وجهه وبطنه فوق سريره غير المرتب وهو يضع سماعتي الأذنين، أو مستلقياً على ظهره وهو يعبس ويحدق بالسقف، غير أن ما رأيته فاجأني بالفعل؛ إذ كانت الغرفة غارقة بالفوضى أكثر من عادتها، أما هو فكان يقف عند سريره، ويقوم بتعبئة محتويات خزانة الأدراج الخاصة به بشكل مسعور ضمن حقيبته الرياضية التي كان قد فتحها أمامه.

هتفت: «كونر!». فرفع رأسه ونظر إليّ. كان وجهه متجهماً، لكنه لم ينبس بكلمة، لذا سألته عمّا يظن أنه يفعله.

فأجاب: «تباً، كيف يبدو لك ما أفعله؟».

عنّفته بقولي: «لا تستخدم لغة كهذه معي!». وكنت وقتها أدرك أن هيو قد وصل ووقف إلى جانبي؛ بالرغم من أنه تخلف عني قليلاً. إلا أنني من بدأ هذه المشاحنة ، وأعرف أنه لن ينحاز إلى أي طرف إلى أن يتأكد من الطرف الذي يجب عليه أن يسانده. بقيت الغرفة ساكنة للحظة، لكنها كانت مشحونة بأجواء الغل والعداء.

أخذ كونر يتمتم بشيء ما، فبدا لي ما يقوله شبيهاً بعبارة: «عليك اللعنة»، بالرغم من أن ذلك قد يكون بسبب تخيلاتي التي كانت ترفض أن تمنحه ميزة الشك.

لذا صرخت في وجهه: «ما الذي كنت تقوله لتوك؟». كنت أشعر بقلبي وهو ينبض داخل صدري بسرعة كبيرة، استعداداً لمرحلة النزال.

شرع هيو بالقول: «جوليا...» وكان يقف عند عتبة الباب، لكنني أسكته، حينما صرخت:

«كونر ويلدينغ! توقف عما تقوم به الآن!».

لكنه تجاهلني. لذا، توجهت نحوه، وجذبت الحقيبة عن السرير ورميتها خلفي على الأرض، فرفع يده وكأنه كان على وشك أن يضربني، غير أنني نظرت في عينيه، فرأيت أن لديه الرغبة بذلك، لذا سحبته من معصمه، وللحظة تذكرت

لوكاس وهو يسحبني من معصمي، فقد كنت أرغب بلي معصم ابني بالطريقة ذاتها التي اتبعها معي، كما كنت أود أن أؤلمه بالطريقة ذاتها. إلا أنني شعرت بالخجل من نفسي على الفور، ثم أتاني ذلك الانطباع من بعيد، والذي أشعرني بأنني لم أكن لأفكر بأن أقوم بالشيء ذاته لو كان كونر ابناً حقيقياً لي من لحمي ودمي. فلو كنت من أنجبته، لما خطرت على بالي فكرة إيذائه، حتى بشكل عابر، إلا أنني لم أكن أدري ما الذي سيخطر ببالي حينها. وبأي حال، لم تتسنى لي الفرصة لأكون أماً. وهنا، تمكن كونر من سحب ذراعه من قبضتي، ففاجأني بقوته العضلية.

لكنني صرخت به قائلة: «أنت أيها الفتى الصغير الغبي!». إذ لم أستطع منع نفسي من قول ذلك، وكنت أشعر بهيو يتسمر خلفي، ثم يخطو خطوة إلى الأمام لأنه كان على وشك أن يقول شيئاً. لكنني سبقته وقلت: «إلى أين تظن أنك ذاهب؟ أستهرب؟ في عمرك أنت؟ لا تكن سخيفاً».

وهنا، بدا لي أنني جرحته، لكنني تابعت:

«أتعتقد أنك ستصمد لأكثر من خمس دقائق؟».

فصرخ قائلاً: «سأذهب لأرى إيفي». وكان وجهه على مسافة بضعة سنتيمترات قليلة من وجهي.

كما كان لعابه يسيل على شفتيه.

تساءلت: «إيفي؟». ثم بدأت بالضحك، لكنني ندمت على ذلك فوراً. إلا أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الكلام بطريقة ما، لذا قلت: «أتقصد حبيبتك؟».

فأجاب: «أجل».

هتفت: «حبيبتك التي لا تتكلم معها إلا عبر الإنترنت؟».

وهنا، أحنى كونر رأسه، فتأكدت من أنني كنت على حق.

سمعت صوته وهو يهدر ويقول: «إذاً؟»، وكنت وقتها قد عشت لحظة الانتصار، لكنني بدأت أشعر بالتعاسة المطلقة بعد ذلك.

قلت له: «هل أنت متأكد من أنها الإنسانة ذاتها التي تحدثك عن نفسها؟».

كنت أريد لسؤالي أن يبدو حقيقياً، إلا أنه خرج من فمي كاتهام ساخر.

وهنا سمعت هيو يقول: «جوليا...». ثم خطا خطوة ثانية إلى الأمام، فأصبح بجانبي بالضبط، حيث كان بوسعي أن أحس بحرارته، وبرائحة جسده الخفيفة

بعد يوم عمل قضاه في المكتب، ثم تابع: «كفى...». وبعد ذلك، وضع يده على ذراعي، لكنني أفلت منها.

مرت لحظة صمت طويلة، كان كونر خلالها يحدق بي ونظرة الكره الخالص بادية في عينيه، ثم قال: «تباً! بالطبع هي الإنسانة التي تحدثني عن نفسها!».

فأخذ هيو يقول: «كفّ عن استخدام هذه اللغة». فظننت أنه اختار الفريق الذي سيسانده، لكنه تابع قائلاً: «كفّا عن الشجار واهدآ...».

فتجاهلته وقلت: «هل تحدثت إليها؟ أم أنتما مجرد صديقين على الفيسبوك؟».

كانت نبرة صوتي توحي بالتنازل إلى أبعد الحدود، وكأنني وجدته مثيراً للشفقة، لكنه لم يكن كذلك. ولهذا، كنت أخاطب نفسي بأقوالي تلك، لأنني قمت بذلك بالضبط؛ إذ وقعت في حب شخص عن طريق الإنترنت، لذا كنت غاضبة من نفسي وليس منه.

حاولت أن أهدأ لكنني لم أفلح؛ إذ لم يكن بوسع أي شيء أن يقف في طريق سورة غضبي.

رد كونر: «بالطبع تحدثت إليها، فهي حبيبتي». ثم أخذ يحدق بي مباشرة ويقول: «سواء أأعجبك ذلك أم لم يعجبك يا أمي». ثم أمسك عن الكلام، وكنت أعرف ما سيقوله بعد ذلك، فكان ما توقعته حين قال: «إنها تحبني».

هتفت: «تحبك؟!». وكنت أريد أن أضحك بأعلى صوتي، إلا أنني تمكنت من لجم نفسي، وقلت: «وكأنك...».

فصاح بي هيو بصوت عالٍ: «جوليا!». إذ كانت تلك محاولة منه لحضي على السكوت بطريقة مفاجئة، إلا أنني لم أكن أريد أن أسكت، لذا قلت:

«... وكأنك تعرف ما هو الحب. إنك في الرابعة عشرة يا كونر، في الرابعة عشرة. كم عمرها هي؟».

لكنه لم يجبني، فكررت:

«كم عمرها يا كونر؟».

سألني: «ولم تهتمين بذلك؟».

فتكلم هيو مرة أخرى وقال: «كونر! لقد سألتك أمك سؤالاً».

فالتفت إلى والده، وهنا أخذت أقول في سري: هيا، تابع! أتحداك أن تتابع!

ثم قلت له أمام والده: «عليك اللعنة».

وبالطبع، ما كان ليخبرني عن عمرها، لكنه هتف أخيراً: «ثمانية عشر عاماً». وكان يكذب في ذلك، وكنت أعرف، فأطلقت زفرة تذمر حينها بسبب توتر أعصابي وخوفي، لكنني لم أستطع أن أمنع خروجها.

قلت له: «ثمانية عشر عاماً؟! كلا يا كونر. يستحيل أن تذهب وتراها... هذا مستحيل...».

هتف: «لا يمكنك أن تمنعيني».

كان على حق. فلو صمم على الموضوع ، عندها لن يكون بوسعي أي شيء لأفعله.

سألته: «أين تسكن؟».

فلم يجب.

سألته مرة أخرى: «أين تسكن يا كونر؟».

فبقي صامتاً، وكان بوسعي أن أدرك أنه لن يخبرني، لذا قلت له: «بالنظر إلى حقيبتك، أعتقد أنها لا تسكن في آخر الشارع. إذاً، كيف ستذهب إليها؟ ها؟».

حينها، أدرك كونر أنني قد هزمته، وأنه لا يمكنه أن يعيش من دوني، أي أن الوقت لم يحن بعد لذلك.

هتف: «أريد أن أذهب لأراها!». وهنا رفع صوته فوصل إلى حافة التوسل، وأخذني معه إلى الأيام التي كان فيها صغيراً، حينما كان يطلب المثلجات أو كيساً آخر من السكاكر، وحينما كان يطلب أن يتأخر في الذهاب إلى الفراش ليشاهد بعض البرامج التي تعرض على التلفاز، وهنا سمعته يقول: «كان كل شيء سيئاً طيلة هذا العام! باستثنائها هي! وأنت تعرفين سبب ذلك يا أمي!». كان ذلك بمثابة اتهام رميت به بعنف فجرحني؛ لأن الكلام كان واقعياً، وهو يعرف ذلك. وهنا خطر ببالي أنه لا بد أن يكون قد شاهد القبلة التي تبادلتها مع بادي في نهاية الأمر، وقد احتفظ بذلك الأمر لنفسه، وقد حان الوقت الآن ليخبر أباه بذلك، ولهذا أخذت أهز برأسي؛ إذ كنت أريد منه أن يبكي، وأن يعود ذلك الطفل الذي أعرف كيف أرضيه. لكنه بقي مصمماً؛ إذ كان قد حسم أمره، وهكذا قال لي:

«أكرهك، و وأتمنى لو أنك لم تأخذيني، ولو أنك تركتني أعيش مع أمي الحقيقية!».

وهنا انكسر كل ما كنت أكبحه؛ انكسر أخيراً حينما لطمته على وجهه بقوة وقلت:

«أيها الحقير الصغير الجحود!». وكرهت نفسي حالما خرجت تلك الجملة من فمي، لكن الأوان كان قد فات. كانت عيناه لاذعتين، لكنه كان يبتسم؛ فقد عرف أنه كسب المعركة حينما فقدت أعصابي، فتحول هو إلى شخص راشد، وأصبحت أنا الطفلة.

مددت يدي وقلت: «أعطني هاتفك».

رد: «كلا».

قلت: «كونر! هاتفك!». لكنه لم يتحرك بل قال:

«كلا!».

نظرت إلى الوراء فرأيت هيو، كان رأسي قد مال نحوه كما لو أنني أتوسله. كنت أكره أن أضطر إلى أن أطلب منه أن يتدخل، لكنها معركة لا يمكنني تحمل نتائج خسارتها. وهنا تردد هيو، وطالت لحظة الانتظار، ولم أكن متأكدة إن كان سيقول أو سيفعل شيئاً، لكنه خرج عن صمته أخيراً وقال:

«أعطِ أمك هاتفك يا كونر. كما أنك ستحرم من الخروج لمدة أسبوع».

جلسنا أنا وهيو على الأريكة معاً، لكننا كنا بعيدين عن بعضنا؛ إذ لم يكن جسدانا متماسين. أما كونر فقد جلس بمفرده في الطابق العلوي متجهماً، بعدما سلم هاتفه وأخرج الهاتف القديم من أحد أدراجه، والذي سمحنا له باستخدامه خلال الفترة القادمة. كان ذلك الهاتف لا يقوم بأي اتصال عبر الإنترنت، إذ كان عمله يقتصر على إجراء المكالمات، واستقبال النصوص والصور، وهذا كل ما في الأمر؛ أي لن يتمكن من خلاله من الاتصال بموقع فيسبوك أو تويتر. كنا قد تركنا حاسوبه في غرفته، لكنني قلت له إن عليه أن يحذف كل صديق لا يعرفه في الحياة الواقعية؛ فتذمر، إلا أنني هددته وقلت له إنه إما أن يقوم بذلك أو سأصادر حاسوبه. ولهذا، كان يتصرف وكأننا قد بترنا له عضواً من أعضائه.

شرعت أقول: «إذاً...» فنظر هيو إليّ بما يشبه الشفقة. كان الهدوء يعم

الغرفة؛ بالرغم من صوت الموسيقى التي كان كونر يصر على تشغيلها بصوت عالٍ في الطابق العلوي. وبطريقة غريبة، كان ذلك الإحساس منعشاً؛ إذ اجتمعت مع هيو حول رأي واحد أخيراً.

أخذت أقول: «سينتهي كل شيء، أعدك بذلك».

بدأت أتساءل في سري: هل أخبره؟ هل يمكنني القيام بذلك حتى لو أدى هـذا الأمـر إلـى إنهـاء كل شـيء؛ زواجي... هـذه الحياة التي بنيتهـا.... علاقتي بكونر؟! إذ لا بد أن ينتهي كل ذلك حينها.

إلا أنني بقيت أتخيل تلك اللحظة، حين سأمسـك بيده، وأنظر إلى عينيه، ثم أقول: «هيو، ثمة شـيء يجب أن تعرفه». وسـيدرك حينها بكل تأكيد أن شـيئاً ما قد حدث، وأن الوضع كان سيئاً. ترى، ما هو الشـيء السـيئ الذي سـيفكر فيه؟ هل سـيفكر أنني مريضة؟ أو أنني سـأتركه؟ أو أنني أريد أن أغادر لندن؟ أخذت أتساءل عن أعمق مخاوفه، وإلى أين سيصل به تفكيره، لا بد أنه سيقول لي: «ما الأمر يا حبيبتي؟»، وأخالني حينها سأقول شيئاً عن مدى حبي له؛ ذلك الحب الذي بقي معي دوماً من دون أن يتغير. وعندها سـيطرق برأسـه بانتظار الضربـة، وفـي النهايـة سـأخبره بعد أن أكون قد جهزت الأسـاس المتين لذلك، حيث سأقول له: «لقد التقيت شخصاً، وكانت علاقتنا حميمة، لكنها انتهت الآن، وتبيّـن لـي فـي مـا بعد أنـه كان مرتبطاً بآنا من بين كل النـاس، ولديه صور لي، وهو يحاول الآن أن يبتزني».

مـا الـذي سـيفعله هيـو حينهـا؟ لا بد أننا سنتشـاجر بكل تأكيد، وسـنتبادل الاتهامات، وسيلقي اللوم علي لأنني تناولت الشراب، وحينها سيكون من واجبي أن أدعه ينفجر ويخرج كل ما بداخله، وأن أسمح له بأن يغضب ويتهمني بكل ما يحلو له من اتهامات، وأن أسمح له بكسر الأواني حولي، وأن أبقى صامتة بينما يقوم هو بصب جام غضبه، وسيسمع كونر كل هذا.

بعد ذلك، قد يكون بمقدورنا _ إن كنت محظوظة _ أن نقرر ما سنفعله، وكيف سنبقى معاً، أو سينتهي الأمر عند ذلك كما هو متوقع. لقد خنته، لذا كنت أعرف ما سـيقوله؛ إذ كان سـيقول لي إنه كان يمكنني أن أسـمح له بمسـاعدتي في التأقلم مع وفاة كيت، لكنني هربت منه بدلاً من ذل؛، أولاً إلى باريس، ثم إلى الشراب. وحينما عدت إلى هنا هربت منه والتجأت إلى الإنترنت، ومنه إلى

فراش رجل غريب. لذلك لم يكن لدي أي شك بأنه سيساعدني في ترتيب كل تلك الفوضى التي كنت أعيشها، كما سيساعد آنا، لكن الأمر سينتهي عند ذلك الحد؛ إذ لا بد لعلاقتنا أن تنتهي عندئذ.

بعد ذلك، سيعبر عن رغبته بالاحتفاظ بكونر، وسيعبر كونر عن رغبته بالذهاب معه. أما أنا فلن يكون لي أي حول أو قوة تمكنني من منعهما من القيام بذلك، بل ستنتهي حياتي هناك، وسأفقد كل شيء. ولهذا،كان مجرد التفكير بذلك الأمر شيئاً لم أكن لأحتمله على الإطلاق.

هتفت: «وإيفي هذه».

سألني: «أتعنين حبيبته؟».

فقلت: «أتعرف أنه لم يلتقها مطلقاً؟ ألا يقلقك ذلك يا هيو؟».

رد علي: «لكن هذا ما يفعله الآخرون، أليس كذلك؟».

هتفت: «ماذا؟».

فقال: «لا بد أنك قد سمعت قصصاً كثيرة حول ذلك هذه الأيام». وهنا أخذت أخطو بحذر شديد، إذ هنالك قصة لا يجب أن يعرفها لأنني جزء منها، فقلت له: «سمعت جميع أنواع القصص؛ إذ ثمة قصص رعب أخبرتني عنها أدريان، حول أطفال تم...»

فرد علي: «حسناً، ربما تعرض عليك أدريان القصة بطريقة ميلودرامية في بعض الأحيان، لكن كونر فتى عاقل».

قلت: «ومع ذلك، قد يتعرض للخطر».

وعندها، تخيلت لوكاس جالساً إلى حاسوبه ويتحدث مع ابني.

فقلت لهيو: «ثم إننا لا نعرف حتى إن كانت فتاة أم لا».

فقال لي: «إنك آخر شخص خلت أنه قد يقلق بشأن هذا الموضوع!».

أدركت حينها ما كان يعنيه، لذا قلت: «كلا. فأنا لا أقول عنه إنه غير سويّ». وهنا أخذت أفكر بأنه بوسعي أن أتأقلم مع فكرة كهذه؛ إذ سيكون هذا الأمر في غاية البساطة مقارنة بهذه المشكلة على الأقل، ثم تابعت: «أعني، هل نحن واثقان من أن إيفي هذه هي الفتاة نفسها التي يعتقد كونر أنه يعرفها؟ إذ قد تكون أكبر منه، أو قد تكون رجلاً، أو أي شيء آخر».

أدركت أنني أصبحت أقرب مما كنت أتخيل إلى إخباره بالحقيقة، وأن

الأمر سيكون في غاية السهولة الآن. إذ بوسعي أن أخبره فقط بأنني اعتقدت أنني كنت أعرف الشخصية الحقيقية لذلك الرجل. آسفة يا هيو، ولكن...

ثم سمعت هيو يقول: «حسناً...» وبعد ذلك، أخذ نفساً وقال: «لقد تكلمت معها...»

وعندها، انتابني خليط من المشاعر على الفور؛ إذ شعرت بالراحة أولاً لأن كونر أصبح بأمان، لكنني شعرت بالضيق أيضاً، لأن كونر سمح لهيو بدخول جزء من حياته الشخصية، أما أنا فقد حرمني من ذلك.

سألته: «ماذا؟ متى؟».

فأجاب: «لا أتذكر. لكنها اتصلت في الليلة التي خرجت فيها مع أدريان حسبما أعتقد، وكانت تريد أن تكلم كونر».

قلت: «ثم... ؟».

فرد: «وإن كنت تسألين إن كانت فتاة أم لا،فسأجيبك: نعم، إنها فتاة».

سألته: «كم عمرها؟».

فأجاب: «لست أدري! لم أسألها، لكنها تبدو لي في السابعة عشرة تقريباً، غير أنني لست متأكداً».

سألته: «ما الذي قالته لك؟».

فأخذ يضحك، وحاول أن يبدو وقحاً، ثم قال وهو يحاول أن يؤكد لي: «قالت إنها قد حاولت الاتصال به عبر جواله، لكنه كان يرن فقط، لذا لا بد أنه قد اختار له الوضع الصامت أو شيئاً من هذا القبيل. ثم سألتني إن كان موجوداً، فقلت لها: نعم، فقد كنا في منتصف مباراة في لعبة الشطرنج... ».

هتفت: «أراهن أن ذلك أعجبه».

سألني: «ما الذي تقصدينه؟».

فأخذت أهز كتفي بلا مبالاة؛ إذ لم أكن أريد لهيو أن يعرف أنَ لا أحد من أصدقاء كونر يعرف أنه يلعب الشطرنج مع والده، واكتفيت بالقول: «أكمل. ما الذي حدث بعد ذلك؟».

فرد: «لا شيء. أعطيته الهاتف؛ فقد أخذته له إلى غرفته».

وهنا شعرت بالغضب، لكنني كنت مرتاحة فقلت:

«كان يجب عليك أن تخبرني».

فرد: «لقد كنتِ مشغولة عن الدنيا وقتها، ولم تكن لدينا أي لحظة لنتكلم فيها. إنه يكبر على أية حال، لذا من الضروري أن نسمح له بمساحة من الخصوصية، وخاصة لأنه قد مر بفترة عصيبة جداً. كما يجب أن نفتخر به، وأن نخبره بأننا فخوران به».

أمسكت عن الكلام، فساد الصمت بيننا، وكان من النوع اللزج والدبق، لكنه كان مألوفاً، وغير مريح على الإطلاق.

وأخيراً، كسر هيو الصمت بسؤاله: «ما الخطب يا جوليا؟».

تمنيت لو كان بوسعي إخباره؛ إذ كانت الحياة تلف بي وتدور، وكنت أرى الخطر في كل مكان. أجل، كنت شكاكة ومصابة بالهستيريا.

لكنني لذت بالصمت، ثم سمحت لدمعة بأن تنحدر من عيني.

فصاح: «جوليا؟».

فقلت: «لا شيء... لا شيء... إنني...»

ولم أتابع كلامي، وأخذت أتمنى مرة أخرى لو كان بمقدوري إخباره. ولكن، كيف يمكنني أن أقول له ذلك؟ إذ إن ما حدث كان لأنني حاولت أن آخذ أكثر مما يحق لي، أكثر مما كنت أستحق. لقد كانت أمامي فرصة ثانية، حياة ثانية، لكنها لم تكن كافية بالنسبة إليّ، إذ كنت أريد المزيد.

والآن، إن أخبرت زوجي بما حدث فلا بد أن أخسر ابني.

صعدت إلى الطابق العلوي. كانت ثمة رسالة قد وصلتني عبر هاتفي؛ رسالة كنت أتوقعها بحسب اعتقادي.

كانت الرسالة من لوكاس، لذا قفز قلبي من مكانه؛ بالرغم من أن استجابتي أصبحت وقتها بلا معنى، على طريقة بافلوف؛ إذ اختفت فور تشكل معالمها، ثم تحولت إلى رعب.

أخذت أقول لنفسي: لقد كنت الفائز. حسناً، أنت الفائز بيننا.

كنت أود أن أحذفها من دون أن أقرأها، لكنني لم أستطع القيام بذلك. إذ كنت مضطرة إلى فعل ذلك، بل لا بد لي من قراءتها. وهنا، تعجبت من دقة توقيت لوكاس، وكأنه كان يعرف بالضبط متى أكون سريعة التأثر والحساسية. ولهذا، أخذت أتساءل عما إذا كان كونر قد استرجع صفحته على الفيسبوك

بطريقة ما، وأخذ ينشر عنا معلومات وكأنه يذيعها وينشرها للعالم بأسره!

نقرت على الرسالة.

كانت ثمة خارطة كتب عليها: «وافيني هنا». وكأننا عدنا إلى تلك الأيام الخوالي، باستثناء أنه كانت للرسالة بقية في هذه المرة، حيث قرأت فيها: «غداً عند الظهر».

بت أكره ذلك الرجل، لكنني ألقيت نظرة على الخارطة، فوجدت أنها خارطة لفوكسهول، وهو مكان لا أعرفه جيداً.

لذا كتبت بسرعة:

– كلا، ليس هناك... انسَ الموضوع.

ثم انتظرت فوصلتني رسالة أخرى جاء فيها:

– نعم.

شعرت بالكره؛ إذ لم يكن في قلبي وقتها أي شعور سوى الكره. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تصبح فيها مشاعري نحوه سلبية بشكل كامل وبوضوح، وقد أشعرني ذلك بالحزن؛ بعيداً عن القوة التي منحتني إياها تلك المشاعر لفترة قصيرة.

وبعد مرور دقيقة أخرى ظهرت صورة أمامي. كانت صورة لي حينما كنت راكعة على يدي وركبتي أمامه.

قلت لنفسي: يا له من وغد! ثم قمت بحذفها.

بعد ذلك كتبت له:

– ما الذي تريده مني؟

فأجاب:

– وافيني غداً وستكتشفين ما أريده منك.

ثم سادت لحظات صمت، وبعدها وصلني تعقيب منه جاء فيه:

– لا داعي لكي أذكرك بأن تأتي بمفردك.

الفصل الثامن والعشرون

لم أنم طيلة الليل.

ثـم حـل الصبـاح، وبـدأت عائلتي بتناول طعـام الفطـور، فتذرعت بصداع أصابني، وتركت هيو ليتأكد من أن كونر يستعد للذهاب إلى المدرسة. لم أكن أشعر بأي شيء وقتها، إلا أنني كنت أحس بالخدر من شدة الخوف، كما كنت غير قادرة على التفكير بأي شيء آخر باستثناء ما كنت سأقوم به في ذلك اليوم.

ركبت قطار الأنفاق، وأخذت أفكر بآخر رسـالة أرسـلها لي لوكاس، وأنا أقـول لنفسـي: مـن الـذي يمكنني أن أصطحبه معي بأية حـال؟ وهل يعتقد أنني أعرف شخصاً يمكنني الوثوق به بخصوص هذا الموضوع؟! لم تكن آنا تجيب على اتصالاتـي وقتهـا، ومع أنني كنـت أثق بأدريان، إلا أنها كانت خارج البلاد طيلة ذلك الأسبوع، ولن تعود حتى الأسبوع المقبل. أدركت مرة أخرى كم كان الحزن يغمرني بعدما سلبني كل شيء؛ لدرجة أنني لم أعد أجد مكانه أي شيء سوى الخواء. وهكذا، كان علي أن أواجه لوكاس بمفردي.

خرجت من محطة قطار الأنفاق إلى ضوء النهار الذي كان مشمساً يومها. وكان النـاس منتشـرين فـي كل مـكان؛ فبعضهـم كانوا في طريـق عودتهم لتناول طعـام الغـداء، وثمـة مـن كان يدفـع أمامه عربـة طفله، وهنالك مـن كان يدخن عنـد عتبـات المكتـب، أو خـارج المحطة. أما أمامي، فقد كانت هناك كتل تضم شققاً سكنية أخذت تلمع بلون فضي بعد غشاوة من المطر، ووراءها كان النهر ينساب. أخذت أتبع الخريطة الموجودة في هاتفي، وأسير داخل النفق الذي كان مضاء بأنوار النيون، بينما كانت القطارات تتدحرج فوقي وتندفع نحو الازدحام المـروري وإلـى المزيـد من الضجة. كانت هنالـك أزقة وكتابات على الجدران، وصناديق قمامة في كل مكان، إلا أن المنطقة كانت تتمتع بجمال غريب. كانت خشنة، وكأن لها حوافاً، لكنها كانت واقعية. ولو كانت ظروفي مختلفة، لكنت

قد تمنيت لو كانت آلة التصوير الخاصة بي معي، فلو كانت معي لما كنت سأكترث لأي شيء آخر.

تفقدت هاتفي مرة أخرى، فوجدت أنني وصلت إلى المكان؛ أي إلى زاوية زقاق كينينغتون وشارع غودينغ ستريت. أما مقهى فوكسهول الملكي فقد كان قائماً بذاته، وكان خلفه مرأب للسيارات، فسألت نفسي عمّا إذا كان هذا هو المكان الذي ينوي لوكاس أن يلتقيني فيه، وقررت أنني لا بد أن أرفض إن طلب مني الذهاب إلى هناك؛ لأنه بدا لي مكاناً خطراً للغاية.

أشعلت سيجارة فكانت الثالثة التي أدخنها في ذلك اليوم؛ ممّا يعني بحسب اعتقادي أنني عدت إلى التدخين من جديد. أخذت أسحب الدخان، ثم أستبقيه داخل صدري لأزفره بعد ذلك. لقد كان ذلك الإيقاع يهدئ من روعي، حتى خلال تلك الظروف البائسة. لم أستطع أن أصدق كم كنت مشتاقة إلى التدخين. وبعد ذلك، نظرت إلى ساعة يدي.

قلت لنفسي: لقد تأخرت. إلا أنه تأخر أكثر مني. ولكن، عند تلك اللحظة، شعرت بنظرته تخترقني. وكنت أعرف أنه يقف بعيداً عن ناظريّ، ولكنه يراقبني.

وفجأة، رأيته وهو يقترب مني، ثم أصبح أمامي. كان يرتدي سترة زرقاء مزودة بقلنسوة، ويمشي ببطء ورأسه نحو الأعلى. وعندها، أدركت أنّ يديّ كانتا ترتجفان. ولهذا، ومن دون تفكير، وضعت يدي في جيبي لأتحسس هاتفي وكأنني كنت أتدرب على ذلك. لذا، حينما أصبح بمحاذاتي كنت مستعدة ورابطة الجأش، وهكذا بقينا لفترة طويلة نحدق ببعضنا؛ إلى أن قطع الصمت بقوله:

«مرحباً جوليا». ثم أخذ ينظر إلى ما كنت أرتديه من بنطال جينز، وسترة ملونة، كما كنت أنتعل حذاء خفيفاً من ماركة كونفيرز. أخذت أقول لنفسي إنه يجب علي ألا أبدي أي ردة فعل، وألا أسمح له بإثارة غضبي؛ فقد جئت إلى هذا المكان لأكتشف ما يريده مني بالضبط، ولأوقفه عند حده.

لاحظت العلامة الحمراء على خده، ففتحت فمي لأتحدث، ولكنه اندفع نحوي وأمسك بذراعي، فأخذت أصرخ، وشرعت أقول:

«ما الذي...»، لكنه أسكتني؛ إذ كانت قبضته قوية. ومن ثم قبلني على خدي، فكانت قبلته خشنة وكريهة، لكنها قصيرة. ومع ذلك، استجاب كل جزء في جسدي إلى تلك القبلة بقوة وبشكل تلقائي، ولهذا ابتعدت عنه، فقال:

«كانت تلك من أجل الأيام الخوالي. تعالي».
حاول أن يقودني إلى آخر شارع غودينغ ستريت باتجاه الأقواس الموجودة تحت سكة القطار؛ إذ كان ذلك الشارع يشتمل على محلات لبيع الدراجات، ومخازن، بالإضافة إلى المداخل الخلفية للمقاهي والنوادي الموجودة على جسر ألبرت، لكنني قاومت، وسألته: «ماذا يوجد هناك؟». فكان صوتي حين سألته عالياً وقلقاً، ولهذا أتبعته بسؤال آخر: «إلى أين تأخذني؟».
فأجاب: «إلى مكان هادئ».
أخذت أتخيل أنني وجدت مقتولة بعدما دقّ عنقي، ونزفت حتى الموت، وخرجت أحشائي من مكانها كما يحدث للمرضى الذين يعالجهم هيو. كان علي أن أذكر نفسي مرة أخرى بأنه لم يقتل كيت، وأنه علي ألا أدعه يرى الخوف في عينيّ. وهكذا، مهما فعل من أمور، فإنه لن يقوم بقتلي. ولذلك، صرت أكرر كل تلك الأفكار في سري وكأنها تعويذة.
حررت ذراعي منه، وكان باستطاعتي أن أجري وأدخل المقهى؛ بالرغم من أن نوافذه كانت توحي بأنها محكمة الإغلاق.
سمعته يقول: «اهدئي، فلن أؤذيك».
فهتفت: «ابتعد عني فقط ». وكنت أرتعد خوفاً. أما صوتي فكان متهدجاً، ثم تابعت: «بوسعنا أن نتحدث هنا...».
سألني: «أتريدين مني أن أبتعد عنك؟». وبدا لي مشككاً في ذلك، لكنه أردف: «أنا الذي أريد منك أن تبتعدي عني وعن آنا». بدأت أحتج، لكنه تابع: «إنك من يقوم بإرسال الرسائل لي بلا توقف، ومن يتصل بي ليلاً ونهاراً، مرات ومرات. لذا، كان علي أن أغير رقمي اللعين، فقط لأتخلص منك».
أخذت أحدق به؛ إذ كان كل منا ساكناً، وكأننا علقنا في طريق مسدود، ثم تكلمت وقلت: «كلا... كلا».
فرد علي بقوله: «إذاً، أنت من لا يريد أن يدعني وشأني». ثم أشار إلى خده وقال: «أعني، انظري إلى هذه يا مجنونة... أنت مجنونة».
كان الجرح قد شفي، فقد كان سطحياً، ولا بد أنه سيختفي بسرعة.
وهنا قال لي: «أنت من فعل بي ذلك».
ثم ضحك وأخذ يقول: «هل أنت معتوهة؟ لقد أحضرت السكين معي

لأحمي نفسي، وليس لأطعن نفسي! لم أكن أعرف أنك كنت ستحاولين اختطافها من يدي... ».

هتفت: «كلا... كلا... كلا». ثم تراجعت خطوة إلى الوراء، لكنني تذكرت سبب وجودي في ذلك المكان؛ وهو حماية كونر، فقلت له: «إنك تلاحق ابني!».

هتف: «ماذا؟!».

أجبته: «أتذكر نادي البولينغ... لقد أخبرني كونر بذلك».

فضحك ثم قال: «إن جنونك يفوق توقعاتي! لذا، ابتعدي عني. اتفقنا؟ وإلا...».

سألته: «وإلا ماذا؟».

سألني: «ألم تستنتجي ذلك بعد؟ بوسعي أن أقوم بأي شيء، بأي شيء على الإطلاق... هيو؟ آنا؟ يمكنني أن أدمرهما معاً؛ ما لم تكن هناك طريقة يمكنك بواسطتها إقناعي بأن الأمر لا يستحق مني هذا العناء...».

فقلت له: «أنت مخطئ». وحاولت أن أحافظ على ثبات صوتي، وأن أجعله يعبر عن قوة لم أكن أشعر بها. كنت أريد منه أن يعتقد أنني كنت أقول الصدق، ولهذا قلت: «إنك تعتقد أن ذلك يهمني، لكنني لا أهتم بذلك بتاتاً، فقد بقينا أنا وهيو مع بعضنا فقط من أجل كونر، ولقد أخبرته بكل شيء عنك، فتفهم الموضوع. إذاً...» وهنا أخذت أهز كتفي بعدم مبالاة، ثم تابعت: «إن كل ما تفعله لن يفيدك، وبوسعك أن تري تلك الصور لأي شخص...».

سألني: «أي شخص؟».

فأخذت أهز رأسي إيجاباً.

سألني: «حقاً؟».

أجبت: «نعم».

فسألني: «ما رأيك بكونر؟».

حاولت ألا أنكص على عقبي، لكنني لم أفلح، وقد رأى ما بدر مني، غير أنني قلت له:

«كونر لن يبارح البيت، ولن تتمكن من الاقتراب منه مرة أخرى، سواء أحصل ذلك عن طريق الصدفة أم غير ذلك».

فرد علي بقوله: «أوه، لا تقلقي. فبالنسبة إلي أنا وكونر يمكنني القول إنه

أصبح لدينا تاريخ مشترك، لأننا صديقان في العالم الافتراضي».

عند ذلك شعرت بقشعريرة، وتساءلت: ما الذي يعنيه؟ وهل ثمة شيء آخر لا أعرف عنه شيئاً؟ ومرة أخرى، باغتني الخوف من أن تكون له علاقة بإيفي. لكن، كان علي أن أذكر نفسي بأن هيو قد تكلم معها في الحياة الواقعية، وسمع صوتها، لذا لا يمكن أن تكون لوكاس. أجل، كان علي أن أتذكر ذلك.

قلت له: «إنك لا تخيفني».

فسألني: «ألم تصلك الفكرة؟ أقصد أنت وأنا؟ لقد كان الأمر مسلياً خلال تلك الفترة، أما الآن فكل ما أريده هو ما أستحقه، لذا عليك أن تتراجعي، لأنني أصبحت أستمتع مع امرأة أخرى، ولهذا عليك أن تقلبي الأمر في رأسك الغبي لتدركي أن علاقتنا قد انتهت».

شعرت بالصدمة، لكنني هتفت: «آنا؟ آنا! لقد جعلتها تبدو كشيء، لكنك طلبت منها أن تتزوجك!».

فرد: «هنالك الكثير من أنواع الألعاب المختلفة، تعرفين هذا... ».

كان يبعد عني بضع خطوات، أي على مسافة أطول من ذراع. وبما أن المسافة لم تبدُ لي قريبة جداً، لذا خطوت نحوه، ورفعت صوتي وأنا أقول:

«ما الذي تفعله بآنا؟ إنني أعرف أنك تقوم بذلك من أجل المال؛ ذلك المال الذي تركته شقيقتي. لكن، لمَ تقوم بتوريط آنا؟».

فأسند جسمه وقال: «كيف كان بإمكاني أن أتقرب منك بغير تلك الطريقة؟».

وعندها، تذكرت السبب الذي دفعني للمجيء إلى هنا فقلت:

«إذاً، أنت لا تحبها، ولم تكن تحبها على الإطلاق، أليس كذلك».

كنت دقيقة في صياغة تلك الجملة على شكل سؤال، غير أن الإجابة لم تستغرق منه أكثر من لحظة فقال:

«أنا؟ أحب آنا؟! انظري، إننا نجري بعض الترتيبات الصغيرة اللطيفة، لكنني لا أحبها. أعترف أن القيام بعلاقة حميمة معها أمر رائع، لكن هذا كل ما في الأمر. ثم أتعرفين؟ أحب أن أفكر بك حينما أكون معها».

أخذت نفساً عميقاً، ثم قلت في سري: لقد وصلني الجواب. وابتسمت؛ فقد جاء دوري لأشعر بالارتياح الآن.

قال لي: «بالمناسبة، لا تفكري بالتواصل مع آنا مرة أخرى».

وهنا لم أمنع نفسي من الرد بقولي: «لا يمكنك أن تمنعني».

فقال: «كيف؟». ثم تردد، فقد كان يستمتع بذلك، وبعدها قال: «أتعتقدين أنك ستتناولين معها طعام الغداء غداً؟». ثم أخذت ابتسامته تفتر عندما قال: «أظن أنها لم تخبرك بأنها غيرت موعد رحلتها لأمر عائلي طارئ حسبما أعتقد، أو لأمر يتعلق بعملها، لا أتذكر. أو لعلها باتت تعتقد أنك مجنونة وترغب بالابتعاد عنك قدر الإمكان. وعلى أية حال، لن تتمكني من رؤيتها غداً. كما أعتقد أنها ستغادر الفندق». ثم أخذ ينظر إلى ساعته وهو يقول: «عند الساعة... بل الآن».

وهنا ضاقت عيناي، لأنني كنت أركز على أنه يجب علي أن أشعره بأنه هزمني، وقلت:

«ماذا؟».

فرد: «لقد سمعت ما قلته لك. آنا تعتقد أنك مجنونة، وهي الآن في طريقها إلى بيتها، وسألحق بها خلال بضعة أيام. إذاً، لِمَ لا تعودين إلى البيت؟ أقصد، لِمَ لا تعودين إلى زوجك لتصبحي زوجة صالحة في نظره؟».

لم أبدِ له أية ردة فعل؛ إذ لم يكن بوسعي أن أقوم بذلك لأنني لا أريد منه أن يلاحظ مدى خوفي، بما أنني لم أنتصر عليه بعد، ولن يتحقق ذلك الانتصار قبل أن أتمكن من التحدث إلى آنا. والآن، عليّ أن أشعره بأنني سأنفذ كل ما كان يقوله لي بالضبط، أي سأعود إلى البيت.

أخذت أهز رأسي وأنا أقول: «عليك اللعنة». ثم ابتعدت عنه.

كانت نظراته تخترقني حينما كنت أعود أدراجي، لكنني لم أركض حينها؛ لأنه كان يجب علي أن أبدو غير مهتمة بأمره، ثم إنني لم أكن أجرؤ على القيام بذلك، ولم أكن أريد أن أشعره كم كنت أتمنى ألا يتبعني؛ إذ كان كل شيء يتوقف على تركه لي وشأني؛ لمدة ساعتين لا أكثر. كان كل شيء يتوقف على الوصول إلى آنا قبل أن تستقل القطار. استدرت عند الزاوية، فأصبحت بعيدة عن مجال الرؤية بالنسبة إليه. وبعد ذلك، بدأت أهرول.

توجهت نحو محطة الحافلات التي كانت موجودة في الشارع الرئيس، ونظرت خلفي فلم أجد له أثراً. إذ لِمَ كان سيتسكع هناك بعدما انتصر علي؟

وفي تلك اللحظة، توقفت سيارة أجرة عند الإشارة الضوئية، ولم يكن فيها أحد من الركاب، فهتفت: «محطة سانت بانكراس». ثم ركبت السيارة.

شرعت السائقة بالقول: «حسناً يا حبيبتي». إذ لا بد أنها أحست بأنني كنت على عجلة من أمري، فتابعت بالقول: «إن حركة السير اليوم سيئة للغاية، فمتى موعد القطار الذي ستستقلينه؟».

أخبرتها بأنني لا أعرف لأنني سألتقي شخصاً ماهناك، لكنني قلت لها مرة ثانية: «أسرعي أرجوك». وعندها، تغيّر لون الإشارة الضوئية فانطلقتفوراً، وقالت لي إنها ستبذل ما بوسعها. أخرجت هاتفي من جيبي الذي بقي فيه طيلة ذلك الوقت، إذ كان مسجل المذكرات الصوتية لا يزال يعمل، لذا ضغطت زر: تم، لأنني كنت قد ضغطت زر التسجيل فور لقائي لوكاس. ولحسن حظي، كنت قد تمكنت من تسجيل المحادثة التي جرت بيني وبينه بالكامل.

نظرت إلى الوراء فلم أجد أي أثر للوكاس.

لقد حالفنا الحظ خلال رحلتنا؛ إذ كان الطريق الذي سلكناه عبر لامبيث خالياً تماماً، كما كانت الإشارات الضوئية هناك لصالحنا. أخذت أستمع إلى ما تمكنت من تسجيله، فبدا لي الصوت مخنوقاً، وكأنه قد تم تسجيله من جيب السترة بينما كنا نتحرك. بدا لي بعض ما جاء في التسجيل مقبولاً. ففي بعض المواضع، كان صوتي عالياً، غير أن ردود لوكاس هي ما كنت بحاجة إليه، لكن صوته في التسجيل بالكاد كان مسموعاً، إلا أن جزءاً كبيراً من كلامه كان يمكن الاستعانة به؛ إذ كان بوسعي أن أسمع منه عبارة: «كانت تلك من أجل الأيام الخوالي». بعدما قبلني، كما كان قد رفع صوته أيضاً حين قال: «إن جنونك يفوق توقعاتي». إلا أن ذلك لم يكن كافياً، لأنه لم يكن ما أبحث عنه. أخذت أسرّع التسجيل إلى الأمام؛ على أمل أن أجد أي مقطع يمكن أن يستخدم كدليل لا يقبل الجدل حول ما كان يجب علي إخباره لآنا؛ وهو أنه ليس الشخص الذي تظن أنها تعرفه، وأنها كانت بخطر، وأن علينا أنا وهي أن نساعد بعضنا.

وأخيراً وجدته؛ ذلك القسم الذي كنت أبحث عنه. إذ لحسن الحظ، كنت قد تقدمت نحوه، فأصبح أكثر قرباً مني. ثم إن الخطوة التي قمت بها عندما رفعت صوتي لأشجعه بذلك على رفع صوته قد نجحت.

أعدت التسجيل إلى البداية، ثم أعدت تشغيله مرة ثانية. في البداية، كان

الصوت متقطعاً. وبعد ذلك، كانت هناك فجوة من فراغ، وبعدها سمعت جملة واضحة وهي: «ما الذي تفعله بآنا؟ إنني أعرف أنك تقوم بذلك من أجل المال؛ ذلك المال الذي تركته شقيقتي. لكن، لمَ تقوم بتوريط آنا؟».

وقد كان رد لوكاس واضحاً أيضاً حين قال:

«كيف كان يمكنني أن أتقرب منك بغير تلك الطريقة؟».

بعد ذلك سمعت صوتي، ولا بد أنني كنت قد عدلت وقفتي وأنا أتكلم، ولذلك لم يكن القسم الأول من الجملة واضحاً؛ إذ بدا وكأن شيئاً ما أخذ يحتك بمكبر الصوت الخاص بمسجل الهاتف. ومع ذلك، تمكنت من التعرف على صوتي، إلا أن ما كنت أقوله لم يكن واضحاً مطلقاً، باستثناء جزء من كلمة واحدة وهو: «ها».

ومع ذلك، لم يكن الأمر مهماً؛ لأن إجابته التالية عن سؤالي هي ما كنت بحاجة إليه. وكنت لا أزال أتذكر ما قاله لي، إلا أن التسجيل بمجمله كان بلا معنى إن لم يكن ما ورد فيه مسموعاً.

ولحسن الحظ، كان جوابه واضحاً تماماً، فقمت بإعادته وتشغيله مرة أخرى، فقط لأتأكد من أنه كذلك، حيث كان يقول:

«أنا؟ أحب آنا؟! انظري، إننا نجري بعض الترتيبات الصغيرة اللطيفة، لكنني لا أحبها». أغمضت عينيّ وكأنني قد أحرزت نصراً ساحقاً، ثم أعدت التسجيل إلى بدايته، وأخذت أستمع إليه للمرة الثالثة. وعندها قلت لنفسي: يجب أن يكون هذا التسجيل دليلاً كافياً لإقناع صديقتي، وكل ما أريده الآن هو أن أصل في الوقت المحدد.

وفجأة، جمدت في مكاني؛ إذ خطر ببالي خاطر وكأنه يعبر ذهني للمرة الأولى، وهو أنه لا يحق لي القيام بذلك؛ حيث كان بوسعي أن أترك الموضوع، وأبتعد، وأعود إلى بيتي، وقد طلب مني لوكاس أن أدعهما وشأنهما، فلماذا لم أقم بذلك؟

أخذت أتذكر يديه حينما كانتا فوق جسدي، والأماكن التي كان يأخذني إليها، فسألت نفسي: هل أستطيع ترك أعز صديقة لدى أختي لتواجه ذلك المصير؟ وإلى أي نوع من الأشخاص سأتحول إن فعلت بها ذلك؟

وعندها، عادت بي الذاكرة من حيث لا أدري إلى ما قرأته آنا يوم الجنازة،

حين قالت: «لمن هو ساخط، أقول إنني قد خدعت. أما لمن هو سعيد، فأقول إنني بسلام».

إذاً، لقد كانت تعتقد أنها سعيدة، لكن سعادتها لن تدوم. إذ لا يمكن أن أتركها الآن وأعيش لنفسي وأنا أعرف أنني قد خنتها... لا أستطيع فعل ذلك.

نظرت إلى الوقت، ثم عدلت جلستي على المقعد. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة، لذا كانت حركة المرور بطيئة. لكننا كنا نتحرك بالسيارة على أية حال، وكنا قد أصبحنا فوق النهر واقتربنا من تخوم المدينة. وعندها، أخذت أفكر في سري: لو كنت فقط أعرف موعد قطارها بالضبط، لكان بوسعي أن أعرف إن بقي لدي متسع من الوقت، أو أن فرصتي باتت معدومة.

أخذت أنظر إلى هاتفي، ثم انتقلت إلى صفحة يوروستار، ومن ثم إلى الجدول الزمني، لكن عملية الانتقال كانت بطيئة للغاية؛ إذ كان علي أن أضغط زر التحديث مرتين على الأقل لأصل إلى الصفحة المنشودة. غير أن ذلك جعلني أشعر بأنني أقوم بشيء ما على الأقل. وأخيراً ظهرت الصفحة، فقرأت فيها أن هنالك قطاراً سينطلق بعد الساعة الثانية، لذا كان عليها أن تصل قبل الانطلاق بنصف ساعة على الأقل لتبتاع تذكرتها.

نظرت إلى الأعلى فوجدت أننا قد وصلنا إلى شمال لامبيث، وأن رحلتنا قد استغرقت عشرين دقيقة بحسب اعتقادي، وأنه كان علينا أن نجد مكاناً لنقف، وأنه كان علي أن أدفع أجرة السائقة، ومن ثم علي أن أجد صديقتي. لقد كنت وقتها يائسة وعاجزة، وكنت أريد من السيارات الموجودة في الشوارع أن تتحرك، ومن الإشارة الضوئية أن تغير لونها. أخذت أشتم حينما علقنا خلف سائق دراجة؛ وذلك حينما تقدم شخص نحو ممر المشاة فصار من واجبنا أن نتوقف.

لم أكن متأكدة وقتها بأننا سنصل في الوقت المناسب، ثم كان من الممكن أن يقوم لوكاس بالاتصال بها وإخبارها بأنني كنت في طريقي إليها. إذاً، كان الوضع ميؤوساً منه.

كانت الساعة قد شارفت على الواحدة والنصف حينما توقفنا خارج المحطة، وكنت قد بدأت أشعر بالخدر لأنني كنت على يقين من أنني قد أضعت فرصة لقائها، فدفعت الأجرة للسائقة من مسافة بعيدة، لكنني طلبت منها أن

تحتفظ بالفكة لنفسها، وبعد ذلك بدأت أهرول، فصاحت بي السائقة: «حظاً موفقاً يـا حبيبتـي!». لكنني لـم أرد عليها، ولم ألتفـت حتى إلى الوراء؛ لأنني كنت قد شـرعت في رحلة البحث المسعورة عن آنا. ركضت إلى الداخل نحو البوابات التـي تفضـي إلـى المحطـة، وتجـاوزت محـلات بيع القهـوة ومكاتـب التذاكر، فتذكـرت حينهـا تلـك الأوقات التي كنت خلالها ألتقي لوكاس في هذا المكان. كانت صور تلك المرحلة تباغتني وتأتيني بالألوان. وتذكرت لقاءنا للمرة الثانية، بعدما كان قد كذب علي وأخبرني أنه كان يقيم في لندن. لم أكن وقتها أشعر بأي شيء تجاهه؛ على الأقل مقارنة بالمشاعر التي أصبحت أكنها له بعد ذلك. عدت إلى تلك المرحلة؛ حينما كان الرحيل سـهلاً بصورة نسـبية... عدت إلى تلك المرحلة؛ حينما كنت أخشى أن تكون لديه زوجة، بينما كان هو في الحقيقة على وشك أن يطلب يد امرأة أخرى للزواج.

قلت لنفسـي: إنها ليسـت امرأة أخرى، بل آنا. وعندها، أدركت وقد أخذ الهلع يزداد في قلبي أنني جئت إلى هنا بسرعة لأحاول إنقاذ آنا.

كانت المحطة مزدحمة، لذا لم يكن بوسعي رؤيتها، فتوقفت عن الجري، وتذكـرت تطبيـق: «البحـث عـن الأصدقـاء» الذي كانت آنا تسـميه بهذا الاسـم. كنـا قـد ربطنا حسـابينا ببعضهما، وهكـذا أخذت أفتش عن هاتفي، ثم وقع مني فالتقطتـه مجـدداً، وبعـد ذلك فتحت الخارطة، لكنني لم أجد وقتها سـوى نقطة واحدة تمثل مكان تواجدي.

مما يعني أنها فصلت حسابها عن حسابي لأنها أصبحت تكرهني؛ وهذا ما جعلني على مشـارف اليأس؛ لأنها سـتعود إلى بيتها، وسـأفقد عندها كل شـيء. كان بإمكانـي أن أحـاول الاتصـال بهـا. أجل، لكنها لـم تكـن لترد على الهاتف. وحتى لو ردت فكيف يمكنني إقناعها؟ كان لا بد لي من أن أكون معها، وأن أقف أمامها لأشرح لها.

وفجـأة، رأيـت وميض لون أحمر في الزحام، فعرفت بطريقة ما أن هذا لا بـد أن يكـون معطفهـا. وحينما انفض الحشـد من أمامي أدركت أنني كنت على حق؛ إذ كانت تقف عند البوابة نفسها، وكانت تجر حقيبتها خلفها بإحدى يديها، بينما كانت تضع بطاقتها فوق الماسح الأوتوماتيكي باليد الأخرى، فصحت بها: «آنا». لكنها لم تستطع سماعي، ولهذا لم ترد، فبدأت أجري مرة أخرى، وهكذا

ضاعت كلماتي ضمن أنفاسي اللاهثة، وعلقت داخل الفوضى الصاخبة للمحطة، والتي كانت أصداؤها تتصاعد وتتردد في أرجاء السقف المقنطر. أخذت أصرخ مرة أخرى، وبصوت أعلى هذه المرة: «آنا! مهلاً!». ولكن، حينما رفعت رأسها ورأتني، كان الأوان قد فات؛ إذ كانت البوابات الأوتوماتيكية قد سجلت بطاقتها، ثم انفتحت إحدى البوابات أمامها وعبرت منها.

لكنها قالت لي حينما استدارت لمواجهتي: «جوليا! ما الذي... ؟».

وهنا توقفت عن الجري؛ إذ كانت كل واحدة منا على أحد جانبي البوابات، ولم يكن يفصل بيننا سوى بضع خطوات. كانت هنالك حجرة صغيرة لعناصر الأمن خلفها بالضبط، وخلف تلك الحجرة أقيمت غرف الانتظار والمطاعم الخاصة بالمحطات الدولية. هتفت لها: «لقد التقيت لوكاس». فبدت لي حائرة بضع لحظات، وعندها تذكرت وقلت: «أقصد ريان، لقد رأيت ريان».

فنظرت إلي وقد أمالت رأسها وتدلى فكها نحو الأسفل. لقد كان ذلك مؤسفاً؛ لذا شعرت بالحزن على نفسي. وعندها، أخذت أذكر نفسي بأن لوكاس هو الذي كسب المعركة.

إذ قالت لي آنا: «أعرف، فقد اتصل بي».

قلت لها: «إنهما الشخص نفسه يا آنا، أقسم لك إن ريان هو لوكاس، وإنه كان يكذب عليك».

بدت لي وكأنها لم تعد تحتمل؛ إذ كان هنالك شيء بقيت تكبحه لفترة طويلة، لكنه طفا على السطح الآن وانفجر، فقالت:

«خلتك صديقتي».

أجبتها: «إنني صديقتك فعلاً». غير أن أفكاري انتقلت فوراً إلى الندبة الموجودة على خد لوكاس، والتي بدأت تيبس وتتقشر، وكان بوسعي أن أتخيل ما قاله لها عن ذلك.

فهتفت: «كل ما قاله لك ريان محض كذب». وهنا أخذت أحدق فيها وأقول: «صدقيني...»

فأخذت تهز رأسها وهي تقول: «وداعاً يا جوليا». ثم استدارت لتغادر.

قبضت على الحاجز الفاصل بيننا، وللحظات خِلْتُ أنه بوسعي أن أقفز

فوقـه أو أدفعـه، إلا أن حوارنـا بهـذه الطريقة لفت الأنظار إلينا، حيث أخذ أحد الموظفين هناك يراقبنا، ثم تقدم نحو الأمام وكأنه كان يتوقع حدوث مشكلة.

إلا أن ذلك لـم يحدث؛ لأنني أخذت أنادي آنا: «آنا، عودي. فقط لدقيقة، دعيني أشرح لك!».

فنظرت من فوق كتفها ثم قالت: «الوداع يا جوليا». ثم بدأت تبتعد عني.

هتفت: «كلا! رويدك!».

كان ذلك الشـاب الذي يرتدي بزة رسـمية يقف بالقرب منا، وينقل بصره بيننا، إلا أن آنا لـم تلتفت.

بحثت عن طريقة لأقنعها، لكنني يئست من ذلك؛ إذ كنت بحاجة إلى شيء مـا يثبـت أننـي أعـرف أنه لوكاس، وأنني نمت معـه. وفي تلك اللحظة، تذكرت شيئاً، فهتفت:

«لديه وحمة في ساقه... عند فخذه، في أعلى فخذه».

في البداية، ظننت أنها لـم تسمعني، لكنها بعد ذلك توقفت عن السير، ثم استدارت، وبعدها أخذت تعود أدراجها ببطء نحو الحاجز الذي كان يفصل بيننا.

هتفـت مـرة أخـرى: «وحمة». وأخذت أشير إلى جسـدي وأنـا أقول: «هنا بالضبط».

فـي البدايـة لـم تنطـق بحرف، بل أخذت تهز رأسـها، وبـدت لي مجروحة ومنهارة حين قالت أخيراً: «أيتها... السافلة».

نطقـت الكلمـة الأخيـرة بصوت أقرب إلى الهمـس، فقد أصبحت تكرهني بكل تأكيد، وأنا أصبحت أكره نفسي لأنني اضطررت إلى أن أفعل هذا بها.

هتفت: «آنا! أنا آسفة...».

كانت حينها تقف عند الطرف الآخر للحاجز، ولو حاولت إحدانا أن تمد يدها للامست يد الأخرى. لكنها بدت لي بعيدة كثيراً، وكأنه كان من المستحيل اختراق الحاجز الذي كان يفصل بيننا.

بقينـا صامتتيـن، وكل منـا تحدق بالأخـرى. ولكن بعد مرور هنيهة، خفتت الأصوات بفعل صدمة ما.

نظرت فرأيت الحارس يقف خلف آنا بالضبط.

أخذت كل منا تهز رأسـها، ثم سـمعت أحدهم يقول: «لا. الأمور على ما

يرام». وحينها أدركت أنني كنت أسد الحاجز، ولهذا اصطف رتل ورائي.

سألني الحارس: «هل بإمكانك أن تبتعدي لو سمحت؟». وبدا لي وهو يقول ذلك في غاية الهدوء، إلا أن لباقته كانت تتعارض مع ما كان يجري حولي.

فما كان مني إلا أن مددت يدي وجعلت راحتها إلى الأعلى، وكأنني كنت أعطيه شيئاً ما، ثم هتفت: «آنا، أرجوك». فبدت لي كشيء مجهول، وككائن غريب وخطر. فهتفت مرة أخرى: «آنا؟».

فردت علي بقولها: «لماذا تفعلين هذا؟». وكانت تبكي حينها؛ إذ أخذت الدموع تنهمر فوق وجنتيها وهي تقول: «خلت أننا كنا صديقتين...».

هتفت: «كنا كذلك». وكنت يائسة لكنني مصرة، فتابعت: «وما زلنا». وتمنيت أن تفهمني، وأن تدرك أنني كنت أقوم بذلك لأنني أحبها، وليس من أجل أي شيء آخر. ثم أخرجت هاتفي وقلت: «إنه ليس الشخص الذي تعتقدين أنك تعرفينه. أقصد، إنه ليس ريان، صدقيني».

فردت علي: «لقد حصلت على كل شيء. ولكن، منذ اللحظة التي أخبرتك فيها بأن خطوبتنا قد تمت لم تستطيعي حتى أن تتظاهري بأنك كنت سعيدة من أجلي، ولذلك أشفق عليك، هل تعرفين ذلك؟».

فشرعت أقول: «كلا...»، لكنها قاطعتني وقالت:

«لقد تحملت بما فيه الكفاية». ثم استدارت لمتابعة طريقها، فحاولت أن أمسك بذراعها، وعند ذلك تقدم الرجل الذي كان يراقبنا، وطلب مني مرة ثانية أن أبتعد.

فقلت له: «هلا أمهلتني ثانية من فضلك».

كان علي أن أشرح لآنا الأمر قبل أن تستقل القطار وتمضي عائدة إلى باريس، وعندها سنخسر كل شيء. أو قبل أن تتزوج من ذلك الرجل الذي سيدمر حياتها. وهنا خطر ببالي أنني إذ نجحت في إقناعها فلا بد أن يقوم لوكاس بتنفيذ تهديده، وسيرسل الصور إلى هيو، وبذلك قد أخسر كل شيء مهما حدث.

شعرت بنفسي أهوي نحو الظلمات من جديد، لكنني كنت أعرف أنه لا يمكنني العودة إلى ذلك المكان، إذ إن هذه هي فرصتي الأخيرة للقيام بالشيء الصحيح.

قلت لها: «انتظري دقيقة، يجب أن تسمعي مني شيئاً». وعندها، اختفى من أمامي كل من كان في المحطة، وأصبح بمقدوري التفكير بشيء واحد فقط؛ إذ لم يكن هناك سوى أنا وهي، ولهذا تدفقت الكلمات من فمي بسرعة وقلت لها: «إنه... إنني أعرفه باسم لوكاس... إنه الشخص الذي تعرفت عليه عبر الموقع الإلكتروني الذي أخبرتني عنه... إنه... إنه... لقد وصل إلى كونر وأصبح يتبعه... ويتبعني... إنه معتوه... أقسم لك بذلك».

فهتفت آنا: «أنت كذابة». وأخذت تكررها مرات ومرات وتقول: «أنت كذابة... كذابة».

فقلت لها: «يمكنني أن أثبت لك ذلك». ورفعت هاتفي أمامي وقلت: «استمعي فقط إلى هذه، أرجوك. ثم بعد ذلك...»

وهنا تدخل الحارس وقال: «سيدتي، إنني آمرك بأن تبتعدي عن الطريق فوراً».

ثم وقف بيني وبينها، فتحول يأسي إلى غضب، وعاد العالم من حولي للظهور بسرعة مجنونة، وبدت لي المحطة صاخبة، ولم أعرف إن كان بوسع آنا أن تسمع التسجيل؛ إذ كانت مجموعة من الناس قد تجمعت حولنا على جانبي الحاجز، وأخذ الجميع يحدقون بي وبها، وقد قام رجل من بينهم بإخراج هاتفه وأخذ يلتقط لنا صوراً.

هتفت بها: «أتوسل إليك. إنه أمر في غاية الأهمية». وأخذت أتحسس هاتفي، وأفتح قفل الشاشة، ثم أفتح الملف، وبعد ذلك قلت لها: «أرجوك يا آنا، من أجل كيت».

فأخذت تحدق بي، وهنا ساد الهدوء فجأة. بعد ذلك، طلب مني الحارس مرة أخرى أن أبتعد، إلا أن هذه كانت فرصتي الأخيرة، فقلت له:

«فقط ناولها هذا لو سمحت».

فشرع يقول: «سيدتي...»، غير أن آنا قاطعته حينما مدت يدها وقالت: «سأستمع إلى هذا، لكنني لست أدري ما الذي تريدينه، ومع ذلك سأستمع».

ناولت الرجل الذي كان يقف بيننا هاتفي، فأوصله إلى آنا.

وحينما أمسكت به قلت لها: «اضغطي على زر التشغيل لو سمحت».

فترددت قليلاً، ثم فعلت كما طلبت منها. كانت حينها تقف ورأسها مائل قليلاً نحو الأمام. وقد كان القسم الذي اخترته لها من التسجيل جاهزاً، ويظهر فيه صوتي وصوته كما بدا لي حينما كنت في سيارة الأجرة. إلا أن آنا كانت بعيدة عني، حيث لم يكن بوسعي أن أسمع ما كانت تنصت إليه، لكنني كنت قد حفظت حوارنا عن ظهر قلب: «.... بعض الترتيبات الصغيرة اللطيفة... لكنني لا أحبها». كانت قد سمعت بما فيه الكفاية. وبعد مرور بضع ثوانٍ انتهى التسجيل، وبدا لي أن كل التوتر الذي دام خلال الدقائق القليلة الأخيرة قد وصل إلى حالة الانفجار.

قلت لها: «آسفة».

فنظرت إليّ. كانت منكسرة، وبدت لي منكفئة على ذاتها، وخاوية؛ إذ كانت قد استنزفت كل مشاعرها. ولهذا، تمنيت أن أمد يدي لأواسيها؛ إذ لم أكن أحتمل فكرة قيامي بشيء كهذا، ومن ثم تركها لتمضي في حال سبيلها، لتعود إلى بيتها وحيدة.

تكلمت بعد ذلك وقالت:

«إنني لا أصدقك؛ إذ لا يبدو الصوت كصوته... كان ريان محقاً».

رأيت الشك بادياً على وجهها، إذ لم تكن متيقنة مما كانت تقوله.

فقلت لها: «استمعي إليه مرة أخرى. اسمعي...»

ردت: «إنه ليس هو». إلا أن صوتها كان متهدجاً ومتقطعاً وهي تقول: «لا يمكن أن يكون صوته».

وبالرغم من ذلك، امتدت يدها التي لم تكن تمسك بأي شيء إلى هاتفي، ثم ضغطت على زر التشغيل، وحاولت أن تجعل الصوت أعلى.

فسمعت: «تحب آنا؟... لكنني لا أحبها».

هتفت لها: «أرجوك يا آنا...» إلا أنني أحسست بيد على ذراعي؛ إذ كان أحدهم يجرني من كم سترتي، وهو يحاول أن يسحبني بعيداً عن المكان، فهتفت: «آنا؟».

نظرت نحوي، ثم فترت التعابير التي كانت مرسومة على وجهها، وتوسعت عيناها بفعل الشك والرعب الخالص، فشعرت وكأنني أراقب جميع خططها وهي تذهب أدراج الرياح، وتحلق كالطيور المذعورة من دون أن تخلف أي

شيء وراءها.

قلت لها: «أنا آسفة».

فردت: «يجب علينا أن نتحدث في الموضوع». كانت جملتها تلك هادئة؛ لدرجة أنه بالكاد استطعت أن أسمعها منها. وكان الناس المتجمعون حولنا قد شعروا باختفاء التوتر الذي كان بيننا، فشرعوا بمغادرة المكان، والعودة إلى ما كان يشغلهم بعدما انفجرت فقاعة التمثيلية التي تشكلت أمامهم. عندها، التفتت آنا إلى الموظف الذي كان يقف بيننا وقالت له: «هل بوسعك أن تسمح لي بالعودة؟ أرجوك؟ أريد أن أتحدث إلى صديقتي...».

كان الوقت يمضي بسرعة، لكن العالم من حولنا كان قد توقف، وحبس معه غضبها ويأسي. إلا أن كل شيء قد تحرر الآن، سواء أكان ضجة المحطة؛ بصخبها وأصوات الثرثرة فيها، أو صوت البيانو القديم الذي تم نصبه في المكان الذي تلتقي فيه الأرصفة، والذي كان أحدهم يعزف عليه عزفاً سيئاً؛ إذ كان يكرر الجملة ذاتها مرات ومرات. في تلك اللحظة، أمسكتها من ذراعها فلم تقاوم، ومضينا معاً، وصعدنا بواسطة السلم الكهربائي ونحن نساند بعضنا. كنا صامتتين، لذا اقترحت عليها أن نشرب القهوة، لكنها هزت رأسها بعدم الموافقة، وقالت إنها بحاجة إلى شراب، وقد كنت بحاجة إلى شراب أيضاً، لذا أخذت أقول لنفسي إنه بوسعي أن أتناول الشراب هذه المرة فقط، لكنني بعد ذلك استبعدت الفكرة. أخذت آنا تبحث عن منديل ورقي، ثم ذهبنا إلى أحد المقاهي، وحينها شعرت بالتعاسة، لأن الإحساس بالذنب كان يغمرني؛ فكل ما كان بوسعي أن أفكر فيه هو أنني فعلت ذلك، وانني المذنبة.

جلسنا تحت المظلات، وكان خلفي باب يفضي إلى الفندق، إلى الغرفة التي قمت فيها بعلاقة حميمة مع لوكاس للمرة الأولى. لقد كانت ذكريات علاقتنا منتشرة في كل مكان، ولهذا أبعدت نظري في محاولة مني لتجاهل تلك الذكريات. كانت آنا تتمتم بشيء حول القطار الذي كانت ستستقله، وقالت: «سيفوتني القطار». ثم فسرت الماء بعد الجهد بالماء حينما قالت: «أريد أن أعود إلى البيت».

ناولتها منديلاً ورقياً وأخذت أقول لها: «لا تقلقي، سأساعدك. يمكنك أن

تبقي عندي، أو...»

فردت: «لا. لمَ عليّ أن أقوم بذلك؟».

بـدت لـي غاضبـة، وكأن جميع الأمور قـد اجتمعت عليها أخيراً. لذا، كان الجرح الذي تشعر بتفاقمه قد أصبح من الممكن استيعابه بشكل أسهل، أما أنا فقـد كنـت أريـد أن أفعل شـيئاً؛ أن أقوم بأي حركـة صغيرة حتى لو كانت تافهة وبلا معنى.

قلت لها: «سـأدفع لك ثمن بطاقة القطار القادم. لكن، يا آنا لا بد لك أن تتركي لي المجال للشرح، فأنا لم أكن أريد لأي شيء من هذا أن يحدث...».

بـدت وكأنهـا تتحداني حين قالت: «بوسـعي أن أدفـع ثمن بطاقتي». لكنها بعد ذلك أخذت تنظر إلى حضنها، فخلت أنها تسـأل نفسـها عن السـبب الذي جعلها تعيش هذه الحالة، وعن كيفية سماحها لنفسها بأن تثق بريان، وعن كيفية وثوقهـا بـي أصـلاً. بعـد ذلك أتى النادل، فطلبت بعض الماء وزجاجة شـراب ، فأخـذ يسـألني عـن النـوع الذي نريده، وإن كنا نفضّـل أن نلقي نظرة على قائمة المشـروبات لديهـم، لكننـي قلـت لـه: «أي نوع، حتى إن شـراباً منزلياً سـيكون مناسباً».

رفعت آنا رأسها حالما ابتعد النادل وسألت: «لماذا؟».

فقلـت: «لسـت أدري، صدقينـي، لـم أكن أعـرف مطلقاً... لـم أكن أعرف أن ذلـك الرجـل المدعـو لـوكاس كان يقابلـك، فلـو كنت أعلـم بذلك ما كنت لأحلم...».

عقّبَت على كلامي بقولها: «أتقصدين أنه لم يخبرك بأنه كان مرتبطاً بي؟».

قلـت لهـا مؤكـدة: «كلا، بالطبع لا». إذ كنت أريد منها أن تسـتوعب ذلك؛ لأن هذا كل ما كان يهمني في ذلك الحين.

سألتني: «ألم يخطر ببالك أن تسأليه؟».

أجبتها: «كلا يا آنا، لم أفعل. لكنه كان يرتدي خاتم زواج...».

فقاطعتني مندهشة بقولها:

«خاتم؟!!!».

أجبتها: «نعم. فقد أخبرني بأنه كان متزوجاً، إلا أن زوجته قد توفيت، وهذا كل ما عرفته عنه. إذ كنت أعتقد أنه كان عازباً، ولم... ثم إنني لم أكن لأواعده

لو كنت أعرف أنه مرتبط بامرأة أخرى، وآخر امرأة كنت أتوقع ارتباطه بها هي أنت».

كنت أتساءل إن كان ما قلته صحيحاً؛ حتى وأنا أنطق به. كنت أسأل نفسي: هل كنت أمزح؟! إذ كانت علاقتي بلوكاس قد تطورت بصورة تدريجية، حيث بدأت مع بحثي عن الحقيقة، ثم تطورت إلى حوار عبر الإنترنت، وحينها تحولت إلى ما آلت إليه. فحتى لو كان متزوجاً أو مرتبطاً، ترى عند أي مرحلة كنت سأنهي تلك العلاقة؟ عند أي مرحلة كنت سأقول لا، يكفي أننا وصلنا إلى هذا الحد؟ عند أي مرحلة كان يجب عليّ القيام بذلك؟

ثمة مرحلة قد تصبح عندها مرحلة إضاعة الوقت على الإنترنت مسألة خطيرة. ولكن، من يستطيع أن يحدد متى تأتي تلك المرحلة؟

قلت لها: «أقسم لك بذلك».

فردت علي: «وهل يفترض بي أن أصدق كلامك؟».

عندها، شعرت بخفقة كان مصدرها الغضب أو الكبرياء الجريحة، إلا أن وجهها بقي جامداً.

قلت لها: «لقد تبعني يا آنا. قد لا ترغبين بسماع ذلك، وأنا آسفة لأنني أقول لك ذلك، لكنْ يجب عليك أن تعرفي أنه هو الذي جرى خلفي».

فأخذت ترمش بعينيها ثم قالت: «إنك تكذبين، لأنه لم يفعل شيئاً كهذا».

جاءت كلماتها كلطمة على وجهي لأنها كانت لاذعة، ولهذا كنت أريد أن أقول لها: لِمَ لا؟ لِمَ لم يفعل شيئاً كهذا؟! وتذكرت مرة أخرى طريقته التي جعلتني أشعر بأنني كنت شابة ومرغوبة وبأنني ما زلت على قيد الحياة.

سألتها: «وهل سبب ذلك هو عمري؟».

فتنهدت ثم قالت: «أنا آسفة. لم أكن أقصد ذلك، بل كل ما قصدته...» إلا أن جملتها تلاشت، ثم تدلى رأسها على صدرها، فبدت لي مرهقة وهي تقول: «لم أعد أعرف بماذا أفكر».

هتفت: «آنا...»

فرفعت رأسها، وبدت لي مهزومة، وأنها كانت تبحث عمن يساعدها، وعن مكان تلجأ إليه، لكنها قالت: «أخبريني بما حدث، أريد أن أعرف كل شيء».

وهكذا أخبرتها بكل شيء وبالتفصيل، فبقيت صامتة خلال حديثي الذي

امتد لخمس دقائق، ثم عشرة. وبعدها، أحضر النادل كأس شراب والماء من أجلي، لكنني أبعدت كأس الشراب وواصلت الحديث. كانت هنالك أمور سبق لها أن سمعتها مني، أمور أخرى لم تكن تعرفها. ومع ذلك، كانت هذه أول مرة تعرف فيها أن القصة لم تكن عني وعن رجل غريب، بل عني وعن خطيبها. وقد وجدت صعوبة في ذلك بما فيه الكفاءة؛ إذ لا بد أن يكون ألمها من النوع الذي لا يمكن احتماله، ولهذا كنت أسألها مراراً إن كانت ترغب بأن أتوقف، لكنها كانت تهز رأسها رافضةً، ثم تقول إنها بحاجة إلى سماع كل ذلك. وهكذا، أخبرتها عن أول تقارب قام به لوكاس، وأخبرتها بأن علاقتنا بدأت بالمراسلة التي كانت تتم بصورة منتظمة، وبأنني كنت أعتقد أنه يعيش خارج البلاد؛ في ميلانو، وأنه أخبرني بأنه يسافر كثيراً، وشرحت لها كيف طلب مني أن ألتقيه في الحياة الواقعية. وبما أنني اعتقدت حينها أن هذا اللقاء يمكنه أن يتم لمرة واحدة فقط، ويمكنه أن يرشدني إلى الحقيقة حول ما جرى لأختي، لذا قمت بذلك.

سألتني: «ألم تقوما بعلاقة حميمة؟». وحينها كانت شفتاها قد استقرتا على خط ثابت، لذا ترددت؛ إذ كانت تعرف أننا قمنا بذلك.

لكنني أخذت أهز رأسي إيجاباً، فسألتني:

«وكيف كان ذلك؟».

هتفت: «أرجوك يا آنا... إنني لست واثقة من أنها فكرة صائبة».

ردت: «كلا، أخبريني».

كنت أعرف أنها تريد أن تسمع مني أن العلاقة كانت فاشلة ومخيبة للآمال من تلك الناحية، وأننا لم ننسجم؛ وذلك لأنه كان من الواضح أن قلبه لم يكن ينبض بحب شريكته؛ وهي أنا في هذه الحالة. كانت تريد أن أجعلها تعتقد أن ما كانت تقوم به معه كان شيئاً خاصاً بهما، وأن ما حدث بيني وبينه كان مجرد علاقة عرضية تمت لمرة واحدة لا أكثر.

لم يكن بإمكاني أن أكذب، إلا أنني لم أكن أيضاً أريد أن أجعل حالتها أسوأ مما كانت عليه.

أبعدت نظراتي عنها، فوقعت عيناي عن غير قصد على التمثال المقابل للأرصفة، فهتفت: «لقد كان الوضع... جيداً».

سألتني آنا: «حسناً. إذاً، لم تريه مجدداً بعد تلك المرة، أليس كذلك؟».
كانت سخريتها لاذعة، لأنها كانت تعرف أنني رأيته بعد ذلك، فقلت لها: «لم أكن أنوي أن تتحول علاقتي به إلى قصة غرامية، لم أكن أنوي ذلك مطلقاً».

قالت: «ومع ذلك، هذا ما وصلنا إليه».

فقلت: «نعم، هذا ما وصلنا إليه. لكن، عليك أن تدركي يا آنا أنني لم أكن أعرف أنه كان يعرفك على الإطلاق، وإنني أقسم على ذلك. بمَ أقسم لك كي تصدقيني؟». أخذت أهمس لها وأقول: «أأقسم بحياة كونر؟ صدقيني، إن كان هذا سيرضيك فلا بد أن أفعل».

أخذت تنظر إلى الشراب في الكأس الموضوعة أمامها، ثم عاودت النظر إليّ، وكان يبدو عليها أنها تحاول التوصل إلى قرار، وسألتني: «لماذا يفعل ذلك؟».

قلت: «لست أدري، ربما من أجل المال، ما رأيك؟».

هتفت: «ما الذي تقصدينه؟».

فقلت: «إنه يعرف أن كيت تركت مالاً لك ولكونر. لذا، لعله يطمح إلى وضع يده على حصة كونر وحصتك أنت أيضاً...»

صرخت: «لن يقوم بوضع يده على حصتي!». وبدت لي مصدومة لأنها كانت تشعر بالإهانة، ثم تابعت: «فنحن سنتزوج».

قلت لها: «أنا آسفة، لكنك تعرفين ما أقصده».

سألتني: «وكيف يمكنه أن يضع يده على مالك أنت أيضاً؟».

فأبعدت ناظريّ عنها مرة أخرى وأنا أقول: «لديه صور لنا... صور لي...»

هتفت: «وأنتما تقومان بعلاقة حميمة، أليس كذلك؟». وبدت لي محطمة وهي تقول ذلك، إذ كانت الكلمات تنساب من فمها بقوة.

أخذت أهز رأسي، ثم أخفضت صوتي وأنا أقول: «لقد هددني بأنه سيعرضها للناس، وسيريها لهيو».

وفي تلك اللحظة، بدأت أتخيل وجه هيو وهو جالس إلى مائدة غرفة الطعام وينظر إلى تلك الصور، ويبدو عليه أنه مرتبك، وبعد ذلك تظهر عليه علامات الصدمة، ثم الغضب، فيسألني: «كيف استطعت أن تفعلي ذلك؟ كيف

استطعت؟!».

سألت آنا: «هل سبق له أن سألك عن الأموال التي ذهبت إلى كونر؟». فأخذت أفكر في الابتزاز الذي ما إن يبدأ حتى يصبح من المستحيل إيقافه؛ أي سيطلب المزيد والمزيد والمزيد.

هتفت: «ليس بعد، لكنه قد يفعل».

نظرت آنا إلى الأسفل مرة أخرى، وبدا لي أن عينيها كانتا تفتقدان إلى القدرة على التركيز وقتها. وكانت تهز رأسها ببطء، ثم تتذكر الأشياء وتحللها معاً.

وأخيراً، خرجت عن صمتها وقالت: «في ذلك التسجيل يقول إنه لا يحبني».

مددت يدي فوق الطاولة وأمسكت بيدها، وقلت:

«الذنب ليس ذنبك، تذكري هذا. إذ يمكن أن يكون أي شخص آخر، ومن المحتمل ألا يكون اسمه ريان أو لوكاس؛ لأننا لم نعرف بعد من يكون يا آنا، فلا أنا ولا أنت نعرف شخصيته الحقيقية». ثم أخذت نفساً عميقاً؛ إذ كان ذلك مؤلماً، فقد كنت أحاول مساندتها في الوقت الذي خارت فيه جميع قواي.

ومع ذلك، كان علي القيام بذلك.

فقلت: «آنا». لكنني كرهت نفسي لأنني كنت أريد أن أطرح عليها سؤالاً قد يجرحها، إلا أنني كنت أعرف أنه يجب علي القيام بذلك، فأكملت: «هل سبق له أن آذاكِ؟».

ردت: «آذاني؟! كلا، لماذا؟».

هتفت: «أعني أثناء علاقتكما الحميمة؟».

ردت: «كلا». فكان جوابها سريعاً للغاية، ولهذا سألت نفسي: ترى، هل كانت تخبرني بالحقيقة كاملة؟

قلت لها: «أردت فقط أن أتأكد...»

فبدت لي مرتاعة حين قالت: «يا الله! أما زلت تعتقدين أنه قتل كيت؟».

فأجبتها: «كلا، فقد تيقنت من أنه لم يفعل ذلك؛ إذ لا يمكنه أن...»

هتفت: «أنت مجنونة!». لكنني في الوقت نفسه لمحت الرعب في عينيها، وكأنني كنت أرى ثقتها بخطيبها وهي تتبخر.

وهنا هتفَت: «لقد قتل كيت».

فأجبتها: «كلا، إذ لا يمكنه أن...»

فقاطعتني وقالت:

«كلا، إنك لا تستوعبين». كانت تتكلم بسرعة وكأنها تتعلق بأعقاب أوهامها وخيالاتها، وقد كنت أنا نفسي أقوم بذلك منذ فترة قريبة؛ إذ كنت أحاول أن أجعل سلوكه متناسباً مع نمط يمكنني التعرف عليه. وسمعت آنا تكمل: «يمكن أن يكون قد تعرف عليها عبر الإنترنت، ثم اكتشف أمر المال الذي كانت تمتلكه، وربما حاول التقرب مني فقط ليصل إليها، وبعد ذلك قتلها، ثم...»

هتفت: «لا، لا... إنها مجرد صدفة، إذ كان لوكاس في أستراليا حينما توفيت كيت، وعلى أية حال...»

فردت: «لكننا لا نعرف ذلك! إذ من الممكن أن يكون قد كذب علي وعليك».

هتفتُ: «لقد ألقوا القبض على الرجل الذي قتل كيت، ألا تتذكرين هذا؟».

فبدت لي غير مقتنعة، ولهذا تابعت: «على أية حال، هنالك صور تظهر أنه كان في أستراليا، وهي مؤرخة بالتاريخ الذي قتلت فيه كيت».

سألتني: «وهل في ذلك ما يحسم الأمر؟ أعني، ألا يمكن تغيير تلك الأمور وتحريفها؟».

فلم أجبها، بل تابعت: «أهم شيء الآن هو أنهم ألقوا القبض على القاتل يا آنا. لقد قبضوا على الرجل الذي قتلها».

وأخيراً، بدا لي أنها استوعبت الفكرة، لكنها قالت: «لا أصدق ذلك». ثم صدرت منها آهة بصوت منخفض، لذلك خلت أنها كانت على وشك أن تصرخ، غير أنها قالت:

«كيف استطاع أن يفعل بي ذلك!؟ كيف استطاع؟».

فقلت لها: «سيكون كل شيء على ما يرام، أعدك بذلك».

فردت: «عليّ أن أنهي علاقتنا، أليس كذلك؟». فأخذت أهز برأسي موافقة، لكنها مدت يدها إلى حقيبتها وهي تقول: «سأفعل ذلك الآن...».

قلت لها: «لا، لا. يجب ألا تفعلي هذا الآن. يجب ألا يعرف أنني أخبرتك؛ لأنه هددني إن أخبرتك بأن يُري هيو تلك الصور، لذا علينا أن نتصرف معه بذكاء يا آنا».

سألتني: «كيف؟».

فصمت؛ لأنني كنت أعرف ما أريد منها فعله. إذ كان عليها أن تنتظر لفترة، وأن تمثل على الرجل الذي تناديه باسم ريان بأنها لا تزال مغرمة به. وبعد ذلك، يمكنها أن تنهي علاقتها به بطريقة تبدو وكأنه لا علاقة لي بها نهائياً.

لكن، كيف يمكنني أن أطلب منها القيام بذلك؟ لا أستطيع؛ فالفكرة بحد ذاتها شنيعة. لذا، كان عليها أن تدرك ذلك بنفسها، ولذلك قلت لها:

«لست أدري. لكنك إن أنهيت علاقتك به الآن، فلا بد أنه سيعرف أن لي صلة بالأمر».

بدت لي وكأن الشك قد تمكن منها، وسألتني: «هل تريدين مني أن أستمر في علاقتي معه؟».

أجبت: «ليس تماماً...».

لكنها قاطعتني بالقول: «إذاً، هذا ما تريدينه!».

قلت لها: «كلا يا آنا. كلا... لست أدري...».

وهنا أخذت تنهار؛ إذ اختفت فجأة كل تعابير التحدي التي كانت ظاهرة على وجهها، ليحل محلها إحساس بالمرارة والندم، وهتفَت:

«ماذا يجب علي أن أفعل؟». ثم فتحت عينيها وقالت: «أخبريني! ماذا يجب علي أن أفعل؟».

مددت يدي لأمسك بيدها، فشعرت بالارتياح لأنها لم تصدني. كان الحزن يغمر وجهها، فبدت لي أكبر من عمرها بكثير، وكأنها كانت أقرب إلى عمري بدلاً من عمر كيت.

قلت لها: «الأمر يعود لك».

فردت: «أحتاج إلى التفكير بالموضوع، لذا أعطيني بضعة أيام لأقوم بذلك».

كنت سأعيش خلال تلك الفترة مع حالة الشك والارتياب، لكن ذلك لم يكن شيئاً يذكر مقارنة بما كان عليها أن تقاسيه.

قلت لها: «كنت أتمنى لو لم يحدث ذلك مطلقاً. كنت أتمنى لو حدث بطريقة مختلفة».

ردت: «أعرف ذلك».

جلسنا هنيهة، إذ كنت قد استنزفت كامل طاقتي، وحينما نظرت إلى آنا

اكتشفت أنها كانت مثلي أيضاً. بدت المحطة أقل ازدحاماً؛ بالرغم من أن ذلك قد يكون خيالاً من خيالاتي، إذ لا يمكن للازدحام في وقت الغداء أن يختلف عن أي وقت آخر في مكان مزدحم على الدوام. ومع ذلك، خيم السكون على المكان، فأنهت آنا شرابها، ثم أخبرتي أن عليها أن تغادر، وقالت: «ثمة قطار آخر سينطلق بعد قليل، لذا علي أن أذهب لأبتاع بطاقة».

فوقفنا، وجذبنا كرسيينا لأننا كنا بحاجة إلى ما يسندنا؛ وكأن العالم بأسره قد مال نحو محور جديد. وعندها، سألتها: «هل ترغبين بمساعدتي؟ إنني لا أمانع بدفع...»

ردت: «لا، لا بأس. إنني بخير، ولا ينبغي لك أن تقومي بذلك».

ثم ابتسمت؛ إذ كانت تعرف أنني أحس بالذنب، وأن محاولتي عرض المال عليها كانت لتخليص نفسي من هذا الشعور.

كررت على مسمعيها قولي: «أنا آسفة جداً». إذ كنت بحاجة ماسة إلى معرفة أنني ما زلت أحتفظ بصداقتها. لكنها بقيت ساكنة لفترة طويلة. وبعد ذلك، عبّرت عن مشاعرها العميقة نحوي عندما تعانقنا، فاعتقدت أنها ستبكي مرة ثانية، لكنها لم تفعل.

عندها قلت لها: «سأتصل بك في غضون يوم أو أكثر».

هزت رأسها موافقة، فسألتها: «وستصبحين بخير حينها، أليس كذلك؟». وكنت أدرك كم بدا سؤالي مبتذلاً وبلا معنى، لكنني كنت منهكة، فكل ما أردته هو أن تعرف أنني كنت مهتمة بأمرها.

فهزت رأسها إيجاباً وقالت: «نعم». ثم ابتعدت عني وسألتني: «أستتصلين؟».

فأجبتها: «نعم». وكنت على يقين من أن تلك هي الحقيقة. وعندها، حملت آنا حقيبتها فقلت لها: «اذهبي الآن وسأتصل بك، حظاً طيباً!».

قبلتني مرة ثانية، ثم ومن دون أن تنبس بكلمة استدارت لتغادر. أخذت أراقبها وهي تجتاز المكان الذي تلتقي فيه الأرصفة، وتتوجه نحو الأدراج التي توصلها إلى مكاتب قطع التذاكر، ثم استدارت عند الزاوية فلم أعد أستطيع رؤيتها. وفجأة، شعرت بالوحدة بشكل رهيب.

القسم الخامس

الفصل التاسع والعشرون

إنه يوم الاثنين الذي يتوجب على هيو أن يحضر فيه الاجتماع المخصص لبحث قضيته. وعندها، سيكتشف إن كان البيان الذي قدمه قد أرضى المدير العام والمدير الطبي وفريق الحكم السريري؛ لأنهم إن رضوا بذلك فلا بد أن يدحضوا الادعاء، أما إن لم يرضهم البيان فسيقرون بأنه ارتكب خطأ. وفي تلك الحالة، سيتعاضدون ويتكاتفون ضده؛ لأن كل ما يهمهم هو الحفاظ على سمعة المشفى. أما هيو فسيخضع إلى مجلس تأديبي حسب قوله.

سألته: «لكنك لن تخسر عملك في تلك الحالة، أليس كذلك؟».

فأجاب: «أشك في ذلك. إلا أنهم يقولون إنه احتمال ممكن».

لم يكن بوسعي أن أتخيل ذلك؛ إذ كان عمله كل حياته. وإن خسر عمله فلا بد أن تكون تبعات ذلك كارثية، ولم أكن متأكدة من أنني سأكون قوية بما فيه الكفاية لأتأقلم مع مشكلة كهذه يمكن تصيب عائلتنا؛ خاصة مع كل الأمور التي كانت تحدث في ذلك الحين.

لكن، كان يجب عليّ أن أتحمل، إذ لن يكون هناك أي مفر، ولهذا تشبثت بعبارة: «أشك في ذلك».

أجل، كان يجب عليّ أن أتحلى بالقوة، ولهذا سألته:

«هل أنت على ما يرام؟».

فأخذ نفساً عميقاً ملأ به رئتيه، ثم أمال رأسه إلى الوراء وقال: «أنا بخير، بل يجب أن أكون بخير. يجب أن أذهب إلى قسم العمليات هذا الصباح لأنه يجب عليّ أن أجري عملية لامرأة من المرجح أن تموت في غضون أسابيع إن لم نفعل لها شيئاً. لذا، يجب عليّ أن أجري تلك العملية بذهن صافٍ، مهما كانت الأمور التي ستحدث لاحقاً». وهنا أخذ يهز رأسه، وبدا عليه الغضب، ثم تابع: «إن هذا ما يثير جنوني بالفعل؛ لأنني لم أقم بأي شيء خاطئ، كما تعرفين، إنني فقط نسيت أن أنبههم إلى أن أباهم قد ينسى أين وضع جهاز التحكم الخاص

بالتلفاز، وقد يبقى كذلك لبضعة أسابيع. كلا». ثم أخذ يصحح لنفسه بالقول: «حتى إنني لم أنسَ ذلك، بل نسيت أن أدوّن أنني قد نبهتهم، وهذا ما وصلت إليه الأمور. لقد كنت مشغولاً جداً وقلقاً بشأن العملية بحد ذاتها؛ لدرجة منعتني من كتابة تفاصيل بعض الحوارات التافهة ضمن ملاحظاتي».

فابتسمت ابتسامة حزينة وقلت له: «أنا متأكدة بأن الأمور ستكون بخير. هل ستتصل بي؟».

فأخبرني بأنه سيتصل. إلا أن الهاتف كان قد بدأ بالرنين للتو، ولم يكن هو المتصل.

رفعت السماعة، وبعدما سمعت الصوت قلت:

«آنا؟».

كانت مترددة، وحينما تكلمت بدا عليها أنها منعزلة ومتضايقة.

سألتني: «كيف حالك؟».

فأجبتها: «بخير». لكنني كنت أريد منها أن تخبرني بآخر ما توصلت إليه من قرارات؛ إذ كنت أقنع نفسي طيلة اليومين الماضيين بأنها إما ستعيد النظر في الموضوع، أو لم تصدقني على الإطلاق. ولهذا،كنت أتخيلها وهي تتحدث إلى لوكاس، وتخبره بأنني لحقت بها إلى المحطة، ثم تروي له كل ما أخبرتها به.

غير أنني لم أكن أجرؤ على تصور الخطوة التالية التي كان لوكاس سيتخذها.

سألتها: «كيف تشعرين؟».

لكنها لم ترد مباشرة، وبعد ذلك قالت: «كنت أفكر؛ إذ سيبقى ريان بعيداً عني لأسبوع آخر، فهو لا يزال في لندن. أما أنا فبحاجة إلى أسبوع بعد عودته كي أنهي الموضوع».

وهنا تأكدت مما كانت تعنيه.

فسألتها: «أسبوع لماذا؟».

فقالت: «لكي أنهي الأمر معه، لكنني بحاجة أيضاً إلى إقناعه بأن الأمر ليست له أية علاقة بك على الإطلاق. وقد سبق لي أن أخبرته بأنني لم أرك منذ تلك الليلة في الفندق، وبأننا لم نتواصل مع بعضنا منذ ذلك الحين، كما أخبرته أنني أعتقد أنك أصبحت مجنونة، وأنني أريد أن أقطع أي صلة بك. وحينما يعود سأشغل نفسي بأمور كثيرة، وسأتظاهر بأن لدي ضغطاً في العمل؛

إذ يمكنني أن أتدبر ذلك الأمر لمدة أسبوع حسبما أعتقد».

سألتها: «وبعد ذلك، ماذا ستفعلين؟».

أجابت: «سأنهي العلاقة».

بدت لي متحدية وواثقة من نفسها بشكل مطلق.

ثم سمعتها تقول: «سأحصل على الصور؛ تلك الصور التي التقطها لك، وسأحذفها من حاسوبه. سأجد طريقة للقيام بذلك، إذ لديّ مفتاح شقته، لذا يجب ألا يصعب عليّ أمر كهذا. وحتى لو شك بأمري بعد ذلك، فسيكون الأوان قد فات للقيام بأي شيء».

وهنا أغمضت عينيّ، فقد كنت ممتنة لها للغاية، وشعرت براحة كبيرة؛ إذ يمكن أن تنجح خطتها، بل يجب أن تنجح.

سألتها: «وهل ستكونين بخير بعد ذلك؟».

فتنهدت وقالت: «ليس تماماً. ولكنني أظن أنني كنت أعرف نوعاً ما أن هنالك شيئاً ما يتعلق به، لكنني لم أستطع أن أحدّد ذلك الشيء؛ فقد كان يسافر دوماً، لذا كان علي أن أعرف ذلك من خلال ملاحظة بسيطة».

لم أكن واثقة من أنني كنت أصدقها؛ إذ بدا لي ذلك أشبه بتبرير بعد انكشاف المستور.

لكنها تابعت قائلة: «لعله يمكننا بعد أن ينتهي كل ذلك أن نلتقي، وأن نخرج لتناول الشراب معاً من دون أن نخسر صداقتنا بسبب ذلك».

فقلت لها: «وأنا أرغب بذلك أيضاً. لكن، هل سنبقى على تواصل؟ أقصد خلال الأسبوعين القادمين؟».

فردت: «لن يناسبنا أن يكتشف ريان أننا كنا نتحدث مع بعضنا خلال تلك الفترة، أليس كذلك؟».

أجبت: «نعم».

فقالت: «لكنني سأحاول أن أتصل بك حينما أتمكن من ذلك».

قلت: «حسناً».

فقالت: «عليك أن تثقي بي».

تحدثنا بعد ذلك لمدة دقيقة أو أكثر، وبعدها ودّعنا بعضنا. وقبل أن ننهي المكالمة، اتفقنا على إعادة ربط حسابينا عبر تطبيق البحث عن الأصدقاء. ثم

جلست لبرهة، فأخذت حالة من الارتياح الممزوج بالخوف تجتاحني، فاتصلت بهيو، لكنني لم أكن أعرف سبب اتصالي؛ إذ كنت أريد أن أسمع صوته فحسب، وأن أظهر له أنني سند له، وأنني لم أنسَ ما عليه أن يواجهه في هذا اليوم. ردت عليّ سكرتيرته، وأخبرتني أنه لا يزال في الاجتماع، فقلت لها: «هلّا تطلبين منه أن يتصل بي حينما يخرج من اجتماعه».

فوعدتني بأنها ستفعل. لكن، ومن دون أي سبب تقريباً طلبت أن أتحدث مع ماريا؛ إذ كنت أريد أن أطمئن على وضع بادي بعد أن استعاد عافيته.

أخذت أفكر بالخطوات التي كنت أتبعها؛ إذ كنت قد بدأت بإجراء جردة أخلاقية في تلك الفترة من دون أن أعي ذلك. وهكذا، كنت أجري إصلاحات لعلاقاتي.

وهنا جاءني صوت السكرتيرة التي قالت: «إنها لا تداوم اليوم». فسألتها إن كانت في إجازة، فردت: «لا، لكنها تعاني من بعض المشاكل في البيت». ثم أخفضت صوتها وهي تقول: «يبدو أنها منزعجة للغاية».

أعدت السماعة إلى مكانها، لكنني لم أكن مرتاحة؛ إذ كان هيو يقول لي دوماً إنه يمكن الاعتماد على ماريا؛ نظراً إلى كونها لا تسمح للمرض بأن يمنعها عن الذهاب إلى المشفى، كما أنه لم يكن من عادتها أن تصل متأخرة. إلا أنه لم يكن بوسعي أن أتخيل ما كان يحدث. إذ هل كانت تعاني من مرض ما؟ أم أن بادي هو السبب؟ ولعلهم أهلها؟ غير أن أبويها ليسا كبيرين في السن. لكنني لم أستبعد أي شيء، إذ كان علي أن أعرف ذلك كأي شخص آخر.

كنت قد أوشكت على الاتصال بها في البيت قبل أن أعدل عن الفكرة؛ إذ لدي الكثير من الأمور التي تجري من حولي، فما الذي بوسعي أن أقوله لها حينها؟ وخاصة أننا لم نكن صديقتين، وأنني لم أرها منذ زيارتنا لبادي التي مضت عليها عدة أسابيع. كما أن هيو لم يعد يدعوهما لزيارتنا، أو لعله فعل لكنهما لم يلبيا الدعوة. أخذت أتساءل إن كان ذلك قرار بادي؛ فإن كان كذلك فما هي الأعذار التي يمكن أن يكون قد قدمها لزوجته؟

أمضيت فترة ما بعد الظهيرة وأنا أعمل، ثم عاد كونر إلى البيت وصعد إلى الطابق العلوي، وتذرّع بأنه يريد أن يكتب وظائفه، ولكنني لم أصدقه؛ لأنني كنت أشك في أنه يمضي عادة ساعات على الإنترنت مع أصدقائه كدايلان، هذا إلى

جانب الوقت الذي كان يمضيه في التحدث إلى حبيبته عبر الإنترنت. كما أنه أصبح في تلك الفترة يبدي نوعاً من البرودة في التعامل معي؛ وذلك في كل مرة أصعد فيها إليه لأتأكد إن كان يريد شراباً، أو لأحاول إقناعه بالنزول وتناول طعام العشاء معنا، أو للقيام بأي نوع من التواصل معه. فقد كان لا يزال مغتاظاً من حبسه في البيت حسبما أظن، بالرغم من أن ذلك لم يكن ليستغرق أكثر من أسبوع، إلا أن ذلك الأسبوع بدا وكأنه بحاجة إلى وقت أطول حتى ينقضي.

ولكن، ربما كانت تصرفاته تلك بسبب شيء آخر؛ إذ كان لا يزال مستاءً لأن عملية القبض على الرجل الذي قتل كيت لم تشعره بالارتياح الذي كان يأمل بالوصول إليه، لذا أخذ يصرف تفكيره في اتجاه آخر، إذ سألني في أحد الأيام: «هل تعرفين من هو والدي الحقيقي؟». وحينما أجبته بلا، قال: «هل كنت ستخبرينني بذلك لو كنت تعرفين؟». فبدا لي كما لو أنه يقول: بالطبع لن تخبريني بذلك. لكنني حاولت أن أهدئ من سخطه وقلت: «أجل، بالتأكيد سأفعل. لكنني لا أعرفه».

كنت أريد أن أقول له إن ذلك لن يغير شيئاً. كنت أريد أن أقول له: لا بد أن والدك _ أياً كان _ كان شاباً صغيراً، ولهذا تخلى عن والدتك؛ بل لم يكن يعرف أنها حملت على الأرجح. ولهذا قلت له عوضاً عن ذلك: «نحن عائلتك يا كونر». لكنه اكتفى بمجرد النظر إلي، وكأن ذلك لم يكن كافياً.

كان ذلك مزعجاً، لكنني قلت لنفسي إنه أمر طبيعي. فهو لا يزال مراهقاً، وكان يكبر بعيداً عني. وقبل أن أدرك ذلك، لا بد أنه سيخضع لامتحانات الشهادة، ثم سيترك البيت، وحينها سنبقى أنا وأبوه بمفردنا. ومن يدري إن كان سيعود إلى البيت لرؤيتنا أم لا؟ إن جميع الأبناء يمرون بمرحلة يكرهون خلالها آباءهم وأمهاتهم. لكنني سمعت أن الأبناء بالتبني يجدون أمر الانفصال عن عائلاتهم أسهل بكثير من غيرهم، وأحياناً تكون القطيعة دائمة.

لم أكن واثقة إن كان بمقدوري التأقلم مع ذلك أيضاً، لكنني كنت واثقة من أن ذلك لا بد له أن يودي بحياتي.

كنت في المطبخ عندما وصل هيو إلى البيت، فقبلني، ثم توجه مباشرة إلى الثلاجة وأخرج شراباً. كان الغضب بادياً عليه، فسألته: «كيف جرت الأمور؟».

فرد: «سيعرضون عليهم تسوية خارج المحكمة».
سألته: «هل يعتقدون أن العائلة ستقبل بذلك؟».
انتظرته حتى أفرغ كأسه وصب لنفسه المزيد، ثم قال: «أتمنى ذلك. لأنني سأتدمر إذا عرضت القضية على المحكمة».
هتفت: «ماذا؟».
فقال: «إنني بنظرهم على الأقل مخطئ، وخطئي واضح. وإذا عرضت القضية على المحكمة، فسنكون في الجانب الخاسر، وبذلك يمكنهم أن يجعلوا مني كبش الفداء لغيري من الأطباء».
هتفت: «آه يا حبيبي».
قال لي: «علي ابتداء من الأسبوع المقبل أن أخضع لدورة». وابتسم حينها بمرارة، ثم أردف:
«دورة في كيفية الاحتفاظ بالسجلات. إذ عليّ أن ألغي الجراحة من قاموسي، وأن أذهب لأتعلم كيف أكتب مجموعة من الملاحظات السخيفة».
جلست قبالته، وكان بوسعي أن أرى مدى الجرح الذي كان يعاني منه. لم يكن الوضع منصفاً بعد كل ذلك. فبالمحصّلة، لم يؤدِّ ذلك إلى وفاة أي شخص، أي إن الأمر لا يشبه قطعاً ارتكابه أي خطأ أثناء قيامه بالجراحة.
حاولت أن أبدو متفائلة فقلت: «أنا على يقين من أن الأمور ستكون على ما يرام».
فتنهد ثم قال: «بطريقة أو بأخرى. ثم إن ماريا الحقيرة لم تداوم اليوم».
هتفت: «أعرف هذا».
سألني مستغرباً: «وكيف عرفتِ؟».
فأجبته: «لقد اتصلت، فأخبروني بأنها لم تكن موجودة. لكن، ما الذي حدث؟».
وعندها، أخرج هاتفه وأخذ يتصل وهو يقول: «ليست لدي أية فكرة. لكنني آمل أن تكون قد رتبت أمورها لتداوم في الغد». ثم وضع الهاتف على أذنه، وبعد عدة رنات أجابت ماريا وقالت مرحباً بصوت واهن، فقال لها هيو: «أهذه أنت يا ماريا؟ اسمعي...» ثم نظر إلي، وبعد ذلك وقف وهو يقول: «كيف حال أمورك؟».

لم أسمع جوابها، لأنه كان قد استدار وأخذ يمشي خارج الغرفة؛ إذ كان يركز انتباهه بشكل كامل على زميلته. ولهذا، عدت لمتابعة تحضير وجبة الغداء؛ فقد كان لدي هيو وكونر وآنا لأقلق عليهم، ولأتمنى لهم أن يصبح كل شيء على ما يرام.

بعد مضي يومين على ذلك اتصل بادي، فكانت تلك أول مرة أسمع فيها صوته بعد عدة أسابيع، وبدا لي مختلفاً نوعاً ما، ولهذا سألته إن كان شيء ما قد حدث لماريا. لكنه نفى ذلك، وزعم أنها بخير، ثم قال لي: «اعتقدت أنك قد ترغبين بأن نلتقي على الغداء أو أي شيء من هذا القبيل».

ولكن، هل كان هذا كل شيء؟ أم تراه يرغب بمحاولة أخرى لإغوائي؟

قلت له: «أفضل ألا نلتقي...»

لكنه قاطعني بقوله: «أرجوك، لنشرب القهوة فقط، فأنا أريد أن أتحدث إليك».

بدا لي من كلامه أن في الأمر شيئاً ينذر بالسوء؛ إذ إن دعوته لم تأت هكذا بشكل عرضي قطعاً، فكيف يمكنني بعد ذلك أن أرفض؟

هتفت: «حسناً».

* * *

أخبرت هيو بكل ذلك في المساء، فتساءل بقوله: «بادي؟!». أخذت أهز رأسي إيجاباً، فسألني: «ولكن، ما السبب الذي يريد أن يراك من أجله؟».

أخبرته بأنني لا أعرف، ثم سألته عن سبب تساؤله؛ إذ كنا أنا وبادي صديقين، ولهذا يجب ألا يتفاجأ هيو من طلب كهذا.

فأخذ يهز كتفيه بلا مبالاة، لكنه بدا لي قلقاً حين قال: «إنه مجرد سؤال».

حينها، خطر ببالي أن كونر قد رأى شيئاً في ذلك اليوم، ولعله أخبر والده بما رآه، لكن هيو قرر ألا يخوض في الموضوع طالما أن الأمور لم تتطور.

أو لعله كان قلقاً من فكرة ذهابنا إلى مقهى، وحينها لا بد أن بادي سيحاول إقناعي بتناول الشراب.

ولذلك قلت لهيو: «لا شيء بيني وبين بادي رينوف. وكل ما في الأمر هو أننا سنخرج لشرب القهوة، القهوة فقط، أعدك بذلك».

فقال: «حسناً». لكن لم يبدُ عليه أنه قد اقتنع بذلك.

رتبنا لموعد في مقهى ستاربكس في المدينة. كان الجو يومها بارداً وماطراً، لذا تأخر بادي في المجيء، وكنت أتناول شرابي حينما وصل. كانت آخر مرة رأيت فيها بادي حينما زرناه بعدما ملأت الرضوض جسمه، وانتفخ وجهه. لكن، مضت على ذلك عدة أسابيع، ولهذا كان يبدو عليه أنه قد عاد إلى وضعه الطبيعي.

تبادلنا القبل بطريقة خرقاء قبل أن نجلس. كانت مجرد قبلة من صديق، أي لم تكن أكثر من لثمة على كل خد. لكنني بدأت أفكر بتلك المرة التي تبادلنا فيها القبل في بيت كارلا الصيفي، وكيف أن الأمور كانت مختلفة عما هي عليه الآن. وعندها، خطر ببالي أنه كان من الأفضل لي أنا أنام مع بادي بدلاً من لوكاس؛ إلا أن الوضع قد يصبح أسوأ مما هو عليه الآن بالنتيجة. لكن، كيف توصلت إلى ذلك؟

بادرني بادي بالسؤال: «كيف حالك؟».

فأخذت رشفة من شرابي ثم قلت: «إنني بخير». كانت الأجواء ثقيلة ومحرجة، ولم أكن أعرف ما الذي ينبغي لي أن أتوقعه بالضبط؛ إلا أن الأمر لم يكن يسير بذلك الاتجاه، إذ كان من الواضح أنه أتى بي إلى هنا لسبب، وأن لديه شيئاً يريد أن يخبرني عنه.

سألته: «هل كل شيء على ما يرام؟».

فقال: «أردت فقط أن أقول لك إنني آسف». فكان اعتذاره مني مفاجئاً لي.

أخذت أنظر إلى الشراب الذي كنت أتناوله، والذي كان عبارة عن كوب من الشوكولاته الساخنة مع الكريمة المخفوقة التي كانت تطفو وتدور على السطح.

سألته: «آسف على ماذا؟».

فأجاب: «على ما حدث خلال الصيف، في حفلة كارلا، ثم بعد ذلك...»

فقاطعته بقولي: «انسَ الموضوع». لكنه تابع حديثه قائلاً:

«... ثم إنني لم أتصل بك بعد ذلك طيلة فترة الصيف، إذ كنت أريد أن أعتذر منك، لأنني شربت يومها كثيراً، لكن ذلك ليس بعذر، وأعتقد أنني كنت محرجاً وقتها».

نظرت إليه، وكان بوسعي أن أكتشف ما كلفه إياه صدقه. إلا أنني لم أكن

قادرة على مجاراته؛ بالرغم من أنني رغبت بذلك للحظة. إذ كنت أود أن أخبره بكل شيء؛ كنت أود أن أقول له إنه يجب عليه ألا يعتذر، لأن تجاوزاته ليست ذات أهمية مقارنة بتجاوزاتي.

لكنني لم أفعل، بل لم يكن بوسعي أن أقوم بشيء كهذا. فتلك أمور لم يكن بإمكاني أن أخبرها لأي شخص كان.

قلت له: «إن الوضع بخير، صدقني...».

فقال: «لم أكن صديقاً صالحاً».

وهنا كنت أود أن أقول له إنها كانت فترة غريبة، فأنا أيضاً لم أكن صديقة صالحة.

لكنني لم أفعل.

فنظر إلي وسألني: «كيف حالك الآن؟».

فأجبت: «لا بأس». وأدركت حينها أنني كنت أقول الحقيقة إلى حد ما، لأن حزني لم يبارحني، لكنني كنت قد بدأت بالبحث عن طريقة تساعدني على التعايش مع ذلك الحزن، ثم تابعت: «هل تعرف أنهم ألقوا القبض على الرجل الذي قتل شقيقتي؟».

فهز رأسه نافياً. إذاً، لا بد أن هيو لم يخبر ماريا، أو أنه أخبرها لكنها لم تخبر زوجها بذلك. وهكذا، أخبرته بالقصة، وخلال قيامي بذلك أدركت أن الضباب الذي كان يخيم علي بفعل وفاة كيت قد بدأ ينقشع، بالرغم من أن الألم لا يزال قابعاً هناك، في داخلي؛ غير أنها كانت المرة الأولى منذ شهر شباط التي أشعر فيها بأن الموشور الذي كان كل شيء يتكسر من خلاله قد اختفى. إذ لم أعد عالقة في تلك الحالة التي كنت فيها أخوض في حياة أثخنتها جراح الجزع والغضب، كما لم تعد تنتابني حالات فقدان السيطرة على نفسي، ولم أعد ساخطة؛ سواء أكان سخطي على كيت لأن الأمر انتهى بقتلها بسببها هي، أو على نفسي لعدم قدرتي على القيام بأي شيء كان من الممكن أن يحميها.

قلت له: «ما زال الأمر مؤلماً، لكنني تحسنت كثيراً».

فقال: «جيد». ثم أمسك عن الكلام؛ وكان كلامنا يمضي بنا نحو أمر ما، ولهذا سألني: «لديك صديقات حولك، أليس كذلك؟».

وهنا تساءلت: هل فعلاً لدي صديقات؟ نعم، فقد تحدثت إلى أدريان خلال

اليومين الماضيين. لكن، لا يزال ينبغي لي إيجاد طريقة ما لتغيير الدمار الذي أحدثته، فقلت: «لدي صديقات، أجل. لكن، لماذا تسأل؟». فبدا عليه الارتياح بشكل غريب، ثم أدركت السبب الذي دفعه لرؤيتي هنا بطريقة ما، فسألته:

«ما الأمر يا بادي؟».

بقي وجهه خالياً من التعابير لبضع لحظات، ثم بدا عليه أنه اتخذ قراراً نهائياً، فقال:

«أريد أن أطلعك على أمر ما».

حاولت أن أركز، أن أعود بنفسي إلى الحاضر، فقلت: «وما هو؟». وهنا توقفت عملية التنفس عندي، إذ كان الهواء الذي يمر بيننا ثقيلاً، ولا يمكن استنشاقه؛ وكأنه الزيت.

قال: «لقد أخبرتني ماريا بأنها قد نامت مع أحدهم».

أخذت أهز رأسي ببطء، وعند ذلك بدأت أعرف ما الذي كان ينتظرني؛ إذ كان ثمة شيء ما في داخلي، شيء أشبه بجزء مدفون أو زاحف يعرف بالضبط ما سيقوله لي.

وحينما فتح بادي فمه ليتكلم، بدا لي الأمر أنه سيستغرق دهوراً، فسبقته بقولي:

«أتقصد هيو؟».

فعلت تعابير الارتياح وجهه، إلا أن شيئاً ما في داخلي بقي يحلم بأن يخبرني بادي بما هو مخالف لذلك، لكنه لم يفعل. وهنا أخذت أتساءل: متى عرف بذلك؟

عندها، قاطع أفكاري بقوله: «أجل، لقد أخبرتني بأنها نامت مع هيو».

لم أستطع حينها أن أكتشف حقيقة شعوري. إذ لم أكن مصدومة، بل بدا الأمر وكأنني كنت على معرفة بذلك طيلة الوقت. كان شعوري أقرب إلى الخدر وغياب الإحساس، ولهذا أخذت نفساً عميقاً، فملأ الهواء رئتيّ، وتوسع صدري، فتساءلت إن كان بوسعي أن أستنشق الهواء إلى أن يصبح حجمي أكبر من ألمي.

وهنا هتفت: «متى كان ذلك؟». فأخذ الصوت يرتد عن الجدران من حولي محدثاً صدى.

فقال: «في جنيف. وقد أخبرتني بأن ذلك حدث لمرة واحدة فقط، وحسبما

يبدو لم يتكرر منذ ذلك الحين». وهنا أمسك عن الكلام، فسألت نفسي: ترى، هل ينتظر مني أن أقول شيئاً؟ إذ لم يكن لدي أي شيء لأقوله. وهل كانت بالفعل مرة واحدة فقط؟ وهنا أخذت أتساءل إن كان يصدق زوجته، وأسأل نفسي إن كنت أصدق زوجي أنا أيضاً.

سألني: «ألم يخبرك هيو بذلك؟».

أجبته: «كلا». وعندها، عرفت السبب الذي منع هيو من دعوتهما لزيارتنا طيلة الشهور السابقة. إذ لم يكن الأمر يتعلق بما كان كونر قد رآه أو لم يره في البيت الصيفي.

شعرت بالبرد وكأنني كنت أجلس وسط تيار هوائي. لقد كنا أنا وهيو نخبر بعضنا بالحقيقة دوماً، فلِمَ لم يخبرني بذلك؟

لكنني كنت في الوقت نفسه أقول لنفسي: تذكري ما أخفيته عنه.

وهنا سمعت بادي يقول: «أنا آسف».

ثم أخذ ينظر إلي، وكان يبدو أنه يقاسي من جراء الألم أكثر مما كنت أقاسيه. إذ بدا لي فارغاً وأجوف، وكان بوسعي أن أدرك أنه لم ينم طيلة الليل.

عند ذلك، أدركت سبب محاولته تقبيلي، فقد كان حينها يعرف، أو على الأقل كان يشك بالأمر، وكنت مجرد وسيلة لينتقم لنفسه.

لكنني لم أكن ألومه، بل كان يجب علي أن أعانقه وأقول له إن كل شيء سيكون على ما يرام، بالطريقة نفسها التي كنت أخبر بها كونر أن الأمور ستجري على ما يرام؛ لأنه كان يجب علي القيام بذلك، لأن هذا هو دوري في الحياة، سواء أكنت أصدق ذلك أم لم أصدقه.

لكنني لم أفعل، بل أبقيت يديّ على الطاولة وقلت له:

«أشكرك لأنك أخبرتني».

فقال: «اعتقدت أنه يجب علي أن أقوم بذلك، لكنني أعتذر».

بعد ذلك، جلسنا هنيهة صامتين، فبدت المسافة بيني وبينه كما لو أنها تتوسع. كان يجب علينا أن نساعد بعضنا، إلا أنه لم يكن باستطاعتنا القيام بذلك.

قلت له: «لا تعتذر، فقد قمت بالشيء الصحيح». ثم أمسكت عن الكلام. ولكن، هل قام فعلاً بالشيء الصحيح؟ لم يكن الأمر واضحاً، ثم إن هنالك بعض الأمور التي من الأفضل أن تبقى مجهولة في بعض الأحيان. وهنا سألته:

«ما الذي ستفعله؟».

فأجاب: «لست أدري. إذ إنني لم أقرر بعد، وعلي أن أتحاور مع ماريا. لكنني أعرف النتيجة، وأعتقد أننا جميعاً خطّاؤون». كان يتحدث إلى نفسه وليس إلي، ولذلك سألني في الختام: «ألسنا كذلك؟».

فأخذت أهز برأسي إيجاباً وأنا أقول: «أجل».

* * *

في طريق عودتي إلى البيت اتصلت بهيو، كنت أشعر بأنني أصبحت مختلفة بطريقة ما، لكنني لم أستطع أن أحدد كيف. إذ بدا لي الأمر وكأن شيئاً ما قد تغير داخلي، فقد أعدت ترتيب أمور كثيرة بشكل عنيف، كما أن هنالك أموراً لم أحسمها بعد. أجل، كنت غاضبة إلى أقصى الحدود، لكن الأمر قد تجاوز حد الغضب. فقد أتى غضبي الشديد ممزوجاً بشيء آخر لم أكن أستطيع تحديده بالضبط؛ لعله الغيرة من أن علاقة هيو دامت لفترة قصيرة من دون تعقيدات، ولعله الارتياح لأن زوجي كان يحتفظ بسر خاص به _ كالسر الذي احتفظت به لنفسي _ لذا لم يكن علي أن أشعر بالاستياء حيال ذلك بعد الآن.

أخذ هاتف هيو يرن، لكنني لم أكن واثقة مما كنت سأقوله له حينما نتكلم، ولهذا شعرت بالارتياح حينما تحولت المكالمة إلى البريد الصوتي.

سمعت صوتي وأنا أقول: «كل ما أردته هو أن أتأكد من أنك بخير». وهنا أدركت أن هذا كان السبب الحقيقي الذي دفعني إلى الاتصال به؛ إذ كنت أريد أن أسمع صوته لأتأكد من أنه لا يزال موجوداً، ومن أن الموجة العاتية التي كانت تهدد كل شيء في حياتنا لم تذهب به، ثم تابعت رسالتي الصوتية بقولي: «اتصل بي حينما تسنح لك الفرصة».

أنهيت المكالمة، وأخذت أتساءل كيف سيكون شعوري إن لم يعاود الاتصال بي، أو إن لم يتصل بعد ذلك مطلقاً. كما تخيلت سيارة تصدمه، أو قنبلة إرهابية تفجره، أو أي شيء آخر يمكن لأي شخص أن يتعرض له كنوبة قلبية أو سكتة دماغية. أخذت أتخيل كيف سأعيش بمفردي، وأنا أعرف أنني كنت أبغضه، وأشك فيه خلال الشهور الأخيرة من حياته. لذا أخذت أنظر إلى مكان آخر لكي أتمكن من الابتعاد عن مواجهة نفسي. وخلال محاولتي القيام بذلك، أدركت أنني لا أستطيع؛ إذ كان دوماً معي، وما زلت أتذكر كيف ترجلت

مـن الطائـرة التـي دفـع لي ثمن بطاقتهـا، والتي أوصلتني إلى بـلادي. وتذكرت كيـف كان ينتظرنـي مـن دون أن يحضـر زهوراً، أو حتـى حبه، بل جاءني يومها بشيء أبـسط من ذلك بكثير، وأهـم من ذلك بكثير؛ ألا وهو التقبل. لقد أخذني في تلك الليلة إلى بيته، وليس إلى فراشه؛ إلى غرفة مشتركة معه، وتركني أبكي على راحتي، لأنام بعد ذلك، ثم جلس معي حينما احتجت إليه، وتركني بمفردي حينما لم أكن أريده قربي. وفي صباح اليوم التالي كان قد شرع بمساعدتي، من دون أن يطلب مني شيئاً، حتى الإجابة عن أسئلته.

لقد وعدني بألا يخبر أحداً بأنني كنت عنده إلى أن أصبح قوية وأشعر بأنني مستعدة لأواجه الناس بتلك الحقيقة.

لقـد كان دومـاً إلـى جانبـي؛ بأكثر الطرائق واقعية، وقدر الإمكان. وقد بقي ذلك الشخص الذي ألتجئ إليه وأثق به؛ ذلك الشخص الذي أتمنى له الأفضل، وأتمنى أن أكون الفضلى له كما كان هو الأفضل بالنسبة إلي.

كنـت أحبـه، لـذا كان اكتشـافي لحقيقـة أنه نام مع امـرأة أخرى _ حتى لو كانـت ماريـا المملـة_ قـد جعل حبي له يبدو أكثر واقعيـة؛ إذ جعلني هذا أتذكر أنه رجل مرغوب وقادر على منح العاطفة.

أغمضـت عينـي، وتسـاءلت: إن كانا قد نامـا مع بعضهما لمرة واحدة فقط بالفعل، فبأي طريقة؟ وهل اتخذت علاقته منحى معاكساً للمنحى الذي اتخذته علاقتي؟ وهكذا، نفضت عن نفسـي وبكل بسـاطة غبار تلك المآخذ التي كان لوكاس يعتقد أنه قد أخذها ضدي. كما أن آنا ستمسح الصور، وستخرج لوكاس من حياتها، ومن حياتي أنا أيضاً. وهكذا، ولأول مرة منذ أشهر، أصبحت أتخيل المضيّ نحو مستقبل نظيف وطاهر وحر، لا وجود للوكاس فيه.

عاد هيو إلى البيت متأخراً، وهكذا كنت قد تجاوزت الموضوع. وقد قال لي حينما دخل المطبخ: «آسـف يا حبيبتي، لقد كان يوماً أشـبه بالكابوس، وقد خذلتنـي ماريـا مـرة أخـرى عند اللحظـة الأخيرة». ثم قبلني، فشـعرت بالارتياح مجدداً، لكنه أخذ يقول مشيراً إلى ماريا: «إنها تعاني من بعض المشـكلات في البيت».

إذاً، إنهـا لـم تخبـر هيـو بـأن بادي أصبح يعرف كل شـيء. عندها، أخذت

أتساءل عن السبب الذي جعلها تخبر زوجها، وعن الأمر الذي دفعها إلى الاعتراف بذلك. وخلت أن ذلك يمكن أن يكون بسبب الإحساس بالذنب، فذلك الإحساس هو ما يختصر كل شيء في النهاية.

سألني: «كيف كان الوضع مع بادي؟».

وهنا خطر ببالي أن هذه اللحظة لا بد أن تكون اللحظة المناسبة التي يمكنني فيها أن أخبر هيو بكل شيء. إذ يمكنني أن أبدأ حديثي بجملة: إنني أعرف بما جرى بينك وبين ماري؛، فقد أخبرني بادي بكل شيء، وأنا أيضاً لدي شيء أود أن أطلعك عليه.

هتفت: «هيو؟». فنظر إلي وقال:

«ماذا؟».

فأمسكت عن الكلام وفكرت في سري: ترى، ما الذي يمكن أن يحدث إن مضيت بما عزمت عليه؟ وإن أخبرته بأمر لوكاس، فهل سيتفهم الموقف بما أنه فعل ذلك مسبقاً؟ وهل سيسامحني كما سامحته؟

لكنني غيرت رأيي؛ فالسر الذي أصبحت الآن أعلم بأنه يخفيه عني قد جعل من المأخذ الذي أخذه علي لوكاس ضعيفاً، ثم إنني أحب هيو، ولم أكن أريد أن أتخلى عن حبي له؛ إذ حينما يجتمع خطآن لا يمكن لاجتماعهما أن يؤدي إلى شيء صحيح. لكن، قد يولّد هذان الخطآن إحساساً بالتساوي والعدالة.

قلت له: «هلّا تنادي على كونر لينزل».

ففعل، وبعد مضي عدة دقائق نزل ابننا إلى الطابق السفلي، فتناولنا الطعام معاً، وجلسنا إلى مائدة الطعام معاً. وأثناء ذلك، كنت أراقب ابني وزوجي، وشعرت كم كنت حمقاء وغبية حينما كنت على وشك أن أخسر كل شيء، لكنني تعلمت درساً لن أنساه طيلة حياتي. فما فائدة الاعتراف الآن؟

في تلك الليلة، أوينا إلى الفراش مبكرين. فأخبرته بأنني أحبه، وأخبرني بأنه يحبني أيضاً. وكنا نعني ما نقوله، إذ لم يأت الأمر بطريقة أوتوماتيكية؛ كما يحدث عندما تتصل بأحدهم فيجيب على هاتفه، بل أتى ذلك من المكان العميق والمجهول الذي تسكنه الحقيقة.

قبلني فقبلته، وأخيراً أصبحنا معاً بحق.

الفصل الثلاثون

كان اليوم هو اليوم الذي سيعود فيه لوكاس إلى باريس وإلى آنا. كنت أعمل حينما اتصل هيو، حيث كنت أقوم بتصوير عائلة تواصلت معي عبر صفحتي التي أنشأتها على موقع فيسبوك، وكانت تلك العائلة مؤلفة من سيدتين مع صبيين صغيرين.

كانت أمور عملي تتم على خير ما يرام، إذ كان كنوع من التسلية. وقد كنت على وشك إنهاء اللقطات حينما اتصل هيو، فكان علي إما أن أجيب أو أن أترك المكالمة لتنتقل تلقائياً إلى البريد الصوتي. لكنني استأذنت أفراد تلك العائلة لأرد على الهاتف حيث قلت لهم: «هل يضايقكم إن أجبت؟». فردت علي المرأة الأكثر طولاً بين الاثنتين وقالت: «إطلاقاً. وأعتقد أن بيرتي يريد أن يذهب إلى الحمام على أية حال».

أرشدتهم إلى الحمام الموجود في الطابق السفلي في آخر البيت، ثم أجبت على المكالمة، حيث هتفت حينما سمعت صوت المتكلم: «هيو؟».

سألني: «هل أنت مشغولة؟».

خرجت من البيت لأستمتع بهواء الخريف البارد، وأغلقت باب الاستديو خلفي. كنت متقلبة المزاج وعصبية.

قلت له: «أنهيت للتو التقاط مجموعة من الصور. هل كل شيء يسير على ما يرام؟».

فقال: «أجل، كل شيء بخير». فبدا لي متفائلاً؛ وحينها بدأ الخوف الذي كان يسيطر علي يرخي قبضته، فسمعته يقول: «كل ما أريده من اتصالي هذا هو أن أبلغك شيئاً».

سألته: «ما هو؟».

فقال: «لقد وافقوا على العرض المتمثل بتسوية خارج إطار المحكمة، كما أسقطوا الشكوى المقدمة ضدي».

عندها، استرخت كتفاي بفعل الارتياح الذي شعرت به؛ إذ لم أكن أدرك حجم التوتر الذي كنت أحمله داخل جسدي حتى هذه اللحظة، فهتفت: «هذا عظيم ورائع يا هيو».

فرد علي بالقول: «أعتقد أنه علينا أن نحتفل. فما رأيك بتناول العشاء في الخارج الليلة؟ نحن الثلاثة معاً؟ أستكونين مشغولة؟ لا أعتقد».

فأخبرته بأنني لن أكون مشغولة، وبأنني سأساعده كي يسترخي، وقلت لنفسي إن ذلك سيصرفني عما قد يحدث في باريس؛ لأنني طيلة أسبوع كامل كنت أتساءل عما يمكن أن تكون آنا تفكر فيه، كما كنت أحاول أن أمنع نفسي من الاتصال بها؛ إذ كنت قلقة بشأنها لأنها قد تغير رأيها وتقرر البقاء مع لوكاس. لكن، ما الذي سيحدث بعدئذ إن فعلت ذلك؟ أعتقد أنه سيطلب منها المال، لأنني لم أصدق قط أن كل ما يريده مني هو أن أدع آنا وشأنها.

وحتى لو كان كل ما يريده هو ذلك، فلم يكن بوسعي أن أتركها لرجل مستعد للكذب كما كان لوكاس يفعل. فهي صديقتي، وأعز صديقة كانت لدى أختي، وقد كنت مدينة لها بالكثير.

لكن، عليّ أن أتحمل لأسبوع، وبعده سينتهي كل شيء.

قلت لهيو: «يعجبني ذلك».

فرد: «سأحجز في مكان ما، هل ستخبرين كونر؟».

لم أنتهِ من التصوير إلا قبل وقت الغداء بقليل. وعندها، أخبرت المرأتينبأنني سأرسل لهما بريداً إلكترونياً حينما تصبح الصور جاهزة، وأنه بوسعهما أن تختارا الصور التي تحلو لهما، فشكرتاني، ثم ودعنا بعضنا. بعد ذلك، أخذت أرتب معداتي في مكانها، وأطفئ الأنوار. وأخذت أفكر بالشيء الذي كان يترتب على آنا فعله، فتخيلتها وهي تقول له: الذنب ليس ذنبك، بل ذنبي، إذ إنني لست متأكدة من أنني أرغب بالزواج الآن.

هل يمكن لتلك الطريقة أن تنجح؟ وهل كان لوكاس سيصدق بأن الأمر ليست له علاقة بي، وبأنني قد ابتعدت عنها؟

أخذت أقول لنفسي: عليها أن تقوم بذلك في مقهى، في مكان محايد؛ حيث يمكنه أن يغضب ولكن ليس إلى درجة العنف. كان علي أن أقترح عليها

أن تغير القفل أولاً.

أخذت أسأل نفسي إن كان يتوجب علي أن أذهب إلى هناك لأكون معها، غير أن هذا يمكنه أن يزيد الوضع سوءاً؛ لكنها كانت بمفردها في ذلك الحين.

أنهيت ترتيب الاستديو ودخلت البيت، ثم فتحت الثلاجة، فوجدت بعض السلطة المعدة للغداء، مع بعض السمك المدخن من نوع الأسقمري، فأخرجت هذين الطبقين، ثم نظرت إلى الساعة، وقلت في سري: لا بد أن كونر يتناول طعام الغداء الآن. لذا، أخرجت هاتفي واتصلت به، وقلت له إننا سنخرج لتناول العشاء، فأخذ يتذمر ويشتكي ويقول: «لكنني أريد أن أخرج بصحبة دايلان». وكان في صوته نوع من الترجي، إذ كان ينتظر مني أن أقول له: لا بأس، اخرج. فقد كان يريد أن يمضي الأمسية مع صديقه، لكنني لم أفعل.

بل قلت له: «إن الأمر مهم يا كون بالنسبة إلى أبيك».

فقال: «ولكن...»

نقلت الهاتف إلى أذني الثانية وأخرجت طبقاً من الخزانة وأنا أقول:

«لن أتجادل معك يا كونر، لذا يجب عليك أن تعود إلى البيت بعد المدرسة».

فتنهد ثم قال إنه سيعود.

أنهيت تحضير وجبة الغداء وتناولتها في المطبخ، ثم عدت إلى الاستديو، وأخذت أنظر إلى الصور التي التقطتها، وبدأت أفكر بطريقة لتحريرها وتعديلها، مع كتابة ملاحظات حول ما نجح منها. ولكن، حوالى الساعة الثانية من عصر ذلك اليوم رن جرس الهاتف، فقفزت من مكاني، وقلت لنفسي: لا بد أنها آنا. لكنني حين أجبت على الهاتف سمعت صوتاً غير مألوف، إذ كانت هناك امرأة تسأل:

«هل السيدة ويلدينغ معي؟».

أجبت: «نعم».

فسمعت صوتها وهي تقول: «آه»، وبدت لي تلك المرأة التي كانت على الطرف الآخر من الخط مرتاحة لسماع ذلك. وبعدها عرفتني بنفسها بأنها السيدة فلاين من مدرسة كونر وقالت: «إنني أتصل من مدرسة سانت جيمس، لأن ثمة موضوعاً أريد أن أناقشه معك حول كونر».

أخذت أرتعد بسبب الهواجس التي انتابتني عند سماعي لذلك، وقلت لها: «كونر؟! ما الخطب؟».

فقالت: «أريد أن أسألك إن كان في البيت».

وهنا توقف العالم من حولي، ثم بدأ يميل ويتغير، وأصبحت الغرفة شديدة البرودة فجأة.

قلت لها: «كلا، كلا، إنه ليس هنا، بل في المدرسة». وقد تعمدت أن أقول ذلك بثبات وبنبرة سلطوية؛ لأنني وبكل بساطة اعتقدت أنني إن قلت ذلك فمن الممكن أن يتحقق.

ولذلك تابعت بالقول: «لقد اتصلت به وقت الغداء». ثم نظرت إلى ساعتي، وتابعت: «إنه هناك، أليس كذلك؟».

فأجابت: «حسناً، إنه لم يكن موجوداً عند التفقد الذي يتم بعد الظهر». بدت لي بقولها ذلك غير مكترثة، بخلاف الهلع الذي بدأ يكبر داخلي؛ رغماً عني. بعد ذلك، أخذت تحاول طمأنتي عنه بالقول: «هذا السلوك ليس من عادته، ولهذا أردنا أن نتأكد من أنه في البيت».

بدأت أرتجف، إذ لم يكن ذلك من عادته منذ فترة قريبة، فقلت لها: «كلا، كلا، إنه ليس هنا». ولم أكن أدري إن كان من المفترض بي أن أعتذر عنه أم لا؛ فقد كنت غاضبة وفي موقف دفاعي. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الموجة التي سببها الخوف على وشك أن تنفجر، فقلت لها: «سأتصل به، وسأعرف أين هو. ألم يكن في المدرسة هذا الصباح؟».

فأجابت: «أوه، بلى. كان في المدرسة كعادته، وقد أخبروني بأن كل شيء كان على ما يرام».

قلت: «حسناً». ثم أقنعت نفسي بالبقاء هادئة؛ إذ لم يكن هناك ما يجب علي القلق بشأنه، فقد كان ساخطاً لأنني أجبرته على العودة إلى المنزل بدلاً من الخروج مع أصحابه، ولهذا كان يلقنني درساً.

لكنها قطعت سلسلة أفكاري بقولها: «كل ما في الأمر أنه لم يعد إلى المدرسة بعد الغداء».

فقلت لها مرة أخرى: «حسناً». ثم أغمضت عينيّ حينما اجتاحت موجة هلع أخرى شاطئ أحزاني وهمومي، فسألت نفسي: هل كنت قلقة كثيراً حيال

ما يجري في باريس، ولم أقلق ذلك القلق حيال ما يجري أمامي؟
وعندها سمعتها تنادي: «سيدة ويلدينغ؟».
فقلت لها: «شكراً لإبلاغي».
فبدت لي مرتاحة لأنني كنت لا أزال معها على الخط، ثم قالت:
«أوه، حسناً. إنني متأكدة بأنه ليس هناك ما يثير القلق يا سيدتي. ولا بد أن أتكلم معه بخصوص ما حصل يوم الاثنين. لذا من الأفضل أن تتحدثي معه بهذا الموضوع خلال عطلة نهاية الأسبوع».
قلت: «سأفعل».
سألتني: «هل ستبلغينني حالما تجدينه؟».
أجبتها: «بالطبع».
فقالت: «إن ذلك يخضع للإجراءات التي تتبعها المدرسة في حال اختفاء أحد الطلاب من حرم المدرسة».
هتفت مرة أخرى: «بالطبع. ولا بد أن أبلغك بذلك».
ودعتها، ثم ومن دون تفكير أخذت أتصل بكونر، غير أن هاتفه بدأ يرن، ثم انتقل إلى البريد الصوتي، ولهذا جربت الاتصال بهيو، فأجاب على الفور، بقوله:
«جوليا؟». كان بوسعي أن أسمع النقاش الذي كان يجري من حوله، إذ لم يكن في المكتب بمفرده، وهنا تساءلت بغموض إن كان مع ماريا، لكن ذلك كان آخر ما يهمني حينها.
تعثرت كلماتي ببعضها، وكان صوتي متهدجاً حينما قلت له:
«لقد ضاع كونر».
هتف: «ماذا؟».
فكررت ما قلته.
فسألني: «ما الذي تعنينه بكلمة ضاع؟».
فقلت: «لقد اتصلت السيدة فلاين أمينة السر في المدرسة، وأخبرتني بأنه كان في المدرسة صبيحة هذا اليوم، لكنه لم يعد إلى المدرسة بعد الظهر».
وحينما قلت ذلك، تراءت لي صورة لوكاس وهو يجبر ابني على ركوب سيارة ثم ينطلق به بعيداً. لذا، لم أستطع أن أبدد إحساسي بأن شيئاً مريعاً لا بد أنه يحدث في هذا الحين، ولا بد أن لوكاس كان وراءه بطريقة ما. لقد ظننت

أنني قد نجوت منه، لكنه بقي يتربص بي كقوة خبيثة. وهكذا، شدتني صفارة إنذار في داخلي للتفكير في ذلك الكابوس.

لكنني أخذت أقول لنفسي إنني أصبحت سخيفة؛ بالرغم من أنني لم أكن أعتقد ذلك، وهنا سمعت هيو يقول:

«هل اتصلت به؟».

أجبته: «أجل، بكل تأكيد، لكنه لم يجب، هل اتصل بك؟».

فرد: «كلا». وتخيلته وهو يهز برأسه نافياً.

فسألته: «متى كانت آخر مرة تكلمت فيها معه؟».

فقال: «اهدئي». إذ لم ألاحظ كم بدوت له مرتاعة، لذا أخذ يسعل، ثم أخفض صوته وقال: «سيكون كل شيء على ما يرام، فقط اهدئي».

هتفت: «لقد هرب».

فرد: «لقد هرب من المدرسة فقط. هل حاولت الاتصال بأصدقائه؟».

أجبت: «كلا، لم أفعل حتى الآن».

فسألني: «ألم تتصلي بدايلان؟ إنه يتسكع معه لفترة طويلة».

وهنا أخذت أتخيل الاثنين وهما في حديقة يشربان من زجاجة شراب رخيصة، ثم تخيلت ابني وقد صدمته سيارة وهو يجتاز الشارع، أو لعلهما كانا يلهوان على جسر لسكة الحديد، ويتحديان بعضهما في الوصول إلى حافته، لتفادي أي قطار قادم.

سألني: «وماذا عن إيفي؟ ألا يمكنك أن تتصلي بوالدتها؟».

كنت أريد أن أقول له: بالطبع لا يمكنني أن أتصل بوالدتها، لأنني لا أعرف من تكون والدتها أصلاً.

ومرة أخرى رأيت لوكاس، لكنه كان يقف هذه المرة فوق جسد ابني، غير أنني استبعدت تلك الصورة على الفور.

قلت له: «ليس لدي رقمها. ولكن، هل تعتقد أنه معها؟».

فأجاب: «لا أعلم».

عدت بذكرياتي إلى ذلك اليوم الذي تركني فيه في المطعم، ثم أخذ يحزم حقيبته وقال لي: سأذهب لأرى إيفي!

فهتفت: «لا بد أن يكون معها». ثم بدأت أصعد الدرج متوجهة نحو غرفة

نوم كونر وأنا أقول: «علينا أن نجدها».

فـرد علـي هيـو: «إننا لا نعرف ذلك...»، لكنني كنت أصعد الدرج درجتين درجتين، وهكذا كنت قد بلغت قمته قبل أن ينهي هيو كلامه.

تـرددت عنـد عتبـة بـاب غرفـة ابني، إذ كنت أبحث بـلا حول ولا قوة عن أي شـيء يمكنه أن يدلني على مكانه. كان سـريره غير مرتب، وأكوام ملابسـه كانت موضوعة بشكل تعيس على مكتبه وكرسيه، وثمة كأس فارغة بالقرب من السـرير، مع طبق فيه فتات وبقايا طعام. لقد أصبح كونر أكثر خصوصية خلال الأسـابيع القليلة الأخيرة. وكان ما يقلقني وقتها هو أن أجد مخبأً سـرياً لبعض المجلات، أو قميصاً تغطيه طبقة من سائل كثيف مرمياً تحت سريره؛ من دون أن يـدري أنـه كلمـا ازدادت خصوصيتـه، وجدت صعوبـة أكبر في غض الطرف عن تلك الأمور.

خطوت نحو الداخل خطوة واحدة وبعدها توقفت، واتصلت بكونر مجدداً، فوجدت بأنه أغلق هاتفه هذه المرة، فحاولت الاتصال به للمرة الثالثة، وأتبعت ذلك بمرة رابعة، وتركت له في تلك المرة رسالة قلت فيها: «أرجوك اتصل بي يـا حبيبـي». وحاولـت أن أحافظ على مسـتوى واحـد لنبرة صوتي، إلّا أن القلق كان بادياً فيه، إذ لم أكن أريده أن يسمع أي شيء يمكنه أن يظنه سورة غضب؛ حتى لو كان ذلك للحظة واحدة. وهكذا أنهيت الرسالة الصوتية بقولي: «كل ما أريده هو أن أعرف أنك بخير».

توغلت في غرفة كونر، فقد كنت أعرف سبب قيامه بذلك؛ ألا وهو قيامي بمنعـه مـن الهـروب إليهـا في ذلك اليوم. ولذلك، إنـه يحاول أن يظهر لي الآن أنه إن أراد شـيئاً فلا بد أن يقوم به، وليس بمقدوري القيام بأي شـيء للحؤول دون تنفيذه رغباته.

فتشت في خزانة ملابسه أولاً، ثم تحت سريره، فوجدت أكواماً من الملابس والأحذية الرياضية القديمة والأقراص المدمجة وألعاب الفيديو، لكنني لم أجد الحقيبة هناك، إذ لا بد أنه أخذها معه إلى المدرسة بعدما حزم فيها أغراضه.

هتفت في سري: «اللعنة». ثم وقفت وسط الغرفة تحت ضوء فترة العصر الخافت، فشعرت بأنني كنت أغرق وأنا عاجزة عن القيام بأي شيء.

فتحت حاسـوبه وتجولت في البداية في بريده الإلكتروني، فوجدت مئات

الرسائل التي كانت قد وصلته من مولي ودايلان وسهيل والكثير من الأصدقاء غيرهم، من دون أن أجد أي رسالة من حبيبته. حاولت بعد ذلك البحث في حسابه عبر سكايب، ثم الفيسبوك. وبالطبع، أصبح بذلك متصلاً بالإنترنت. وهكذا، قمت بكتابة كلمة «إيفي» في صندوق البحث الذي كان يظهر في أعلى الصفحة.

ظهر لي اسمها وبجانبه صورتها، فكانت مختلفة عن تلك الصورة التي أراني إياها؛ حيث بدت لي هنا أكبر بقليل مما بدت عليه في تلك الصورة، وكانت تبتسم بسعادة. وهنا عرفت بأنها لم تكن الفتاة التي رأيتها في حفلة كارلا، بالرغم من وجود شبه بين الفتاتين.

غير أنني وجدت في خلفية صورتها دار عبادة القلب المقدس.

شعرت بشيء يسحبني نحو الأسفل مرة أخرى، وعاودني ذلك الإحساس الكريه بأنني كنت أغوص في الماء.

عندها، سمعت نفسي وأنا أتكلم بصوت عالٍ وأقول: هذا لا شيء، لا شيء على الإطلاق، فالكثير من الأطفال يزورون باريس. ثم إن دار عبادة القلب المقدس مكان مخصص للزيارة ضمن قائمة الأماكن التي يزورها السياح، وهي معلم سياحي لا بد للمرء أن يلتقط صورة لنفسه أمامه. وهكذا، إنها مصادفة بحتة أن يكون ذلك المعلم السياحي هو المكان نفسه الذي عرض فيه لوكاس على آنا الزواج منه. بل لا بد أن يكون الأمر صدفة.

وبعد مرور لحظة سمعت الجهاز يصدر صوت طنين، وظهرت أمامي نافذة في أسفل الشاشة. لقد كانت رسالة جديدة من إيفي جاء فيها:

- أنت متصل!

وعلى الفور عدت بذكرياتي إلى علاقتي مع لوكاس، فتذكرت الكثير من المحادثات التي بدأت بتلك الطريقة، أو بطريقة أخرى مشابهة، والمرات الكثيرة التي سمحت لنفسي فيها بأن أغرق.

لكن، كانت لدي رغبة بذلك في ذلك الوقت، أليس كذلك؟ أجل، كنت أرغب بكل ذلك.

وهنا استبعدت تلك الأفكار، لأنه كان علي أن أركز قبل أن أجيب على رسالة إيفي.

أخذت أذكر نفسي بأنها تعتقد أنها تتحدث إلى ابني، لذا كان بوسعي أن أخبرها بأنها مخطئة وبأنني لست كونر، أو يمكنني أن أكتشف من خلالها ما كان يجري. ولذلك كتبت لها:

- أجل!

- أأنت متصل من هاتفك؟

وللحظة، لم أستوعب الإشارة التي وردت في سؤالها، ولكنني بعد ذلك أدركت ما كانت ترمي إليه، لأنها كانت تعتقد أنه لم يفتح صفحته من حاسوبه، أي من البيت.

أجبتها:

- نعم.

- أحبك.

وعندها، لم أكن أدري ماذا يجب علي أن أقول، بل عدت بسرعة إلى الوراء، نحو الماضي؛ بضراوة جعلتني أحبس أنفاسي.

وهنا كتبت لي:

- قل إنك تحبني أيضاً.

كان علي أن أركز على كونر، فهذه الفتاة كانت تعتقد أنها تحبه، أو إنها تقول له مجرد كلام على الأقل.

كتبت لها:

- أحبك.

- لقد خرجت من المدرسة، أليس كذلك؟ هل أنت في الطريق؟

إذاً، هذا صحيح، فقد هرب من المدرسة ليلتقيها.

كنت على وشك أن أجيبها حين رن هاتفي، فبدا لي صوته حينها عالياً جداً؛ لدرجة أنني جفلت قبل أن أمسك به وأجيب: «كونر؟»، لكن كونر لم يكن المتصل ، بل آنا.

هتفت: «جوليا». وبدت لي على عجلة من أمرها، وكأنها كانت تلهث بفعل القلق. لكنني لم أستطع أن أتدبر أمرها في ذلك الحين؛ إذ مقارنة بكونر، بدت لي أمور آنا غير مهمة على الإطلاق.

ولذلك قلت لها:

- آسفة، لا يمكنني أن أتحدث الآن.
- ولكن...

قلت لها: «كونر ضائع والأمر معقد. سأعاود الاتصال بك، أعدك بذلك، اعذريني».

وهكذا أنهيت المكالمة قبل أن تتمكن من الرد، ثم كتبت مرة أخرى:

- أجل، أنا في الطريق.
- لا أصدق أنني سأخرج لملاقاتك أخيراً! لا أستطيع أن أصدق أننا وجدناه!

وهنا شعرت بنفسي وكأنني بدأت أنكمش، وبأن جلدي أصبح مشدوداً على جسدي، فمن الذي وجداه؟

وفي تلك اللحظة، وصلتني رسالة أخرى منها:

- تخيل ذلك! بعد كل هذا الوقت! وجدنا أباك!

وهكذا انفتح الباب المسحور أمامي، فولجت بسرعة.

إذاً، هذا ما كان يفعله، كان يحاول أن يجد والده.

وقد نجح في ذلك.

ولكن، كيف؟

أجبرت نفسي على البقاء في الزمن الحاضر؛ إذ كان علي أن أبقى. كما أجبرت نفسي على تخيل ما يمكن أن يكتبه ابني كرد على ذلك فكتبت أخيراً:

- أعرف! سيكون ذلك مذهلاً! أين سنلتقي أنا وأنت مرة أخرى؟

ثم ضغطت زر الإرسال، وبعد لحظة جاءني ردها:

- عند المحطة، في المكان الذي رتبنا فيه الأمور! أراك هناك!

انحنيت نحو الأمام حتى أكتب لها، لكن بعد مرور لحظة وصلتني رسالتها الختامية، والتي كانت عبارة عن ثلاث قبلات، ثم غادرت بعد ذلك.

أخذت أشتم في سري وأقول: اللعنة.. اللعنة. إذ كان يجب علي أن أخبرها من أنا، وبأنني كنت أتميز من الغيظ، وبأنه من الأفضل لها أن تخبرني وعلى الفور عن المكان الذي خططت لتلتقي كونر فيه.

لكن الأوان فات الآن، إذ اختفت النقطة الخضراء التي كانت تظهر بجانب

اسـمها، وأصبحـت غيـر متصلـة، ولـم تكن هناك أيـة طريقة أخرى للاتصال بها. وهكذا، أصبحت أسيرة لتلك الحالة، إذ لم تكن لدي أدنى فكرة حول المكان الذي ذهب إليه ابني، وذلك لأن المحطة يمكن أن تكون في أي مكان.

فـي تلـك اللحظـة، شـعرت وكأن تـروس التعشـيق في دماغي قـد تعلقت ببعضهـا، وهكـذا بـدأ المحـرك يعمل، لأنـه لا يمكنني تحمل نتائج الاستسـلام لليأس، بل عليّ أن أحافظ على تركيزي، وعليّ أن أجده. إذاً، أي محطة كانت تعني؟ وأين تقع تلك المحطة؟ لا بد أن يكون هناك مفتاح لحل هذا اللغز. كانت هنالـك كومـة مـن الأوراق والمجـلات فوق مكتب كونر، لـذا أخذت أتصفحها بسرعة، ثم فتحت الدرج، فلم أجد سوى أقلام حبر ورصاص، ونسخة من كتاب: دليل هيتشكوك إلى المجرة الذي أهداه إياه هيو بمناسبة ذكرى ميلاده منذ بضع سنوات، كما وجدت أداة لثقب الأوراق، ودباسة للورق، ومقصاً أيضاً، وأوراق الملاحظات الملونة اللاصقة، وبعض مخلفات الدراسة.

ثم وقفت واستدرت وأمسكت بملصق كرة القدم الموضوع فوق سريره، ثم بالوشاح الذي كان موجوداً خلف الباب، فلم أجد أي مفتاح لحل ذلك اللغز؛ أي لم أجد أي شيء واضح لأبحث فيه.

بعـد ذلـك، خطـرت ببالـي فكـرة، فعدت إلى حاسـوبه. وبعد مـرور بضع لحظات، تمكنت من الوصول إلى مستعرض تاريخ الصفحات التي زارها، فكان أول مـا رأيتـه حسـاباً جديـداً علـى موقـع تويتر لا بـد أنه قد أنشـأه ليصبح: @helpmefindmydad(1)، ولكن قبل أن أتمكن حتى من استيعاب ما كان يقصده مـن ذلـك، رأيـت علـى رأس القائمة أن آخر موقع إلكترونـي فتحه هذا الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة كان موقع eurostar.com(2).

وحينما نقرت على الرابط، نقلني إلى خارطة محطة الشمال.

مما يعني أنه كان في طريقه إلى باريس.

---

(1) ساعدوني في البحث عن أبي. (المترجمة)

(2) موقع خاص بالخطوط الحديدية والقطارات التي تسافر بين لندن وباريس وبروكسل. (المترجمة)

الفصل الحادي والثلاثون

حاولت أن أقنع نفسي بأنها مجرد صدفة، وبأن ذلك ليست له أية علاقة بلوكاس.

لكنني لم أتمكن من تصديق ذلك، وخاصة في هذا اليوم الذي كان لوكاس سيعود فيه إلى باريس. إذاً، لا يمكن أن يكون سفر ابني إلى هناك اليوم مصادفة يأيضاً.

حتى لو تكلم هيو مع إيفي، وحتى لو تأكد من أنها فتاة.

ردت آنا على اتصالي بعد الرنة الثانية، حيث فاجأتني بالقول: «الحمد لله».

كان حلقي قد جف، لكنني كنت متهورة فقلت:

«اسمعي يا آنا...»

فكررت قولها: «الحمد لله». كان بوسعي أن أسمع نبرة الارتياح في صوتها، إلا أن هذا لم يكن كل شيء، إذ بدت لي خائفة، وكانت أنفاسها لاهثة؛ وكأن الهلع قد عضها بنابه، ثم انخفض صوتها أكثر ليصبح أقرب إلى الهمس وهي تقول: «إنني آسفة للغاية». إلا أنني لم أكن أسمع تماماً ما كانت تقوله، غير أنها بدت وكأنها لا تريد لأحد أن يسترق السمع ويصغي إلى ما كانت تقوله لي. وأخيراً، جاءني صوتها وهي تقول: «لقد حاولت أن أخبره. لقد حاولت، إنني آسفة جداً، آسفة».

بدت في وضع مريع، فانتقل خوفها إليّ وأنا أسألها: «ما الخطب يا آنا؟ أين لوكاس؟ هل هو معك؟».

فبدت لي وكأنها لم تسمع ما قلته لها حين قالت: «لم أستطع الانتظار، لذا حاولت أن أخبره. لقد حاولت أن أخبره اليوم بأن علاقتنا انتهت، وبأن عليه أن يرحل...».

سألتها: «أين هو يا آنا؟».

ردت: «لقد خرج من البيت غاضباً، وقال إنه سيعود في أية لحظة، فهرعت

إلى حاسوبه كما اتفقنا يا جوليا لألقي نظرة على تلك الملفات، لكنني وجدت شيئاً آخر».

وهنا سمعت رعشة في صوتها، وريبة لم أكن قد سمعتها منها قبل ذلك.

سألتها: «ماذا؟ ماذا وجدت؟».

فقالت: «وجدت تلك الملفات؛ حيث ثمة ملف باسم (جوليا)، لكنني وجدت أيضاً ملفاً آخر».

كنت أعرف ما الذي كانت ستقوله حينما تابعت:

«كان باسم كونر...»

عندها، صغر العالم في عينيّ وتحوّل إلى هباء منثور.

سمعتها تقول: «وجدت كل تلك الصور».

فجمدت في مكاني وكأنني قد تحولت إلى نقطة صغيرة، وأخذت أتنفس وكأنني لم أمارس هذه العملية منذ بضعة أيام، ثم أجبرت نفسي على الكلام، فأتى صوتي همساً حين قلت:

«وما نوع تلك الصور؟».

ردت: «إنها مجرد... كما تعرفين، إنها مجرد صور له».

سألتها مجدداً: «وما نوعها؟».

فقالت: «صور عادية، صور له وهو يبتسم للكاميرا».

هتفت: «يا إلهي».

فسألتني: «هل تعتقدين أنه كان يستغلني فقط ليصل إلى كونر؟».

هتفت: «لا، لا، لا».

وتساءلت إن كان مرد يقيني إلى عدم قدرتي على مواجهة فكرة أن ما كانت تقوله هو الصحيح.

قلت لها: «لقد هرب كونر».

هتفت: «هرب؟!».

فقلت لها: «لقد ذهب ليرى حبيبته إيفي، لكنه سافر إلى باريس، لأنهما سيلتقيان والد كونر هناك».

هتفت: «والده؟! لكن كيف...؟».

قلت: «لست أدري، عبر الإنترنت حسبما أعتقد».

هتفت: «مهلاً، ماذا كان اسم حبيبته؟».

أغمضت عينيّ، فأخذ خوفها يتزايد وينتقل إليّ، وأحسست بالخدر في جلدي، لكنني أجبرت نفسي على الكلام، فقلت:

«إيفي. لماذا؟».

فتنهدت وقالت: «لقد وجدت قائمة يا جوليا في حاسوب ريان تضم كل أسماء المستخدمين، وكلمات المرور التي يستخدمها». ثم أخذت تتكلم بتردد وكأنها لم تكن متأكدة، أو كما لو أنها كانت تستنتج شيئاً ما وهي تتابع حديثها: « على الأقل، هذا ما أعتقده». ثم أمسكت عن الكلام لفترة طويلة، وبعدها تابعت: «كان من بين تلك الأسماء اسم لوكاس، لكنْ كانت هنالك أسماء كثيرة غيره، مثل آرغو وشيء آخر لأنني لم أحفظ بقية الاسم، وكراب، وباسكرفيل، وجيب، وهكذا وجدت تلك الأسماء وغيرها الكثير، والله وحده من يعلم بما كان يفعله بتلك الأسماء».

وعرفت ما كانت على وشك أن تقوله لي حتى قبل أن تتفوه به:

«كان اسم إيفي ضمن تلك الأسماء».

عندها، اندفع شيء ما داخلي، فقد أصبحت متأكدة الآن، فهتفت: «رباه!». وكنت بحاجة إلى أسابيع بل أشهر حتى أستوعب الفكرة؛ لأنني لم أكن أريد أن أستوعبها أصلاً.

سألتني: «برأيك، كيف تعرف إليها؟ إذ من أين له أن يعرف حبيبة كونر؟».

فأجبتها: «آنا، إنه لا يعرفها، بل أعتقد أنه هي».

هتفت: «ولكن...»

فسألتها: «هل حاسوبه عندك الآن؟».

أجابت: «نعم...».

هتفت: «اتصلي بالإنترنت وابحثي في موقع فيسبوك».

أخذت أستمع إليها وهي تتوجه نحو غرفة أخرى، وسمعتها وهي تحمل الجهاز، ثم سمعت بعد ذلك موجة من الموسيقى حينما نبهت الجهاز من حالة السكون، وبعد بضع ثوان هتفت: «ها قد عدت. لقد ترك حسابه من دون أن يقوم بتسجيل الخروج. لكن، ما هذا...؟».

ثم أمسكت عن الكلام.

فسألتها: «ما الأمر يا آنا؟ أخبريني!».

فقالت: «إنك على حق، فالصورة التي يستخدمها صورة لشابة، ثم إن الاسم... ليس ريان. أنت على حق يا جوليا، إنه إيفي».

لقد صعقني كل ذلك فجأة، إذ إن كل الأمور التي تجاهلتها ولم أكن أريد أن أراها كانت قد وقعت بالفعل. فكل تلك الأمور التي تركتها من دون أن أبحث فيها قد حصلت. ولهذا توجهت نحو سرير كونر، وجلست عليه، وأخذت أشم رائحة كونر من المرتبة والغطاء الذي كان يستعمله. كانت تلك رائحته، رائحة ابني الذي تركته يتعرض للخطر.

هتفت: «آنا، عليك أن تساعديني. اذهبي إلى محطة الشمال وستجدين ابني هناك».

* * *

نزلت إلى الطابق السفلي، ثم اتصلت بخدمة سيارات الأجرة أولاً، وبعد ذلك اتصلت بهيو؛ إذ لم يكن هناك وقت لأمر على مكتبه وأشرح له الموضوع وجهاً لوجه، إذ كان يجب علي أن أستقل القطار التالي الذاهب إلى فرنسا.

رد هيو بعد الرنة الثالثة وقال: «هل من أخبار يا جوليا؟».

لكنني لم أكن أعرف حينها ما الذي يتوجب عليّ قوله له، غير أنني قلت: «إنه في طريقه إلى باريس».

هتف: «باريس؟!».

وبدت عليه آثار الصدمة، لكنني كنت أريد أن أخبره، بل كان يتوجب علي القيام بذلك.

إلا أنني في الوقت نفسه لم أكن أعرف كيف أفاتحه بالموضوع فقلت: «يمكنني أن أشرح...»

سألني: «ولمَ باريس بالذات؟».

قلت: «إنه... إنه يعتقد أنه في طريقه للقاء إيفي».

سألني: «وكيف عرفت؟».

قلت: «لقد تحدثت إليها».

فقال: «حسناً، كنت أتمنى لو أنك أخبرتها كم يبدو هذا سخيفاً؛ فهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره، ويجب عليه ألا يهرب من المدرسة ويسافر

إلى باريس». ثم أخذ نفساً عميقاً وبعده تابع: «ماذا قالت لك؟».

فحاولت أن أشرح له بقولي: «إن الأمر ليس بهذه البساطة، فقد كنا نتحدث عبر الإنترنت؛ حيث قمت بتسجيل الدخول إلى حساب كونر على جهازه، فاعتقدت أنني هو، وهكذا عرفت إلى أين سيتجه».

ثم أمسكت عن الكلام، إذ كانت سيارة الأجرة التي طلبتها قد وصلت، وكان بوسعي أن أسمعها وهي تتمهل في سيرها في الشارع الذي يطل عليه باب البيت الأمامي. عندها، قلت لهيو:

«يجب أن أذهب». كما لم يكن لدي متسع من الوقت لأحزم أمتعتي، لكنني أخذت معي جواز سفري، ووضعت في حقيبتي مبلغاً يعادل أربعين يورو كنت قد جلبته معي في المرة السابقة، وتركته في أحد القدور الموضوعة على أحد الرفوف في المطبخ.

سألني هيو: «إلى أين؟».

قلت: «إلى باريس، سأتوجه إلى هناك لأحضره».

هتف: «جوليا...»

فقلت: «يجب علي أن أسافر يا هيو».

بعد ذلك، مرت لحظة صمت قرر خلالها هيو ما كان يجب عليه القيام به.

ثم قال لي: «سأسافر إلى هناك أنا أيضاً، حيث سأستقل أول قطار يمكنني أن أقطع تذكرة فيه، وسألتقيك هناك».

ركبت القطار وكنت حينها أشعر بالخدر، لذا لم أستطع التركيز على أي شيء، ولم يكن بإمكاني أن أطالع أي شيء أو أن أتناول أي طعام، لأنني كنت أشعر بأنني تركت الأمان خلفي؛ فلست أدري ما الذي سأجده هناك.

حاولت التركيز في محاولة للمحافظة على هدوئي قدر الإمكان، فأخذت أنظر إلى الناس حولي؛ إذ كان هناك رجل وامرأة أمريكيان يجلسان قبالتي ويفصل بيننا الممشى. وكانا يتناقشان حول الاجتماع الذي كان من الواضح أنهما عائدان منه، فبدا كلاهما مهذبين ومحترفين. وحينها أدركت أنهما ليسا حبيبين، بل مجرد زميلين في العمل. كما كان هناك رجل وامرأة آخران يجلسان قبالتي مباشرة، وقد التزم كلاهما الصمت؛ إذ كانت الفتاة قد وضعت سماعتي

الأذنين وأخذت تهز رأسها مع الموسيقى، أما الشاب فكان يمسك دليل السياحة في باريس. وهنا أدركت بوضوح مباغت أننا جميعاً كنا نضع أقنعة طيلة الوقت، وذلك لأننا كنا نقدم أنفسنا للعالم بأسره بوجه أو صورة عنا، ولكل فرد فيه، لكننا سرعان ما نغير ذلك الوجه تبعاً لمن نجالسه وما يتوقعه الآخرون منا. وحتى حين نكون بمفردنا فثمة قناع آخر نرتديه، أو لنقل صورة عنا نفضّل أن نظهر مثلها في ذلك الحين.

التفتُّ وأخذت أنظر من النافذة عندما اجتزنا المدينة ووصلنا إلى الريف، فبدا لي أن الزخم يزداد حينها؛ حيث وصلنا إلى النفق بسرعة كبيرة. أما الضجة التي كانت تصدر عن القطار فكانت أقرب إلى الهدير الخافت. وللحظة، اكتسى كل شيء باللون الأسود، فأغمضت عينيّ، ثم رأيت فروستي وهي تضع جانباً كأس شرابها الأحمر الذي كانت تشربه بواسطة قشة كعادتها. كانت قد تزينت بمساحيق التجميل بالكامل؛ بالرغم من أن الوقت كان منتصف النهار، وبالرغم من أنها تركت شعرها المستعار في الطابق العلوي.

سألتني: «أين ماركي يا حلوتي؟».

فنظرت إليها، وبدت لي مرتاعة، لكنني لم أكن أدري سبب ذلك، وقلت لها:

«إنه في الطابق العلوي. لماذا تسألين؟».

فتهتف بي: «تعالي». ثم خرجت من المطبخ مهرولة. وبالرغم من أنني كنت أتبعها بأقصى سرعة ممكنة إلا أننا كنا نتحرك ببطء. صعدنا الأدراج التي كانت مظلمة وعارية من السجاد، وحينما وصلنا إلى غرفة النوم التي كان ماركوس يشاركني بها لم نتمكن من فتح الباب؛ لأن ماركوس كان قد سده بكرسي، لذا كان على فروستي أن تدفعه بكتفها كي ينفتح.

استبعدت تلك الصورة من ذهني، وأخذت أتفقد هاتفي مرة أخرى، إذ كان من المفترض أن تظهر الإشارة حتى تحت هذا النفق، لكن الإشارة لم تكن ظاهرة عندي، فملت باتجاه الرجل والمرأة الأمريكيين وسألتهما إن كان هاتف كل منهما قد التقط الإشارة، فقالت المرأة وهي تهز رأسها: «إنها ليست ظاهرة عندي أنا أيضاً». أما زميلها فأخبرني بأنه قد سأل أحد الموظفين العاملين في القطار فأخبره بأن الشبكة لم تكن ظاهرة لدى أي كان، ثم أعقب ذلك بقوله:

«ثمة مشكلة ما بالأجهزة حسبما يبدو». فتكلفت ابتسامة وشكرته، ثم التفت؛ إذ لم يكن بوسعي سوى أن أنتظر حتى تعود الإشارة.

وعندها، ذهب فكري إلى ما أخبرتني به آنا؛ أي إلى أسماء المستخدمين التي يستخدمها لوكاس، ومن بينها آرغو وشيء آخر. وفي تلك اللحظة، أدركت أن ثمة صلة ما تربط بين أسماء كراب وباسكرفيل وجيب، لكنني لم أكن متأكدة من ذلك؛ بالرغم من أنني لم أستطع أن أستنتج الطريقة التي يمكن ربط تلك الأسماء بها.

أخذت أفكر بأن اسم باسكرفيل سهل؛ لأنه يمثّل أحد الخطوط الطباعية بكل تأكيد، غير أن المدلول الوحيد الآخر الذي استطعت التفكير فيه هو الكلب الذي كان لدى شارلوك هولمز. ثم أخذت الأفكار تتوارد إلى ذهني لكن ببطء، فتذكرت أن اسم جيب لا بد أن يكون مأخوذاً من رواية ديفيد كوبرفيلد، وكذلك من قصة الطبيب دوليتل، أما كراب فهو اسم مقتبس من أحد أعمال شكسبير، بالرغم من أنني لم أتذكر اسم المسرحية التي ورد فيها ذلك الاسم، أما آرغوس فموجود في الأوذيسة؛ وجميع تلك الأسماء كانت أسماء لكلاب.

أصبحت الآن أرى كل شيء بوضوح؛ إذ انتابتني حالة مفاجئة من الإدراك والوعي. فمنذ بضع سنوات، أي حينما كان كونر في التاسعة أو العاشرة من عمره، سافرنا نحن الثلاثة لقضاء العطلة في جزيرة كريت اليونانية، فأقمنا في فندق هناك بالقرب من الشاطئ. وفي إحدى الليالي، أخذنا نتناقش حول مصادر أسمائنا ومعانيها، فقام هيو في ما بعد باستخراج معاني أسمائنا ومصادرها عن طريق الإنترنت، وأخذ يخبرنا بآخر ما توصل إليه حينما كنا نتناول طعام الفطور في اليوم التالي. وأتذكر أن معنى اسمي كان الفتوة، أما اسمه فيعني العقل أو الروح.

وعندها، سألنا كونر: «ما معنى اسمي؟».

فقال له أبوه: «حسناً، إن أصل اسمك إيرلندي، وهو يعني حسبما يبدو عاشق كلاب الصيد».

وهكذا، لم يعد بإمكاني تجاهل الحقيقة التي كنت أهرب منها منذ البداية؛ منذ المرة الأولى التي أرسلت فيها رسالة إلى لوكاس الذي كان يطلق على نفسه اسم Largos86. وكانت تلك الحقيقة تتعلق بكونر طيلة ذلك الوقت.

الفصل الثاني والثلاثون

خرجنا من النفق إلى الغسق، فأخرجت هاتفي، إلا أن الإشارة بقيت غائبة، وهكذا أخذت أنظر من النافذة خلال انتظاري عودة الإشارة.

بدت لي المناظر الطبيعية الفرنسية وكأنها في حلم؛ إذ كان الضباب الرقيق يلفها، ثم رأيت الأسواق الضخمة المقفرة المزودة بمرأب ضخم للسيارات من دون أن أجد ما يدل على وجود متسوقين قد وضعوا سياراتهم هناك. وبدا لي أن القطار أصبح له إيقاع مختلف الآن؛ وكأن مجرد فكرة السفر إلى دولة أخرى قد جعلت العالم يتغير، ولكن بشكل طفيف. قدمت ساعتي ساعة، أما هاتفي فقد قام بذلك بشكل أوتوماتيكي. وبعد دقيقة، رأيت ثلاثة خطوط تظهر على الشاشة. وبعد مرور ثانية، سمعت طنين هاتفي الذي كان يعلمني بأن رسالة صوتية كانت بانتظاري، أما المرسلة فقد كانت آنا.

أخذت أستمع إلى الرسالة، حيث بدأت بالقول: «جوليا». أما أنا فكنت أحاول البحث عمّا يدلني على المكان الذي كانت فيه؛ إذ كنت أسمع أصواتاً تشبه صخب المحطة، وبدت لي آنا متحمسة، فهل كانت لديها أخبار سارة يا ترى؟ هل يمكن أن تكون الأخبار كذلك؟

سمعتها تقول: «أمسكت به! كان يترجل من القطار حينما وصلت إلى هنا». كان صوتها مكبوتاً وكأنها كانت تحمل الهاتف فوق صدرها، ثم هتفت: «آسفة، لكنه لا يريد أن يتحدث إليك». ثم أخفضت صوتها وقالت: «إنه محرج حسبما أعتقد. وعلى أية حال، إننا نجلس هنا ونتناول الحليب المخفوق، وحالما ننتهي ستتوجه مباشرة إلى بيتي. اتصلي بي حينما تصلك هذه الرسالة، وسنراك هناك!».

عند ذلك، امتزج الارتياح الذي شعرت به بالقلق. فكم تمنيت أن تجلس آنا معه في ذلك المكان، أو أن تصطحبه إلى أي مكان آخر، إلى أي مكان باستثناء شقتها. كنت أريد أن أقول لها ذلك، لأنها لم تكن تعي الخطر الذي كان محدقاً بها.

اتصلت بها، فأخذ هاتفها يرن، وأخذت أقول لنفسي: هيا، هيا، أجيبي، لكنها لم تجب. فحاولت مرة أخرى، ثم مرة ثالثة، ولكن من دون فائدة؛ إذ لم تجب أيضاً. وعندها، تركت لها رسالة، إذ كان ذلك كل ما كان بوسعي فعله، ومن ثم حاولت الاتصال بهيو.

فلم يردّ على اتصالي أيضاً، وتحولت المكالمة مباشرة إلى بريده الصوتي، فقلت لنفسي إنه لا بد أن يكون في القطار الذي كان خلفي؛ أي لا يستطيع استقبال المكالمات، وتركت له رسالة طلبت منه فيها أن يتصل بي، وهكذا أصبحت بمفردي.

جلست في مكاني وأخذت أركز على تنفسي، وعلى الاحتفاظ بهدوئي، وعلى كبح رغبتي بتناول الشراب.

حاولت أن أستنتج السبب الذي دفع لوكاس إلى القيام بذلك؛ إذ ما الذي جعله يمثل بأنه حبيبة ابني؟ ولمَ كان يستدرجه إلى باريس؟

وعندها، أخذت أفكر بالكلاب وباسم **Largos86**.

وأخيراً، استقر تفكيري على الحقيقة الأخيرة التي كنت أتحاشاها؛ ألا وهي أن لوكاس والد كونر.

وهكذا، بدأت العناصر تجتمع لتكمل الصورة، إذ لا بد أن لوكاس قد أصبح صديقاً لكيت أولاً، وربما آنا في الفترة ذاتها تقريباً، كما أنه من المحتمل أن كلاً منهما لم تكن تعرف بوجوده في حياة الأخرى، ولعله اكتفى بأن يكون صديقاً لكيت عبر الإنترنت، ولا بد أنه كان الشخص الذي أخذ يقنعها بمحاولة استعادة كونر. وحينما أوشكت الأمور على الوصول إلى مبتغاه، قُتلت كيت.

وهكذا، أصبح يتتبع أخبار ابني عبر السبيل الوحيد الآخر الذي كان متاحاً أمامه، أي من خلالي.

ولكن، لِمَ لم أكن أرى تلك الحقيقة؟ وهنا أخذت أفكر بكل المرات التي كنت أشك فيها بوجود شيء آخر في علاقتنا لم أكن أعرفه، وبكل الأشياء التي لاحظتها وغضضت الطرف عنها.

وأخذت أتساءل: ترى، ما الذي كان لوكاس يعتقد أنه ممكن أن يحدث؟ وهل كان يتمنى أن أنهي زواجي حتى أكون معه؟ لنكوّن جميعاً عائلة كبيرة وسعيدة.

عادت بي الذاكرة إلى تلك المرات التي كانت فيها كيت تتصل بي وتقول: «أريد أن أستعيد ابني. إنه ابني، لا يمكنك أن تحتفظي به. كم أتمنى لو أنني لم أسمح لك بانتزاعه مني».

والآن بت أعرف أنه من كان يقف وراء ذلك؛ حيث كان يخبرها بما يجب عليها أن تقوله لي. إنه لوكاس الذي عاد من أجل ابنه... أي ابني.

كانت تقول لي: «أريد كونر». وتكرر هذه العبارة مرات ومرات، وليلة إثر ليلة.

وفي أعماقي، كنت أشعر بأنها كانت ستعيش لو أنني لم أقابل طلبها بالرفض.

وصلنا إلى محطة الشمال، فترجلت من القطار وركبت سيارة أجرة. كان الظلام قد حل، وأخذت الأمطار تهطل على شوارع باريس الفضية فيما كنت أتجه نحو المنطقة الإدارية الحادية عشرة. كنت قبل ذلك قد اتصلت بهيو وأعطيته عنوان آنا، فأخبرني بأنه سيوافيني إلى هناك. وبعد ذلك، حاولت الاتصال بآنا مجدداً؛ إذ كان يجب علي أن أكلم ابني.

ظهر لي على الشاشة أنها كانت متصلة عبر الإنترنت، ومتوفرة لإجراء مكالمة مرئية، فضغطت زر الاتصال. وبعد بضع ثوانٍ، فتحت أمامي نافذة على الشاشة، فاستطعت مشاهدة غرفة المعيشة لدى آنا، بأثاثها نفسه الذي اعتدت عليه، وبالصور ذاتها التي كانت معلقة على الجدران. وبعد ذلك بلحظة ظهرت آنا، فهتفت:

– حمداً لله. آنا...

ثم جمدت في مكاني؛ إذ بدت لي حزينة، أما عيناها فكانتا محاطتين بهالتين حمراوين واسعتين، وشعرت بأنها كانت خائفة، فسألتها:

– ما الخطب؟ أين كونر؟

فاقتربت من الشاشة، وعندها اكتشفت أنها كانت تبكي، فسألتها:

«ما الذي حدث؟ أين ابني؟!».

فقالت: «إنه هنا». لكنها كانت تهز برأسها. وبعد ذلك أردفت: «لقد أتى ريان، وكان غاضباً...»

فقاطعتها وقلت: «لكن كونر كان معك!».

فردت: «كلا، كلا، كان كونر ينتظرني في الخارج. لكن... لم أستطع منعه. أما بالنسبة إلى الصور الموجودة في حاسوبه... فأعتقد أنه سيقوم بإرسالها إلى هيو. ثم... ثم قام بضربي».

كانت تبدو لي وكأنها قد فقدت الإحساس بفعل دواء مخدر.

وحينها، أخذت أفكر بتلك المرة التي قابلت فيها ديفيد، وبحادثة السيارة، والسكين.

وبعد ذلك سمعتها تقول: «لقد كان غاضباً».

فهتفت: «هذا ليس بمبرر يا آنا! عليك أن تهربي من هناك».

فاقتربت من الجهاز وقالت: «أنا بخير. اسمعي». وأخذت تنظر من فوق كتفها وهي تقول: «لا أستطيع أن أبقى هنا طويلاً، لكن يجب علي أن أبوح لك بسر، لدي مسدس».

في البداية، اعتقدت أنني لم أسمعها بشكل صحيح، لكن وجهها كان كالحاً، فأدركت أنني لم أخطئ، وأنها كانت جدية في ما قالته لي.

فسألتها: «ماذا.!؟ مسدس؟ ماذا تقصدين؟».

فبدأت تتحدث بسرعة وتقول: «حينما ماتت كيت... أخبرني أحد أصدقائي بأنه يمكنه أن... يجلب لي مسدساً بغرض الحماية. في البداية، قلت له إنني لا أريده، ولكن...»

هتفت: «ولكن ماذا؟».

ردت: «لكن بعد ذلك، وبعد القصة التي حدثت مع ريان، أصبحت أشعر بالخوف، ولذلك...»

هتفت: «ولذلك وافقت».

فهزت برأسها إيجاباً. وعندها أخذت أسأل نفسي عن كيفية وصول الأمور إلى هذا الحد، وعما إذا كان هنالك شيء آخر لم تخبرني عنه بخصوص موضوع ريان، وحول ما يمكن أن يكون قد فعله.

هتفت: «لكن... مسدس!؟».

غير أنها لم تجبني، بل رأيتها وهي تنظر من فوق كتفها. كنت قد سمعت صوت ضجة، وقد عاودت تلك الضجة الظهور مرة أخرى، فتبين لي أن ذلك

كان صوت ارتطام.

وهنا أخذت آنا تتكلم بسرعة بصوت هامس: «اسمعي...»، فحاولت أن أستوعب ما كانت تقوله لي حينما قالت: «ثمة شيء آخر أريد أن أخبرك عنه، فقد وعدني هيو بألا يخبرك به، لكن يجب عليّ الآن أن...».

هتفت بها: «هيو!؟» إذ كان اسمه آخر اسم يمكن أن أتوقع وروده في هذا السياق.

فقالت: «... إن الأمر يتعلق بكيت؛ فالرجل الذي وجدوا القرط معه ليس القاتل».

وهنا أخذت أهز رأسي وأقول في سري: كلا، كلا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك.

ثم هتفت: «ماذا تقصدين؟ أليس هو القاتل؟».

فأجابت: «إن لديه حجة دامغة تؤكد عدم تواجده في المكان ساعة مقتلها».

فقلت: «لكن هيو كان سيخبرني بذلك؛ لأنه لن يتركني أواصل التفكير بـ...»

عند ذلك، تبخرت الجملة التي كنت أنطق بها، إذ لعله فعل ذلك كي أبقى بسلام.

فقالت آنا: «إنني آسفة، لكنني أقول لك الصدق. لقد قال...»، ثم سمعت صوت ضجة صادرة من عندها، وكان الصوت عالياً، وبدا لي كصوت إغلاق باب بقوة، ثم سمعت صوت شخص؛ بالرغم من أنني لم أستطع أن أستنتج من كلامها ما قاله لها هيو.

ثم جاءني صوت آنا وهي تقول: «يجب علي أن أذهب، لأنه قد عاد».

فشرعت أهتف: «آنا...لا تقومي...»

إلا أنني لم أتمكن من إكمال الجملة، إذ رأيت لوكاس خلفها.

كان يصرخ، وبدا عليه أنه كان يرغي ويزبد، وكان شيء ما يلمع في يده، لكنني لم أتبين ما هو ذلك الشيء. وهنا، وقفت آنا فحالت بيني وبين ذلك المشهد، ثم سمعته يسألها عمن كانت تتحدث معه، إذ سمعت عبارات ناقصة مثل: «من اللعين؟» و«طفل». وبعد ذلك سمعتها تلهث، ثم اختفت الصورة من الشاشة، فعرفت أنه دفع آنا نحو الطاولة فسقطت على الحاسوب المحمول؛

مما حال بيني وبين الكاميرا. وحينما عادت الصورة، عرفت أن الحاسوب كان على الأرض. وبفضل الكاميرا الخاصة به، رأيت ألواح الأرضية وبساطاً وحافة أحد الكراسي.

إلا أنه كان بوسعي أن أسمع ما كان يجري. إذ سمعته وهو يقول لها إنه سيقتلها، وسمعتها تلهث وتصرخ قائلة: «لا». وتكرر ذلك مرات ومرات، فأخذت أناديها، إلا أن ذلك كان بلا جدوى، ثم سمعت صوت ارتطام؛ كصوت سقوط جثة على جدار أو على الأرض، غير أنني لم أكن قادرة على إبعاد ناظريّ عن الشاشة. إلا أن حاسوب آنا كان قد تحطم، وتغيرت الصورة فيه، ثم ظهر رأسها وهي مرمية على الأرض، وكانت تلهث. وبعد مرور لحظة، ركلها لوكاس بعنف نحو الخلف، ثم سمعت صوت ارتطام حينما أمسك بقبضته يدها في محاولة عنيفة لسحقها، ولهذا أخذت أنادي عليها باسمها، لكن كل ما كان بوسعيفعله هو أن أراقب رأسها وهو يهتز بعنف نحو الخلف مرات ومرات إلى أن سكتت أخيراً.

أخذت أحدق بالشاشة، فشعرت بأن الغرفة هادئة وخاوية، ولم يكن فيها أي أثر لكونر، وهنا تضاءل الرعب لدي.

أنهيت المكالمة في لحظة يأس، وبفرنسية ركيكة سألت السائق عن الوقت الذي ستستغرقه رحلتنا، فأجاب: «خمس دقائق، ومن الممكن أن تمتد إلى خمس عشرة دقيقة». وعندها، شعرت بأنني كنت مسعورة وهائجة؛ إذ كانت كل أعصابي متوترة، وكنت أشعر بطاقة يستحيل أن يتحملها جسدي. كنت أريد أن أفتح باب السيارة، وأن أقفز بين السيارات، وأن أركض إلى الوجهة التي كنت أقصدها، لكنني كنت أعرف أنني حتى لو قمت بذلك فلن أختصر من الطريق والمدة شيئاً. ولذلك اعتدلت في جلستي، وتمنيت أن يختفي ذلك الزحام لتتمكن السيارات من المضي إلى وجهتها بسرعة أكبر.

اتصلت بهيو، لكنه لم يجب هذه المرة أيضاً.

فأخذت أشتم وأقول: «اللعنة»، لأنه لم يكن بوسعي القيام بأي شيء. وبعد برهة، بدأت أتعرف على الشوارع، فتذكرت أنني مشيت هنا خلال شهر نيسان الماضي، لكنني كنت غارقة بأحزاني، كما أنني كنت أشعر وقتها بنار تحرقني؛ لأنني خدعت نفسي حينما فكرت بأنني قد تدبرت أمري لأتفادى كل ذلك.

كـم كانـت الأمـور بسـيطة وقتهـا! إذ كان كل مـا هو مطلوب منـي هو أن أتأقلم مـع الوضـع، وأن أتعايـش مـع الألـم. ومع ذلـك، لم أتمكن مـن الوصول إلى تلك المرحلة.

وأخيراً، وصلنا إلى الشارع الذي تسكن فيه آنا، فاكتشفت أن صالة الغسـيل كانت لا تزال مغلقة. وكان هنالك مخبز قبالتها كنا قد اشترينا منه خبزاً طازجاً للفطور في المرة الماضية. لكن، كان علي أن أكون حذرة.

طلبت من السائق أن يتوقف قبل بضعة أبنية من بناء آنا؛ إذ اعتقدت أنه من الأفضل أن أفاجئهما. فهو قد أتى على حين غرة، وكنت سأعامله بالمثل. وبعد مرور وقت قصير على وقوف السائق بعيداً، أخذ هاتفي يرن.

كان هيـو هـو المتصـل، حيـث قـال لي: «لقد وصلت إلى فرنسـا للتو. أين أنت؟».

فقلت له: «قرب بيت آنا. أعتقد أن كونر هناك».

ثم أخذت أخبره عما رأيته، وطلبت منه أن يتصل بالشرطة.

هتفت: «لقد تعرضت آنا لهجوم، إلا أنه علي أن أشرح لك ما تبقى لاحقاً. لكن، هيو...»

سألني: «نعم؟».

غيـر أننـي لـم أكـن أريد أن أسـأله، لكنني كنت أعرف أنـه ينبغي لي القيام بذلك، فقلت:

«ما الذي حدث للرجل الذي ألقوا القبض عليه؟».

أخـذت أقـول في سـري: أخبرنـي بالحقيقة، أخبرنـي بالحقيقة من دون أن أتسـولها منك؛ فقد تكون أمامنا فرصة أخرى.

وتابعت قائلة: «لقد أخبرتني أنهم وجهوا إليه التهمة».

إلا أنه بقي صامتاً، لذا عرفت أن ما أخبرتني به آنا كان صحيحاً. وهكذا، أصبح هيو يعرف أنني على علم بالأمر أيضاً.

سمعته يسعل ثم يقول: «أنا آسف».

غير أنني لم أتكلم؛ إذ كنت بالكاد أتنفس، ولكن كان علي أن أحافظ على هدوئي، وهنا سمعته يقول:

«لقد اعتقدت أنني كنت أقوم بالشيء الصحيح يا جوليا».

عندها، أخذت أقول في سري إن كل شيء سيكون على ما يرام، وإن هيو سيتصل بالشرطة، وسيصل رجال الشرطة قريباً. ثم حاولت أن أقول لنفسي إن لوكاس مهما فعل فسيبقى والد كونر، وقد يصطحبه إلى أي مكان، إلا أنه لن يؤذيه.

كان يجب علي أن أخبره، أن أخبر هيو بسبب مجيئنا إلى هنا، لكنني لم أستطع. إذ لم أكن أريد أن أخبره بهذه الطريقة.

وأخيراً، قلت له: «كل ما أريده منك هو أن تتصل بالشرطة، وأن تبقى هنا أرجوك».

هرولت نحو البناء الذي كانت شقة آنا تقع فيه، ثم حاولت فتح مقبض الباب وكنت محظوظة؛ لأن القفل الرقمي كان معطلاً كما يحدث بين الفينة والأخرى ـ بحسب ما أخبرتني ـ فانفتح الباب، ثم خطوت نحو الداخل، وبعدها أغلقت الباب بلطف خلفي.

لم أشعل الأنوار، بل صعدت الدرج. وعند مهبط الدرج الأول رأيت باب شقة آنا؛ تماماً كما كنت أتذكره. وكان ثمة ضوء خافت ينير الألواح الزجاجية، ولكنني حينما وقفت بجانب الباب وأخذت أنصت لم أسمع أي صوت. إذ لم تكن هنالك أية أصوات لأشخاص، حتى إنني لم أسمع صراخاً؛ لم أسمع أي شيء على الإطلاق. ولهذا، توجهت نحو المكتب، وسحبت الدرج بهدوء قدر الإمكان. وكنت أتضرع إلى الله ألا يكون أحد قد أخذ المفتاح الذي كانت آنا تخبئه تحت ذلك الدرج، أو أنها لم تقم بتغيير القفل منذ زيارتي الأخيرة لها.

كان حظي طيباً يومها، فقد وجدت المفتاح هناك مربوطاً بشريط بالطرف السفلي للدرج، فأخذته ووقفت مرة أخرى عند باب الشقة. وحين لم أسمع أي صوت، سمحت لنفسي بالدخول. كان النور في مدخل البيت مضاءً، وكانت هنالك مزهرية تحتوي على زهور ميتة فوق الطاولة الجانبية. تقدمت إلى الأمام، إلا أن صرير حذائي بدا لي عالياً بشكل غير معقول وسط هذا السكون.

بدت لي الشقة أكبر بكثير في الظلام. إلا أن الأمر استهلك مني كل قوة الإرادة التي كنت أتمتع بها كي أمنع نفسي من الصراخ ومن أن أهتف بالسؤال: هل من أحد هنا؟ وأدركت حينها أنني لم أكن أدري أيهما كنت أتمنى أكثر: أن

أجد أحدهم في البيت، أم أن أجد المكان خالياً.

أخذت أفتش الشقة غرفة غرفة، فوجدت أن التلفاز في غرفة المعيشة قد ترك يعمل من دون أي صوت على محطة إخبارية. وفي المطبخ، وجدت كرسياً وضع بالمقلوب، كما وجدت أن البقايا البنية اللزجة لوجبة ما كانت قد لطخت الجدران، ثم دست بقدمي على دواسة القدمين. وحينما نظرت إلى الأسفل، وجدت بقايا الوعاء الأزرق المخطط الذي كانت الدواسة موجودة فيه.

تابعت سيري، فنظرت إلى غرفة نوم كيت، ثم توجهت نحو غرفة نوم آنا، غير أنني ترددت قبل دخولها. إذ كنت أسأل نفسي: ترى، ما الذي يمكن أن أجده فيها؟ فتخيلت كيت برأسها المهشم، وشعرها الذي كانت الدماء تغطيه، وعينيها المفتوحتين، وأطرافها التي كانت ملتوية.

أخذت نفساً ثم ابتلعت لعابي، وبعدها دفعت الباب فانفتح أمامي.

كان السرير يتوهج بالدم الأحمر تحت الضوء الخافت، ولكنني حين أشعلت الضوء بحركة سريعة وجدت أن غطاء المفرش كان قد انزلق عن حافة السرير السفلية. وهكذا، كانت الغرفة خاوية كبقية الشقة.

لكنني لم أستوعب ذلك، فأخرجت هاتفي، وقمت بتشغيل تطبيق البحث عن الأصدقاء، فاكتشفت أن النقطة الأرجوانية لا تزال تومض، وقد تداخلت مع نقطتي في ذلك الحين، وفي المكان ذاته حيث كنت أقف بالضبط؛ أي لا بد أن تكون هنا.

ضغطت زر الاتصال، وبقيت أسمع النغمة الدولية لمدة ثانية، ومن ثم سمعت صوت أزيز منخفضاً ومتواصلاً في مكان ما بالقرب من قدمي، فانحنيت إلى الأسفل، ووجدت هاتفاً يرن على الأرضية تحت السرير، ويضيء وهو يتحرك؛ إذ لا بد أنه قد سقط على الأرض، ثم ركله أحدهم تحت السرير. ركعت على يدي وركبتي ثم أمسكت به. وفي الوقت ذاته، رأيت شيئاً آخر تحت السرير، شيئاً لامعاً ومعدنياً، كان ذلك المسدس الذي أخبرتني آنا عنه.

جمدت في مكاني لأنني لم أكن أريد أن ألمسه، ثم أخذت أسأل نفسي عن كيفية وصوله إلى هنا تحت السرير. وعندها، بدأت أتخيل آنا ولوكاس وهما يتعاركان، ثم آنا وهي تتجه نحو المسدس في محاولة منها لتهديده. ولعل المسدس قد وصل إلى هنا حين قام أحدهما بركله أثناء العراك ليصل إلى تحت

السرير، أو لعل آنا لم تصل إليه أصلاً؛ إذ لعلها كانت تحتفظ به هنا ولم تكن لديها أي فرصة لتصل إليه.

ولكن، أين كونر؟

شعرت بأن العالم كان يتهاوى، وكأنه قد بدأ بحالة التفسخ والتحطم، فتنفست بعمق، ثم أقنعت نفسي بأنه يجب عليّ أن أحافظ على هدوئي. بعد ذلك، جلست على السرير والمسدس إلى جانبي، وقد ظهرت على شاشة هاتف آنا مكالمتي الفائتة. لكن، كانت هنالك رسالة أخرى، وهي عبارة عن رسالة نصية أرسلت من رقم لم أستطع تمييزه، وقد جاء فيها: «جوليا، إن أردت أن تجدي كونر فاتصلي بهذا الرقم».

وعندها ترددت، غير أن ترددي لم يدم أكثر من لحظة واحدة؛ إذ لم يكن أمامي خيار آخر، لذا اتصلت.

كانت مكالمة مرئية، وقد تمت الإجابة عليها بعد هنيهة. وهنا، بدأت قسمات الوجه تظهر، وفجأة رأيت لوكاس جالساً أمامي وسط الظلمة أمام نافذة، وكان جسده يحجب النور الخافت الذي كان يأتي من الشارع الذي كانت النافذة تطل عليه؛ الأمر الذي جعل صورته تتراءى لي بين الظل والنور. وهنا تذكرت البرامج التلفزيونية التي كانت تعرض جرائم واقعية؛ حيث لا يمكن التعرف على الضحية، أما صوتها فيتم تشويهه بطريقة ما. غير أن أفكاري سرعان ما اتجهت إلى تلك المرات التي كنا نتحاور فيها مع بعضنا في السابق عبر مكالمات الفيديو.

هتف بي: «لقد وجدتِ الهاتف».

فأخذت نفساً عميقاً وأنا أحاول أن أستجمع أكبر قدر ممكن من الشجاعة، ثم وضعت يدي على المسدس الذي كان بجانبي، فمنحني ذلك إحساساً بالقوة، وعندها قلت له: «ما الذي تريده؟». إلا أن صوتي بقي متهدجاً، وهكذا أدركت كم بدا سؤالي عاجزاً.

انحنى لوكاس نحو الأمام، فأنار ضوء الشاشة وجهه، وهنا رأيته يبتسم.

إنه لم يتغير، لكنني لم أتعرف عليه على الإطلاق؛ وذلك لأن لوكاس الذي عرفته كان قد رحل بشكل نهائي.

سألته: «أين كونر؟».

فأجاب: «ليست عندي أية فكرة عن مكان وجوده».

كانت كلماته تحمل بين ثناياها طعم التهديد، فقلت له:
«دعني أراه».
لكنه تجاهل طلبي وقال: «كما قلت لك، قررت أن أضع يدي على حصة كونر من المال الذي تركته شقيقتك».
كنت أعرف أنه كان يكذب؛ إذ بدت لي كلماته سطحية وغير مقنعة. وحتى لو لم أكن أعرف الحقيقة، لكان بوسعي أن أميز ذلك، ولهذا قلت له:
«إن الأمر لا يتعلق بالمال، فأنا أعرف من تكون».
سألني: «حقاً؟».
وهنا أغمضت عينيّ، فغمرني إحساس بالكره، ولم يكن بوسعي أن أبقي أفكاري هادئة. ولكن، كم امتدت الفترة التي كان هذا الرجل يحادث ابني خلالها؟ ابني... الذي كان والده يمثل عليه دور حبيبته؟
وللحظة، شعرت بأنني أصبحت ضخمة ولا أحد يستطيع أن يوقفني؛ وكأن الكره الذي كان بداخلي لا يعرف أي حدود، وكأنه كان بوسعي أن أتجاوز الحاسوب الذي كان يربط بيننا، وكذلك الألياف البصرية والأقمار الصناعية، لأحطمه بمجرد رغبتي في ذلك.
غير أنني كنت أعرف أنني لن أفلح في ذلك. لذا، أجبرت نفسي على معاودة التركيز على الشاشة مجدداً؛ إذ كان لوكاس لا يزال يتحدث، لكنني لم أكن أسمعه.
وبعد ذلك قلت له: «اتركه، بل اتركهما، فبماذا آذياك؟».
لكنه لم يجب، بل تجاهل سؤالي، ثم رفع شريحة الذاكرة وقال: «سبق لي أن أخبرتك بما سيحدث إن لم تتركيني وشأني أنا وآنا».
وعندها، تراءى أمامي مشهد لي وله حينما كنا في غرفة الفندق، وكنت أضع يدي على اللوح الأمامي للسرير فشعرت بالقرف.
قلت له: «لا تفعل ذلك أرجوك. ودعني أرى كونر».
فضحك وقال: «فات الأوان. فقد أخبرتك بأنني سأطلع عائلتك على الحقيقة».
ثم وقف وهو يحمل هاتفه المزود بكاميرا أمامه بشكل ساعد على إبقاء وجهه ثابتاً، فبدا وكأن الأرضية هي التي كانت تدور بشدة؛ وكأنه كان على

ظهر سفينة حاول الموج أن يقلبها. وعندها، تبينت في الصورة مصباحاً كهربائياً صغيراً، فاعتقدت أنه معطل، أو أنه لم يقم أحد بتشغيله. وبعد ذلك، شاهدت ممراً تحيط به ألواح زجاجية، وكان لا بد من وجود غرفة أخرى بجانب الفرن خلف ذلك الممر.

هتف باسمي: «جوليا...». ثم أخذت الصورة تدور مرة أخرى، لتتجمد بعد ذلك، فقد أصبح ثابتاً في مكانه، وكأنه مستغرق في تفكير عميق، فكان بوسعي أن أرى نافذة تطل على الشارع من فوق كتفه. وسمعته يقول: «أريد حصة كونر من المال الذي تركته شقيقتك، وبذلك ستكون القسمة عادلة، لأنني لن أضع يدي على حصة آنا أبداً».

لم أستطع أن أفهم سبب قيامه بذلك، فقلت وأنا أصرخ: «إنني أعرف أن كل ذلك لا يدور حول المال اللعين!». إذ كان الغضب يغلي في عروقي بشدة، فتابعت: «إنني أعرف من تكون أيها اللص!».

لكنه تجاهل ما قلته، ثم قال: «لا تنسي تلك الصور. أأقول لك شيئاً؟ ما رأيك بأن تبقي هنا الليلة؟ وأن تتصرفي وكأنك في بيتك؟ أنا متأكد من أن آنا لن تمانع ذلك. وفي الغد، سيكون أول شيء أفعله هو أن أمر عليك، وعندها يمكنك أن تعطيني المال، لتحصلي على هذه». وهنا رفع شريحة الذاكرة مرة أخرى، وبعدها تابع: «وإلا سأعطيها لعائلتك؛ الأمر عائد إليك في النهاية».

فبقيت صامتة، إذ لم يكن لدي ما أقوله، كما لم يكن لدي مكان ألجأ إليه.

وبعد ذلك، سمعته يقول وهو يضحك: «حسناً، أراك غداً إذاً». إلا أنني كنت على وشك أن أطرح عليه سؤالاً حين قال لي: «كما يمكننا أن نستمتع بعلاقة حميمة للمرة الأخيرة إن أحببت؛ فقط لنحيي ذكرى الأيام الخوالي».

وبعدها اختفى من أمامي.

وقفت، وكان غيظي قد بلغ أقصى مداه وأصبح عنيفاً كالبركان، لكنه كان عاجزاً. إذ كنت أريد أن أنتقد وأسحق وأحطم، ولكنني لم أستطع القيام بشيء، فألقيت نظرة على المسدس وأمسكت به، وعندها شعرت بثقله على يدي.

لم يكن أمامي متسع من الوقت للتفكير، كما أن رجال الشرطة لم يصلوا بعد، إلا أنهم قد يصلون خلال وقت قصير. وبالرغم من أن مجيئهم لا بد أن

يكون مضيعة للوقت، إلا أنني كنت محطمة فعلاً. ثم إنني كنت أحمل مسدساً، لذا لا بد لهم أن يطرحوا علي أسئلة بخصوص ذلك، ولهذا كان علي أن أخرج من تلك الورطة. ولهذا، حملت المسدس وأخذت أفتش في خزانة الأدراج التي كانت موضوعة بالقرب من النافذة، ثم أخرجت منها قميصاً صوفياً بلون أصفر كلون الليمون، ووضعت المسدس داخله، وبعدها وضعت القميص بمحتوياته في حقيبتي، ثم أغلقت الباب خلفي عندما غادرت، ونزلت الأدراج.

لقد أخطأ لوكاس حينما أدار هاتفه في المطبخ، إذ لمحت وقتها النافذة التي كانت على يمينه، ورأيت الشارع الذي كانت النافذة تطل عليه. وبالرغم من أن تلك الوضعية لم تستمر لفترة طويلة، إلا أن ذلك كان كافياً لأكتشف مكانه. فعبر النافذة، تمكنت من رؤية شارع فيه صف من المحال التجارية، مع لافتة ضوئية كتب عليها: «نادي الصحة!»، وقد أضيفت إلى تلك العبارة إشارة تعجب بشكل أنيق إلى جانب الشعار الذي كان يمثل عداءً رُسم بخطوط منحنية ونقاط، وفوق تلك اللافتة قرأت كلمة واحدة وهي: «بيرغر».

وحينما ابتعدت عن الشقة، أخذت أبحث في هاتفي، فكتبت تلك الكلمات في المتصفح، وأنا أتضرع إلى الله أن يكون هنالك فرع واحد فقط لذلك النادي، لكن أملي خاب حينما ظهرت أمامي نتيجتان للبحث: الأولى في المنطقة الإدارية التاسعة عشرة، والثانية في المنطقة السابعة عشرة. وكانت ثمة خارطة مرفقة بكل نتيجة، حيث بدا لي النادي الأول وكأنه يقع في شارع مزدحم، بينما يقع الثاني مقابل حديقة.

وهنا قلت لنفسي إن المكان لا بد أن يكون في المنطقة التاسعة عشرة، والتي أعتقد أنها تبعد عن مكاني حوالى ثلاثة كيلومترات.

كان علي أن أذهب إلى هناك لأحضر كونر، وقد أتمكن من إرغام لوكاس على التنازل عن شريحة الذاكرة، كما كنت سأهدده ليترك آنا، وليدعنا وشأننا جميعاً.

ناديت سيارة أجرة، ثم أعطيت السائق العنوان، وبعدها ركبت السيارة وسألته بالإنكليزية: «كم سيستغرق الطريق إلى هناك؟». غير أنني أدركت بعد هنيهة الخطأ الذي ارتكبته، وصححت ما قلته بإعادة السؤال على مسمعيه باللغة الفرنسية.

فنظر إليّ السائق عبر المرآة التي كانت أمامه، وبدا لي غير مكترث إلى حد بعيد، ثم هز كتفيه بلا مبالاة وقال بفرنسيته: «لسنا بعيدين عن المكان». كانت شجرة بلاستيكية تتدلى من المرآة الموضوعة أمامه . أما على لوحة العدادات فكانت هناك صورة لامرأة وطفل، ففكرت في سري: لعلها أسرته التي يطابق عدد أفرادها عدد أفراد أسرتي. ثم بدأت أنظر من النافذة إلى الشوارع التي كانت تنسل مبتعدة عنا أثناء الرحلة. كان المطر قد بدأ بالهطول بغزارة، ولهذا أخذ الناس يرفعون مظلاتهم أو يركضون وهم يضعون جرائد فوق رؤوسهم. عندها، أرحت رأسي على الزجاج البارد ثم أغمضت عينيّ، إذ كنت أريد أن أبقى صامتة وأنا أشعر بالدفء إلى الأبد.

لكنني لم أستطع، فأخرجت هاتفي واتصلت بزوجي، وحين رد علي قلت له:

«أين أنت يا هيو؟».

فأجاب: «لقد وصلنا إلى محطة الشمال للتو».

سألته: «هل اتصلت بالشرطة؟».

فسكت.

سألته: «هيو؟».

فأجاب: «أجل، لقد اتصلت بهم، وهم في طريقهم إلى هناك».

فقلت له: «عليك أن تتصل بهم مجدداً، أرجوك، فلقد ذهبت إلى بيت آنا، إلا أنها لم تكن موجودة، وبدا لي المكان مهجوراً، ثم إنها وكونر... أعتقد أن شيئاً مريعاً قد حدث لهما».

هتف: «مريعاً؟!».

فقلت له: «ما عليك سوى أن توافيني إلى هذا المكان في أسرع وقت ممكن». ثم أعطيته العنوان.

فسألني: «لماذا يا جوليا؟ وما الذي يوجد هناك؟».

أغمضت عينيّ، فقد أتت اللحظة التي كنت أهرب منها، وأصبح إخباره أمراً ضرورياً، فقلت: «اسمع يا هيو، إن هذا المكان هو المكان الذي ذهب إليه كونر، ثم إن إيفي شخصية غير موجودة في الواقع».

فهتف: «لكنني تحدثت إليها!».

قلت له: «إنه مجرد اسم يستخدمه ليستدرجه للذهاب إلى هناك».
فسألني: «من هو؟ إن كل ما تتفوهين به يا جوليا يبدو غير منطقي وبلا معنى».
فقلت له: «اسمعني يا هيو. لقد وجد كونر والده، أعني والده الحقيقي، وقد جاء إلى هنا ليلتقيه، لكنه الآن في خطر».
وهنا ساد الصمت، فلم أستطع تخيل شعور زوجي تجاه كل ذلك؛ إذ لا بد له أن يسألني عن كيفية معرفتي بذلك، وعما حدث، ولا بد أن ينكشف كل شيء. ولهذا، أخذت نفساً عميقاً، وشعرت بعد ذلك أنني أصبحت مستعدة لإخباره بكل ذلك، فشرعت أقول:
«لقد عرفت... والد كونر، لكنه لم يخبرني بأنه والد كونر. ولكن...»
وهنا قاطعني هيو بقوله:
«لكنّ هذا مستحيل».
فهتفت: «ماذا؟».
وعندها، سمعته يتنهد وهو يقول: «آسف يا جوليا، لكن كيت أخبرتني...»
سألته: «بماذا أخبرتك؟».
فأجاب: «بأن والد كونر قد توفي».
وهنا التزمت الصمت، وبعد ذلك هتفت: «ماذا؟! إذاً، من هو؟ هذا هراء».
فرد عليّ بالقول: «لا يمكنني أن أخبرك الآن وأنا في هذا الوضع».
وعندها، سمعت صوت إعلان عن الوصول، ومن ثم صوت توقف القطار الذي كان فيه.
وهكذا بدأت أصرخ: «أخبرني يا هيو!».
لكنه اكتفى بالقول: «ها قد وصلنا! علي أن أذهب».
هتفت: «هيو!».
فرد علي: «آسف يا حبيبتي. سأكون عندك خلال فترة قصيرة، وحينها سأخبرك بكل شيء».

الفصل الثالث والثلاثون

أبطأت السيارة حتى بدت وكأنها تزحف، ثم توقفنا بسبب ازدحام السير، وكانت أمامنا إشارة ضوئية؛ إذ كان هنالك تقاطع مروري مزدحم، وذلك بسبب تقاطع جسر السكة الحديدية مع الشارع. أخذت أفكر في سري: إن هيو مخطئ، إذ لا بد أن يكون لوكاس والد كونر؛ فوالد كونر لم يمت، بل إنه هنا، وقد استدرج ابنه ليأتي به إلى هنا أيضاً.

وهنا سمعت السائق يقول: «ها قد وصلنا». لكنه كان يشير إلى الأمام، فأخذت أحدق بالطريق تحت المطر؛ إذ كان بوسعي أن أرى المكان أمامي. كانت أبواب مطعم بيرغر لا تزال مشرعة، فبدا الممر المؤدي إليه دافئاً ومشجعاً على الدخول. رأيت امرأة تخرج منه، وكادت أثناء خروجها تصطدم برجل كان يحاول الدخول إلى المطعم، فأخذت أراقبها حين وقفت وأشعلت لفافة تبغ، لكنني لم أستطع أن أبقى هادئة أكثر، إذ كان علي أن أتحرك. سمعت السائق يهمهم حينما أخبرته بأنني سأنزل في ذلك المكان، ثم دفعت له أجرته، وبعدها قفزت إلى الرصيف. كان المطر غزيراً جداً؛ لدرجة أنني ابتللت مباشرة بعد نزولي من السيارة، فأخذت المرأة التي كانت تحمل لفافة تبغ تتجه نحوي، ثم أومأت لي برأسها حين مررت بها، وبعدها أصبحت أمام النادي الرياضي. إذاً، لا بد أن شقة لوكاس كانت في الجانب الآخر من الشارع، لكنني لم أكن أدري ما الذي كان علي فعله بعدما وصلت إلى هذا المكان. أخذت أنظر إلى الشارع، بعيداً عن مجموعة المكاتب مسبقة الصنع التي كانت تغطيها كتابات جدارية كتبت بواسطة بخاخ. كان البناء المقابل لتلك المكاتب يبدو بلون رمادي، أما نوافذه فكانت منتظمة بشكل رتيب، فبدا لي كمنظمة أو مؤسسة حكومية، كما خيل لي أنه يمكن أن يصلح كسجن. أخذت أسأل نفسي: ترى، في أي طابق تقع شقته؟ وكيف سأصل إليها؟ وعند ذلك، سمعت صوت هدير قطار فوق سكته قادم من آخر الشارع، ثم شاهدت صف أعمدة قصيرة كانت

مصفوفة كحرس على طول الرصيف، ووراء تلك الأعمدة بالضبط تبينت محلاً صغيراً لبيع الصحف كان لونه أزرق فاتحاً، وقد وضعت عليه لافتة إعلانية لمستحضرات أنتيل للتجميل. وعلى ذلك الجانب، كان يتفرع زقاق من ذلك الشارع، وكان ذلك الزقاق غير مضاء بالأنوار، ولهذا بدا لي وكأنه يفضي إلى طريق مجهول.

وعندها، أدركت _ وكنت واثقة من ذلك _ بأنني رأيت هذا المكان من قبل، بواسطة حاسوبي. فبالرغم من أنني لم أتعرف عليه في البداية، وخاصة مع كل هذا الظلام، إلا أنني الآن متأكدة من أنه المكان ذاته، فركضت متجاوزة مطعم بيرغر إلى بداية الزقاق. أجل، لقد أصبت في ذلك.

كان ذلك هو الزقاق الذي ماتت فيه أختي.

جريت نحو الزقاق الذي كان غارقاً بمياه المطر والظلام الدامس المطبق، فلم أستطع أن أصدق أنني وصلت إلى هنا، وأن هذا هو الزقاق ذاته الذي وجدت فيه جثة شقيقتي، والذي لفظت فيه أنفاسها الأخيرة بعدما فاضت دماؤها على أرضه المرصوفة بالحجارة. فهذا هو المكان الذي ابتدأ منه الكابوس قبل بضعة أشهر.

وهنا خطر ببالي خاطر، فقلت لنفسي: لقد كنت مخدوعة طيلة الوقت؛ إذ لم يكن لوكاس يقضي إجازته في أستراليا، أو على الأقل لم يكن هناك حين قتلت كيت، ولم يكن قاتل كيت مجرد تاجر مخدرات.

أي إن كيت لم تتعرض لهجوم مباغت من أجل قرط زهيد الثمن، ولم يهاجمها أحد حينما كانت تشتري المخدرات، ولم تقتل خلال هجوم عشوائي حينما كانت في طريقها إلى البيت عائدة من المقهى، بل أتت إلى هنا لتراه؛ لتقابل والد ابنها.

حاولت أن أتخيل الصورة: ترى، هل كان يأمل بمصالحتها؟ وحينها تخيلت كيت وهي تصده، وتخبره بأنها تريد أن تقطع صلتها به، وبأنه عليه ألا يرى كونر مرة أخرى. وبعد ذلك رأيتهما يتجادلان، ويتبادلان الشتائم، وخلال ذلك رأيت قبضة ترتفع.

أو لعلها كانت خطته منذ البداية؛ أي أن يحضرها إلى هنا ليعاقبها على

إبعادها كونر عنه، وعلى عدم تمكنها من استعادته.

عندها، أخرجت هاتفي لأنني كنت بحاجة إلى هيو وإلى مساعدته، وكنت أريد أن أعرف المسافة التي كانت تفصل بيني وبينه. إلا أن ما كنت أريده بالفعل كان أكبر وأعمق من ذلك؛ إذ كنت أرغب في أن أقول له إنه كان مخطئاً، وإن كيت كانت تكذب في ما يتعلق بكل ما أخبرته به؛ لأن والد كونر لا يزال حياً يرزق، وهو من قتلها. كنت أريد أن أشرح له، وأن أخبره كيف اكتشفت ذلك، وأن الذنب كان ذنبي. كما كنت سأعتذر له على ذلك، وسأقول له إنني أحبه.

إلا أن هاتفه نقلني مباشرة إلى البريد الصوتي، وهكذا شعرت مرة أخرى بأنني وحيدة.

شعرت بالهدوء والسكينة بطريقة غريبة، وأصبحت جامدة كحجر. لكن، وراء ذلك الإحساس كان ثمة شيء آخر؛ إذ بدأت معدتي تنكمش، فأدركت أن تلك كانت الإشارة الأولى إلى موجة ساحقة قادمة. لذا، كان يجب علي أن أحافظ على تركيزي وأبقى هادئة. وفجأة، امتدت يدي إلى المسدس الذي كان في حقيبتي، غير أنه لم يمنحني الثقة بالنفس التي منحني إياها في المرة السابقة، بل أخذ يذكرني باستحالة ما كان يجب علي القيام به. أخذت أجري لبرهة، لكنني لم أكن أهرول لأصل إلى مركز الشرطة، بل كنت أجري بعيداً... بعيداً عن كل شيء؛ لأصل إلى الزمن الذي لم تحدث فيه كل تلك الأحداث، إلى الزمن الذي كانت فيه كيت على قيد الحياة وكان كونر سعيداً.

إلا أن ذلك كان ضرباً من المستحيل، لأن الزمن كان يتقدم، ويطحننا معه بلا هوادة. وهكذا، وجدت نفسي حبيسة لتلك المرحلة، من دون أن أجد أي مفر، ورغبت في أن أتمدد فوق الأرض المبللة لأسمح لحبات المطر الباردة بأن تغسل عني تلك الأفكار.

لكنني فجأة سمعت ضجة، كانت صوتاً جفلت منه، ثم مرّ قطار كان آتياً من مكان مجهول عند أحد طرفي الشارع، فرفعت بصري إليه. كان أصفر اللون وأبيض، وكان يتحرك بسرعة كبيرة لدرجة أنني خلت أنه مجرد ضباب؛ إلا أنه كان لا يزال بوسعي أن أميز الركاب الذين كانوا جميعاً ينظرون نحو الأسفل من دون أن تفتر شفتا أحدهم عن أي ابتسامة، وهكذا عرفت أنهم جميعاً كانوا يقرأون الجرائد بلا ريب، أو يشتغلون على حواسيبهم المحمولة، أو يستخدمون

هواتفهم النقالة. ولكن، ألم يشاهد أحد منهم ما كان يجري؟ ألم يلمح أحدهم صدفةً أختي وهي تتعارك مع لوكاس؟

يمكن أن يكون أحدهم قد شاهد ذلك، لكنه لم يعطِ الأمر أية أهمية؛ إذ كان الأمر ربما لا يعدو عن كونه مجرد شجار أو جدال، ومن الطبيعي أن يحدث ذلك في أي وقت.

أخذت عجلات القطار تصدر صريراً أثناء مروره بشكل سريع، فعدت لأنظر إلى آخر الزقاق، وإلى تلك النقطة التي يتصل فيها الزقاق بالشارع.

فرأيته هناك بالرغم من أنني كنت أستبعد فكرة معرفته بوجودي هنا، وبأنني قد اكتشفت المكان الذي يعيش فيه. غير أنه كان هناك، واقفاً عند آخر الزقاق، ومرتدياً تلك السترة ذات القلنسوة التي كان يرتديها حينما التقيته في إحدى المرات. أجل، إنه لوكاس.

شعرت بشيء ينفلت من عقاله داخلي، إذ كانت الموجة قد تعاظمت ولهذا تراجعت خطوة، ثم بدأت أقول: «ماذا...؟». لكنني عرفت حينها كيف وجدني.

وهنا صاح قائلاً: «أتعتقدين أنها كانت صدفة أن أسمح لك بأن تري ماذا كان يوجد ورائي؟ إنك امرأة ذكية يا جوليا، وكنت أعرف أنك ستكتشفين الأمر، كما عرفت أنك لن تؤجلي الموضوع إلى الغد».

سألته: «أين كونر؟ أين ابني؟».

فرد: «لا أدري عن ماذا تتحدثين».

وهنا قلت لنفسي: عليه اللعنة. ثم بدأت أتحرك؛ حيث امتدت يدي إلى حقيبتي من الخارج، ثم أصبحت داخلها، فشعرت بثقل المسدس وصلابته، وتساءلت إن كان المطر قد أصابه، ثم تذكرت أن هذا لا يهم، لأنني لم أكن أنوي استخدامه، بل كان علي أن أخيف لوكاس به. كان يجب عليّ أن أجعله يعتقد أنه بإمكاني أن أقتل، أي أن أقوم بشيء أصبحت على يقين الآن من أنه قام به يوماً ما.

وعندها قلت لنفسي: كلا، ثم استبعدت الفكرة نهائياً، وذلك حينما تراءى لي وجه كونر. غير أنني لم أكن قادرة على التفكير بكيت، وخاصة في هذا الوقت؛ إذ كان يجب عليّ أن أركز، كان علي أن أقنعه بإعادة ابني إلي، ثم الاعتراف بما اقترفته يداه. كنت أريد منه أن يكشف لي عن كل ما بداخله بطريقة

ما.

وهنا رفعت وجهي نحوه بكل تحدٍّ، فأخذت قطرات المطر تنهمر على وجهي، وقلت له:

«إنني أعرف ما فعلته».

فسألني: «وماذا فعلت؟ إن كنت تقصدين آنا؛ إذاً ما الذي فعلته بها؟».

هتفت: «هنا، إنني أعرف ما الذي حدث هنا. لقد كنت تتحاور مع كيت عبر الإنترنت، وأنت... أنت من أغراها بالمجيء إلى هنا، ثم قمت بقتلها...».

فأخذ يهز رأسه، غير أنني تابعت:

«أعرف أنك والد كونر. ولا يهمني ما قالته كيت عنك لآنا أو لي أو حتى لهيو، لأنك والد كونر».

وهنا، ضاقت عيناه وهو يقول: «لقد فاق جنونك كل توقعاتي، فأنا لم أتعرف على كيت مطلقاً».

هتفت: «كذاب». ثم حاولت أن أجعل صوتي ثابتاً وأنا أقولها مجدداً: «أنت كذاب».

فرد: «لا تكوني سخيفة. إنني لم...».

عندها، أخرجت يدي من حقيبتي، فسقط عنها القميص الصوفي، ورأى لوكاس المسدس، ففتح عينيه على اتساعهما وقال:

«تباً!».

في تلك اللحظة، شعرت بأن الغضب والغيظ اللذين كانا يغليان في عروقي قد وصلا إلى ذروتهما، وبأن تلك الموجة قد بدأت بالانفجار. لكنني لم أكن أستطيع الاستسلام لها؛ إذ لم يحن الوقت لذلك بعد، كما كان علي أن أبقي ذهني صافياً.

قلت له: «أنت من قتل كيت!». وهنا تحول غضبي الشديد إلى حمم بركانية أخذت تحرق ما حولها، لدرجة أنني كنت على وشك أن أفقد السيطرة عليها. وهكذا، مسحت قطرات المطر عن عيني بظاهر يدي التي كانت تحمل المسدس، ثم كررت قولي: «إنك أنت من قتل أختي!».

فتقدم خطوة نحوي وقال: «جوليا، استمعي إلي». وكانت نظرة الرعب ترتسم على ملامح وجهه، وغاب عنه ذلك التبجح المتعجرف، وعاد لوكاس

مـرة أخـرى، وأصبـح لوكاس؛ ذلك الرجل الذي عرفته يوماً. وبسـرعة، تذكرت تلـك المـرة التـي غضبـت منه فيها، وقلت له إننـي لـم أكن على يقين بخصوص مـا يجـري بينـا، كمـا لم أكن واثقة من أنني كنت أريد لعلاقتنا أن تسـتمر، فبدا لي خائفاً وقتها، واعتقدت يومها بأن خوفه ظهر لأنه يحبني، ولم أكن أعرف أن خوفه هذا في الحقيقة كان لأنني كنت على وشك الإفلات منه.

رفعت المسدس ووجهته نحو صدره، وفكرت بالضغط على الزناد، ورؤية تلك البقعة الحمراء على قميصه، وتمنيت للحظة لو أنني قمت بذلك.

سمعته يهتف: «ابتعدي عني!».

ثم جمد في مكانه، ورأيته وهو يحاول أن يفكر في ما يجب عليه القيام به. ومن المحتمل أنه كان يفكر بمباغتتي عبر الهجوم علي، ثم الإمساك بالمسدس. ومن المحتمل أيضاً أنه كان يظن أنني لن أقوم بالضغط على الزناد.

ثم كرر مقولته: «قلت: ابتعدي عني!».

بعـد ذلـك تراجـع خطوة إلى الـوراء، فبدا أقل يقيناً وثقة مما كان عليه؛ إذ لم يكن يدري ما الذي يجب عليه أن يفعله، ولهذا ألقى نظرة إلى الخلف؛ إلى المكان الذي أتى منه، ثم رفع بصره نحو شـقته، وكأن الجواب عن تسـاؤلاته سيهبط عليه من هناك.

وهنا قلت له: «هذا ما سيحدث». ثم ترددت لأنني كنت أحاول أن أهدئ من روعي، وتابعت: «سنصعد إلى شقتك، وسنطلق سراح آنا. بعد ذلك...»

فقاطعني بقوله: «اسمعي». وبدا لي صوته متوسلاً. وللحظة، رغبت في أن أصدق أنه كان بريئاً، وأن كل ذلك لم يحدث فعلاً.

ثـم تابـع: «لقـد كنـتِ مخطئة في كل تحليلاتك. فأنـا لم أقتل أختك لأنني لـم ألتقهـا طيلـة حياتـي؛ وكل ما هنالك أن آنا أخبرتني بأنها تعرف أنك ورثت بعض المال، وكانت تعتقد أنه يمكننا أن نحصل على...»

أخذت أوجه المسدس نحوه وأنا أقول له: «أنت تكذب».

فقال: «كلا. اسمعيني، آنا مجرد شيء عارض في حياتي، فقد تعرفت إليها عن طريق الإنترنت، كما التقيتك، وذلك منذ بضعة أشهر...»

هتفت: «اخرس!».

لكنه تابع: «... لم نكن ننوي الزواج؛ لأنها أخبرتني بأنه علينا أن نبتزك».

خطوت خطوة نحوه، وكانت إصبعي لا تزال على الزناد، فقلت له: «كفّ عن التمثيل والتظاهر بأن كل ما قمت به كان من أجل المال!».

ثم أغمضت عينيّ وفتحتهما مجدداً، لأنني كنت أريد أن أصدقه، وأن أصدق بأن الأمر لا يتعلق بكونر.

لكنه كان يتعلق بكونر، لأن ابني كان ضائعاً؛ ممّا يعني أن الأمر يتعلق به بكل تأكيد.

سألته: «أين كونر؟».

فرد: «كان ذلك جزءاً من اللعبة، فأنا لا أعرف أي شيء عن ابنك، وعليك أن تصدقي...»

وهنا صرخت به وقلت: «أين هو؟». فأخذ صوتي يرتد عن جدران الزقاق الباردة محدثاً صدى، لكن لوكاس راح يهز رأسه، فقلت له: «ابني مفقود، وأختي قتلت في هذا المكان بالضبط؛ تماماً حيث نقف، ثم تتوقع مني أن...»

فسأل: «ماذا؟!». وبدا لي مرتبكاً فعلاً.

فقلت له: «لقد توفيت هنا».

فأخذ يهز رأسه وهو يقول: «كلا، كلا».

عندها، أخذ الشك يساورني مرة أخرى؛ فقد أكون مخطئة، ولعل هذا مجرد خطأ.

لكنني صوبت المسدس نحوه؛ إذ لم أكن لأسمح له بأن يقنعني بتلك الأفكار مرة ثانية. غير أنني حينما نظرت إلى آخر الزقاق من فوق كتفه استطعت أن ألمح شخصاً يعبر الشارع ويقترب منا ببطء. أهو مجرد عابر سبيل؟ إذ لم يمر أحد من هنا طيلة فترة تواجدنا في هذا المكان.

بدا لي طيف ذلك الشخص شبيهاً بآنا، لكنني لم أكن أريد أن يلتفت لوكاس كي لا يراها، ولهذا قلت له:

«كف عن الكذب علي».

فقال: «صدقيني يا جوليا. إذ كيف لي أن أقتل شقيقتك حينما كنت في أستراليا، وأنت تعرفين ذلك».

فتجاهلت كلامه، غير أن شبح الشخص الذي كان يقترب منا أصبح وقتها تحت مصباح الشارع، وقد أصبت حين اعتقدت أنه آنا. وكان بوسعي ـ حتى

تحت ذلك الضوء الخافت _ أن أعرف أنها تعيسة؛ إذ كانت الرضوض تملأ وجهها، وكانت ثمة بقعة داكنة على قميصها الأبيض، ولا بد أن تكون تلك بقعة دم. ولهذا أخذت ألهث، ولم أستطع منع نفسي من ذلك، ثم هتفت: «آنا!».

عندها، التفت لوكاس لكنه لم يتحرك من مكانه، فأخذت آنا تهرول متجاوزة إياه، ثم وصلت إليّ وقالت بسرعة وحدة وأنفاسها متقطعة: «إن كل ما يقوله لك محض كذب يا جوليا. استمعي إلي... لقد قتل كيت... وقد اكتشفت ذلك... كان الخلاف على كونر... لكنه أجبرني على الكذب... وجعلني...»

وهكذا، سقط آخر بصيص أمل تعلقت به، فنظرت إلى عيني لوكاس، وتذكرت أنني كنت أحبه، أو على الأقل خلتني كذلك، لكنه كان قد قتل شقيقتي.

فهتفت: «إذاً، إنه أنت».

فقال: «لا تكوني سخيفة. لا تصدقيها يا جوليا! فأنا لم أقتل شقيقتك، وأقسم لك على ذلك...»

لكنني قاطعته بقولي: «أنت من قتلها». فجاء صوتي أقرب إلى الهمس، أما كلماتي فقد ضاعت تحت المطر، لكنني رغم ذلك تابعت: «ثم جعلتني أقع في حبك». وبعدها ترددت، إذ إن الكلمات كانت ترفض أن تخرج من فمي، ومع ذلك قلت: «لقد أحببتك، لكنك قتلت أختي، واستخدمتني كوسيلة للتقرب من كونر».

فهتف: «كلا». ثم تقدم خطوة نحو الأمام. كان المطر قد جعل شعره يلتصق بجبهته، فأخذ الماء يتساقط منه ويبلل جسده، وهنا قال: «لم أقتل أحداً، أقسم على ذلك». ثم نقل نظراته مني إلى آنا وخاطبها قائلاً: «ما الذي تفعلينه؟». وبعد ذلك، مد يده إليها، فحركت المسدس، فتراجع وهو يقول: «كيف تقولين إنني كذبت عليك فيما أنت من كذب علي؟!».

فرفعت المسدس، لكنه تابع القول مخاطباً آنا:

«أخبريها! أخبريها أنني كنت خارج البلاد تلك الليلة».

فأخذت آنا تهز رأسها وتقول: «لن أكذب من أجلك مرة ثانية». ثم أخذت تبكي وتابعت: «لقد كذبت على الشرطة، لكنني لن أفعل ذلك مرة أخرى. لقد أخبرتني أنك خارج البلاد، لكنك لم تكن كذلك. لذا، أنت من قتلها يا لوكاس، أنت من قتلها».

فـرد عليهـا: «كلا! كلا!». لكننـي بالكاد سـمعت صوته، لأن كل ما تمكنت من سماعه هو صوت آنا وهي تقول: أنت من قتلها.

بعد ذلك أخذ يخاطبني بقوله: «اسمعي، بوسعي أن أشرح...»

وعندهـا بـدأت يدي ترتجف لأن المسـدس كان ثقيـلاً، وأصبح زلقاً بفعل المطر، لكنني هتفت:

«أين كونر؟».

فلم يجب عن سؤالي أي منهما.

فكررته: «أين هو؟».

فنظرت آنا إلي وقالت: «جوليا»، وكان بوسـعي أن أرى الدموع في عينيها وهي تقول: «جوليا... إن كونر.. في الشقة، فلقد حاولت أن أحميه...»

وهنا نظرت إلى بقعة الدم التي كانت على قميصها، لكنها تابعت:

«لكننـي لـم أسـتطع. فقـد كنا بحاجة إلى سـيارة إسـعاف؛ إذ كان علينا أن ننقله إلى المشفى».

عنـد ذلـك، أخذ كل شـيء ينهار أمامي بصـورة أوتوماتيكية وتلقائية، وكأن ذلك كان مجرد ردة فعل انعكاسـية. كما توقف عقلي عن التفكير، فنظرت إلى المسدس الذي كنت أحمله في يدي، والذي يقف أمامه لوكاس.

ثم ضغطت على الزناد.

ما حدث بعد ذلك كان يفترض ألا يحدث. إذ مرت لحظة _ أو ربما كانت برهة؛ إذ لم يتمكن أحد من تمييز المدة _ سـاد فيها شـيء يشـبه السـكون، أو لنقل الجمود، إذ لم أشـعر حينها أنني قد اتخذت قراراً لا يمكن التراجع عنه، بـل شـعرت لوهلـة أنـه كان بمقدوري أن أتراجع عـن كل ذلك، ثم أدير ظهري لأتحول إلى شـخصية أخرى، أو أن أسـير على درب كان سـيوصلني إلى مصير ومستقبل آخرين.

غير أن المسدس أطلق النار، فارتفعت يدي نحو الأعلى بفعل قوة الإطلاق، ثم رأيت وميضاً، وبعده سمعت صوت جلبة. وقد كانت الضجة شديدة؛ لدرجة أن جسمي بأكمله قد تأثر حينما ارتد صدى دوي المسدس عن جدران الزقاق. غير أن كل ذلك اختفى بعد ثانية، ليحل محله إحسـاس فظيع بالخدر. وهكذا،

أخذت أنظر بصمت مطبق وبرعب إلى المسدس الذي كان بيدي؛ وكأنني لم أستطع أن أصدق ما فعلته به. وبعد ذلك، أخذت أنظر إلى لوكاس الذي كان يدور مبتعداً عني، ويداه على صدره. وحتى حينما التفت كان بوسعي أن أراه وقد فتح عينيه على اتساعهما من شدة الرعب، وخلال ثانية أو اثنتين أصبح ممدداً على الأرض باتجاه الجدار المقابل داخل الزقاق. وعندها، عادت إليّ حالة الجمود من جديد، فأخذت أسمع صوت طنين في أذني، إلا أن كل شيء آخر بقي ساكناً، فنظرت إلى المسدس. كانت هنالك رائحة خفيفة وجافة لكنها نفّاذة، لم تكن تشبه أي رائحة أخرى كنت أعرفها. لكن أحداً لم يتحرك من مكانه، ولم يحدث أي شيء، وعندها بدأت أحس بنبض قلبي.

بعد ذلك ظهرت بقعة حمراء على قميصه، وبدأ عالم الأصوات يعود بصخبه؛ إذ حدث كل ذلك في الوقت نفسه.

تراجعت نحو الخلف، فأحسست ببرودة الحائط خلفي، ثم أخذ لوكاس يتكلم، فكان صوته يأتيني عالياً بصورة غير طبيعية بعد عودة سمعي إلي في ذلك الحين. غير أن ذلك الصوت لم يكن أكثر من غرغرة واهنة في حلقه، ميزت منها قوله: «أيتها السافلة الغبية، لقد أطلقت النار عليّ بحقارتك!».

عندها، خانتني شجاعتي وتخلت عني كبريائي، وأخذت يدي تتجه نحو فمي.

كان يلهث وينظر إلى الدماء التي بدأت تتسرب من بين أصابعه، ثم أخذ يصرخ، لكنني لم أميز ما كان يقوله؛ إذ لم يكن صراخه سوى أنات متحشرجة. لكنه نقل بصره من صدره النازف إلى آنا، وعندها سمعت شيئاً يشبه الاسم، وبدا لي وكأنه اسم بيلا.

بدا لي هذا الاسم مألوفاً بشكل غامض، لكنني لم أتمكن من استحضار صاحبة هذا الاسم، فنظرت إلى آنا، إذ كنت أود أن أقول لها: ساعديني! ما الذي فعلته؟! لكنني وجدتها تنظر إليّ ببرودة، أما عيناها فقد توسعتا بفعل الصدمة، لكنها في الوقت ذاته كانت تبتسم نصف ابتسامة.

وهنا سمعته يقول مرة أخرى: «بيلا».

فردت عليه: «اخرس يا هذا». ثم تقدمت إلى الأمام، لكنها كانت تتحرك ببطء لأنها كانت هادئة إلى أبعد الحدود.

أخذت أنظر إليها، فلم أصدق ما كنت أراه، ولم أكن أعرف ما الذي يجب علي أن أقوله؛ إذ كنت أفتح فمي وأغلقه من دون أن أدرك ما أقوله، وعندها أخذت تنظر إلي.

بدأ عالمي ينهار، إذ لم أستطع أن أستنتج ما كان يحدث؛ حيث كان كل شيء يسطع أمامي وكأنني كنت أحدق بالشمس، إلا أنني تمكنت من تحديد المعالم والظلال، لأنه لم يكن هناك أي شيء راسخ وثابت، ولم يبدُ على كل ما حدث أنه كان حقيقياً.

وهنا هتفت: «أين كونر؟ أين هو؟».

فابتسمت آنا، لكنها لم تنبس بكلمة.

فسألتها: «لِمَ كل هذا يا آنا؟! ألسنا صديقتين؟».

فضحكت، وعندها بدأ الاسم الذي سمعته يطفو على السطح، فتذكرت أنني سمعته من قبل، وكنت أعرف أنني قد سمعت هذا الاسم: بيلا.

إلا أن كل ما هنالك هو أنني لم أستطع تذكر صاحبته. فأخذت أنظر إلى الجسد الممدد عند قدميّ، وهتفت في محاولة يائسة لطلب المساعدة: «لوكاس؟»، فرفع بصره نحوي، وهو يلهث. لقد كان وجهه شاحباً، ثم أطبق جفنيه وفتحهما مرة أخرى، فناديته: «لوكاس؟».

وهنا حاول أن يأخذ نفساً عميقاً آخر كي يتكلم، لكن الكلمات أتتني مكسرة، وهكذا فشل في أن ينطق بكلمة.

عند ذلك تكلمت آنا. ومع أنه كان من الصعب وصف حالتها، إلا أنها بدت وكأنها قد شرعت بالبكاء وهي تقول: «سيكون رجال الشرطة هنا خلال وقت قصير يا جوليا».

فنظرت إلى المسدس الذي كان بيدي، ثم إلى الرجل الذي أطلقت عليه النار للتو، وبدأت الحقيقة تتكشف؛ لكنها بقيت مشوهة ولم تصل إلى نقطة التركيز.

هتفت: «لم أكن أقصد قتله».

فقالت: «إنك لم تقصدي ذلك قط».

فهتفت: «ماذا؟!».

فتابعت: «ومع ذلك، لا يزال الناس يموتون».

لم أكن أعرف ما الذي كانت تعنيه، فسألتها: «ماذا؟ آنا!».

فردت علي بالقول: «أوه يا جوليا، ألم تستنتجي ذلك بعد؟!».

عندها، بدأت بالبكاء والنحيب وأنا أقول: «إنه مسدسك... مسدسك أنت. وأنت من أخبرني بمكان وجوده».

فردت: «لكنني لم أقم بالضغط على الزناد».

قلت: «لقد قتل شقيقتي!».

فابتسمت، ثم تقدمت نحو الأمام، فأصبحت تحت الضوء حين قالت: «كلا، لم يفعل ذلك».

جاءني صوتها بارداً للغاية، أما كلماتها فكانت حادة بما يكفي لتقطيع أوصال جسد بكامله.

هتفت: «ماذا؟!».

فردت: «كانت قد خرجت لملاقاتي أنا تلك الليلة، لأنني قلت لها إننا كنا بحاجة إلى مناقشة الأمور، ولكن ليس هنا...» ثم نظرت إلى لوكاس الذي كان ممدداً على الأرض بصمت، وتابعت: «بل في شقته، إذ أخبرني أنه يمكننا أن نذهب إليها».

هتفت: «ماذا؟».

فأكملت: «لكنها تأخرت، إذ بقيت لتناول كأس أخرى، وهكذا صادفتها هنا، حيث نقف أنا وأنت الآن بالضبط».

هتفت: «صادفت كيت؟».

فهزت رأسها إيجاباً ثم قالت: «وقلت لها إن الوقت قد حان؛ فقد جربنا كل شيء لكنك بقيت مصرة على عدم إعادة كونر إليها، ولهذا أخبرتها بأنه علينا أن نطلعك على الحقيقة».

وهنا اجتاحتني موجة من الذعر فغطتني بالكامل، وشعرت بها تلتف حول رقبتي، ولهذا أخذت أستنشق الهواء بصعوبة.

ثم قلت: «أكنت أنت من أقنعها بذلك؟».

ردت: «أجل. ولهذا قلت لها إنه يتعين علينا أن نخبرك عمن كان والد كونر، وأن لدى كونر أسرة يمكنها أن تعتني به، وليس فقط كيت».

نظرت مرة أخرى إلى لوكاس وهتفت: «أهو أبوه؟».

فردت: «لا تكوني سخيفة. إنه مجرد رجل كنت على علاقة معه». ثم أخذت تهز برأسها وهي تقول: «أعني أنا».

تراجعت خطوة نحو الوراء، فسقط المسدس إلى جانبي؛ إذ لم أكن أصدق ما كنت أسمعه.

قلت: «ولكن...»

فقالت: «لم تكن تصغي إلي. فقد أخبرتني بأنها لن تقول لك الحقيقة لأن ذلك سيسبب لك جرحاً كبيراً». ثم أخذت تهز رأسها، وبعد ذلك تابعت بقولها: «وكأن الجرح الذي ستشعرين به كان يهمنا أصلاً بعد كل ما فعلته. وهكذا تعاركنا».

سألتها: «ماذا؟ أتعاركت معها؟».

فقالت: «لكنني لم أكن أقصد أن أدفعها».

فقلت: «أنت من قتلها!».

نظرت إليّ ورفعت ذقنها بتحدٍّ، فشعرت بكراهيتها التي كانت متجسدة بشكل بغيض ومقرف؛ إذ كانت تخترقني لتصل إلى أعماقي. ولهذا، حينما نظرت إليّ شعرت بأنني أشمئز منها.

وهنا قالت: «لقد دفعتها، فارتطم رأسها بالأرض. فقد كنت غاضبة، وكنت أريد أن أكف عن ذلك، لكن...» ثم أخذت تهز كتفيها بلا مبالاة وهي تقول: «لم أكن أعرف أنها كانت ميتة عندما تركتها. لكن أجل، تركتها هنا، ثم ذهبت إلى شقته». وهنا نظرت مرة أخرى إلى لوكاس، ثم تابعت: «وفي اليوم التالي، اكتشفت أنها كانت ميتة، ففرحت بذلك. هل تعرفين هذا؟ لقد شعرت بالسعادة لأنني تركتها في هذا المكان وحيدة».

وهنا تحول نحيبي إلى دموع حارقة أخذت تسيل على وجهي، ولذلك رفعت المسدس.

لكنها تابعت: «لقد كنت سعيدة لأن ذلك ما فعلتِه أنت بأخي بالضبط».

هتفت: «ماذا؟!». فتراءت لي صورة لآخر مرة انحنيت فيها فوق جث؛، فوق رجل يموت، ثم وصلت تلك الصورة أخيراً إلى نقطة التركيز لدي، فتذكرت اسم شقيقة ماركوس وهتفت:

«بيلا... أنت بيلا».

وأصبحت الآن أرى الأمور التي لم أتمكن من رؤيتها طيلة الوقت؛ تحت نور مصابيح معينة ومن زوايا معينة. لقد كان فيها بعض الشبه من أخيها.

وفجأة، عاد بي الزمان إلى هناك، فرأيته في تلك الليلة حينما كان وجهه شاحباً بعد أن انقطعت الدماء عنه، إلا أن العرق كان يغطيه، فبدا لي غير حقيقي بطريقة ما، وكأنه مصنوع من المطاط. كان لعابه قد أحاط بفمه، ورأيت بعض القيء على الأرض. عندها، قالت فروستي: «ارحلي!».

فقلت: «كلا، لا أستطيع».

فنظرت إليّ وفي عينيها دموع ثم قالت: «عليك أن ترحلي، فإذا وجدت أي منا هنا...»

هتفت: «كلا».

غير أنها أكملت جملتها: «...فسيكون أمرنا قد انتهى». ثم وقفت وعانقتني وهي تقول: «لم يعد بوسعنا الآن أن نفعل أي شيء لماركي يا حلوتي، بعدما رحل، أجل لقد رحل».

قلت: «كلا!».

فتابعت قولها: «... والآن عليك أن ترحلي أنت أيضاً».

عند ذلك، تمكنت من رؤية الحقيقة. فقد دمرت حياة أشخاص بسبب بقائي مع رجل كان الأوان قد فات على مساعدته.

قلت: «ولكن....»

فقالت: «أعدك بإخبارهم أنه هنا». ثم طبعت قبلة على جبهتي وقالت: «ارحلي، اذهبي الآن! واعتني بنفسك!».

بعد ذلك عادت إلى ماركوس. وبعدما ألقيت النظرة الأخيرة على جثمانه، استدرت وتركته ورائي.

نظرت إلى المرأة التي كنت أعتقد أنها صديقتي آنا؛ إلى تلك المرأة التي كانت تمثل دور حبيبة ابني، وقلت: «إنك شقيقة ماركوس».

لم ترد، فبدأت يداي ترتجفان، لكنني صحت بها:

«انظري، إنني لا أعرف بماذا تفكرين...»

فهتفت: «لقد كان ماركوس سيعود إلى البيت، هل تعرفين هذا؟ وكنا سنعتني به لأننا كنا نحبه، ولأننا أسرته وأهله، لأننا لسنا أنت؛ فأنت لم تكوني

معه هناك، بل تركته».

فقلت لها: «لقد أخذ جرعة زائدة يا آنا! وقد لا يعجبك ذلك، إلّا أنها الحقيقة. إذ كان قد بقي من دون مخدرات لأسابيع، ثم أخذ أكثر مما يستطيع جسمه تحمله. لم يكن أي كان مسؤولاً عمّا حصل له».

سألتني: «هل هذا صحيح؟». وأخذت تهز رأسها ببطء، أما عيناها فكانت قد ضاقتا وتجلى فيهما إحساس بالمرارة، ثم قالت: «لقد كنت تبيعين الصور الضوئية التي كنت تلتقطينها لتشتري له المخدرات، إنني أعرف ذلك...»

هتفت: «كلا، كلا».

لكنها تابعت: «ثم حينما لم يعد بمقدوره تعاطي المخدرات، وقام بتناول جرعة زائدة تركته يموت».

هتفت: «كلا. فقد كنت أحبه، كنت أحب ماركوس...» وكنت أقول ذلك وأنا أبكي، وكان جسمي متشنجاً، فاختلطت دموعي بماء المطر الذي كان يسيل على وجهي، ثم قلت لها: «لم أحب أحداً في حياتي كما أحببته».

وهنا التقت نظرتها الباردة بنظرتي، فقلت:

«حتى إنك لم تعرفي بما حدث، فقد كان ميتاً قبل أن أصل إليه، وكان علي أن أغادر. لقد كان ماركوس... لقد كنا... كان علي أن أغادر وقتها».

لكنها قالت: «لقد تركته هناك ليموت على الأرض وهربت، وعدت إلى بلدك لتبدئي حياة جديدة في بيتك الصغير الجميل، مع زوجك الناجح الحقير، ومع ابنك؛ حبيبي كونر».

هتفت: «كونر... أين هو؟».

فقالت: «لقد أخذت كل شيء مني، فوالدتي انتحرت شنقاً...»

فوجهت المسدس نحوها ثم قلت: «أين هو؟».

فقالت: «وبعدها توفي والدي أيضاً. وكان يجب أن تسجني بسبب ما اقترفته يداك». ثم توقفت قليلاً وأمالت رأسها، ومع صوت الأمطار الغزيرة كان بوسعي أن أسمع صوت صفارات الإنذار، فقالت لي: «والآن جاء دورك لتنالي جزاءك العادل. فها قد أتى رجال الشرطة ليأخذوك».

وهنا صرخت وقلت: «ما الذي فعلته بابني؟».

فردت بقولها: «أتقصدين كونر؟ لم أفعل به شيئاً، وما كنت لأؤذيه؛ لأنه

الإنسان الوحيد الذي بقي لي في هذه الحياة».

وأخيراً استوعبت الفكرة، فهتفت: «أهو ماركوس؟ هل ماركوس والد كونر؟».

غير أنها لم تنبس بكلمة. لكنني بقدر ما كنت أرغب بعدم تصديق ذلك، كنت متأكدة من أنها الحقيقة؛ فقد اكتملت الصورة. ولا بد أن يكون ذلك قد حدث حينما جاءت كيت لزيارتي، قبل وفاة ماركوس مباشرة.

وهنا أخذت تهز برأسها وهي تقول: «لم أكن أعرف أن لديه طفلاً، لكن كيت أخبرتني بكل شيء عن كونر خلال السنة الماضية. إذ حدثتني كيف حملت به حينما زارت شقيقتها في برلين، وأن أختها لم تعرف بذلك حتى الآن. ولم يخطر ببالي أنها كانت تتحدث عن ماركوس، لكنها أرتني بعد ذلك صورة لكما معاً. كنت على وشك أن أخبرها بأن ماركوس أخي، لكنني قررت ألا أبوح لها بذلك. أتعرفين لماذا؟ لأن كل شيء أصبح واضحاً في نهاية الأمر. فبعد كل تلك السنين، عرفت الآن من هي تلك السافلة التي تركته ليموت». ثم أخذت تحدق بي، وبعدها قالت: «لقد كنت أنت تلك السافلة يا جوليا، ثم جئت أنا لأعيش مع شقيقتك». وهنا أخذت تهز رأسها، وقالت: «وهكذا، بدأت أرى تلك الصورة في كل مكان...».

أخذت أقول لها: «إن آذيت ابني...»

فهتفت: «إنه ابن أخي، وأنا أريده يا جوليا، إذ لا يمكنه أن يبقى معك. انظري إلى نفسك، وفكري بما فعلته. إنك لا تصلحين لكي تكوني أماً له، ولدي أدلة على ذلك؛ إذ أرسلت مقاطع الفيديو إلى هيو، وإلى كل الناس، فأصبح الجميع يعرفون الآن كم كنت وضيعة ورخيصة».

إذاً، هذا كل ما هنالك؛ إذ كان الأمر يدور حول استعادة كونر طيلة الوقت، وليس حول الاستيلاء على المال.

أخذت أنظر إلى لوكاس الذي اعتقدت أنه كان يبتزني. لقد كان ممدداً على الأرض بلا حراك، وكانت عيناه اللتان لن تريا أي شيء إلى الأبد جاحظتين.

سمعت صوت سيارة وهي تقف، ثم سمعت صوت بابها يفتح، لكنني لم أجرؤ على الالتفات إلى الوراء، بل نظرت إلى المسدس في يدي، وكأنه لم تكن لي أية علاقة به.

لقد كان ميتاً؛ ذلك الرجل الذي كان لديه الدليل حول كل ما كان يجري كان ميتاً، وأنا قتلته بيدي.

وهنا هتفت آنا: «أيتها السافلة». ثم تقدمت نحوي، وأصبحت قريبة مني بما يكفي لتلمسني. وكان بإمكاني سماع وقع خطوات وهي تقترب منا، ولذلك خاطرت بإلقاء نظرة خاطفة من فوق كتفي، فوجدت سيارتَي شرطة واقفتين، ورأيت هيو وهو يترجل من السيارة الأولى مع ثلاثة أو أربعة من رجال الشرطة. كانوا جميعاً يتصايحون بمزيج من الفرنسية والإنكليزية، غير أن صوت هيو كان الصوت الوحيد الذي استطعت تمييزه. وعندها سمعته ينادي: «جوليا... جوليا! ضعي المسدس على الأرض».

نظرت إليه، ثم تمكنت من رؤية شخص آخر في السيارة التي كانت خلفه، فانتابتني حالة من الارتياح حينما أدركت أن ذلك الشخص كان كونر، وكان ينظر إلي، إلا أنه بدا لي تائهاً وحائراً. لكن، يكفي أنه كان حياً يرزق، وأن آنا كانت تكذب، وأنه أصبح في أمان. إذ لا بد أن هيو قد وجده وهو يتجول في محطة الشمال؛ تماماً كما ادعت آنا أنها فعلت، أو لعله كان قد عدل عن قراره أخيراً وقام بتشغيل هاتفه ثم اتصل بأبيه.

سمعت هيو ينادي مرة أخرى: «جوليا!». ثم انسل جانباً، ووقف في موضع معين بعدما سبقه رجال الشرطة وانحنوا على الأرض وأخذوا يوجهوا بنادقهم نحوي، فنظرت إلى آنا وقلت:

«إنها من قتل كيت!».

فتكلمت آنا بهدوء مفرط، حيث يمكن للجميع أن يسمعها إلا أنا:

«ما أنت سوى مدمنة وسافلة وقاتلة».

كنت لا أزال أنظر إلى زوجي، فتذكرت ما قاله لي عبر الهاتف في طريقه إلى هنا. حيث تذكرت أنه قال لي: والد كونر قد توفي؛ مما يعني أنه كان يعرف. ولا بد أن كيت قد أخبرته بذلك فاحتفظ بالسر لنفسه.

نظرت إلى آنا مجدداً، إذ كنت أعرف أنها تقول الحقيقة، وأنها أرسلت الصور إلى هيو.

فابتسمت، وقالت:

«لقد دمرت كل شيء. لقد دمرت حياتك يا جوليا، والآن لا بد أن تخسري

ابنك».

فشرعت أقول: «كلا...» لكنها أسكتتني بقولها:

«لقد قضي الأمر يا جوليا».

وهنا رفعت المسدس، فصاح بي رجال الشرطة، كما أن هيو قال شيئاً لكنني لم أستطع تمييزه. كنت أعلم أنها على حق. لكن، مهما حدث، فقد كان الأمر قد قضي الآن، ولم يعد هناك أي سبيل للرجوع عن ذلك. لقد أحببت شخصاً لم يكن زوجاً لي، لقد أحببت شخصاً ثم أطلقت النار عليه، وهكذا لم يكن بمقدوري التراجع عما فعلته. أما حياتي ـ حياتي الثانية ـ التي هربت إليها حينما فررت من برلين، فقد كانت قد انتهت.

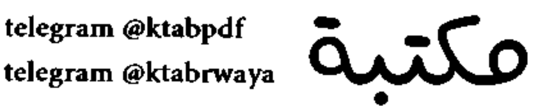
هتفت: «يجب أن أقتلك».

فقالت: «إذاً قومي بذلك».

أغمضت عينيّ؛ إذ كان ذلك ما تريده، وكنت أعرف هذا، وكنت أعرف أنني إن قتلتها فستكون هي التي هزمتني. لكنني لم أكن لأهتم بذلك بعدما خسرت هيو، وكنت على وشك أن أخسر كونر؛ أي إنّ ذلك لم تعد له أي صلة بالموضوع.

أخذت يدي ترتجف، إذ لم أكن أدري ما الذي كنت سأفعله. كنت أريد أن أطلق النار، لكنني لم أفعل ذلك في الوقت ذاته؛ إذ لعل الأوان لم يفت، أو لعله يمكنني أن أثبت أن بيلا هي التي قتلت شقيقتي، وأنها خدعتني فكانت النتيجة أنني أطلقت النار على لوكاس، غير أنني لم أتمكن من معرفة الأثر الذي سيتركه كل ذلك. إذ كان يمكن وصف لوكاس بأي شيء باستثناء أنه قاتل، أما أنا فقد قتلت رجلاً بريئاً، ولم يكن يهم كثيراً إن كنت قد فعلت ذلك عامدة أم لا، إذ لم أعد قادرة على البقاء على قيد الحياة بأي حال من الأحوال.

وهنا فتحت عينيّ؛ فمهما جرى بعد ذلك، وسواء أأطلقت النار أم لم أقم بذلك، إلا أن كل شيء كان قد انتهى، وقضي الأمر.



لمحة عن الكاتب

لقد أحرزت رواية س. ج. واتسون الأولى والتي حملت عنوان: قبل أن أخلد إلى النوم، نجاحاً منقطع النظير على المستوى العالمي، فتحولت إلى واحدة من أكثر الروايات مبيعاً في مختلف بقاع العالم، ثم فازت بجائزة رابطة أدباء الجريمة عن أفضل رواية أولى بالنسبة إلى صاحبها، وكذلك بجائزة غالاكسي للكتاب الوطني عن أفضل قصة جريمة مثيرة خلال عام. أما الفيلم الذي تم تصويره بناء على أحداث هذا الكتاب، فكان من بطولة نيكول كيدمان وكولن فيرث ومارك سترونغ، وقد قام بإخراجه رووان جوفي، وعُرِض لأول مرة في شهر أيلول عام 2014.

هذا وقد ولد س. ج. واتسون في إحدى المقاطعات الإنكليزية التي تقع وسط بريطانيا، وهو الآن يعيش في لندن.

تعيش جوليا حياة مريحة ومرفهة؛ بالرغم من أنها عادية ولا شيء مميز فيها، إلا أن مقتل شقيقتها بطريقة وحشية نكأ جروحها القديمة، فوجدت نوعاً من العزاء والسلوان عن طريق صوفي التي كانت أعز صديقة لدى شقيقتها الراحلة. ولكن حين كشفت صوفي خفايا حياة شقيقة جوليا على شبكة الإنترنت، اقتنعت جوليا بأن حقيقة مقتل أختها تقبع في مكان ما ضمن العالم المظلم والقذر لغرف الدردشة والعبث على شبكة الإنترنت.

وهكذا، سرعان ما تحوّلت جهود جوليا التي بدأت كمحاولة للبحث عن حقيقة مقتل شقيقتها إلى عملية استكشاف للذات وأعمق الرغبات. وفي نهاية الأمر، تصبح شبكة الإنترنت ملعبها. فلِمَ يتعين على المرء البقاء ضمن إطار واحد إن كان بوسعه أن ينتقل من مجال إلى آخر كما يحلو له؟ وما الذي يمكن أن يحدث؟ فالأمر لا يتعدى العبث الإلكتروني، أليس كذلك؟ إذاً، لن يتضرر أحد بفعل ذلك.

غير أن جوليا تلتقي بعد ذلك بلوكاس – ذلك الشخص الغامض والغريب – عبر أحد المواقع الموجودة على شبكة الإنترنت، وعندها تبدأ الأمور بالسير في منحى خطير للغاية.



يعيش الكاتب **س. ج. واتسون** في لندن، وقد عمل لبضع سنوات في مجال الخدمات الصحية الوطنية. وفي عام 2009، تم قبول واتسون في أول دورة لكتابة رواية لدى أكاديمية فابر، وهذه الدورة عبارة عن برنامج صارم وانتقائي يشمل جميع نواحي عملية كتابة الرواية، فظهرت بالنتيجة روايته الأولى: «قبل أن أخلد إلى النوم».

مكتبة ٣٦٠

صدر للمؤلف أيضاً:



ISBN 978-614-01-1535-4







الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com